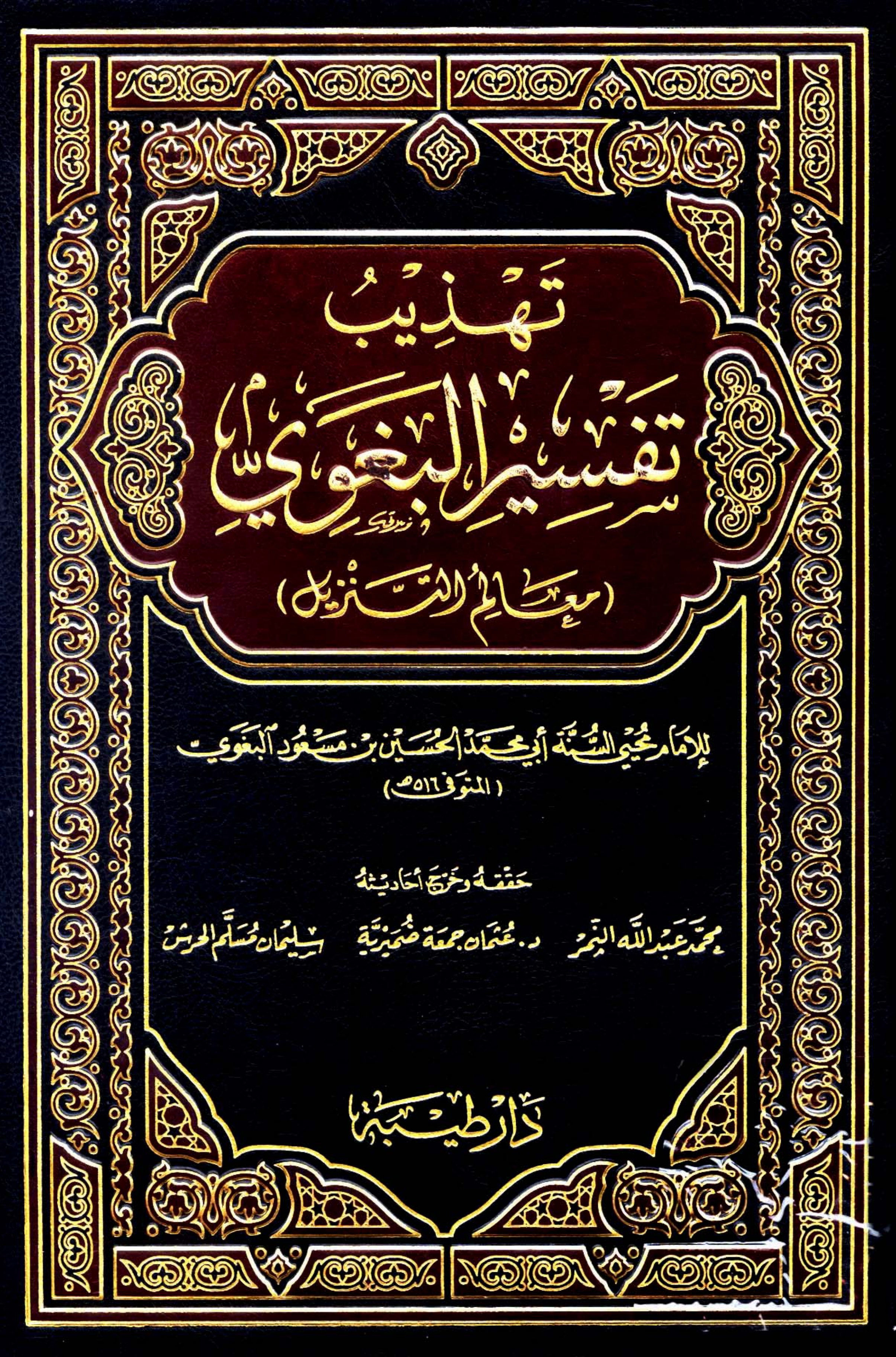


تهذيب
تفسير البغوي
(معالم التنزيل)
للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي
(المتوفى ٥١٦هـ)
حققه وخرج أحاديثه
محمد عبد الله النمر
د. عثمان جمعة ضميرية
سليمان مسلم الحرش
دار طيبة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البغوي ، الحسين بن مسعود

تهذيب تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل). الحسين بن مسعود البغوي ؛ سليمان مسلم الحرش - الرياض ، ١٤٣٠هـ

١٣٤٣ص ؛ ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٩ ـ٤٥ـ٨٠٠٣ ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير بالمأثور أ - الحرش ، سليمان مسلم (محقق)

ب.العنوان

ديوي: ٢٢٧,٣٢ ١٤٣٠ / ٣٥٧٣

رقم الإيداع: ٣٥٧٣ / ١٤٣٠

ردمك: ٩ -٤٥ -٨٠٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبعَةُ الأولىٰ

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي

ش. السويدي العام - غرب النفق - ص. ب ٧٦١٢

الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ (٦ خطوط) فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فإن تفسير «معالم التنزيل» للإمام محيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى سنة (٥١٦)، من أجلِّ كتب التفسير وأعظمها قدرًا، وأقربها إلى الكتاب والسنة، وأكثرها سلامة من البدعة والأحاديث الضعيفة، مما أنطق علماء الأمة بالثناء عليه.

وقد سلك البغوي ـ رحمه الله ـ في تفسيره هذا منهجًا قويمًا في بيان معاني القرآن الكريم؛ حيث يفسِّر القرآن بالقرآن أو بالحديث أو بالأثر، ويكتفي باللفظ الموجز السَّهل دون تكلّف ولا تطويل، ويجمع بين الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد، ويُعْنى بالقراءات، ويعرض رأي أهل السنة وينتصر لهم، دون أن يهمل آراء مخالفيهم، كما يتناول الأحكام الفقهية ويبسط أراء الفقهاء أحيانًا، ويوجز في أحيان أخرى. وقد جاء تأليف هذا التفسير استجابة لسؤال جماعة من أصحابه المخلصين اقتداءً بالماضين من السَّلَف في تدوين العلم إبقاء على الخلف، فجمع ـ بعون الله وتوفيقه ـ كتابًا وسطًا بين الطويل المملِّ والقصير المخلِّ، يرجو بذلك أن يكون مفيدًا لمن أقبل على تحصيله مريدًا. وقد ساق فيه الأحاديث والآثار بإسناده، وكان له طريقة جميلة في الإسناد فيما نقله عن الصحابة والتابعين؛ حيث ذكر أسانيده لهم في أول الكتاب بما يغني عن التطويل عند الرواية عنهم.

وكان من فضل الله تعالى علينا أن هيأ لنا أسباب تحقيق هذا التفسير تحقيقًا علميًا، وقامت دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض ـ مشكورة مأجورة إن شاء الله تعالى ـ بنشره منذ عام ١٤٠٩هـ، وصدرت له ست طبعات في ثمانية مجلدات، ثم أعدنا النظر في التحقيق في ضوء ما صدر من طبعات جديدة لبعض المصادر من تراثنا العظيم، وعندئذ قامت دار طيبة بإعادة صف الكتاب وإخراجه إخراجًا جديدًا في أربعة مجلدات عام ١٤٢٣هـ. وقد نال حظًا وافرًا ـ بحمد الله تعالى ـ من العناية والتصحيح والإخراج.

ونزولًا عند رغبة كثير من القراء وطلاب العلم، رأت دار طيبة أن نختصر هذا التفسير ليكون أسهل تناولًا لمن يبتغي الوصول إلى تفسير الآيات بأقرب طريق دون أن يكون بحاجة إلى معرفة الأسانيد والإكثار من الروايات، واختلاف القراءات، ونحو ذلك، فجاء هذا المختصر تلبية لهذة الرغبة، وتحقيقًا لتلك الغاية، مع المحافظة على عبارة المصنف ـ رحمه الله ـ وأسلوبه وطريقته، فكان عملنا في هذا التلخيص محصورًا في: الاكتفاء ببعض الروايات والأحاديث الصحيحة والمقبولة عند تعددها، واختصار السند مع الإبقاء على اسم الصحابي في الرواية، وحذف الروايات المنقولة عن

أهل الكتاب (الإسرائيليات)، وما لا يحتاج إليه القارئ العادي من الآراء الفقهية التي مظانُّها كتب الفقه، وكذلك القراءات التي تهم المختصين دون عامة القراء، إلا ما لا بدَّ منه في التفسير.
وكذلك اقتصدنا كثيرًا في تخريج الأحاديث الشريفة، بالإشارة إلى مصدر التخريج بإيجاز، وما كان في الصحيحين أو في أحدهما نكتفي بالعزو إليه ولا نخرجه من غيره.

ونسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه متقبلًا عنده، وأن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجزي كل من ساهم في نشره خيرًا على ما بذلوا من جهد. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«ترجمة الإمام البغوي»(١)

هو الإمام الحافظ، الفقيه المجتهد، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفرَّاء البغوي الشافعي، ويلقب بركن الدين. أحد العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز والسنة النبوية بالعكوف على دراستهما، وتدريسهما، وكشف كنوزهما وأسرارهما، والتأليف فيهما.

والفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.

والبغوي: بفتح الباء الموحدة، والغين المعجمة وبعدها واو، هذه النسبة إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها «بغ» و«بَغْشُوْر» وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل، هكذا قال السمعاني في كتاب «الأنساب».

مولده:

إن معظم المصادر التي ترجمت له لم تشر إلى السنة التي ولد فيها، غير أن ياقوت الحموي قال في معجم البلدان: إنه ولد سنة (٤٣٣هـ)، أما الزركلي فأشار في الأعلام إلى أنه ولد سنة (٤٣٦هـ).

من شيوخه:

١- فقيه الشافعية وشيخهم القاضي حسين بن محمد المَرْوَزي(٢).

٢- عبدالواحد بن أحمد بنأبي القاسم المليحي، الهروي(٣).

٣- أبو بكر محمد بن عبدالصمد الترابي المروزي، الشيخ الجليل، المعمر، مُسنِد خراسان(٤).

٤- أبو بكر يعقوب بن أحمد الصيرفي النيسابوري، الثقة المُسنِد توفي سنة (٤٦٦)هـ(٥).

من تلاميذه:

١- الشيخ منصور محمد بن أسعد بن محمد حفده العطاري، توفي (٥٧١) هـ(٦).

٢-الواعظ المحدث أبو الفتوح محمد بن أبي جعفر محمد بن علي بن محمد الطائي الهمداني(٧).

٣- الحسن بن معسود البغوي أبو علي أخو الإمام الحسين البغوي تفقه على أخيه(٨).

---

(١) **بعض المراجع التي ترجمت للبغوي من أهمها:** مرآة الجنان: ٣/ ٢١٣، وفيات الأعيان: ٢/ ١٣٦، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩ - ٤٤٣، طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٧٥ - ٨٠، البداية والنهاية: ١٢/ ١٩٣، طبقات الحفاظ ص ٤٥٧، طبقات المفسرين ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) شذرات الذهب ٣/ ٣١٠، العبر ٢/ ٣٤١٢، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦١، وفيات الأعيان ٢/ ١٣٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٥٥، شذرات الذهب ٣/ ٣١٤، العبر ٢/ ٣١٥.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٥١. اللباب: ١/ ٢١٠.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٣/ ١١٦٠، العبر: ٢/ ٣٢١، شذرات الذهب: ٣/ ٣٢٥، سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٤٥.

(٦) شذرات الذهب: ٤/ ٢٤٠، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٩٩، سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٥٣٩.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٣٦٠، شذرات الذهب: ٤/ ١٧٥، العبر: ٣/ ٢٥، كشف الظنون: ١/ ٥٦.

(٨) طبقات الشافعية للأسنوي: ١/ ٢٠٧. وطبقات الشافعية للسبكي: ٤/ ٢١٢.

عقيدته:

والإمام البغوي من أئمة السلف الصالح، الذين تقيدوا بالكتاب والسنة، في مفهوم الاعتقاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته. قال ابن شهبة في طبقات الشافعية (١/ ٣١٠): (وكان دينًا، عالمًا، عاملًا على طريقة السلف). وقال طاش كبرى زاده في مفتاح السعادة (٢/ ١٠٢): (كان ثبتًا حجة، صحيح العقيدة في الدين).

صفاته وثناء العلماء عليه:

لقد تحلّى الإمام البغوي، رحمه الله، بصفات ومزايا كان لها أكبر الأثر في تسميته بلقب «محيي السنة، والإمام» وغير ذلك من الصفات التي أثبتها له كل من ترجم له. فهو إمام في كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إمام في مذهبه الذي نشأ عليه، المذهب الشافعي، إلا أنه لم يتعصب لإمامه، بل كان يتتبع الدليل، وأخذ يدعو إلى الاعتصام بالوحيين كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ اللذين هما أصل الدين ومنهما يصدر كل أمر شرعي.

قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: (كان البغوي يلقب بمحيي السنة، وبركن الدين، وكان سيدًا، إمامًا، عالمًا علامة، زاهدًا، قانعًا باليسير).

وقال السيوطي في طبقات المفسرين: (كان إمامًا في التفسير، إمامًا في الحديث، إمامًا في الفقه).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وكان علامة زمانه، وكان دينًا ورعًا، زاهدًا، عابدًا، صالحًا).

من آثاره:

١- التهذيب: في فقه الإمام الشافعي.
٢- معالم التنزيل: والمعروف: بـ «تفسير البغوي» وهو أصل كتابنا هذا: تهذيب تفسير البغوي.
٣- شرح السنة: تضمن كثيراً من أحاديث المصطفى ﷺ.
٤- مصابيح السنة: جمع فيه طائفة من الأحاديث محذوفة الأسانيد.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى بَمرْو الرُّوذ. مدينة من حدائق خراسان، في شوال سنة ستَّ عشرة وخمس مائة للهجرة، ودفن بجانب شيخه القاضي حسين، وعاش بضعًا وسبعين رحمه الله تعالى.

سورة فاتحة الكتاب

سميت فاتحة الكتاب: لأن الله بها افتتح القرآن. وسميت أُم القرآن وأُم الكتاب: لأنها أصل القرآن منها بدىء القرآن، والسبع المثاني؛ لأنها سبع آيات باتفاق العلماء، وسميت مثاني لأنها تثنى في الصلاة، وهي مكية على قول الأكثرين، وقال مجاهد: مدنية، وقيل: نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ والاسم هو: المسمى وعينه وذاته، ثم يقال للتسمية أيضًا: اسم، فاستعماله في التسمية أكثر من المسمى، فإن قيل: ما معنى التسمية من الله لنفسه؟ قيل: هو تعليم للعباد كيف يفتتحون القراءة.

قوله تعالى: «ٱللَّهِ» هو اسم علم خاص لله عزَّ وجلَّ لا اشتقاق له، كأسماء الأعلام للعباد، مثل: زيد وعمرو، وقال جماعة: هو مشتق، ثم اختلفوا في اشتقاقه؛ فقيل: من أله إلاهة، أي: عبد عبادة، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما -: «وَيَذَرَكَ وإلاهَتَكَ» [الأعراف: ١٢٧]، أي: عبادتك - معناه: أنه مستحق للعبادة دون غيره، وقيل: أصله إله، قال الله عزَّ وجلَّ: «وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ» [المؤمنون: ٩١]، قال المبرِّد: هو من قول العرب: ألهت إلى فلان، أي: سكنت إليه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر. واختلفوا فيهما، منهم من قال: هما بمعنى واحد، ومعناهما: ذو الرحمة، وذكر أحدهما بعد الآخر تطميعًا لقلوب الراغبين، وقال المبرد: هو إنعام بعد إنعام، وتفضُّل بعد تفضُّل، ومنهم من فرق بينهما فقال: «الرحمن» بمعنى العموم، و«الرحيم» بمعنى الخصوص.

واختلفوا في آية التسمية؛ فذهب قراء المدينة والبصرة وفقهاء الكوفة إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب ولا من غيرها من السور، والافتتاح بها للتيمن والتبرك. وذهب قراء مكة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز إلى أنها من الفاتحة وليست من سائر السور وأنها كتبت للفصل، وذهب جماعة إلى

أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلا سورة التوبة، وهو قول الثوري وابن المبارك والشافعي؛ لأنها كتبت في المصحف بخط سائر القرآن.

واتفقوا على أن الفاتحة سبع آيات، فالآية الأولى عند من يعدها من الفاتحة «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» وابتداء الآية الأخيرة «صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ» ومن لم يعدها من الفاتحة قال ابتداؤها: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» وابتداء الآية الأخيرة «غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ».

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لفظه خبر، كأنه يخبر أن المستحق للحمد هو الله عزَّ وجلَّ، وفيه تعليم الخلق، تقديره: قولوا الحمد لله، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة، ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة. يقال: حمدت فلانًا على ما أسدى إليَّ من النعمة، وحمدته على علمه وشجاعته، والشكر لا يكون إلا على النعمة، فالحمد أعم من الشكر؛ إذ لا يقال: شكرت فلانًا على علمه، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامدًا، وقيل: الحمد باللسان قولاً، والشكر بالأركان فعلاً، قال الله تعالى: «وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» [الإسراء: ١١١]، وقال: «ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا» [سبأ: ١٣].

قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ فالرب يكون بمعنى المالك، كما يقال لمالك الدار: رب الدار، ويقال: رب الشيء إذا ملكه، ويكون بمعنى التربية والإصلاح، يقال: ربَّ فلان الضيعة يَرُبُّها إذا أتمها وأصلحها فهو ربٌّ، فالله تعالى مالك العالمين ومربيهم، ولا يقال للمخلوق: هو الرب معرَّفًا، إنما يقال: رب كذا مضافًا؛ لأن الألف واللام للتعميم، وهو لا يملك الكل.

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالم، لا واحد له في لفظه، واختلفوا في العالمين. قال ابن عباس: هم الجن والإنس، وقال قتادة ومجاهد والحسن: هم جميع المخلوقات. واشتقاقه من العلم والعلامة، سموا به لظهور أثر الصنعة فيهم.

قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قرأ عاصم والكسائي ويعقوب: «مَٰلِكِ» وقرأ الآخرون: «مَلِكِ» قال قوم: معناهما واحد، وهو الرب، قال مجاهد: الدين الحساب، وقال قتادة: الدين الجزاء، ويقع على الجزاء في الخير والشر جميعًا، يقال: كما تَدين تُدان، وقال يمان بن رباب: الدين القهر. يقال: دنته فدان، أي: قهرته فذل. وقيل: الدين الطاعة، أي: يوم الطاعة. وإنما خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكًا للأيام كلها؛ لأن الأملاك يومئذ زائلة، فلا ملك ولا أمر إلا له.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ «إيَّا» كلمة ضمير خُصَّت بالإضافة إلى المضمر، ويستعمل مقدمًا على الفعل، فيقال: إياك أعني، وإياك أسأل، ولا يستعمل مؤخرًا إلا منفصلاً، فيقال: ما عنيت إلا إياك.

قوله: «نَعْبُدُ» أي: نوحدك ونطيعك خاضعين، والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع.

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نطلب منك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا.

قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ اهدنا: أرشدنا، وقال علي وأُبي بن كعب: ثبّتنا، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية.

و«الصراط المستقيم» قال ابن عباس وجابر - رضي الله عنهما -: هو الإسلام، وهو قول مقاتل، وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: هو القرآن، وقال سعيد بن جبير: طريق الجنة، وقال سهل بن عبد الله: طريق السنة والجماعة، وقال بكر بن عبد الله المزني: طريق رسول الله ﷺ، وأصله في اللغة: الطريق الواضح.

قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مننت عليهم بالهداية والتوفيق. قال عكرمة: مننت عليهم بالثبات على الإيمان والاستقامة، وهم الأنبياء ﷺ، وقيل: هم كل من ثبّته الله على الإيمان من النبيّين والمؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: «فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...» الآية [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني غير صراط الذين غضبت عليهم، والغضب هو إرادة الانتقام من العصاة، وغضب الله تعالى لا يلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وغير الضالين عن الهدى، وأصل الضلال الهلاك والغيبوبة، يقال: ضل الماء في اللبن إذا هلك وغاب. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون: هم النصارىٰ.

والسنة للقارئ أن يقول بعد فراغه من قراءة الفاتحة «آمين» بسكتة مفصولة عن الفاتحة وهو مخفف، ويجوز ممدودًا ومقصورًا، ومعناه: اللهم اسمع واستجب.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: «غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ»؛ فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: آمين، وإن الإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»[1].

عن أبي هريرة قال: «مرَّ رسول الله ﷺ على أُبَيّ بن كعب وهو قائم يصلي فصاح به، فقال: تعال يا أُبَيّ، فعجل أُبَيٌّ في صلاته، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما منعك يا أُبَيّ أن تجيبني إذ دعوتك؟ أليس الله يقول: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» [الأنفال: ٢٤]؟ قال أُبَيٌّ: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت مصليًا. قال: أتحب أن أُعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها؟ فقال أُبَيٌّ: نعم يا رسول الله، فقال: لا تخرج من باب المسجد حتى تَعلَّمها، والنبي ﷺ يمشي يريد أن

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٢٦٢).

يخرج من المسجد، فلما بلغ الباب ليخرج قال له أُبَيٌّ: السورة يا رسول الله، فوقف فقال: نعم كيف تقرأ في صلاتك؟ فقرأ أُبَيٌّ أُمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، وإنها لهي السبع المثاني التي آتاني الله عزَّ وجلَّ»[١].

(١) رواه الترمذي: (٨/ ١٧٨ - ١٨٠)، وأحمد في «المسند»: (٢/ ٤١٢ - ٤١٣).

سورة البقرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ قال الشعبي وجماعة: «الٓمٓ» وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهي سرُّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها: طلب الإيمان بها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: هذا الكتاب وهو القرآن، وقيل: هذا فيه مضمر، أي: هذا ذلك الكتاب، والكتاب مصدر، وهو بمعنى المكتوب، كما يقال للمخلوق: خَلْق، وأصل الكَتْب: الضم والجمع، ويقال للجند: كتيبة لاجتماعها، وسمي الكتاب كتابًا؛ لأنه جمع حرف إلى حرف.

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه أنه من عند الله عزَّ وجلَّ وأنه الحق والصدق، وقيل: هو خبر بمعنى النهي، أي: لا ترتابوا فيه، كقوله تعالى: «فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ» [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هو «هُدًى»، أي: رشد وبيان لأهل التقوى، وقيل: هو نصبٌ على الحال، أي: هاديًا، تقديره: لا ريب في هدايته للمتقين، والهدى ما يهتدي به الإنسان، «لِّلْمُتَّقِينَ» أي: للمؤمنين، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: المتقي من يتقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتقاء، وأصله: الحجز بين الشيئين، ومنه يقال: اتقى بتُرْسِه، أي: جعله حاجزًا بين نفسه وبين ما يقصده. فكأن المتقي يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عما نهاه حاجزًا بينه وبين العذاب، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لكعب الأحبار: حدِّثْني عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمرت، قال كعب: ذلك التقوى، وقال شهر بن حوشب: المتقي الذي يترك ما لا بأس به حذرًا لما به بأس، وقال عمر بن عبد العزيز: التقوى ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير، وقيل: هو الاقتداء بالنبي ﷺ، وفي الحديث: «جماع التقوى في قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ...» الآية [النحل: ٩٠]، وقال ابن عمر: التقوى أن لا ترى نفسك خيرًا من أحد. وتخصيص المتقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم هم المتقون بالهدى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ موضع «ٱلَّذِينَ» خُفِضَ نعتًا «لِّلْمُتَّقِينَ». «يُؤْمِنُونَ»: يصدقون.

وحقيقة الإيمان: التصديق بالقلب، قال الله تعالى: «وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا» [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا، وهو في الشريعة: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. فسُمي

الإقرار والعمل إيمانًا لوجهٍ من المناسبة؛ لأنه من شرائعه.

والإسلام: هو الخضوع والانقياد، فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانًا، إذا لم يكن معه تصديق، قال الله تعالى: «قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا» [الحجرات: ١٤]؛ وذلك لأن الرجل قد يكون مستسلمًا في الظاهر غير مصدق في الباطن، وقد يكون مصدقًا في الباطن غير منقاد في الظاهر.

وقد اختلف جواب النبي ﷺ عنهما حين سأله جبريل ﷺ، فقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً؛ فقال: صدقت، فتعجبنا من سؤاله وتصديقه! ثم قال: فما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله، وبالبعث بعد الموت، والجنة والنار، وبالقدر خيره وشره؛ فقال: صدقت، ثم قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك؛ قال: صدقت، ثم قال: فأخبرني عن الساعة؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعلم بها من السائل؛ قال: صدقت، قال: فأخبرني عن أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في بنيان المدر؛ قال: صدقت، ثم انطلق فلما كان بعد ثالثة قال لي رسول الله ﷺ: يا عمر، هل تدري من الرجل؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا في صورته هذه»[1].

فالنبي ﷺ جعل الإسلام في هذا الحديث اسمًا لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد؛ وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو التصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدِّين؛ ولذلك قال: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

وقيل: الإيمان مأخوذ من الأمان، فسُمِّي المؤمن مؤمنًا لأنه يؤمِّن نفسه من عذاب الله، والله تعالى مؤمن لأنه يؤمِّن العباد من عذابه.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ والغيب ما كان مغيبًا عن العيون، قال ابن عباس: الغيب هاهنا كل ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك، مثل: الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان، وقيل: الغيب هاهنا هو الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها، يقال: قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطًى حقوقه، والمراد بها: الصلوات الخمس.

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله تعالى: «وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ» [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم. وفي

---

(١) البخاري (١/ ١١٤)، ومسلم برقم ٨ و ٩: (١/ ٣٦ - ٣٧).

الشريعة: اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء وثناء. وقيل في قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ...» الآية [الأحزاب: ٥٦] إن الصلاة من الله في هذه الآية: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن المؤمنين: الدعاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: أعطيناهم، والرزق اسم لكل ما ينتفع به حتى الولد والعبد، وأصله في اللغة الحظ والنصيب ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون. قال قتادة: ينفقون في سبيل الله وطاعته. وأصل الإنفاق: الإخراج عن اليد والملك، ومنه نَفاق السوق؛ لأنه تخرج فيه السلعة عن اليد.

وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بالدار الآخرة، سميت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة، وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: يستيقنون أنها كائنة، من الإيقان: وهو العلم، وقيل: الإيقان واليقين: علم عن استدلال؛ ولذلك لا يسمى الله موقنًا ولا علمه يقينًا؛ إذ ليس علمه عن استدلال.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: أهل هذه الصفة، ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: رشد وبيان وبصيرة ﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون والفائزون، فازوا بالجنة ونجوا من النار، ويكون الفلاح بمعنى البقاء، أي: باقون في النعيم المقيم، فهم مقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والكفر هو الجحود، وأصله من الكَفْر وهو الستر، ومنه سُمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسُمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر الحب بالتراب، والكافر يستر الحق بجحوده. والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق. فكفر الإنكار: أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به. وكفر الجحود هو: أن يعرف الله تعالى بقلبه ولا يقر بلسانه، ككفر إبليس، وكفر اليهود، وكفر العناد هو: أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به، ككفر أبي طالب.

وأما كفر النفاق: فهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد بالقلب. وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله تعالى بواحد منها لا يغفر له.

قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: متساوٍ لديهم ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ خوفتهم وحذرتهم، والإنذار: إعلام مع تخويف وتحذير، وكل منذر مُعْلِم، وليس كل مُعْلِم منذرًا، ﴿أَمۡ﴾ حرف عطف على الاستفهام ﴿لَمۡ﴾ حرف جزم لا تلي إلا الفعل؛ لأن الجزم يختص بالأفعال ﴿تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله، ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ فلا تعي خيرًا ولا تفهمه. وحقيقة الختم: الاستيثاق من الشيء؛ كيلا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما فيه، ومنه الختم على الباب، قال أهل السنة: أي حكم على قلوبهم بالكفر؛ لما سبق من علمه الأزلي فيهم، ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أي: على موضع سمعهم، فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به، وأراد على أسماعهم كما قال: «عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ» وإنما وحَّده لأنه مصدر، والمصدر لا يُثنى ولا يُجمع. ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ هذا ابتداء كلام، «غِشَٰوَةٞ»، أي: غطاء، فلا يرون الحق.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: في الآخرة، وقيل: القتل والأسر في الدنيا، والعذاب الدائم في العقبى. والعذاب: كل ما يعنِّي الإنسان ويشق عليه، قال الخليل: العذاب ما يمنع الإنسان عن مراده، ومنه: الماء العذب؛ لأنه يمنع العطش.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ نزلت في المنافقين: عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول ومعتب بن قشير وجدِّ بن قيس وأصحابهم؛ حيث أظهروا كلمة الإسلام ليسلموا من النبي ﷺ وأصحابه، واعتقدوا خلافها، وأكثرهم من اليهود. والناس جمع إنسان، سمي به لأنه عهد إليه فنسي، كما قال الله تعالى: «وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ» [طه: ١١٥]، وقيل: لظهوره، من قولهم: آنست، أي: أبصرت، وقيل: لأنه يستأنس به ﴿وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: بيوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخالفون الله، وأصل الخدع في اللغة: الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يخفى فيه المتاع، فالمخادع يظهر خلاف ما يضمر، والخدع من الله في قوله: «وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ» [النساء: ١٤٢]، أي: يظهر لهم ويعجل لهم من النعيم في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، وقيل: أصل الخدع: الفساد، معناه: يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمروا من الكفر.

وقيل: معناه يفعلون في دين الله ما هو خداع في دينهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم: «ءَامَنَّا» وهم غير مؤمنين ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ لأن وبال

خداعهم راجع إليهم؛ لأن الله تعالى يطلع نبيه ﷺ على نفاقهم، فيفتضحون في الدنيا، ويستوجبون العقاب في العقبى ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم، وأن وبال خداعهم يعود عليهم ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق، وأصل المرض: الضعف، وسمي الشك في الدين مرضًا؛ لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لأن الآيات كانت تنزل تترى، آية بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفرًا ونفاقًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: للمنافقين، وقيل: لليهود، أي: قال لهم المؤمنون: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، وقيل معناه: لا تكفروا، والكفر أشد فسادًا في الدين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يقولون هذا القول كذبًا، كقولهم: آمنا، وهم كاذبون ﴿أَلَا﴾ كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ أنفسهم بالكفر والناس بالتعويق عن الإيمان ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون أنهم مفسدون؛ لأنهم يظنون أن الذي هم عليه من إبطان الكفر صلاح، وقيل: لا يعلمون ما أعد الله لهم من العذاب.

﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ عبد الله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب، وقيل: كما آمن المهاجرون والأنصار ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ أي: الجهال، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذلك، فالسفيه خفيف العقل رقيق الحلم، من قولهم: ثوب سفيه، أي: رقيق، وقيل: السفيه الكذاب الذي يتعمد الكذب بخلاف ما يعلم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ كإيمانكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ رجعوا، ويجوز أن يكون من الخلوة ﴿إِلَى﴾ بمعنى الباء، أي: بشياطينهم، وقيل: إلى بمعنى مع كما قال الله تعالى «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ» [النساء: ٢]، أي: مع أموالكم ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: رؤسائهم وكهنتهم.

والشيطان: المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء، وأصله: البعد، يقال: بئر شطون، أي: بعيدة العمق. سُمي الشيطانُ شيطانًا لامتداده في الشَّرِّ وبعده من الخير، وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بمحمد - ﷺ - وأصحابه بما نظهر من الإسلام.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم جزاء استهزائهم، سُمي الجزاء باسمه؛ لأنه في مقابلته، كما قال الله تعالى: «وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا» [الشورى: ٤٠]، قال ابن عباس: هو أن يفتح لهم باب من الجنة، فإذا انتهوا إليه سد عنهم، وردوا إلى النار، وقيل: هو أن يضرب للمؤمنين نور يمشون به على الصراط، فإذا وصل المنافقون إليه حيل بينهم وبين المؤمنين، كما قال الله تعالى: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» [سبا: ٥٤]، وقال الحسن: معناه الله يُظْهِر المؤمنين على نفاقهم ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يتركهم ويمهلهم، والمد والإمداد واحد، وأصله: الزيادة، إلا أن المد أكثر ما يأتي في الشر، والإمداد في الخير، ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم، وأصله مجاوزة الحد، ومنه طغى الماء ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترددون في الضلالة متحيرين.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي: ما ربحوا في تجارتهم، أضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها، كما تقول العرب: ربح بيعك وخسرت صفقتك ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ من الضلالة، وقيل: مصيبين في تجارتهم ﴿مَثَلُهُمْ﴾ شبههم، وقيل: صفتهم. والمثل: قول سائر في عرف الناس، يُعرف به معنى الشيء، وهو أحد أقسام القرآن السبعة ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ يعني: «الذين» بدليل سياق الآية، ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ أوقد ﴿نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: حول المستوقد. وأضاء: لازم ومتعد، يقال: أضاء الشيء بنفسه وأضاءه غيره، وهو هاهنا متعد ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك والسدي: نزلت في المنافقين.

﴿صُمٌّۢ﴾ أي: هم صم عن الحق لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا ﴿بُكْمٌ﴾ خرس عن الحق لا يقولونه، أو أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق ﴿عُمْىٌ﴾ أي: لا بصائر لهم، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة إلى الحق.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أي: كأصحاب صيِّب، وهذا مَثلٌ آخر ضربه الله تعالى للمنافقين بمعنى آخر، إن شئت مثِّلهم بالمستوقِد، وإن شئت بأهل الصيِّب، والصيب المطر، وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب، قيل: هي السماء بعينها، والسماء كل ما علاك فأظلَّك، وهي من أسماء الأجناس يكون واحدًا وجمعًا ﴿فِيهِ﴾ أي: في الصيب، وقيل: في السماء، أي: من السحاب؛ ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ جمع ظلمة ﴿وَرَعْدٌ﴾ هو الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو النار التي تخرج منه.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة: وهي الصيحة التي يموت من يسمعها أو يغشى عليه، ويقال لكل عذاب مهلك: صاعقة، وقيل: الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله تعالى على من يشاء. عن ابن عمر رضي الله عنه عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»(١).

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مخافة الهلاك ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عالم بهم، وقيل: جامعهم، وقال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم، وقيل: مهلكهم.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ أي: يقرب، يقال: كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يختلسها، والخطف استلاب بسرعة ﴿كُلَّمَآ﴾ «كل» حرف جملة ضُمَّ إلى «ما» الجزاء فصار أداة للتكرار، ومعناهما: متى ما ﴿أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي: وقفوا متحيرين، فالله تعالى شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة، أصابهم مطر فيه ظلمات من صفتها أن الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده، فهذا مَثلٌ ضربه الله للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر القرآن؛ لأنه حياة الجَنان كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد ما خوفوا به من الوعيد، وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة. والكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه؛ لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: القرآن يبهر قلوبهم، وقيل: هذا مثل ضربه الله للإسلام، فالمطر الإسلام، والظلمات ما فيه من البلاء والمحن، والرعد: ما فيه من الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق ما فيه من الوعد والوعيد «يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم» يعني: أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرًا من الهلاك «وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ» جامعهم، يعني: لا ينفعهم هربهم؛ لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم فيعذبهم، «يَكَادُ ٱلْبَرْقُ» يعني: دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من

---

(١) أخرجه الترمذي برقم٣٥١٤: (٩/ ٤١٢)، وأحمد: (٢/ ١٠٠)، والبخاري في «الأدب المفرد»: ص٢١٢، وصححه الحاكم: (٢/ ٢٨٦) ووافقه الذهبي.

الشقاوة.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ يعني: إن المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان آمنوا، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة. وقيل معناه: كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا وقالوا: إنا معكم ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ يعني: رأوا شدة وبلاء تأخروا وقاموا، أي: وقفوا، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ أي: بأسماعهم ﴿وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ الظاهرة كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: قادر.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «يا أيها الناس» خطاب أهل مكة، و«يا أيها الذين آمنوا» خطاب أهل المدينة.

﴿ٱعْبُدُواْ﴾ وحِّدوا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الخلق: اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وخلق الذين من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تنجوا من العذاب، وقيل: معناه كونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء، قال سيبويه: لعل وعسى حرفا تَرَجّ، وهما من الله واجب ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: بساطًا، وقيل: منامًا، وقيل: وطاء، أي: ذللها ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ: أي ذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قلت: إن ذلك عظيم، ثم أيٌّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يَطعم معك»، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»[1]، والجعل هاهنا بمعنى الخلق ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وسقفًا مرفوعًا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾ وهو المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من ألوان الثمرات وأنواع النبات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ طعامًا لكم، وعلفًا لدوابكم ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله، قال أبو عبيدة: النِّدُّ الضِّدُّ، وهو من الأضداد، والله تعالى بريء من المثل والضد ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه واحد خالق هذه الأشياء.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٩١)، ومسلم برقم٨٦: (١/ ٩٠).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: وإن كنتم في شك؛ لأن الله تعالى علم أنهم شاكُّون ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﴿فَأْتُوا﴾ أمر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر، من أسارت، أي: أفضلت، حذفت الهمزة، وقيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البناء لارتفاعه، سميت سورة لأن القارئ ينال بقراءتها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: مثل القرآن.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ أي: واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وقال مجاهد: ناسًا يشهدون لكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن محمدًا ﷺ يقوله من تلقاء نفسه، فلما تحدَّاهم عجزوا فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ فيما مضى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أبدًا فيما بقي؛ وإنما قال ذلك لبيان الإعجاز، وأن القرآن كان معجزة للنبي ﷺ حيث عجزوا عن الإتيان بمثله ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: فآمنوا واتقوا بالإيمان النار ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أراد بها الأصنام؛ لأن أكثر أصنامهم كانت منحوتة من الحجارة، كما قال: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» [الأنبياء: ٩٨] ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: أخبر، والبشارة كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الفعلات الصالحات، يعني: المؤمنين الذين من أهل الطاعات، قال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي أخلصوا الأعمال، كما قال: «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» [الكهف: ١١٠]، أي: خاليًا من الرياء، قال معاذ: العمل الصالح الذي فيه أربعة أشياء: العلم، والنية، والصبر، والإخلاص ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ جمع الجنة، والجنة البستان الذي فيه أشجار مثمرة، سميت بها لاجتنانها وتسترها بالأشجار، وقال الفرَّاء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أي: المياه في الأنهار؛ لأن النهر لا يجري، وقيل: «مِن تَحْتِهَا» أي: بأمرهم لقوله تعالى حكاية عن فرعون: «وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي» [الزخرف: ٥١]، أي: بأمري، والأنهار جمع نهر، سمي به لسعته وضيائه، ومنه النهار، وفي الحديث: «أنهار الجنة في غير أخدود»[1] ﴿كُلَّمَا﴾ متى ما ﴿رُزِقُوا﴾ أطعموا ﴿مِنْهَا﴾ أي:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٣/ ٩٦)، وهنَّاد في «الزهد»: (١/ ١٧١)، والطبري في «التفسير»: (١/ ٣٨٤)، والبيهقي في «البعث»، وصححه عن ابن مسعود. انظر: «الدر المنثور»: (١/ ٩٤).

من الجنة ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ أي ثمرة، و«من» صلة ﴿رِّزْقًا﴾ طعامًا ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ و«قبل» رفع على الغاية، قال الله تعالى: «لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ» [الروم: ٤]، قيل: «مِن قَبْلُ»: في الدنيا، وقيل: الثمار في الجنة متشابهة في اللون، مختلفة في الطعم، فإذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ﴾ بالرزق ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والربيع: متشابهًا في الألوان، مختلفًا في الطعوم، وقال الحسن وقتادة: «مُتَشَٰبِهًا» أي: يشبه بعضها بعضًا في الجودة، أي: كلها خيار لا رذالة فيها، وقال محمد بن كعب: يشبه ثمر الدنيا غير أنها أطيب. وقيل: متشابهًا في الاسم مختلفًا في الطعم، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ في الجنان ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ نساء وجواري، يعني: من الحور العين ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الغائط والبول والحيض والنفاس والبصاق والمخاط والمني والولد وكل قذر، وقيل: مطهرة عن مساوئ الأخلاق ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوَّة، وأزواجهم الحور العين، على خلق رجلٍ واحدٍ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء»[1].

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فقال: «إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ» [الحج: ٧٣]، وقال: «مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا» [العنكبوت: ٤١]، قالت اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣١٨)، ومسلم برقم٢٨٣٤: (٤/ ٢١٧٨).

وقيل: قال المشركون: إنا لا نعبد إلهًا يذكر مثل هذه الأشياء؛ فأنزل الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ...» أي: لا يترك ولا يمنعه الحياء «أَن يَضْرِبَ مَثَلًا» يذكر شبهًا «مَّا بَعُوضَةً» والبعوض: صغار البق، سميت بعوضة كأنها بعض البق «، فَمَا فَوْقَهَا» يعني: الذباب والعنكبوت. وقال أبو عبيدة: أي فما دونها كما يقال: فلان جاهل؛ فيقال: وفوق ذلك، أي: وأجهل ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد والقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ يعني: المثل هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الصدق ﴿مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي: بهذا المثل، فلما حذف الألف واللام نصبه على الحال والقطع، ثم أجابهم فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الكفار؛ وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون ضلالاً ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾ أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من المؤمنين فيصدقونه، والإضلال: هو الصرف عن الحق إلى الباطل، وقيل: هو الهلاك، يقال: ضل الماء في اللبن إذا هلك ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الكافرين، وأصل الفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، قال الله تعالى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ» [الكهف: ٥٠]، أي: خرج، ثم وصفهم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ يخالفون ويتركون، وأصل النقض: الكسر ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ» [الأعراف: ١٧٢]، وقيل: أراد به العهد الذي أخذه على النبيين وسائر الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في قوله: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ...» الآية [آل عمران: ٨١]، وقيل: أراد به العهد الذي عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويبينوا نعته ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ توكيده، والميثاق: العهد المؤكد ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يعني: الإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الرسل ﷺ؛ لأنهم قالوا: «نؤمن ببعض ونكفر ببعض»، وقال المؤمنون: «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ» [البقرة: ٢٨٥]، وقيل: أراد به الأرحام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المغبونون، ثم قال لمشركي العرب على وجه التعجب: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ بعد نصب الدلائل ووضوح البراهين، ثم ذكر الدلائل فقال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ نطفًا في أصلاب آبائكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ في الأرحام والدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لكي تعتبروا وتستدلوا، وقيل: لكي تنتفعوا ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس وأكثر مفسري السَّلف: أي ارتفع إلى السماء، وقال جماعة من النحويين: أي أقبل على خلق السماء، وقيل: قصد؛ لأنه خلق الأرض أولاً، ثم عمد إلى خلق السماء ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ خلقهن مستويات لا فطور فيها ولا صدع ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: وقال ربك، ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملك، وأراد بهم الملائكة الذين كانوا في الأرض؛ ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾ خالق ﴿فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: بدلاً منكم ورافعكم إليَّ، فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة.

والمراد بالخليفة هاهنا آدم، سماه خليفة لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم، وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بغير حق، أي: كما فعل بنو الجان، فقاسوا الشاهد على الغائب وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده، وهو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى الآدميين، وعليها يرزقون. عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده»[1]. وقيل: ونحن نصلي بأمرك، قال ابن عباس: كل ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نثني عليك بالقدس والطهارة، وقيل: ونطهر أنفسنا لطاعتك، وقيل: وننزهك، وقيل: لم يكن هذا في الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل، بل على سبيل التعجب وطلب وجه الحكمة فيه ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة فيه، وقيل: إني أعلم أن في ذريته من يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والعلماء، وقيل: إني أعلم أن فيكم من يعصيني، وهو إبليس، وقيل: إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم.

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وقيل: لأنه كان آدم

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٧٣١: (٤/ ٢٠٩٣).

اللون، فلما خلقه الله تعالى علَّمه أسماء الأشياء. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في أني لا أخلق خلقًا إلا وكنتم أفضل وأعلم منه؛ فقالت الملائكة إقرارًا بالعجز: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ معناه: فإنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمرك، والحكيم له معنيان: أحدهما: الحاكم وهو القاضي العدل، والثاني: المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد، وأصل الحكمة في اللغة: المنع، فهي تمنع صاحبها من الباطل، ومنه حكَمَةُ الدابة لأنها تمنعها من الاعوجاج، فلما ظهر عجزهم ﴿قَالَ﴾ الله تعالى:

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أخبرهم بأسمائهم، فسمى آدم كل شيء باسمه، وذكر الحكمة التي لأجلها خلق ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما كان منهما وما يكون لأنه قد قال لهم: «إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٣٠] ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ قال الحسن وقتادة: يعني قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قولكم: لن يخلق الله خلقًا أكرم عليه منَّا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ فيه قولان: الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة، وتضمن معنى الطاعة لله عزَّ وجلَّ بامتثال أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، كسجود إخوة يوسف له في قوله عزَّ وجلَّ: «وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا» [يوسف: ١٠٠]، ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض، إنما كان الانحناء، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام.

وقيل: معنى قوله: «ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ» أي: إلى آدم؛ فكان آدم قِبْلَةً والسجود لله تعالى، كما جُعلت الكعبة قِبْلَةً للصلاة والصلاة لله عزَّ وجلَّ.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ يعني: الملائكة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وكان اسمه عزازيل بالسريانية، وبالعربية: الحارث، فلما عصى غير اسمه وصورته، فقيل: إبليس؛ لأنه أَبْلَسَ من رحمة الله تعالى، أي: يَئِسَ.

واختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسرين: كان إبليس من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة لقوله تعالى: «إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ» [الكهف: ٥٠]، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس؛ ولأنه خلق من النار والملائكة خُلقوا من النور؛ ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

قوله: ﴿أَبَىٰ﴾ أي: امتنع فلم يسجد ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تكبر عن السجود لآدم ﴿وَكَانَ﴾ أي: صار ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وقال أكثر المفسرين: وكان في سابق علم الله من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فعصيت فلي النار»[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٣٣: (١/ ٨٧).

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعًا كثيرًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ يعني: للأكل، وقال بعض العلماء: وقع النهي على جنس من الشجر، وقال آخرون: على شجرة مخصوصة، ﴿فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الضارين بأنفسكما بالمعصية، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ استزل ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ آدم وحواء، أي: دعاهما إلى الزلة، وقرأ حمزة: «فأزالهما»، أي: نحّاهما «ٱلشَّيْطَٰنُ» فَيْعَالٌ من شطن، أي: بَعُد، سُمي به لبعده عن الخير وعن الرحمة ﴿عَنْهَا﴾ عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ أي: انزلوا إلى الأرض، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحية، وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس؛ قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ» [الأعراف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ بُلْغةٌ ومستمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ تلقى، والتلقي: هو قبول عن فطنة وفهم، وقيل: هو التعلم ﴿ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ واختلفوا في تلك الكلمات؛ قال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن: هي قوله: «ربنا ظلمنا أنفسنا ...» الآية. وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي: هي قوله: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملتُ سوءًا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب عملت سوءًا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين[1].

---

(١) قال ابن جرير الطبري رحمه الله بعد أن ساق الأقوال ونسبها لقائليها: والذي يدل عليه كتاب الله: أن الكلمات التي تلقاهنَّ آدم من ربه، هنَّ الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه، معترفًا بذنبه، وهو قوله: «ربنا ظلمنا أنفسنا»، وليس ما قاله من خالف قولنا هذا - من الأقوال التي حكيناها - بمدفوع قوله، ولكنه قول لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم، وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه). «تفسير الطبري»: (١/ ٥٤٦).

قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فتجاوز عنه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ يقبل توبة عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الآخر من السماء الدنيا إلى الأرض ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ أي: فإن يأتكم يا ذرية آدم ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ أي: رشدٌ وبيان شريعةٍ، وقيل: كتاب ورسول ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» فيما يستقبلون هم «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» على ما خلفوا، وقيل: لا خوف عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالقرآن ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يوم القيامة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يا أولاد يعقوب، ومعنى «إسرائيل»: عبد الله، و«إيل» هو الله تعالى، وقيل: صفوة الله، ﴿اذْكُرُوا﴾ احفظوا، والذكر: يكون بالقلب ويكون باللسان، وقيل: أراد به الشكر، وذكر بلفظ الذكر؛ لأن في الشكر ذكرًا وفي الكفران نسيانًا، قال الحسن: ذِكْر النعمة شكرها ﴿نِعْمَتِيَ﴾ أي: نعمي، لفظها واحد ومعناها جمع، كقوله تعالى: «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» [إبراهيم: ٣٤] ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على أجدادكم وأسلافكم، قال قتادة: هي النعم التي خُصت بها بنو إسرائيل: من فلق البحر، وإنجائهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم في التيه، وإنزال المنِّ والسلوى، وإنزال التوراة، في نعم كثيرة لا تحصى، وقال غيره: هي جميع النعم التي لله عزَّ وجلَّ على عباده ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي: بامتثال أمري ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بالقبول والثواب.

قال قتادة ومجاهد: أراد بهذا العهد ما ذُكر في سورة المائدة «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا» إلى أن قال: «لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» [المائدة: ١٢]، فهذا قوله: «أُوفِ بِعَهْدِكُمْ».

وقال الحسن هو قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ» [البقرة: ٦٣] فهو شريعة التوراة، وقال مقاتل هو قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» [البقرة: ٨٣].

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ فخافوني في نقض العهد، ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقًا لما معكم ـ يعني: التوراة ـ في التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ. ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، يريد من أهل الكتاب؛ لأن قريشًا كفرت قبل اليهود

بمكة، معناه: ولا تكونوا أول مَن كفر بالقرآن فيتابعكم اليهود على ذلك فتَبُوؤا بآثامكم وآثامهم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أي: ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ ببيان صفة محمد ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عَرَضًا يسيرًا من الدنيا؛ وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وجهالهم، يأخذون منهم كل عامٍ شيئًا معلومًا من زروعهم وضروعهم ونقودهم؛ فخافوا إن هم بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المآكل؛ فغيروا نعته وكتموا اسمه فاختاروا الدنيا على الآخرة ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ فاخشوني.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا تخلطوا، يقال: لَبِسَ الثوب يَلْبَسُ لُبْسًا، ولَبَسَ عليه الأمر يَلْبِسُ لَبْسًا، أي: خلط، يقول: لا تخلطوا الحق الذي أنزلت عليكم من صفة محمد ﷺ بالباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفة محمد ﷺ. والأكثرون على أنه أراد: لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية.

وقال مقاتل: إن اليهود أقروا ببعض صفة محمد ﷺ وكتموا بعضًا ليصدقوا في ذلك؛ فقال: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ» الذي تقرون به «، بِالْبَاطِلِ» يعني: بما تكتمونه، فالحق: بيانُهم، والباطل: كتمانُهم، ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ أي: لا تكتموه، يعني: نعت محمد ﷺ.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه نبيٌّ مرسل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أدوا زكاة أموالكم المفروضة، والزكاة مأخوذة من زكا الزرع إذا نما وكثر، وقيل: من تزكى، أي: تطهر، وكلا المعنيين موجود في الزكاة؛ لأن فيها تطهيرًا وتنمية للمال ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين: محمد ﷺ وأصحابه، وذكر بلفظ الركوع لأنه ركن من أركان الصلاة؛ ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع، فكأنه قال: صلوا صلاة ذات ركوع، وقيل: هذا حث على إقامة الصلاة جماعة، كأنه قال لهم: صلوا مع المصلين الذين سبقوكم بالإيمان.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالطاعة، نزلت في علماء اليهود؛ وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ: اثبت على دينه، فإن أمره حق وقوله صدق، وقيل: هو خطاب لأحبارهم حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة، ثم خالفوا وغيروا نعت محمد ﷺ ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم فلا تتبعونه ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تقرؤون التوراة فيها نعته وصفته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنه حق فتتبعونه؟!

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أُمَّتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب»(١).

﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ على ما يستقبلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أراد حبس النفس عن المعاصي، وقيل: أراد الصبر على أداء الفرائض، وقال مجاهد: الصبر الصوم، ومنه سُمي شهر رمضان شهر الصبر؛ وذلك لأن الصوم يزهده في الدنيا، والصلاة ترغبه في الآخرة.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ يعني: المؤمنين، وقال الحسن: الخائفين، وقيل: المطيعين، وقال مقاتل بن حيان: المتواضعين، وأصل الخشوع: السكون، قال الله تعالى: «وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ» [طه: ١٠٨]، فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالى.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون أنهم مبعوثون وأنهم محاسبون وأنهم راجعون إلى الله، أي: يصدقون بالبعث، وجعل رجوعهم بعد الموت إلى المحشر رجوعًا إليه. ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ﴾ معاينو ﴿رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة، وهو رؤية الله تعالى، وقيل: المراد من اللقاء الصيرورة إليه ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم.

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: عالمي زمانكم، وذلك التفضيل وإن كان في حقِّ الآباء، لكن يحصل به الشرف للأبناء ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ واخشوا عقاب يوم ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ لا تقضي نفس ﴿عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: حقًّا لزمها، وقيل: لا تغني، وقيل: لا تكفي شيئًا من الشدائد ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: لا تقبل منها شفاعة إذا كانت كافرة ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فداء، وسمي به لأنه مثل المفدي، والعدل: المثل ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ يعني: أسلافكم وأجدادكم، فاعتدَّها مِنَّةً عليهم لأنهم نجوا بنجاتهم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أتباعه وأهل دينه ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أشد العذاب

---

(١) أخرجه أحمد: (٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩)، وابن حبان: (برقم٣٥ - موارد الظمآن).

وأسوأه، وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة هكذا ومرة هكذا كالإبل السائمة في البرية؛ وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدمًا وخولاً، وصنفهم في الأعمال: فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون، وصنف يخدمونه، ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليه الجزية.

وقيل: تفسيره ذكر ما بعده: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فهو مذكور على وجه البدل من قوله: «يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ» ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركونهن أحياء.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قيل: البلاء المحنة، أي: في سومهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة، وقيل: البلاء النعمة، أي: في إنجائي إياكم منهم نعمة عظيمة، فالبلاء يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر، وقال الله تعالى: «وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً» [يوسف: ٣٥].

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ قيل: معناه فرقنا لكم، وقيل: فرقنا البحر بدخولكم إياه، وسمي البحر بحرًا لاتساعه، ومنه قيل للفرس: بحر إذا اتسع في جريه، وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل من مصر ليلاً.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ من آل فرعون والغرق ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى مصارعهم، وقيل: إلى هلاكهم.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ هو من المفاعلة التي تكون من الواحد، كقولهم: عافاك الله، ﴿مُوسَىٰٓ﴾ اسم عبري عُرِّب، ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: انقضاؤها ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وذلك أن بني إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما، فوعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة؛ فقال موسى لقومه: إني ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون، وواعدهم أربعين ليلة، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس يقال له: فرس الحياة، لا يصيب شيئًا إلا حُيي، ليذهب بموسى إلى ربِّه، فلما رآه السامري وكان منافقًا أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، فلما رأى جبريل على ذلك الفرس، ورأى مواضع قدم الفرس تَخْضَرُّ في الحال؛ قال: إن لهذا شأنًا! فأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبرائيل عليه السلام. قال عكرمة: أُلقي في روعه أنه إذا أُلقي في شيء غَيَّرَه، وكانت بنو إسرائيل قد استعاروا حُلِيًّا كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بِعِلَّةِ عرس لهم، فأهلك الله فرعون، وبقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فلما فصل موسى قال

السامري لبني إسرائيل: إن الحلي التي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحل لكم، فاحفروا حفرة فادفنوها فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه.

وقيل: كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة، فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري؛ عكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه، وقيل: كلهم عبدوه إلا هارون مع اثنى عشر ألف رجل، وهذا أصح، وقال الحسن: كلهم عبدوه إلا هارون وحده، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: إلهًا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ ضارون لأنفسكم بالمعصية، واضعون العبادة في غير موضعها ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم﴾ محونا ذنوبكم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد عبادتكم العجل ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم، قيل: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السر والعلانية، قال الحسن: شكر النعمة ذكرها، قال الله تعالى: «وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ» [الضحى: ١١]، قال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يعصي الله بعد تلك النعمة، وقيل: حقيقة الشكر العجز عن الشكر.

وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ قال مجاهد: هو التوراة أيضًا ذكرها باسمين، وقال الكسائي: الفرقان نعت الكتاب والواو زائدة، يعني: الكتاب المفرق بين الحلال والحرام، وقال يمان بن رباب: أراد بالفرقان انفراق البحر، كما قال: «وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ»، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ بالتوراة.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم﴾ ضررتم بأنفسكم ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ إلهًا؛ قالوا: فأي شيء نصنع؟ قال: ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾ فارجعوا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ خالقكم، قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ يعني: ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: القتل ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مكفرًا عنه ذنوبه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم فتجاوز عنكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ القابل التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ معاينة، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال: «جَهْرَةً»؛ ليعلم أن المراد منه العيان ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: الموت، وقيل: نار جاءت من السماء فأحرقتهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم الموت، وقيل: تعلمون، والنظر يكون بمعنى العلم، فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ «لو شئت أهلكتهم من قبل وإيَّي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلاً بعد رجل بعدما ماتوا يومًا وليلة، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أحييناكم، والبعث: إثارة الشيء عن محله، يقال: بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ قال قتادة: أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ في التيه يقيكم حر الشمس، والغمام من الغمِّ، وأصله: التغطية والستر، سُمي السحاب غمامًا لأنه يغطي وجه الشمس؛ وذلك أنه لم يكن لهم في التيه كنّ يسترهم، فشكوا إلى موسى فأرسل الله تعالى غمامًا أبيض رقيقًا أطيب من غمام المطر، وجعل لهم عمودًا من نور يضيء لهم الليل إذا لم يكن لهم قمر ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: في التيه، الأكثرون على أن المنَّ هو الترنجبين، وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، قال الزجاج: جملة المنِّ ما يمنُّ الله به من غير تعب. عن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «الكَمْأَةُ من المنِّ، وماؤها شفاء للعين»[١].

﴿كُلُوا۟﴾ أي: وقلنا لهم: كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلالات ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ولا تدَّخروا لغدٍ؛ ففعلوا، فقطع الله ذلك عنهم، ودوَّد وفسد ما ادخروا، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وما بخسوا بحقنا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ولا حساب في العقبى.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْبُثِ الطعامُ ولم يَخْنَزِ اللحم، ولولا حواء لم تَخُنْ أُنثى زوجها الدهر»[٢].

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ

(١) رواه البخاري: (٨/ ١٦٣)، برقم٢٠٤٩: (٣/ ١٦١٩).
(٢) رواه البخاري: (٦/ ٤٣٠)، ومسلم برقم١٤٧٠: (٢/ ١٠٩٢).

فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ سميت القرية قرية لأنها تجمع أهلها، ومنه المقراة: للحوض؛ لأنها تجمع الماء، ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ موسعًا عليكم ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ يعني: بابًا من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ركعًا خُضَّعًا منحنين، وقال وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله تعالى ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قال قتادة: حط عنا خطايانا، أُمروا بالاستغفار، قال ابن عباس: لا إله إلا الله؛ لأنها تحط الذنوب، ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ من الغفر وهو الستر، فالمغفرة تستر الذنوب، ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابًا من فضلنا ﴿فَبَدَّلَ﴾ فغيَّر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم وقالوا: ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وذلك أنهم بدَّلوا قول الحطة بالحنطة، فقالوا بلسانهم: حطانا سمقاثًا، أي: حنطة حمراء، استخفافًا بأمر الله تعالى، وقال مجاهد: طؤطىء لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فأبَوْا أن يدخلوها سجدًا، فدخلوا على أستاههم مخالفة في الفعل كما بدَّلوا القول، وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطَّة فبدَّلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شَعَرة»[1].

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: أرسل الله عليهم طاعونًا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفًا ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ طلب السقيا ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل؛ فأوحى الله إليه كما قال: ﴿...فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ .

﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ أي: فضرب فانفجرت، أي: سالت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم، لا يدخل سبط على غيره في شربه ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: وقلنا لهم: كلوا من المنِّ والسلوى، واشربوا من الماء، فهذا كله من رزق الله الذي يأتيكم بلا مشقة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعيث: أشدُّ الفساد، يقال: عثي يعثي عيثًا، وعثا يعثو عثوًا، وعاث يعيث عيثًا.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ

(١) رواه البخاري: (٦/ ٤٣٦)، ومسلم برقم٣٠١٥: (٤/ ٢٣١٢).

بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وذلك أنهم أجمعوا وسئموا من أكل المنِّ والسلوى، وإنما قال: «طَعَامٍ وَٰحِدٍ» وهما اثنان؛ لأن العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد، كما تعبِّر عن الواحد بلفظ الاثنين، كقوله تعالى: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ» [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح دون العذب، وقيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، فكان كطعام واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يعجنون المنَّ بالسلوى فيصيران واحدًا ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فاسأل لأجلنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ قال ابن عباس: والفوم الخبز، وقال عطاء: الحنطة، وقال القتيبي رحمه الله تعالى: الحبوب التي تؤكل كلها. وقال الكلبي: الثوم ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ﴾ لهم موسى ﷺ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أخسُّ وأردى ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ﴾ أشرف وأفضل، وجعل الحنطة أدنى في القيمة، وإن كان هو خيرًا من المنِّ والسلوى، أو أراد أنها أسهل وجودًا على العادة، ويجوز أن يكون الخير راجعًا إلى اختيار الله لهم واختيارهم لأنفسهم ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ يعني: فإن أبيتم إلا ذلك فانزلوا مصرًا من الأمصار، وقال الضحاك: هو مصر موسى وفرعون، والأول أصح؛ لأنه لو أراده لم يصرفه ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ﴾ من نبات الأرض ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ جعلت عليهم وألزموا ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان، قيل: بالجزية، ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر، سُمي الفقيرُ مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء، وقيل: الذلة هي فقر القلب، فلا ترى في أهل الملل أذلَّ وأحرص على المال من اليهود.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ رجعوا، ولا يقال: «باؤوا» إلا بشر، وقال أبو عبيدة: احتملوا وأقروا به، ومنه الدعاء: أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، أي: أُقِرُّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بصفة محمد ﷺ، وآية الرجم في التوراة، ويكفرون بالإنجيل والقرآن ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بلا جرم، فإن قيل: فلم قال: بغير الحق وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق؟ قيل: ذكره وصفًا للقتل، والقتل تارة يوصف بغير الحق، وهو مثل قوله تعالى: «قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ» [الأنبياء: ١١٢] ذكر الحق وصفًا للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى الجور والحق، ويروى أن اليهود قتلت سبعين نبيًّا في أول النهار وقامت سوق بقتلهم في آخر النهار ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يعني: اليهود، سموا به لقولهم: إنا هدنا إليك، أي: مِلنا إليك، وقيل: لأنهم هادوا، أي: تابوا عن عبادة العجل، وقيل: لأنهم مالوا عن دين الإسلام، وعن دين موسى عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السموات والأرض تحركت حين آتى الله موسى التوراة ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ سموا به لقول الحواريين: نحن أنصار الله، وقال مقاتل: لأنهم نزلوا قرية يقال لها: ناصرة، وقيل: لاعتزائهم إلى نَصِرَة وهي قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ وأصله: الخروج، يقال: صبأ فلان، أي: خرج من دين إلى دين آخر. قال عمر وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: من مات منهم وهو مؤمن؛ لأن حقيقة الإيمان بالموافاة، ويجوز أن يكون الواو مضمرًا، أي: ومن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة، وقال بعضهم: إن المذكورين بالإيمان في أول الآية على طريق المجاز دون الحقيقة، ثم اختلفوا فيهم؛ فقال بعضهم: الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك، وقيل: أراد بهم المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى الذين اعتقدوا اليهودية والنصرانية بعد التبديل، والصابئون بعض أصناف الكفار «مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ» من هذه الأصناف بالقلب واللسان ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن «مَنْ» يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ عهدكم يا معشر اليهود ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو الجبل بالسريانية في قول بعضهم، وقال ابن عباس: أمر الله تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم، وقال عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: رفع الله فوق رؤوسهم الطور، وبعث نارًا من قبل وجوههم، وأتاهم البحر المالح من خلفهم ﴿خُذُواْ﴾ أي: قلنا لهم خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أعطيناكم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ومواظبة ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾ وادرسوا ﴿مَا فِيهِ﴾

وقيل: احفظوه واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما قبلتم التوراة ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ يعني: بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب عنكم ﴿لَكُنتُم﴾ لصرتم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من المغبونين بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة، وقيل: من المعذبين في الحال لأنه رحمهم بالإمهال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: جاوزوا الحد، وأصل السبت: القطع، قيل: سمي يوم السبت بذلك لأن الله تعالى قطع فيه الخلق، وقيل: لأن اليهود أُمروا فيه بقطع الأعمال.

قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ أمر تحويل وتكوين ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مبعدين مطرودين، والخسأ: الطرد والإبعاد، ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: جعلنا عقوبتهم بالمسخ ﴿نَكَٰلًا﴾ أي: عقوبة وعبرة، والنكال: اسم لكل عقوبة ينكل الناظر من فعل ما جعلت العقوبة جزاء عليه، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال قتادة: أراد بما بين يديها يعني ما سبقت من الذنوب، أي: جعلنا تلك العقوبة جزاء لما تقدم من ذنوبهم قبل نهيهم عن أخذ الصيد ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ما حضر من الذنوب التي أخذوا بها، وهي العصيان بأخذ الحيتان، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: للمؤمنين من أُمة محمد ﷺ فلا يفعلون مثل فعلهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ البقرة هي الأُنثى من البقر. أمرهم الله بذبح بقرة، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: تستهزئ بنا، نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة؟! ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾ أمتنع بالله ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: من المستهزئين بالمؤمنين، وقيل: من الجاهلين بالجواب، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عَزْمٌ من الله عزَّ وجلَّ استوصفوها، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أي: ما صفتها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾

يعني: فسأل الله تعالى فقال: إنه، يعني: أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا كبيرة ولا صغيرة، والفارض المسنة التي لا تلد، والبكر الفتاة الصغيرة التي لم تلد قط، ﴿عَوَانٌ﴾ وسط نَصَف ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين السنّين، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ من ذبح البقرة، ولا تكثروا السؤال ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال ابن عباس: شديد الصفرة، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها، يعجبهم حُسنها وصفاء لونها.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لم يقل تشابهت لتذكير لفظ البقر، كقوله تعالى: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ» [القمر: ٢٠]، وقال الزجاج: أي جنس البقر تشابه، أي: التبس علينا فلا نهتدي إليه، ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى وصفها، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ مذللة بالعمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: ليست بساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بريئة من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون لها سوى لون جميع جلدها، قال عطاء: لا عيب فيها، وقال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالبيان التام الشافي الذي لا إشكال فيه، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ من غلاء ثمنها، وقال محمد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها، وقيل: «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» من شدة اضطرابهم واختلافهم فيها.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا أول القصة وإن كانت مؤخرةً في التلاوة، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه فاختلفتم، وقال الربيع بن أنس: تدافعتم، أي: يحيل بعضكم على بعض من الدرء: وهو الدفع، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فإن القاتل كان يكتم القتل ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ يعني: القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: ببعض البقرة، ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قيل: تمنعون أنفسكم من المعاصي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ يبست وجفَّتْ، جفاف القلب: خروج الرحمة واللين عنه، ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ظهور الدلالات، ﴿فَهِيَ﴾ أي: في الغلظة والشدة ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أراد به عيونًا دون الأنهار ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وقلوبكم لا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود.

قوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ بساهٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد، وقيل: بتارك عقوبة ما تعملون، بل يجازيكم به.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أفترجون؟ يريد: محمدًا وأصحابه ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ تصدقكم اليهود بما تخبرونهم به ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني: التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ يغيرون ما فيها من الأحكام ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ علموه، كما غيروا صفة محمد ﷺ وآية الرجم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة والسدي وجماعة، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربِّه، وذلك أنهم لما رجعوا ـ بعد ما سمعوا كلام الله ـ إلى قومهم رجع الناس إلى قولهم، وأما الصادقون منهم فأدوا كما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله يقول في آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، فهذا تحريفهم وهم يعلمون أنه الحق.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني منافقي اليهود الذين آمنوا بألسنتهم، إذا لقوا المؤمنين المخلصين ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم ﴿وَإِذَا خَلَا﴾ رجع ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأمرهم على ذلك ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما قص الله عليكم في كتابكم: أن محمدًا حق وقوله صدق. ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ ليخاصموكم، يعني: أصحاب محمد ﷺ، ويحتجوا بقولكم عليكم فيقولوا: قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ثم لا تتبعونه!! ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ يخفون ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يبدون، يعني: اليهود.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي: من اليهود أُميون لا يحسنون القراءة والكتابة. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنا أُمَّة أُمِّية لا نكتب ولا نحسب»[1]، ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾

(١) البخاري (٤/ ١٣٦)، ومسلم برقم١٠٨٠: (٢/ ٧٦١).

جمع الأُمنيَّة وهي التلاوة، قال الله تعالى: «إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ» [الحج: ٥٢]، أي: في قراءته، قال ابن عباس: يعني: غير عارفين بمعاني الكتاب، وقال مجاهد وقتادة: إلا كذبًا وباطلاً، قال الفراء: الأماني: الأحاديث المفتعلة، ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وما هم إلا يظنون ظنًّا وتوهمًا لا يقينًا، قاله قتادة والربيع، قال مجاهد: يكذبون.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾ قال الزجاج: «ويل» كلمة يقولها كلُّ واقعٍ في هلكة، وقيل: هو دعاء الكفار على أنفسهم بالويل والثبور، وقال ابن عباس: شدة العذاب، وقال سعيد بن المسيب: «ويل» واد في جهنم، لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت من شدة حرِّه.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يَهْوِي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قَعْرَه، والصَّعُود جبل من نار، يتصعَّد فيه سبعين خريفًا ثم يهوي، فهو كذلك»[1].

﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة، فغيروها ، فإذا سألهم سفلتهم عن صفته قرؤوا ما كتبوا فيجدونه مخالفًا لصفته فيكذبونه وينكرونه، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ما كتبوا بأنفسهم اختراعًا من تغيير نعت محمد ﷺ ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من المآكل، ويقال: من المعاصي.

وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: اليهود ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ لن تصيبنا النار ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ قدرًا مقدَّرًا ثم يزول عنا العذاب ويعقبه النعيم، فقال الله عزَّ وجلَّ تكذيبًا لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ ألِفُ استفهام دخلت على ألف الوصل ﴿عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾؟ مَوْثِقًا أن لا يعذبكم إلا هذه المدة ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ ووعده، قال ابن مسعود: عهدًا بالتوحيد، يدل عليه قوله تعالى: «إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا» [مريم: ٨٧]، يعني: قوله لا إله إلا الله ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يعني: الشرك ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ الإحاطة:

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ٥)، وأحمد: (٣/ ٧٥)، والطبري: (٢/ ٢٦٩)، وصححه الحاكم: (٤/ ٥٩٦) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

الإحداق بالشيء من جميع نواحيه، قال ابن عباس وعطاء والضحاك وأبو العالية والربيع وجماعة: هي الشرك يموت عليه، وقيل: السيئة الكبيرة، والإحاطة به: أن يصر عليها فيموت غير تائب، قاله عكرمة والربيع بن خثيم، وقال مجاهد: هي الذنوب تحيط بالقلب، كلما أذنب ذنبًا ارتفعت حتى تغشى القلب، وهي الرَّيْن، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوراة، والميثاق: العهد الشديد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: ووصيناهم بالوالدين إحسانًا، برًّا بهما، وعطفًا عليهما، ونزولاً عند أمرهما، فيما لا يخالف أمر الله تعالى ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: وبذي القرابة، والقربى مصدر كالحسنى ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو الطفل الذي لا أب له ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يعني: الفقراء ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ صدقًا وحقًّا في شأن محمد ﷺ، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وابن جريج ومقاتل، وقال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، وقيل: هو اللين في القول والمعاشرة بحسن الخلق، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن العهد والميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وذلك أن قومًا منهم آمنوا ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ كإعراض آبائكم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا تريقون دماءكم، أي: لا يسفك بعضكم دم بعض، وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فتسفك دماؤكم، فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا يُخْرِجُ بعضكم بعضًا من داره، وقيل: لا تسيئوا جوار من جاوركم فتلجؤوهم إلى الخروج بسوء جواركم ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا العهد أنه

حق وقبلتم ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ اليوم على ذلك يا معشر اليهود وتقرون بالقبول.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضًا ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ والظهير: العون ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المعصية والظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾ جمع أسير، ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ بالمال وتنقذوهم، أو تبادلوهم، أراد: مفاداة الأسير بالأسير.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير، ونظمها: «تخرجون فريقًا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان» ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، فكأن الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتال، وترك الإخراج، وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم، وفداء أسراهم؛ فأعرضوا عن الكل إلا الفداء.

قول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ قال مجاهد: يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ عذاب وهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فكان خزي قريظة القتل والسبي، وخزي النضير الجلاء والنفي من منازلهم إلى أذرعات وأريحاء من الشام ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ وهو عذاب النار ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ استبدلوا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ﴾ يهون ﴿عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله عزَّ وجلَّ.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، جملة واحدة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وأتبعنا ﴿مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ رسولاً بعد رسول ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدلالات الواضحات، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قوّيناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ واختلفوا في روح القدس، قال الربيع وغيره: أراد بالروح الروح الذي نفخ فيه، والقدس هو الله، أضافه إلى نفسه تكريمًا وتخصيصًا، نحو: بيت الله

وناقة الله، كما قال: «فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا» [التحريم: ١٢]، وقيل: أراد بالقدس الطهارة، يعني: الروح الطاهرة، سمّى روحه قدسًا؛ لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة، ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث، إنما كان أمرًا من الله تعالى، قال قتادة والسُّدي والضحاك: روح القدس جبريل عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم وتعظمتم عن الإيمان ﴿فَفَرِيقًا﴾ طائفة ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ مثل عيسى ومحمد ﷺ ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: قتلتم، مثل: زكريا ويحيى وشعيبًا، وسائر من قتلوه من الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني: اليهود ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع الأغلف: وهو الذي عليه غشاءٌ، معناه: عليها غشاوة، فلا تعي ولا تفقه ما تقولُ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم الله وأبعدهم عن كل خير ﴿بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: معناه لن يؤمن منهم إلا قليل، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ موافق ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني: التوراة ﴿وَكَانُواْ﴾ يعني: اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل مبعث محمد ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على مشركي العرب؛ وذلك أنهم كانوا يقولون إذا حَزَبَهم أمرٌ ودهمهم عدوٌّ: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنْصَرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ من غير بني إسرائيل وعرفوا نعته وصفته ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ بغيًا وحسدًا.

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ «بئس» و«نعم»: فعلان ماضيان وُضعا للمدح والذم، معناه: بئس الذي اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق، وقيل: الاشتراء هاهنا بمعنى البيع، والمعنى: بئس ما باعوا به حظ أنفسهم، أي: حين اختاروا الكفر ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بَغْيًا﴾ أي: حسدًا، وأصل البغي: الفساد، ويقال: بغى الجرح إذا فسد، والبغي: الظلم، وأصله: الطلب، والباغي طالب الظلم، والحاسد يظلم المحسود جهده، طلبًا لإزالة نعمة الله تعالى عنه ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: النبوة والكتاب ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ محمد ﷺ، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ أي: رجعوا بغضب ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾: الجاحدين بنبوة محمد ﷺ من الناس كلهم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مخزٍ يهانون فيه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ

ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ يعني: التوراة، يكفينا ذلك ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: بما سواه من الكتب، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٗا﴾ نصب على الحال ﴿لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ من التوراة ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ﴾ أي: قتلتم ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أي: استجيبوا وأطيعوا، سميت الطاعة والإجابة سمعًا على المجاورة؛ لأنه سبب للطاعة والإجابة ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ أمرك، وقيل: سمعنا بالأذن وعصينا بالقلوب، ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ أي: حب العجل، أي معناه: أدخل في قلوبهم حب العجل وخالطها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾ أن تعبدوا العجل من دون الله، أي: بئس إيمان يأمركم بعبادة العجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بزعمكم.

قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة، مثل قولهم: «لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ» [البقرة: ٨٠]، «وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ» [البقرة: ١١١]، وقوله: «نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ» [المائدة: ١٨]، فكذبهم الله عزَّ وجلَّ وألزمهم الحجة فقال: قل لهم يا محمد: ﴿...إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: الجنة عند الله ﴿خَالِصَةٗ﴾ أي: خاصة ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: فأريدوه واسألوه؛ لأن من علم أن الجنة مأواه حنَّ إليها، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت فاستعجلوه بالتمني ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم، وقيل: فتمنوا الموت، أي: ادعوا بالموت على الفرقة الكاذبة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون، وأراد «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أي: ما قدموه من الأعمال، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ والله لتجدنهم يا محمد، يعني: اليهود ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أحرص من الذين أشركوا، وقيل: تم الكلام بقوله «عَلَىٰ حَيَاةٍ» ثم ابتدأ «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا»، وأراد بالذين أشركوا: المجوس.

﴿يَوَدُّ﴾ يريد ويتمنى ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يعني: تعمير ألف سنة. يقول الله تعالى: اليهود أحرص على الحياة من المجوس الذين يتمنون ذلك ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ﴾ مباعده ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ من النار ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ أي: طول عمره لا ينقذه من العذاب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ﴾ يعني: جبريل ﴿نَزَّلَهُ﴾ يعني: القرآن، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمر الله ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله من الكتب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ خصهما بالذكر من جملة الملائكة مع دخولهما في قوله: «وَمَلَائِكَتِهِ» تفضيلاً وتخصيصًا يعني من كان عدواً لأحد هؤلاء فإنه عدوٌّ للكل، لأن الكافر بالواحد كالكافر بالكل ﴿...فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾.

قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مفصلات بالحلالِ والحرامِ والحدودِ والأحكامِ ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمرِ الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام ﴿عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ يعني: اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لَيُؤْمِنُنَّ به، فلما خرج كفروا به.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما ذكَّرهم رسول الله ﷺ ما أخذ الله عليهم من الميثاق وعهد إليهم في محمد أن يؤمنوا، به قال مالك بن الصيف: والله ما عُهِدَ إلينا في محمد عهدٌ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عطاء: هي العهود التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود أن لا يعاونوا المشركين على قتاله فنقضوها، كفعل بني قريظة والنضير، ﴿نَّبَذَهُ﴾ طرحه ونقضه ﴿فَرِيقٌ﴾ طوائف ﴿مِّنْهُم﴾ من اليهود ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ يعني: التوراة، وقيل: القرآن ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الشعبي: كانوا يقرؤون التوراة ولا يعملون بها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ يعني: اليهود ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: ما تَلَتْ، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي، والماضي موضع المستقبل، وقيل: «ما كنت تتلو»، أي: تقرأ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تتبع وتعمل به، وقال عطاء: تحدث وتكلم به ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: ملكه وعهده. ﴿...وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بالسحر. قيل: لم يكن سليمان كافراً بالسحر ويعمل به. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ قيل: معنى السحر العلم والحذق بالشيء، قال الله تعالى: «وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ» [سبا: ٤٩] أي: العالم، والصحيح: أن السحر عبارة عن التمويه والتخييل، والسحر وجوده حقيقة عند أهل السنة، وعليه أكثر الأمم، ولكن العمل به كفر، حُكي عن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: السحر يخيل ويمرض وقد يقتل، حتى أوجب القصاص على من قتل به، فهو من عمل الشيطان يتلقاه الساحر منه بتعليمه إياه، فإذا تلقاه منه استعمله في غيره، وقيل: إنه يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الآدمي على صورة الحمار، ويجعل الحمار على صورة الكلب، والأصح أن ذلك تخييل، قال الله تعالى: «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ» [طه: ٦٦]، لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون، وللكلام تأثير في الطباع والنفوس، وقد يسمع الإنسان ما يكره فيحمى ويغضبُ وربما يُحمُّ منه، وقد مات قوم بكلام سمعوه، فهو بمنزلة العوارض والعلل التي تؤثر في الأبدان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ أي: ويعلمون الذي أنزل على الملكين أي: إلهامًا وعلمًا، فالإنزال بمعنى الإلهام والتعليم، وقيل: واتبعوا ما أنزل على الملكين.

فإن قيل: كيف يجوز تعليم السحر من الملائكة؟ قيل: له تأويلان:

أحدهما: أنهما لا يتعمدان التعليم، لكن يصفان السحر ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه، والتعليم بمعنى الإعلام، فالشقي يترك نصيحتهما ويتعلم السحر من صنعتهما.

والتأويل الثاني ـ وهو الأصح: أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، فمن شقي يتعلم السحر منهما، ويأخذ عنهما ويعمل به فيكفر به، ومن سعد يتركه فيبقى على الإيمان، ويزداد المعلمان بالتعليم عذابًا، ففيه ابتلاء للمعلم والمتعلم، ولله أن يمتحن عباده بما شاء، فله الأمر والحكم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ اسمان سريانيان، وهما في محل الخفض على تفسير الملكين، إلا أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحدًا، و«من» صلة ﴿حَتَّىٰ﴾ ينصحاه أولاً و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء ومحنة ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر، وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان، من قولهم: فَتَنْتُ الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار؛ ليتميز الجيِّد من الرديء.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه، ويُبَغِّضَ كل واحد إلى صاحبه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم﴾ قيل: أي السحرة، وقيل: الشياطين ﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ أي: بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحدًا ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعلمه وتكوينه، فالساحر يسحر والله يُكَوِّن. قال سفيان الثوري: معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيئته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني: أن السحر يضرهم ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ يعني: اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: اختار السحر ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: في الجنة من نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ باعوا به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ حظَّ أنفسهم، حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ اليهودية والسحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ لكان ثواب الله إياهم خيرًا لهم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا

يا رسول الله، من المراعاة، أي: أرْعِنَا سمعك، أي: فَرِّغْ سمعك لكلامنا، وكانت هذه اللفظة شيئًا قبيحًا بلغة اليهود، وقيل: كان معناها عندهم اسمع لا سمعت. ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ أي: انظر إلينا، وقيل: انتظرنا وتأنَّ بنا، قال مجاهد: معناها: فَهِّمْناه ﴿وَٱسْمَعُوا۟ۗ﴾ ما تؤمرون به وأطيعوا ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: اليهود ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ما يحب ويتمنى الذين كفروا من أهل الكتاب، يعني: اليهود ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ أي: خير ونبوة، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ بنبوته ﴿مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والفضل ابتداء إحسان بلا علة.

۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ وذلك أن المشركين قالوا: إن محمدًا ما يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلاف ما يقوله إلا من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غدًا، كما أخبر الله «وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ» [النحل: ١٠١]، وأنزل «مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا» فبين وجه الحكمة من النسخ بهذه الآية.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: ننسها على قلبك. ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: بما هو أنفع لكم، وأسهل عليكم، وأكثر لأجركم، لا أنَّ آية خيرٌ من آية؛ لأن كلام الله واحد وكله خير ﴿أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ في المنفعة والثواب، فكل ما نسخ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل، وما نسخ إلى الأشق فهو في الثواب أكثر ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النسخ والتبديل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم﴾ يا معشر الكفار عند نزول العذاب ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مما سوى الله ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ قريب وصديق، وقيل: من والٍ، وهو القيِّم بالأمور ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ نزلت في اليهود حين قالوا: يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة فقال تعالى: «أَمْ تُرِيدُونَ» يعني: أتريدون، فالميم صلة، وقيل: بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمدًا ﷺ ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ﴾ سأله قومه: أرنا الله جهرة، وقيل: إنهم سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، كما أن موسى سأله قومه فقالوا: أرنا الله جهرةً، ففيه منعهم عن السؤالات المقبوحة بعد ظهور

الدلائل والبراهين ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يستبدل الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ وسط الطريق، وقيل: قصد السبيل.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ يا معشر المؤمنين ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾، أي: يحسدونكم حسدًا ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: من تلقاء أنفسهم، ولم يأمرهم الله بذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق ﴿فَٱعْفُوا۟﴾ فاتركوا ﴿وَٱصْفَحُوا۟﴾ وتجاوزوا، فالعفو: المحو، والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بعذابه: القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -، وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم حَكَمَ لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟﴾ تسلفوا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعة وعمل صالح ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقيل: أراد بالخير المال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ أي: يهوديًا، ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا ولا دين إلا دين اليهودية، وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا ولا دين إلا دين النصرانية.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير الحق ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا۟﴾ أصله: آتوا ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على ما زعمتم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ثم قال ردًّا عليهم ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا، بل الحكم للإسلام، وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه ﴿لِلَّهِ﴾ أي: أخلص دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل: خضع وتواضع لله، وأصل الإسلام: الاستسلام والخضوع، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، وقيل: مؤمن، وقيل: مخلص ﴿فَلَهُۥٓ

أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ نزلت في يهود المدينة ونصارى أهل نجران؛ وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبي ﷺ أتاهم أحبار اليهود؛ فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بموسى والتوراة؛ فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: آباءهم الذين مضوا ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني عوامّ النصارى، وقال مقاتل: يعني مشركي العرب، كذلك قالوا في نبيهم محمد ﷺ وأصحابه: إنهم ليسوا على شيء من الدين. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقضي بين المحق والمبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: أكفر وأعتى ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ﴾ عمل ﴿فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ عذاب وهوان، قال قتادة: هو القتل للحربي والجزية للذمي، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو النار، قال عطاء وعبد الرحمن بن زيد: نزلت في مشركي مكة، وأراد بالمساجد: المسجد الحرام، منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من حجه والصلاة فيه عام الحديبية، وإذا مَنَعوا مَنْ يعمُره بذكرٍ فقد سعوا في خرابه «أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ» يعني: أهل مكة، يقول: أفتحها عليكم حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم، ففتحها عليهم وأمر النبي ﷺ مناديًا ينادي: «ألا لا يحجنَّ بعد هذا العام مشرك»[1] فهذا خوفهم، وثبت في الشرع أن لا يمكّن مشرك من دخول الحرم «لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ» الذل والهوان والقتل والسبي والنفي.

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٤٧٧)، ومسلم برقم١٣٤٧: (٢/ ٩٨٢).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفرٍ قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة، فتحروا القبلة وصلوا، فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا وأنهم مخطئون في تحريهم، فلما قدموا سألوا رسول الله عن ذلك فنزلت هذه الآية.

وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في المسافر يصلي التطوع حيث ما توجهت به راحلته. قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي على راحلته في السفر حيث ما توجهت به»(١).

قال عكرمة: نزلت في تحويل القبلة، قال أبو العالية: لما صرفت القبلة إلى الكعبة عيرت اليهود المؤمنين وقالوا: ليست لهم قبلة معلومة، فتارة يستقبلون هكذا وتارة هكذا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مجاهد والحسن: لما نزلت: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [غافر: ٦٠]، قالوا: أين ندعوه فأنزل الله عزَّ وجلَّ «وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ» مُلكًا وخلقًا «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ» يعني: أينما تحولوا وجوهكم فثم، أي: هناك وجه الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ أي: غني يعطي في السعة، قال الفراء: الواسع الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء، قال الكلبي: واسع المغفرة ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتهم حيثما صلوا ودعوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت في يهود المدينة حيث قالوا: «عزير ابن الله»، وفي نصارى نجران حيث قالوا: «المسيح ابن الله»، وفي مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزَّه وعظَّم نفسه.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا»(٢).

قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا ومِلْكًا ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قال مجاهد وعطاء والسُّدي: مطيعون، وقال عكرمة ومقاتل: مُقِرونَ له بالعبودية، وأصل القنوت: القيام، قال النبي ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت»(٣)، واختلفوا في حكم الآية، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص، وقال مقاتل: هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس، وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٥٠٣)، ومسلم برقم٧٠٠: (١/ ٤٨٧).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ١٦٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم٧٥٦، ٧٥٧: (١/ ٥٢٠).

في جميع الخلق؛ لأن «كُلٌّ» تقتضي الإحاطة بالشيء بحيث لا يشذ منه شيء.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعها ومنشئها من غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: قدَّره، وقيل: أحكمه وقدره وأتقنه، وأصل القضاء: الفراغ، ومنه قيل لمن مات: قضي عليه؛ لفراغه من الدنيا، ومنه قضاء الله وقدره؛ لأنه فرغ منه تقديرًا وتدبيرًا.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لأجل تكوينه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اليهود، وقال مجاهد: النصارى، وقال قتادة: مشركو العرب ﴿لَوْلَا﴾ هلاَّ ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ عيانًا بأنك رسوله، وكل ما في القرآن «لولا» فهو بمعنى هلاَّ، إلا واحدًا، وهو قوله: «فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ» [الصافات: ١٤٣]، معناه: فلو لم يكن ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ دلالة وعلامة على صدقك في ادعائك النبوة.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أي: كفار الأمم الخالية ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبه بعضها بعضًا في الكفر والقسوة وطلب المحال ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق، كقوله: «وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ» [يونس: ٥٣]، أي: صدق، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بالقرآن، دليله «بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ» [ق: ٥]، وقال ابن كيسان: بالإسلام وشرائعه، دليله قوله عزَّ وجلَّ: «وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ» [الإسراء: ٨١]، وقال مقاتل: معناه لم نرسلك عبثًا، إنما أرسلناك بالحق، كما قال: «وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ» [الحجر: ٨٥].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَشِيرًا﴾ أي: مبشرًا لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب الكريم ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: منذرًا مخوفًا لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ والجحيم معظم النار.

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾

وذلك أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة ويطمعون في أنه إن أمهلهم اتبعوه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه: وإنك إن هادنتهم فلا يرضون بها، وإنما يطلبون ذلك تعللاً، ولا يرضون منك إلا باتباع ملتهم، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي ﷺ حين كان يصلي إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا في أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾ إلا باليهودية ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ إلا بالنصرانية، والمِلَّة: الطريقة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ قيل: الخطاب مع النبي ﷺ، والمراد به الأمة، كقوله: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» [الزمر: ٦٥]، ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البيان بأن دين الله هو الإسلام، والقبلة قبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكانوا أربعين رجلاً، وقال قتادة وعكرمة: هم أصحاب محمد ﷺ، وقيل: هم المؤمنون عامة ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال الكلبي: يصفونه في كُتبهم حق صفته لمن سألهم من الناس، والهاء راجعة إلى محمد ﷺ، وقال الآخرون: هي عائدة إلى الكتاب، واختلفوا في معناه، فقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يقرؤونه كما أُنزل ولا يحرفونه، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، وقال الحسن: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون علم ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقال مجاهد: يتبعونه حق اتباعه.

۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الابتلاء: الاختبار والامتحان والأمر، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء؛ لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضًا. وقد اختلفوا في الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم عليه السلام على أقول كثيرة. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال قتادة: أداهنَّ، قال الضحاك: قام بهنَّ.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدى بك في الخير ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: ومن أولادي أيضًا فاجعل منهم أئمة يقتدى بهم في الخير ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا يَنَالُ﴾ لا يصيب ﴿عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ومعنى الآية لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالمًا من ولدك، وقيل: أراد بالعهد الأمان من النار، وبالظالم المشرك، كقوله تعالى: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ» [الأنعام: ٨٢].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ يعني: الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعًا لهم، يأتون إليه من كل جانب ويحجون، ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: مأمنًا يأمنون فيه من إيذاء المشركين.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفَّر صيده، ولا تُلتقط لقطته إلا من عرَّفها، ولا يُختلى خلاه» فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر»[1].

قال تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال ابن يمان: المسجد كله مقام إبراهيم، وقال إبراهيم النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج، مثل عرفة ومزدلفة وسائر المشاهد.

والصحيح أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد يُصلي إليه الأئمة، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء البيت، قال قتادة ومقاتل والسدي: أمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله.

عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «وافقت الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث ـ قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله تعالى «وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»، وقلت: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أُمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت لهنَّ: إن انتهيتن، أو ليبدلنه الله خيرًا منكنَّ، فأنزل الله تعالى: «عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ...» الآية [التحريم: ٥]»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وأوحينا إليهما، ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ يعني: الكعبة، أضافه إليه تخصيصًا وتفضيلاً، أي: ابنياه على الطهارة والتوحيد، وقال سعيد بن جبير وعطاء: طهراه من الأوثان والريب وقول الزور، ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ الدائرين حوله ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين المجاورين ﴿وَالرُّكَّعِ﴾ جمع راكع ﴿السُّجُودِ﴾ جمع ساجد وهم المصلون.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢١٣)، ومسلم برقم٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥: (٢/ ٩٨٦).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ١٦٨)، ومسلم برقم٢٣٩٩: (٤/ ١٨٦٥) مختصرًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ يعني: مكة، وقيل: الحرم ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن يأمن فيه أهله ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إنما دعا بذلك؛ لأنه كان بوادٍ غير ذي زرع، ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ دعاء للمؤمنين خاصة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي: سأرزق الكافر أيضًا قليلاً إلى منتهى أجله، وذلك أن الله تعالى وعد الرزق للخلق كافَّةً مؤمنهم وكافرهم، وإنما قيده بالقلة لأن متاع الدنيا قليل ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي: أُلجئه في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يصير إليه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ يعني: أسسه، واحدتها قاعدة.

قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ فيه إضمار، أي: ويقولان: ربنا تقبل منا بناءنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتنا ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ موحدين مطيعين مخلصين خاضعين لك.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ أي: أولادنا ﴿أُمَّةً﴾ جماعة، والأمة أتباع الأنبياء ﴿مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ خاضعة لك.

﴿وَأَرِنَا﴾ علِّمنا وعرِّفنا، ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شرائع ديننا وأعلام حجنا. وقيل: مواضع حجنا، وقال مجاهد: مذابحنا، والنسك: الذبيحة، وقيل: متعبداتنا، وأصل النسك: العبادة، والناسك: العابد؛ فأجاب الله تعالى دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم؟ قال: نعم، فسمى الوقت عرفة والموضع عرفات.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ تجاوز عنَّا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وقيل: من أهل مكة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: مرسلاً، أراد به محمدًا ﷺ.

عن العرباض بن سارية، عن رسول الله ﷺ قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أُمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام»[1].

---

(١) رواه أحمد: (٤/ ١٢٧ - ١٢٨)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٤١٨، ٦٠٠)، وابن حبان في «موارد الظمآن»: ص. ٥١٢.
وقال الهيثمي: أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد ولم يوثقه غير ابن حبان. «مجمع الزوائد»: (٣/ ٢٢٣).

وأراد بدعوة إبراهيم هذا: فإنه دعا أن يبعث في بني إسماعيل رسولاً منهم، قال ابن عباس: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿يَتْلُواْ﴾ يقرأ ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ كتابك، يعني: القرآن، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: فهم القرآن، وقال مقاتل: مواعظ القرآن وما فيه من الأحكام، قال ابن قتيبة: هي العلم والعمل، ولا يكون الرجل حكيمًا حتى يجمعهما.

وقيل: هي السنة، وقيل: هي الأحكام والقضاء، وقيل: الحكمة الفقه.

قال أبو بكر بن دريد: كل كلمةٍ وعظتْكَ أو دَعَتْك إلى مكرمةٍ أو نهتكَ عن قبيحٍ فهي حكمة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْۚ﴾ أي: يطهرهم من الشرك والذنوب، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال ابن عباس: العزيز الذي لا يوجد مثله، والعزة: القوة، قال الله تعالى: «فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ» [يس: ١٤]، أي: قوينا، وقيل: الغالب، قال الله تعالى إخبارًا: «وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ» [ص: ٣٨]، أي: غلبني.

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: يترك دينه وشريعته، يقال: رغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا تركه. ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ قال ابن عباس: من خسر نفسه، وقال الكلبي: ضلَّ من قِبَلِ نفسه، وقال أبو عبيدة: أهلك نفسه، وقال ابن كيسان والزجاج: معناه: جهل نفسه، والسفاهة: الجهل وضعف الرأي.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ﴾ اخترناه في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني: مع الأنبياء في الجنة، فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ﴾ أي: استقم على الإسلام واثبت عليه؛ لأنه كان مسلمًا.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فوضت.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ قال الكلبي ومقاتل: يعني بكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله»، ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ معناه: أن يا بني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾ اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ

﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مؤمنون، داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال: «إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ» أي: محسنون بربكم الظن.

عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ»[(١)].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ يعني: أكنتم شهداء، يريد ما كنتم شهداء حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: حين قرب يعقوب من الموت، ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ قال عطاء: إن الله تعالى لم يقبض نبيًّا حتى يخيِّره بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب قال: أنظرني حتى أسأل ولدي وأوصيهم، ففعل الله ذلك به؛ فجمع ولده وولد ولده، وقال لهم: قد حضر أجلي فما تعبدون من بعدي ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وكان إسماعيل عمًّا لهم، والعرب تسمى العمَّ أبًا كما تسمي الخالة أُمًّا، قال النبي ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»[(٢)].

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ نصب على البدل في قوله: «إلهك»، وقيل: نعرفه إلهًا واحدًا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يسأل كل عن عمله لا عن عمل غيره.

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء يهود المدينة، وفي نصارى أهل نجران، قال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بل نتبع ملة إبراهيم. ﴿حَنِيفًا﴾ قال مجاهد: الحنيفية اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إمامًا للناس، قال ابن عباس:

(١) أخرجه مسلم برقم٢٨٧٧: (٤/ ٢٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم٩٨٣: (٢/ ٦٧٦ - ٦٧٧).

الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ثم علم المؤمنين طريق الإيمان فقال جلَّ ذكره: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وهو عشر صحف ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ يعني: أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطًا، ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ يعني: التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ يعني: الإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾ أعطي ﴿ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: نؤمن بالكل لا نفرق بين أحد منهم كما فعل اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و«قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...» الآية»(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بما آمنتم به، ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ أي: في خلاف ومنازعة، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ يا محمد، أي: يكفيك شر اليهود والنصارى، وقد كُفي بإجلاء بني النضير، وقتل بني قريظة، وضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ﴾ قال ابن عباس: دين الله، وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل: سنة الله، وقيل: أراد به الختان؛ لأنه يصبغ صاحبه بالدم، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ دينًا، وقيل: تطهيرًا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ مطيعون ﴿قُلْ﴾ يا محمد لليهود والنصارى ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دين الله، والمحاجة: المجادلة في الله لإظهار الحجة، ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: نحن وأنتم سواء في الله، فإنه ربُّنا وربكم ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: لكل واحد جزاء عمله، فكيف تدَّعون أنكم أولى بالله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ وأنتم به مشركون.

قال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله، فلا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله. قال الفضيل: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ

(١) رواه البخاري: (١٣/ ٣٣٣).

ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ يعني: أتقولون، صيغة استفهام ومعناه التوبيخ، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ وقد أخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ﴾ أخفى ﴿شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأن محمدًا ﷺ حق ورسول، أشهدهم الله عليه في كتبهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ كرره تأكيدًا.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الجهال ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ صرفهم وحوَّلهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يعني: بيت المقدس، نزلت في اليهود ومشركي مكة طعنوا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة، فقالوا لمشركي مكة: قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع إلى دينكم فقال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ ملك له، والخلق عبيده ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ نزلت في رؤساء اليهود، قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمد قبلتنا إلا حسدًا، وإن قبلتنا قبلة الأنبياء، ولقد علم محمدٌ أنَّا عدل بين الناس، فقال معاذ: إنا على حق وعدل.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا بعد العصر فما ترك شيئًا إلى يوم القيامة إلا ذكره في مقامه ذلك حتى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان، قال: «أما إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا، ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أُمة هي آخرها وأخيرها وأكرمها على الله تعالى»(١).

قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما معنى قوله تعالى: «لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ»؟ قال: أمة محمد ﷺ شهداء على من يترك الحق من الناس أجمعين ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ معدلاً مزكيًّا لكم.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟

---

(١) رواه أحمد: (٣/ ١٩)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٣٣).

فيقول: نعم يا رب، فيسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقال: من شهودكم؟ فيقول: محمد وأُمته، فقال رسول الله ﷺ: «فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي: تحويلها، يعني: بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ فإن قيل: ما معنى قوله: «إِلَّا لِنَعْلَمَ» وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها، قيل: أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب، إنما يتعلق بما يوجد، معناه ليعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل: «إِلَّا لِنَعْلَمَ»، أي: لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرتد، وفي الحديث: إن القبلة لما حُوِّلت ارتد قوم من المسلمين إلى اليهودية، وقالوا: رجع محمد إلى دين آبائه، ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: قد كانت، أي: تولية الكعبة، ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلة شديدة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هداهم الله، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ وذلك أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس، إن كانت هدى فقد تحولتم عنها، وإن كانت ضلالة فقد دنتم الله بها، ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه.

قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ وكان قد مات قبل أن تحول القبلة من المسلمين: أسعد بن زرارة من بني النجار، والبراء بن معرور من بني سلمة، وكانوا من النقباء، ورجال آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى[2]: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٣١٦).

(٢) انظر: «فتح الباري»: (٨/ ١٧١)، «تفسير الطبري»: (٣/ ١٦٧ - ١٦٩).

متقدمة في المعنى فإنها رأس القصة، وأمر القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعته في التوراة؛ فصلى بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس، وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فلنحولنك إلى قبلة ﴿تَرْضَىٰهَاۚ﴾ أي: تحبها وتهواها ﴿فَوَلِّ﴾ أي: حول ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ أي: نحوه وأراد به الكعبة، و«الحرام» المحرم ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من بر أو بحر أو شرق أو غرب ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ عند الصلاة.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه، فلما خرج ركع ركعتين في قُبُلِ الكعبة «وقال: هذه القبلة»[١].

عن البراء «أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد قباء وهم راجعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة فداروا كما هم قِبَل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل المقدس لأنه قبلة أهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك، وقال البراء في حديثه هذا: أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ»»[٢].

عن مالك بن أنس، عن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[٣].

فلما تحولت القبلة قالت اليهود: يا محمد، ما هو إلا شيء تبتدعه من تلقاء نفسك، فتارة تصلي إلى بيت المقدس، وتارة إلى الكعبة، ولو ثبتَّ على قبلتنا لكنَّا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره؟ فأنزل الله ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ يعني: أمر الكعبة ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾ ثم هددهم فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، قال ابن عباس: يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، وقيل: ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأُجازيهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٥٠١)، ومسلم برقم١٣٣٠: (٢/ ٩٦٨).
(٢) رواه البخاري: (٨/ ١٧١)، ومسلم برقم٥٢٥: (١/ ٣٧٤).
(٣) رواه البخاري: (٨/ ١٧٤)، ومسلم برقم٥٢٦: (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى، ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ معجزة ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ يعني: الكعبة ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب، والنصارى تستقبل المشرق، وقبلة المسلمين الكعبة.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «القبلة ما بين المشرق والمغرب»[1].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ مرادهم، الخطاب مع النبي ﷺ، والمراد به الأمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من الحق في القبلة ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعني: يعرفون محمدًا ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ من بين الصبيان. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: صفة محمد ﷺ وأمر الكعبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ الشاكّين.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: لأهل كل ملّة قبلة، والوجهة اسم للمتوجه إليه ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: مستقبلها ومقبل إليها، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: إلى الخيرات، يريد: بادروا بالطاعات، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ أنتم وأهل الكتاب ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وإنما كرر لتأكيد النسخ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ اختلفوا في تأويل هذه الآية، ووجه

---

(١) أخرجه الترمذي: (٢/٣١٧ - ٣١٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم١٠١١، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٢٠٥، ٢٠٦).

قوله «إِلَّا»: فقال بعضهم: معناه حولت القبلة إلى الكعبة «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ» إذا توجهتم إلى غيرها، فيقولون: ليست لكم قبلة «إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ» وهم قريش واليهود، فأما قريش فتقول: رجع محمد إلى الكعبة؛ لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة آبائه، فكذلك يرجع إلى ديننا، وأما اليهود فتقول: لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حق إلا أنه يعمل برأيه، وقال قوم: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ» يعني: اليهود، وكانت حجتهم على طريق المخاصمة على المؤمنين في صلاتهم إلى بيت المقدس أنهم كانوا يقولون: ما درى محمد ﷺ وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن.

وقوله: «إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ» وهم مشركو مكة، وحجتهم: أنهم قالوا ـ لما صرفت قبلتهم إلى الكعبة ـ: إن محمدًا قد تحير في دينه وسيعود إلى ملتنا كما عاد إلى قبلتنا، وهذا معنى قول مجاهد وعطاء وقتادة، وعلى هذين التأويلين يكون الاستثناء صحيحًا، وقوله: «إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ» يعني: لا حجة لأحد عليكم إلا لمشركي قريش، فإنهم يحاجونكم فيجادلونكم ويخاصمونكم بالباطل والظلم.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ في انصرافكم إلى الكعبة وفي تظاهرهم عليكم بالمجادلة فإني وليكم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة ﴿وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم فتتم لكم الملة الحنيفية، وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تمام النعمة الموت على الإسلام. قال سعيد بن جبير: لا تتم نعمة على المسلم إلا أن يدخله الله الجنة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا من الضلالة، و«لعل» و«عسى» من الله واجب.

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ يا معشر العرب. ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: الحكمة السنة، وقيل: مواعظ القرآن ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ من الأحكام وشرائع الإسلام ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ قال ابن عباس: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمغفرتي، وقال سعيد بن جبير: اذكروني في النعمة والرخاء؛ أذكركم في الشدة والبلاء.

عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب

إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ يعني: واشكروا لي بالطاعة ولا تكفروني بالمعصية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بالعون والنصرة ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ نزلت في قتلى بدر من المسلمين، وكانوا أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، كان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله: مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها؛ ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ قال الحسن: إن الشهداء أحياء عند الله تعالى، تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوحُ والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشية فيصل إليهم الوجع.

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أي: ولنختبرنكم يا أُمة محمد، والابتلاء من الله لإظهار المطيع من العاصي لا ليعلم شيئًا لم يكن عالمًا به ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ قال ابن عباس: يعني خوف العدو ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ يعني: القحط ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بالخسران والهلاك ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ يعني: بالقتل والموت، وقيل: بالمرض والشيب ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يعني: الجوائح في الثمار.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على البلايا والرزايا، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ عبيدًا وملكًا ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ في الآخرة.

عن أُم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مصيبة تصيب عبدًا فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أُجُرْني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أَجَرَه الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها»، قالت أُم سلمة: لما توفي أبو سلمة عزم الله لي؛ فقلت: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها؛ فأخلف الله لي رسول الله ﷺ(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ صلوات أي: رحمة، فإن الصلاة من الله الرحمة، و«وَرَحْمَةٌ» ذكرها الله تأكيدًا، وجمع الصلوات أي: رحمة بعد رحمة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ إلى الاسترجاع، وقيل: إلى الحق والصواب، وقيل: إلى الجنة، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: نعم العِدْلاَن ونعمت العِلاوة، فالعدلان الصلاة والرحمة، والعلاوة الهداية.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٣٨٤)، ومسلم برقم٢٦٧٥: (٤/ ٦١).
(٢) أخرجه مسلم برقم٩١٨: (٢/ ٦٣٢ - ٦٣٣).

وقد وردت أخبار في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُصِبْ منه»[(١)].

وعنه أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[(٢)].

﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ الصفا جمع صفاة: وهي الصخرة الصلبة الملساء، والمروة: الحجر الرخو، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، وشعائر الله: أعلام دينه، أصلها من الإشعار وهو الإعلام واحدتها شعيرة، وكل ما كان مَعْلَمًا لقربان يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة، فالمطاف والموقف والنحر كلها شعائر الله ومثلها المشاعر، والمراد بالشعائر هاهنا: المناسك التي جعلها الله أعلامًا لطاعته، ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ فالحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وفي الحج والعمرة المشروعين قصد وزيارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا إثم عليه، وأصله من جنح، أي: مال عن القصد ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أي: يدور بهما، وأصله: يتطوف، أُدغمت التاء في الطاء.

وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان: أساف ونائلة، وكان أساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيمًا للصنمين ويتمسحون بهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كان المسلمون يتحرجون عن السعي بين الصفا والمروة لأجل الصنمين؛ فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله.

عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ أرأيت قول الله تعالى: «إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ» فما أرى على أحد شيئًا ألا يطوف بهما، قالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول كانت «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما» إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قُدَيْدٍ وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك

(١) رواه البخاري: (١٠/١٠٣).
(٢) رواه البخاري: (١٠/١٠٣)، ومسلم برقم٢٥٧٣: (٤/١٩٩٣).

فأنزل الله تعالى «إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ» الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بمعنى يتطوع، وقال مجاهد: معناه فمن تطوع بالطواف بالصفا والمروة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ مجازٍ لعبده بعمله ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته، والشكر من الله تعالى أن يعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت في علماء اليهود كتموا صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأصل اللعن: الطرد والبعد ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: يسألون الله أن يلعنهم ويقولون: اللهم العنهم. ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الكفر ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أسلموا وأصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ما كتموا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع بقلوب عبادي المنصرفة عني إليَّ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم بعد إقبالهم عليَّ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: لعنة الملائكة ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قال أبو العالية: هذا يوم القيامة، يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس، فإن قيل: فقد قال: «وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والملعون هو من جملة الناس، فكيف يلعن نفسه؟ قيل: يلعن نفسه في القيامة، قال الله تعالى: «وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا» [العنكبوت: ٢٥]، وقيل: إنهم يلعنون الظالمين والكافرين، ومن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في اللعنة، وقيل: في النار ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون ولا يؤجلون.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص، والواحد: الذي لا نظير له ولا شريك له.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ١٧٥)، ومسلم: (٢/ ٩٢٨).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكر السموات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد؛ لأن كل سماء ليست من جنس واحد بل من جنس آخر، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب، فالآية في السماوات: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة وما ترى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض: مدها وبسطها وسعتها وما ترى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار والجواهر والنبات.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما في الذهاب والمجيء إذا ذهب، قال عطاء: أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ يعني: السفن، ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ يعني: المطر، ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ أي: الماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يبوستها وجدوبتها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: فرَّق فيها ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾. والريح يُذكَّر ويُؤنَّث، وتصريفها أنها تتصرف إلى الجنوب والشمال والقبول والدَّبور والنكباء. وقيل: تصريفها أنها تارة تكون لينًا وتارة تكون عاصفًا وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة، قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ أي: الغيم المذلل، سُمي سحابًا لأنه ينسحب، أي: يسير في سرعة كأنه يسحب، أي: يجر ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقًا وصانعًا.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أصنامًا يعبدونها ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي: يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله، وقال الزجَّاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أوثانهم في المحبة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: أثبت وأدوم على حبه؛ لأنهم لا يختارون على الله ما سواه، والمشركون إذا اتخذوا صنمًا ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثاني، قال قتادة: إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى، كما أخبر الله عزَّ وجلَّ عنهم فقال: «فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» [العنكبوت: ٦٥]، والمؤمن لا يعرض عن الله في السراء والضراء والشدة والرخاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب أو لو

رأوا شدة عذاب الله وعقوبته حين يرون العذاب لعرفوا مضرة الكفر وأن ما اتخذوا من الأصنام لا ينفعهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: بأن القوة لله جميعًا، معناه: لرأوا وأيقنوا أن القوة لله جميعًا.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ هذا في يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع فيتبرأ بعضهم من بعض، هذا قول أكثر المفسرين، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾ أي: عنهم ﴿الْأَسْبَابُ﴾ أي: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا من القرابات والصداقات، وصارت مُخالَّتهم عداوة، وقال ابن جريج: الأرحام كما قال الله تعالى: «فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ» [المؤمنون: ١٠١]، وقال السدي: يعني الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا كما قال الله تعالى: «وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا» [الفرقان: ٢٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ يعني: الأتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي: من المتبوعين ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ اليوم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أراهم العذاب كذلك ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ﴾ وقيل: كتبرىء بعضهم من بعض يريهم الله ﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ ندامات ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جمع حسرة، قيل: يريهم الله ما ارتكبوا من السيئات فيتحسرون لِمَ عملوا، وقيل: يريهم ما تركوا من الحسنات فيندمون على تضييعها، ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فالحلال ما أحله الشرع، «طيبًا» قيل: ما يستطاب ويستلذ، والمسلم يستطيب الحلال ويعاف الحرام، وقيل: الطيِّب الطاهر ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ خطوات الشيطان آثاره وزلاته، وقيل: هي النذر في المعاصي، وقال أبو عبيدة: هي المحقرات من الذنوب، وقال الزجاج: طرقه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّن العداوة، وقيل: مظهر العداوة، وقد أظهر عداوته بإبائه السجود لآدم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة.

ثم ذكر عداوته فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ أي: بالإثم، ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ المعاصي وما قبح من القول والفعل، ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من تحريم الحرث والأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ رُوي عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، قال رافع بن خارجة ومالك بن عوف قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فهم كانوا خيرًا وأعلم منّا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل الآية متصلة بما قبلها، وهي نازلة في مشركي العرب وكفار قريش، ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ أي: ما وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من عبادة الأصنام.

قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: كيف يتبعون آباءهم وآباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ المعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً لا يعقلون شيئًا، لفظه عام ومعناه الخصوص، أي: لا يعقلون شيئًا من أُمور الدين لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ثم ضرب الله مثلاً فقال جل ذكره:

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ والنعيق والنعق صوت الراعي بالغنم، معناه: مثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عزَّ وجلَّ كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم، ﴿إِلَّا دُعَآءً﴾ صوتًا ﴿وَنِدَآءً﴾ معناه: كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها، كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنما يسمع صوتك، وقيل معناه: مثل الذين كفروا في دعاء الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم فلا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه في عناء من الدعاء والنداء، كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلا العناء والبلاء، كما قال تعالى: «إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ» [فاطر: ١٤].

﴿صُمٌّۢ﴾ يقول العرب لمن يسمع ولا يعقل، كأنه أصم ﴿بُكْمٌ﴾ عن الخير لا يقولونه ﴿عُمْىٌ﴾ عن الهدى لا يبثرونه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ﴾ من حلالات ﴿مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا" [المؤمنون: ٥١]، وقال: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ"، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي

بالحرام فأنّى يستجاب لذلك»[1].

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على نعمه ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

ثم بين المحرمات فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾، والميتة: كل ما لم تدرك ذكاته مما يذبح ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أراد بالدم: الجاري، يدل عليه قوله تعالى: «أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا» [الأنعام: ١٤٥]، واستثنى الشرع من الميتة: السمك والجراد، ومن الدم: الكبد والطحال فأحلها.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحلَّت لنا ميتتان ودمان، الميتتان: الحوت والجراد، والدمان ـ أحسبه قال ـ: الكبد والطحال»[2]، ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ أراد به: جميع أجزائه، فعبر عن ذلك باللحم لأنه معظمه ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذبح للأصنام والطواغيت، وأصل الإهلال: رفع الصوت، وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها؛ فجرى ذلك من أمرهم حتى قيل لكل ذابح وإن لم يجهر بالتسمية: مهل، وقال الربيع بن أنس وغيره: «وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ» قال: ما ذكر عليه اسم غير الله.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ معناه: فمن اضطر إلى أكل ميتة، أي: أُحوج وأُلجىء إليه ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ أصل البغي: قصد الفساد، وأصل العدوان: الظلم ومجاوزة الحد، ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: فلا حرج عليه في أكلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لمن أكل في حال الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث رخص للعباد في ذلك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: صفة محمد ﷺ ونبوته ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالمكتوم ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي: عوضًا يسيرًا، يعني: المآكل التي يصيبونها من سفلتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ يعني: إلا ما يؤديهم إلى النار، وهو الرشوة والحرام وثمن الدين، وقيل معناه: أنه يصير نارًا في بطونهم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي:

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٠١٥: (٢/ ٧٠٣).

(٢) رواه ابن ماجه برقم٣٣١٤: (٢/ ١١٠٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٩٧)، والشافعي في «المسند»: (٢/ ١٧٣) واللفظ له، والبيهقي: (١/ ٢٥٤) موقوفًا، ثم قال: وهذا إسناد صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني: برقم١١١٨.

لا يكلمهم بالرحمة وبما يسرهم، إنما يكلمهم بالتوبيخ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق فأنكروه وكفروا به، وقال بعضهم معناه: «فعلنا ذلك بهم» «بِأَنَّ اللَّهَ» أي: لأن الله «نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ»؛ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في خلاف وضلال بعيد.

﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، والبرُّ: كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة، واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية، فقال قوم: عنى بها اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود كانت تصلي قِبَل المغرب إلى بيت المقدس والنصارى قبل المشرق، وزعم كل فريق منهم أن البر في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البر غير دينهم وعملهم، ولكنه ما بيَّنه في هذه الآية، وعلى هذا القول قتادة ومقاتل بن حيان.

وقال الآخرون: المراد بها المؤمنون، وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض إذا أتى بالشهادتين وصلى الصلاة إلى أي جهة كانت ثم مات على ذلك وجبت له الجنة. ولما هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض وحددت الحدود وصرفت القبلة إلى الكعبة أنزل الله هذه الآية فقال: «لَّيْسَ الْبِرَّ»، أي: كله أن تصلوا قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا على غير ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ كلهم ﴿وَالْكِتَابِ﴾ يعني: الكتب المنزلة ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ أجمع ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ أعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ اختلفوا في هذه الكناية، فقال أكثر أهل التفسير: إنها راجعة إلى المال، أي: أعطى المال في حال صحته ومحبته للمال، قال ابن مسعود: أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر.

عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان: كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[١].

وقيل: عائدة على الله عز وجل، أي: على حب الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري: (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥)، ومسلم برقم١٠٣٢: (٢/ ٧١٦).

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أهل القرابة. عن سلمان بن عامر يبلغ به النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»(١).

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال مجاهد: يعني المسافر المنقطع عن أهله يمر عليك، ويقال للمسافر: ابن السبيل لملازمته الطريق، وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل، قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(٢)، ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ يعني: الطالبين.

عن أم بجيد أن رسول الله ﷺ قال: «رُدُّوا السائل ولو بِظِلف مُحْرَقٍ»، وفي رواية قالها رسول الله ﷺ: «إن لم تجدي شيئًا إلا ظلفًا محرقًا فادفعيه إليه»(٣)، قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ يعني: المكاتبين. قاله أكثر المفسرين، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأعطى الزكاة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ فيما بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ، وفيما بينهم وبين الناس ﴿إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا ائتمنوا أدُّوا.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الشدة والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض والزمانة ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: القتال والحرب. عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: كنَّا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه(٤). يعني إذا اشتد الحرب ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ نزلت هذه الآية في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكانت بينهما قتلى وجراحات لم يأخذها بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام.

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ أي: فرض عليكم القصاص ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾ والقصاص: المساواة والمماثلة في الجراحات والديات.

---

(١) رواه الترمذي: (٣/ ٣٢٤)، وقال: حديث حسن، والنسائي: (٥/ ٩٢)، وابن ماجه برقم١٨٤٤: (١/ ٥٩١)، والدارمي: (١/ ٣٩٧)، وأحمد: (٤/ ١٨، ٢١٤)، والحاكم: (١/ ٤٠٧)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري: (١١/ ٣٠٨)، ومسلم برقم٤٧: (١/ ٦٨).

(٣) رواه أبو داود: (٢/ ٢٥١)، والترمذي: (٣/ ٣٣٢)، وقال: حسن صحيح، والنسائي: (٥/ ٨٦)، وصححه الحاكم: (١/ ٤١٧) ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم: (٣/ ١٧٧٦).

ثم بين المماثلة فقال: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾.

عن أبي جحيفة قال: «سألت عليًا - رضي الله عنه - هل عندك عن النبي ﷺ شيء سوى القرآن؟ فقال: لا، والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مؤمن بكافر»[(١)].

عن أنس بن النضر أن الرُّبَيِّع عمته كسرت ثَنِيَّةَ جارية، فطلبوا إليها العفو، فأبوا فعرضوا الأرش فأبوا؛ فأتوا رسول لله ﷺ فأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟! لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيته، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص» فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ أي: ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ورضي بالدية، وقوله: «مِنۡ أَخِيهِ» أي: من دم أخيه، وأراد بالأخ المقتول، وقوله: «شَيۡءٞ» دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا يسقط القود؛ لأن شيئًا من الدم قد بطل.

قوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: على الطالب للدية أن يتبع بالمعروف فلا يطالب بأكثر من حقه.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي: على المطوب منه أداء الدية بالإحسان من غير مماطلة، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ أي: ذلك الذي ذكرت من العفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة، وذلك أن القصاص في النفس والجراح كان حتمًا في التوراة على اليهود ولم يكن لهم أخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخير الله تعالى هذه الأُمة بين القصاص وبين العفو على الدية تخفيفًا منه ورحمة.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ فقتل الجاني بعد العفو وقبول الدية ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وهو أن يقتل قصاصًا، قال ابن جريج: يتحتم قتله حتى لا يقبل العفو، وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافرًا بالقتل؛ لأن الله تعالى خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ»، وقال في آخر الآية: «فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ» وأراد به أُخوة الإيمان، فلم يقطع الأخوة بينهما بالقتل.

وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

---

(١) البخاري: (١٢/ ٢٦٠).

(٢) رواه البخاري: (٥/ ٣٠٦).

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أي: بقاء، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قَتل يُقتل يمتنع عن القتل؛ فيكون فيه بقاؤه وبقاء من همَّ بقتله، وقيل في المثل: (القتل قلّل القتل)، وقيل في المثل: (التقل أنفى للقتل)، وقيل معنى الحياة: سلامته من قصاص الآخرة، فإنه إذا اقتص منه حيي في الآخرة، وإذا لم يقتص منه في الدنيا اقتص منه في الآخرة ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: تنتهون عن القتل مخافة القَوَد.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فَرض عليكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: جاءه أسباب الموت وآثاره من العلل والأمراض ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ أي: مالاً، ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال، ثم نسخت بآية الميراث.

عن عمرو بن خارجة قال: كنت آخذًا بزمام ناقة النبي ﷺ فقال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ولا وصية لوارث»[١]. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه»[٢].

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ يريد: يوصي بالمعروف ولا يزيد على الثلث، ولا يوصي للغني ويدع الفقير. عن سعد بن مالك قال: جاءني النبي ﷺ يعودُني؛ فقلت: يا رسول الله، أوصي بمالي كله؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال: لا، قلت: فالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بأيديهم»[٣].

قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ أي: جعل الوصية حقًّا ﴿عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: غيَّر الوصية في الأوصياء أو الأولياء أو الشهود ﴿بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ﴾ أي: بعد ما سمع قول الموصي؛ ﴿إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ﴾ والميت بريء منه ﴿ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما أوصى به الموصي ﴿عَلِيمٞ﴾ بتبديل المبدل، أو سميع لوصيته عليم بنيته.

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ﴾ أي: علم، ﴿مِن مُّوصٖ جَنَفًا﴾ أي: جورًا وعدولاً عن الحق، والجنف: الميل ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أي: ظلمًا، ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ واختلفوا في معنى الآية، قال مجاهد: معناها أن الرجل إذا حضر مريضًا وهو يوصي فرآه يميل إما بتقصير أو إسراف، أو وضع

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود: (٤/ ١٥٠)، والترمذي: (٦/ ٣٠٩)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي: (٦/ ٢٤٧)، وابن ماجه برقم٢٧١٢، ٢٧١٤: (٢/ ٩٠٥ - ٩٠٦)، وأحمد: (٤/ ١٨٦)، (٥/ ٢٦٧).

(٢) رواه البخاري: (٥/ ٣٥٥)، ومسلم برقم١٦٢٧: (٣/ ١٢٤٩).

(٣) رواه البخاري: (٥/ ٣٦٣)، ومسلم برقم١٦٢٨: (٣/ ١٢٥٠).

الوصية في غير موضعها فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف فينظر للموصى وللورثة، وقال آخرون: إنه أراد به أنه إذا أخطأ الميت في وصيته أو جار متعمدًا فلا حرج على وليه أو وصيه أو والي أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم، ويرد الوصية إلى العدل والحق، «فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ» أي: فلا حرج عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فرض وأوجب، والصوم والصيام في اللغة: الإمساك، وفي الشريعة: الصوم هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع مع النية في وقت مخصوص ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأنبياء والأمم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ يعني: بالصوم؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: لعلكم تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ قيل: كان في ابتداء الإسلام صومه ثلاثة أيام من كل شهر واجبًا، وصوم يوم عاشوراء.

عن عائشة أُم المؤمنين أنها قالت: «كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فرض رمضان كان هو الفريضة وترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه»(١).

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ﴾ أي: فأفطر؛ فعدة ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ أي: فعليه عدة، والعدد والعدة واحد «مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ» أي: غير أيام مرضه وسفره.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحكمها، فذهب أكثرهم إلى أن الآية منسوخة، وهو قول ابن عمر وسلمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا، خيرهم الله تعالى لئلا يشق

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ١٠٢)، ومسلم برقم١١٢٥: (٢/ ٧٩٢).

عليهم؛ لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم، ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى: «فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ».

وقال قتادة: هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي يطيق الصوم ولكن يشق عليه، رخص له أن يفطر ويفدي ثم نُسخ.

وقال الحسن: هذا في المريض الذي به ما يقع عليه اسم المرض وهو مستطيع للصوم، خير بين أن يصوم وبين أن يفطر ويفدي، ثم نسخ بقوله تعالى: «فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ»، وثبتت الرخصة للذين لا يطيقون.

وذهب جماعة إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناه: على الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب فعجزوا عنه بعد الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم، وقرأ ابن عباس «﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾ يُطَوَّقُونَه» بضم الياء وفتح الطاء وتخفيفها وفتح الواو وتشديدها، أي: يكلفون الصوم، وتأويله على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم، والمريض الذي لا يرجى زوال مرضه فهم يكلفون الصوم ولا يطيقونه، فلهم أن يفطروا ويطعموا مكان كل يوم مسكينًا، وهو قول سعيد بن جبير، وجعل الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والفدية: الجزاء، ويجب أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا مُدًّا من الطعام بمدِّ النبي ﷺ، وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أي: زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يوم مسكينين فأكثر. ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فمن ذهب إلى النسخ قال: معناه الصوم خير له من الفدية، وقيل: هذا في الشيخ الكبير لو تكلف الصوم وإن شق عليه خير له من أن يفطر ويفدي ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ثم بيَّن الله تعالى أيام الصيام فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ رُوي عن مقسم عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله عزَّ وجلَّ: «شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ»، وقوله: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ» [القدر: ١]، وقوله: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ» [الدخان: ٣]، وقد نزل في سائر الشهور، وقال عزَّ وجلَّ: «وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ» [الإسراء: ١٠٦]، فقال: أُنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله تعالى: «۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ» [الواقعة: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ من الضلالة، ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: دلالات واضحات من الحلال والحرام والحدود والأحكام ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: الفارق بين الحق والباطل.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فمن كان مقيمًا في الحضر فأدركه الشهر، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ الكَدِيد ثم

أفطر وأفطر الناس معه، فكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله ﷺ[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أباح الفطر لعذر المرض والسفر، وأعاد هذا الكلام ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ بإباحة الفطر في المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتم في مرضكم وسفركم، وقال عطاء: «﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾» أي: عدد أيام الشهر.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ ولتعظموا الله ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أرشدكم إلى ما رضي به من صوم شهر رمضان وخصكم به دون سائر أهل الملل.

قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر، ورُوي عن الشافعي وعن ابن المسيب وعروة وأبي سلمة أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر يجهرون بالتكبير، وشبه ليلة النحر بها إلا من كان حاجًا فَذِكْرُه التلبية.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه، وقد وردت أخبار في فضل شهر رمضان وثواب الصائمين.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل رمضان: صفدت الشياطين، وفتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار»[٢].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع الصائم طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جُنَّة، الصوم جُنَّة»[٤].

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ

---

(١) رواه أحمد: (٤/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري: (٤/ ١١٢)، ومسلم برقم١٠٧٩: (٢/ ٧٥٨).

(٣) رواه البخاري: (٤/ ١١٥)، ومسلم برقم٧٦٠: (١/ ٥٢٤).

(٤) رواه البخاري: (٤/ ١٠٣)، ومسلم برقم١١٥١: (٢/ ٨٠٦).

وَعَفَا عَنكُمْ فَالْـَٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ قال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ، فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ».

عن أبي موسى الأشعري قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ إلى خيبر، أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «اربَعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم»(١).

قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ قيل: الاستجابة بمعنى الإجابة، أي: فليجيبوا لي بالطاعة، والإجابة في اللغة: الطاعة وإعطاء ما سئل، فالإجابة من الله تعالى العطاء، ومن العبد الطاعة، وقيل: فليستجيبوا لي، أي: ليستدعوا مني الإجابة، وحقيقته فليطيعوني ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ لكي يهتدوا.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ فالرفث كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله تعالى حيي كريم يكني، كل ما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فإنما عنى به: الجماع، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء.

قال أهل التفسير: كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد قبلها، فإذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والنساء إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واقع أهله بعدما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، إني رجعت إلى أهلي بعدما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسوّلت لي نفسي فجامعت أهلي، فهل تجد لي من رخصة؟ فقال النبي ﷺ: «ما كنت جديرًا بذلك يا عمر» فقام

(١) رواه البخاري: (١٣/ ٣٧٢)، ومسلم برقم٤٧٠٤: (٤/ ٢٠٧٦).

رجال فاعترفوا بمثله؛ فنزل في عمر وأصحابه[1]: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي: أبيح لكم ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ أي: في ليلة الصيام ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ أي: سكن لكم ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: سكن لهنَّ.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها وتظلمونها بالمجامعة بعد العشاء، قال البراء: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ تجاوز عنكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ محا ذنوبكم ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ جامعوهنَّ حلالاً، سميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد منهم لصاحبه ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فاطلبوا ما قضى الله لكم، وقيل: ما كتب الله لكم في اللوح المحفوظ، يعني: الولد، قاله أكثر المفسرين، وقال معاذ: يعني: ليلة القدر.

قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ نزلت في رجل من الأنصار وذلك أنه ظل نهاره يعمل في أرض له وهو صائم، فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، وقال لأهله: قدمي الطعام فأرادت المرأة أن تطعمه شيئًا سخينًا فأخذت تعمل له سخينة، وكان في الابتداء من صلى العشاء ونام حرم عليه الطعام والشراب، فلما فرغت من طعامه إذ هي به قد نام وكان قد أعيا وكلَّ، فأيقظته فكره أن يعصي الله ورسوله، فأبى أن يأكل فأصبح صائمًا مجهودًا، فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه، فلما أفاق أتى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: يا أبا قيس مالك أمسيت طليحًا؟ فذكر له ما له فاغتم لذلك رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ «وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟»[2]، يعني: في ليالي الصوم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ يعني: بياض النهار من سواد الليل، سميا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الابتداء ممتدًا كالخيط.

عن سهل بن سعد قال: أُنزلت «﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ» ولم ينزل قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما؛ فأنزل الله تعالى بعده: «مِنَ ٱلْفَجْرِ» فعلموا أنما يعني بهما الليل والنهار[3].

عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت «حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ» عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر إليهما وإلى الليل فلا يستبين

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير»: (٣/ ٤٩٨). وانظر: «العجاب»: (١/ ٤٣٦ - ٤٤٧)، «الدر المنثور»: (١/ ٤٧٦).

(٢) رواه البخاري: (٤/ ١٢٩).

(٣) رواه البخاري: (٤/ ١٣٢).

لي، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار»[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾ فالصائم يحرم عليه الطعام والشراب بطلوع الفجر الصادق ويمتد إلى غروب الشمس فإذا غربت حصل الفطر.

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى الْمَسَٰجِدِ﴾ وقد نويتم الاعتكاف في المساجد، وليس المراد النهي عن مباشرتهن في المساجد؛ لأن ذلك ممنوع منه في غير الاعتكاف، والعكوف هو الإقامة على الشيء، والاعتكاف في الشرع: هو الإقامة في المسجد على عبادة الله، وهو سنة، ولا يجوز في غير المسجد، ويجوز في جميع المساجد.

عن عائشة زوج النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[٣].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني: تلك الأحكام التي ذكرها في الصيام والاعتكاف، وحدود الله: ما منع الله من مخالفتها ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فلا تأتوها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هكذا ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوها فينجوا من العذاب.

وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ﴾ قيل: نزلت هذه الآية في امرىء القيس بن عايش الكندي، ادَّعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله ﷺ أرضًا أنه غلبني عليها، فقال النبي ﷺ للحضرمي: «ألك بيِّنة»؟ قال: لا، قال: «فلك يمينه» فانطلق ليحلف؛ فقال رسول الله ﷺ: أما إن حلف على ماله ليأكله ظلمًا ليلقين الله وهو عنه معرض»[٤] فأنزل الله هذه الآية: «وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ» أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، أي: من غير الوجه الذي أباحه الله، وأصل الباطل الشيء الذاهب، والأكل بالباطل أنواع: قد يكون بطريق الغصب والنهب، وقد يكون بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغنِّي ونحوهما، وقد يكون بطريق الرشوة والخيانة ﴿وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي: تلقوا أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلى

---

(١) رواه البخاري: (٤/ ١٣٢).
(٢) رواه البخاري: (٤/ ١٩٦)، ورواه مسلم برقم١١٠١ : (٢/ ٧٧٢).
(٣) رواه البخاري: (٤/ ٢٧١)، ومسلم برقم١١٧٢ : (٢/ ٨٣١).
(٤) رواه مسلم برقم١٣٩ : (١/ ١٢٣).

الحكام، قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم فيه إلى الحاكم، وهو يعرف أن الحق عليه وأنه آثم بمنعه، قال مجاهد في هذه الآية: لا تخاصم وأنت ظالم، قال الكلبي: هو أن يقيم شهادة الزور، وقوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ معناه: ولا تدلوا بها إلى الحكام، وقيل معناه: ولا تأكلوا بالباطل وتنسبونه إلى الحكام، قال قتادة: لا تُدْلِ بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم، فإن قضاءه لا يحل حرامًا، وكان شريح القاضي يقول: إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالمًا، ولكن لا يسعني إلا أن أقضي بما يحضرني من البينة، وإن قضائي لا يحل لك حرامًا.

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنَّه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بالظلم، وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة يقطع بها مال أخيه ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ وهي جمع هلال، مثل: رداء وأردية، سمي هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ جمع ميقات، أي: فعلنا ذلك ليعلم الناس أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار وآجال الديون وعِدَدَ النساء وغيرها، فلذلك خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

قال أهل التفسير: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطًا ولا بيتًا ولا دارًا من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقبًا في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج أو يتخذ سلمًا فيصعد منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك برًّا إلا أن يكون من الحُمْس وهم: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة وبنو مضر بن معاوية سموا حُمْسًا لتشددهم في دينهم، والحماسة: الشدة والصلابة، فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتًا لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار ـ يقال له: رفاعة بن التابوت ـ على أثره من الباب وهو

---

(١) رواه البخاري: (١٣/ ١٥٧)، ومسلم برقم١٧١٣: (٣/ ١٣٣٧).

محرم، فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «لم دَخلت من الباب وأنت محرم»؟ قال: رأيتك دخلت فدخلت على أثرك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أحمس» فقال الرجل: إن كنت أحمسيًّا فإني أحمسي رضيت بهديك وسمتك ودينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: البر: بر من اتقى.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ في حال الإحرام ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ كان في ابتداء الإسلام أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالكف عن قتال المشركين، ثم لما هاجر إلى المدينة أمره بقتال من قاتله منهم بهذه الآية، وقال الربيع بن أنس: هذه أول آية نزلت في القتال، ثم أمره بقتال المشركين كافَّة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله: «فاقتلوا المشركين» فصارت هذه الآية منسوخة بها، وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ أي: لا تبدؤوهم بالقتال، وقيل: هذه الآية محكمة غير منسوخة أمر النبي ﷺ بقتال المقاتلين، ومعنى قوله: «وَلَا تَعْتَدُوٓا۟» أي: لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان ولا من ألقى إليكم السلام، هذا قول ابن عباس ومجاهد.

عن بريدة قال: كان النبي ﷺ إذا بعث جيشًا قال: «اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلُّوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدًا ولا شيخًا كبيرًا»[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ومعناه: واقتلوهم حيث بصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: شركهم بالله عزَّ وجلَّ أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرام والإحرام ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخًا بقوله تعالى: «وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» هذا قول قتادة، وقال مقاتل بن حيان قوله:

---

(١) رواه مسلم برقم١٧٣١ : (٣/ ١٣٥٧).

«وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ» أي: حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ» ثم نسختها آية السيف في براءة فهي ناسخة منسوخة.

وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: غفور لما سلف، رحيم بالعباد ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ يعني: المشركين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شرك، يعني: قاتلوهم حتى يسلموا، فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام، فإن أبى قُتل ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة والعبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، فلا يعبد شيء دونه. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ﴾ فلا سبيل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين بقوا على الشرك، وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلمًا، وسماه عدوانًا على طريق المجازاة والمقابلة، وسمى الكافر ظالمًا؛ لأنه يضع العبادة في غير موضعها.

ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ نزلت في عمرة القضاء؛ وذلك أن النبي ﷺ خرج معتمرًا في ذي القعدة فصدَّه المشركون عن البيت بالحديبية، فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام القابل فيقضي عمرته، فانصرف رسول الله ﷺ عامه ذلك ورجع في العام القابل في ذي القعدة، وقضى عمرته سنة سبع من الهجرة، فذلك معنى قوله تعالى[1]: «ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ» يعني: ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيتم فيه عمرتكم سنة سبع ﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ يعني: ذا القعدة الذي صددتم فيه عن البيت سنة ست ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ جمع حرمة، والقصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل، وقيل: هذا في أمر القتال، معناه: إن بدؤوكم بالقتال في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه فإنه قصاص بما فعلوا فيه ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ وقاتلوهم ﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ سمى الجزاء باسم الابتداء على ازدواج الكلام كقوله تعالى: «وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ» [الشورى: ٤٠] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أراد به الجهاد وكلَّ خير هو في سبيل الله، ولكن إطلاقه ينصرف إلى الجهاد ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ أي: أنفسكم إلى التهلكة بما كسبتم، وقيل: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، أي: الهلاك، وقيل التهلكة: كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك، أي: ولا تأخذوا في ذلك، وقيل: التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه، والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، والعرب لا تقول للإنسان ألقى بيده إلا في الشرك، واختلفوا في تأويل هذه الآية،

---

(١) أخرجه الطبري عن قتادة: (٣/ ٥٧٦، و٥٧٧). وانظر: «العجاب»: (١/ ٤٦٨ - ٤٧١).

فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق.

عن عياض بن غُضيف قال: أتينا أبا عبيدة نعوده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق نفقة على أهله فالحسنة بعشر أمثالها»(١).

وقال زيد بن أسلم: كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم، وإما أن كانوا عيالاً فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم في سبيل الله، ومن لم يكن عنده شيء ينفقه فلا يخرج بغير نفقة ولا قوتٍ فيلقي بيده إلى التهلكة، فالتهلكة: أن يهلك من الجوع والعطش أو بالمشي.

وقيل: أنزلت الآية في ترك الجهاد، قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار، وذلك أن الله تعالى لما أعزَّ دينه ونصر رسوله قلنا فيما بيننا: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيَّه فلو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى: «وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ» فالتهلكة: الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فمازال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية، فتوفي هناك ودُفن في أصل سور القسطنطينية وهم يستسقون به(٢).

ورُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي: أحسنوا أعمالكم وأخلاقكم وتفضلوا على الفقراء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، واختلفوا في إتمامهما، فقال بعضهم: هو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما، وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعي ومجاهد.

---

(١) أخرجه الواحدي: ص٨٨، قال ابن حجر: (أخرجه أيضًا: ابن أبي حاتم والبغوي في «معجم الصحابة»، وابن السكن، والطبري وغيرهم من طرق). انظر: «العجاب»: (١/ ٤٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي والطبري والواحدي، وجاء مثله عن عمر أيضًا. انظر: «العجاب»: (١/ ٤٧٩ - ٤٨١).

(٣) رواه مسلم برقم١٩١٠: (٣/ ١٥١٧).

وقال سعيد بن جبير وطاووس: تمام الحج والعمرة أن تحرم بهما مفردين مستأنفين من دويرة أهلك، وسئل علي بن أبي طالب عن قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تحرم بهما من دويرة أهلك، ومثله عن ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ اختلف العلماء في الإحصار الذي يبيح للمحرم التحلل من إحرامه، فذهب جماعة إلى أن كلَّ مانعٍ يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام.

وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحلل إلا بحبس العدو.

ثم المحصر يتحلل بذبح الهدي وحلق الرأس، والهدي شاة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ ومحل ذبحه حيث أحصر عند أكثر أهل العلم؛ لأن النبي ﷺ ذبح الهدي عام الحديبية بها، وذهب قوم إلى أن المحصر يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم، ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل، وهو قول أهل العراق.

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدي .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ اختلفوا في المحل الذي يحل المحصر ببلوغ هديه إليه، فقال بعضهم: هو ذبحه بالموضع الذي أحصر فيه، سواء كان في الحل أو في الحرم، ومعنى «﴿مَحِلَّهُۥ﴾»: حيث يحل ذبحه فيه وأكله.

عن المسور بن مخرمة في قصة الحديبية قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا، فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أُم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أُم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ فاخرج ثم لا تُكلِّم أحدًا منهم بكلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج ولم يكلِّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا»(١).

وقال بعضهم: محل هدي المحصر الحرم، فإن كان حاجًّا فمحله يوم النحر، وإن كان معتمرًا فمحله يوم يبلغ هديه الحرم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ معناه: لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو لأذى في الرأس من هوام أو صداع ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فيه إضمار، أي: فحلق فعليه فدية، نزلت في كعب بن عُجرة.

عن كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ رآه وقمله يسقط على وجهه فقال: أيُؤذيك هوامُّك؟ قال: نعم؛ فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يبين لهم أنهم يحلون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية؛ فأمره رسول الله ﷺ أن يطعمَ فرقًا بين ستة مساكين أو

---

(١) رواه البخاري: (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٣).

يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام[١].

قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ أي: ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ أي: ثلاثة آصع على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ واحدتها نسيكة، أي: ذبيحة، أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، أيتها شاء ذبح، فهذه الفدية على التخيير والتقدير، ويتخير بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدق، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة، ويتصدق به على مساكين الحرم إلا هديًا يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أُحصر، وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: من خوفكم، وبرأتم من مرضكم ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: صوموا ثلاثة أيام، يصوم يومًا قبل التروية، ويوم التروية ويوم عرفة، ولو صام قبله بعدما أحرم بالحج يجوز، ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاث أيام التشريق.

قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الحكم ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ واختلفوا في حاضري المسجد الحرام، فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة، وهو قول مالك، وقيل: هم أهل الحرم، وبه قال طاووس من التابعين، وقال ابن جريج: أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلتان، وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل مَن كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضري المسجد الحرام، وقال عكرمة: هم من دون الميقات، وقيل: هم أهل الميقات فما دونه، وهو قول أصحاب الرأي.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أداء الأوامر ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على ارتكاب المناهي.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: وقت الحج أشهر معلومات، وهي: شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر.

قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي أوجب على نفسه الحج بالإحرام والتلبية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾، واختلفوا في الرفث، قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر: هو الجماع، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء والتقبيل

(١) رواه البخاري: (٤/ ١٢)، ومسلم برقم١٢٠١: (٢/ ٨٦٠).

والغمز، وأن يعرِّض لها بالفحش من الكلام، وقيل: الرفث الفحش والقول القبيح، أما الفسوق: قال ابن عباس: هو المعاصي كلها، وقال ابن عمر: هو ما نُهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظافر وأخذ الأشعار وما أشبهها، وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد: هو السباب، بدليل قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[١]، وقال الضحاك: هو التنابز بالألقاب، بدليل قوله تعالى: «وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ» [الحجرات: ١١].

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أُمُّه»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ أي: استقرَّ أمر الحج على ما فعله رسول الله ﷺ، فلا اختلاف فيه من بعد، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ أي: لا يخفى عليه فيجازيكم به.

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ نزلت في ناس من أهل اليمن، كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد، ويقولون: نحن متوكلون، ويقولون: نحن نحج بيت الله فلا يطعمنا؟! فإذا قدموا مكة سألوا الناس، وربما يفضي بهم الحال إلى النهب والغصب، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ أي: ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم، ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ من السؤال والنهب ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا ذوي العقول.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ» في مواسم الحج، قرأ ابن عباس كذا، وروي عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نكري في هذا الوجه، يعني: إلى مكة، فيزعمون أن لا حج لنا، فقال: ألستم تحرمون كما يُحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون؟ قلت: بلى، قال: أنت حاج؛ جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا﴾ أي: رزقًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ يعني: بالتجارة في مواسم الحج ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾

(١) رواه البخاري: (١/ ١١٠)، ومسلم برقم١١٦: (١/ ٨١).
(٢) رواه البخاري: (٣/ ٣٨٢)، ومسلم برقم١٣٥٠: (٢/ ٩٨٣).

دفعتم، والإفاضة: دفع بكثرة، وأصله من قول العرب: أفاض الرجل ماء، أي: صبَّه ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ هي جَمْع عرفة، جُمع بما حولها، وإن كانت بقعة واحدة، كقوله: ثوب أخلاق.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالدعاء والتلبية ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمَيْ عرفة إلى المحسر، وليس المأزمان ولا المحسر من المشعر.

عن أسامة بن زيد أنه سمعه يقول: «دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى كان بالشِّعب؛ نزل فبال ثم توضأ فلم يسبغ الوضوء، فقلت له: الصلاة يا رسول الله؟! قال: فقال: الصلاة أمامك، فركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلاها ولم يصلِّ بينهما شيئًا»[١].

وقال جابر: «دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبِّح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا فدفع قبل أن تطلع الشمس»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: واذكروه بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم بالهداية فهداكم لدينه ومناسك حجه ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وقد كنتم.

ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾

عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضربًا للإبل فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع، «وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»»[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ أي: فرغتم من حجِّكم وذبحتم نسائككم، وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتكبير والتحميد والثناء عليه ﴿كَذِكْرِكُمْ

---

(١) رواه البخاري: (٣/ ٥١٩)، ومسلم برقم١٢٨٠: (٢/ ٩٣٤).
(٢) رواه مسلم برقم١٢١٨: (٢/ ٨٨٦).
(٣) رواه البخاري: (٣/ ٥٢٢)، ومسلم برقم١٢٨٢: (٢/ ٩٣٢).

﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائها، فأمرهم الله تعالى بذكره وقال: فاذكروني فأنا الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يعني: وأشدَّ ذكرًا، وبل أشد، أي: وأكثر ذكرًا ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أراد به المشركين، كانوا لا يسألون الله تعالى في الحج إلا الدنيا، يقولون: اللهم أعطنا غنمًا وإبلاً وبقرًا وعبيدًا، قال قتادة: هذا عبد نيَّته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونَصَب ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من حظ ونصيب ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ يعني: المؤمنين، واختلفوا في معنى الحسنتين، قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الدنيا حسنة: امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة: الجنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[1]، وقال الحسن: في الدنيا حسنة: العلم والعبادة، وفي الآخرة حسنة: الجنة، وقال السدي وابن حيان: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا حلالاً وعملاً صالحًا، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة والثواب.

عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[2].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ حظ ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ من الخير والدعاء بالثواب والجزاء ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني: إذا حاسب فحسابه سريع لا يحتاج إلى عقد يد ولا وعي صدر ولا إلى روية ولا فكر.

۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني: التكبيرات أدبار الصلاة، وعند الجمرات يكبر مع كل

---

(١) رواه مسلم برقم١٤٦٧: (٢/ ١٠٩٠).

(٢) رواه البخاري: (١١/ ١٩١)، ومسلم برقم٢٦٩٠: (٤/ ٢٠٧٠).

حصاة، وغيرها من الأوقات ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ الأيام المعدودات: هي أيام التشريق، وهي أيام منى ورمي الجمار.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أراد أن من نفر من الحاج في اليوم الثاني من أيام التشريق ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ وذلك أن على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، عند كل جمرة سبع حصيات، ثم كل من رمى اليوم الثاني من أيام التشريق وأراد أن ينفر فيدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها؛ فذلك له واسع لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ ومن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث ثم ينفر، قوله تعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ يعني: لا إثم على من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله، ومن تأخر حتى ينفر في اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ في تأخره.

قوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ أي: لمن اتقى أن يصيب في حجه شيئًا نهاه الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، وكان رجلاً حلو الكلام، حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله ﷺ فيجالسه ويظهر الإسلام، ويقول: إني لأحبك، ويحلف بالله على ذلك، وكان منافقًا، فكان رسول الله ﷺ يدني مجلسه، فنزل قوله تعالى: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا»[1] ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يعني قول المنافق: والله، إني بك مؤمن ولك محب ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي: شديد الخصومة.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدُّ الخَصِم»[2] ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: أدبر وأعرض عنك ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: عمل فيها، وقيل: سار فيها ومشى ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ قال ابن جريج: قطع الرحم وسفك دماء المسلمين ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ﴾ وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ أي: لا يرضى بالفساد.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: خف الله ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أي: حملته العزة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم أي: بالظلم، والعزة: التكبر والمنعة.

قوله: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: كافيه ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: الفراش، قال عبد الله بن

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (٤/ ٢٢٩)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٩٦، «العجاب»: (١/ ٥١٩ - ٥٢٠).

(٢) رواه البخاري: (١٣/ ١٨٠)، ومسلم برقم٢٦٦٨: (٤/ ٢٠٥٤).

مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك.

ورُوي أنه قيل لعمر بن الخطاب: اتق الله، فوضع خده على الأرض تواضعًا لله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لطلب رضاء الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم، فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير لا يضركم أمِنْكُم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ ففعلوا؛ وكان شرط عليهم راحلة ونفقة، فأقام بمكة ما شاء الله ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال، فقال له أبو بكر: ربح بيعك يا أبا يحيى، فقال له صهيب: وبيعك فلا تتحسر، قال صهيب: ماذاك؟ فقال: قد أنزل الله فيك، وقرأ عليه هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي: في الإسلام، قال مجاهد في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم: «كَافَّةً»، أي: جميعًا، وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافين عن المجاوزة إلى غيره.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ أي: ضللتم، قال ابن عباس: يعني الشرك، قال قتادة: قد علم الله أنه سيزل زالُّون من الناس فتقدم في ذلك وأوعد فيه ليكون له به الحجة عليهم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الدلالات الواضحات ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في نقمته ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: هل ينظر التاركون الدخول في السلم والمتبعون خطوات الشيطان، ﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلَّة ﴿مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وهو السحاب الأبيض الرقيق، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ والأولى في هذه الآية وما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله تعالى، ويعتقد أن الله عزَّ اسمه منزه عن سمات الحدث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ أي: وجب العذاب، وفرغ من الحساب، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق يوم القيامة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾

قوله تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: سل يا محمد يهود المدينة ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ أعطينا آباءهم وأسلافهم ﴿مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ دلالة واضحة على نبوة موسى ﷺ، وقيل معناها: الدلالات التي آتاهم في التوراة والإنجيل على نبوة محمد ﷺ.

﴿وَمَن يُبَدِّلۡ﴾ يغير ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ كتاب الله، وقيل: عهد الله، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الأكثرون على أن المزين هو الله تعالى، والتزيين من الله تعالى هو أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة، فنظر الخلق إليها بأكثر من قدرها فأعجبتهم ففتنوا بها، وقال الزجاج: زين لهم الشيطان، قيل: نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه، كانوا يتنعمون بما بسط الله لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ﴾ أي: يستهزؤون بالفقراء من المؤمنين.

﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ﴾ لفقرهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ يعني: هؤلاء الفقراء ﴿فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لأنهم في أعلى عليين، وهم في أسفل السافلين.

عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين، ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء، وإذا أهل الجَدِّ محبوسون إلا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به إلى النار»(١).

عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: يا رسول الله، إن هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ قال ابن عباس: يعني كثيرًا بغير مقدار.

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٢٩٨).
(٢) رواه البخاري: (٩/ ١٣٢).

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا في زمن نوح فبعث الله إليهم نوحًا، فكان أول نبي بُعث، ثم بعث بعده النبيين.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب من آمَنَ وأطاع ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ محذرين بالعقاب مَن كفر وعصى ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الكتب، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل والصدق ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليحكم الكتاب، وقيل معناه: ليحكم كل نبيٍّ بكتابه ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: أعطوا الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ يعني: أحكام التوراة والإنجيل.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ صفة محمد ﷺ في كتبهم ﴿بَغْيًۢا﴾ ظلمًا وحسدًا ﴿بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لما اختلفوا فيه ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ بعلمه وإرادته فيهم، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: أحسبتم، أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ شبه الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ من النبيين والمؤمنين ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الفقر والشدة والبلاء ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ المرض والزمانة ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي: حركوا بأنواع البلايا والرزايا وخوفوا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ مازال البلاء بهم حتى استبطؤوا النصر.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ

يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ تقديره: أي شيء ينفقون، ما الذي ينفقون، ما الذي ينفقون ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أي: من مال ﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ يجازيكم به.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ أي: فرض عليكم الجهاد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي: شاق عليكم، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ لأنَّ في الغزو إحدى الحسنيين: إما الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا﴾ يعني: القعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ لما فيه من فوات الغنيمة والأجر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ يعني: رجبًا، سُمي بذلك لتحريم القتال فيه. ﴿قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ أي: عن قتال فيه ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ عظيم، ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وصدُّكم المسلمين عن الإسلام ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ أي: كفركم بالله ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: لمسجد الحرام، وقيل: وصدكم عن المسجد الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: إخراج أهل المسجد ﴿مِنۡهُ أَكۡبَرُ﴾ وأعظم وزرًا ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ أي: الشرك الذي أنتم عليه ﴿أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ لما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكة: إذا عيَّركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيِّروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام، ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يعني: مشركي مكة، ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ﴾ يصرفوكم ﴿عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ﴾ ﴿وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾ بطلت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ حسناتهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم ﴿وَجَاهَدُوا﴾ المشركين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طاعة لله، فجعلها جهادًا ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أخبر أنهم على رجاء الرحمة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ الآية، نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما - ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مَذْهَبَةٌ للعقل مسلبة للمال؟ فأنزل الله هذه الآية(١).

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت الآية في سورة المائدة حُرمت الخمر؛ فخرجنا بالحباب إلى الطريق فصببنا ما فيها، فمنَّا مَن كسر حبَّه، ومنَّا من غسله بالماء والطين، ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حينًا، فلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها.

عن أنس: سُميت خمرًا لأنهم كانوا يدعونها في الدنان حتى تختمر وتتغير، وعن ابن المسيب: لأنها تركت حتى صفا صفوها ورسب كدرها، واختلف الفقهاء في ماهية الخمر؛ فقال قوم: هي عصير العنب أو الرطب الذي اشتدَّ وغلا من غير عمل النار فيه، واتفقت الأئمة على أن هذا الخمر نجس، يحد شاربه، ويفسَّق ويكفَّر مستحلُّها.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن كلَّ شراب أسكر كثيره فهو خمر فقليله حرام يُحد شاربه.

واحتجوا بما روته عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن البِتْع فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ يعني: القمار، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وزر عظيم من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فمنفعة الخمر: اللذة عند شربها والفرح، واستمراء الطعام، وما يصيبون من الربح بالتجارة فيها، ومنفعة الميسر: إصابة المال من غير كدٍّ ولا تعب، وارتفاق الفقراء به، والإثم فيه: أنه إذا ذهب ماله من غير عوض ساءه ذلك؛ فعادى صاحبه فقصده بالسوء.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، وقيل؛ إثمهما أكبر من نفعهما قبل التحريم وهو ما يحصل من العداوة والبغضاء.

---

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي: (١/٣١٦)، «أسباب النزول»: ص١٠٢ - ١٠٣، «المستدرك» للحاكم: (٢/٢٧٨).

(٢) رواه البخاري: (١٠/٤١)، ومسلم برقم٢٠٠١: (٣/١٥٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ حثهم على الصدقة؛ فقالوا: ماذا ننفق؟ فقال: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ معناه: الذي ينفقون هو العفو.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قيل: معناه يبين الله لكم الآيات في أمر النفقة؛ لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة؛ فتحبسون من أموالكم ما يصلحكم في معاش الدنيا وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العقبى، وقال أكثر المفسرين: معناها هكذا: يبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة، «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ قال ابن عباس وقتادة: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]؛ تحرج المسلمون من أموال اليتامى تحرُّجًا شديدًا حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم حتى كان يُصنع لليتيم طعام فيفضل منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد، فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: الإصلاح لأموالهم من غير أُجرة ولا أخذ عوض خير لكم وأعظم أجرًا لما لكم في ذلك من الثواب، وخير لهم لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم، ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ هذه إباحة المخالطة، أي: وإن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم في نفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم فتصيبوا من أموالهم عوضًا من قيامكم بأمورهم وتكافؤوهم على ما تصيبون من أموالهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضًا ويصيب بعضهم من أموال بعض على وجه الإصلاح والرضا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لها يعني الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وإفساد أموال اليتيم وأكله بغير حق من الذي يقصد الإصلاح ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم، وأصل العنت: الشدة والمشقة، ومعناه: كلفكم في كل شيء ما يشق عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ والعزيز الذي يأمر بعزة ـ سهل على العباد أو شق عليهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما صنع من تدبيره وترك الإعنات.

وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١

---

(١) رواه البخاري: (٣/ ٢٩٤)، ومسلم برقم١٠٣٤: (٢/ ٧١٧).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال قتادة: أراد بالمشركات الوثنيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بجمالها ومالها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ هذا إجماع: لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: المشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى الأعمال الموجبة للنار ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بقضائه وإرادته ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: أوامره ونواهيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾، عن أنس بن مالك أن اليهود كانت إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ...﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح» فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئًا من أمرنا إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا ننكحهن في المحيض؟ فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فبعث في آثارهما فسقاهما فظننا أنه لم يجد عليهما[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: عن الحيض، وأصل الحيض: الانفجار والسيلان، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: قذر، والأذى: كل ما يكره من كل شيء ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أراد بالاعتزال: ترك الوطء ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أي: لا تجامعوهنَّ، أما الملامسة والمضاجعة معها فجائزة.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد كلانا جُنب، وكان يأمرني أن أتزر فيباشرني وأنا حائض، وكان يخرج رأسه إليَّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض»[(٢)].

فوطء الحائض حرام، ومن فعله يعصي الله عزَّ وجلَّ ويعزره الإمام، إن علم منه ذلك.

ويمنع الحيض جواز الصلاة ووجوبها، ويمنع جواز الصوم ولا يمنع وجوبه، حتى إذا طهرت يجب عليها قضاء الصوم ولا يجب قضاء الصلاة، وكذلك النفساء.

---

(١) رواه مسلم برقم٣٠٢: (١/ ٢٤٦).
(٢) رواه البخاري: (١/ ٤٠٣).

ولا يجوز للحائض الطواف بالبيت، ولا الاعتكاف في المسجد، ولا مس المصحف، ولا قراءة القرآن، ولا يجوز للزوج غشيانها.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ حتى يغتسلن، وقيل: حتى يطهرن من الحيض وينقطع دمهنَّ ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يعني: اغتسلن ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ أي: فجامعوهنَّ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من حيث أمركم أن تعتزلوهنَّ منه، وهو الفرج، قاله مجاهد وقتادة وعكرمة، وقال ابن عباس: طؤوهنَّ في الفرج ولا تعدوه إلى غيره، أي: اتقوا الأدبار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ يحب التوابين من الذنوب، ويحب المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات، وقيل: يحب التوابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك، وقبل: التوابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب.

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: وما الذي أهلكك؟ قال: حولت رحلي البارحة، فلم يرد عليه شيئًا، فأوحى الله إليه «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ» يقول: أدبر وأقبل واتق الدبر والحيضة[1].

عن جابر بن عبد الله قال: كانت اليهود تقول في الذي يأتي امرأته من دبرها في قبلها: إن الولد يكون أحول، فنزلت: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ»[2].

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه، وقالت: إنا كنَّا نؤتىٰ على حرف، فإن شئت فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، حتى سرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ...﴾[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٣٢٤)، والإمام أحمد: (١/ ٢٩٧)، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٢٥٦)، وابن حبان: ص٤٢٦ من «موارد الظمآن».

(٢) رواه البخاري: (٨/ ١٨٩)، ومسلم برقم١٤٣٥: (٢/ ١٠٥٨).

(٣) أخرجه أبو داود: (٣/ ٨٠ - ٨١)، والدارمي: (١/ ٢٥٧)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٩٥).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ﴾ التسمية عند الجماع، إذا أتى أهله فَلْيَدْعُ. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهمَّ جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدًا»[(٢)].

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ﴾، يعني: الخير والعمل الصالح، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ صائرون إليه فيجزيكم بأعمالكم﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ نزلت في عبد الله بن رواحة، كان بينه وبين ختنه على أخته بشير بن النعمان الأنصاري شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه؛ قال: قد حلفت بالله أن لا أفعل، فلا يحل لي إلا أن تبر يميني، فأنزل الله هذه الآية.

وقال ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك.

ومعنى الآية ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ﴾ الحلف بالله سببًا مانعًا لكم من البر والتقوى، يُدْعى أحدكم إلى صلة رحم أو برٍّ فيقول: حَلَفْت بالله أن لا أفعله، فيعتل بيمينه في ترك البر ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ معناه: أن لا تبروا، كقوله تعالى: «يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ» [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا ﴿وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بيمين فرأى غيرها خيرًا منها فَلْيُكَفِّرْ عن يمينه، وليفعلِ الذي هو خير»[(٣)].

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو: كل مطَّرح من الكلام لا يعتدُّ به.

عن عائشة أنها قالت: «لغو اليمين قول الإنسان: لا والله وبلى والله».

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ أي: عزمتم وقصدتم إلى اليمين، وكسب القلب العقد والنية﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ واعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بالله أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته: فاليمين بالله أن يقول: والذي أعبده، والذي أُصلي له، والذي نفسي بيده، ونحو ذلك،

---

(١) رواه أبو داود: (٣/ ٧٧)، وابن ماجه برقم١٩٢٣: (٢/ ٦١٩) وإسناده صحيح.

(٢) رواه البخاري: (٩/ ٢٢٨)، ومسلم برقم١٤٣٤: (٢/ ١٠٥٨).

(٣) رواه مالك: (٢/ ٤٧٨)، ومسلم برقم١٦٤٩: (٣/ ٢٢٧٢).

واليمين بأسمائه كقوله: والله والرحمن ونحوه، واليمين بصفاته كقوله: وعزة الله وعظمة الله وجلال الله وقدرة الله ونحوها، فإذا حلف بشيء منها على أمر في المستقبل فحنث يجب عليه الكفارة، وإذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن أو على أنه لم يكن وقد كان، إن كان عالمًا به حالة ما حلف فهو اليمين الغموس، وهو من الكبائر، ومن حلف بغير الله مثل أن قال: والكعبة وبيت الله ونبي الله أو حلف بأبيه ونحو ذلك، فلا يكون يمينًا، فلا تجب عليه الكفارة إذا حلف، وهي يمين مكروهة، وقال الشافعي: وأخشى أن يكون معصية.

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[١].

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ يؤلون أي: يحلفون، والألِيَّة: اليمين، والمراد من الآية: اليمين على ترك وطء المرأة.

قوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار أربعة أشهر، والتربص: التثبت والتوقف ﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا عن اليمين بالوطء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإذا وطيء خرج عن الإيلاء وتجب عليه كفارة اليمين عند أكثر أهل العلم، ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي: حققوه بالإيقاع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم، وفيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها؛ لأنه شرط فيه العزم، وقال: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾» فدل على أنه يقتضي مسموعًا والقول هو الذي يسمع.

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أي: المخليات من حبال أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ فلا يتزوجن، واختلف أهل العلم في القروء؛ فذهب جماعة إلى أنها الحيض، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال للمستحاضة: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[٢]، وإنما تدع الصلاة أيام حيضها، وذهب جماعة إلى أنها الأطهار، واحتجوا بأن ابن عمر - رضي الله عنهما - لما طلق امرأته وهي حائض قال النبي ﷺ لعمر: «مره فليراجعها حتى تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»[٣]. فأخبر أن زمان العدة هو الطهر.

---

(١) رواه مالك: (٢/ ٤٨٠)، والبخاري: (١١/ ٥٣٠)، ومسلم برقم١٦٤٦: (٣/ ١٢٦٦).
(٢) رواه أبو داود: (١/ ١٩١)، والترمذي: (١/ ٣٩٣)، وابن ماجه: (١/ ٢٠٤).
(٣) رواه البخاري: (٩/ ٣٤٥)، ومسلم برقم١٤٧١: (٢/ ١٠٩٣).

وقوله عزَّ وجل: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ ومعنى الآية: لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ معناه: أن هذا من فعل المؤمنات، وإن كانت المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء، كما تقول: أدِّ حقي إن كنت مؤمنًا، يعني: أداء الحقوق من فعل المؤمنين.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ يعني: أزواجهن، ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أولى برجعتهن إليهم ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في حال العدة ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ أي: إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحسن العشرة لا الإضرار، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية، كان الرجل يطلق امرأته فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم تركها مدة ثم طلقها، ثم إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم بعد مدة طلقها، يقصد بذلك: تطويل العدة عليها ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: للنساء على الأزواج مثل الذي عليهن للأزواج بالمعروف، قال ابن عباس: في معناه: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما تحب امرأتي أن تتزين لي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

عن حكيم بن معاوية القشيري، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وإن تكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله في النساء، فانهن عوان عندكم، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(٢).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائكم»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال، وقال قتادة: بالجهد، وقيل: بالعقل، وقيل: بالشهادة، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدية، وقيل: بالطلاق؛ لأن الطلاق بيد الرجال، وقيل: بالرجعة، وقال سفيان وزيد بن أسلم: بالإمارة، وقال القتيبي: «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ» معناه: فضيلة في الحق: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ

---

(١) رواه أبو داود: (٣/ ٦٧ - ٦٨)، وابن ماجه برقم١٨٥٠ : (١/ ٥٩٣)، وأحمد: (٤/ ٤٤٦ - ٤٤٧).
(٢) سبق تخريجه من رواية مسلم.
(٣) أبو داود: (٧/ ٤٤)، والدارمي: (٢/ ٣٢٣)، والترمذي: (٤/ ٣٢٥)، وقال: حسن صحيح.

عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ﴾ كان الناس في الابتداء يطلِّقون من غير حصر ولا عدد، وكان الرجل يطلق امرأته فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها كذلك ثم راجعها يقصد مضارتها؛ فنزلت هذه الآية: «﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ﴾» يعني: الطلاق الذي يملك الرجعة عقيبه مرتان، فإذا طلق ثلاثًا فلا تحل له إلا بعد نكاح زوج آخر.

قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ قيل: أراد بالإمساك الرجعة بعد الثانية، والصحيح أن المراد منه: الإمساك بعد الرجعة، يعني: إذا راجعها بعد الرجعة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف، والمعروف كل ما يعرف في الشرع، من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها، وقيل: الطلقة الثالثة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أعطيتموهنَّ ﴿شَيْـًٔا﴾ من المهور وغيرها، ثم استثنى الخلع فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ﴾ نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي أوفى، ويقال: حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ثابت ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر بعد الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»[١].

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي: يعلما ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ﴾ يعني: يعلم القاضي والولي ذلك من الزوجين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فجعل الخوف لغير الزوجين، ولم يقل: فإن خافا، وقيل: يعلم الزوجان من أنفسهما «﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ﴾» تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها، فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئًا مما آتاها، إلا أن يكون النشوز من قبلها، فقالت: لا أطيع لك أمرًا ولا أطأُ لك مضجعًا ونحو ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ أي: فيما افتدت به المرأة نفسها منه.

عن ثوبان يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام

---

(١) رواه البخاري: (٩/ ٣٩٥).

عليها رائحة الجنة»[١].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه أوامر الله ونواهيه، وحدود الله: ما منع الشرع من المجاوزة عنه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تجاوزوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: بعد الطلقة الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: غير المطلّق فيجامعها، والنكاح يتناول الوطء والعقد جميعًا.

عن عروة، عن عائشة أُم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنه سمعها تقول: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني فبتَّ طلاقي، وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة»؟ قالت: نعم، قال: «لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته»[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يعني: فإن طلقها الزوج الثاني بعد ما جامعها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ يعني: على المرأة وعلى الزوج الأول ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يعني: بنكاح جديد ﴿إِن ظَنَّآ﴾ أي: علما، وقيل: رَجَوا؛ لأن أحدًا لا يعلم ما هو كائن إلا الله عزَّ وجلَّ ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يكون بينهما الصلاح وحسن الصحبة، وقال مجاهد: معناه: إن علما أن نكاحهما على غير الدُّلْسَة، وأراد بالدُّلْسَة التحليل، إذا تزوجت المطلقة ثلاثًا زوجًا آخر ليحللها للزوج الأول: فإن النكاح فاسد، وذهب جماعة إلى أنه إن لم يشرط في النكاح مع الثاني أن يفارقها فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل ولها صداق مثلها، غير أنه يكره إذا كان في عزمها ذلك.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه «لعن المحلِّل والمحلَّل له»[٣]، وقال نافع: أتى رجل ابن عمر فقال له: إن رجلاً طلق امرأته ثلاثًا، فانطلق أخ له من غير مؤامرة فتزوجها ليحلها للأول؛ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنَّا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ: «لعن الله المحلِّل والمحلَّل له»[٤]، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يعلمون ما أمرهم الله تعالى به.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

---

(١) رواه أبو داود: (٣/ ١٤٢)، والترمذي: (٤/ ٣٦٧)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه برقم ٢٠٥٥: (١/ ٦٦٢)، والدارمي: (٢/ ١٦٢)، وأحمد: (٥/ ٢٧٧، ٢٨٣) وإسناده قوي.

(٢) رواه البخاري: (٩/ ٣٧١)، ومسلم برقم ١٤٣٣: (٢/ ١٠٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي: (٤/ ٢٦٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: (٦/ ١٤٩)، والدارمي: (٢/ ٨١)، وقال الحافظ في «التلخيص» (٣/ ١٧٠): صححه ابن القطان وابن دقيق العيد على شرط البخاري.

(٤) صححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ١٩٩).

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ...﴾ الآية، نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها، يقصد بذلك مضارتها.

قوله تعالى: «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» أي: أشرفن على أن يبنَّ بانقضاء العدة، ولم يرد حقيقة انقضاء العدة؛ لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ هاهنا بلوغ مقاربة، وفي قوله تعالى بعد هذا ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ حقيقة انقضاء العدة، والبلوغ يتناول المعنيين، يقال: بلغ المدينة إذا قرب منها وإذا دخلها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: راجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ قيل: المراجعة بالمعروف أن يُشهد على رجعتها، وأن يراجعها بالقول لا بالوطء.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهنَّ فيكنَّ أمْلَك بأنفسهنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي: لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أضر بنفسه بمخالفة أمر الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، وكل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزوًا، قال أبو الدرداء: هو أن الرجل كان يطلق امرأته ثم يقول: كنت لاعبًا، ويعتق ويقول مثل ذلك، وينكح ويقول مثل ذلك.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدهنَّ جد، وهزلهنَّ جد: الطلاق والنكاح والرجعة»[١].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإيمان ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ يعني: السنة، وقيل: مواعظ القرآن ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ نزلت في جميلة بنت يسار أُخت معقل بن يسار المزني، كانت تحت أبي البداح عاصم بن عدي بن عجلان فطلقها.

عن الحسن قال: حدثني معقل بن يسار قال: زوجت أُختًا لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها؛ فقلت له: زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ لا والله لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجتها إياه[٢].

---

(١) رواه أبو داود: (٣/ ١١٨ - ١١٩)، والترمذي: (٤/ ٣٦٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم٢٠٣٩: (١/ ٦٥٨)، والحاكم: (٢/ ١٩٧)، وصححه الدارقطني في «السنن»: (٣/ ٢٥٦ - ٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ أي: لا تمنعوهنَّ عن النكاح، والعضل: المنع، وأصله: الضيق والشدة.

﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ بعقد حلال ومهر جائز ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي ذكر من النهي ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم.

۞ **وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾**

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ يعني: المطلقات اللاتي لهنَّ أولاد من أزواجهنَّ يُرضعن، خبر بمعنى الأمر، وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب؛ لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من ترضع الولد لقوله تعالى في سورة الطلاق: «فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ» [الطلاق: ٦]، فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها ﴿حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ أي: سنتين.

﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ أي: هذا منتهى الرضاعة، وليس فيما دون ذلك حد محدود، وإنما هو على مقدار صلاح الصبي وما يعيش به ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ﴾ يعني: الأب ﴿رِزۡقُهُنَّ﴾ طعامهنَّ ﴿وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾ لباسهنَّ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: على قدر الميسرة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ أي: طاقتها ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه ﴿وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ أي: لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما ألفها، تضاره بذلك، وقيل: معناه «لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ» فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه، وقَبِلَ الصبي من غيرها؛ لأن ذلك ليس بواجب عليها «وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾» فيحتمل أن تعطى الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع من غيرها.

قيل: «﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ﴾» فتأبى أن ترضع ولدها ليشق على أبيه «﴿وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ﴾» أي: لا يضار الأب أُمَّ الصبي، فينزعه منها ويمنعها من إرضاعه.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾ اختلفوا في هذا الوارث؛ فقال قوم: هو وارث الصبي، ثم اختلفوا في أي وارث هو من ورثته؛ فقال بعضهم: هو عصبة الصبي من الرجال، وقيل: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء.

وقيل: ليس المراد منه النفقة، بل معناه: وعلى الوارث ترك المضارة، ﴿فَإِنۡ أَرَادَا﴾ يعني: الوالدين ﴿فِصَالًا﴾ فطامًا قبل الحولين ﴿عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا﴾ أي: اتفاق من الوالدين ﴿وَتَشَاوُرٖ﴾ أي:

يشاورون أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضر بالولد، والمشاورة: استخراج الرأي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم أن يرضعنهم أو تعذر لعلة بهنَّ، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى أمهاتهم ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ ما سميتم لهنَّ من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن، وقيل: إذا سلمتم أجور المراضع إليهنَّ بالمعروف، وقيل: إذا سلمتم للاسترضاع عن تراض واتفاق دون الضرار ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: يموتون وتتوفى آجالهم، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ يتركون أزواجًا ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: يعتددن بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهنَّ هذه المدة إلا أن يَكُنَّ حوامل فعدتهنَّ بوضع الحمل، وكانت عدة الوفاة في الابتداء حولاً كاملاً؛ لقوله تعالى: «وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ» [البقرة: ٢٤٠]، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشر.

عن زينب بنت أبي سلمة قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أُم حبيبة بطيب فيه صفرة، خلوق أو غيره، فدهنت به جارية ثم مست به بطنها ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ أي: من اختيار الأزواج دون العقد، فإن العقد إلى الولي، وقيل: فيما فعلن من التزين للرجال زينة لا ينكرها الشرع ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والإحداد واجب على المرأة في عدة الوفاة، أما المعتدة عن الطلاق نُظِرَ فإن كانت رجعية فلا إحداد عليها في العدة؛

---

(١) رواه مالك: (٢/ ٥٩٦ - ٥٩٧)، والبخاري: (٩/ ٤٨٤)، ومسلم برقم١٤٨٦ : (٢/ ١١٢٤).

لأن لها أن تصنع ما يشوق قلب الزوج إليها ليراجعها، وفي البائنة بالخلع والطلقات الثلاثة قولان: أحدهما: عليها الإحداد كالمتوفى عنها زوجها، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال أبو حنيفة، والثاني: لا إحداد عليها وهو قول عطاء، وبه قال مالك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: النساء المعتدات، وأصل التعريض: هو التلويح بالشيء، والتعريض في الكلام: ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح، والتعريض بالخطبة مباح في العدة.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أضمرتم ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من نكاحهن، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بقلوبكم ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ اختلفوا في السر المنهي عنه؛ فقال قوم: هو الزنا. وقال مجاهد: هو قول الرجل: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك. قال الشافعي: السر هو الجماع. إنما قيل للزنا والجماع: سر؛ لأنه يكون في خفاء بين الرجل والمرأة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هو ما ذكرنا من التعريض بالخطبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: لا تحققوا العزم على عقدة النكاح في العدة حتى يبلغ الكتاب أجله، أي: حتى تنقضي العدة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي: فخافوا الله ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: ولم تمسوهنَّ ولم تفرضوا.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: توجبوا لهنَّ صداقًا.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهنَّ من مالكم ما يتمتعن به، والمتعة والمتاع ما يتبلغ به من الزاد ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ أي: على الغني ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ أي: الفقير ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي: إمكانه وطاقته، أي: متعوهنَّ ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما أمركم الله به من غير ظلم ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وبيان حكم الآية: أن من تزوج امرأة ولم يفرض لها مهرًا ثم طلقها قبل المسيس تجب لها المتعة بالاتفاق، وإن طلقها بعد الفرض قبل المسيس فلا متعة لها على قول الأكثرين، ولها نصف المهر المفروض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ هذا

في المطلقة بعد الفرض قبل المسيس فلها نصف المفروض، وإن مات أحدهما قبل المسيس فلها كمال المهر المفروض، والمراد بالمس المذكور في الآية: الجماع، واختلف أهل العلم فيما لو خلا الرجل بامرأته ثم طلقها قبل أن يدخل بها؛ فذهب قوم إلى أنه لا يجب لها إلا نصف الصداق، ولا عدة عليها؛ لأن الله تعالى أوجب بالطلاق قبل المسيس نصف المهر، ولم يوجب العدة، وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وابن مسعود، وبه قال الشافعي رحمه الله.

وقال قوم: يجب لها كمال المهر، وعليها العدة، لما رُوي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا أُرخيت الستور فقد وجب الصداق.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: سميتم لهنَّ مهرًا ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: لها نصف المهر المسمى ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعني: النساء، أي: إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ اختلفوا فيه؛ فذهب بعضهم إلى أن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي، معناه: إلا أن تعفو المرأة بترك نصيبها إلى الزوج إن كانت ثيبًا من أهل العفو، أو يعفو وليها فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكرًا أو غير جائزة الأمر فيجوز عفو وليها، وقال بعضهم: الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، معنى الآية إلا أن تعفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: فالعفو أقرب للتقوى، أي: إلى التقوى، والخطاب للرجال والنساء جميعًا؛ معناه: وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: أفضال بعضكم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها، حثهما جميعًا على الإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي: واظبوا وداوموا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها وإتمام أركانها، ثم خصَّ من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دلالة على فضلها، واختلف العلماء من الصحابة ومن بعدهم في الصلاة الوسطى؛ وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة العصر، رواه جماعة عن رسول الله ﷺ.

عن أبي يونس مولى عائشة أُم المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفًا، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي «حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ»، فلما بلغتها آذنتها فأملت عليَّ «حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ»: «صلاة العصر»، «وَقُومُوا۟ لِلَّهِ

قَـٰنِتِينَ»[١]، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سمعتها من رسول الله ﷺ. وعن حفصة مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أي: مطيعين، والقنوت الطاعة، قال الله تعالى: «أُمَّةً قَانِتًا» [النحل: ١٢٠]، أي: مطيعًا.

عن زيد بن أرقم قال: كنَّا نتكلم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة، يكلم الرجل منَّا صاحبه إلى جنبه، حتى نزلت: «﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾» فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام[٢].

عن جابر قال: قيل للنبي ﷺ أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا﴾ «فَرِجَالًا»، أي: رجالة، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على دوابهم، وهو جمع راكب، معناه: إن لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين للصلاة حقها لخوف؛ فصلوا مشاة على أرجلكم، أو ركبانًا على ظهور دوابكم، وهذا في حال المقاتلة والمسايفة يصلي حيث كان وجهه: راجلاً أو راكبًا، مستقبل القبلة وغير مستقبلها، ويومىء بالركوع والسجود ويجعل السجود أخفض من الركوع، وكذلك إذا قصده سبع أو غشيه سيل يخاف منه على نفسه فعدا أمامه مصليًا بالإيماء يجوز.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ أي: فصلوا الصلوات الخمس تامَّة بحقوقها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ يا معشر الرجال ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: زوجات ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ أي: فليوصوا وصية، أو: كتب عليكم الوصية ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ أي: متعوهنَّ متاعًا، والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسكنها وما تحتاج إليه ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: من غير إخراج.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ يعني: من قبل أنفسهن قبل الحول من غير إخراج الورثة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ يعني: التزين للنكاح، ولرفع الجناح عن الرجال وجهان: أحدهما: لا جناح عليكم في قطع النفقة إذا خرجن قبل انقضاء

---

(١) رواه مالك: (١/ ١٣٨)، ومسلم برقم٦٢٩: (١/ ٤٣٧).

(٢) رواه البخاري: (٣/ ٧٣)، ومسلم برقم٥٣٩: (١/ ٣٨٣).

(٣) رواه مسلم برقم٧٥٦: (١/ ٥٢٠).

الحول. والآخر: لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج؛ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ إنما أعاد ذكر المتعة هاهنا لزيادة معنى، وذلك أن في غيرها بيان حكم غير الممسوسة، وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات في المتعة، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم بإعلامي إياك، وهو من رؤية القلب.

قال أهل المعاني: هو تعجب يقول: هل رأيت مثلهم؟ كما تقول: ألم تر إلى ما يصنع فلان؟ وكل ما في القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يعاينه النبي ﷺ، فهذا وجهه ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ جمع ألف، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوف الموت ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أمر تحويل، كقوله: «كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ» [البقرة: ٦٥] ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ بعد موتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قيل: هو على العموم في حق الكافة في الدنيا، وقيل: على الخصوص في حق المؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أما الكفار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله أعداء الله ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا خطاب للذين أُحيوا، أُمروا بالقتال في سبيل الله؛ فخرجوا من ديارهم فرارًا من الجهاد؛ فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا، وقيل: الخطاب لهذه الأُمة، أمرهم بالجهاد.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض: اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه، فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما وعدهم من الثواب قرضًا.

قوله تعالى: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي: ينفق في طاعة الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال الحسين بن علي الواقدي: يعني محتسبًا، طيبة بها نفسه، وقال ابن المبارك: من مال حلال، وقيل: لا يمنّ به ولا يؤذي ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال السدي: هذا التضعيف لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، وقيل: سبعمائة ضعف ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾، قيل: يقبض بإمساك الرزق والنفس والتقتير ويبسط بالتوسيع، وقيل: يقبض بقبول التوبة والصدقة ويبسط بالخلف والثواب.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى الله تعودون فيجزيكم بأعمالكم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والملأ من القوم: وجوههم وأشرافهم، وأصل الملأ: الجماعة من الناس، ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: من بعد موت موسى ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جزم على جواب الأمر، فلما قالوا ذلك ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ استفهام شك. ﴿إِن كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ مع ذلك الملك ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ أن لا تفوا بما تقولون به ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي: أُخرج من غُلب عليهم من ديارهم، ظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص؛ لأن الذين قالوا لنبيِّهم: ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله كانوا في ديارهم وأوطانهم وإنما أُخرج من أسر منهم، ومعنى الآية: أنهم قالوا مجيبين لنبيِّهم: إنما كنَّا نزهد في الجهاد إذ كنا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا، فأما إذْ بلغ ذلك منَّا فنطيع ربنا في الجهاد ونمنع نساءنا وأولادنا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغَرفة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وذلك أن اشمويل سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكًا. ثم قال لبني إسرائيل: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: من أين يكون له الملك علينا؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ أولى ﴿بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنه لم يكن من سبط المملكة، ومع ذلك قالوا: هو فقير ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾

اختاره ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ فضيلة وسعة ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته، وقيل: إنه أتاه الوحي حين أُوتي الملك، ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قيل: الواسع: ذو السعة، وهو الذي يعطي عن غنى، والعليم: العالم، وقيل: العالم بما كان، والعليم بما يكون؛ فقالوا له: ما آية ملكه؟ فقال لهم نبيُّهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

السكينة فعيلة من السكون، أي: طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ يعني: موسى وهرون أنفسهما.

﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تسوقه، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرج بهم، ﴿قَالَ﴾ طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم ليرى طاعتكم - وهو أعلم - ﴿بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من أهل ديني وطاعتي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ لم يشربه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ الغرفة بالضم: الذي يحصل في الكف من الماء إذا غرف، والغرفة بالفتح: الاغتراف، فالضم اسم والفتح مصدر ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

عن البراء قال: كنَّا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب

طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة[١].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ يعني: النهر ﴿هُوَ﴾ يعني: طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يعني: القليل ﴿قَالُوا۟﴾ يعني: الذين شربوا وخالفوا أمر الله، وكانوا أهل شك ونفاق ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والسدي: فانحرفوا ولم يجاوزوا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ وهم الذين ثبتوا مع طالوت ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ جماعة، ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وإرادته ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟﴾ يعني: طالوت وجنوده، يعني: المؤمنين ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ المشركين، ومعنى برزوا: صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ أنْزِلْ واصبب ﴿صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ قوِّ قلوبنا ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: النبوة، جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن من قبل، بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط، وقيل: الملك والحكمة هو العلم مع العمل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ولولا دفع الله بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض؛ فقتلوا المؤمنين، وخربوا المساجد والبلاد، وقال سائر المفسرين: لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض بمن فيها، ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلمه الله تعالى، يعني: موسى عليه السلام

(١) رواه البخاري: (٧/ ٢٩٠).

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، قال الشيخ الإمام ـ رحمة الله عليه ـ: وما أُوتي نبي آية إلا وقد أُوتي نبينا مثل تلك الآية، وفُضل على غيره بآيات مثل: انشقاق القمر بإشارته، وحنين الجذع على مفارقته، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم والشهادة برسالته، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تحصى، وأظهرها القرآن الذي عجز أهل السماء وأهل الأرض عن الإتيان بمثله.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله تعالى إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(١).

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمسًا لم يعطهنَّ أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أُمَّتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامَّة»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد الرسل ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ ثبت على إيمانه بفضل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ بخذلانه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أعاده تأكيدًا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ قال السدي: أراد به الزكاة المفروضة، وقال غيره: أراد به صدقة التطوع والنفقة في الخير ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا فداء فيه، سماه بيعًا لأن الفداء شراء نفسه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ لا صداقة ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ إلا بإذن الله، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ عن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبا المنذر، أيُّ آية من كتاب الله أعظم» قلت: «ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ» قال: فضرب في صدري ثم قال: «لِيَهْنِكَ العلم» ثم قال: «والذي نفس محمد بيده إن لهذه الآية

(١) البخاري ١٣/ ٢٤٧، ومسلم ١/ ١٣٤.
(٢) البخاري ١/ ٤٣٦، ومسلم في ١/ ٣٧٠ - ٣٧١.

لسانًا وشفتين تقدّس المَلِك عند ساق العرش»(١).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ رفع بالابتداء وخبره في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ الباقي الدائم على الأبد وهو من له الحياة، والحياة صفة الله تعالى ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ قال مجاهد: «ٱلۡقَيُّومُۚ» القائم على كل شيء، وقال أبو عبيدة: الذي لا يزول ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ السِّنة: النعاس وهو النوم الخفيف، والنوم هو الثقيل المزيل للقوة والعقل، نفى الله تعالى عن نفسه النوم؛ لأنه آفة وهو منزه عن الآفات؛ ولأنه تغيُّر ولا يجوز عليه التغير.

عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ولكنه يخفض القسط، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٢).

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مِلْكًا وخَلْقًا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ بأمره ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ قال مجاهد وعطاء والسدي: «مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ» من أمر الدنيا «وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ» من أمر الآخرة، «مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ» أي: ما قدموه من خير أو شر «وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ» ما هم فاعلوه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ أي: من علم الله ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ أن يطلعهم عليه، يعني: لا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء مما أخبر به الرسل، كما قال الله تعالى: «عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ» [الجن: ٢٦ - ٢٧]، قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ أي: ملأ وأحاط به، واختلفوا في الكرسي فقال الحسن: هو العرش نفسه، وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: الكرسي موضوع أمام العرش، ومعنى قوله: «وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ» أي: سعته مثل سعة السموات والأرض.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يثقله ولا يشق عليه، ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أي: حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ الرفيع فوق خلقه والمتعالي عن الأشياء والأنداد، وقيل: العلي بالملك والسلطنة ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الكبير الذي لا شيء أعظم منه.

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي

---

(١) مسلم ١/١٥٦ .
(٢) مسلم ١/١٦١ - ١٦٢ .

حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة لا يعيش لها ولد ـ وكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتُهَوِّدَنَّه، فإذا عاش ولدها جعلته في اليهود، فجاء الإسلام وفيهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم وقالوا: هم أبناؤنا وإخواننا فنزلت هذه الآية: «لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ» فقال رسول الله ﷺ: «خيروا أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فأجلوهم معهم»(١).

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ أي: الإيمان من الكفر، والحق من الباطل ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ﴾ يعني: الشيطان، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين، والوثقى تأنيث الأوثق، وقيل: العروة الوثقى السبب الذي يوصل إلى رضا الله تعالى ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ قيل: لدعائك إياهم إلى الإسلام ﴿عَلِيمٌ﴾ بحرصك على إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ناصرهم ومعينهم، وقيل: محبهم، وقيل: متولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره، وقال الحسن: وليُّ هدايتهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فالمراد منه: الكفر والإيمان، غير التي في سورة الأنعام «وجعل الظلمات والنور» فالمراد منه: الليل والنهار، سُمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه، وسمي الإسلام نورًا لوضوح طريقه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ قال مقاتل: يعني كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى

(١) أخرجه أبو داود: ٤/ ٢٠، وصححه ابن حبان: ص٤٢٧ من «موارد الظمآن».

﴿ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ يدعونهم من النور إلى الظلمات، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ معناه: هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي حاج إبراهيم، أي: خاصم وجادل، وهو نمرود وهو أول من وضع التاج على رأسه، وتجبر في الأرض وادعى الربوبية؟ ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ أي: لأن آتاه الله الملك فطغى، أي: كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه، قال مجاهد: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران: فنمرود وبختنصر.

قال الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره: قال له: من ربك؟ فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ﴿قَالَ﴾ نمرود ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ أي: تحير ودهش وانقطعت حجته، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ وهذه الآية منسوقة على الآية الأولى، تقديره: «أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ» وإلى الذي مرَّ على قرية، وقيل: تقديره هل رأيت الذي حاج إبراهيم في ربه، وهل رأيت الذي مرَّ على قرية؟ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ أي: أحياه ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ﴾ أي: كم مكثت؟ يقال: لمَّا أحياه الله بعث إليه ملكًا فسأله كم لبثت؟ ﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا﴾ وذلك أن الله تعالى أماته ضحىً في أول النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال: لبثت يومًا وهو يرى أن الشمس قد غربت، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ بل بعض يوم ﴿قَالَ﴾ له الملك ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ يعني: التين ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعني: العصير ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ أي: لم يتغير، فكان التين كأنه قطف من ساعته، والعصير كأنه عصر من ساعته.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فنظر فإذا هو عظام بيض فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض فكساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ أي: عبرة ودلالة على البعث بعد الموت ـ قاله أكثر المفسرين، وقال الضحاك وغيره: إنه عاد إلى قريته شابًّا وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللحية.

قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد ونركب بعضها على بعض، وإنشاز الشيء رفعه وإزعاجه، يقال: أنشزته فنشز، أي: رفعته فارتفع.

﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ ثم كسا العظام لحمًا ودمًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ذلك عيانًا ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ يا رب علمت وآمنت ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة، أراد: أن يصير له علم اليقين عين اليقين؛ لأن الخبر ليس كالمعاينة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن؟! قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ورحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»(١).

حُكي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة، عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث: لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شكًّا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا. وقال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشك عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؛ فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم ﷺ لم تعرض من جهة الشك، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ قال مجاهد وعطاء وابن جريج: أخذ طاووسًا وديكًا وحمامة وغرابًا، وحُكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ونسرًا بدل الحمامة.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ معناه: أمِلْهُنَّ إليك ووجههن، وقال عطاء: معناه اجمعهنَّ واضممهنَّ إليك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ قال بعض المفسرين: أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض ففعل، ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ قيل: المراد بالسعي الإسراع والعَدْو، وقيل: المراد به المشي دون الطيران، كما قال الله تعالى: «فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ» [الجمعة: ٩]، أي: فامضوا، والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير وأن أرجلها

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤١٠ - ٤١١).

غير سليمة والله أعلم، وقيل: السعي بمعنى الطيران ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه إضمار تقديره: مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم ﴿كَمَثَلِ﴾ زارع ﴿حَبَّةٍ﴾ وأراد بسبيل الله: الجهاد، وقيل: جميع أبواب الخير ﴿أَنۢبَتَتْ﴾ أخرجت ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ جمع سنبلة ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ قيل: معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، وقيل: معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء ما بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف مما لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غني يعطي عن سعة ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية من ينفق ماله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان ـ رضي الله عنه ـ بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر رسول الله ﷺ فرأيت النبي ﷺ يدخل فيها يده ويقلبها ويقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم»[1]؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا﴾ وهو أن يمنَّ عليه بعطائه فيقول: أعطيتك كذا، ويعدُّ نعمه عليه فيكدرها ﴿وَلَآ أَذًى ۙ﴾ هو أن يعيره فيقول: إلى كم تسأل وكم تؤذيني؟ وقيل: من الأذى هو أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحب وقوفه عليه.

وقال سفيان: ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ﴾ هو أن يقول: قد أعطيتك وأعطيت فما شكرت، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئًا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكُفَّ سلامك عنه، فحظر الله على عباده المنَّ بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد

(١) رواه الترمذي: (١٠/ ١٩٣)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأحمد في «مسنده»: (٥/ ٦٣)، وإسناده حسن.

تعيير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: كلام حسن وردٌّ على السائل جميل، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: تستر عليه خلته ولا تهتك عليه ستره، وقيل: يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه عند رده ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾ يدفعها إليه ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي: منّ وتعيير للسائل أو قول يؤذيه ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: مستغن عن صدقة العباد ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة على من يمنُّ ويؤذي بالصدقة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ أي: أجور صدقاتكم ﴿بِالْمَنِّ﴾ على السائل، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بالمنِّ على الله تعالى ﴿وَالْأَذَىٰ﴾ لصاحبها، ثم ضرب لذلك مثلاً فقال ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ﴾ أي: كإبطال الذي ينفق ماله ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: مراءاة وسمعة ليروا نفقته ويقولوا: إنه كريم سخي ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يريد أن الرياء يبطل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين وهذا للمنافقين؛ لأن الكافر معلن بكفره غير مراء ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل هذا المرائي ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس، ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الصفوان ﴿تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد العظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: أملس، والصلد الحجر الصلب الأملس الذي لا شيء عليه، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمن بصدقته ويؤذي ويري الناس في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً كما يرى التراب على هذا الصفوان فإذا كان يوم القيامة بطل كله واضمحل؛ لأنه لم يكن لله عزَّ وجلَّ، كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلدًا ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: على ثواب شيء ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾ عملوا في الدنيا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا وانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[(١)].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

(١) أخرجه أحمد: (٥/ ٤٢٨ - ٤٢٩) وابن حبان في «موارد الظمآن» ٢٤٩٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلب رضا الله تعالى ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال قتادة: احتسابًا، وقال الشعبي والكلبي: تصديقًا من أنفسهم، أي: يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب وتصديق بوعد الله، يعلمون أن ما أخرجوا خير لهم مما تركوا، وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ أي: بستان، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ المكان المرتفع المستوي الذي تجري فيه الأنهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو عن الماء، وإنما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر شديد كثير ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرها.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أضعفت في الحمل، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ﴾ أي: فَطَشٌّ، وهو المطر الضعيف الخفيف ويكون دائمًا. وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص فيقول: كما أن هذه الجنة تريع في كل حال ولا تخلف سواء قل المطر أو كثر، كذلك يضعف الله صدقة المؤمن المخلص الذي لا يمنّ ولا يؤذي سواء قلّت نفقته أو كثرت، وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه الآية متصلة بقوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ» قوله: ﴿أَيَوَدُّ﴾ يعني: أيحب أحدكم أن تكون له جنة، أي: بستان من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أولاد صغار ضعاف عجزة ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح العاصف التي ترتفع إلى السماء كأنها عمود وجمعه أعاصير ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ﴾ هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائي يقول: عمله في حُسنه كحُسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بالجنة، فإذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضعاف وأصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت فصار أحوج ما يكون إليها وضعف عن إصلاحها لكبره وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم ولم يجد هو ما يعود به على أولاده، ولا أولاده ما يعودون به عليه فبقوا جميعًا متحيرين عجزة لا حيلة بأيديهم، كذلك يبطل الله عمل هذا المنافق والمرائي حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا إقالة.

قال عمر - رضي الله عنه - يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت «أَيَوَدُّ

أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ»؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضربت مثلاً لعمل، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أي عمل؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لعمل المرائي، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لرجل غني يعمل بطاعة الله بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[١].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ من خيار، قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ومجاهد: من حلالات ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ بالتجارة والصناعة، وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث.

عن المقدام بن معديكرب أنه حدثه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وكان داود لا يأكل إلا من عمل يديه»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: هذا بإخراج العشور من الثمار والحبوب، واتفق أهل العلم على إيجاب العشر في النخيل والكروم وفيما يقتات من الحبوب إن كان مسقيًّا بماء السماء أو من نهر يجري الماء إليه من غير مؤنة، وإن كان مسقيًّا بساقية أو بنضح ففيه نصف العشر.

عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريًّا العشر، وفيما سقي بالنضح نصف العشر»[٣].

وقال قوم: الآية في صدقات التطوع. عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟﴾ ومعناه: لا تقصدوا ﴿ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾. عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار تُخْرِجُ إذا كان جذاذ النخل أقناء من التمر والبسر فيعلقونه على حبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، فكان الرجل منهم يعمد فيدخل قنو الحَشَفَ وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك «وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ»[٥] أي: الحشف والرديء.

---

(١) رواه البخاري: (٨/ ٢٠١ - ٢٠٢).
(٢) رواه البخاري: (٤/ ٣٠٣).
(٣) رواه البخاري: (٣/ ٣٤٧)، ومسلم برقم٩٨١: (٢/ ٦٧٥).
(٤) رواه البخاري: (٥/ ٣)، ومسلم برقم٣٥٥٣: (٣/ ١١٨٩).
(٥) أخرجه الترمذي: (٨/ ٣٣٠ - ٣٣١)، وقال: (حديث حسن غريب)، وصححه الحاكم: (٢/ ٢٨٥)، والطبري: (٥/ ٥٥٩).

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ يعني: الخبيث ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ الإغماض غض البصر، وأراد هاهنا التجوز والمساهلة، معناه: لو كان لأحدكم على رجل حق فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه. هذا إذا كان المال كله جيدًا فليس له إعطاء الرديء؛ لأن أهل السُّهمان شركاؤه فيما عنده، فإن كان كل ماله رديئًا فلا بأس بإعطاء الرديء ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في أفعاله.

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يخوفكم بالفقر، والفقر سوء الحال وقلة ذات اليد، ومعنى الآية: إن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل: أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت به افتقرت ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بالبخل ومنع الزكاة، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: لذنوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ أي: رزقًا وخلفًا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غني ﴿عَلِيمٌ﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ابن آدم، أنفق أُنْفِق عليك»، وقال: قال رسول الله ﷺ: «يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحَّاءَ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه (قال): وعرشه على الماء وبيده الأخرى القِسْط يرفع ويخفض»(١).

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال السدي: هي النبوة، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة: علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه، وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام، لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهنَّ، ولا تكونوا كأهل نهروان تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما أنزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا علينا بالضلالة، فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيم أنزل الله لم يختلف في شيء منه.

---

(١) رواه البخاري: (٨/ ٣٥٢)، ومسلم برقم٩٩٣: (٢/ ٦٩٠).

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال: الورع في دين الله ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ فيما فرض الله عليكم ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ أي: ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ يحفظه حتى يجازيكم به، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين الصدقة في غير موضعها بالرياء أو يتصدقون من الحرام ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ من أعوان يدفعون عذاب الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: تظهروها ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: نعمت الخصلة هي.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ تسرُّوها ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي: تؤتوها الفقراء في السر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأفضل، وكلٌّ مقبول إذا كانت النية صادقة، ولكن صدقة السر أفضل. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(١).

وقيل: الآية في صدقة التطوع، أما الزكاة المفروضة فالإظهار فيها أفضل حتى يقتدي به الناس، كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل، والنافلة في البيت أفضل.

وقيل: الآية في الزكاة المفروضة كان الإخفاء فيها خيرًا على عهد رسول الله ﷺ، أما في زماننا فالإظهار أفضل حتى لا يساء به الظن.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ قال الكلبي: سبب نزول هذه الآية أن ناسًا من المسلمين كانت لهم

---

(١) رواه البخاري: (٢/ ١٤٣)، ومسلم برقم١٠٣١: (٢/ ٧١٥).

قرابة وأصهار في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم وأرادوهم على أن يسلموا، وقال سعيد بن جبير: كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين؛ نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام؛ فنزل قوله: «لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ» فتمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وأراد به هداية التوفيق، أما هدى البيان والدعوة فكان على رسول الله ﷺ، فأعطوهم بعد نزول الآية.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: تعملونه لأنفسكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يوفر لكم جزاؤه، ومعناه: يؤدي إليكم؛ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئًا، وهذا في صدقة التطوع، أباح الله تعالى أن توضع في أهل الإسلام وأهل الذمة، فأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين وهم أهل السهمان المذكورون في سورة التوبة.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم فقراء المهاجرين.

﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش وهم أهل الصفة الذين ذكرناهم، وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وقيل: معناه حَبَسَهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء، والتعفف التَّفَعُّل من العفة وهي الترك.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ السيماء والسيمياء والسمة: العلامة التي يعرف بها الشيء، وأثر الجهد من الحاجة والفقر، وصفرة ألوانهم من الجوع والضر، ورثاثة ثيابهم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف، والإلحاف: الإلحاح واللجاج.

عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وعليه مُجازٍ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من أنفق كذا فله أجره عند ربه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن

---

(١) رواه البخاري: (٣/ ٣٣٥).

رَبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: يعاملون به، وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ يعني: يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ﴾ أي: يصرعه ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أصل الخبط: الضرب والوطء، وهو ضرب على غير استواء، يقال: ناقة خبوط للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: الجنون، يقال: مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونًا، ومعناه: أن آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كمثل المصروع.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا واستحلالهم إياه؛ وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حلَّ ماله على غريمه فطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك، ويقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير؛ فكذبهم الله تعالى وقال: «وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟» واعلم أن الربا في اللغة: الزيادة، قال الله تعالى: «وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ» أي: ليكثر «فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ» [الروم: ٣٩]، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام في الجملة، إنما المحرم زيادة على صفة مخصوصة في مال مخصوص بيَّنه رسول الله ﷺ فقال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الورق بالورق، ولا البر بالبر، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح إلا سواء بسواء، عينًا بعين، يدًا بيد، ولكن بيعوا الذهب بالورق، والورق بالذهب، والبر بالشعير، والشعير بالبر، والتمر بالملح، والملح بالتمر يدًا بيد كيف شئتم - ونقص أحدهما الملح أو التمر»، وزاد أحدهما: «من زاد وازداد فقد أربى»[1].

قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تذكير وتخويف، ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن أكل الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما مضى من ذنبه قبل النهي مغفور له ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعد النهي إن شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء، وإن شاء خذله حتى يعود، وقيل: « فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس إليه من أمر نفسه شيء ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس إليه من أمر نفسه شيء ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد التحريم إلى أكل الربا مستحلاً له ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

---

(١) رواه مسلم برقم١٥٨٧: (٣/ ١٢١٠).

عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه أنه قال: إن النبي ﷺ نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغي، ولعن آكل الربا وموكله والواشمة والمستوشمة والمصور»[١].

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء»[٢].

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾ أي: ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته، ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يثمرها ويبارك فيها في الدنيا، ويضاعف بها الأجر والثواب في العقبى ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بتحريم الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر بأكله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير، ناسٌ من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ فقال النبي ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوعة كلها، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنها موضوعة كلها».

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ﴾ أي: إذا لم تذروا ما بقي من الربا ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فاعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب، قال أهل المعاني: حرب الله: النار، وحرب رسول الله: السيف.

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ إن تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بطلب الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان عن رأس المال؛ فلما نزلت الآية قال بنو عمرو الثقفي ومن كان يعامل بالربا من غيرهم: بل نتوب إلى الله، فإنه لا يَدَانِ لنا بحرب الله ورسوله، فرضوا

(١) رواه البخاري: (٤/ ٣١٤).
(٢) رواه مسلم برقم١٥٩٨ : (٣/ ١٢١٨).

برأس المال، فشكا بنو المغيرة العسرةَ وقالوا: أخِّرونا إلى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني: وإن كان الذي عليه الدين معسرًا، ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فعليه نظرة ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ ومعناها: اليسار والسعة ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ أي: تتركوا رؤوس أموالكم إلى المعسر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه أنه كان يطلب رجلاً بحق فاختبأ منه فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: العسرة، فاستحلفه على ذلك فحلف؛ فدعا بصكِّه فأعطاه إياه، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرًا أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة»[1].

﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: تردون إلى الله تعالى ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال له جبريل ﷺ: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ واحدًا وعشرين يومًا، وقال ابن جريج: تسع ليال، وقال سعيد بن جبير: سبع ليال، ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة، قال الشعبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ آية الربا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْأَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُواْ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ

---

(١) رواه مسلم برقم١٥٦٣: (٣/ ١١٩٦).

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما - لما حرم الله الربا أباح السَّلَم وقال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحلَّه الله تعالى في كتابه وأذن فيه ثم قال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ».

قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ أي: تعاملتم بالدَّين، وإنما قال: ﴿بِدَيْنٍ﴾ بعد قوله ﴿تَدَايَنتُم﴾ لأن المداينة قد تكون مجازاة وتكون معاطاة، فقيَّده بالدَّين ليعرف المراد من اللفظ، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الأجل: مدة معلومة الأول والآخر، ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي: اكتبوا الذي تداينتم به.

واختلفوا في هذه الكتابة؛ فقال بعضهم: هي واجبة، والأكثرون على أنه أمر استحباب، فإن ترك فلا بأس، كقوله تعالى: «فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ» [الجمعة: ١٠]، وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد فرضًا ثم نسخ الكل بقوله: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ»، وهو قول الشعبي، ثم بيَّن كيفية الكتابة فقال جلَّ ذكره: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ أي: ليكتب كتابَ الدينِ بين الطالب والمطلوب ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالحق، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقديم أجل ولا تأخير ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ أي: لا يمتنع ﴿كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: كما شرعه الله وأمره ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: المطلوبُ يقر على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ يعني: المملي ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا ينقص منه، أي: من الحق الذي عليه شيئًا.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: جاهلاً بالإملاء، قاله مجاهد، وقال الضحاك والسدي: طفلاً صغيرًا، وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السفيه: المبذر المفسد لماله أو في دينه.

قوله: ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي: شيخًا كبيرًا، وقيل: هو ضعيف العقل لِعَتَهٍ أو جنون ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لخرس أو عيّ أو عجمة أو حبس أو غيبة لا يمكنه حضور الكاتب أو جهل بما لَهُ وعليه ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ أي: قيِّمه ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالصدق والحق، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - ومقاتل: أراد بالولي صاحب الحق، يعني: إن عجز من عليه الحق من الإملال فليملل ولي الحق وصاحب الدين بالعدل؛ لأنه أعلم بحقه ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ أي: وأشهدوا ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ أي: شاهدين ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ يعني: الأحرار المسلمين، دون العبيد والصبيان والكفار، وهو قول أكثر أهل العلم، وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان.

وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الأموال حتى تثبت برجل وامرأتين.

قوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ يعني: من كان مرضيًا في ديانته وأمانته.

قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ومعنى تضل، أي: تنسى، يريد: إذا نسيت إحداهما شهادتها؛ تذكرها الأخرى؛ فتقول: ألسنا حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ قيل: أراد به: إذا ما دعوا لتحمُّل الشهادة، سماهم شهداء على معنى أنهم يكونون شهداء، وهو أمر إيجاب عند بعضهم، وقال قوم: تجب الإجابة إذا لم يكن غيره، فإن وجد غيره فهو مخير هو قول الحسن، وقال قوم: هو أمر ندب، وهو مخير في جميع الأحوال، وقال بعضهم: هذا في إقامة الشهادة وأدائها، فمعنى الآية: ولا يأب الشهداءُ إذا ما دُعوا لأداء الشهادة التي تحملوها.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ أي: ولا تملوا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ والهاء راجعة إلى الحق ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ قليلاً كان أو كثيرًا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى محِلِّ الحق ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الكتاب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لأنه أمر به، واتباع أمره أعدل من تركه ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ لأن الكتابة تذكر الشهود ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾ وأحرى وأقرب إلى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ تشكُّوا في الشهادة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً﴾ ومعنى الآية: إلا أن تكون تجارة حاضرة يدًا بيد تديرونها بينكم ليس فيها أجل ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني: التجارة ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، والإشهاد واجب في صغير الحق وكبيره نقدًا أو نسيئًا، وقال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -: الأمر فيه إلى الأمانة لقوله تعالى: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا...» الآية، وقال الآخرون: هو أمر ندب.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ وقيل معناه: أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شغل مهم، فيقولان: نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا؛ فيقول الداعي: إن الله أمركما أن تجيبا، ويلح عليهما فيشغلهما عن حاجتهما؛ فنهى عن ذلك وأمر بطلب غيرهما ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟﴾ ما نهيتكم عنه من الضرر ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: معصية وخروج عن الأمر ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا آلات الكتابة فارتهنوا ممن تداينونه رهونًا لتكون وثيقة لكم بأموالكم، واتفقوا على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، وقوله: «فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ» أي: ارتهنوا واقبضوا حتى لو رهن ولم يسلِّم فلا يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلَّم لزم من جهة الراهن حتى لا يجوز له أن يسترجعه ما دام شيء من الحق باقيًا، ويجوز في الحضر الرهن مع وجود الكاتب، وقال مجاهد: لا يجوز الرهن إلا في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية، وعند الآخرين خرج الكلام في الآية على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط.

والدليل عليه ما رُوي أن النبي ﷺ رهن درعه عند أبي الشحم اليهودي ولم يكن ذلك في السفر

ولا عند عدم كاتب[1] ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يعني: فإن كان الذي عليه الحق أمينًا عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئًا لحسن ظنه به.

﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي: فليقضه على الأمانة ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في أداء الحق، ثم رجع إلى خطاب الشهود وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ إذا دعيتم إلى إقامتها، نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه، فقال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: فاجرٌ قلبه، قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة، «فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ» وأراد به: مسخ القلب، نعوذ بالله من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من بيان الشهادة وكتمانها ﴿عَلِيمٌ﴾.

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اختلف العلماء في هذه الآية؛ فقال قوم: هي خاصة ثم اختلفوا في وجه خصوصها، فقال بعضهم: هي متصلة بالآية الأولى نزلت في كتمان الشهادة، معناه: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه أيها الشهداء أو تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله، وهو قول الشعبي وعكرمة. وقال بعضهم: نزلت فيمن يتولى الكافرين دون المؤمنين، يعني: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار أو تسروا يحاسبكم به الله. وذهب الأكثرون إلى أن الآية عامة، ثم اختلفوا فيها؛ فقال قوم: هي منسوخة بالآية التي بعدها.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أنزل الله على رسوله ﷺ: «لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ...» الآية؛ قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفْنا

(١) رواه البخاري: (٦/ ٩٩)، ومسلم برقم١٦٠٣ : (٣/ ١٢٢٦).

من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! بل قولوا «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ وَإِلَيْكَ» فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها: «ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ»، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا» قال: نعم «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا» قال: نعم «رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ» قال: نعم «وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ» قال: نعم[١].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجلَّ تجاوز عن أُمتي ما وسوست به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[٢].

وقال بعضهم: الآية غير منسوخة؛ لأن النسخ لا يرد على الأخبار إنما يرد على الأمر والنهي، وقوله: «يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ» خبر لا يرد عليه النسخ، ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم: قد أثبت الله تعالى للقلب كسبًا فقال: «بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» [البقرة: ٢٢٥]، فليس لله عبدٌ أسَرَّ عملاً أو أعلنه من حركة من جوارحه أو همسة في قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه ثم يغفر ما يشاء ويعذب بما يشاء، وهذا معنى قول الحسن، يدل عليه قوله تعالى: «إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا» [الإسراء: ٣٦].

وقال الآخرون: معنى الآية أن الله عزَّ وجلَّ يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه، غير أن معاقبته على ما أخفوه مما لم يعملوه بما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التي يحزنون عليها، وهذا قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «يا عائشة، هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيروع لها حتى إن المؤمن يخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير»[٣].

وقال بعضهم: «وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ» يعني: ما في قلوبكم مما عزمتم عليه «أَوْ تُخْفُوهُ» ولا تبدوه وأنتم عازمون عليه «يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ»، فأما ما حدثت به أنفسكم مما لم تعزموا عليه

---

(١) رواه مسلم برقم١٩٩: (١/ ١١٥).

(٢) رواه البخاري: (١١/ ٥٤٩)، ومسلم برقم٢٠٢: (١/ ١١٦ - ١١٧).

(٣) رواه الترمذي: (٨/ ٣٣٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث عائشة لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة، وأبو داود الطيالسي في «مسنده»: ص٢٢١، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، وأحمد: (٦/ ٢١٨).

فإن ذلك مما لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ولا يؤاخذكم به، دليله قوله تعالى: «لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» [البقرة: ٢٢٥].

وقال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان: أيؤاخذ العبد بالهمَّة؟ قال: إذا كان عزمًا أُخذ به، وقيل: معنى المحاسبة الإخبار والتعريف، ومعنى الآية: وإن تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم يحاسبكم به الله ويجزيكم به ويعرفكم إياه، ثم يغفر للمؤمنين إظهارًا لفضله، ويعذب الكافرين إظهارًا لعدله، وهذا معنى قول الضحاك، ويروى ذلك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، يدل عليه أنه قال: يحاسبكم به الله ولم يقل يؤاخذكم به، والمحاسبة غير المؤاخذة، والدليل عليه:

ما أخبرنا به صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ فأتاه رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس فيقول: أي عبدي، أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم أي رب، ثم يقول: أي عبدي، تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فـ «يَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ» [هود: ١٨]»(١).

قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، روى طاووس عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «فيغفر لمن يشاء» الذنب العظيم، «ويعذب من يشاء» على الذنب الصغير «لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ» [الأنبياء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: صدق ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ يعني: كل واحد منهم؛ ولذلك وحَّد الفعل ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك.

روي عن حكيم عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ: أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ حين نزلت هذه الآية: إن الله قد أثنى عليك وعلى أُمَّتك فسل تعطه، فسأل بتلقين الله تعالى فقال: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ وهو نصب على المصدر، أي: اغفر غفرانك، أو نسألك غفرانك ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، والوسع: اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، واختلفوا في تأويله؛ فذهب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعطاء وأكثر المفسرين إلى أنه أراد به حديث النفس الذي ذكر في قوله تعالى: «وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ» كما ذكرنا، وروي

(١) رواه البخاري: (٥/ ٩٦).

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: هم المؤمنون خاصة، وسَّع عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم فيه إلا ما يستطيعون كما قال الله تعالى: «يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ» [البقرة: ١٨٥]، وقال الله تعالى: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [الحج: ٧٨]، وسئل سفيان بن عيينة عن قوله عزَّ وجلَّ: «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» قال: إلا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها، وهذا قولٌ حسن؛ لأن الوسع ما دون الطاقة.

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: للنفس ما عملت من الخير، لها أجره وثوابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشر وعليها وزره ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ أي: لا تعاقبنا ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ جعله بعضهم من النسيان الذي هو السهو، قال الكلبي: كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئًا مما أُمروا به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة، فحرم عليهم من شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك، وقيل: هو من النسيان الذي هو الترك كقوله تعالى: «نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» [التوبة: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قيل: معناه القصد والعمد، يقال: أخطأ فلان إذا تعمد، قال الله تعالى: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا» [الإسراء: ٣١]، قال عطاء: إن نسينا أو أخطأنا يعني: إن جهلنا أو تعمدنا، وجعله الأكثرون من الخطأ الذي هو الجهل والسهو؛ لأن ما كان عمدًا من الذنب فغير معفو عنه بل هو في مشيئة الله، والخطأ معفو عنه، قال النبي ﷺ: «رفع عن أُمَّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(١).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي: عهدًا ثقيلاً وميثاقًا لا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: اليهود، فلم يقوموا به فعذبتهم، وقيل: معناه لا تشدد ولا تغلظ الأمر علينا كما شددت على من قبلنا من اليهود، وذلك أن الله فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة ومَن أصاب ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنبًا أصبح وذنبه مكتوب على بابه ونحوها من الأثقال والأغلال، وهذا معنى قول عثمان وعطاء ومالك بن أنس وأبي عبيدة وجماعة، يدل عليه قوله تعالى: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ» [الأعراف: ١٥٧]، وقيل: الإصر ذنب لا توبة له، معناه: اعصمنا من مثله، والأصل فيه العقل والإحكام.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيقه، وقيل: هو حديث النفس والوسوسة.

---

(١) اشتهر بهذا اللفظ في كتب الفقه والأصول، والمعروف ما أخرجه ابن ماجه بلفظ: «إن الله وضع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» رجاله كلهم ثقات، ولكن يوجد فيه انقطاع بين ابن عباس وعطاء، وأشار إلى هذا البوصيري في «الزوائد» فقال: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع وقد ورد بألفاظ أخرى يقوي بعضها بعضًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: تجاوز وامْحُ عنا ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ فإننا لا ننال العمل إلا بطاعتك، ولا نترك معصيتك إلا برحمتك ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرنا وحافظنا وولينا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

عن عبد الله قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعْرَجُ به من الأرض فَيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به فوقها فَيُقْبَضُ منها قال: «إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ» [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قال: وأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: الصلوات الخمس، وأُعطي خواتِيمَ سورةِ البقرة، وغُفِرَ لمن لا يشرك بالله من أُمته شيئًا من المُقْحَمَاتِ»[١] كبائر الذنوب.

عن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلةٍ كَفَتَاهُ»[٢].

سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ابتداء وما بعده خبر، و﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ نعت له ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله من الكتب في التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ﴾ وإنما قال: «وأنزل التوراة والإنجيل»؛ لأن التوراة والإنجيل أنزلا جملة واحدة، وقال في القرآن « نَزَّلَ » لأنه نزل مفصَّلاً، والتنزيل للتكثير.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هاديًا لمن تبعه، ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ المفرِّق بين الحق والباطل، وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٣: (١/ ١٥٧).

(٢) رواه البخاري: (٧/ ٣١٧ - ٣١٨)، ومسلم برقم٢٥٥، ٢٥٦: (١/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ذكرًا أو أنثى، أبيض أو أسود، حسنًا أو قبيحًا، تامًّا أو ناقصًا، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا في الرد على وفد نجران من النصارى، حيث قالوا: عيسى ولد الله، فكأنه يقول: كيف يكون لله ولد وقد صوره الله تعالى في الرحم.

عن زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أُمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك» أو قال: «يبعث الله الملك بأربع كلمات: فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد» قال: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1].

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ مبينات مفصلات، سُميت محكمات من الإحكام، كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها؛ لظهورها ووضوح معناها ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله الذي يعمل عليه في الإحكام، وإنما قال: «هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ» ولم يقل أُمهات الكتاب؛ لأن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة، وكلام الله واحد، وقيل: معناه كل آية منهنَّ أُم الكتاب، كما قال: «وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً» [المؤمنون: ٥٠]، أي: كل واحد منهما آية ﴿وَأُخَرُ﴾ جمع أخرى، ولم يصرفه لأنه معدول عن الآخر، مثل: عُمر وزُفر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ فإن قيل: كيف فرق هاهنا بين المحكم والمُتشابه وقد جعل كل القرآن محكمًا في موضع آخر؟ فقال: «الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ» [هود: ١]، وجعله كله متشابهًا في موضع آخر فقال: «ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا» [الزمر: ٢٣].

قيل: حيث جعل الكلَّ محكمًا أراد أن الكلَّ حقٌّ ليس فيه عبث ولا هزل، وحيث جعل الكل متشابهًا أراد أن بعضه يشبه بعضًا في الحق والصدق وفي الحسن، وجعل هاهنا بعضه محكمًا وبعضه متشابهًا.

واختلف العلماء فيهما؛ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المحكمات هنَّ الآيات الثلاث

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٠٣)، ومسلم برقم٢٦٤٣: (٤/ ٢٠٣٦ - ٢٠٣٧).

في سورة الأنعام «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...» [الأنعام: ١٥١] ونظيرها في بني إسرائيل، «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ...» [الإسراء: ٢٣] الآيات، وعنه أنه قال: المتشابهات حروف التهجي في أوائل السور.

وقال مجاهد وعكرمة: المحكم ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه يشبه بعضه بعضًا في الحق ويصدق بعضه بعضًا، كقوله تعالى: «وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ» [البقرة: ٢٦]، «وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» [يونس: ١٠٠].

وقيل: المحكمات ما أوقف الله الخلق على معناه، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه لا سبيل لأحدٍ إلى علمه، نحو الخبر عن أشراط الساعة.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكم ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه ما احتمل أوجهًا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الحق، وقيل: شك ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ واختلفوا في المعنيِّ بهذه الآية؛ قال الربيع: هم وفد نجران خاصموا النبي ﷺ في عيسى عليه السلام، وقالوا له: ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: «بلى»، قالوا: حسبنا، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الكلبي: هم اليهود طلبوا علم أجل هذه الأمة واستخراجها بحساب الجُمَّل. وقال ابن جريج: هم المنافقون، وقال الحسن: هم الخوارج، وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ» قال: إن لم يكونوا الحَرُوريَّة والسَّبَئِيَّة فلا أدري من هم، وقيل: هم جميع المبتدعة.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ» إلى قوله: «أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ» قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم»[(١)].

قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طلب الشرك. قاله الربيع والسدي، وقال مجاهد: ابتغاء الشبهات واللبس؛ ليضلوا بها جهالهم ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ تفسيره وعلمه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ اختلف العلماء في نظم هذه الآية؛ فقال قوم: الواو في قوله: «وَٱلرَّٰسِخُونَ» واو العطف، يعني: أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم، وهم مع علمهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

وذهب الأكثرون إلى أن الواو في قوله «وَٱلرَّٰسِخُونَ» واو الاستئناف، وتم الكلام عند قوله: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ»، وقالوا: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه لم يطلع عليه أحدًا من خلقه، كما استأثر بـ: علم الساعة، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونحوها، والخلق متعبَّدون

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٠٩)، ومسلم برقم٢٦٦٥: (٤/ ٢٠٥٣).

في المتشابه بالإيمان به، وفي المحكم بالإيمان به والعمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: في هذه الآية انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: آمنا به كل من عند ربِّنا. وهذا قول أقيس في العربية، وأشبه بظاهر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الداخلون في العلم، هم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في معرفتهم شك، وأصله من رسوخ الشيء في الشيء وهو ثبوته، وسئل مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن الراسخين في العلم؟ قال: العالم العامل بما علم المتبع له، وقيل: الراسخ في العلم مَن وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ بما في القرآن ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: ويقول الراسخون: ربنا لا تزغ قلوبنا، أي: لا تملْها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أعطنا من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ توفيقًا وتثبيتًا للذي نحن عليه من الإيمان والهدى، وقال الضحاك: تجاوزًا ومغفرة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

عن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، والميزان بيد الرحمن يرفع قومًا ويضع آخرين إلى يوم القيامة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: لقضاء يوم، وقيل: اللام بمعنى في، أي: في يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، وهو يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهو مفعال من الوعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ﴾ لن تنفع، ولن تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الكلبي: من عذاب الله، وقال أبو عبيدة: «مِن» بمعنى «عند»، أي: عند الله ﴿شَيْـًٔا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٤/ ١٨٢)، وابن ماجه: (١/ ٧٢)، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ كفار الأمم الماضية، مثل: عاد وثمود وغيرهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعاقبهم الله ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ﴾ معناه: قل لكفار مكة: ستغلبون يوم بدر وتحشرون إلى جهنم في الآخرة، فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي ﷺ يوم بدر: «إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم». وقال بعضهم: المراد بهذه الآية: اليهود.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الفراش، أي: بئس ما مهد لهم، يعني: النار.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾ أي: قد كان لكم بيان. ﴿فِي فِئَتَيۡنِ﴾ فرقتين، وأصلها فيء الحرب؛ لأن بعضهم يفيء إلى بعض ﴿ٱلۡتَقَتَاۖ﴾ يوم بدر ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعة لله، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ أي: فرقة أخرى كافرة، ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ اختلفوا في وجهه: فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين، ثم له تأويلان، أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم، فإن قيل: كيف قال: مثليهم، وهم كانوا ثلاثة أمثالهم؟ قيل: هذا مثل قول الرجل وعنده درهم: أنا أحتاج إلى مثلي هذا الدرهم، يعني: إلى مثليه سواه فيكون ثلاثة دراهم، والتأويل الثاني ـ وهو الأصح ـ: كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم، قلّلهم الله تعالى في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين، ثم قللهم الله في أعينهم في حالة أُخرى حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم. قال بعضهم: الرؤية راجعة إلى المشركين، يعني: يرى المشركون المسلمين مثليهم، قللهم الله قبل القتال في أعين المشركين؛ ليجترئ المشركون عليهم ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثرهم الله في أعين المشركين؛ ليجبنوا وقللهم في أعين المؤمنين ليجترؤوا، فذلك قوله تعالى: «وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ» [الأنفال: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ أي: في رأي العين، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لذوي العقول، وقيل: لمن أبصر الجمعين.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ

حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ جمع شهوة، وهي ما تدعو النفس إليه ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بدأ بهنَّ لأنهنَّ حبائل الشيطان ﴿وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾ جمع قنطار، والقنطار المال الكثير بعضه على بعض. وسمي قنطارًا من الإحكام، يقال: قنطرت الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ قال الضحاك: المحصنة المحكمة، وقال قتادة: هي الكثيرة المنضدة بعضها فوق بعض، ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ وقيل: سمي الذهب ذهبًا لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة لأنها تنفضُّ، أي: تتفرق ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه، واحدها فرس، «المسومة» قال مجاهد: هي المطهمة الحسان، وقال عكرمة: تسويمها حسنها، وقال سعيد بن جبير: هي الراعية، يقال: أسام الخيل وسوَّمها، ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ جمع النعم، وهي الإبل والبقر والغنم، جمع لا واحد له من لفظه ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ يعني: الزرع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ يشير إلى أنها متاع يفنى ﴿ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: المرجع، فيه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ صدقنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ استرها علينا وتجاوز عنا ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ إن شئت نصبتها على المدح، وإن شئت خفضتها على النعت، يعني: الصابرين في أداء الأمر وعن ارتكاب النهي، وعلى البأساء والضراء وحين البأس، والصادقين في إيمانهم، قال قتادة: هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا في السر والعلانية ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ المطيعين المصلين

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٤٨٧)، ومسلم برقم٢٨٢٩: (٤/ ٢١٧٦).

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في طاعة الله ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ قال مجاهد وقتادة والكلبي: يعني المصلين بالأسحار.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له»(١).

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قيل: نزلت هذه الآية في نصارى نجران.

قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي: بيَّن الله؛ لأن الشهادة تبين، وقيل: أعلم الله: أنه لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: وشهدت الملائكة، قيل: معنى شهادة الله الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ يعني: الأنبياء ﷺ. وقال ابن كيسان: يعني المهاجرين والأنصار، وقال مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، قال السدي والكلبي: يعني جميع علماء المؤمنين ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، ومعنى قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: قائمًا بتدبير الخلق، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان، أي: مدبر له ومتعهد لأسبابه، وقائم بحق فلان، أي: مجازٍ له، فالله جلَّ جلاله مدبر رازق مجازٍ بالأعمال.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ يعني: الدين المرضي الصحيح، كما قال تعالى: «وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا» [المائدة: ٣]، وقال: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ» [آل عمران: ٨٥]، قال قتادة في قوله تعالى: «إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ»: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، ولا يقبل غيره ولا يجزي إلا به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام، أي: وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، يعني: بيان نعته في كتبهم، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: طلبًا للملك والرياسة، فسلط الله عليهم الجبابرة.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت في نصارى نجران، ومعناها ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٩)، ومسلم برقم٧٥٨: (١/ ٥٢١).

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: الإنجيل في أمر عيسى عليه السلام، وفرَّقوا القول فيه إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي: للمعاداة والمخالفة ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ أي: خاصموك يا محمد في الدين؛ فقال الله تعالى: ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح من الإنسان وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء خضع له جميع جوارحه، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي: ومن اتبعني أسلم كما أسلمت.

وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ يعني: العرب ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا كما قال: «فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ» [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهل الكتاب: أسلمنا، فقال لليهود: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا: معاذ الله، وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله؟ قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبدًا، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي: تبليغ الرسالة، وليس عليك الهداية ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يجحدون بآيات الله، يعني: القرآن، ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم﴾ أخبرهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وجيع، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ﴾ بطلت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وبطلان العمل في الدنيا أن لا يقبل، وفي الآخرة أن لا يجازى عليه.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: اليهود ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ اختلفوا في هذا الكتاب؛ فقال قتادة: هم اليهود دُعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه. وقال الآخرون: هو التوراة.

روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: «على ملة إبراهيم»، قالا: إن إبراهيم كان يهوديًّا، قال رسول الله ﷺ: «فهلمُّوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم» فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾ والغرور: هو الإطماع فيما لا يحصل منه شيء ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ والافتراء: اختلاق الكذب.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾ أي: فكيف حالهم، أو كيف يصنعون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ وفِّرَتْ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد على سيئاتهم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني ملك النبوة، وقال الكلبي: «تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ»: محمدًا وأصحابه ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أبي جهل وصناديد قريش.

وقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ قال عطاء: «وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ»: المهاجرين والأنصار، «وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ»: فارس والروم، وقيل: «وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ»: محمداً ﷺ وأصحابه حتى دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، «وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ»: أبا جهل وأصحابه حتى حُزَّت رؤوسهم وألقوا في القليب، وقيل: «وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ» بالإيمان والهداية، «وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ» بالكفر والضلالة. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: بيدك الخير والشر، فاكتفى بذكر أحدهما ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي: تدخل الليل في النهار، حتى يكون النهار خمس عشرة

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير، عن ابن عباس: (٦/٢٢٨ - ٢٨٩)، وابن هشام في «السيرة»: (٢/٢٠١).

ساعة والليل تسع ساعاتٍ ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات، فما نقص من أحدهما زاد في الآخر ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾، معنى الآية: يخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان.

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ من غير تضييق ولا تقتير.

لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان الحجاج بن عمرو بن أبي الحقيق وقيس بن زيد يظنون بنفر من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم، وإظهارهم على عورة المسلمين ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ أي: ليس من دين الله في شيء، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ يعني: إلا أن تخافوا منهم مخافة، ومعنى الآية: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ دفعًا عن نفسه من غير أن يستحل دمًا حرامًا أو مالاً حرامًا، أو يُظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية، قال الله تعالى: «إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ» [النحل: ١٠٦] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ أي: يخوفكم الله عقوبته على موالاة الكفار، وارتكاب المنهي عنه، ومخالفة المأمور ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي: قلوبكم من مودة الكفار ﴿أَوۡ تُبۡدُوهُ﴾ من موالاتهم: قولاً وفعلاً ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ وقال الكلبي: إن تسروا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب أو تظهروه بحربه وقتاله، يعلمه الله ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به، ثم قال:

﴿وَيَعۡلَمُ﴾ رفع على الاستئناف ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يعني: إذا كان لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض، فكيف تخفى عليه موالاتكم الكفار وميلكم إليهم بالقلب؟! ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: اذكروا واتقوا يوم تجد كل نفس ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ لم يبخس منه شيء، كما قال تعالى: «وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا» [الكهف: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾ أي: بين النفس ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ يعني: وبين السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ قال السدي: مكانًا بعيدًا، وقال مقاتل: كما بين المشرق والمغرب، والأمد: الأجل والغاية التي لا ينتهى إليها، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. أي: اتبعوا شريعتي وسنتي يحببكم الله، فحب المؤمنين لله: اتباعهم أمره، وإيثار طاعته، وابتغاء مرضاته، وحب الله المؤمنين: ثناؤه عليهم، وثوابه لهم، وعفوه عنهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقيل: لما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أُبَيّ لأصحابه: إنَّ محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى بن مريم، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن طاعتهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أُمَّتي يدخلون الجنة إلا مَن أبى» قالوا: ومن يأبى؟ قال: «مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى»[1].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٤٩).

عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ...﴾ الآية، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني: إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام، وأنتم على غير دين الإسلام ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار من الصفوة، وهي الخالص من كل شيء ﴿ءَادَمَ﴾ أبو البشر ﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ قيل: أراد بآل إبراهيم وآل عمران: إبراهيم عليه السلام وعمران أنفسهما، كقوله تعالى: «وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ» [البقرة: ٢٤٨]، يعني: موسى وهارون. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً ﴿٣٤﴾﴾ اشتقاقها من «ذرأ» بمعنى خلق. ويسمى الأولاد والآباء ذرية، فالأبناء ذرية لأنه ذرأهم، والآباء ذرية لأنه ذرأ الأبناء منهم، قال الله تعالى: «وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ» [يس: ٤١]، أي: آباءهم، ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ أي: بعضها من ولد بعض، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي: جعلت الذي في بطني محررًا؛ نذرًا مني لك ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والنذر: ما يوجبه الإنسان على نفسه ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقًا خالصًا لله مفرغًا لعبادة الله، لا أشغله بشيء من الدنيا، وكل ما أخلص فهو محرر، يقال: حررت العبد إذا أعتقته وخلصته من الرق.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي: ولدتها، إذا هي جارية، والهاء في قوله «وَضَعَتْهَا» راجعة إلى النذير، لا إلى ما ولد؛ لذلك أُنث ﴿قَالَتْ﴾ وكانت ترجو أن يكون غلامًا: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ اعتذارًا إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ومريم بلغتهم العابدة والخادمة، وكانت مريم أجمل النساء في وقتها وأفضلهن ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا﴾ أمنعها وأجيرها ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فالشيطان: الطريد اللعين، والرجيم: المرمي بالشهب.

قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهلّ الصبي صارخًا من الشيطان، غير مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة - رضي الله عنه -: «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»[١].

قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: تقبل الله مريم، و«تقبل» بمعنى: قبل ورضي، وقيل: معنى التَّقَبُّل: التَّكَفُّل في التربية، والقيام بشأنها ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ معناه: وأنبتها فنبتت نباتًا حسنًا، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ»، أي: سلك بها طريق

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢١٢)، ومسلم برقم ٢٣٦٦: (٤/ ١٨٣٨).

السعداء ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني: سوّىٰ خلقها من غير زيادة ولا نقصان، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: ضمنها الله زكريا، وضمها إليه بالقرعة، أو: ضمها زكريا إلى نفسه وقام بأمرها، وهو زكريا بن آذن بن مسلم بن صدوق، من أولاد سليمان بن داود ﷺ. وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها كل يوم ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ وأراد بالمحراب الغرفة، والمحراب: أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، ويقال للمسجد أيضًا: محراب، قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرجة، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: فاكهة في غير حينها، فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ قال أبو عبيدة: معناه من أين لك هذا؟ وأنكر بعضهم عليه، وقال: معناه من أي جهة لك هذا؟ لأن «أنَّى» للسؤال عن الجهة و«أين» للسؤال عن المكان ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: من قطف الجنة، قال الحسن: حين ولدت مريم لم تلقم ثديًا قط، كان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول لها زكريا: أنَّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، تكلَّمت وهي صغيرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: عند ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ﴾ أي: يا رب ﴿هَبْ لِي﴾ أعطني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولدًا مباركًا تقيًّا صالحًا رضيًّا، والذرية تكون واحدًا وجمعًا، ذكرًا وأنثى، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: سامعه، وقيل: مجيبه، كقوله تعالى: «إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» [يس: ٢٥]، أي: فأجيبوني ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾. وأراد بالملائكة هاهنا: جبريل عليه السلام وحده، كقوله تعالى في سورة النحل: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ» يعني جبريل «بِالرُّوحِ» بالوحي، ويجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع كقولهم: سمعت هذا الخبر من الناس، وإنما سمع من واحد، نظيره قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» [آل عمران: ١٧٣]، يعني: نعيم بن مسعود «إِنَّ النَّاسَ» يعني: أبا سفيان بن حرب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ يعني: في المسجد عند المذبح يصلي، والناس ينتظرون أن يأذن لهم في الدخول فإذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه، وهو جبريل عليه السلام: يا زكريا ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ هو اسم لا يُجر؛ لمعرفته وللزائد في أوله، ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: عيسى عليه السلام، سُمِّي «عيسى» كلمة الله؛ لأن الله تعالى قال

له: كُن من غير أب فكان، فوقع عليه اسم الكلمة؛ لأنه بها كان، وقيل: سُمِّي «كلمة»؛ لأنه يهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى، وقيل: هي بشارة الله تعالى مريم بعيسى عليه السلام بكلامه على لسان جبريل عليه السلام، وقيل: لأن الله تعالى أخبر الأنبياء بكلامه في كتبه أنه يخلق نبيًّا بلا أب، فسماه كلمة لحصوله بذلك الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو فعيل، من ساد يسود، وهو الرئيس الذي يتبع وينتهى إلى قوله، قال المفضل: أراد سيدًا في الدين، قال سعيد بن جبير: «السيد» الذي يطيع ربه عزَّ وجلَّ، وقال سعيد بن المسيب: «السيد» الفقيه العالم، وقال قتادة: سيد في العلم والعبادة والورع، وقيل: الحليم الذي لا يغضبه شيء، قال مجاهد: الكريم على الله تعالى، وقيل: الذي يفوق قومه في جميع خصال الخير، وقيل: السخي.

قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الحصور: أصله من الحصر وهو الحبس، والحصور الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن، فيكون الحصور بمعنى المحصور يعني: الممنوع من النساء، وفيه قول آخر: أن الحصور هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، واختار قوم هذا القول لوجهين، (أحدهما): لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء، و(الثاني): أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ قاله لله عزَّ وجلَّ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ من أين يكون ﴿لِي غُلَـٰمٌ﴾ أي: ابن ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ هذا من المقلوب، أي: وقد بلغت الكبر وشخت، ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي: عقيم لا تلد، يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وهو لم يشك في وعد الله إنما شك في كيفيته، أي: كيف ذلك؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي، فأزيد في العبادة شكرًا لك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ تكف عن الكلام ﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ وتقبل بكليتك على عبادتي، لا أنه حبس لسانه عن الكلام، ولكنه نُهي عن الكلام وهو صحيح سوي، فأمره بالذكر، ونهاه عن كلام الناس.

قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة، والإشارة قد تكون باللسان وبالعين وباليد، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ قيل: المراد بالتسبيح الصلاة، و«العشي»: ما بين زوال الشمس إلى غروب الشمس، ومنه سُمِّي صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي، و«الإبكار»: ما بين صلاة الفجر إلى الضحى.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: جبريل ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ قيل: من مسيس الرجال، وقيل: من الحيض والنفاس، وقيل: من الذنوب ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: على عالمي زمانها، وقيل: على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وقيل: بالتحرير في المسجد ولم تحرر أُنثى.

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة رضي الله عنهما»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ قالت لها الملائكة شفاهًا، أي: أطيعي ربك، وقال مجاهد: أطيلي القيام في الصلاة لربك، والقنوت: الطاعة، وقيل: القنوت طول القيام، ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل: مع الراكعات؛ ليكون أعم وأشمل، فإنه يدخل فيه الرجال والنساء، وقيل: معناه مع المصلين في الجماعة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يقول لمحمد ﷺ: «ذَٰلِكَ» الذي ذكرت من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى «مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ» أي: من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ»، ﴿وَمَا كُنتَ﴾

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٧٠)، ومسلم برقم٢٤٣٠: (١٨٨٦).

يا محمد ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ سهامهم في الماء للاقتراع ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ يحضنها ويربيها ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في كفالتها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾ أي: شريفًا رفيعًا ذا جاه وقدر ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ صغيرًا قبل أوان الكلام، قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، كلامه بعد الكهولة إخباره عن الأشياء المعجزة، وقيل: «وَكَهْلًا» نبيًّا بشرها بنبوة عيسى عليه السلام وكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة، وقال مجاهد: «وَكَهْلًا» أي: حليمًا، والعرب تمدح الكهولة؛ لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: هو من العباد الصالحين.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ تقول لله عزَّ وجلَّ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ ولم يصبني رجل، قالت ذلك تعجبًا؛ إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد لا أب له ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: كون الشيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كما يريد.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابة والخط ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ العلم والفقه ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ علمه الله التوراة والإنجيل ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعله رسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليه السلام، فلما بُعث قال: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ علامة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تصدق قولي، وإنما قال: «بِـَٔايَةٍ» وقد أتى بآيات؛ لأن الكل دل على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة، فلما قال ذلك عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، قالوا: وما هي؟ قال: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ﴾ أي: أصور وأقدر ﴿لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ أي: أشفيهما وأصححهما، وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك، وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ مما لم أعاينه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ ترفعونه ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ حتى تأكلوه، وقيل: كان يخبر الرجل بما أكل البارحة، وبما يأكل اليوم، وبما ادخره للعشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عطف على قوله ورسولاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من اللحوم والشحوم.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: ما ذكر من الآيات، وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: وجد - وقال أبو عبيدة: عرف، وقال مقاتل: رأى «مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ» وأرادوا قتله استنصر عليهم و﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. مع الله تعالى، تقول العرب: الذود إلى الذود إبل، أي: مع الذود، وكما قال الله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ» [النساء: ٢]، أي: مع أموالكم.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أعوان دين الله ورسوله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ من كتابك ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ عيسى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق.

وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ يعني: كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر، دبروا في قتل عيسى عليه السلام؛ وذلك أن عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأُمه عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة، فهموا بقتله وتواطؤوا على الفتك به فذلك مكرهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فالمكر من المخلوقين: الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله: استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم كما قال: «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» [الأعراف: ١٨٢]، وقال الزَّجَّاج: مكر الله عزَّ وجلَّ مجازاتهم على مكرهم، فسمى الجزاء باسم الابتداء؛ لأنه في مقابلته.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ اختلفوا في معنى التوفِّي هاهنا، قال الحسن والكلبي وابن جريج: إني قابضك ورافعك من الدنيا إليَّ من غير موت، يدل عليه قوله تعالى: «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى» [المائدة: ١١٧]، أي: قبضتني إلى السماء وأنا حي؛ لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه إلى السماء لا بعد موته، فعلى هذا للتوفي تأويلان، أحدهما: إني رافعك إلي وافيًا لم ينالوا منك شيئًا، والآخر: إني متسلمك.

وقال الربيع بن أنس: المراد بالتوفي النوم وكل ذي عين نائم، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائمًا إلى السماء، معناه: إني منومك ورافعك إليَّ، كما قال الله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ» [الأنعام: ٦٠]، أي: ينيمكم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عادلاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي: هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه في التوحيد من أُمة محمد ﷺ فهم فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزة والمنعة والحجة، وقال الضحاك: يعني الحواريين فوق الذين كفروا، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين وأمر عيسى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي والجزية والذلة ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: نوفي أجور أعمالهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لا يرحم الكافرين، ولا يثني عليهم بالجميل.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الذي ذكرته لك من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به بتلاوة جبريل عليك ﴿مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني: القرآن والذكر ذي الحكمة.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ...﴾ الآية، في كونه خلقًا من غير أب وأم ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ﴾ يعني: لعيسى عليه السلام ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ يعني: فكان، فإن قيل: ما معنى قوله: «خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ» ولا تكوين بعد الخلق؟ قيل: معناه خلقه ثم أخبركم

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٩٠)، ومسلم برقم١٥٥: (١/ ١٣٥ - ١٣٦).

أني قلت له: كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، وهو مثل قول الرجل: أعطيتك اليوم درهمًا ثم أعطيتك أمس درهمًا، أي: ثم أخبرك أني أعطيتك أمس درهمًا.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هو الحق، وقيل: جاءك الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين، الخطاب مع النبي ﷺ، والمراد: أُمته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾، أي: جادلك في عيسى أو في الحق ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي نتضرع في الدعاء، وقال الكلبي: نجتهد ونبالغ في الدعاء، وقال الكسائي وأبو عبيدة: نلتعن، والابتهال: الالتعان، يقال: عليه بهلة الله، أي: لعنته ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منَّا ومنكم في أمر عيسى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ النبأ الحق ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، تقديره: وما إله إلا الله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يعبدون غير الله، ويدعون الناس إلى عبادة غير الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ...﴾ عدل بيننا وبينكم مستوية، أي: أمر مستو، يقال: دعا فلان إلى السواء، أي: إلى النصفة، وسواء كل شيء وسطه، ومنه قوله تعالى: «فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ» [الصافات: ٥٥]، وإنما قيل للنصف سواء؛ لأن أعدل الأمور وأفضلها أوسطها، ثم فسر الكلمة فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ معناه: بأن لا نعبد إلا الله، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما فعلت اليهود والنصارى، قال الله تعالى: «ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ» [التوبة: ٣١]، وقال عكرمة: هو سجود بعضهم لبعض، أي: لا تسجدوا لغير الله، وقيل: معناه لا نطيع أحدًا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟﴾ فقولوا أنتم لهم: اشهدوا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون بالتوحيد.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ تزعمون أنه كان على دينكم، وإنما دينكم اليهودية والنصرانية، وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وإنما أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم بزمان طويل، وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألفا سنة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أصله: أولاء، دخلت عليه هاء التنبيه، وهي في موضع النداء، يعني: يا هؤلاء أنتم ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ يعني: في أمر موسى وعيسى، وادعيتم أنكم على دينهما، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ وليس في كتابكم أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، وقيل: حاججتم فيما لكم به علم، يعني: في أمر محمد ﷺ؛ لأنهم وجدوا نعته في كتابهم، فجادلوا فيه بالباطل، فَلِمَ تحاجُّون في إبراهيم، وليس في كتابكم، ولا علم لكم به؟! ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثم برَّأ الله تعالى إبراهيم مما قالوا، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ والحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى الدين المستقيم، وقيل: الحنيف: الذي يوحِّد ويحج ويضحي ويختتن ويستقبل الكعبة، وهو أسهل الأديان وأحبُّها إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: من اتبعه في زمانه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ معه، يعني: من هذه الأمة ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، فنزلت «وَدَّت طَّآئِفَةٌ» تمنت جماعة من أهل الكتاب يعني: اليهود ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ عن دينكم ويردونكم إلى الكفر ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن، وبيان نعت محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أن نعته في التوراة والإنجيل مذكور ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن محمدًا ﷺ ودينه حق.

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ

ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله، سُمِّي وجهًا؛ لأنه أحسنه وأول ما يواجه الناظر فيراه ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيشكون ويرجعون عن دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا متصل بالأول من قول اليهود بعضهم لبعض ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: لا تصدقوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وافق ملتكم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هذا خبر من الله عزَّ وجلَّ أن البيان بيانه.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا: نحن أفضل منكم، فقوله عزَّ وجلَّ «عِندَ رَبِّكُمْ» أي: عند فضل ربكم بكم ذلك، ومعنى الآية: ما أُعطي أحد مثل ما أُعطيتم يا أُمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم.

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي: بنبوته ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ...﴾ الآية، نزلت في اليهود، أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة، والقنطار: عبارة عن المال الكثير، والدينار: عبارة عن المال القليل، يقول: منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرتْ، ومنهم من لا يؤديها وإن قلَّتْ، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ قال ابن عباس: مُلِحًّا، يريد: يقوم عليه يطالبه بالإلحاح، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الاستحلال والخيانة ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي: في مال العرب إثم وحَرَجٌ، كقوله تعالى: «مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ» وذلك أن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا؛ لأنهم ليسوا على ديننا ولا حُرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال ردًّا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس كما قالوا، بل عليهم سبيل، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ﴾ أي: ولكن من أوفى ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ أي: بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن وأداء الأمانة، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الكفرَ والخيانةَ ونقض العهد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(١).

(١) أخرجه البخاري (١/ ٨٩)، ومسلم برقم١٠٦: (١/ ٧٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال عكرمة: نزلت في رؤوس اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد ﷺ وبدَّلوه وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله لئلا يفوتهم المآكل والرِّشا التي كانت لهم من أتباعهم.

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمينِ صَبْرٍ يقتطع بها مالَ امْرِئٍ مسلم لقيَ الله يومَ القيامة وهو عليه غضبان»، فأنزل الله تصديق ذلك: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ...﴾» إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس، فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، فقال: فيَّ أُنزلتْ، كانت لي بئرٌ في أرض ابن عم لي فأتيت رسول الله ﷺ فحدثتُه، فقال: «هاتِ بيِّنتَكَ أو يمينه»، قلت: إذًا يحلِفُ عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمينِ صَبْرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مالَ امْرِئٍ مسلم لقيَ الله يوم القيامة وهو عليه غضبان»[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وأراد: الأمانة ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ الكاذبة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: شيئًا قليلاً من حطام الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ لا نصيب لهم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلامًا ينفعهم ويَسُرُّهم، وقيل: هو بمعنى الغضب، كما يقول الرجل: إني لا أكلم فلانًا، إذا كان غضب عليه ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا يرحمهم ولا يُحسن إليهم ولا يُنيلهم خيرًا ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يُثني عليهم بالجميل ولا يُطهرهم من الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يُكلمهم الله يومَ القيامة ولا ينظر إليهم ولا يُزكيهم ولهم عذاب أليم» قال: قرأها رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات، فقال أبو ذر: خابوا وخسروا، مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «المُسبل والمنَّان والمنفق سلعته بالحَلِفِ الكاذب»[2].

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني: إن من أهل الكتاب لفريقًا، أي: طائفة، ﴿يَلْوُۥنَ

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٥٨)، و(١١/ ٥٤٤)، ومسلم برقم٢٢٠: (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم١٧١: (١/ ١٠٢).

﴿أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي: يعطفون ألسنتهم بالتحريف والتغيير، وهو ما غيَّروا من صفة النبي ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، يُقال: لَوَى لسانه على كذا، أي: غيَّره ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي: لتظنوا ما حرَّفوا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذي أنزله الله تعالى ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ عمدًا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك أنهم حرَّفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا بكتاب الله ما ليس منه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ...﴾ الآية، قال مقاتل والضحاك: ما كان لبشرٍ، يعني: عيسى ﷺ؛ وذلك أن نصارى نجران كانوا يقولون: إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربًّا فقال تعالى: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ» يعني: عيسى ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل.

وقال ابن عباس وعطاء: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ» يعني: محمداً «أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ» أي: القرآن، ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ الفهم والعلم، وقيل: إمضاء الحكم عن الله عزَّ وجلَّ ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ المنزلة الرفيعة بالأنبياء ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا﴾ أي: ولكن يقول: كونوا ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾. الرباني الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره، وقال عطاء: علماء حكماء نُصحاء لله في خلقه، قال أبو عبيدة: سمعت رجلاً عالمًا يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، العالم بأنباء الأُمة ما كان وما يكون. والربانيون: الذين جمعوا مع العلم البصارة بسياسة الناس.

﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ أي: بما أنتم، كقوله تعالى: «مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» [مريم: ٢٩]، أي: من هو في المهد ﴿تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون.

قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ أي: ولا يأمرَ ذلك البشر، معناه: ولا يأمرُكم الله، وقال ابن جريج وجماعة: ولا يأمرُكم محمد ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ كفعل قريش والصابئين حيث قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح وعُزير ما قالوا ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قاله على طريق التعجب والإنكار، يعني: لا يقول هذا.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ واختلفوا في المَعْنِيِّ بهذه الآية، فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين خاصةً أن يُبلِّغوا كتاب الله

ورسالاته إلى عباده، وأن يُصدِّق بعضهم بعضًا، وأخذ العهد على كل نبيٍّ أن يُؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إن أدركه، وإن لم يدركه أن يأمر قومَه بنصرته إن أدركوه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ.

وقال الآخرون: بما أخذ الله الميثاق منهم في أمر محمد ﷺ، فعلى هذا اختلفوا، منهم من قال: إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسَل منهم النبيين، وهذا قول مجاهد والربيع، ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وإنما كان محمد ﷺ مبعوثًا إلى أهل الكتاب دون النبيين، يدل عليه أن في قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ الذين أُوتوا الكتاب﴾ وأما القراءة المعروفة ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فأراد: أن الله أخذ ميثاق النبيين أن يأخذوا الميثاق على أُممهم أن يُؤمنوا بمحمد ﷺ ويُصدِّقوه وينصروه إن أدركوه. وقال بعضهم: أراد أخذ الله الميثاق على النبيين وأُممهم جميعًا في أمر محمد ﷺ، فاكتفى بذكر الأنبياء؛ لأن العهد مع المتبوع عهد على الأتباع، وهذا معنى قول ابن عباس، وقال علي بن أبي طالب: لم يبعث الله نبيًّا ـ آدمَ ومن بعده ـ إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد، وأخذ العهد على قومه ليؤمِنُنَّ به، ولئن بُعث وهم أحياء لَيَنْصُرُنَّه.

قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم عليه السلام والأنبياء فيهم كالمصابيح والسرج، وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: قبلتم على ذلك عهدي، والإصر: العهد الثقيل ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي: فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم، وقال ابن عباس: فاشهدوا، أي: فاعلموا، وقال سعيد بن المسيب: قال الله تعالى للملائكة: فاشهدوا عليهم ـ كنايةً عن غير مذكور.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإقرار ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ العاصون الخارجون عن الإيمان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وذلك أنَّ أهل الكتاب اختلفوا، فادَّعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام، واختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «كِلاَ الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام»، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ...﴾، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ خضع وانقاد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان بمشقةٍ وإباءٍ من النفس.

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ذكر الملل والأديان واضطراب الناس فيها، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يقول: «ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ...» الآية.

قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ...﴾ نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدُّوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارًا، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، فنزل فيهم: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ لفظه استفهام ومعناه جحد، أي: لا يهدي الله، وقيل: معناه كيف يهديهم الله في الآخرة إلى الجنة والثواب ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وذلك: أن الحارث بن سويد لما لحق بالكفار ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ ففعلوا ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ لما كان منه، فحملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه؛ فقال الحارث: إنك ـ والله ـ ما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله عزَّ وجلَّ لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ قال قتادة والحسن: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى ﷺ والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم، «ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا» بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: لن تقبل توبتهم إذا رجعوا في حال المعاينة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها ﴿ذَهَبًا﴾ نصب على التفسير، كقولهم: عشرون درهمًا ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ قيل: معناه لو افتدى به، والواو زائدة مقحمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

عن أبي عمران قال: سمعتُ أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقول الله لأهونِ أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أنَّ لكَ ما في الأرض من شيء أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردتُ منك أهونَ من ذلك وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي»[١].

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ يعني: الجنة، قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: التقوى، وقيل: الطاعة، وقيل: الخير، وقال الحسن: أن تكونوا أبرارًا.

عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكتبَ عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذبَ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، وإن الفجور يهدي إلى النارِ، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّابًا»[٢].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أحبِّ أموالِكم إليكم.

وقال عطاء: «لَن تَنَالُواْ» أي: شرفَ الدين والتقوى حتى تتصدقُوا وأنتم أصحاء أشحاء.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة الأنصاري أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بِيْرُحَاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طَيِّبٍ، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية «لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ» قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى يقول في كتابه: «لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ»، وإنَّ أحب أموالي إليَّ بيرُحاء، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله، فضعها

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٠٠)، ومسلم برقم٢٨٠٥: (٤/ ٢١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ٥٠٧)، ومسلم برقم٢٦٠٧: (٤/ ٢٠١٣).

يا رسول الله حيث شئت، فقال رسول الله ﷺ: بخ بخ ذلك مالٌ رابح ـ أو قال: ذلك مال رابح ـ وقد سمعت ما قلتَ فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله؛ فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[١].

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلمه ويجازي به.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ يريد: سِوَى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قط ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ يعني: ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكلُّ حلالاً له ولبني إسرائيل، وإنما حرَّمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، يعني: ليست في التوراة حرمتها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ حتى يتبين أنه كما قلتم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فلم يأتوا. فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وإنما دعاهم إلى اتباع ملَّةِ إبراهيم؛ لأن في اتباع ملة إبراهيم اتباعه ﷺ.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ...﴾ سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، عن أبي ذر قال: قُلتُ: يا رسول الله، أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أَدْرَكَتْكَ الصلاةُ بعدُ فصلِّ فإن الفضل فيه»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٢٥)، ومسلم برقم٩٩٨: (٢/ ٦٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٠٧)، ومسلم برقم٥٢٠: (١/ ٣٧٠).

قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ قال جماعة: هي مكة نفسها، وقال الآخرون: بكة موضع البيت ومكة اسم البلد كلهُ.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلة المؤمنين ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ بالجمع، فذكر منها ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم، وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، ومن تلك الآيات: الحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها، وقيل: مقام إبراهيم جميع الحرم، وأن الطاعة والصدقة فيها تُضاعف بمائة ألف.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ من أن يحاج فيه، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: رب اجعلْ هذا بلدًا آمنًا، وكانت العرب في الجاهلية يقتل بعضهم بعضًا، ويغير بعضهم على بعض، ومن دخل الحرم أمن من القتل والغارة، وهو المراد من الآية على قول الحسن وقتادة وأكثر المفسرين «أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» [العنكبوت: ٦٧]، وقيل: المراد به أن من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمنًا، كما قال تعالى: «لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ» [الفتح: ٢٧]، وقيل: هو خبر بمعنى الأمر، تقديره: ومن دخله فأمِّنُوه، كقوله تعالى: «فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ» [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن من وجب عليه القتل قصاصًا أو حدًّا فالتجأ إلى الحرم فلا يُستوفَى منه فيه، ولكنَّه لا يُطعم ولا يُبايع ولا يُشارى حتى يخرج منه فيقتل، قاله ابن عباس، وبه قال أبو حنيفة، وذهب قوم إلى أن القتل الواجب بالشرع يُستوفى فيه، أما إذا ارتكب الجريمة في الحرم يستوفى فيه عقوبته بالاتفاق.

وقيل: معناه ومن دخله معظِّمًا له متقرِّبًا إلى الله عزَّ وجلَّ كان آمنًا يوم القيامة من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي: ولله فرضٌ واجبٌ على الناس حجُّ البيت. والاستطاعة نوعان، أحدهما: أن يكون مستطيعًا بنفسه، والآخر: أن يكون مستطيعًا بغيره، أما الاستطاعة بنفسه فأن يكون قادرًا بنفسه على الذهاب وَوَجَدَ الزادَ والراحلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن عباس والحسن وعطاء: جَحَدَ فَرْضَ الحج، وقال مجاهد: من كفر بالله واليوم الآخر. وقال سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود، حيث قالوا: الحج إلى مكة غير واجب.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٦٣)، ومسلم برقم١٣٩٥ : (٢/ ١٠١٣).

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم تصرفون عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا﴾ تطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ زيغًا وميلاً، يعني: لم تصدون عن سبيل الله باغين لها عوجًا؟ قال أبو عبيدة: العِوج ـ بالكسر ـ في الدينِ والقولِ والعملِ، والعَوَجُ ـ بالفتح ـ في الجدار، وكل شخص قائم ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أن في التوراة مكتوبًا نعت محمد ﷺ، وأن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم قال الله تعالى على وجه التعجب: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يعني: ولِمَ تكفرون؟ ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ محمد ﷺ. قال قتادة: في هذه الآية علمان بيِّنان: كتابُ الله ونبيُّ الله، أمَّا نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله فأبقاه بين أظهركم رحمةً من الله ونعمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يمتنع بالله ويتمسك بدينه وطاعته ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق واضح.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ الحبل: السبب الذي يُتوصَّل به إلى البُغية، وسُمي الإيمان حبلاً؛ لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف.

واختلفوا في معناه هاهنا، قال ابن عباس: معناه تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر الله به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خيرٌ ممَّا تُحبون في الفرقة. وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي: هو القرآن، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ كما افترقت اليهود والنصارى، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يرضَى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا، يرضَى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به

شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تُناصِحُوا مَن وَلّىَ اللهُ أمرَكم، ويسخط لكم: قِيلَ وقال، وإضاعةَ المال، وكثرةَ السؤال»[١].

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر الأنصار ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ قبل الإسلام ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ فصرتم ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ برحمته وبدينه الإسلام ﴿إِخْوَٰنًا﴾ في الدِّين والولاية بينكم ﴿وَكُنتُمْ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: على طرف حفرة مثل شفا البئر، معناه: كنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله ﴿مِّنْهَا﴾ بالإيمان ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: كونوا أُمَّةً، «مِنْ» صلة ليست للتبعيض، واللام في قوله «وَلْتَكُن» لام الأمر ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ إلى الإسلام ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطعْ فَبِلِسَانِهِ، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: المبتدعة من هذه الأُمة.

عن عبد الله بن الزبير أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سرَّه بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الفذّ، وهو من الاثنين أبعد»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧١٥: (٣/ ١٣٤٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم٧٨: (١/ ٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي: (٦/ ٣٨٣ - ٣٨٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.
وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» برقم٨٦ - ٨٨: (١/ ٤٢)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»: (١/ ١٠٦ - ١٠٧)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ١١٤) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وذكر له شاهدين، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ١٨) عن عمر رضي الله عنه. وصححه الألباني في تعليقه على «السنة» لابن أبي عاصم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يريد: تبيض وجوه المؤمنين، وتسودُّ وجوه الكافرين، وقيل: تبيض وجوه المخلصين، وتسود وجوه المنافقين. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قرأ هذه الآية قال: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة.

قال أهل المعاني: ابيضاض الوجوه: إشراقها واستِبْشَارُها وسُرورها بعملِها وبثوابِ الله، واسودَادُها: حُزنها وكآبتها وكُسوفها بعملها وبعذاب الله.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ معناه: يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هؤلاء أهل الطاعة ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ جنة الله ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قيل: هم أصحاب النبي ﷺ عن عمران بن حُصين ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا وقال: «إنَّ بعدكم قومًا يخونون ولا يُؤتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»[1].

وقال الآخرون: هم جميع المؤمنين من هذه الأمة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٣)، ومسلم برقم٢٥٣٥: (٤/ ١٩٦٤ - ١٩٦٥).

وقيل: «لِلنَّاسِ» صلة قوله «أُخْرِجَتْ» معناه: ما أخرجَ الله للناس أُمَّةً خيرًا من أُمة محمد ﷺ. عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: «إنكم تتمُّون سبعين أُمة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله عزَّ وجلَّ»[(١)].

قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني: لا يضروكم أيها المؤمنون إلا أذًى باللسان: وعيدًا وطعنًا، وقيل: كلمة كفر تتأذون بها ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بل يكون لكم النصر عليهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ حيثُ ما وُجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: أينما وُجدوا استُضعفُوا وقُتلوا وسُبُوا فلا يأمنُون إلا بحبلٍ من الله: عهدٍ مِنَ الله تعالى بأن يسلموا ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ من المؤمنين ببذلِ جزيةٍ أو أمانٍ، يعني: إلا أن يعتصموا بحبل فيأمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ اختلفوا في وجهها فقال قوم: فيه اختصار تقديره: ليسوا سواء من أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاءً بذكر أحد الفريقين، وقال الآخرون: تمام الكلام عند قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ يعني: المؤمنين والفاسقين، ثم وصف الفاسقين، فقال: «لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى» ووصف المؤمنين بقوله: «أُمَّةٌ قَائِمَةٌ».

وقوله تعالى: «أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» قال ابن عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يضيِّعُوه ولم يتركوه. وقال مجاهد: عادلة، وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحدوده، وقيل: قائمة في الصلاة، وقيل: الأمة الطريقة. ومعنى الآية: أي ذو أُمةٍ، أي: ذو طريقةٍ مستقيمة.

﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ يقرؤون كتابَ الله، وقال مجاهد: يتبعون ﴿ءَانَاءَ الَّيْلِ﴾ ساعاته، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلون؛ لأن التلاوة لا تكون في السجود.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ ومعنى الآية: وما تفعلوا من خير فلن تُعدموا ثوابَه، بل يشكر لكم وتجازون عليه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بالمؤمنين.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٣٥٢)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه برقم٤٢٨٨: (٢/ ١٤٣٣)، وأحمد في «المسند»: (٤/ ٤٤٧)، (٥/ ٥)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢٢٥): (وهو حديث حسن صحيح).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ أي: لا تدفع أموالهم بالفدية ولا أولادهم بالنصرة شيئًا من عذاب الله، وخصَّهما بالذكر؛ لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وإنما جعلهم من أصحابها؛ لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يُفارقونها، كصاحب الرجل لا يفارقه.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: أراد نفقات أبي سفيان وأصحابه ببدرٍ وأُحد على عداوة رسول الله ﷺ، وقال مقاتل: نفقة اليهود على علمائهم، قال مجاهد: يعني جميع نفقات الكفار في الدنيا وصدقاتهم، وقيل: أراد إنفاق المرائي الذي لا يبتغي به وجهَ الله تعالى ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ حُكي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنها السَّموم الحارة التي تقتل، وقيل: «فِيهَا صِرٌّ»، أي: صوت، وأكثر المفسرين قالوا: فيها برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ زرعَ قوم ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى ﴿فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾.

فمعنى الآية: مثل نفقات الكفار في ذهابها وقت الحاجة إليها، كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته، فلم ينتفع أصحابه منه بشيء ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ...﴾ الآية، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود؛ لِما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم.

وقال مجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ» أي: أولياء وأصفياء من غير أهل ملتكم، وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهًا ببطانة الثوب التي تلي بطنه؛ لأنهم يستبطنون أمرَه ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرُهم.

ثم بيَّن العلَّة في النهي عن مباطنتهم فقال جلَّ ذكره: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يُورثكم الشَّرَّ والفساد، والخَبَالُ: الشَّرُّ والفساد.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يودُّون ما يشقّ عليكم، من الضر والشر والهلاك. والعنت: المشقة ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ أي: البغض، معناه: ظهرتْ أمارة العداوة ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بالشتيمة والوقيعة في المسلمين، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ من العداوة والغيظ ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ «ها» تنبيه، و«أنتم» كناية للمخاطبين من الذكور ﴿أُوْلَآءِ﴾ اسم للمشار إليهم، يريد: أنتم أيها المؤمنون ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم؛ للأسباب التي بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ هم؛ لما بينكم من مخالفة الدين. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ يعني: بالكتب كلها، وهم لا يؤمنون بكتابكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ وكان بعضهم مع بعض ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يعني: أطراف الأصابع - واحدتها أنملة بضم الميم وفتحها - من الغيظ؛ لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم، وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ، وهذا من مجاز الأمثال، وإن لم يكن ثم عض ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ أي: ابقوا إلى الممات بغيظكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما في القلوب من خير وشر.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: تُصبكم أيها المؤمنون بظهوركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وخصب في معايشكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تُحزنهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مساءةٌ بإخفاق سرية لكم أو إصابة عدوٍّ منكم، أو اختلاف يكون بينكم أو جدبٍ أو نكبة تصبكم ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ وتخافوا ربكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: لا ينقصكم ﴿كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ قال الحسن: هو يوم بدر،

وقال مقاتل: يوم الأحزاب، وقال سائر المفسرين: هو يوم أُحد؛ لأن ما بعده إلى قريب من آخر السورة في حرب أُحد.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: واذكر إذ غدوت من أهلك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تنزل المؤمنين ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: مواطن ومواضع للقتال، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تَجْبُنا وتضْعُفا وتتخلَّفا، همَّتْ بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أُبي، فعصمهم الله فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيمَ نعمتِه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ناصرهما وحافظهما.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ عن جابر قال: نزلت هذه الآية فينا «إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا» بنو سلمة وبنو حارثة، وما أُحب أنها لم تنزل، والله يقول: «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

يذكر الله تعالى في هذه الآية مِنَّتَهُ عليهم بالنصرة يومَ بدر ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: جمع ذليل، وأراد به: قلة العدد، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فنصرهم الله مع قلة عَدَدِهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ اختلفوا في هذه الآية، فقال قتادة: كان هذا يوم بدر، أمدَّهم الله تعالى بألفٍ من الملائكة كما قال: «فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ» [الأنفال: ٩]، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر هاهنا ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فصبروا يوم بدر فاتقوا، فأمدهم الله بخمسة آلافٍ كما وعد، قال الحسن: وهؤلاء الخمسة الآلاف رِدْءُ المؤمنين إلى يوم القيامة.

وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون، إنما يكونون عددًا ومددًا.

عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشدّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد[(٢)].

قوله تعالى: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ والإمداد: إعانة الجيش بالجيش، وقيل: ما كان على جهة القوة والإعانة، يقال فيه: أمده إمدادًا، وما كان على جهة الزيادة، يقال: مدَّه مدًّا.

ثم قال: ﴿بَلَىٰ﴾ نمدّكم ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ لعدوكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: مخالفة نبيكم ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ يعني:

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٣٥٧).
(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٣٥٨)، ومسلم برقم٢٣٠٦: (٤/ ١٨٠٢).

المشركين ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من وجههم هذا، وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين.

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني: هذا الوعد والمدد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: بشارة؛ لتستبشروا به ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ ولتسكن ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني: لا تحيلوا بالنصر على الملائكة والجند، فإن النصر من الله تعالى فاستعينوا به وتوكلوا عليه؛ لأن العزَّ والحُكم له.

قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يقول: لقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفًا، أي: لكي يهلك طائفة من الذين كفروا، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ قال أبو عُبيدة: يهلكهم، وقيل: يحزنهم، والمكبوت: الحزين، ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ لم ينالوا شيئًا مما كانوا يرجون من الظفر بكم.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ...﴾ الآية، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة، وهم سبعون رجلاً من القراء، بعثهم رسول الله ﷺ إلى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحد؛ ليُعلِّموا الناس القرآن والعلمَ، أميرهم المنذر بن عمرو، فقتلهم عامر بن الطفيل، فَوَجَدَ رسول الله ﷺ من ذلك وَجْدًا شديدًا، وقنت شهرًا في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللَّعن والسِّنين، فنزلت: «لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ»[١].

وقال قوم: نزلت يوم أُحد، عن أنس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيتُه يوم أُحُد وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلتُ الدم عنه ويقول: «كيفَ يُفلحُ قومٌ شجُّوا رأس نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ»[٢].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال بعضهم: معناه حتى يتوب عليهم، أو: إلى أن يتوب عليهم، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمرُ أمري في ذلك كله.

---

(١) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: (٨/ ٢٢٥ - ٢٢٦).
(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٣٦٥)، ومسلم برقم١٧٩١: (٣/ ١٤١٧).

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ أراد به: ما كانوا يفعلونه عند حلول أجل الدَّين من زيادة المال وتأخير الطلب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أمر الرِّبا فلا تأكلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ثم خوَّفهم فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ لكي ترحموا.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بادروا وسابقوا إلى الأعمال التي تُوجب المغفرة.

﴿وَجَنَّةٍ﴾ أي: وإلى جنَّةٍ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: عرضها كعرض السموات والأرض، أي: سَعَتُها، وإنما ذكر العرض على المبالغة؛ لأن طول كل شيء في الأغلب أكثر من عرضه.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في اليُسر والعُسر. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: الجارعين الغيظَ عند امتلاء نفوسهم منه، والكظم: حبس الشيء عند امتلائه، وكظم الغيظ: أن يمتلىء غيظًا فيردّه في جوفه ولا يُظهره، ومنه قوله تعالى: «إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ» [غافر: ١٨].

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ عمَّن ظلمهم وأساء إليهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ الآية، يعني: قبيحة خارجة عما أذن الله تعالى له فيه، وأصل الفحش: القبح والخروج عن الحدِّ، قال جابر: الفاحشة الزنا.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ما دون الزنا من القبلة والمعانقة والنظر واللمس. وقيل: «فعلوا فاحشة» الكبائر، «أو ظلموا أنفسهم» بالصغائر. وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً، أو ظلموا أنفسهم قولاً.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ذكروا وعيد الله، وأن الله سائلهم، وقال مقاتل بن حيان: ذكروا الله باللسان عند الذنوب ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: وهل يغفر الذنوب إلا الله ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي: لم يُقيموا ولم يثبتوا عليه، ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا، وأصل الإصرار: الثبات على الشيء، وقال الحسن: إتيان العبد ذنبًا عمدًا إصرارٌ حتى يتوب، وقال السدي: الإصرار: السكوت وترك الاستغفار.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهم يعلمون أنها معصية، وقيل: وهم يعلمون أن الإصرار ضار، وقال الضحاك: وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنوب.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ثوابُ المطيعين.

عن عبد الله بن أبي طلحة قال: كان قاض بالمدينة يقال له: عبد الرحمن بن أبي عَمْرة، فسمعتُه يقول: سمعتُ أبا هريرة يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ عبدًا أذنب ذنبًا فقال له: أيْ ربِّ أذنبتُ ذنبًا فاغفرْهُ لي، قال: فقال ربُّه عزَّ وجلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أنَّ له ربًّا يَغْفِرُ الذنبَ ويأخذُ به؛ فغفر له، فمكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا آخر فقال: ربِّ أذنبتُ ذنبًا فاغفرْهُ لي، فقال ربُّه عزَّ وجلَّ: عَلِمَ عَبْدي أنَّ له ربًّا يَغْفِرُ الذنبَ ويأخذُ بِهِ قدْ غَفَرْتُ لعبدي فليفعلْ ما شاء»[1].

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ ومعنى الآية: قد مضتْ وسلفتْ مني سننٌ فيمن كان قبلكم من الأُمم الماضيةِ الكافرة، بإمهالي واستدراجي إيَّاهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلتُه لإهلاكهم، وإدَالةُ أنبيائي عليهم ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: آخِر أمر المكذبين، وهذا في حرب أُحد، يقول الله عزَّ وجلَّ: فأنا أُمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت في نصرة النبي ﷺ وأوليائه وإهلاك أعدائه.

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا القرآن ﴿بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ عامة ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ هذا حثٌّ لأصحاب النبي ﷺ على الجهاد، زيادةً على ما أصابهم من القتل والجراح يوم أُحد، يقول الله تعالى: «﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾»، أي: لا تضعُفوا ولا تجبُنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح، وكان قد قُتل يومئذ من المهاجرين خمسة، منهم: حمزةُ بن عبد المطلب، ومصعبُ بن عُمير، وقُتل من الأنصار سبعون رجلاً. ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ فإنكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ أي: تكون لكم العاقبةُ بالنصرة والظفر ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني: إذ كنتم مؤمنين، أي: لأنكم مؤمنون، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما انهزم

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٦٦)، ومسلم برقم٢٧٥٨: (٤/ ٢١١٢).

أصحاب رسول الله ﷺ في الشِّعب فأقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: اللَّهُمَّ لا يعلون علينا، اللَّهُمَّ لا قوَّةَ لنا إلاَّ بك، وثاب نفرٌ من المسلمين رماةٌ فصعدُوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم؛ فذلك قوله تعالى: «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ».

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قال الفراء: القَرْح بالفتح: الجراحة، وبالضم: ألَمُ الجراحة، هذا خطاب مع المسلمين حيث انصرفوا من أُحد مع الكآبة والحزن، يقول الله تعالى: «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ» يوم أُحد ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يوم بدر ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيومٌ لهم ويومٌ عليهم، أُديل المسلمون على المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسَرُوا سبعين، وأُديل المشركون من المسلمين يوم أُحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسة وسبعين.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: إنما كانت هذه المُداولة؛ ليعلم الله أي: ليرى الله الذين آمنوا فيمِيز المؤمن من المنافق، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ يُكَرِّم أقوامًا بالشهادة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُطهرهم من الذنوب ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُفنيهم ويُهلكهم، معناه: أنهم إن قتلوكم فهو تطهيرٌ لكم، وإن قتلتموهم فهو محقُهم واستئصالُهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أحسبتم؟ ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: ولم يعلم الله ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أن قومًا مِنَ المسلمين تمنَّوا يومًا كيوم بدر؛ ليقاتلُوا ويستشهدُوا فأراهم الله يوم أُحد، وقوله: «تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ»، أي: سببَ الموت وهو الجهاد من قبل أن تلقوه ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني: أسبابه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ومحمدٌ هو المستغرق لجميع المحامد؛ لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل، والتحميد فوق الحمد، فلا يستحقه إلا المستولي على

الأمر في الكمال، وأكرم الله نبيَّه وصفيَّه باسمين مشتقين من اسمه جلَّ جلاله (محمد وأحمد)، وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألَمْ تَرَ أن الله أرسل عبدَه ... ببرهانه والله أعلى وأمجدُ

وشقَّ له من اسمه لِيُجلَّه ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمد

قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ رَجعتُم إلى دينكم الأول ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرتدّ عن دينه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتدادِه، وإنما يضرُّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ قال الأخفش: اللام في «لِنَفْسٍ» منقولة، تقديره: وما كانت نفس لتموت ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بقضاء الله وقدره، وقيل: بعلمه، وقيل: بأمره ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: كَتَبَ لكل نفس أجلاً، لا يقدر أحدٌ على تغييره وتأخيره، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يعني: من يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله، يريد: نؤته منها ما نشاء بما قدرناه له، كما قال: «مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ» [الإسراء:١٨]، نزلتْ في الذين تركوا المركزَ يومَ أُحد؛ طلبًا للغنيمة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: أراد بعمله الآخرة، قيل: أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قُتلوا ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: المؤمنين المطيعين. عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرتُه إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوَّجها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه»(١).

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: جموع

---

(١) أخرجه البخاري في سبعة مواضع من «الصحيح». وأخرجه مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية ...».

كثيرة، وقال ابن مسعود: الربيُّون الأُلوف، وقال الحسن: فقهاء علماء، وقيل: هم الأتباع، والربانيون الولاة، والربيون الرعية، وقيل: منسوب إلى الربِّ، وهم الذين يعبدون الرب ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي: ما جَبُنوا ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد بما نَالهم من ألمِ الجراح، وقَتْلِ الأصحاب ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾ قال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم، وقال السدي: وما ذلوا. قال عطاء: وما تضرعوا، وقال أبو العالية: وما جبنوا، ولكنهم صبروا على أمرِ رَبِّهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ معناه: وما كان قولهم عند قتل نبيهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾، ومعناه: وما كان قولهم عند قتل نبيهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: الصغائر ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: الكبائر، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ كي لا تزول ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ النصرة والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الأجر والجنة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: اليهود والنصارى، وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: يعني: المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يُرجعوكم إلى أول أمركم: الشرك بالله ﴿فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ مغبونين.

ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصرُكم وحافظُكم على دينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ وذلك أنَّ أبا سفيان والمشركين لمَّا ارتحلوا يوم أُحد متوجهين نحو مكة، انطلقوا حتى إذا بلغوا بعض الطريق، ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم، ارجعوا فاسْتَأْصِلُوهم، فلمَّا عزموا على ذلك قذف الله في قلوبهم الرُّعبَ، حتى رجعوا عمَّا همُّوا به.

«سَنُلْقِي»، أي: سنقذف في قلوب الذين كفروا الرعب والخوف، ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً وبُرهانًا ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مقام الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لمَّا رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة من أُحد، وقد أصابهم ما أصابهم، قال ناسٌ من أصحابه: من أين أصابنا هذا؟! وقد وعدنا الله النصر، فأنزل الله تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ» بالنصر والظفر؛ وذلك أن النصر والظفر كانا للمسلمين في الابتداء، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أُحدًا خلف ظهره واستقبل المدينة، وجعل «عينين» ـ وهو جبل ـ عن يساره وأقام عليه الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جُبير، وقال لهم: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد غَنِمْنَا فلا تُشْرِكونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تَنْصُرونا، وأقبل المشركون فأخذوا في القتال، فجعل الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل، والمسلمون يضربونهم بالسيوف، حتى ولّوا هاربين، فذلك قوله تعالى: «إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ» أي: تقتلونهم قتلاً ذريعًا بقضاء الله. قال أبو عبيدة: الحسُّ: هو الاستئصال بالقتل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: إن جَبنتم، وقيل: معناه فلما فشلتم ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ والواو زائدة في «وَتَنَٰزَعْتُمْ» يعني: حتى إذا فشلتم تنازعتم، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فَشِلْتُم، ومعنى التنازع: الاختلاف.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ يعني: الرسول ﷺ، وخالفتم أمره ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ الله ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ يا معشر المسلمين من الظفر والغنيمة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني: الذين ثبتُوا مع عبد الله بن جُبير حتى قُتلوا، قال عبد الله بن مسعود: ما شعرتُ أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يُريد الدنيا حتى كان يوم أُحد، ونزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: ردَّكم عنهم بالهزيمة ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحنكم، وقيل: ليُنزل البلاء عليكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ

ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ يعني: ولقد عفا عنكم، إذ تُصْعِدُون هاربين. والإصعاد: السيرُ في مستوى الأرض، والصُّعود: الارتفاع على الجبال والسطوح.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تعرجون ولا تقيمون على أحد، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: في آخركم ومن ورائكم: «إليَّ عبادَ الله فأنا رسول الله من يكرُّ فله الجنة» ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ فجازاكم، جعل الإثابة بمعنى العقاب، وأصلها في الحسنات؛ لأنه وضعها موضع الثواب، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جعل البشارة في العذاب، ومعناه: جعل مكان الثواب الذي كنتم ترجون ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ وقيل: الباء بمعنى على، أي: غمًّا على غمٍّ، وقيل: غمًّا متصلاً بغمٍّ، فالغمُّ الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغمُّ الثاني: ما نالهم من القتل والهزيمة.

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الفتح والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ أي: ولا على ما أصابكم من القتل والهزيمة ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ يا معشر المسلمين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ يعني: أمنًا، والأَمْنُ والأَمَنَةُ بمعنى واحد، وقيل: الأَمْنُ يكون مع زوال سبب الخوف، والأَمَنَةُ مع بقاء سبب الخوف، وكان سبب الخوف هنا قائمًا «نُّعَاسًا» بدل من الأمنة ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أمَّنهم يومئذ بنُعاس يغشاهم، وإنَّما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام.

عن أنس أن أبا طلحة قال: غَشِيَنَا النُّعاسُ ونحن في مصافِّنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي فآخذه، ويسقط وآخذه[1].

وقال عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدَّ علينا الحرب، أرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم، يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا؛ فذلك قوله تعالى: «يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ» يعني: المؤمنين ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: المنافقين، قيل: أراد الله به تمييز المنافقين من المؤمنين، فأوقع النُّعاسَ على المؤمنين حتى أَمِنُوا، ولم يُوقع على المنافقين، فبقوا في الخوف وقد أهمَّتْهم أنفسهم، أي: حملتهم على الهَمِّ، يقال: أمرٌ مهمٌّ. ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا ينصر محمدًا، وقيل: ظنوا أن محمدًا قد قُتل ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: كظنِّ أهل الجاهلية

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٢٨).

والشرك ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾ ما لنا، لفظُه: استفهام، ومعناه: جحدٌ ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: النصر ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمدٍ إلى قتال أهل مكة، ولم يُقتل رؤساؤنا، وقيل: لو كنَّا على الحق ما قُتلنا هاهنا. ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾ قُضي ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ﴾ وليمتحن الله ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ﴾ يُخرج ويُظهر ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في القلوب من خير وشر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي: انهزموا ﴿مِنكُمْ﴾ يا معشرَ المسلمين ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبقَ مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وهم: أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: طلب زلَّتهم، ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: بشؤم ذُنوبهم، قال بعضهم: بتركهم المركز، وقال الحسن: «ما كسبوا» هو قبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: المنافقين عبد الله بن أُبي وأصحابه، ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في النفاق والكفر، وقيل: في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافروا فيها لتجارة أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي: غُزاةً جمع غازٍ، فقُتِلوا: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ يعني: قولهم وظنهم ﴿حَسْرَةً﴾ غمًّا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في العاقبة ﴿وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الغنائم.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ في العاقبة.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فبرحمةٍ من الله، و«ما» صلة، كقوله: «فَبِمَا نَقْضِهِم» ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: سَهُلَتْ لهم أخلاقُك، وكثرةُ احتمالك، ولم تُسرعْ إليهم فيما كان منهم يوم أُحد، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ يعني: جافيًا سيِّء الخُلُق قليل الاحتمال ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قال الكلبي: فظًّا في القول، غليظ القلب في الفعل ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: لنفرُوا وتفرقُوا عنك، يقال: فضضتُهم فانفضُّوا، أي: فرقتُهم فتفرقُوا ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ تجاوزْ عنهم ما أتوا يوم أُحد ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حتى أشفِّعكَ فيهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: استخرج آراءهم واعلم ما عندهم. واختلفوا في المعنى الذي لأجله أمر الله نبيَّه ﷺ بالمشاورة، مع كمال عقله، وجزالة رأيه، ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبُّوا وكرِهُوا.

فقال بعضهم: هو خاص في المعنى، أي: وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله تعالى عهد.

وقال مقاتل وقتادة: أمر الله تعالى بمشاورتهم تطييبًا لقلوبهم، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شق ذلك عليهم.

وقال الحسن: قد علم الله عزَّ وجلَّ أنه ما به إلى مشاورتهم حاجة، ولكنه أراد أن يستنَّ به مَن بعده.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على مشاورتهم، أي: قُمْ بأمر الله وثِقْ به واستعنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ يُعِنْكُم الله ويمنعكم من عدوكم ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ مثل يوم بدر ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ يترككم فلم ينصرْكم كما كان بأُحد، والخذلان: القعودُ عن النُّصرة، والإسلامُ للهلَكة ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد خذلانه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قيل: التوكل أنْ لا تعصي الله من أجل رزقك، وقيل: أن لا تطلب لنفسك ناصرًا غير الله، ولا لرزقك خازنًا غيره، ولا لعملك شاهدًا غيره.

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل سبعون ألفًا من

أُمتي الجنة بغير حساب»، قيل: يا رسول الله، مَنْ هُم؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يَسْتَرقُون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقال عُكَّاشة بن محصن: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقكَ بها عُكَّاشة»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ...﴾ ما كان يظن أن يخون ولا يليق به. وقال ابن إسحاق: ما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة أو مداهنة.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال الكلبي: يمثل له ذلك الشيء في النار، ثم يقال له: انزلْ فخُذْه، فينزل فيحمله على ظهره، فإذا بلغ موضعه وقع في النار، ثم يُكلف أن ينزل إليه، فيخرجه ففعل ذلك به.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع، قال: فوجَّه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وكان رفاعة بن زيد وهب لرسول الله ﷺ عبدًا أسود يقال له: مِدْعَمٌ، قال: فخرجنا حتى إذا كنَّا بوادي القرى فبينما مِدْعَم يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عَائر فأصابه فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تُصبها المقاسم، تشتعل عليه نارًا»، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بِشِرَاكٍ أو شِراكين إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار»[2].

«وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وترك الغلول ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: فغلَّ ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ١٥٥)، ومسلم برقم٣٧١: (١/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٩٣)، ومسلم برقم١١٥: (١/ ١٠٨).

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: ذُو درجات عند الله، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: مَنِ اتَّبَعَ رضوانَ الله ومَنْ باءَ بسَخطٍ مِنَ الله مُختلفُو المنازل عند الله، فلمن اتَّبع رضوانَ الله الثوابُ العظيم، ولمن باء بسخط من الله العذابُ الأليم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: أراد به العرب؛ لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلا وله فيهم نسب إلا بني ثعلبة، دليله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال الآخرون: أراد به جميع المؤمنين، ومعنى قوله تعالى: «مِّنْ أَنفُسِهِمْ» أي: بالإيمان والشفقة لا بالنسب، ودليله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟﴾ وقد كانوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مبعثه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿أَوَلَمَّآ﴾ أي: حين ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بأُحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر؛ وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين، وقتل المسلمون منهم ببدر سبعين وأسروا سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين لنا هذا القتلُ والهزيمةُ ونحن مسلمونَ ورسول الله ﷺ فينا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ روى عبيدة السلماني عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ للناس، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، لا بل نأخذ فداءهم فنقوى بها على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فقتل منهم يوم أُحد سبعون من أسارى أهل بدر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ﴾[1] أي: بأخذكم الفداء واختياركم القتل ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بأُحد من القتل والجرح والهزيمة ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليُميّز، وقيل: ليَرى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأجل دين الله وطاعته ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عن أهلكم وحريمكم، وقال السدي: أي: كثّروا سوادَ المسلمين ورابطوا إن لم تُقاتلوا يكونُ ذلك دفعًا وقمعًا للعدو ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ وهم عبد الله بن أُبي وأصحابه الذين انصرفوا عن أُحد وكانوا ثلاثمائة، قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾ أي: إلى الكفر يومئذ أقربُ ﴿مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ يعني: كلمة الإيمان ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٧/ ٣٧٦)، وابن حبان مختصرًا في «موارد الظمآن»: ص٤١١ .

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في النَّسب لا في الدين وهم شهداء أُحد ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ يعني: قعد هؤلاء القائلون عن الجهاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بُيوتهم ﴿مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَٱدْرَءُوا۟﴾ فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن الحذرَ لا يُغني عن القدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ...﴾ الآية، قيل: نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً: ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين.

وقال الآخرون: نزلت في شهداء أُحد، وكانوا سبعين رجلاً: أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار.

عن مسروق قال: سألنا عبد الله هو ابن مسعود - رضي الله عنه - عن هذه الآية: «وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»؟ قال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحُهم كطير خضر»، ويُروى: «في جوفِ طير خضرٍ، لها قناديلُ معلقة بالعرش، تسرحُ في الجنَّة في أيها شاءتْ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربُّك اطِّلاعةً فقال: سلوني ما شئتم، فقالوا: يا رب كيف نسألك ونحن نسرحُ في الجنة في أيها شئنا؟! فلما رأوا أن لا يُتركوا من أن يسألوا شيئًا قالوا: إنَّا نسألك أن تردَّ أرواحنا إلى أجسادنا نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلمَّا رأى أنهم لا يسألون إلا هذا تُركوا»[1].

وقال قوم: نزلت هذه الآية في شهداء بئر معونة. عن أنس بن مالك: أن رِعْلاً وذَكْوان وعُصَيَّة وبني لحيان استمدُّوا رسول الله ﷺ على عدو لهم، فأمدَّهم بسبعين من الأنصار، كنا نسميهم القراء في زمانهم، وكانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قَتَلُوهم وغدرُوا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنتَ شهرًا يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب على رِعْلٍ وذكوان وعُصَيَّة وبني لحيان.

قال أنس - رضي الله عنه - فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إنَّ ذلك رُفع: «بلِّغوا عنَّا قومَنا أنا لقينا ربَّنا فرضي عنَّا وأرضانا»[2]، ثم نُسخت فرفع بعد ما قرأناه زمانًا، وأنزل الله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٨٨٧ : (٣/ ١٥٠٢).
(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٣٨٥)، ومسلم برقم٦٧٧ : (١/ ٤٦٨).

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ...» الآية.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تظنَّنَّ ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ كأموات من لم يُقْتَلْ في سبيل الله ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قيل: أحياء في الدِّين، وقيل: في الذكر، وقيل: لأنهم يرزقون ويأكلون ويتمتعون كالأحياء، وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، وقيل: لأن الشهيد لا يبلى في القبر، ولا تأكله الأرض. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من ثمار الجنة وتُحفها.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ رزقه وثوابه ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم الذين تركوهم أحياءً في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد؛ لعلمهم أنهم إذا استشهدوا ولحقوا بهم ونالوا من الكرامة ما نالوا، فهم لذلك مستبشرون ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وبأن الله. ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تكفَّلَ الله لمنْ جاهدَ في سبيله لا يُخرجُه من بيتِه إلاَّ الجهادُ في سبيلِه وتصديقُ كلمتِه: أنْ يُدْخلَه الجنة، أو يُرجعَه إلى مسكنِه الذي خرجَ منه مع ما نالَ من أجرٍ وغنيمة»[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...﴾ أي: أجابوا، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: نالتهم الجراح، تمَّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بطاعة رسول الله ﷺ وإجابته إلى الغزو ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ معصيته ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ معطوف على «ٱلَّذِينَ» الأول، وأراد بالناس: نعيم بن مسعود، فهو من العام الذي أُريد به الخاصَّ، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ وحده، وقال محمد بن إسحاق وجماعة: أراد بالناس الركب من عبد القيس، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا ويقينًا وقوة ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا الله ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: الموكول إليه

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٢٠)، (١٣/ ٤٤١)، ومسلم برقم١٨٧٦: (٣/ ١٤٩٦).

الأمور، فعيل بمعنى مفعول.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ»[1].

﴿فَٱنقَلَبُوا﴾ فانصرفوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بعافية لم يلقوا عدوًّا ﴿وَفَضْلٍ﴾ تجارة وربح وهو ما أصابوا في السوق ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يصبهم أذى ولا مكروه ﴿وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله وطاعة رسوله؛ وذلك أنهم قالوا: هل يكون هذا غزوًا؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني: ذلك الذي قال لكم: «إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ» من فعل الشيطان أُلقي في أفواههم ليرهبوهم ويجبُنوا عنهم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم بأوليائه، يعني: يخوِّف المؤمنين بالكافرين، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ في ترك أمري ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بوعدي، فإني متكفِّل لكم بالنصرة والظفر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قال الضحاك: هم كفار قريش، وقال غيره: هم المنافقون يسارعون في الكفر بمظاهرة الكفار ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بمسارعتهم في الكفر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ نصيبًا في ثواب الآخرة، فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا﴾ استبدلوا ﴿ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وإنما يضرون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٢٩).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ والإملاء: الإمهال والتأخير، يقال: عشت طويلاً حميدًا وتمليت حينًا، ومنه قوله تعالى: «وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا» [مريم: ٤٦]، أي: حينًا طويلاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ نمهلهم ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة، وقال عطاء: في قريظة والنضير.

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: سُئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: «من طالَ عمرُه وحَسُنَ عملُه»، قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طالَ عمرُه وساءَ عملُه»(١).

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ اختلفوا في حكم الآية ونظمها، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين، يعني: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

وقال قوم: الخطاب للمؤمنين الذين أخبر عنهم، معناه: ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق، فرجع من الخبر إلى الخطاب.

ومعنى الآية حتى يميزَ المنافق من المخلص، فميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أُحد حيثُ أظهروا النفاق، وتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: ولا يحسبنَّ الباخلون البخل خيرًا لهم ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ﴾ أي: سوف يطوقون ﴿مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يعني: يجعل ما منعه من الزكاة حيَّة تُطوَّق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فوقه إلى قدمه. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِ زكاته مُثِّلَ له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرعَ له زبيبتان يُطوِّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني: شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: «وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ...» الآية»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ٦٢٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي (٢/ ٣٠٨)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٣٩)، وصححه على شرط مسلم. وأخرجه الإمام أحمد: (٤/ ١٨٨، ١٩٠)، (٥/ ٤٠، ٤٣، ٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٨).

ومعنى قوله: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ»، أي: يحملون وزره وإثمه، كقوله تعالى: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ» [الأنعام: ٣١].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أنه الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فيموتون ويرثهم، نظيره قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا» [مريم: ٤٠]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال الحسن ومجاهد: لما نزلت: «مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» قالت اليهود: إن الله فقير استقرض منَّا ونحن أغنياء، وذكر الحسن: أن قائل هذه المقالة حيي بن أخطب.

وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق: كتب النبي ﷺ مع أبي بكر - رضي الله عنه - إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، فدخل أبو بكر - رضي الله عنه - ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسًا كثيرًا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له: فنحاص بن عازوراء - وكان من علمائهم - ومعه حبر آخر يقال له: أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة، فآمِنْ وصَدِّقْ وأقرِض الله قرضًا حسنًا يدخلْكَ الجنة، ويضاعفْ لك الثوابَ. فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربَّنا يستقرضُ أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغني! فإن كان ما تقول حقًّا، فإن الله إذًا لفقير ونحن أغنياء، وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا.

فغضب أبو بكر - رضي الله عنه - وضرب وجه فنحاص ضربةً شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربتُ عُنُقَكَ يا عدوَ الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر - رضي الله عنه -: «ما حملك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيمًا زعم أن الله فقيرٌ وأنهم أغنياء، فغضبتُ لله فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله تعالى ردًّا على فنحاص وتصديقًا لأبي بكر - رضي الله عنه -: «لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ».

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ من الإفك والفرية على الله فنجازيهم به، وقال مقاتل: سنحفظ عليهم، وقال الواقدي: سنأمر الحفظة بالكتابة، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ و﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: النار، وهو بمعنى المحرق، كما يقال: «لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: مؤلم.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ

مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ فيُعذب بغير ذنب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ ...﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك الكتاب، وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ يزعم أنه جاء من عند الله ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فإن جئتنا به صدقناك؛ قال: فأنزل الله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوٓا»، أي: سمع الله قول الذين قالوا، «إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ» أي: أمرنا وأوصانا في كتبه أن لا نؤمن برسول، أي: لا نصدق رسولاً يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فيكون دليلاً على صدقه، والقربان: كل ما يتقرَّب به العبد إلى الله تعالى من نسيكةٍ وصدقةٍ وعملٍ صالح، وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قربانًا أو غنمُوا غنيمة جاءت نارٌ بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دويٌّ وحفيف؛ فتأكله وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة، فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يُقبل بقيت على حالها. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ من القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾؟ يعني: زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء، وأراد بذلك أسلافهم، فخاطبهم بذلك؛ لأنهم رضوا بفعل أسلافهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ معناه: تكذيبهم مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء ـ مع الإتيان بالقربان والمعجزات، ثم قال معزِّيًا لنبيِّه ﷺ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي: بالكتب المزبورة، يعني: المكتوبة، واحدها زبور، مثل: رسول ورُسل ﴿وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ﴾ الواضح المضيء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ منفوسة ﴿ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ توفون جزاء أعمالكم ﴿يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ نُجِّي وأزيل ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالنجاة، ونجا من الخوف ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ يعني: منفعة ومتعة، ثم تزول ولا تبقى. قال قتادة: هي متاع متروكة يُوشك أن تضمحل بأهلها، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم، والغرور: الباطل.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله تعالى: أعددتُ لعبادي

الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلبِ بشر، واقرؤوا إن شئت: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾» [السجدة: ١٧]، وإنَّ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾» [الواقعة: ٣٠]، ولموضعُ سَوطٍ في الجنةِ خيرٌ من الدنيا وما عليها، واقرؤوا إن شئتم: «فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ»[1].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾ الآية، نزلت الآية في أبي بكر وفنحاص بن عازوراء، وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فنحاص بن عازوراء سيد بني قينقاع ليستمدّه، وكتب إليه كتابًا، وقال لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لا تفتاتَنَّ عليَّ بشيء حتى ترجع»، فجاء أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلما قرأه قال: قد احتاج ربُّك إلى أن نمده، فهمَّ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أن يضربه بالسيف، ثم ذكر قول النبي ﷺ: «لا تفتاتَنَّ عليَّ بشيء حتى ترجع»، فكفَّ فنزلت هذه الآية.

وقال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف، فإنه كان يهجُو رسولَ الله ﷺ، ويسبّ المسلمين، ويحرض المشركين على النبي ﷺ وأصحابه في شعره، ويشبب بنساء المسلمين. ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لتُختَبرُنَّ، اللام للتأكيد، وفيه معنى القسم، والنون لتأكيد القسم ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالجوائح والعاهات والخسران ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالأمراض، وقيل: بمصائب الأقارب والعشائر، قال عطاء: هم المهاجرون، أخذ المشركون أموالهم ورِبَاعَهم وعذَّبُوهم، وقال الحسن: هو ما فرض عليهم في أموالهم وأنفسهم من الحقوق، كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ يعني: مشركي العرب ﴿أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/١٧٩ - ١٨٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد في «المسند»: (٢/٤٣٨)، وأخرج بعضه البخاري: (٨/٥١٥)، ومسلم برقم٢٨٢٤: (٤/٢١٧٤).

من حق الأمور وخيرها. وقال عطاء: من حقيقة الإيمان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: طرحوه وضيَّعوه وتركوا العمل به ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: المآكل والرِّشا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم، فمن عَلِمَ شيئًا فَلْيُعَلِّمه، وإيَّاكم وكتمان العلم فإنه هلكة. وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ...» الآية.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئل عن علم يَعْلَمُه فكتمه أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجام من نار»[١].

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ ...﴾ الآية، اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت «لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ ...» الآية[٢].

عن علقمة بن وقاص أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقل له: لئن كان كل امرىء فرح بما أُوتي وأحب أن يُحمد بما لم يفعل معذبًا لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه! إنَّما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إيَّاه، فأخبروه بغيره فأروه أن قد استُحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ» كذلك حتى قوله: «يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ»[٣].

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ﴾ بمنجاة ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ يصرِّفها كيف يشاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٥١)، والترمذي: (٧/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٣٣)، ومسلم برقم٢٧٧٧: (٤/ ٢١٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق نفسه، ومسلم في الموضع نفسه برقم٢٧٧٨.

وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه رَقَدَ عند رسول الله ﷺ فرآه استيقظ فتسوَّك ثم توضأ وهو يقول: «إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاثَ مرات ست ركعات كل ذلك يستاك، ثم يتوضأ، ثم يقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث ركعات، ثم أتاه المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللهم اجعلْ في بصري نورًا وفي سمعي نورًا وفي لساني نورًا، واجعل خلفي نورًا وأمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا ومن تحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا»(١).

قوله تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوي العقول، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طالب وابن عباس - رضي الله عنهم - والنخعي وقتادة: هذا في الصلاة: يصلي قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب. عن عمران بن حصين قال: سألت رسول الله ﷺ عن صلاة المريض؟ فقال: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»(٢).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما أبدع فيهما؛ لِيَدُلَّهم ذلك على قدرة الله، ويعرفوا أن لها صانعًا قادرًا مدبِّرًا حكيمًا، قال ابن عون: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة ﴿رَبَّنَا﴾ أي: ويقولون: ربنا ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ ردَّه إلى الخلق، فلذلك لم يقل: هذه، ﴿بَٰطِلًا﴾ أي: عبثًا وهزلاً، بل خلقته لأمر عظيم، وانتصب الباطل بنزع الخافض، أي: بالباطل ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: أهنته، وقيل: أهلكته، وقيل: فضحتَه.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ يعني: محمدًا ﷺ - قاله ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهم - وأكثر المفسرين، وقال القرظي: يعني القرآن، كل أحد يلقى النبي ﷺ ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: في جملة الأبرار.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على ألسنةِ رُسلك ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ ولا تُعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تُهنا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ١١٦) بنحوه، ومسلم برقم٧٦٤: (١/ ٥٣٠).
(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٨٧).

فإن قيل: ما وجه قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وقد علموا أن الله لا يُخلف الميعاد؟ قيل: لفظه دعاء، ومعناه خبر، أي: لتؤتينا ما وعدتنا على رُسلك، تقديره: فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ولا تخزنا يوم القيامة، لِتُؤتِينَا ما وعدتَنا على رُسلك من الفضلِ والرحمة.

وقيل: معناه ربَّنا واجعلنا ممن يستحقون ثوابَك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسِنَةِ رُسلك؛ لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها.

وقيل: إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، قالوا: قد عَلِمْنَا أنك لا تخلف، ولكن لا صبْرَ لنا على حِلمك فعجِّل خزيهم وانصرنا عليهم.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى﴾ أي: بأني ﴿لَآ أُضِيعُ﴾ لا أحبط ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ قال مجاهد: قالت أُم سلمة: يا رسول الله، إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، قال الكلبي: في الدين والنصرة والموالاة، وقيل: كلكم من آدم وحواء، وقال الضحاك: رجالكم شكل نسائكم، ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة، كما قال: «وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ» [التوبة: ٧١].

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ أي: في طاعتي وديني، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ أي: لأثيبنهم ثوابًا ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ نزلت في المشركين؛ وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمُون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله تعالى فيما نَرى من الخير ونحن في الجهد؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية: «لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ»، وضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وأنواع المكاسب، فالخطاب للنبي ﷺ والمراد منه غيره.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: هو متاع قليل، وبُلْغَةٌ فانية، ومُتْعَةٌ زائلة ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ مصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفِراش.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ جزاءً وثوابًا ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نصب على التفسير، وقيل: جعل ذلك نُزلاً ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ من متاع الدنيا.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: جئت فإذا رسول الله ﷺ في مَشْرُبَةٍ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أُدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظًا مصبورًا وعند رأسه أُهب معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيتُ؛ فقال: ما يُبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إنَّ كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[1]؟

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ...﴾ الآية، قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة: نزلت في النجاشي ملك الحبشة، وقال مجاهد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ»، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين مُتواضعينَ لله ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يُحرفون كُتُبَهم ولا يكتُمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة والمأكلة، كفعل غيرهم من رؤساء اليهود ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ قال الحسن: اصبروا على دينكم ولا تَدَعُوه لشدَّةٍ ولا رخاء، وقال قتادة: اصبروا على طاعة الله. وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان: على أمر الله. وقال أبو عبيدة: أي: داوموا واثبتوا، والربطُ: الشدُّ، وأصل الرباط: أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، ثم قيل: ذلك لكل مقيم في ثغرٍ يدفعُ عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب.

عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رِباطُ يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضعُ سَوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (٨/ ٦٥٧).

سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها»[١].

عن سلمان الخير أن رسول الله ﷺ قال: «من رابط يومًا وليلة في سبيل الله كان له أجرُ صيام شهرٍ مقيم، ومن مات مرابطًا جَرَى له مثل ذلك الأجر، وأُجْرِي عليه من الرزق، وأُمن من الفتّان»[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال بعض أرباب اللسان: اصبِرُوا على النعماء، وصابِرُوا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء؛ لعلكم تُفلحون في دار البقاء.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ نشر وأظهر ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: تتساءلون به، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: حافظًا.

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمَّا بلغَ اليتيمُ طلبَ المالَ فمنعه عمه فترافَعا إلى النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العمُّ قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذُ بالله من الحَوْبِ الكبير، فدفع إليه ماله فقال النبي ﷺ: «من يوقَ شُحَّ نفسه ويُطِعْ ربَّه هكذا فإنه يَحُلُّ دارَه» يعني: جنته، فلما قبض الفَتى ماله أنفق في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر وبقي الوزرُ» فقالوا: كيف بقي الوزرُ؟ فقال: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٨٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم١٩١٣: (٣/ ١٥٢٠).
والفتَّان: يروى بضم الفاء وفتحها، فالضم جمع فاتن وهو الذي يضل الناس عن الحق ويفتنهم، وبالفتح هو الشيطان؛ لأنه يفتن الناس عن الدين، وفتَّان: من أبنية المبالغة في الفتنة. انظر: «النهاية»: (٣/ ٤١٠).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص (١٣٦). وانظر: «العجاب»: ٢/ ٨٢٤.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا﴾ خطاب للأولياء والأوصياء، واليتامى: جمع يتيم، واليتيم: اسم لصغير لا أبَ له ولا جد، وإنما يدفع المال إليهم بعد البلوغ، وسماهم يتامى هاهنا على معنى أنهم كانوا يتامى.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾ أي: لا تستبدلوا ﴿الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: مالهُم الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا عظيمًا.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ الآية، اختلفوا في تأويلها، فقال بعضهم: معناه إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهنَّ إذا نكحتُموهنَّ فانكحُوا غيرَهنَّ من الغرائب مثنَى وثُلاث ورُباعَ.

عن الزهري، قال: كان عروة بن الزبير يحدث أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ قالت: اليتيمة تكون في حِجر وليها فيرغب في جمالها ومالها، ويريد أن يتزوجَها بأدنى من سُنَّة نسائها، فنُهوا عن نكاحهنَّ إلا أن يقسطوا لهنَّ في إكمال الصداق، وأُمروا بنكاح مَن سواهنَّ من النساء، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ثم استفتى الناسُ رسولَ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» إلى قوله تعالى: «وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ»(١)؛ فبيَّن الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رَغِبُوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها، والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يُقسطوا لها الأوْفَى من الصداق ويُعطوها حقَّها.

قال الحسن: كان الرجل من أهل المدينة يكون عنده الأيتام وفيهنَّ من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجلِ مالها، وهي لا تعجبه كراهية أن يَدخله غريبٌ فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص بها أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنزل الله هذه الآية.

وقال بعضهم: كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء، فيتزوجون ما شاؤوا وربما عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى «وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ» أنزل هذه الآية «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى» يقول: كما خفتم أن لا تُقسطوا في اليتامى، فكذلك خافوا في

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٣٩)، ومسلم برقم٣٠١٨: (٤/ ٢٣١٣ - ٢٣١٤).

النساء أن لا تعدلوا فيهنَّ فلا تتزوجوا أكثر مما يُمكنكم القيام بحقِّهن؛ لأن النساء في الضعف كاليتامى، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي، ثم رخص في نكاح أربع قال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ فيهن ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ وقال مجاهد: معناه إن تحرجتم مِنْ وِلاية اليتامَى وأموالِهم إيمانًا، فكذلك تحرجوا من الزنا فانكحوا النساء الحلال نكاحًا طيِّبًا، ثم بين لهم عددًا، وكانوا يتزوجون ما شاؤوا من غير عدد، قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: مَنْ طَابَ، و﴿طَابَ﴾ أي: حلَّ لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع، معدولات عن اثنين وثلاث وأربع؛ و«الواو» للتخيير، كقوله تعالى: «أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ» [سبأ: ٤٦]، «أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ» [فاطر: ١]، وهذا إجماع: أن أحدًا من الأُمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة، وكانت الزيادة من خصائص النبي ﷺ، لا مشاركة معه لأحد من الأُمة فيها، ورُوي أن قيس بن الحارث كان تحته ثمان نسوة، فلما نزلت هذه الآية قال له رسول الله ﷺ: «طلق أربعًا وأمسك أربعًا» قال: فجعلْت أقول للمرأة التي لم تلد: يا فلانة أدبري، والتي قد ولدت: يا فلانة أقبلي[1]، ورُوي أن غَيلان بن سلمة الثقفي أسلم وعنده عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «أمسك أربعًا وفارق سائرهنَّ»[2].

وإذا جمع الحرُّ بينَ أربع نسوة حرائر يجوز، فأمَّا العبد فلا يجوز له أن ينكح أكثر من امرأتين عند أكثر أهل العلم.

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ينكح العبد امرأتين ويطلق طلقتين وتعتد الأُمة بحيضتين، فإن لم تكن تحيض فبشهرين أو شهر ونصف[3].

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ خشيتُم، وقيل: علمتم ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ بين الأزواج الأربع ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ أي: فانكحوا واحدةً، ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ يعني: السراري؛ لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق ما يلزم في الحرائر، ولا قسم لهنَّ، ولا وقف في عددهنَّ، وذكر الأيمان بيان، تقديره: أو ما ملكتم، وقال بعض أهل المعاني: أو ما ملكت أيمانكم، أي: ما ينفذ فيه إقسامكم، جعله من يمين الحلف، لا يمين الجارحة ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي: لا تَجُورُوا ولا تميلوا، وأصل العول: المجاوزة، ومنه عَوْلُ الفرائض.

وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ قال الكلبي ومجاهد: هذا الخطاب للأولياء؛ وذلك أنَّ وَلِيَّ المرأة

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/ ١٥٥).
(٢) أخرجه الترمذي: (٤/ ٢٧٨).
(٣) أخرجه الشافعي: (٢/ ٥٧)، ومن طريقه البيهقي في «سننه»، وإسناده صحيح.

كان إذا زوَّجها: فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيرًا، وإن كان زوجها غريبًا حملوها إليه على بعير، ولم يعطوها من مهرها غير ذلك، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله.

قال الحضرمي: كان أولياء النساء يُعطي هذا أختَه على أن يعطيه الآخرُ أختَه، ولا مهرَ بينهما، فنُهوا عن ذلك وأُمروا بتسميةِ المهر في العقد.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ «نَهى عن الشِّغَار».

والشغارُ: أن يُزوِّجَ الرجل ابنتَه على أن يزوجَه الرجلُ الآخر ابنته، وليس بينهما صداق[1].

وقال الآخرون: الخطاب للأزواج، أُمروا بإيتاء نسائهم الصداق، وهذا أصح؛ لأن الخطاب فيما قبلُ مع الناكحين، والصَّدُقات: المهور، واحدها صدقة ﴿نِحْلَةً﴾ قال قتادة: فريضةً، وقال ابن جريج: فريضة مسماة، قال أبو عبيدة: ولا تكون النحلة إلا مسماةً معلومة.

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحقُّ الشروطِ أن تُوفوا به: ما اسْتحللتُمْ به الفروج»[2].

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ يعني: فإن طابت نفوسُهن بشيء من ذلك فوهبنَ منكم، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ سائغًا طيبًا، يقال: هنأ في الطعام يَهْنِىء، وقيل: الهنيء: الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء، والمريء: المحمود العاقبة التام الهضم الذي لا يضر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ اختلفوا في هؤلاء السفهاء، فقال قوم: هم النساء، وقال مجاهد: نهى الرجال أن يُؤتوا النساء أموالهم وهنَّ سفيهات، مَنْ كُنَّ: أزواجًا أو بناتٍ أو أمهات، وقال الآخرون: هم الأولاد، قال الزهري: يقول: لا تعطِ ولدكَ السفيه مالك الذي هو قيامك بعد الله تعالى فيفسده، وقال بعضهم: هم النساء والصبيان، وقال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك، فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنتَ الذي تُنفق عليهم في رزقهم ومؤنتهم، وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مال اليتيم يكون عندك، يقول: لا تؤته إيَّاه، وأنفق عليه حتى يبلغ، وإنَّما أضاف إلى الأولياء فقال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ لأنهم قوامها ومدبروها.

والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق لِلْحَجْرِ عليه، وهو أن يكون مبذرًا في ماله أو مفسدًا في دينه، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ أي: الجهال بموضع الحق أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا.

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٦٢)، ومسلم برقم١٤١٥: (٢/ ١٠٣٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٣٢٣)، ومسلم برقم١٤١٨: (٢/ ١٠٣٥ - ١٠٣٦).

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: أطعموهم ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ لمن يجب عليكم رزقه ومؤنته، وإنما قال: «فِيهَا» ولم يقل: منها؛ لأنه أراد: اجعلوا لهم فيها رزقًا، فإن الرزق من الله: العطيةُ من غير حدٍّ، ومن العباد: إجراء موقتٌ محدود ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عِدَة جميلة، وقال عطاء: إذا ربحتُ أعطيتُك، وإن غنمتُ جعلتُ لك حظًّا، وقيل: هو الدعاء، وقال ابن زيد: إن لم يكن ممن تجب عليكم نفقته، قلْ له: عافاك الله وإيَّانا، بارك الله فيك، وقيل: قولاً ليِّنًا تطيبُ به أنفسُهم.

وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية، نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه؛ وذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه ثابتًا وهو صغير، فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال: إنَّ ابن أخي يتيم في حجري، فما يحل لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ اختبروهم في عقولهم وأديانهم وحفظِهم أموالَهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: مبلغ الرجال والنساء ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ أبصرتم ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ فقال المفسرون يعني: عقلاً وصلاحًا في الدين وحفظًا للمال وعلمًا بما يصلحه. وقال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبي: لا يدفع إليه ماله وإن كان شيخًا حتى يؤنس منه رشده.

وإذا بلغ وأونس منه الرشد؛ زال الحَجرُ عنه، ودفع إليه المال، رجلاً كان أو امرأة، تزوج أو لم يتزوج.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ يا معشر الأولياء ﴿إِسْرَافًا﴾ بغير حق ﴿وَبِدَارًا﴾ أي: مبادرة ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ يعني: لا تبادروا كبرهم ورشدهم حذرًا من أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم، ثم بيَّن ما يحل لهم من مالهم فقال: «﴿أَن﴾» في محل النصب، يعني: لا تبادروا كبرهم ورشدهم حذرًا من أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم، ثم بيَّن ما يحل لهم من مالهم فقال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: ليمتنع من مال اليتيم فلا يرزأه قليلاً ولا كثيرًا، والعفة: الامتناع مما لا يحل ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا﴾ محتاجًا إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهده فليأكل بالمعروف.

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني فقير وليس لي شيء، ولِيَ يتيمٌ؟ فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مسرفٍ ولا مبادرٍ ولا متأثل»[1].

واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء؟ فذهب بعضهم إلى أنه يقضي إذا أيسر، وهو المراد من قوله ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فالمعروف: القرض، أي: يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر

---

(١) أخرجه أبو داود: (٤/ ١٥١ - ١٥٢)، والنسائي: (٦/ ٢٥٦)، وابن ماجه برقم ٢٧١٨: (٢/ ٩٠٧)، وأحمد في «المسند»: (٢/ ٢٨٦)، وعبد الرزاق في «التفسير»: (١/ ١٤٩).

قضاه، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة مال اليتيم: إن استغنيتُ استعففتُ وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف، فإذا أيسرتُ قضيت(١).

عن يحيى بن سعيد أنه قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: جاء رجل إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنَّ لي يتيمًا، وإنَّ له إبلاً، أفأشرب من لبن إبله؟ فقال: إن كنت تبغي ضالة إبله، وتَهْنَأُ جَرْبَاها، وتليطُ حوضَها، وتسقيها يوم وردها، فاشرب غير مُضرٍّ بنسلٍ، ولا ناهكٍ في الحَلْب(٢).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ هذا أمر إرشاد، ليس بواجب، أمَرَ الولي بالإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعدما بلغ؛ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسبًا ومجازيًا وشاهدًا.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأةً يقال لها: أُم كُجّة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووَصِيَّاه سويدٌ وعَرْفَجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئًا، وكانوا في الجاهلية لا يُورِّثون النساء ولا الصغار، وإن كان الصغير ذكرًا، وإنما كانوا يورِّثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلا من قاتل وحاز الغنيمة، فجاءت أُم كُجّة فقالت: يا رسول الله، إن أوس بن ثابت مات وترك عليَّ بنات وأنا امرأته، وليس عندي ما أُنفق عليهنَّ، وقد ترك أبوهنَّ مالاً حسنًا، وهو عند سويد وعرفجة، ولم يعطياني ولا بناتي شيئًا وهنَّ في حِجْري، لا يطعمنَ ولا يسقين، فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرسًا ولا يحمل كلاً ولا يَنْكَأُ عدوًّا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿لِلرِّجَالِ﴾ يعني: للذكور من أولاد الميت وأقربائه ﴿نَصِيبٌ﴾ حظٌّ ﴿مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من الميراث ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ للإناث منهم ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ أي: من المال ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ منه ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على القطع، وقيل: جعل ذلك نصيبًا فأثبت لهنَّ الميراث، ولم يبين كم هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سُويد وعرفجة: لا تفرقا من مال أوس بن ثابت شيئًا، فإن الله تعالى جعل

---

(١) أخرجه أبو يوسف في الخراج: ص٣٩، ١٢٧، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ»: ص١١٢.

(٢) أخرجه الطبري: (٧/٥٨٨)، وعبد الرزاق في «التفسير»: (١/١٤٦)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ»: ص١١٣، وقال: (هذا إسناد صحيح).

لبناته نصيبًا مما ترك، ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهنَّ، فأنزل الله تعالى: «﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾» فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة «أنِ ادفع إلى أُمِّ كُجّة الثُّمن مما ترك وإلى بناته الثلثين، ولكما باقي المال»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ يعني: قِسمةَ المواريث ﴿أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾ الذين لا يرثون ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: فارضخوا لهم من المال قبل القسمة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة، وقال سعيد بن المسيب والضحاك: كانت هذه قبل آية الميراث، فلما نزلت آية الميراث جعلت المواريث لأهلها، ونسخت هذه الآية.

وقال الآخرون: هي محكمة، وهو قول ابن عباس والشعبي والنخعي والزهري، وقال مجاهد: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم.

وقال قتادة عن يحيى بن يعمر: ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهن الناس: هذه الآية، وآية الاستئذان «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...» الآية [النور: ٥٨]، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...» الآية [الحجرات: ١٣].

وقال بعضهم ـ وهو أولى الأقاويل ـ: إن هذا على الندب والاستحباب، لا على الحتم والإيجاب.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ أولادًا صغارًا ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ الفقر، هذا في الرجل يحضره الموت، فيقول من بحضرته: انظر لنفسك، فإن أولادك ورثتك لا يغنون عنك شيئًا، قدِّم لنفسك، أعتقْ وتصدقْ وأعطِ فلانًا كذا وفلانًا كذا، حتى يأتي على عامة ماله، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث، ولا يُجحف بورثته كما لو كان هذا القائل هو الموصي يسره أن يحثه من بحضرته على حفظ ماله لولده، ولا يدعهم عالةً مع ضعفهم وعجزهم.

---

(١) أخرجه الطبري: (٧/ ٥٩٨)، وذكره ابن حجر في «الإصابة»، في ترجمة أُم كجة: (٨/ ٢٨٤)، وقال: أخرجه أبو نعيم وأبو موسى من طريقه، ثم من رواية سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال...

قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلاً، والسديد: العدل، والصواب من القول، وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثُّلث ويخلف الباقي لولده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من غطفان، يقال له: مَرْثَد بن زيد، وَلِيَ مالَ ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾: حرامًا بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أخبر عن مآله، أي: عاقبته تكون كذلك ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسري بي قومًا لهم مشافر كمشافر الإبل، إحداهما قالصة على منخريه، والأخرى على بطنه، وخزنة النار يلقمونه جمر جهنم وصخرها، فقلت: يا جبريل، مَن هؤلاء؟ قال: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا»».

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ...﴾ الآية، اعلم أن الوراثة كانت في الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يُورِّثون الرجال دون النساء والصبيان، فأبطل الله ذلك بقوله: «لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ...» الآية، وكانت أيضًا في الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ﴾» [النساء: ٣٣]، ثم صارت الوراثة بالهجرة، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ» [الأنفال: ٧٢]، فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة: بالنسب أو النكاح أو الولاء، فالمعنيُّ بالنسب: أن القرابة يرث بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: «وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» [الأحزاب: ٦]، والمعنيُّ بالنكاح: أن أحد الزوجين يرث صاحبه، وبالولاء، أن المُعْتِقَ وعصابته يرثون المُعْتَقَ، فنذكر بعون الله تعالى فصلاً وجيزًا في بيان من يرث من الأقارب، وكيفية توريث الورثة فنقول:

وجملة الورثة سبعة عشر: عشرة من الرجال وسبع من النساء، فمن الرجال: الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجد أبو الأب وإن علا، والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم، وابن الأخ للأب والأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وأبناؤهما وإن سفلوا، والزوج ومولى العتاق، ومن النساء: البنت وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدة أم الأم وأم الأب،

والأُخت سواء كانت لأب وأُم أو لأب أو لأم، والزوجة ومولاة العتاق.

وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير: الأبوان، والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة.

والأسباب التي توجب حرمان الميراث أربعة: اختلاف الدين والرق والقتل وعمي الموت.

ونعني باختلاف الدين أن الكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر؛ فعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ»[(١)].

فأما الكفار فيرث بعضهم من بعض مع اختلاف مللهم؛ لأن الكفر كله ملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل في الكفر يمنع التوارث حتى لا يرث اليهودي النصراني ولا النصراني المجوسي، وإليه ذهب الزهري والأوزاعي وأحمد وإسحاق لقول النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتَّى»[(٢)]، وتأوله الآخرون على الإسلام مع الكفر فكله ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين أهل ملتين شتى.

والقتل يمنع الميراث عمدًا أو خطأ؛ لِمَا رُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «القاتل لا يرث»[(٣)].

ونعني بعمي الموت: أن المتوارِثَين إذا عمي موتهما بأن غرقا في ماء، أو انهدم عليهما بناء، فلم يدر أيّهما سبق موته فلا يورّث أحدهما من الآخر، بل ميراث كل واحد منهما لمن كانت حياته يقينًا بعد موته من ورثته.

والسهام المحدودة في الفرائض ستة: النصف والربع والثُّمن والثلثان والثلث والسدس.

فالنصف فرض ثلاثة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصّلب أو بنت الابن عند عدم ولد الصلب، وفرض الأخت الواحدة للأب والأُم أو للأب إذا لم يكن ولد لأب وأُم.

والربع: فرض الزوج إذا كان للميتة ولد، وفرض الزوجة إذا لم يكن للميت ولد.

والثمن: فرض الزوجة إذا كان للميت ولد.

والثلثان: فرض البنتين للصلب فصاعدًا ولبنتي الابن فصاعدًا عند عدم ولد الصلب، وفرض

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ٥٠)، ومسلم برقم١٦١٤: (٣/ ١٢٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود: (٤/ ١٨١)، والترمذي: (٦/ ٢٨٩)، وقال: إن هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث جابر إلا من حديث ابن أبي ليلى، وابن ماجه برقم٢٧٣١: (٢/ ٩١١)، وصححه الحاكم: (٢/ ٢٤٠) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي: (٦/ ٢٩٠)، وقال: هذا حديث لا يصح. وابن ماجه برقم٢٦٤٥: (٢/ ٨٨٣)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٨/ ٣٦٧) وضعَّفه.

الأختين لأب وأم أو للأب فصاعدًا.

والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد ولا اثنان من الأخوات والإخوة، إلا في مسألتين: إحداهما زوج وأبوان، والثانية زوجة وأبوان، فإن للأُم فيهما ثلث ما بقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة، وفرض الاثنين فصاعدًا من أولاد الأم، ذكَرُهُم وأُنثاهم فيه سواء، وفرض الجد مع الإخوة إذا لم يكن في المسألة صاحب فرض، وكان الثلث خيرًا للجد من المقاسمة مع الإخوة.

وأمَّا السدس ففرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد، وفرض الأم إذا كان للميت ولد أو اثنان من الإخوة والأخوات، وفرض الجد إذا كان للميت ولد ومع الإخوة والأخوات إذا كان في المسألة صاحب فرض، وكان السدس خيرًا للجد من المقاسمة مع الإخوة، وفرض الجدة والجدات وفرض الواحد من أولاد الأم ذكرًا أو أُنثى، وفرض بنات الابن إذا كان للميت بنت واحدة للصلب تكملة الثلثين، وفرض الأخوات للأب إذا كان للميت أُخت واحدة لأب وأم تكملة الثلثين.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأَوْلَى رجلٍ ذكر»[1].

وفي الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض، والحجب نوعان حجب نقصان وحجب حرمان:

فأما حجب النقصان فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن، والأم من الثلث إلى السدس، وكذلك الاثنان فصاعدًا من الإخوة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس.

وحجب الحرمان هو أن الأم تُسقط الجدات، وأولاد الأم ـ وهم الأخوة والأخوات للأُم ـ يسقطون بأربعة: بالأب والجد وإن علا، وبالولد وولد الابن وإن سفل، وأولاد الأب والأُم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا، ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت.

وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأُم، وذهب قوم إلى أن الإخوة جميعًا يسقطون بالجد كما يسقطون بالأب.

وأقرب العصبات يُسقط الأبعد من العصوبة، وأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل، ثم الأب ثم الجد أبو الأب وإن علا، فإن كان مع الجد أحد من الإخوة، أو الأخوات للأب والأُم أو للأب يشتركان في الميراث، فإن لم يكن جد فالأخ للأب والأُم ثم الأخ للأب ثم بنو الإخوة يقدم أقربهم سواء كان لأب وأُم، أو لأب، فإن استويا في الدرجة فالذي هو لأب وأُم أولى ثم العم للأب والأُم

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ١١)، ومسلم برقم١٦١٥: (٣/ ١٢٣٣).

ثم العم للأب ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة، ثم عم الأب ثم عم الجد على هذا الترتيب.

فإن لم يكن أحد من عصبات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق، فإن لم يكن حيًّا فلعصبات المعتق.

وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن، وابن الابن، والأخ للأب والأم، والأخ للأب، حتى لو مات عن ابن وبنت، أو عن أخ وأُخت لأب وأم، أو لأب، فإنه يكون المال بينهما للذكر مثل حظ الأُنثيين، ولا يفرض للبنت والأُخت.

وكذلك ابن الابن يعصب مَن في درجته من الإناث، ومن فوقه إذا لم يأخذ من الثلثين شيئًا حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن، فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن، فإن كان في درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظ الأُنثيين.

والأُخت للأب والأُم وللأب تكون عصبة مع البنت، حتى لو مات عن بنت وأُخت كان النصف للبنت والباقي للأخت، فلو مات عن بنتين وأُخت فللبنتين الثلثان والباقي للأُخت.

والدليل عليه: ما روى هذيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن ابنة وبنت ابن وأُخت فقال: للبنت النصف وللأُخت النصف، وائتِ ابنَ مسعود فسيتابعني فسُئل ابن مسعود وأُخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى به رسول الله ﷺ: للبنت النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأُخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبر فيكم[(١)].

رجعنا إلى تفسير الآية: واختلفوا في سبب نزولها. عن محمد بن المنكدر: سمعتُ جابرًا يقول جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبَّ عليَّ من وَضوئه فعقلت، فقلت: يا رسول الله، لِمَنِ الميراث إنَّما يرثني كلالة؟ فنزلت آية الفرائض[(٢)].

وقال عطاء: استشهد سعد بن الربيع يوم أُحد، وترك امرأة وبنتين وأخًا؛ فأخذ الأخ المال، فأتت امرأة سعد إلى رسول الله ﷺ بابنتي سعد فقالت: يا رسول الله، إن هاتين ابنتا سعد وإنَّ سعدًا قُتل يوم أُحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما ولا تنكحان إلا ولهما مال، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعي فلعلَّ الله سيقضي في ذلك»، فنزل: «يُوصِيكُمُ ...» إلى آخرها، فدعا رسول الله ﷺ عمَّهما فقال له: «أعطِ ابنتي سعد الثلثين وأُمهما الثمن، وما بقي فهو لك»[(٣)]، فهذا أول ميراث قُسم في الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ١٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٤٣)، ومسلم برقم١٦١٦: (٣/ ١٢٣٤).

(٣) أخرجه أبو داود: (٤/ ١٦٦ - ١٦٧)، والترمذي: (٦/ ٢٦٧ - ٢٦٨)، وقال: وهذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم٢٧٢٠: (٢/ ٩٠٨)، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣٣٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي: يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم، أي: في أمر أولادكم إذا متم، ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، ﴿فَإِن كُنَّ﴾ يعني: المتروكات من الأولاد ﴿نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: ابنتين فصاعدًا، ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ﴾ يعني: البنت ﴿وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ يعني: لأبوي الميت، كناية عن غير مذكور ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أراد: أن الأب والأم يكون لكل واحد منهما سدس الميراث عند وجود الولد أو ولد الابن، والأب يكون صاحب فرض ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ اثنان أو أكثر ذكورًا أو إناثًا ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ والباقي يكون للأب إن كان معها أب، والإخوة لا ميراثَ لهم مع الأب، ولكنهم يحجبون الأم ـ حجب نقصان ـ من الثلث إلى السدس.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلا أن يكونوا ثلاثةً، وقد تفرد به، وقال: لأن الله تعالى قال: «﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾» ولا يقال للاثنين إخوة. فنقول: اسم الجمع قد يقع على التثنية؛ لأن الجمع ضم شيء إلى شيء وهو موجود في الاثنين، كما قال الله تعالى: «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» [التحريم: ٤] ذكر القلب بلفظ الجمع، وأضافه إلى الاثنين.

قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «إنكم تقرؤون الوصية قبل الدَّين، وبدأ رسول الله ﷺ بالدَّين قبل الوصية». وهذا إجماعٌ أن الدين مُقدَّم على الوصية. ومعنى الآية الجمع لا الترتيب، وبيان أن الميراث مؤخر عن الدين والوصية جميعًا، معناه: من بعد وصية إن كانت، أو دين إن كان، فالإرث مؤخر عن كل واحد منهما.

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ يعني: الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فمنكم من يظن أن الأب أنفع له فيكون الابن أنفع له، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالم بمن هو أنفع لكم، وقد دبَّرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه.

وقال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أطوعكم لله عزَّ وجلَّ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشفِّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رفع إليه ولده، وإن كان الولد أرفع درجة رفع إليه والده لتقرَّ بذلك أعينهم ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ما قدر من المواريث ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأمور العباد ﴿حَكِيمًا﴾ بنصب الأحكام.

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا

تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وهذا في ميراث الأزواج ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ﴾ يعني: للزوجات الربع ﴿مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ هذا في ميراث الزوجات، وإذا كان للرجل أربع نسوة فهن يشتركن في الربع والثمن.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ تُورث كلالة، ونظم الآية: وإن كان رجل أو امرأة يُورث كلالةً.

واختلفوا في «الكلالة»، فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة: مَنْ لاَ وَلَد له ولاَ وَالِدَ له. ورُوي عن الشعبي قال: سُئل أبو بكر - رضي الله عنه - عن الكلالة فقال: إني سأقول فيها قولاً برأيي، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمنّي ومن الشيطان: أراه ما خلا الوالد والولد، فلما استخلف عمر - رضي الله عنهما - قال: إني لأستحيي من الله أن أردَّ شيئًا قاله أبو بكر رضي الله عنه.

وذهب طاووس إلى أن الكلالة: مَنْ لا ولد له، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وأحد القولين عن عمر - رضي الله عنه -، واحتج من ذهب إلى هذا بقول الله تعالى: «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ» [النساء: ١٧٦] وبيانه عند العامة مأخوذٌ من حديث جابر بن عبد الله؛ لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن؛ لأن أباه عبد الله بن حرام قُتل يوم أُحد، وآية الكلالة نزلتْ في آخر عمر النبي ﷺ، فصار شأن جابر بيانًا لمراد الآية لنزولها فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أراد به: الأخ والأختَ من الأم بالاتفاق، ﴿فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ فيه إجماع أن أولاد الأم إذا كانوا اثنين فصاعدًا يشتركون في الثلث ذكرُهم وأُنثاهم، قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في خطبته: ألاَ إن الآية التي أنزل الله تعالى في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها في الولد والوالد، والآية الثانية في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أُولي الأرحام

بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ أي: غير مُدخل الضَّرَرَ على الورثة بمجاوزته الثلث في الوصية، قال الحسن: هو أن يوصي بدين ليس عليه ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ قال قتادة: كره الله الضِّرارَ في الحياة وعند الموت، ونهى عنه وقدَّم فيه.

تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ يعني: ما ذكر من الفروض المحدودة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ يعني: من المسلمين، وهذا خطاب للحكام، أي: فاطلبوا عليهنَّ أربعةً من الشهود، وفيه بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ فاحبسوهنَّ ﴿فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ وهذا كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، كانت المرأة إذا زنت حُبست في البيت حتى تموت، ثم نسخ ذلك في حق البكر بالجلد والتغريب، وفي حق الثَّيِّب بالجلد والرجم.

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «خُذوا عنِّي، خُذوا عنِّي: قد جعل اللهُ لهنَّ سبيلاً، البكرُ بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثَّيِّب بالثَّيِّب جلد مائة والرجم»[1].

قال شيخنا الإمام: الحديث صحيح، رواه مسلم بن الحجاج[2]، ثم نُسخ الجلد في حق الثَّيِّبِ وبقي الرجم عند أكثر أهل العلم.

وذهب طائفة إلى أنه يجمع بينهما. رُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنه جَلَدَ شُراحَةَ الهَمْدانية يوم الخميس مائة ثم رجمها يوم الجمعة، وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ[3].

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ٧٧ - ترتيب المسند).
(٢) أخرجه مسلم برقم ١٦٩٠: (٣/ ١٣١٦).
(٣) أخرجه البخاري: (١٢/ ١١٧).

وعامة العلماء أن الثَّيِّب لا يجلد مع الرجم؛ لأن النبي ﷺ رجم ماعزًا والغامدية ولم يجلدهما.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ يعني: الرجل والمرأة، والهاء راجعة إلى الفاحشة، ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ قال عطاء وقتادة: فعيِّروهما باللسان: أمَا خِفْتَ الله؟ أما استحييت من الله حيث زنيت؟ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: سُبُّوهُمَا واشتموهما، قال ابن عباس: هو باللسان واليد، يُؤذى بالتعيير وضرب النعال.

فإن قيل: ذكرَ الحبس في الآية الأولى، وذكر في هذه الآية الإيذاء، فكيف وجه الجمع؟

قيل: الآية الأولى في النساء وهذه في الرجال، وهو قول مجاهد: وقيل: الآية الأولى في الثَّيِّبِ وهذه في البكر.

﴿فَإِن تَابَا﴾ من الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل فيما بعد ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ فلا تُؤذُوهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وهذا كله كان قبل نزول الحدود، فنُسخت بالجلد والرجم، فالجلد في القرآن قال الله تعالى: «ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ» [النور: ٢]، والرجم في السنَّة.

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني - رضي الله عنهما - أنهما أخبراه أنَّ رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: اقضِ يا رسول الله بيننا بكتابِ الله، وقال الآخر وكان أفقههما: أجلْ يا رسول الله فاقضِ بيننا بكتابِ الله، وائذن لي أن أتكلم، قال: «تكلم»، قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا، فزنى بامرأته، فأخبروني أن على ابني الرجم، فافتديتُ منه بمائة شاة وبجارية لي، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب سنة، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، لأقضينَّ بينكما بكتاب الله، أمَّا غَنَمُك وجاريتُك فردٌّ عليك، وجَلَدَ ابنه مائة وغرَّبه عامًا، وأمر أُنيس الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها» فاعترفتْ فرجمها[1].

عن ابن عباس قال: قال عمر - رضي الله عنه -: «إن الله تعالى بعث محمدًا رسول الله ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله تعالى آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجدُ آيةَ الرجم في كتاب الله تعالى، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، والرجم في كتاب الله تعالى حقٌّ على من

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ٤٩١ - ٤٩٢)، ومسلم برقم١٦٩٧: (٣/ ١٣٢٥).

زَنى إذا أُحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحَبَل أو الاعتراف»[١].

وجملة حدِّ الزنا: أن الزاني إذا كان محصنًا ـ وهو الذي اجتمع فيه أربعة أوصاف: العقل والبلوغ والحرية والإصابة بالنكاح الصحيح ـ فحدُّه الرجم، مسلمًا كان أو ذميًّا، وهو المراد من الثيب المذكور في الحديث، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الإسلام من شرائط الإحصان، ولا يرجم الذِّمِّي، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه رجم يهوديين زنيا، وكانا قد أُحصنا[٢].

وإن كان الزاني غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الأوصاف نُظِر: إن كان غير بالغ أو كان مجنونًا فلا حدَّ عليه، وإن كان حُرًّا عاقلاً بالغًا غير أنه لم يُصب بنكاح صحيح، فعليه جلد مائة وتغريب عام، وإن كان عبدًا فعليه جلد خمسين، وفي تغريبه قولان، إن قلنا: يُغَرَّب، فيه قولان، أصحهما: نصف سنة، كما يجلد خمسين، على نصف حدِّ الحُرِّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: يعني التوبة التي يقبلها، وقيل: من الله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنَّ كلَّ ما عُصي به الله فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عَصَى الله فهو جاهلٌ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ قيل: معناه قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر»[٣].

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشيطان قال: وعزَّتِكَ يا رب لا أبرح أُغوي عبادك ما دامتْ أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزَّتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ١٤٤ - ١٤٥) مطولاً، ومسلم برقم١٦٩١: (٣/ ١٣١٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٩٨ - ٩٩)، فقد ذكر أن النبي ﷺ رجم اليهوديين قبل اشتراط الإحصان بالإسلام.

(٣) أخرجه الترمذي: (٩/ ٥٢١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم٤٢٥٣: (٢/ ١٤٢٠). وصححه الحاكم: (٤/ ٢٥٧) ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد: (٣/ ٢٩، ٤١) دون قوله: «وارتفاع مكاني». وأخرجه الحاكم من طريق أخرى عن دراج: (٤/ ٢٦١) دون هذه الزيادة، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: المعاصي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ووقع في النزع ﴿قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ وهي حالة السَّوق حين تُساق روحه، لا يُقبل من كافر إيمانٌ ولا من عاصٍ توبة، قال الله تعالى: «فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا» [غافر: ٨٥]، ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيأنا وأعددنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ نزلت في أهل المدينة، كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها، أو قريبه من عصبته، فألقى ثوبَه على تلك المرأة وعلى خبائها، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارّها؛ لتفتدي منه بما ورثته من الميت، أو تموت هي فيرثها، فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقي عليها ولي زوجها ثوبَه فهي أحق بنفسها، فكانوا على هذا حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وترك امرأتَه كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن، وقال مقاتل بن حيان: اسمه قيس بن أبي قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها ولم ينفق عليها، يضارّها لتفتدي منه، فأتت كبيشةُ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفي وورِثَ نكاحي ابنُه، فلا هو ينفق عليَّ ولا يدخل بي ولا يخلِّي سبيلي، فقال: «اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمرُ الله»، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾(١).

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعوهنَّ من الأزواج؛ لتضجر فتفتدي ببعض مالها، قيل: هذا خطاب لأولياء الميت، والصحيح أنه خطاب للأزواج.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيُضارّها؛ لتفتدي وتردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى الله تعالى عن ذلك، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيُضارّها؛ لتفتدي وتردّ إليه ما ساق إليها من

---

(١) جمع الثعلبي روايات عن السدي وابن جريج وغيرهما، ونظمها في سياق واحد بزيادة ونقص فقال: قال المفسرون: ... وهو ما ذكره هنا البغوي، وانظر: «تفسير الطبري»: (٨/ ١٠٤ - ١٠٨)، و«الدر المنثور»: (٢/ ٤٦٣)، «العجاب في بيان الأسباب»: (٢/ ٨٤٩ - ٨٥٠).

المهر، فنهى الله تعالى عن ذلك، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فحينئذٍ يحل لكم إضرارهنَّ ليفتدين منكم.

واختلفوا في «الفاحشة»، قال ابن مسعود وقتادة: هي النشوز، وقال بعضهم وهو قول الحسن: هي الزنا، يعني: المرأة إذا نَشَزَتْ أو زَنَتْ حَلَّ للزوج أن يسألها الخلع، وقال عطاء: كان الرجل إذا أصابتْ امرأتُه فاحشةً أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها، فنَسَخ الله تعالى ذلك بالحدود.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال الحسن: رجع إلى أول الكلام، يعني: «وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً»، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمعاشرة بالمعروف: هي الإجمال في القول والمبيت والنفقة، وقيل: هو أن يتصنَّع لها كما تتصنَّع له ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قيل: هو ولد صالح، أو يَعْطِفَه الله عليها.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أراد بالزوج: الزوجة، ولم يكن مِن قِبَلِها نشوزٌ ولا فاحشة ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ وهو المال الكثير: صداقًا ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهام بمعنى التوبيخ ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تصيبون في أخذه بهتانًا وإثمًا، ثم قال:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ على طريق الاستعظام ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أراد به المجامعة، ولكن الله حييٌّ يُكني، وأصل الإفضاء: الوصول إلى الشيء من غير واسطة.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قال الحسن وابن سيرين والضحاك وقتادة: هو قول الوَلي عند العقد: زوجتُكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقال الشعبي وعكرمة: هو ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله تعالى، واستحللتُم فروجهنَّ بكلمة الله تعالى»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم، قال الأشعث بن سوار: تُوفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس

---

(١) قطعة من حديث جابر في حجة الوداع، أخرجه مسلم برقم١٢١٨: (٢/ ٨٨٦ - ٨٩٢).

امرأة أبيه فقالت: إني اتخذتُك ولدًا وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، قيل: بعد ما سلف، وقيل: معناه لكن ما سلف، أي: ما مضى في الجاهلية فهو معفو عنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: إنه فاحشة، والفاحشة أقبح المعاصي ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: يُورث مقتَ الله، والمقت: أشدّ البُغض ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس ذلك طريقًا.

عن البراء بن عازب قال: مرَّ بي خالي ومعه لواء، فقلت: أين تذهب؟ قال: «بعثني النبي ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه»(١).

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ...﴾ الآية، بيَّن الله تعالى في هذه الآية المحرمات بسبب الوُصْلة، وجملةُ المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبعٌ بالنسب، وسبعٌ بالسبب.

فأما السبع بالسبب: فمنها اثنتان بالرضاع، وأربع بالصهرية، والسابعة المحصنات: وهنَّ ذوات الأزواج.

وأما السبع بالنسب فقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وهي جمع أُمّ، فيدخل فيهنَّ الجدات وإن علونَ مِنْ قِبَل الأُم ومِنْ قِبَل الأب ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ جمع البنت، فيدخل فيهنَّ بنات الأولاد وإن سَفُلْنَ ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ جمع الأخت، سواء كانت من قِبَل الأب والأم أو مِنْ قِبَل أحدهما ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ جمع العمة، ويدخل فيهن جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علون ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ جمع خالة، ويدخل فيهنَّ جميع أخوات أمهاتك وجداتك ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ويدخل فيهنَّ بنات أولاد الأخ والأخت وإن سَفُلْنَ.

وجملته: أنه يحرم على الرجل أُصوله وفصوله، وفصول أول أُصوله، وأول فصلٍ من كل أصل بعده، والأُصول: هي الأمهات والجدات، والفصول: البنات وبنات الأولاد، وفصول أول

---

(١) رُوي هذا الحديث بألفاظ مختلفة، فقد أخرجه أبو داود: (٦/ ٢٦٧)، والترمذي: (٤/ ٥٩٨)، وقال: حسن غريب، والنسائي: (٦/ ١٠٩ - ١١٠)، وابن ماجه برقم٢٦٠٧: (٢/ ٨٦٩)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل»: (٨/ ١٨ - ٢٢).

أصوله: هي الأخوات وبنات الإخوة والأخوات، وأول فصل من كل أصل بعده: هنَّ العمات والخالات وإن علون.

وأما المحرمات بالرضاع فقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

وجملته: أنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يحرُمُ مِنَ الرَّضاعةِ ما يحرُمُ من الوِلادة»[١].

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها أخبرتها أن رسول الله ﷺ كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقلت: يا رسول الله، لو كان فلان حيًّا ـ لعمها من الرضاعة ـ أيدخل عليَّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إنَّ الرضاعة تحرم ما يحرم من الولادة»[٢].

وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين، أحدهما: أن يكون قبل استكمال المولود حولين؛ لقوله تعالى: «وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ» [البقرة: ٢٣٣]، ورُوي عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرُمُ من الرضاعِ إلا ما فتقَ الأمعاء»[٣].

والشرط الثاني: أن يوجد خمس رضعات متفرقات، يُروى ذلك عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبه قال عبد الله بن الزبير، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره يحرِّم.

واحتج من ذهب إلى أن القليل لا يحرم، بحديث عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصةُ من الرضاع والمصتان»، هكذا روى بعضُهم هذا الحديث[٤]، ورواه عبد الله بن أبي مليكة، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ، وهو الصحيح[٥].

عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان فيما أنزل في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ مِنَ القرآن[٦].

وأما المحرمات بالصهرية فقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ وجملته: أن كل من عقد النكاح على امرأة تحرم على الناكح أُمهات المنكوحة وجداتها، وإن علون من الرضاعة والنسب بنفس العقد.

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٤٤٤: (٤/ ١٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ١٣٩ - ١٤٠)، ومسلم برقم١٤٤٤: (٤/ ١٠٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي: (٤/ ٣١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم١٩٤٦: (١/ ٦٢٦).

(٤) أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ٢١)، وانظر: «سنن الترمذي مع التحفة»: (٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨)، «إرواء الغليل» للألباني: (٧/ ٢٢٠).

(٥) أخرجه مسلم برقم١٤٥٠: (٢/ ١٠٧٣ - ١٠٧٤).

(٦) أخرجه مسلم برقم١٤٥٢: (٢/ ١٠٧٥).

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ والربائب: جمع ربيبة، وهي بنت المرأة، سُميت ربيبَة؛ لتربيته إيَّاها، وقوله: «فِي حُجُورِكُم» أي: في تربيتكم، يقال: فلان في حُجر فلان إذا كان في تربيته «دَخَلْتُم بِهِنَّ» أي: جامعتموهنَّ.

ويحرم عليه أيضًا بناتُ المنكوحة وبنات أولادها، وإن سَفُلن من الرضاع والنسب بعد الدخول بالمنكوحة، حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو ماتَتْ جازَ له أن ينكح بنتها، ولا يجوز له أن ينكح أُمَّها؛ لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات، وقال في تحريم الربائب:

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: في نكاح بناتهن إذا فارقْتُموهنَّ أو مِتْنَ، وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: أُم المرأة لا تحرم إلا بالدخول بالبنت كالربيبة.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ يعني: أزواج أبنائكم، واحدتُها: حَليلة، والذكر حَليل، سُمِّيا بذلك لأن كلَّ واحد منهما حلال لصاحبه، وقيل: سُمِّيا بذلك لأن كل واحد منهما يَحلُّ حيث يحلُّ صاحبه من الحلول وهو النزول.

وجملته: أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أولاده، وإنْ سَفُلُوا من الرضاع والنسب بنفس العقد، وإنما قال: «مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ» ليعلم أن حليلة المتبنَّى لا تحرم على الرجل الذي تبناه، فإن النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، وكان زيدٌ تبنَّاه رسول الله ﷺ.

والرابع من المحرمات بالصهرية: حليلةُ الأب والجدِّ وإن علا، تحرم على الولد ووَلَدِ الولد بنفس العقد سواء كان الأب من الرضاع أو من النسب؛ لقوله تعالى: «وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ»، وقد سبق ذكره.

وكل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين، والوطء بشبهة النكاح، حتى لو وطيء امرأة بالشبهة أو جارية بملك اليمين، فتحرم على الواطيء: أُمُّ الموطوءة وابنتها، وتحرم الموطوءة على أبي الواطيء وعلى ابنه.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأُختين في النكاح سواء كانت الأخوَّة بينهما بالنسب أو بالرضاع، فإذا نكح امرأة ثم طلقها بائنًا جاز له نكاح أُختها، وكذلك لو ملك أُختين بملك اليمين لم يجز له أن يجمع بينهما في الوطء، فإذا وطيء إحداهما لم يحل له وطء الأخرى حتى يُحرِّم الأولى على نفسه.

وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها، لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها»[1].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: لكن ما مضى فهو معفوٌّ عنه؛ لأنهم كانوا يفعلونه قبل

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٦٠)، ومسلم برقم١٤٠٨: (٢/ ١٨٢٠).

الإسلام، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: ذوات الأزواج، لا يحل للغير نكاحُهنَّ قبل مفارقة الأزواج، وهذه السابعة من النساء اللاتي حُرِّمت بالسبب.

قال أبو سعيد الخدري: نزلت في نساءٍ كُنَّ يهاجرنَ إلى رسول الله ﷺ ولهنَّ أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين، ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن، ثم استثنى فقال: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يعني: السبايا اللواتي سُبين ولهنَّ أزواج في دار الحرب فيحلُّ لِمَالِكِهِنَّ وطؤهنَّ بعد الاستبراء؛ لأن بالسبي يرتفع النكاح بينها وبين زوجها.

قال أبو سعيد الخدري: بعث رسول الله ﷺ يوم حُنين جيشًا إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهنَّ أزواج من المشركين، فكرهوا غشيانهن، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كتب الله عليكم كتاب الله، وقيل: أي: الزموا كتاب الله عليكم، أي: فرض الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أحلَّ الله لكم ما وراء ذلكم، أي: ما سوى ذلك الذي ذكرتُ من المحرمات ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ تطلبُوا ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ أي: تنكِحُوا بصداقٍ أو تشترُوا بثمنٍ ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أي: متزوجين مُتعفِّفين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي: غير زانين، مأخوذٌ من سَفَحَ الماء: صبَّه، وهو المنيُّ ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ اختلفوا في معناه، فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذَّذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ، وقال آخرون: هو نكاح المتعة، وهو أن يَنْكِحَ امرأة إلى مدَّةٍ فإذا انقضت تلك المُدَّة بانَتْ منه بِلاَ طلاق، وتستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث، وكان ذلك مباحًا في ابتداء الإسلام، ثم نَهَى عنه رسول الله ﷺ.

عن الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إني كُنتُ أذِنْتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنَّ الله تعالى قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنَّ شيء فليُخلِّ سبيلَه ولا تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئًا»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٤٥٦ : (٢/ ١٠٧٩).
(٢) أخرجه مسلم برقم١٤٠٦ : (٢/ ١٠٢٥).

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ نهى عن متعةِ النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية»[١].

وإلى هذا ذهب عامة أهل العلم: أن نكاح المتعة حرام، والآية منسوخة.

ورَوى سالم عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ما بال رجال ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله ﷺ عنها؟! لا أجدُ رجلاً نكحها إلاَّ رجمتُه بالحجارة، وقال: هدمَ المتعةَ النكاحُ والطلاقُ والعِدَّةُ والميراثُ.

قال الربيع بن سليمان: سمعتُ الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا أعلم في الإسلام شيئًا أُحلّ ثم حُرِّم ثم أُحلّ ثم حُرِّم غيرَ المتعة.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مُهورهنَّ ﴿فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

أي: على الاستمتاع بالنكاح الصحيح والمراد بقوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ» من الإبراء عن المهر والافتداء والاعتياض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

[فصل في قدر الصداق وفيما يُستحب منه]

اعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق؛ لقوله تعالى: «وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا» والمستحب أن لا يُغالى فيه، قال عمر بن الخطاب: ألا لا تغالوا صدقة النساء فإنها لو كانت مَكْرمةً في الدنيا وتقوًى عند الله لكان أولاكم بها نبيُّ الله ﷺ، ما علمتُ رسولَ الله ﷺ نكح شيئًا من نسائه، ولا أنكح شيئًا من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية[٢].

عن أبي سلمة قال: سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كم كان صداق النبي ﷺ لأزواجه؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا، قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم، هذا صداق النبي ﷺ لأزواجه[٣].

أمَّا أقل الصداق فقد اختلفوا فيه: فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقلِّه، بل ما جاز أن يكون مبيعًا أو ثمنًا جاز أن يكون صداقًا.

والدليل على أنه لا يتقدر: ما روي عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قيامًا طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجْنِيها إن لم يكن لك فيها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندكَ من

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٨١)، ومسلم برقم١٤٠٧: (٢/ ١٠٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ٤٦)، والترمذي: (٤/ ٢٥٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة: (٦/ ١١٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم١٤٢٦: (٢/ ١٠٤٢).

شيءٍ تصدقُها»؟ قال: ما عندي إلاَّ إزاري هذا، قال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها جلست لا إزار لك، فالتمسْ شيئًا» فقال: ما أجد، فقال: «فالتمس ولو خَاتَمًا من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «هلْ معك من القرآن شيءٌ»؟ قال: نعم، سورة كذا وسورة كذا ـ لسور سمَّاها ـ فقال النبي ﷺ: «قد زوجتُكها بما معك من القرآن»[1].

وفيه دليل على أنه لا تقدير لأقل الصداق؛ لأنه قال: «التمس شيئًا».

وفي الحديث دليل على أنه يجعل تعليم القرآن صداقًا.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي: فضلاً وسعة ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾ إمائكم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة، فليتزوج الأمَةَ المؤمنة.

وفيه دليل على أنه لا يجوز للحرِّ نكاح الأمة إلاَّ بشرطين، أحدهما: أن لا يجدَ مهرَ حرةٍ، والثاني: أن يكون خائفًا على نفسه من العَنَت: وهو الزنا؛ لقوله تعالى في آخر الآية: «ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ».

وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية؛ لأنه قال: «فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» جوَّز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وقال في موضع آخر: «وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» [المائدة: ٥]، أي: الحرائر، جوز نكاح الكتابية، بشرط أن تكون حرَّة، وجوزَّ أصحاب الرأي للمسلم نكاح الأمة الكتابية، وبالاتفاق يجوز وطؤها بملك اليمين.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم﴾ أي: لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخُذوا بالظاهر، فإن الله أعلمُ بإيمانكم.

﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ قيل: بعضكم إخوة لبعض، وقيل: كلكم من نفس واحدة فلا تستنكِفُوا من نكاح الإماء ﴿فَانكِحُوهُنَّ﴾ يعني: الإماء ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: مواليهن ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٣١)، ومسلم برقم١٤٢٥: (٢/ ١٠٤٠ - ١٠٤١).

مهورهنَّ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من غير مَطل وضرار ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عفائف بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: غير زانيات ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: أحباب تزنون بهنَّ في السِّرِّ، قال الحسن: المسافحة هي أن كل من دعاها تبعتْه، وذات أخدان، أي: تختص بواحد لا تزني إلا معه، ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي: زُوِّجْن ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ يعني: الزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: ما على الحرائر الأبكار إذا زنين ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني: الحدّ، فيُجلد الرقيق إذا زنى خمسين جلدة، وهل يُغرَّب؟ فيه قولان، فإن قلنا يُغرَّب فيغرب نصف سنة على القول الأصح ولا رجم على العبيد.

رُوي عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة قال: أمرني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في فتية من قريش فجلدنا وَلاَئِدَ من وَلاَئِدَ الإمارة خمسين في الزنا[1].

ولا فرق في حدِّ المملوك بين من تزوج أو لم يتزوج عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى أنه لا حدَّ على من لم يتزوج من المماليك إذا زنى؛ لأن الله تعالى قال: «فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ»، ورُوي ذلك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وبه قال طاووس.

ومعنى الإحصان عند الآخرين الإسلام، وإن كان المراد منه التزويج، فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحدّ عليه، بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصنًا بالتزويج فلا رَجْمَ عليه، إنَّما حدّه الجلد بخلاف الحرّ، فحدّ الأمة ثابت بهذه الآية، وبيان أنه بالجلد: في الخبر، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهم ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا زنت أَمةُ أحدِكم فتبينَ زناها فَلْيجلدْها الحدّ ولا يُثرِّب عليها، ثم إن زنت فَلْيجلدْها ولا يُثرِّب، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعْها ولو بحبلٍ من شعر»[2].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: نكاح الأمة عند عدم الطَّول ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يعني: الزنا، يريد: المشقةَ لِغلبة الشهوة ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ عن نكاح الإماء متعففين ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لئلا يُخلق الولد رقيقًا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: أن يبين لكم.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»: (٢/ ٨٢٧)، وفي رواية الإمام محمد بن الحسن «للموطأ»: (٣/ ٩٨)، وعبد الرزاق في «المصنف»: (٧/ ٣٩٥)، وابن أبي شيبة: (٩/ ٥٤٠)، والبيهقي: (٨/ ٢٤٢)، وأبو يوسف في «الخراج»: ص١٨١.

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٤٢١)، ومسلم برقم١٧٠٣: (٣/ ١٤٢٨).

ومعنى الآية: يريد الله أن يبين لكم، أي: يوضح لكم شرائع دينكم ومصالح أُموركم، قال عطاء: يبين لكم ما يقرِّبكم منه، قال الكلبي: يبين لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ ويرشدكم ﴿سُنَنَ﴾ شرائع ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في تحريم الأمهات والبنات والأخوات، فإنها كانت محرمة على من قبلكم.

وقيل: ويهديكم الملة الحنيفية، وهي ملة إبراهيم عليه السلام ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبتليكم، وقيل: يرجع بكم من المعصية التي كنتم عليها إلى الطاعة، وقيل: يوفقكم للتوبة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبَّر من أُمورهم.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إن وقع منكم تقصير في أمر دينه ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟﴾ عن الحق ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بإتيانكم ما حرّم عليكم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ يسهلَ عليكم في أحكام الشرع، وقد سهل كما قال جلَّ ذكره: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ» [الأعراف: ١٥٧]، وقال النبي ﷺ: «بُعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة»[(١)]، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالحرام، يعني: بالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة ونحوها، وقيل: هو العقود الفاسدة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ أي: إلاَّ أن تكون الأموال تجارة، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أي: بطيبة نفس كل واحد منكم.

وقيل: هو أن يجيز كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم، وإلا فلهما الخيار ما لم يتفرقا لِمَا روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المتبايعان كلُّ واحد منهما بالخيار على صاحبه، ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار»[(٢)].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي: لا تُهلكوها، كما قال: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» [البقرة: ١٩٥]، وقيل: لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل.

عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة»[(٣)].

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٦٦) عن أبي أمامة. والحديث حسن لتعدد طرقه وشواهده.
(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٣٢٨)، ومسلم برقم١٥٣١: (٣/ ١١٦٣).
(٣) أخرجه مسلم برقم١١٠: (١/ ١٠٤).

عن جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خرج برجلٍ فيمن كان قبلكم أرابٌ فجزع منه، فأخرج سكينًا فحزَّ بها يده فما رقأ الدمُ حتى مات، فقال الله عزَّ وجلَّ: بادرني عبدي بنفسِه فحَرَّمْتُ عليه الجنة»[١].

وقال الحسن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ يعني: إخوانكم، أي: لا يقتل بعضُكم بعضًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ عن علي بن مدرك قال: سمعت أبا زرعة بن عمرو بن جرير، عن جده قال: قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «استنصت الناسَ» ثم قال: «لا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض»[٢].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما سبق ذكره من المحرَّمات ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ فالعدوان: مجاوزة الحدّ، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ نُدخله في الآخرة ﴿نَارًاۚ﴾ يُصْلَى فيها، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيِّنًا.

إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ اختلفوا في الكبائر التي جعل الله اجتنابها تكفيرًا للصغائر: عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، واليمينُ الغَمُوس»[٣].

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله عزَّ وجلَّ، وعقوقُ الوالدين، وجلسَ وكان متكئًا فقال: ألا وقولُ الزُّور ألا وقول الزور، فما زال يُكررُها حتى قلنا ليتَه سكت»[٤].

عن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلتُ يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك»، قُلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشيةَ أن يأكل معك»، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: «﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾... » [الفرقان: ٦٨][٥].

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٩٦)، ومسلم برقم١١٣: (١/ ١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٦)، ومسلم برقم٦٥: (١/ ٨١ - ٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٥٥).

(٤) أخرجه البخاري: (٥/ ٢٦١)، ومسلم برقم٨٧: (١/ ٩١).

(٥) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٩٢)، ومسلم برقم٨٦: (١/ ٩٠).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السَّبع المُوبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشِّركُ بالله، والسِّحرُ، وقَتْلُ النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات»(١).

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أكبر الكبائر: الإشراكُ بالله، والأمنُ من مكر الله، والقنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوح الله(٢).

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «من الكبائر أن يسبَّ الرجلُ والديه»، قالوا: وكيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فَيسبُّ أباه ويسبُّ أُمه»(٣).

وعن سعيد بن جبير: أن رجلاً سأل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: هنَّ إلى السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار، وقال: كل شيءٍ عُصيَ الله به فهو كبيرة، فمن عمل شيئًا منها فليستغفرْ فإن الله لا يُخلِّد في النار من هذه الأُمة إلا راجعًا عن الإسلام أو جاحدًا فريضة أو مكذبًا بقدر.

وقال عبد الله بن مسعود: ما نهى الله تعالى عنه في هذه السورة إلى قوله تعالى: «إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ» فهو كبيرة.

وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب.

وقال الضحاك: ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا أو عذابًا في الآخرة.

وقال الحسن بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا أو عظيمًا نحو قوله تعالى: «إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا» [النساء: ٢]، «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا» [الإسراء: ٣١]، «بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ» [لقمان: ١٣]، «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» [يوسف: ٢٨]، «سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ» [النور: ١٦]، «إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا» [الأحزاب: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة، ومن رمضان إلى رمضان.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعة إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان: مُكفِّراتُ ما بينهنَّ إذا اجتنب الكبائر»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: حسنًا وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية، قال مجاهد: قالتْ أُم

---

(١) أخرجه البخاري: (٥/ ٣٩٣)، ومسلم برقم٨٩: (١/ ٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٨/ ٢٤٢ - ٢٤٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٨٧)، وقال ابن كثير في «التفسير» (١/ ٤٨٥): (هو صحيح إلى ابن مسعود بلا شك).

(٣) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٠٣)، ومسلم برقم٩٠: (١/ ٩٢).

(٤) أخرجه مسلم برقم٢٣٣: (١/ ٢٠٩).

سلمة: يا رسول الله، إنَّ الرجال يغزون ولا نغزو، ولهم ضعفُ ما لنا مِنَ الميراث، فلو كنَّا رجالاً غزونا كما غزوا، وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا، فنزلت هذه الآية[1].

وقيل: لَمَّا جعل الله عزَّ وجلَّ للذكر مثل حظ الأُنثيين في الميراث، قالت النساء: نحنُ أحقُّ وأحوج إلى الزيادة من الرجال؛ لأنَّا ضعفاء وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش؛ فأنزل الله تعالى: «وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ».

وقال قتادة والسدي لَمَّا نزل قوله: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ»؛ قال الرجال: إنَّا لنرجو أن نُفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، فيكون أجرُنا على الضِّعف من أجر النساء كما فُضِّلنا عليهنَّ في الميراث، فقال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ﴾ من الأجر ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾.

معناه: أن الرجال والنساء في الأجر في الآخرة سواء؛ وذلك أن الحسنة تكون بعشر أمثالها يستوي فيها الرجال والنساء، وإنَّ فضل الرجال في الدنيا على النساء.

وقيل: معناه: للرجال نصيب مما اكتسبُوا من أمر الجهاد، وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج، يعني: إن كان للرجال فضل الجهاد فللنساء فضل طاعة الأزواج وحفظ الفروج.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ﴾ فنهى الله تعالى عن التمنِّي لِما فيه من دواعي الحسد، والحسد أن يتمنى زوالَ النعمة عن صاحبه ويتمنَّاها لنفسه، وهو حرام، والغِبْطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز، قال الكلبي: لا يتمنَّ الرجلُ مالَ أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقل اللهم ارزقني مثله، قال ابن عباس: واسألوا الله من فضله، أي: من رزقه، قال سعيد بن جبير: من عبادته، فهو سؤال التوفيق للعبادة، قال سفيان بن عيينة: لم يأمرْ بالمسألة إلا ليُعطي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ أي: ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالي، أي: عصبة يُعطون ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ﴾ والوالدان والأقربون هم المورِّثون.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأيمان جمع يمين، من اليد

---

(١) أخرجه الترمذي: (/ ٣٧٥)، وقال: (هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسلاً)، وأحمد في «المسند»: (٦/ ٣٢٢)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٠٥) على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أم سلمة.

والقَسَم؛ وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضُهم بيد بعض على الوفاء والتمسُّك بالعهد، ومحالفتُهم أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسِلْمِي سِلْمُك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتَعْقِلُ عنّي وأعقل عَنْك، فيكون للحليف السدس من مال الحليف، وكان ذلك ثابتًا في ابتداء الإسلام، فذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: أعطوهم حظَّهم من الميراث، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: «وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ» [الأحزاب: ٦].

وقال إبراهيم ومجاهد: أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث، وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة؛ لقوله تعالى: «أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ» [المائدة: ١]، وقال رسول الله ﷺ في خطبة يوم فتح مكة: «لا تحدثوا حِلْفًا في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فتمسَّكوا فيه، فإنَّه لم يزدْه الإسلام إلاَّ شِدَّة»[1].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أُنزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار حين قَدِمُوا المدينة، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم، فلمَّا نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث فيوصي له[2]، وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبني، وهذه الآية فيه ثم نُسخ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير ـ قاله مقاتل، وقال الكلبي: امرأته حبيبة بنت محمد بن مسلمة، وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ فقال: أفرشتُه كريمتي

(١) حديث مركب من حديثين، أخرجهما الطبري من حديث قيس بن عاصم أن النبي ﷺ قال: «ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به»: (٨/ ٢٨٣).
ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال في خطبة يوم الفتح: «فوا بحلفٍ فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة ولا تحدثوا حلفًا في الإسلام»: (٨/ ٢٨٤).
وفي الباب عن جبير بن مطعم مرفوعًا: «لا حلف في الإسلام» أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٤٧).

فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص من زوجها»، فانصرفت مع أبيها لتقتصّ منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبي ﷺ: «ارجعوا هذا جبريل أتاني بشيء»؛ فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا، والذي أراد الله خير»، ورفع القِصَاص.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: مُسلَّطون على تأديبهن، والقوَّام والقيم بمعنى واحد، والقوَّام أبلغ، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب.

﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: فضَّل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية، وقيل: بالشهادة؛ لقوله تعالى: «فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ» [البقرة: ٢٨٢]، وقيل: بالجهاد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أنَّ الرجل ينكح أربعًا ولا يحل للمرأة إلا زوج واحد، وقيل: بأن الطلاق بيده، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدِّية، وقيل: بالنبوَّة.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يعني: إعطاء المهر والنفقة، عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أَمرتُ أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: حافظات للفروج في غيبة الأزواج، وقيل: حافظات لسرهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ قرأ أبو جعفر «بِمَا حَفِظَ ٱللَّهَ» بالنصب، أي: يحفظن الله في الطاعة، وقراءة العامة بالرفع، أي: بما حفَّظهن الله بإيصاء الأزواج بحقهنَّ وأمرهم بأداء المهر والنفقة.

وقيل: حافظات للغيب بحفظ الله، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ النساءِ: امرأةٌ إنْ نظرتَ إليها سرتْكَ، وإنْ أمرتَها أطاعتْكَ، وإذا غِبْتَ عنها حفظتْكَ في مالها ونفسِها»[(٢)]، ثم تلا: «ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...» الآية.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن، وأصل النشوز: التكبر والارتفاع، ومنه النشز للموضع المرتفع ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بالتخويف من الله والوعظ بالقول ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ يعني: إن لم ينزِعْنَ عن ذلك بالقول فاهْجُروهنَّ ﴿فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال ابن عباس: يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها، وقال غيره: يعتزل عنها إلى فراش آخر ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني: إن لم ينزعْنَ مع الهجرانِ فاضربُوهنَّ ضربًا غير مُبَرِّح ولا شائن، وقال عطاء: ضربًا بالسواك، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «حقُّ المرأةِ: أن تُطعمَها إذا طَعِمْتَ، وتكسوَها إذا اكتسيتَ، ولا تضربِ الوجهَ، ولا تُقَبِّحْ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم١٨٥٣: (١/ ٥٩٥)، وصححه ابن حبان برقم١٢٩٠ «موارد الظمآن»: ص٣١٤، وأحمد في «المسند»: (٤/ ٤٨١).

(٢) أخرجه النسائي: (٦/ ٦٨)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ١٦١ - ١٦٢) على شرط مسلم.

ولا تهجر إلاَّ في البيت»(١).

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تجنُوا عليهنَّ الذنوبَ، وقال ابن عُيينة: لا تكلفوهنَّ محبَتكم، فإنَّ القلبَ ليس بأيديهن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ متعاليًا من أن يُكَلِّفَ العبادَ ما لا يُطيقونه، وظاهر الآية يدل على أنَّ الزوجَ يجمع عليها بين الوعظ والهجران والضرب، فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال: إذا ظهر منها النشوز جمع بين هذه الأفعال، وحمل الخوف في قوله: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ على العلم، كقوله تعالى: «فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا» [البقرة: ١٨٢]، أي: علم، ومنهم مَنْ حملَ الخوفَ على الخشية لا على حقيقة العلم، كقوله تعالى: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً» [الأنفال: ٥٨]، وقال: هذه الأفعال على ترتيب الجرائم، فإن خافَ نُشوزَها بأن ظهرتْ أمارتُه منها، مِنَ المُخاشنةِ وسُوءِ الخُلق وَعَظَها، فإن أبدتِ النشوزَ هَجَرَها، فإن أصرَّت على ذلك ضَرَبها.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنۢبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ يعني: شقاقًا بين الزوجين، والخوفُ بمعنى اليقين، وقيل: هو بمعنى الظنِّ، يعني: إن ظننتم شقاقَ بينهما.

وجملتُه: أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاقٌ، واشتبه حالهما: فلم يفعل الزوج الصفح ولا الفرقة، ولا المرأة تأدية الحق ولا الفدية، وخرجا إلى ما لا يحل قولاً وفعلا، بعث الإمام حكمًا من أهله إليه، وحكمًا من أهلها إليها: رجلين حرين عدلين؛ ليستطلع كلُّ واحد من الحكمين رأي من بُعث إليه، إن كانت رغبتُه في الوصلة أو في الفُرقة، ثم يجتمع الحكمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيُهما من الصلاح، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ يعني: الحكمين ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ يعني: بين الزوجين، وقيل: بين الحكمين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ عن عبيدة أنه قال في هذه الآية: «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ» قال: جاء رجل وامرأة إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومع كل واحد

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/ ٦٧ - ٦٨)، وابن ماجه برقم١٨٥٠: (١/ ٥٩٤)، وابن حبان برقم١٢٨٦: ص٣١٣ من «موارد الظمآن»، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ١٨٧ - ١٨٨) ووافقه الذهبي.

منهما فئام من الناس، فأمرهم عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فبعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، ثم قال للحكمين: أتدرِيَان ما عليكما؟ إنْ رأيتما أن تجمعا جمعتُما، وإن رأيتما أن تُفَرِّقَا فرقتُما، قالتِ المرأة: رضيتُ بكتاب الله بما عليَّ فيه ولي، فقال الرجل: أمَّا الفُرقة فَلاَ، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: كذبتَ والله حتى تُقرَّ بمثل الذي أقرَّتْ به[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحِّدُوه وأطيعوه ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «هل تدري يا معاذ، ما حقُّ الله على الناس؟ قال: قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: حقُّه عليهم أن يعبدوه ولا يُشركُوا به شيئًا، أتدري يا معاذ، ما حقُّ الناس على الله إذا فعلُوا ذلك؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: فإنَّ حقَّ الناس على الله أن لا يعذبهم، قال: قلتُ: يا رسول الله، ألا أُبشِّر الناسَ؟ قال: دعهم يعملون»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ برًّا بهما وعطفًا عليهما ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: أحسنُوا بذي القربى ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنَّةِ هكذا، وأشار بالسَّبابة والوُسْطَى وفرَّج بينهما شيئًا»[٣].

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَسَحَ رأسَ يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شَعْرَةٍ تمرُّ عليها يَدُهُ حسناتٌ، ومن أحسنَ إلى يتيمة أو يتيمٍ عنده كنت أنا وهو في الجنة كَهَاتين وَقَرَن بين أُصبعيه»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: ذِي القَرابة ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ أي: البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله، إنَّ لي جارين فإلى أيِّهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك بابًا»[٥].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرنَّ مِنَ المعروفِ شيئًا ولو أن تلقَى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ، وإذا طَبَخْتَ مرقةً فأكثرْ ماءَها واغرفْ لجيرانك منها»[٦].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زالَ جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سَيُوَرِّثُه»[٧].

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر ـ قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعةٌ

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٨/ ٣٢٠ - ٣٢١)، والشافعي في «الأم»: (٥/ ١٧٧)، وقال: حديث علي ثابت عندنا، وأخرجه البيهقي في «السنن»: (٧/ ٣٠٥ - ٣٠٦)، وإسناده صحيح.
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٨)، ومسلم برقم٤٨ - ٥٠: (١/ ٥٨ - ٥٩).
(٣) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٦٣)، ومسلم برقم٢٩٨٣: (٤/ ٢٢٨٧).
(٤) أخرجه أحمد: (٥/ ٢٥٠، ٢٦٥).
(٥) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٤٧).
(٦) أخرجه مسلم برقم٢٦٢٦: (٤/ ٢٠٢٦).
(٧) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٤١)، ومسلم برقم٢٦٢٥: (٤/ ٢٠٢٥).

وعكرمة وقتادة، وقال عليّ وعبد الله والنخعي: هو المرأة تكون معه إلى جنبه، وقال ابن جريج وابن زيد: هو الذي يصحبك رجاء نَفْعِكَ.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: هو المسافر؛ لأنه مُلازمٌ للسبيل، والأكثرون: على أنه الضيف، عن أبي شُريح الخزاعي أنَّ النبي ﷺ قال: «مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُحْسِنْ إلى جاره، ومَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه، ومَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيرًا أو ليصمتْ»[1].

عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ جارَه، ومَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيرًا أو ليصمتْ، ومَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه، جائزته: يومٌ وليلة، والضيافة: ثلاثةُ أيام، وما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحلُّ أن يثوي ـ أي: أن يقيم ـ عنده حتى يُحرِجَه»[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ أي: المماليك أحسنوا إليهم، عن أُم سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنه كان يقول في مرضه: «الصلاةَ ومَا مَلَكَتْ أيمانُكم»[3]، فجعل يتكلم وما يفيض بها لسانه.

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت عليه بُردًا وعلى غلامه بُرْدٌ، فقلتُ: لو أخذت هذا فلبسته كانا حُلَّةً وأعطيته ثوبًا آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أُمه أعجمية فَنِلْتُ منها، فذكرني إلى النبي ﷺ؛ فقال لي: أساببت فلانًا؟ قلتُ: نعم، قال: أَفَنِلْتَ أُمّه؟ قلت: نعم، قال: إنَّك امرؤٌ فيكَ جاهلية، قلتُ: على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن جعل الله أخاه تحت يده فليُطْعِمْهُ ممَّا يأكل، وليُلْبِسْهُ مما يلبس، ولا يُكلفْهُ من العمل ما يغلبه، فإن كلَّفه ما يَغْلبه فليُعِنْهُ عليه»[4].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ المختال: المتكبر، والفَخُور: الذي يفتخر على الناس بغير الحق تكبرًا، ذكر هذا بعدما ذكر من الحقوق؛ لأن المتكبر يمنع الحق تكبرًا.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بُردَين وقد أعجبته نفسُه، خَسَفَ الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[5].

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظرُ الله يومَ القيامة إلى

---

(١) أخرجه مسلم برقم٧٧: (١/ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٤٤٥)، ومسلم برقم٨٤: (١/ ٦٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه: (٢/ ٩٠٠ - ٩٠١)، وأخرجه أحمد: (١/ ٧٨) عن علي رضي الله عنه، وفي: (٣/ ١٧) عن أنس.

(٤) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٦٥)، ومسلم برقم١٦٦١: (٣/ ١٢٨٢ - ١٢٨٣).

(٥) أخرجه البخاري: (١٠/ ٢٥٨)، ومسلم برقم٢٠٨٨: (٣/ ١٦٥٤).

مَنْ جرَّ ثوبه خيلاء»[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ البخل في كلام العرب: منع السائل من فضل ما لديه، وفي الشرع: منع الواجب ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ نزلت في اليهود بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ وكتموها.

قال سعيد بن جبير: هذا في كتمان العلم.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وابن زيد: نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحري بن عمرو كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخالطونهم فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، ولا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعني: المال، وقيل: يعني يبخلون بالصدقة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ نزلت في اليهود، وقال السدي: في المنافقين، وقيل: في مشركي مكة المتفقين على عَدَاوَةِ الرسول ﷺ.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا﴾ صاحبًا وخليلاً ﴿فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ أي: فبئس الشيطان قرينًا.

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ما الذي عليهم، وأيّ شيء عليهم؟ ﴿لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ أدخل ابن عباس يده في التراب ثم نفخ فيها وقال: كل واحد من هذه الأشياء ذرة، والمراد: أنه لا يظلم، لا قليلاً ولا كثيرًا، ونَظْمُهُ: وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا فإن الله لا يظلم، أي: لا يبخس ولا ينقص أحدًا من ثوابِ عمله مثقالَ ذرَّة، وزن ذرة، والذرة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذرّ أجزاء الهباء في الكُوَّة، وكل جزء منها ذرة، ولا يكون لها وزن، وهذا مَثَلٌ، يريد: إن الله لا يظلم شيئًا، كما قال في آية أخرى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤» [يونس: ٤٤].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله لا يظلمُ المؤمن حسنةً: يثاب عليها

(١) أخرجه البخاري: (١٠/٢٥٨)، ومسلم برقم٢٠٨٥: (٣/١٦٥١).

الرزق في الدنيا، ويُجْزَى بها في الآخرة»، قال: «وأمَّا الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُعطَى بها خيرًا»(١).

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خَلَصَ المؤمنون من النار وأمِنُوا، فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشدَّ مجادلة من المؤمنين لربِّهم في إخوانهم الذين أُدخلوا النار، قال: فيقولون: ربَّنا، إخواننا كانوا يُصلون معنا ويصُومون معنا ويحجُّون معنا فأدخلتَهُمُ النارَ، قال: فيقول: اذهبُوا فأخرجُوا مَنْ عَرَفْتُم منهم، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النارُ صورَهم، فمنهم من أخذَتْهُ النارُ إلى أنصافِ ساقيه، ومنهم من أخذَتْه إلى كعبيهِ فيخرجونهم، فيقولون: ربَّنا، قد أخرجنا من أمرتنا، قال: ثم يقول: أخرجوا مَن كان في قلبه وَزْنُ دينار من الإيمان، ثم مَنْ كان في قلبه وزنُ نصفِ دينار، حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرةٍ»، قال أبو سعيد ـ رضي الله عنه ـ: فمَن لم يُصدِّق هذا فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾، قال: فيقولون: ربَّنا، قد أَخْرَجْنَا مَنْ أمرتنا فلم يبقَ في النار أحدٌ فيه خير، ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: شفَعَتِ الملائكةُ، وشَفَعَت الأنبياء، وشَفَعَ المؤمنون، وبقي أرحمُ الراحمين، قال: فيقبض الله قبضةً من النار، أو قال: قبضتين لم يعملوا لله خيرًا قط قدِ احترقُوا حتى صاروا حُممًا فيُؤتَى بهم إلى ماءٍ يقال له: ماء الحياة فيَصب عليهم فينبتُون كما تنبُ الحَبَّةُ في حَمِيلِ السيل، قال: فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم: عُتقاءُ الله، فيُقال لهم: ادْخُلُوا الجنَّةَ فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم، قال: فيقولون: ربَّنا، أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من العالمين، قال: فيقول: فإن لكم أفضل منه، فيقولون: ربَّنا، وما أفضل من ذلك؟ فيقول: «رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبدًا»(٢).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يستخلص رجلاً من أُمَّتي على رُؤوس الخلائق يوم القيامة فينشرُ عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجلٍ مثل مدِّ البصر، ثم يقول الله: أَتُنكر من هذا شيئًا؟ أَظَلَمَكَ كتبتي الحافظُون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فبُهِتَ الرجل، قال: لا يا رب، فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بِطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقول: احضرْ وَزْنَكَ، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقول: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثَقُلت البطاقةُ، قال: فلا يثقل مع اسم الله شيء»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٨٠٨: (٤/ ٢١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم١٨٣: (١٦٧ - ١٧١).

(٣) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣٩٥ - ٣٩٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم٤٣٠٠: (٢/ ١٤٣٧)، وصححه الحاكم على شرط مسلم: (١/ ٦) ووافقه الذهبي، وأحمد: (٢/ ٢١٢).

وقال قومٌ: هذا في الخصوم. ورُوي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوَّلين والآخرين ثم نادى منادٍ: ألا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه، فيفرح المرء أن يذوب له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه، فيأخذ منه وإن كان صغيرًا، ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: «فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ» [المؤمنون: ١٠١]، ويُؤتى بالعبدِ فينادي مُنادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان ابن فلان، فمن كان له عليه حق فليأتِ إلى حقِّه فيأخذه، ويُقال: آتِ هؤلاء حقُوقَهم، فيقول: يا رب من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله عزَّ وجلَّ لملائكته: انظروا في أعماله الصالحة فأعطوهم منها، فإنْ بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة: يا ربَّنا، بقي له مثقال ذرة من حسنة، فيقول: ضعِّفُوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة. ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا»، وإن كان عبدًا شقيًّا قالتِ الملائكة: إلهنا، فنيت حسناته وبقي طالبون؟ فيقول الله عزَّ وجلَّ: خُذوا من سيئاتِهم فأضيفُوها إلى سيئاته، ثم صُكُّوا له صكًّا إلى النار.

فمعنى الآية على هذا التأويل: أن الله لا يظلم مثقال ذرة للخصم على الخصم، بل أخذ له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويُضَعِّفها له، فذاك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ أي: يجعلها أضعافًا كثيرة ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: إذا قال الله تعالى أجرًا عظيمًا فمن يقدر قدره؟

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أُمَّة بشهيد، يعني: نبيّها يشهد عليهم بما عملوا ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ شاهدًا تشهد على جميع الأُمم على من رآه وعلى من لم يره.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عليَّ»، قلتُ: يا رسول الله، أَأَقْرأُ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: «نعم»، فقرأتُ سورةَ النساء حتى إذا أتيتُ هذه الآية «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾» قال: «حَسْبُكَ الآن» فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لو سُويتْ بهمُ الأرضُ وصاروا هم والأرض شيئًا واحدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٥٠)، ومسلم برقم٨٠٠: (١/ ٥٥١).

وقال قتادة وأبو عبيدة: يعني: لو تخرقت الأرض فساخوا فيها وعادوا إليها ثم تسوى بهم، أي: عليهم الأرض.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال عطاء: وَدُّوا لو تُسوى بهم الأرضُ، وأنهم لم يكونُوا كَتمُوا أمرَ محمدٍ ﷺ ولا نَعْته، وقال الآخرون: بل هو كلامٌ مستأنف، يعني: ولا يكتمون الله حديثًا؛ لأن ما عملوا لا يخفَى على الله ولا يقدرون على كتمانه، وقال الكلبي وجماعة: «وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا»؛ لأن جوارحَهم تشهدُ عليهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية، والمراد من السُّكْرِ: السُّكْرُ من الخمر، عند الأكثرين، وذلك أن عبدَ الرحمن بنَ عوف - رضي الله عنه - صنع طعامًا ودَعَا نَاسًا من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوها قبل تحريم الخمر وسَكِرُوا فحضرتْ صلاة المغرب فقدَّمُوا رجلاً ليصلي بهم فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ أعبد ما تعبدون، بحذف «لَآ» هكذا إلى آخر السورة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فكانوا بعد نزول الآية يجتنبون السكر أوقات الصلوات حتى نزل تحريم الخمر[1].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا﴾ يعني: ولا تقربُوا الصلاة وأنتم جُنُبٌ، يقال: رجلٌ جنبٌ وامرأةٌ جنبٌ، ورجالٌ جنبٌ ونساءٌ جنبٌ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ﴾ اختلفوا في معناه، فقالوا: إلا أن تكونوا مسافرين ولا تجدون الماء فتيمَّموا، منعَ الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر، ولا يجد ماء فيصلي بالتيمم.

وقال الآخرون: المراد من الصلاة موضع الصلاة، كقوله تعالى: «وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ» [الحج: ٤٠]، ومعناه: لا تقربُوا المسجدَ وأنتم جنبٌ إلا مجتازين فيه للخروج منه، وذلك أنَّ قومًا من الأنصار كانت أبوابُهم من المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماءَ عندهم ولا ممرَّ لهم إلا في المسجد، فرُخِّص لهم في العُبور.

ولا يجوز للجنب الطوافُ كما لا يجوز له الصلاةُ ولا يجوز له قراءةُ القرآن، عن عمرو بن مرة

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٥٩)، والترمذي: (٨/ ٣٨٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

قال: سمعت عبد الله بنَ سلمة يقول: دخلتُ على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فقال: «كان رسول الله ﷺ يقضي الحاجةَ ويأكلُ معنا اللَّحم ويقرأُ القرآنَ، وكان لا يَحْجُبُه أو لا يحجزه عن قراءة القرآن شيء إلا الجنابة»[(١)].

وغُسل الجنابة يجب بأحد الأمرين: إما بنزول المني أو بالتقاء الختانين، لما روي أن أبا موسى الأشعري سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن التقاء الختانين فقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الختانان، أو مَسَّ الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ جمع مريض، وأراد به مريضًا يضره إمساسُ الماء، فإنه يصلي بالتيمم وإن كان الماء موجودًا، وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحًا والبعض جريحًا غسل الصحيح منها وتيمم للجريح؛ عن جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منَّا حجرٌ فشجَّه في رأسه، فاحتلم فسأل أصحابه: هلْ تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلمَّا قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنَّما شفاء العي السؤال، إنَّما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب ـ شك الراوي ـ على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أراد أنه إذا كان في سفر طويلاً كان أو قصيرًا، وعُدم الماءُ فإنه يصلي بالتيمم ولا إعادة عليه، لِمَا رُوي عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الصَّعيدَ الطَّيبَ وضوءُ المسلم وإن لم يجدِ الماءَ عَشْرَ سنين، فإذا وَجَدَ الماءَ فليمسّه بَشَرَهُ»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أراد به إذا أحدث، والغائط: اسم للمطمئن من الأرض، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكُنِّي عن الحدث بالغائط ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

واختلفوا في معنى اللَّمس والمُلاَمسة، فقال قوم: المجامعة.

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ١٥٦)، والترمذي: (١/ ٤٥٣، ٤٥٤)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي: (١/ ١٤٤)، وابن ماجه رقم٥٩٤: (١/ ١٩٥)، والحاكم: (٤/ ١٠٧) وصححه ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: (١/ ٨).

(٢) أخرجه الشافعي في «المسند»: (١/ ٣٨ - ترتيب مسند الإمام)، وأصل الحديث مطولاً عند مسلم برقم٣٤٩: (١/ ٢٧١ - ٢٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود: (١/ ٢٠٨) عن جابر، وفيه الزبير عن خريق ـ مصغرًا ـ مولى عائشة: ليِّن الحديث، من الخامسة. «تقريب».
وأخرجه ابن ماجه برقم٥٧٢: (١/ ١٨٩) عن ابن عباس بنحوه. قال في «الزوائد»: إسناده منقطع.

(٤) أخرجه أبو داود: (١/ ٢٠٥ - ٢٠٦)، والترمذي: (١/ ٣٨٧ - ٣٨٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: (١/ ١٧١)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ١٧٦ - ١٧٧) وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد: (٥/ ١٤٦، ١٤٧).

وقال قوم: هما التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع.

واختلف الفقهاء في حكم الآية، فذهب جماعة إلى أنه إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما، ينتقض وضوؤهما.

وقال قوم: إن كان اللَّمس بشهوة نقض الطهر، وإن لم يكن بشهوة فلا ينتقض.

وقال قوم: لا ينتقض الوضوءُ باللَّمس بحال.

وقال قوم: لا ينتقض إلا أن يحدثَ الانتشار.

واحتج من لم يوجب الوضوءَ باللَّمس بما روي عن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ أنها قالت: كنتُ أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضتُ رجليَّ وإذا قام بسطتُهما، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح(١).

عن محمد بن إبراهيم التيمي أن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ قالت: كنتُ نائمةً إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته من الليل فلمستُه بيدي فوضعتُ يدي على قدميه وهو ساجد وهو يقول: «أعوذُ برضاكَ من سخطك، وبمعافاتكِ من عُقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

واختلف قول الشافعي - رضي الله عنه - فيما لو لمس امرأة من محارمه كالأُم والأخت أو لمس أجنبية صغيرة، أصح القولين أنه لا ينقض الوضوء؛ لأنها ليست بمحل الشهوة كما لو لمس رجلاً.

واختلف قوله في انتقاض وضوء الملموس على قولين، أحدهما: ينتقض لاشتراكهما في الالتذاذ كما يجب الغسل عليهما بالجماع، والثاني: لا ينتقض؛ لحديث عائشة - رضي الله عنها - حيث قالت: فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد.

ولو لمس شعر امرأةٍ أو سِنِّها أو ظفرها لا ينتقض وضوؤه عنده.

واعلم أن المُحْدِث لا تصح صلاتُه ما لم يتوضأ إذا وجد الماء، أو يتيمم إذا لم يجد الماء. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقبل صلاةُ أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»(٣).

والحَدَثُ هو خروج الخارج من أحد الفرجين عَيْنًا كان أو أثرًا، والغلبة على العقل بجنون أو إغماء على أي حال كان، وأمَّا النوم فمذهب الشافعي - رضي الله عنه - أنه يوجب الوضوء إلاَّ أن ينام قاعدًا متمكنًا فلا وضوء عليه، لِمَا روي عن أنس - رضي الله عنهما - قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العِشَاءَ فينامُون، أحسبُه قال: قعودًا حتى تَخْفِقَ رُؤُوسُهم ثم يُصلون

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٥٨٨)، ومسلم برقم٥١٢: (١/ ٣٦٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم٤٨٦: (١/ ٣٥٢).
(٣) أخرجه البخاري: (١/ ٢٣٤)، ومسلم برقم٢٢٥: (١/ ٢٠٤).

ولا يتوضؤون[(١)].

وذهب قوم إلى أن النوم يُوجب الوضوءَ بكل حال، وهو قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وعائشة ـ رضي الله عنها ـ، وذهب قوم إلى أنه لو نام قائمًا أو قاعدًا أو ساجدًا فلا وضوء عليه حتى ينام مضطجعًا.

واختلفوا في مس الفرج من نفسه أو من غيره، فذهب جماعة إلى أنه يُوجب الوضوءَ، وكذلك المرأة تَمَسُّ فرجَها، غير أن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا ينتقض إلا أن يمس ببطن الكف أو بطون الأصابع.

واحتجوا بما روي عن عروة بن الزبير قال: دخلتُ على مروان بن الحكم فذكرنا ما يكون منه الوضوء، فقال مروان: منْ مَسِّ الذكر الوضوء، فقال عروة: ما علمتُ ذلك، فقال مروان: أخبرتني بُسرةُ بنت صفوان أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا مسَّ أحدُكم ذكره فليتوضأ»[(٢)].

وذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوء.

واحتجوا بما رُوي عن طلق بن علي ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ سُئل عن مسِّ الرجلِ ذكرَه، فقال: «هلْ هو إلاَّ بضعةٌ منك»؟ ويُروى: «هل هو إلا بضعة أو مضغة منه»[(٣)].

ومن أوجب الوضوء منه قال: هذا منسوخ بحديث بُسرة؛ لأن أبا هريرة يروي أيضًا: أنَّ الوضوء من مسِّ الذكر، وهو متأخِّر الإسلام، وكان قدوم طلق بن علي على رسول الله ﷺ أول زمن الهجرة حين كان يبني المسجد.

واختلفوا في خروج النجاسة من غير الفرجين بالفصد والحجامة وغيرهما من القيء ونحوه، فذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوءَ.

وذهبت جماعة إلى إيجاب الوضوء بالقيء والرعاف والفَصْد والحِجَامة.

واتفقوا على أن القليل منه وخروج الريح من غير السبيلين لا يُوجبُ الوضوءَ، ولو أوجبَ الوضوءَ كثيره لأوجب قليلُه كالفرج.

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ اعلم أن التيمم من خصائص هذه الأُمة، رَوى حُذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا على الناس بثلاثٍ: جُعِلَتْ صفوفُنا كصُفوف الملائكة، وجُعلتْ لنا الأرض كلها مسجدًا، وجُعلتْ تُربتُها لنا طهورًا إذا لم نجدِ الماء»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٣٧٦: (١/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ١٣١)، والترمذي: (١/ ٢٧٠ - ٢٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي: (١/ ١٠٠)، وابن ماجه برقم٤٧٩: (١/ ١٦١)، ومالك: (١/ ٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود: (١/ ١٣٣)، وأخرجه الترمذي: (١/ ٢٧٤)، والنسائي: (١/ ١٠١)، وابن ماجه برقم٤٨٣: (١/ ١٦٣). وقد صحح الحديث: الدارقطني والطحاوي.

(٤) أخرجه مسلم برقم٥٢٢: (١/ ٣٧١).

وكان بدء التيمم ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنَّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطعَ عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على الْتِمَاسِه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناسُ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: أحبستِ رسولَ الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء، قالت: فعاتبني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله تعالى آية التيمم «فَتَيَمَّمُواْ» فقال أسيد بن حُضَيْر وهو أحد النقباء: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فبعثنا البعيرَ الذي كنت عليه فوجدنا العقدَ تحتَهُ[1].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنها استعارتْ من أسماءَ قِلادةً فهلكت: فأرسل رسول الله ﷺ ناسًا من أصحابه في طلبها فأدركتْهم الصلاةُ فصلوا بغير وضوء، فلمَّا أتوا النبي ﷺ شكوا ذلك إليه، فنزلت آية التيمم، فقال أُسيد بن حضير: جزاك الله خيرًا، فوالله ما نزل بك أمر قط إلاَّ جعل الله لك منه مخرجًا وجعل للمسلمين فيه بركة[2].

﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ أي: اقْصُدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: ترابًا طاهرًا نظيفًا، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الصعيدُ هو التراب.

واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم؛ فذهب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ إلى أنه يختص بما يقع عليه اسم التراب مما يعلق باليد منه غبار؛ لأن النبي ﷺ قال: «وجُعلتْ تُربتُها لنا طهورًا»[3].

وجوَّز أصحاب الرأي التيمم بالزرنيخ والجص والنُّوْرة وغيرها من طبقات الأرض، حتى قالوا: لو ضرب يديه على صخرة لا غبار عليها أو على التراب، ثم نفخ فيه حتى زال كله، فمسح به وجهه ويديه صحَّ تيممُه، وقالوا: الصعيد وجهُ الأرض، لِمَا رُوي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[4].

وهذا مجمل، وحديث حذيفة في تخصيص التراب مفسَّر، والمفسَّر من الحديث يقضي على المُجمل.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٤٣١)، ومسلم برقم٣٦٧: (١/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٤٤٠)، ومسلم برقم٣٦٧: (١/ ٢٧٩).

(٣) قطعة من حديث مسلم برقم٥٢٢: (١/ ٣٧١).

(٤) أخرجه البخاري: (١/ ٤٣٥ - ٤٣٦)، ومسلم برقم٥٢١: (١/ ٣٧٠).

وجوَّز بعضهم التيمم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات ونحوهما، وقال: إن الصعيد اسم لِمَا تصاعد على وجه الأرض.

والقصد إلى التراب شرطٌ لصحة التيمم؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ والتيمم: القصد، حتى لو وقف في مهب الريح فأصابَ الغبارُ وجهَهُ ونَوى لم يصح.

قوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمم، واختلفوا في كيفيته: فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المرفقين، بضربتين، يضرب كفيه على التراب فيمسح جميع وجهه، ولا يجب إيصال التراب إلى ما تحت الشعور، ثم يضربه ضربةً أُخرى فيمسح يديه إلى المرفقين؛ لِمَا روي عن أبي الصمة قال: مررتُ على النبي ﷺ وهو يبول فسلمت عليه، فلم يردَّ عليَّ حتى قام إلى جدار فحته بعصًا كانت معه، ثم وضع يديه على الجدار، فمسح وجهه وذراعيه ثم ردَّ عليَّ»[١]، ففيه دليلٌ على وجوب مسح اليدين إلى المرفقين كما يجب غسلهما في الوضوء إلى المرفقين، ودليلٌ على أن التيمم لا يصح ما لم يعلق باليد غبار التراب؛ لأنَّ النبي ﷺ حتَّ الجدارَ بالعصا، ولو كان مجرد الضرب كافيًا لما حَتَّه.

وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين؛ لِما رُوي عن عمار أنه قال: تَيَمَّمْنَا إلى المناكب. وذلك حكاية فعله لم ينقله عن النبي ﷺ، كما رُوي أنه قال: أجنبتُ فتمعكتُ في التراب، فلمَّا سأل النبي ﷺ أمره بالوجه والكفين.

وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين، واحتجوا بما روى عبد الرحمن بن أبزى، قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: إني أجنبتُ فلم أصب الماء، فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر أنَّا كنَّا في سفرٍ أنا وأنتَ، فأمَّا أنتَ فلم تصلِّ، وأمَّا أنا فتمعكتُ فصليتُ فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنما كان يكفيك هكذا، فضرب النبي ﷺ بكفيه الأرضَ ونفخَ فيهما، ثم مسحَ بهما وجهَهُ وكفيه»[٢].

وفي الحديث دليلٌ على أن الجنب إذا لم يجد الماء يصلي بالتيمم.

وذهب عمر وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ إلى أن الجنب لا يصلي بالتيمم بل يؤخر الصلاة إلى أن يجد الماء فيغتسل، وحملا قوله تعالى: «أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ» على اللمس باليد دون الجماع، وحديث عمار ـ رضي الله عنه ـ حجة، وكان عمر نسي ما ذَكَرَ له عمارٌ فلم يقنع بقوله. ورُوي أن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ رجع عن قوله وجوَّز التيمم للجنب، والدليل عليه أيضًا: عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ أمر رجلاً كان جنبًا أن يتيمم، ثم يصلي فإذا وجدَ الماءَ اغتسلَ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٤٤١)، ومسلم برقم٣٦٩: (١/ ٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٤٤٣)، ومسلم برقم٣٦٨: (١/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري: (١/ ٤٤٧ - ٤٤٨)، ومسلم مطولاً برقم٦٨٢: (١/ ٤٧٤ - ٤٧٦).

عن أبيّ - رضي الله عنه - قال: اجتمعت غنيمةٌ من الصدقة عند رسول الله ﷺ فقال: يا أبا ذر ابْدُ فيها، فبدوت إلى الربذة وكانت تصيبني الجنابة فأمكث الخمس والست، فأتيت رسولَ الله ﷺ فقال: «الصعيدُ الطيبُ وضوءُ المسلم ولو إلى عشر سنين، فإذا وجدت الماءَ فأمسّه جلدك فإنَّ ذلك خير»[1].

ومسح الوجه واليدين في التيمم، تارة يكون بدلاً من غسل جميع البدن في حق الجنب والحائض والنفساء والميت، وتارة يكون بدلاً عن غسل الأعضاء الأربعة في حق المحدث، وتارة يكون بدلاً عن غسل بعض أعضاء الطهارة، بأن يكون على بعض أعضاء طهارته جراحةٌ لا يمكنه غسل محلها، فعليه أن يتيمم بدلاً عن غسله.

ولا يصح التيمم لصلاة الوقت إلا بعد دخول الوقت، ولا يجوز أن يجمع بين فريضتين بتيمم واحدٍ؛ لأن الله تعالى قال: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ» [المائدة: ٦]، إلى أن قال: «فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا» ظاهر الآية يدل على وجوب الوضوء أو التيمم إذا لم يجد الماء عند كل صلاة، إلا أن الدليل قد قام في الوضوءِ فإن النبي ﷺ صلى يوم فتح مكة الصلوات بوضوءٍ واحد[2]، فبقي التيمم على ظاهره.

وذهب جماعة إلى أن التيمم كالطهارة بالماء يجوز تقديمه على وقت الصلاة، ويجوز أن يصلي به ما شاء من الفرائض ما لم يُحدث.

واتفقوا على أنه يجوز أن يصلي بتيمم واحد مع الفريضة ما شاء من النوافل، قبل الفريضة وبعدها، وأن يقرأ القرآن إن كان جنبًا، وإن كان تيممه بعذر السفر وعدم الماء فيشترط طلب الماء، وهو أن يطلبه من رحله ورفقائه.

وإن كان في صحراء لا حائل دون نظره ينظر حَوَالَيْه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تَلٍّ أو جدار عدل عنه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ ولا يُقال: لم يجد الماء: إلا لمن طلب.

وعند أبي حنيفة - رضي الله عنه -: طلب الماء ليس بشرط، فإن رأى الماءَ ولكن بينه وبين الماء حائل من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه، أو كان الماء في البئر وليس معه آلة الاستقاء، فهو كالمعدوم، يصلي بالتيمم ولا إعادة عليه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ٢٠٥ - ٢٠٦)، والترمذي مختصرًا في الطهارة: (١/ ٣٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ١٧٦ - ١٧٧) ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: «صحيح الإمام مسلم» برقم٢٧٧: (١/ ٢٣٢).

عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود المدينة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم، كانا إذا تكلَّم رسول الله ﷺ لَوَّيا بألسنتهما وعابَاهُ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يعني: بالهدى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: عن السبيل يا معشر المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ منكم، فلا تستنصِحُوهم فإنهم أعداؤكم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ قال الزجَّاج: معناه: اكتفُوا بالله وليًّا، واكتفُوا بالله نصيرًا.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيل: هي متصلة بقوله: «أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ» «مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ»، وقيل: هي مستأنفة، معناه: من الذين هادُوا مَنْ يُحرِّفون، كقوله تعالى: «وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ» [الصافات: ١٦٤]، أي: مَنْ له مقام معلوم، يُريدُ: فريقٌ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ يُغيِّرُونَ الكَلِمَ ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يعني: صفة محمد ﷺ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت اليهود يأتون رسولَ الله ﷺ ويسألونه عن الأمر فيُخبرهم، فيرى أنهم يأخذون بقوله، فإذا انصرفُوا من عنده حرَّفُوا كلامَه ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ أمرَك ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أي: اسمعْ منَّا ولا نسمع منك. أي: غير مقبول منك، وقيل: كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمعْ، ثم يقولونَ في أنفسهم: لا سمعت ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أي: غير مقبول منك، وقيل: كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمعْ، ثم يقولونَ في أنفسهم: لا سمعت ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي: ويقولون: راعِنَا، يُريدُونَ به: النسبة إلى الرُّعونة ﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ تحريفًا ﴿وَطَعۡنٗا﴾ قدحًا ﴿فِي ٱلدِّينِۚ﴾ أن قوله: «وَرَٰعِنَا» من المُراعاة، وهم يُحرِّفونه، يُريدون به: الرُّعونة ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا﴾ أي: انظر إلينا مكان قولهم رَاعِنا ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ﴾ أي: أعدَل وأصوَب ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إلا نفرًا قليلاً منهم، وهو عبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يُخاطب اليهود ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعني: التوراة، وذلك أنَّ النبي ﷺ كلَّم أحبار اليهود: فقال: «يا معشر

اليهود، اتقُوا الله وأسلموا، فوالله إنَّكم لتعلمون أنَّ الذي جِئْتُكم به لحق»، قالوا: ما نعرف ذلك، وأصرُّوا على الكفر، فنزلت هذه الآية(١).

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ قال ابن عباس: نجعلها كخف البعير، وقال قتادة والضحاك: نُعميها، والمراد بالوجه العين ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي: نطمسُ الوجه فنرده على القفا، وقيل: نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة؛ لأن منابت شعور الآدميين في أدبارهم دون وجوههم، وقيل: معناه نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب فنجعلها كالأقفاء، وقيل: نجعل عينيه على القفا فيمشي قهقرى.

رُوي أن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - لَمَّا سَمِعَ هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله، ويده على وجهه، وأسلم وقال: يا رسول الله، ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي، وكذلك كعب الأحبار لَمَّا سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر - رضي الله عنه - فقال: يا رب آمنتُ، يا رب أسلمتُ، مخافة أن يصيبَهُ وَعِيدُ هذه الآية.

وأصل الطمس: المحو والإفساد والتحويل، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾ فنجعلهم قردة وخنازير ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه؛ وذلك أنه لَمَّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يُعتق فلم يُوَفَّ له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه؛ فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: أنَّا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ» [الفرقان: ٦٨]، وقد دعونا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرَّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: «قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ» [الزمر: ٥٣]، فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلتَ حمزة؟ فلمَّا أخبره قال: «ويحك غيِّب وجهك عني»، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات.

وقال أبو مجلز عن ابن عمر - رضي الله عنهما - لَمَّا نزلت: «قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...» الآية، قام رجل فقال: والشرك يا رسول الله، فسكتَ ثم قام إليه مرتين أو ثلاثًا فنزلت: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ».

وقال مُطرف بن عبد الله بن الشخير: قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: كنَّا على عهد محمد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ» فأمسكنا عن الشهادات.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٢٤٩ - ٢٥٠).

حُكي عن علي - رضي الله عنه - أن هذه الآية أرجى آية في القرآن «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ»[١].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾ اختلق ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: «مَنْ ماتَ لا يُشركُ بالله شيئًا دخل الجنة، ومَنْ ماتَ يشركُ بالله شيئًا دخل النار»[٢].

عن أبي ذر قال: أتيت النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما مِنْ عبدٍ قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلاَّ دخل الجنة» قلتُ: وإنْ زنى وإنْ سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق»، قلتُ: وإنْ زنى وإنْ سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق»، قلتُ: وإنْ زنى وإنْ سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق على رَغْمِ أنفِ أبي ذر»، وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإنْ رغم أنف أبي ذر[٣].

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في رجال من اليهود، أتوا بأطفالهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال: لا، قالوا: ما نحن إلا كهيئتهم، ما عَمِلْنَا بالنهار يُكفَّر عنَّا بالليل، وما عَمِلْنَا بالليل يُكفَّر عنا بالنهار، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد وعكرمة: كانوا يُقَدِّمون أطفالهم في الصلاة، يزعمون أنهم لا ذنوب لهم، فتلك التزكية.

وقال الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل: نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه «وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١][٤]، وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: هو تزكية بعضهم لبعض.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٣٩٩ - ٤٠٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه مسلم برقم٩٣: (١/ ٩٤).

(٣) أخرجه البخاري: (١٠/ ٢٨٣)، ومسلم برقم٩٤: (١/ ٩٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير»: (١/ ١٦٥) عن الحسن، وعزاه ابن حجر لعبد بن حميد عن قتادة. «العجاب»: (٢/ ٨٨٤).

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي﴾ أي: يُطهر ويُبرّىء من الذنوب ويُصلح ﴿مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهو اسمٌ لِمَا في شِقِّ النَّواة، والقطمير: اسم للقشرة التي على النَّواة، والنقير: اسم للنقطة التي على ظهر النَّواة.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يختلقون على الله ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في تغييرهم كتابه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بالكذب ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ اختلفوا فيهما؛ فقال عكرمة: هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله، وقال أبو عبيدة: هما كل معبودٍ يُعبد من دون الله، «أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ» [النحل: ٣٦]، وقال عمر: الجِبْتُ: السحر، والطاغُوت: الشيطان.

عن قَطَن بن قُبيصة، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرَةُ مِنَ الجِبْتِ»(١).

«وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا» قال أبو سفيان لكعب: إنَّك امرؤٌ تقرأ الكتاب، وتعلم ونحن أُمِّيُّون لا نعلم، فأينا أهدَى طريقة، نحنُ أم محمد؟

قال كعب: اعرضُوا عليَّ دينكم.

فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونُعمِّر بيتَ ربِّنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننُا القديم ودينُ محمد الحديث.

فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني: كعبًا وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أبي سفيان وأصحابه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ محمد ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - ﴿سَبِيلًا﴾ دينًا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٣٧٣)، وسكت عنه المنذري، وعزاه للنسائي وأحمد في «المسند»: (٣/ ٤٧٧) عن قبيصة، و(٥/ ٦٠)، وعبد الرزاق في «المصنف»: برقم١٩٥٠٢ . وحسَّنه النووي.

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ يعني: أَلَهُم؟ ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ ﴿مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ وهذا على جهة الإنكار، يعني: ليس لهم من الملك شيء، ولو كان لهم من الملك شيء ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ لحسدهم وبخلهم، والنقير: النقطة التي تكون في ظهر النَّواة ومنها تنبت النخلة.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: اليهود، ويحسدون الناس: على ما أكرمهم الله تعالى بمحمد ﷺ، وقيل: أراد محمدًا ﷺ وأصحابه، ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقيل: حسدوه على النُّبوة، وهو المراد من الفضل المذكور في الآية ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أراد بآل إبراهيم: داود وسليمان، وبالكتاب: ما أنزل الله عليهم، وبالحكمة: النبوة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ يعني: بمحمد ﷺ، ومنهم عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أعرضَ عنه ولم يُؤمن به ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وقودًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ نُدخلهم نارًا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ احترقت ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ غير الجلود المحترقة.

ورُوي أنَّ هذه الآية قُرِئتْ عند عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ للقارىء: أعدها فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل، فقال معاذ: عندي تفسيرها: تُبدَّل في ساعة مائةَ مرة، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: هكذا سمعت رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ كنينًا لا تنسخه الشمس ولا يُؤذيهم حرٌّ ولا بردٌ.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار، وكان سَادِنَ الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان بابَ البيت وصَعَدَ السطح فطلبَ رسولُ الله ﷺ المفتاحَ، فقيل: إنه مع عثمان، فطلبه منه رسول الله ﷺ فأبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه المفتاحَ، فَلَوَى عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يَدَهُ فأخذ منه المفتاحَ وفتح البابَ فدخلَ رسول الله ﷺ البيتَ وصلَّى فيه ركعتين، فلمَّا خرج سأله العباس

المفتاح أن يعطيه، ويجمع له بين السِّقاية والسِّدَانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ أن يردَّ المفتاحَ إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك عليّ ـ رضي الله عنه ـ، فقال له عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وكان المفتاح معه، فلمَّا مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد من الآية جميع الأمانات. عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كلَّما خطَبَنا رسولُ الله ﷺ قال: «ألاَ لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾ أي: نعم الشيء الذي ﴿يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ عن عمرو بن أوس أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند الله على منابرَ من نُورٍ على يمين الرحمن، وكِلتَا يديهِ يمين، هم الذين يَعْدِلُون في حكمهم وأهليهم ومَا وَلُوا»[2].

عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الناسِ إلى الله يومَ القيامةِ وأقربهم منه مجلسًا إمامٌ عادلٌ، وإنَّ أبغضَ الناس وأشدَّهم عذابًا إمامٌ جائرٌ»[3].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ اختلفوا في «أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ»، قال ابن عباس وجابر ـ رضي الله عنهم ـ: هم الفقهاء والعلماء الذين يعلِّمون الناس معالمَ دينهم، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد، ودليلُه قوله تعالى: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ» [النساء: ٨٣].

وقال أبو هريرة: هم الأُمراء والولاة.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقٌّ على الرعية أن يسمعوا ويُطيعوا.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطعِ الأميرَ فقد أطعاني، ومَنْ يعصِ الأميرَ فقد عصاني»[4].

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ﷺ قال: «السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلم فيما أحبَّ وكَرِه ما لم يُؤمرْ بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[5].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (٣/ ١٣٥، ١٥٤)، وفي «السنة». أيضًا: ص٩٧ .

(٢) أخرجه مسلم برقم١٨٢٧ : (٣/ ١٤٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي: (٤/ ٥٥٩ - ٥٦٠)، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأحمد: (٣/ ٢٢، ٥٥).

(٤) أخرجه البخاري: (٦/ ١١٦)، ومسلم برقم١٨٣٥ : (٣/ ١٤٦٦).

(٥) أخرجه البخاري: (١٣/ ١٢١)، ومسلم برقم١٨٣٩ : (٣/ ١٤٦٩).

عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمعِ والطاعةِ في اليُسر والعُسرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَه، وعلى أثَرَةٍ علينا، وعلى أنْ لا نُنَازِعَ الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنَّا لا نخاف في الله لَوْمَةَ لائم»[1].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «اسمَعْ وأطِعْ ولو لعبدٍ حبشي كأن رأسه زبيبة»[2].

عن سليم بن عامر قال: سمعتُ أبا أُمامة ـ رضي الله عنه ـ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب في حَجَّةِ الوَدَاع فقال: «اتَّقُوا الله، وصَلُّوا خمسكم، وصُومُوا شهرَكم، وأدُّوا زكاةَ أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم؛ تدخلُوا جنَّة ربِّكم»[3].

وقيل: المراد أُمراء السرايا، عن ابن عباس في قوله تعالى: «﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾»، قال: نزلتْ في عُبيد الله بن حُذافة بن قيس بن عدي إذْ بعثه النبي ﷺ في سرية[4].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ أي: اختلفتم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمر دينكم، والتنازع: اختلاف الآراء، وأصله من النزع، فكأنَّ المتنازعين يتجاذبان ويتمانعان ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: إلى كتاب الله، وإلى رسوله ما دام حيًّا، وبعد وفاته إلى سُنَّته، والردّ إلى الكتاب والسنة واجبٌ إن وُجد فيهما، فإن لم يُوجد فسبيله الاجتهاد، وقيل: الردُّ إلى الله تعالى والرسول أن يقول لِمَا لا يعلم: الله ورسولُه أعلم ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ﴾ أي: الردُّ إلى الله والرسول ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسنُ مآلاً وعاقبة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٥)، (١٣/ ١٩٢)، ومسلم برقم١٧٠٩ : (٣/ ١٤٧٠).
(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ١٨٨)، ومسلم برقم١٨٣٧ : (٣/ ١٤٦٧).
(٣) أخرجه الترمذي: (٣/ ٢٣٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد: (٥/ ٢٥١)، وإسناده حسن.
(٤) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٥٣)، ومسلم برقم١٨٣٤ : (٣/ ١٤٦٥).

﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآية، قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عُرف أنه لا يأخذ الرِّشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرِّشوة ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت هذه الآية.

﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ أي: يُعرضون عنكَ إعراضًا.

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ هذا وعيد، أي: فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني: عقوبةَ صدودِهم، وقيل: هي كل مُصيبة تُصيب جميع المنافقين في الدنيا والآخرة، تمَّ الكلام هاهنا، ثم عاد الكلام إلى ما سبق، يُخبر عن فعلهم فقال: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ يعني: يتحاكمون إلى الطاغوت «ثُمَّ جَآءُوكَ».

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ ما أردنا ﴿إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ قال الكلبي: إلاَّ إحسانًا في القول، وتوفيقًا: صوابًا، وقال ابن كيسان: حقًّا وعدلاً، نظيره: «وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ» [التوبة:١٠٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ مِنَ النفاق، أي: علم أنَّ ما في قلوبهم خلاف ما في ألسنتِهم ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: عن عُقوبتهم، وقيل: «فَأَعۡرِضۡ» عن قبول عذرهم، «وَعِظۡهُمۡ» باللسان «وَقُل لَّهُمۡ» قولاً بليغًا، وقيل: هو التخويف بالله، وقيل: أن توعدهم بالقتل إن لم يتوبوا، قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قُتلتم؛ لأنه يبلغ في نفوسهم كل مبلغ، وقال الضحاك: «فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ» في الملأ ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ في السِّرِّ والخلاء.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بأمر الله؛ لأنَّ طاعة الرسول وجبت بأمر الله، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بتحاكمهم إلى الطَّاغوت ﴿جَآءُوكَ

﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية. عن عروة بن الزبير: أنَّ الزبير ـ رضي الله عنه ـ كان يحدِّث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا إلى رسول الله ﷺ في شراج[1] مِنَ الحرة كانا يسقيان به كلاهما؛ فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبير، ثم أرسل إلى جارك»، فغضب الأنصاري، ثم قال: يا رسول الله، أنْ كان ابن عمتِّك؟ فتلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ، ثم قال للزبير: «اسقِ ثم احبس الماءَ حتى يبلغ الجدر»، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقَّه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد به سعةً له وللأنصاري، فلمَّا أَحْفَظَ الأنصاريُّ رسولَ الله ﷺ استوعى للزبير حقَّه في صريح الحكم. قال عروة: قال الزبير: والله، ما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...»[2] الآية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا﴾ أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثمَّ لا يرضون بحكمك، ثم استأنف القَسَم ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، أي: يجعلوك حكمًا ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: اختلف واختلط من أُمورهم والْتَبَس عليهم حُكمه، ومنه الشجر لالْتِفَافِ أغصانه بعضها ببعض ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ قال مجاهد: شكًّا، وقال غيره: ضِيقًا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ قال الضحاك: إثمًا، أي: يأثمون بإنكارهم ما قضيت ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: وينقادُوا لأمرك انقيادًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ أي: فرضنا وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كما أمرنا بني إسرائيل ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ معناه: أنَّا ما كتبنا عليهم إلاَّ طاعة الرسول والرضَى بحكمه، ولو كتَبْنا عليهم القتلَ والخروجَ عن الدُّور ما كان يفعله ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

قرأ ابن عامر وأهل الشام ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالنصب على الاستثناء، وكذلك هو في مصحف أهل الشام، تقديره: إلاَّ أن يكون قليلاً منهم، وقيل: إلا نفر قليل فعلوه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من طاعة الرسول والرضى بحكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ تحقيقًا وتصديقًا لإيمانهم.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ ثوابًا وافرًا.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: إلى الصراط المستقيم.

---

(١) الشراج: مجاري الماء من الحرار إلى السهل، واحدها: شرج، والحرة: أرض ذات حجارة سود، وفي المدينة عدد منها.

(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٣٤)، ومسلم برقم٢٣٥٧: (٤/ ١٨٢، ١٨٣).

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية، نزلتْ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما غيَّر لونك»؟ فقال: يا رسول الله، ما بي مرض ولا وجع، غير أني إذا لم أرَكَ اسْتَوْحَشْتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فأخاف أن لا أراك؛ لأنَّك تُرفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنتُ في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا، فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنتَ في الدرجات العُلَى ونحن أسفل منك؟ فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في أداء الفرائض ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ في السنن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم، لا أنَّهم يرفعون إلى درجة الأنبياء ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ وهم أفاضل أصحاب النبي ﷺ، والصِّدِّيق: المبالغ في الصدق ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قيل: هم الذين استشهدوا في يوم أُحد، وقيل: الذين استشهدوا في سبيل الله، وقال عكرمة: النبيون هاهنا: محمد ﷺ، والصديقون: أبو بكر، والشهداء: عمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ سائر الصحابة رضي الله عنهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ يعني: رفقاء في الجنة.

عن أنس أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يحبُّ قومًا ولمَّا يلحق بهم؟ فقال النبي ﷺ: «المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ»(١).

وعنه أيضاً ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها»؟ قال: فلم يذكر كثيرًا، إلا أنه يحب الله ورسوله قال: «فأنت مع مَن أحببت»(٢).

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: بثواب الآخرة، وقيل: بمن أطاع

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٥٥٧)، ومسلم برقم٢٦٤٠: (٤/ ٢٠٣٤).
(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ٥٥٧)، ومسلم برقم٢٦٣٩: (٤/ ٢٠٣٢).

رسول الله وأحبه، وفيه بيان أنهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنَّما نالُوها بفضل الله عزَّ وجلَّ.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَارِبُوا وسَدِّدُوا واعلمُوا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ الله برحمة منه وفضل»[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ من عدوِّكم، أي: عدّتكم وآلتكم من السلاح، والحِذْرُ والحَذَرُ واحد، كالمِثْل والمَثَل والشِّبْهِ والشَّبَهِ ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ اخرُجوا ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: سرايا متفرقين، سرية بعد سرية، والثبات جماعات في تفرقة واحدتها ثبة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين كلكم مع النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ نزلت في المنافقين.

وإنما قال: ﴿مِنكُمْ﴾ لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسبِ وإظهارِ الإسلام، لا في حقيقة الإيمان ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتأخرنَّ، وليتثاقلنَّ عن الجهاد، وهو عبد الله بن أُبيٍّ المنافق، واللام في «لَّيُبَطِّئَنَّ» لام القسم، والتبطئة: التأخر عن الأمر، يقال: ما أبطأ بك؟ أي: ما أخَّرك عنَّا؟ ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: قتلٌ وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقُعود ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضرًا في تلك الغزاة فيصيبني ما أصابهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المنافق، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ متصل بقوله: «فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ»، تقديره: فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدًا، كأنْ لم تكنْ بينكُمْ وبينَهُ مَوَدَّةٌ، أي: معرفة.

﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ في تلك الغزاة ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: آخذ نصيبًا وافرًا من الغنيمة.

۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٩٣)، ومسلم برقم١٨١٦ : (٤/ ٢١٧٠).

لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ قيل: نزلت في المنافقين، ومعنى يشرون أي: يشترون، يعني: الذين يختارون الدنيا على الآخرة، معناه: آمنوا ثم قاتلوا، وقيل: نزلت في المؤمنين المخلصين، معناه: فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون، أي: يبيعُون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارون الآخرة ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ يعني: يستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ يظفر ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في كلا الوجهين ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تَكَفَّلَ الله لمنْ جاهدَ في سبيله لا يُخْرجُهُ من بيتِه إلاَّ الجهادُ في سبيلِه وتصديق كلمتِه أن يُدخلَه الجنة، أو يرجعَه إلى مسكنِه الذي خرجَ منه مع ما نالَ من أجرٍ وغنيمة»(١).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ المجاهدِ في سبيلِ الله كمثلِ القانتِ الصائمِ الذي لا يفترُ من صلاةٍ ولا صيامٍ حتى يَرجعَه الله إلى أهلِه بما يرجعُه من غنيمةٍ وأجرٍ، أو يتوفاه فيُدخله الجنة»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ لا تجاهدون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله، يعاتبهم على ترك الجهاد ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: عن المستضعفين، وقال ابن شهاب: في سبيل المستضعفين لتخليصهم، وقيل: في تخليص المستضعفين من أيدي المشركين، وكان بمكة جماعة ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يلْقون من المشركين أذًى كثيرًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يَدْعُون و﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ يعني: مكة، «ٱلظَّالِمِ» أي: المشرك، «أَهْلُهَا» يعني: القرية التي من صفتها أن أهلها مشركون، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: من يلي أمرنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي: من يمنع العدوَّ عنَّا.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعته ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: في طاعة الشيطان ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: حِزْبَه وجنودَه وهم الكفار ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مَكْرَه ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ كما فعل يوم بدر، لمَّا رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون الجمحي وسعد بن أبي وقاص وجماعة كانوا يلقون

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٢٠)، ومسلم برقم١٨٧٦ : (٣/ ١٤٩٦).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٦)، ومسلم برقم١٨٧٨ : (١٤٩٨).

من المشركين بمكة أذًى كثيرًا قبل أن يهاجروا، ويقولون: يا رسول الله، ائذنْ لنَا في قتالهم فإنهم قد آذَوْنا، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «كُفُّوا أيديكم فإني لم أومر بقتالهم».

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ فلمَّا هاجروا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ يعني: يخشون مشركي مكة ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: كخشيتهم من الله ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ أكثر ﴿خَشْيَةً﴾ وقيل: معناه: وأشدّ خشية ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ الجهاد ﴿لَوْلَآ﴾ هلاَّ ﴿أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يعني: الموت، أي: هلا تركتَنا حتى نموت بآجالنا؟

واختلفوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك، قيل: قاله قوم من المنافقين؛ لأن قوله: «لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ» لا يليق بالمؤمنين.

وقيل: قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم، قالوه خوفًا وجُبنًا لا اعتقادًا، ثم تابوا، وأهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَتَٰعُ الدُّنْيَا﴾ أي: منفعتها والاستمتاع بها ﴿قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ﴾ أي: وثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشركَ ومعصية الرسول ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

عن المستورد بن شدَّاد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدُكم أصبعه في اليمِّ فلينظر بِمَ يرجع»(١).

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ أي: ينزل بكم الموت، نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أُحد: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا، فردَّ الله عليهم بقوله: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ»، ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ والبروج: الحصون والقلاع، والمشيَّدة: المرفوعة المطوَّلة، قال قتادة: معناه: في قصورٍ محصنة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين؛ وذلك أنهم قالوا لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة: ما زِلْنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٨٥٨: (٤/ ٢١٩٣).

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: خصب ورخص في السعر ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لنا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني: الجدب وغلاء الأسعار ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: من شؤم محمد وأصحابه، وقيل: المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر، وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: الحسنة والسيئة كلها من عند الله، ثم عيَّرهم بالجهل فقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يعني: المنافقين واليهود ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفقهون قولاً، وقيل: الحديث هاهنا هو القرآن، أي: لا يفهمون معاني القرآن.

قوله: «فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ» قال الفرَّاء: كثرت في الكلام هذه الكلمة حتى توهَّموا أنَّ اللام متصلة بها وأنَّهما حرف واحد؛ ففصلوا اللام ممَّا بعدها في بعضه، ووصلوها في بعضها، والاتصال القراءة، ولا يجوز الوقف على اللام؛ لأنها لام خافضة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ خير ونعمة ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ بليَّةٍ أو أمر تكرهه ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: بذنوبك، والخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، نظيره قوله تعالى: «وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» [الشورى: ٣٠].

«قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ»، ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على إرسالك وصدقك، وقيل: وكفى بالله شهيدًا على أن الحسنة والسيئة كلها من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ كان يقول: «مَنْ أطاعني فقد أطاعَ الله، ومن أحبني فقد أحبَّ الله»، فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربًّا كما اتخذتِ النصارى عيسى ابن مريم ربًّا، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، أي: من يطع الرسول فيما أُمر به فقد أطاع الله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعته ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد، ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظًا ورقيبًا، بل كل أمورهم إليه تعالى.

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يعني: المنافقين يقولون باللسان للرسول ﷺ: إنَّا آمنا بك فَمُرْنا فأمرك طاعة، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ قال قتادة والكلبي: «بَيَّتَ» أي: غيَّر وبدَّل الذي عَهِدَ إليهم النبي ﷺ، ويكون التبييت بمعنى التبديل، ﴿وَٱللَّهُ

﴿يَكۡتُبُ﴾ أي: يُثبتُ ويحفظ ﴿مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ ما يُزَوِّرون ويُغَيِّرون ويقدرون، وقال الضحاك عن ابن عباس: يعني: ما يُسِرُّون من النفاق ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ يا محمد، ولا تعاقبهم، وقيل: لا تُخبرْ بأسمائهم، مُنع الرسول ﷺ من الإخبار بأسماء المنافقين ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: اتخذه وكيلاً، وكفى بالله وكيلاً وناصرًا.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ يعني: أفلا يتفكَّرون في القرآن، والتدبر: هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كلِّ شيء آخره ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ أي: تفاوتًا وتناقضًا كثيرًا، وقيل: «لَوَجَدُواْ فِيهِ»، أي: في الإخبار عن الغيب بما كان وبما يكون اختلافًا كثيرًا، أفلا يتفكرون فيه فيعرفوا ـ بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر ـ أنه كلام الله تعالى؛ لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو من تناقض واختلاف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ وذلك أنَّ النبي ﷺ كان يبعث السرايا، فإذا غَلَبُوا أو غُلِبُوا بادرَ المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيُفشون ويُحدِّثون به قبل أن يُحدِّثَ به رسول الله ﷺ فيُضعفون به قلوبَ المؤمنين؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ﴾ يعني: المنافقين ﴿أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ﴾ أي: الفتح والغنيمة ﴿أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ القتل والهزيمة ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ أشاعوه وأفشوه ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: لو لم يحدثوا به حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ أي: ذوي الرأي من الصحابة، مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ أي: يستخرجونه وهم العلماء، أي: عَلِمُوا ما ينبغي أن يُكتم وما ينبغي أن يُفشَى، والاستنباط: الاستخراج، يريد: الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين، لو ردوه إلى الرسول ﷺ وإلى ذوي الرأي والعلم، لَعلمَه الذين يستنبطونه منهم، أي: يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ كلكم ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فإن قيل: كيف استثنى القليل، ولولا فضله لاتبع الكلُّ الشيطان؟ قيل: هو راجع إلى ما قبله، قيل: معناه: أذاعوا به إلا قليلاً لم يفشه، عني بالقليل: المؤمنين، وهذا قول الكلبي واختيار الفرَّاء، وقال: لأنَّ عِلْمَ السِّرِّ إذا ظهرَ، عَلِمَهُ المستنبطُ وغيرُه، والإذاعة قد تكون في بعض دون بعض، وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً، ثم قوله: «﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾» كلام تام.

وقيل: «فضلُ الله»: الإسلامُ، «ورحمتُه»: القرآن، يقول: لولا ذلك لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً، وهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول ﷺ ونزول القرآن.

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ

﴿مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وَاعَدَ أبا سفيان بعد حرب أُحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، أي: لا تَدَعْ جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك، فإن الله قد وعدك النصرة، وعاتبهم على ترك القتال، ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، أي: حضّهم على الجهاد ورغِّبهم في الثواب، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكبًا فكفاهم الله القتال، فقال جلَّ ذكره ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ أي: لعلَّ الله ﴿أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قتال الذين كفروا المشركين و«عسى» من الله واجب ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي: أشدّ صولة وأعظم سلطانًا ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: عقوبة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب منها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس. وقيل: الشفاعة الحسنة: هي حُسْنُ القول في الناس ينال به الثواب والخير، والسيئة: هي الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر.

وقوله: ﴿كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: من وزرها.

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ إذا جاء رجلٌ يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجهه، فقال: «اشفعُوا لتُؤجروا ليقضي الله على لسان نبيه ما شاء»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مقتدرًا مجازيًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ التحية: هي دعاء الحياة، والمراد بالتحية هاهنا: السلام، يقول: إذا سلَّم عليكم مُسلِّم فأجيبُوا بأحسن منها أو رُدُّوها كما سلَّم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله.

ورُوي عن عمران بن حُصين: أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه، فقال النبي ﷺ: «عشْرٌ»، ثم جاء آخرُ فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه فجلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخرُ فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه فقال: «ثلاثون»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٥٠)، ومسلم برقم٢٦٢٧: (٤/ ٢٠٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود: (٨/ ٦٨ - ٦٩)، والترمذي: (٧/ ٤٦٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، من حديث عمران بن حصين.

واعلمْ أنَّ السلام سنَّة وردُّ السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية، وكذلك السلام سنة على الكفاية، فإذا سلَّم واحدٌ من جماعة كان كافيًا في السنة، وإذا سلَّم واحدٌ على جماعة وردَّ واحدٌ منهم سقط الفرض عن جميعهم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حتى تُؤمنُوا، ولا تُؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَلاَ أدلُّكم على شيء إذا فعلتُمُوه تحاببتم؟ أفشُوا السلام بينكم»[1].

عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «أنْ تُطْعِمَ الطعامَ، وتقرأ السلامَ على من عَرفتَ ومَنْ لم تعرفْ»[2]، ومعنى قوله: أيُّ الإسلام خير؟ يريد: أيُّ خصال الإسلام خير؟

وقيل: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ معناه أي: إذا كان الذي سلَّم مسلمًا ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ بمثلها إذا لم يكن مسلمًا.

عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود إذا سلَّم عليكم أحدهم فإنما يقول: السَّامُ عليكم؛ فقلْ: عليك»[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: على كل شيءٍ مِنْ ردِّ السلام بمثله أو بأحسن منه، «حَسِيبًا»، أي: محاسبًا مجازيًا.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ «اللام» لامُ القسم، تقديره: والله ليجمعنَّكم في الموت وفي القبور ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وسُميت القيامةُ قيامةً؛ لأنَّ الناس يقومُون من قبورهم، وقيل: لقيامهم إلى الحساب، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: قولاً ووَعْدًا.

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ اختلفوا في سبب نُزُولها؛ فقال قوم: نزلت في الذين تخلَّفوا يوم

(١) أخرجه مسلم برقم٥٤: (١/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٥٥)، ومسلم برقم٦٣: (١/ ٦٥).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٢)، ومسلم برقم٢١٦٤: (٤/ ١٧٠٦).

أُحد من المنافقين، فلمَّا رجعُوا قال بعضُ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لرسول الله ﷺ: اقتلهم؛ فإنَّهم منافقون، وقال بعضهم: اعف عنهم؛ فإنهم تكلَّموا بالإسلام.

عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد يحدث عن زيد بن ثابت قال: لمَّا خرج النبي ﷺ إلى أُحد رجع ناسٌ ممن خرج معه وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين، فرقة تقول نقاتلهم، وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ وقال: «إنها طَيْبَةُ تَنفي الذنوبَ كما تنفي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّة»[١].

وقال مجاهد: قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا، ثم ارتدُّوا واستأذنُوا رسول الله ﷺ إلى مكة؛ ليأتوا ببضائع لهم يتَّجِرُون فيها، فخرجوا وأقاموا بمكة، فاختلف المسلمون فيهم، فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون.

﴿فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: صرتم فيهم فئتين، أي: فرقتين ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي: نكَّسهم وردَّهم إلى الكفر ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بأعمالهم غير الزاكية ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾ أي: أنْ تُرشِدُوا ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وقيل: معناه: أتقولون: إنَّ هؤلاء مهتدون وقد أضلَّهم الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: من يضلله الله عن الهدى ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا﴾ تمنَّوا، يعني: أولئك الذين رجعوا عن الدين تمنّوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ في الكفر، أي: وَدُّوا لو تكفرونَ، ووَدُّوا لو تكونون سواء، مثل قوله: «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾» [القلم: ٩]، أي: ودُّوا لو تدهن وودُّوا لو تُدهنون ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معكم.

قال عكرمة: هي هجرة أُخرى، والهجرة على ثلاثة أوجه: هجرة المؤمنين في أوَّل الإسلام، وهي قوله تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» [الحشر: ٨]، وقوله: «وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [النساء: ١٠٠]، ونحوهما من الآيات، وهجرة المنافقين: وهي الخروج في سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابرًا محتسبًا مَنَعَ من موالاتهم حتى يُهاجروا في سبيل الله، وهجرة سائر المؤمنين، وهي ما قاله النبي ﷺ: «المهاجرُ من هَجَرَ ما نَهى الله عنه»[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن التوحيد والهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أي: خذوهم أسارى، ومنه يقال للأسير أخيذ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحِلِّ والحَرَم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ثم استثنى طائفةً منهم فقال:

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٥٦)، ومسلم برقم٢٧٧٦: (٤/ ٢١٤٢).
(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٥٧).

ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة؛ لأنَّ موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال، ومعنى «يَصِلُونَ»، أي: ينتسبون إليهم ويتصلون بهم ويدخلون فيهم بالحِلْفِ والجوار، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: يلجؤون إلى قوم ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: عهد، وهم الأسلميون؛ وذلك أن رسول الله ﷺ وادَع هلالَ بن عويمر الأسلمي قبل خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يُعين عليه، ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم، ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل ما لهلال.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ أي: يتصلون بقوم جاؤوكم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ضاقتْ صدورُهم، يعني: القوم الذين جاؤوكم وهم بنو مدلج، كانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين، وعاهدوا قريشًا أن لا يقاتلوهم، «حَصِرَتْ» ضاقت صدورهم ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ أي: عن قتالكم للعهد الذي بينكم ﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ يعني: مَن أَمِنَ منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ يذكر مِنَّتَهُ على المسلمين بكفِّ بأسِ المعاهدين، يقول: إن ضيق صدورهم عن قتالكم لما ألقى الله في قلوبهم من الرعب وكفهم عن قتالكم، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فَلَقَاتلوكم مع قومهم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي: اعتزلوا قتالكم ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ومن اتصل بهم، ويقال: يوم فتح مكة يقاتلوكم مع قومهم ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الصلح، فانقادُوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا بالقتل والقتال.

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ تكلموا بالإسلام رياءً وهم غير مسلمين.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ فلا تتعرضوا لهم ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ فلا يتعرضوا لهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: دُعُوا إلى الشرك ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي: رجعوا وعادوا إلى الشرك ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي: فإن لم يكفُّوا عن قتالكم حتى تسيروا إلى مكة ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: المفاداة والصلح ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أُسراء ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ أي: أهل هذه الصفة ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حُجَّةً بيّنةً ظاهرة بالقتل والقتال.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ الآية، نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي؛ وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يُظهر إسلامَه لأهله فخرج هاربًا إلى المدينة، وتحصَّن في أطم من آطامها، فجزعت أُمه لذلك جزعًا شديدًا، وقالت لابنيها الحارث وأبي جهل بن هشام وهما أخواه لأمه: والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى تأتوني به، فخرجا في طلبه، وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة، فأتوا عياشًا وهو في الأطم، قالا له: انزل فإنَّ أُمَّك لم يُؤوها سقفُ بيت بعدك، وقد حلفت ألاَّ تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شيء، ولا نحول بينك وبين دينك، فلما ذكروا له جزع أُمه وأوثقوا له بالله نزل إليهم، فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه بنسعةٍ، فجلده كل واحد منهم مائة جلدة، ثم قدموا به على أُمِّه، فلما أتاها قالت: والله لا أُحلّك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثقًا مطروحًا في الشمس ما شاء الله، فأعطاهم الذي أرادوا، فأتاه الحارث بن زيد فقال: يا عياش، أهذا الذي كنت عليه، فوالله لئن كان هدًى لقد تركت الهدى، ولئن كانت ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقالته، وقال: والله، لا ألقاك خاليًا أبدًا إلا قتلتك، ثم إن عياشًا أسلم بعد ذلك وهاجر ثم أسلم الحارث بن زيد بعده وهاجر إلى رسول الله ﷺ وليس عياش حاضرًا يومئذ ولم يشعر بإسلامه، فبينا عياش يسير بظهر قباء إذْ لقي الحارثَ فقتله، فقال الناس: ويحك أي شيء صنعت؟ إنه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، قد كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

وهذا نهيٌ عن قتل المؤمن. ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ استثناء منقطع معناه: لكنْ إنْ وقعَ خطأ ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ كاملة ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: إلى أهل القتيل الذين يرثونه ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أراد به إذا كان الرجل مسلمًا في دار الحرب منفردًا مع الكفار فقتله من لم يعلم بإسلامه فلا دية فيه، وعليه الكفارة، وقيل: المراد منه إذا كان المقتول مسلمًا في دار الإسلام وهو مِنْ نَسَبِ قوم كفار، وقرابتُهُ في دار الحرب حربٌ للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ

﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أراد به: إذا كان المقتول كافرًا ذميًّا أو معاهدًا فيجب فيه الدية والكفارة، والكفارة تكون بإعتاق رقبة مؤمنة، سواء كان المقتول مسلمًا أو معاهدًا، رجلاً كان أو امرأةً، حرًّا أو عبدًا، وتكون في مال القاتل، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ والقاتل إن كان واجدًا للرقبة، أو قادرًا على تحصيلها بوجود ثمنها فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه: فعليه الإعتاق، ولا يجوز أن ينتقل إلى الصوم، فإن عجز عن تحصيلها فعليه صومُ شهرين متتابعين.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: جعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن قتل خطأً ﴿حَكِيمًا﴾ فيما حكم به عليكم.

أمَّا الكلام في بيان الدية، فاعلم أن القتل على ثلاثة أنواع: عمد محض، وشبه عمد، وخطأ محض.

أما العمد المحض فهو: أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالبًا فقتله، ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دِيَةٌ مغلَّظة في مال القاتل حالَّة.

وشبه العمد: أن يقصد ضربه بما لا يموت مثله من مثل ذلك الضرب غالبًا، بأن ضربه بعصًا خفيفة، أو حجرٍ صغير ضربة أو ضربتين، فمات فلا قصاص فيه، بل يجب فيه دِيَةٌ مغلَّظة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين.

والخطأ المحض هو: أن لا يقصد ضربه بل قصد شيئًا آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص فيه، بل تجب ديةٌ مخففة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين.

وتجب الكفارة في ماله في الأنواع كلها، وعند أبي حنيفة - رضي الله عنه -: قتل العمد لا يوجب الكفارة؛ لأنه كبيرة كسائر الكبائر.

ودِيَةُ الحر المسلم مائة من الإبل، فإذا عُدمت الإبل وجبت قيمتها من الدراهم أو الدنانير.

ودية المرأة نصف دية الرجل.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ بكفرِهِ وارتدادِهِ، وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة، عمَّن آمَنهُ فقُتل وهو متعلق بأستار الكعبة.

قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: طرده عن الرحمة ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

الذي عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السنة: أن قاتل المسلم عمدًا توبته مقبولة؛ لقوله تعالى: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ» [طه: ٨٢]، وقال: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ» [النساء: ٤٨]، وما رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما رُوي عن سفيان بن عُيينة أنه قال: إنْ لم يَقْتُل يُقال له: لا توبةَ لك، وإنْ قَتَلَ ثم جاء يُقال: لك توبة. ويُروى مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس في الآية متعلق لمن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر؛ لأن الآية نزلت في قاتلٍ هو كافر، وهو مقيس بن صبابة، وقيل: إنه وعيد لمن قتل مؤمنًا مُستحلاً لقتله بسبب إيمانه، ومن استحل قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافرًا مخلدًا في النار، وقيل في قوله تعالى: «فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا» معناه: هي جزاؤه إن جازاه، ولكنه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له بكرمه، فإنه وَعَدَ أنْ يغفر لمن يشاء.

حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يُخلف الله وعدَه؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا»؟ فقال له أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أُتِيْتَ يا أبا عثمان! إن العرب لا تعد الإخلاف في الوعيد خلفًا وذمًّا، وإنما تعد إخلاف الوعد خلفًا وذمًّا، وأنشد:

وإنِّي وإنْ أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ   لَمُخْلِفُ إيْعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

والدليل على أن غيرَ الشرك لا يوجب التخليد في النار ما رُوينا أن النبي ﷺ قال: «من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة»(١).

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وكان شهد بدرًا وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تُشرِكُوا بالله شيئًا ولا تسرقُوا ولا تزنُوا ولا تقتلُوا أولادَكم ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونَهُ بينَ أيديكُم وأرجلِكم ولا تعصُوا في معْروفٍ، فمنْ وفَّى منكم فأجرُه على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاءَ عفا عنه وإن شاء عاقبه»، فبايعناه على ذلك(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ نزلت هذه الآية في رجل من بني مرة بن عوف يقال له: مِرْدَاس بن نهيك، وكان من أهل فَدَك وكان مسلمًا لم يُسلم من قومه غيره، فسمعوا بسريةٍ لرسول الله ﷺ تريدهم، وكان على السرية رجل يُقال له: غالب بن فُضالة الليثي، فهربُوا وأقام الرجل؛ لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن

---

(١) أخرجه مسلم برقم٩٣: (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٦٤)، ومسلم برقم١٧٠٩: (٣/ ١٣٣٣).

يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ فألجأ غنمه إلى عاقُول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقت الخيلُ سمعهم يكبرون، فلمَّا سمع التكبير عرف أنهم أصحاب النبي ﷺ فكبَّر ونزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فتغشاه أُسامة بن زيد فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فوجد رسولُ الله ﷺ من ذلك وَجْدًا شديدًا، وكان قدْ سبقهم قبل ذلك الخبرُ، قال رسول الله ﷺ: «قتلتموه إرادةَ ما مَعَهُ»؟ ثم قرأ هذه الآية على أسامة ابن زيد، فقال: يا رسول الله، استغفر لي، فقال: فكيف بلا إله إلا الله؟! قالها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أسامة: فما زال رسول الله ﷺ يعيدها حتى وَدِدْتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم إن رسول الله ﷺ استغفرَ لي بعدُ ثلاث مرات، وقال: «اعتق رقبةً».

ورَوى أبو ظبيان عن أسامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، إنَّما قال خوفًا من السلاح، قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفًا أم لا»[(١)]؟

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: قفوا حتى تعرفوا المؤمنَ من الكافر، ويقال: تبيَّنْتُ الأمرَ إذا تأملته، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ﴾ وهو السلام الذي هو تحية المسلمين، وقيل: السَّلم والسَّلام واحد، أي: لا تقولوا لمن سلَّم عليكم ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: تطلبون الغُنم والغنيمة، و«عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» منافعها ومتاعها ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ أي: غنائم ﴿كَثِيرَةٌ﴾ وقيل: ثوابٌ كثير لمن اتَّقى قتلَ المؤمن ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ قال سعيد بن جبير: كذلك كنتم تكتُمون إيمانكم من المشركين ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بإظهار الإسلام، وقال قتادة: كنتم ضُلاَّلاً من قبل فمنَّ الله عليكم بالإسلام والهداية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قلتُ: إذا رأى الغزاةُ في بلد أو قرية شعارَ الإسلام فعليهم أن يكفُّوا عنهم، فإنَّ النبي ﷺ كان إذا غزا قومًا فإن سمع أذانًا كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أغار عليهم.

عن ابن عصام، عن أبيه أنَّ النبي ﷺ كان إذا بعثَ سرية قال: «إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم مؤذنًا فلا تقتلُوا أحدًا»[(٢)].

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ١٩١)، ومسلم برقم٩٦: (١/ ٩٦).
(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ٤٣٢).

عنه ـ أنه قال: رأيتُ مروان بن الحكم جالسًا في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أخبره أن رسول الله ﷺ أملَى عليه: «لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ» قال: فجاء ابنُ أُم مكتوم وهو يُمْلِيها عليَّ، فقال: يا رسول الله، لو أستطيعُ الجهاد لجاهدتُ، وكان رجلاً أعمى؛ فأنزل الله تعالى عليه، وفخذُه على فخذي، فثقلتْ عليَّ حتى خفتُ أن ترضَّ فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله «غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ»[1].

فهذه الآية في الجهاد والحثِّ عليه، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن الجهاد ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ يُريدُ: لا يستوي القاعدون الذين هم غيرُ أولي الضرر، أي: غير أُولي الزَّمانةِ والضَّعف في البدن والبصر ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ غير أُولي الضرر فإنهم يساوون المجاهدين؛ لأن العذر أقعدهم.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ لَّما رجع من غزوة تبوك، فَدَنَا من المدينة قال: «إنَّ في المدينة لأقوامًا ما سرتُم من مسيرٍ ولا قطعتم من وَادٍ إلاَّ كانوا معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، وهم بالمدينة حبسهم العذر»[2].

قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، أي: فضيلةً، وقيل: أراد بالقاعدين هاهنا أُولي الضرر، فضَّل الله المجاهدين عليهم درجةً؛ لأن المجاهد باشر الجهاد مع النِّيَّة، وأُولو الضَّرر كانتْ لهم نيةٌ ولكنَّهم لم يباشروا فنزلوا عنهم بدرجة ﴿وَكُلًّا﴾ يعني: المجاهد والقاعد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: الجنة بإيمانهم، وقال مقاتل: يعني المجاهد والقاعد والمعذور ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: على القاعدين من غير عذر.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ قال ابن محيريز في هذه الآية: هي سبعون درجة ما بين كل درجتين عَدْوُ الفرس الجواد المضمّر سبعين خريفًا.

وقيل: «الدرجات» هي: الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة، فازَ بها المجاهدون، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد مَنْ رضيَ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيًّا وجبتْ له الجنة»، قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعِدْهَا عليَّ يا رسولَ الله، ففعل، قال: «وأُخْرَى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»، قال: وما هي يا رسول الله؟ فقال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»[3].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بالله ورسولِه وأقام الصلاةَ وصامَ رمضان كان حقًّا على الله عزَّ وجلَّ أن يُدخلَه الجنَّةَ، جاهدَ في سبيل الله أو جلسَ في أرضه

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٥٩)، ومسلم برقم١٨٩٨ : (٣/ ١٥٨).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٧)، ومسلم برقم١٩١١ : (٣/ ١٥١٨).
(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٦)، ومسلم برقم١٨٨٤ : (٣/ ١٥٠١).

التي وُلد فيها»، قالوا: أفلا نُنذر الناسَ بذلك؟ قال: «إن الجنَّة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل من الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتُم الله فاسألوه الفِرْدَوسَ: فإنه أوسط الجنَّةِ وأعلى الجنَّةِ، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[١].

واعلمْ أن الجهاد في الجملة فرضٌ، غيرَ أنه ينقسم إلى فرض العين وفرض الكفاية.

ففرض العين: أن يدخل الكفارُ دارَ قومٍ من المؤمنين، فيجب على كل مكلف من الرجال، ممن لا عذر له من أهل تلك البلدة الخروجُ إلى عدوهم، حرًّا كان أو عبدًا، غنيًّا كان أو فقيرًا؛ دفعًا عن أنفسهم وعن جيرانهم.

وهو في حق من بَعُدَ منهم من المسلمين فرض على الكفاية، فإن لم تقع الكفاية بمن نزل بهم يجب على من بعد منهم من المسلمين عونُهم، وإن وقعت الكفاية بالنازلين بهم فلا فرض على الأبعدين إلا على طريق الاختيار، ولا يدخل في هذا القسم العبيد والفقراء، ومن هذا القبيل أن يكون الكفار قارِّين في بلادهم، فعلى الإمام أن لا يخلي سنة عن غزوة يغزوها بنفسه أو بسراياه حتى لا يكون الجهاد معطلاً، والاختيارُ للمطيق الجهاد مع وقوع الكفاية بغيره: أنْ لا يقعد عن الجهاد، ولكنْ لا يُفترض؛ لأنَّ الله تعالى وعد المجاهد والقاعد الثواب في هذه الآية فقال: «وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ»، ولو كان فرضًا على الكافة لاستحقَّ القاعد العقابَ لا الثواب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، نزلت في ناس من أهل مكة تكلَّمُوا بالإسلام ولم يهاجروا، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقُتلوا مع الكفار؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أراد به ملك الموت وأعوانه، أو أراد ملك الموت وحده، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالشرك، في حال ظلمهم، قيل: أي بالمقام في دار الشرك؛ لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلا بالهجرة، ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة؛ فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[٢]، وهؤلاء قُتلوا يومَ بدرٍ وضربتِ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارهم، وقالوا لهم: فِيمَ كنتم؟ فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ١١).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٧)، ومسلم برقم١٣٥٣: (٣/ ١٤٨٧).

ماذا كنتم؟ أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير، فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك و﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عاجزين ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مكة ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ يعني: إلى المدينة، وتخرجوا من مكة، من بين أهل الشرك؟ فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ﴾ منزلهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: بئس المصير إلى جهنم.

ثم استثنى أهل العذر منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لا يقدرون على حيلة ولا على نفقة ولا قوة للخروج منها ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يعرفون طريقًا إلى الخروج، وقال مجاهد: لا يعرفون طريق المدينة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ يتجاوز عنهم، و«عَسَى» من الله واجبٌ؛ لأنه للإطماع، والله تعالى إذا أطمع عبدًا وصله إليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كنتُ أنا وأُمي ممن عذر الله، يعني: من المستضعفين، وكان رسول الله ﷺ يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «أنَّ النبي ﷺ كان إذا قال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد في الركعة الآخرة من صلاة العشاء قنت: اللَّهم أنجِ عياشَ بن أبي ربيعة، اللَّهم أنجِ الوليدَ، اللَّهم أنج سلمةَ بن هشام، اللَّهم أنجِ المستضعفين من المؤمنين، اللَّهم اشْدُدْ وطأتَكَ على مضر، اللَّهم اجعلها سنين كسني يوسف»[1].

۞﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٢٦)، ومسلم برقم٦٧٥: (١/ ٤٤٦ - ٤٦٧).

ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «﴿مُرَٰغَمًا﴾»، أي: مُتَحوَّلاً يتحول إليه، وقال مجاهد: متزحزحًا عمَّا يكره.

﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ أي: وجب ﴿أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإيجابه على نفسه فضلاً منه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: من أربع ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾ أي: يغتالكم ويقتلكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ في الصلاة.

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهر العداوة.

اعلم أن قصر الصلاة في السفر جائز بإجماع الأمة، واختلفوا في جواز الإتمام، فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب، لِمَا رُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأُقرَّت صلاة السفر وأُتمت صلاة الحضر»[1]. وذهب قوم إلى جواز الإتمام.

عن عائشة أُم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ قصرَ الصلاةَ وأتمَّ»[2].

عن يعلى بن أمية، قال: قلت لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّما قال الله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وقد أمن الناس، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: عجبتُ مما عجبتَ منه؛ فسألت رسول الله ﷺ فقال: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»[3].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة آمنًا لا يخاف إلا الله فصلى ركعتين»[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عن جابر[5] ـ رضي الله عنه ـ أن المشركين لَمَّا رأوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه قامُوا إلى الظهر يُصلون جماعة ندموا أن لو كانوا كبُّوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، يعني: صلاة العصر، فإذا قاموا فيها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم؛ فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنها صلاة الخوف، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعلَّمه صلاة الخوف.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٦٩)، ومسلم برقم٦٨٥: (١/ ٤٧٨).

(٢) أخرجه الشافعي: (١/ ١٨٢ - ترتيب المسند)، والدارقطني: (٢/ ١٨٩) وقال: وهذا إسناد صحيح.

(٣) أخرجه مسلم برقم٦٨٦: (١/ ٤٧٨).

(٤) أخرجه الترمذي: (٣/ ١٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي: (٣/ ١١٧)، والشافعي: (١/ ١٨٠)، وأحمد: (١/ ٢١٥).

(٥) بهذا المعنى مطولاً عند مسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة الخوف برقم٨٤٠: (١/ ٥٧٥).

وجملته: أن العدو إذا كانوا في معسكرهم في غير ناحية القبلة؛ فيجعل الإمام القوم فرقتين: فتقف طائفة وِجَاهَ العدو تحرسُهم، ويشرع الإمام مع طائفة في الصلاة، فإذا صلى بهم ركعة قام وثبت قائمًا حتى أتموا صلاتهم، ذهبوا إلى وِجاهَ العدوِّ، ثم أتت الطائفة الثانية فصلى بهم الركعة الثانية، وثبت جالسًا حتى أتموا لأنفسهم الصلاة، ثم يُسلِّم بهم، وهذه رواية سهل بن أبي حثمة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ صلَّى كذلك بذات الرقاع، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق.

عن صالح بن خوات، عمَّن صلى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: أنَّ طائفة صفّت معه وصفت طائفة وِجَاهَ العدو فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائمًا فأتموا لأنفسهم، ثم انصرفُوا وصفّوا وِجَاهَ العدو وجاءتِ الطائفةُ الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت ثم ثبت جالسًا وأتموا لأنفسهم ثم سلَّم بهم(١). قال مالك: وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف.

وذهب قوم إلى أن الإمام إذا قام إلى الركعة الثانية تذهب الطائفة الأولى في خلال الصلاة إلى وِجَاهَ العدو، وتأتي الطائفة الثانية فيُصلي بهم الركعة الثانية ويسلِّم وهم لا يسلمون بل يذهبون إلى وجاه العدو، وتعود الطائفة الأولى فتتمُّ صلاتَها، ثم تعود الطائفة الثانية فتتمُّ صلاتَها، وهذه رواية عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ صلى كذلك، وهو قول أصحاب الرأي.

عن سالم، عن أبيه أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا فقاموا في مقام أولئك، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أُخرى ثم سلم بهم، فقام هؤلاء فصلوا ركعتهم(٢).

وكلتا الروايتين صحيحة، فذهب قوم إلى أن هذا من الاختلاف المباح، وذهب الشافعي ـ رضي الله عنه ـ إلى حديث سهل بن أبي حَثْمة؛ لأنه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ في حراسة العدو؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: إذا صلَّوا، ثم قال: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ وهذا يدل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وقال: ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ فمقتضاه أن يصلوا تمام الصلاة، فظاهره يدل على أن كل طائفة تفارق الإمام بعد تمام الصلاة، والاحتياط لأمر الصلاة من حيث إنه لا يكثر فيها العمل والذهاب والمجيء، والاحتياط لأمر الحرب من حيث إنهم إذا لم يكونوا في الصلاة كان أمكن للحرب والهرب إن احتاجوا إليه.

ولو صلى الإمام أربع ركعات بكل طائفة ركعتين جاز. عن جابر بن عبد الله قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنَّا بذات الرقاع وكنَّا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٢٢)، ومسلم برقم٨٤١: (١/ ٥٧٥).
(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٢٢)، ومسلم برقم٨٣٩: (١/ ٥٧٤).

قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلَّق بشجرة فأخذ سيفَ نبي الله ﷺ فاخترطه فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا»، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله يمنعني منك، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأغمد السيف وعلَّقه فنُودي بالصلاة، قال: فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا فصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان(١).

عن جابر ـ رضي الله عنهم ـ أن النبي ﷺ كان يصلي بالناس صلاة الظهر في الخوف ببطن نخل، فصلى بطائفة ركعتين ثم سلم، ثم جاءت طائفة أخرى فصلى بهم ركعتين ثم سلم(٢).

ورُوي عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في صلاة الخوف «أنه صلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا»(٣).

ورواه زيد بن ثابت وقال: «كانت للقوم ركعة واحدة وللنبي ﷺ ركعتان»(٤).

وتأوله قوم على صلاة شدة الخوف، وقالوا: الفرض في هذه الحالة ركعة واحدة.

وأكثر أهل العلم على أن الخوف لا ينقص عدد الركعات، وإن كان العدو في ناحية القبلة في مستوى إن حملوا عليهم رأوهم صلى الإمام بهم جميعًا وحرسوا في السجود، كما جاء عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا خلفه صفين، والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعًا ثم ركع وركعنا جميعًا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعًا، ثم انحدر للسجود والصف الذي يليه، وقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى رسول الله ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود ثم قاموا ثم تقدم الصف المؤخر، وتأخر المقدم ثم رجع النبي ﷺ وركعنا جميعًا، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعًا، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخرًا في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى رسول الله ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعًا قال جابر ـ رضي الله عنه ـ: كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائهم(٥).

واعلم أنَّ صلاة الخوف جائزة بعد الرسول ﷺ عند عامة أهل العلم، ويُحكى عن بعضهم عدم الجواز ولا وجه له.

وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمة الله عليه ـ: كل حديث رُوي في أبواب صلاة الخوف فالعمل

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٢٦)، ومسلم برقم٨٤٣: (١/ ٥٧٦).
(٢) أخرجه الشافعي في «المسند»: (١/ ١٧٦ - ١٧٧)، والنسائي: (٣/ ١٧٨).
(٣) أخرجه أبو داود: (٢/ ٧٠)، والنسائي: (٣/ ١٦٨).
(٤) أخرجه أبو داود: (٢/ ٧١)، والنسائي: (٣/ ١٦٨).
(٥) أخرجه مسلم برقم٨٤٠: (١/ ٥٧٤).

به جائز، رُوي فيها ستة أوجه أو سبعة أوجه.

وقال مجاهد[1] في سبب نزول هذه الآية عن ابن عياش الزرقي قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد، فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة لو حملنا عليهم، وهم في الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ أي: شهيدًا معهم ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي: فلتقف، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ واختلفوا في الذين يأخذون أسلحتهم، فقال بعضهم: أراد هؤلاء الذينَ وقفوا مع الإمام يُصلُّون يأخذون الأسلحة في الصلاة، فعلى هذا إنما يأخذه إذا كان لا يشغله عن الصلاة، ولا يُؤذي مَنْ بجنبه فإذا شغلته حركته وثقَّلَتْهُ عن الصلاة كالجعبة والترس الكبير، أو كان يؤذي من جنبه كالرمح، فلا يأخذه.

وقيل: وليأخذوا أسلحتهم، أي: الباقون الذين قاموا في وجه العدو ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي: صلُّوا، ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يُريد: مكان الذين هم وِجَاهَ العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ وهم الذين كانوا في وجه العدو ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ قيل: هؤلاء الذين أتوا، وقيل: هم الذين صلَّوا ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يتمنَّى الكفار ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ أي: لو وجدُوكم غافلين ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فيقصدونكم ويحملون عليكم حملةً واحدة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ رخَّص في وضع السلاح في حال المطر والمرض؛ لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي: رَاقِبُوا العدو كيلا يتغفلوكم، والحذر ما يُتَّقى به من العدو.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يُهانُون فيه، والجُنَاح: الإثم، من جنحت: إذا عدلت عن القصد.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: صلاة الخوف، أي: فرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: صلُّوا لله

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٦٤)، والنسائي: (٣/ ١٧٧).

﴿قِيَٰمًا﴾ في حال الصحة ﴿وَقُعُودًا﴾ في حال المرض ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ عند الحرج والزمانة، وقيل: اذكرُوا الله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد، على كل حال.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ يذكرُ الله على كل أحيانه»(١).

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي: سكنتم وأمنتم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتموها أربعًا بأركانها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ قيل: واجبًا مفروضًا مقدرًا في الحضر أربع ركعات، وفي السفر ركعتان، وقال مجاهد: أي: فرضًا مؤقتًا وقَّته الله عليهم.

وقد جاء بيان أوقات الصلاة في الحديث، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّني جبريلُ عند البيتِ مرتين، فصلَّى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلَّى بي العشاءَ حينَ غاب الشَّفَقُ، وصلَّى بي الفجرَ حين حَرُمَ الطعامُ والشراب على الصائم، وصلَّى بي الغد الظهرَ حين كان ظِلُّ كلِّ شيءٍ مثله، وصلَّى بي العصرَ حين كان ظِلُّ كلِّ شيءٍ مثليه، وصلَّى بي المغربَ حين أفطرَ الصائم، وصلَّى بي العشاء ثُلُثَ الليل الأول، وصلَّى بي الفجرَ فأسفر، ثم التفتَ إليَّ قال: يا محمد، هذا وقتُ النبيين من قبلك، الوقتُ ما بين هذين الوقتين»(٢).

عن أبي موسى الأشعري، ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أن سائلاً أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة، قال: فلم يردَّ عليه شيئًا، ثم أمر بلالاً فأذن ثم أمره فأقام الصلاةَ حين انشقَّ الفجرُ فصلى، ثم أمره فأقام الظهرَ، والقائل يقول: قد زالت الشمس أو لم تزل، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصرَ والشمسُ مرتفعةٌ بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغربَ حين وقعت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين سقوط الشفق، قال: وصلَّى الفجرَ من الغد، والقائل يقول: طلعتِ الشمسُ أو لم تطلع، وصلى الظهر قريبًا من وقت العصر بالأمس، وصلى العصر، والقائل يقول: قد احمرَّتِ الشمسُ، وصلَّى المغربَ قبلَ أن يغيب الشفق الأحمر، وصلى العشاء ثُلُثَ الليل الأول، ثم قال: أين السائل عن الوقت؟ فقال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: «ما بين هذين الوقتين وقت»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية، سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه لمَّا رجعوا يوم أُحد بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم فشكوا ألَمَ الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾، أي: لا تضعفُوا في ابْتِغَاءِ القَوْم في طلب أبي سفيان وأصحابه ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ تتوجَّعُونَ مِنَ الجراح ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ أي: يتوجَّعُون، يعني: الكفار ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون، وقال بعض المفسرين: المراد بالرجاء الخوف؛ لأن كل راج خائف أن لا يدرك مأموله.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٣٧٣: (١/ ٢٨٢).
(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ٢٣١ - ٢٣٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم٦١٤: (١/ ٤٢٩).

ومعنى الآية: وترجون من الله، أي: تخافون من الله، أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون، قال الفرَّاء رحمه الله: ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، كقوله تعالى: «قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ» [الجاثية: ١٤]، أي: لا يخافون، وقال تعالى: «مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» [نوح: ١٣]، أي: لا تخافون لله عظمته، ولا يجوز رجوتُك يعني: خفتُكَ، ولا خفتُكَ وأنتَ تريدُ رجوتك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الآية، روى الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له: طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث سرقَ درعًا من جارٍ له يقال له: قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود يُقال له: زيد بن السمين، فالتُمستِ الدرع عند طعمة فحلف: والله، ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة بن أبيرق، فجاء بنو ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يُجادل عن صاحبهم، وقالوا له: إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يُعاقب اليهودي. فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالأمر والنهي والفصل ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما علَّمكَ الله وأوحى إليك، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ طعمة ﴿خَصِيمًا﴾ مُعينًا مدافعًا عنه.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ممَّا هممتَ من معاقبة اليهودي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ لا تُخاصم ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يظلمون أنفسَهم بالخيانة والسرقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ يريد خوانًا في الدرع، أثيمًا في رميه اليهودي، قيل: إنه

خطاب مع النبي ﷺ، والمُرادُ به غيره، كقوله تعالى: «فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ» [يونس: ٩٤]، والاستغفار في حق الأنبياء بعد النبوة على أحد الوجوه الثلاثة: إمَّا لذنبٍ تقدم على النبوة، أو لذنوب أُمته وقرابته، أو لمباحٍ جاء الشرع بتحرِّيْهِ فيتركه بالاستغفار، فالاستغفار يكون معناه: السمع والطاعة لحكم الشرع.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يستترون ويستحيون من الناس، يريد: بني ظفر بن الحارث ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يستترون ولا يستحيون من الله ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يقولون ويُؤلِّفون، والتبييت: تدبير الفعل ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ فإنه يسمع قوله ويمينه لأنه مسلم، ولا يسمع من اليهودي فإنه كافر، فلم يرضَ الله ذلك منهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ثم يقول لقوم طعمة:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: يا هؤلاء ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ أي: خاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾ يعني: عن طعمة، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والجدال: شدَّة المخاصمة، من الجَدْل: وهو شدة الفتل، فهو يريد فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحِجاج، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ﴾ يعني: عن طعمة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إذا أخذه الله بعذابه ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ كفيلاً، أي: من الذي يذبُّ عنهم، ويتولى أمرهم يوم القيامة؟ ثم استأنف فقال:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ يعني: السرقة ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ برميه البريء، وقيل: ومَنْ يعمل سوءًا، أي: شِرْكًا أو يظلم نفسه: يعني: إمَّا دُونَ الشِّرك ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: يتبْ إليه ويستغفرْهُ ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعرضُ التوبة على طعمة في هذه الآية.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ يعني: يمين طعمة بالباطل، أي: ما سَرَقْتُه إنَّما سرق اليهودي ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فإنَّما يضرُّ به نفسه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بسارق الدرع ﴿حَكِيمًا﴾ حَكَمَ بالقطع على السارق.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ أي: سرقة الدرع ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ يمينه الكاذبة ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ أي: يقذف بمَا جَنَى ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ منه، وهو نسبة السرقة إلى اليهودي ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ البهتان: هو البهت، وهو الكذب الذي يُتَحَيَّر في عِظَمِه ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ذنبًا بيِّنًا.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ

﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ يقول للنبي ﷺ: ﴿لَهَمَّت﴾ لقدْ هَمَّتْ، أي: أضمرت ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: قوم طعمة ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ يخطئوك في الحكم، ويلبسوا عليك الأمر حتى تدافع عن طعمة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: يرجع وَبَالُهُ عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ يُريد: أن ضرره يرجع إليهم ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: القضاء بالوحي ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من الأحكام، وقيل: من علم الغيب ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامةٌ في حق جميع الناس، والنَّجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًّا كان أو جهرًا، فمعنى الآية: لا خيرَ في كثير ممَّا يدبرونه بينهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حثَّ عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه من الشرع، وأعمالُ البرِّ كلُّها معروف؛ لأنَّ العقول تعرفها.

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عن أُمِّ الدرداء ـ رضي الله عنها ـ عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة»؟ قال: قلنا بلى، قال: «إصلاحُ ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»[1].

عن أُمِّ كلثوم بنت عُقبة، وكانت من المهاجرات الأُوَل، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس بالكذَّاب من أصلح بين الناس فقال خيرًا أو نَمَى خيرًا»[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: هذه الأشياء التي ذكرها ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلبَ رضاه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ بالياء، يعني: يؤتيه الله، وقرأ الآخرون بالنون.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق؛ وذلك أنه لمَّا ظهرت عليه السرقة خاف على نفسه من قطع اليَدِ والفضيحة، فهرب إلى مكة وارتدَّ عن الدين، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: يخالفه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ من التوحيد والحدود ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: غير طريق المؤمنين ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نكله في الآخرة إلى ما تولَّى في الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»: ص١١٨، وأبو داود: (٧/ ٢٣٥)، والترمذي: (٧/ ٢١١)، وقال: هذا حديث صحيح، وأحمد في «المسند»: (٦/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٢٩٩)، ومسلم برقم٢٦٠٦: (٤/ ٢٠١١).

﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي: ذهب عن الطريق وحُرم الخير كله، وقال الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما: إنَّ هذه الآية نزلت في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، إني شيخ متهتك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئًا منذ عرفتُه وآمنت به، ولم أتَّخذ من دونه وَليًّا ولم أُوَاقع المعاصي جرأة على الله، وما توهمت طرفة عين أني أُعجز الله هربًا، وإنِّي لنادمٌ تائبٌ مستغفرٌ فما حالي؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ نزلت في أهل مكة، أي: ما يعبدون، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ أراد بالإناث: الأوثان؛ لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللّات والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أُنثى بني فلان فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم؛ ولذلك قال: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا﴾ هذا قول أكثر المفسرين.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده الله من رحمته ﴿وَقَالَ﴾ يعني: قال إبليس ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ أي: حظًّا معلومًا.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ يعني: عن الحق، أي: لأغوينهم، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ قيل: أُمنِّيَنَّهم ركوبَ الأهواء، وقيل: أُمنِّيَنَّهم أنْ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بعث، وقيل: أُمنِّيَنَّهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: يقطعونها ويشقونها، وهي البحيرة ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما - والحسن ومجاهد وسعيد بن المسيب والضحاك: يعني: دين الله، نظيره قوله تعالى: «لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ» [الروم: ٣٠]، أي: لدين الله، يريد وضع الله في الدين بتحليل الحرام وتحريم الحلال.

وقال عكرمة وجماعة من المفسرين: فليُغيرنَّ خلق الله بالخِصاء والوشم وقطع الآذان حتى حرَّم بعضهم الخصاء وجوزه بعضهم في البهائم؛ لأن فيه غرضًا ظاهرًا، وقيل: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرَّموها، وخلق الشمسَ والقمرَ والأحجار لمنفعة العباد فيعبدونها من دون الله ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ربًّا يطيعه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ فوعدُهُ وتمنيتُهُ ما يُوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم، كما قال الله تعالى: «ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ» [البقرة: ٢٦٨] ويُمنِّيهم بأنْ لا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نار ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ أي: مفرًّا ومعدِلاً عنها.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت الغُرف والمساكن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أراد ليس بأمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب، يعني: اليهود والنصارى، وذلك أنَّهم افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيُّنا قبلَ نبيكم، وكتابُنا قبل كتابِكم، فنحن أَوْلَى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيُّنا خاتمُ الأنبياء، وكتابُنا يقضي على الكتب، وقد آمنا بكتابكم ولم تُؤمنوا بكتابنا؛ فنحن أَوْلَى.

وقال مجاهد: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ» يا مشركي أهل الكتاب؛ وذلك أنهم قالوا: لا بعثَ ولا حسابَ، وقال أهل الكتاب: «لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً» [البقرة: ٨٠]، «لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ» [البقرة: ١١١]؛ فأنزل الله تعالى: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ»، أي: ليس الأمر بالأماني، وإنما الأمر بالعمل الصالح.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وجماعة: الآية عامة في حق كل عامل.

عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ عندَ رسول الله ﷺ فأُنزلتْ عليه هذه الآية: «مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا»، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ألا أُقرئك آية أُنزلتْ عليَّ؟ قال: قلتُ: بلى، قال: فأقرأنيها، قال: ولا أعلم إلا أني وجدتُ انفصامًا في ظهري حتى تمطَّيت لها، فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا بكر؟ فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأُمي، وأيُّنا لم يعمل سوءًا؟ إنا لَمُجْزيُّون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ: أمَّا أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليست لكم ذنوب، وأمَّا الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتى يُجزوا يومَ القيامة»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ أي: مقدار النقير، وهو النقرة التي تكون في ظهر النَّواة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أحكمُ دينًا ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أخلص عمله لله، وقيل: فوَّض أمرَه إلى الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُوحِّد ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني: دين إبراهيم عليه السلام ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مُسلمًا مُخلصًا، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من دين إبراهيم الصلاة إلى الكعبة والطواف بها ومناسك الحج، وإنَّما خُصَّ إبراهيم لأنه كان مقبولاً عند الأُمم أجمع، وقيل: لأنه بُعث على ملَّة إبراهيم وزيد له أشياء.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ صفيًّا، والخلَّة: صفاء المودَّة.

قال الزجاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل، والخلة: الصداقة، فسُمي خليلاً؛ لأن الله أحبه واصطفاه، وقيل: هو من الخلة وهي الحاجة، سُمي خليلاً، أي: فقيرًا إلى الله لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلاَّ إلى الله عزَّ وجلَّ، والأول أصح؛ لأن قوله «وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا» يقتضي الخلة من الجانبين، ولا يتصور الحاجة من الجانبين.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كُنتُ متخذًا خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ولكنَّ أبا بكر أخي وصاحبي، ولقد اتَّخذ الله صاحبَكم خليلاً»[2].

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟

---

(١) حديث صحيح بطرقه وشواهده، أخرجه الترمذي: (٨/ ٤٠١ - ٤٠٢)، وأحمد في «المسند»: (١/ ١٨١)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ٣٧٣)، وصححه ابن حبان برقم١٧٣٤: عن عائشة وصححه، والحاكم في «المستدرك»: (٣/ ٧٤) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ١٧)، ومسلم برقم٢٣٨٣: (٤/ ١٨٥٥).

لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ أي: أحاط علمُه بجميع الأشياء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: يستخبرونك في النساء ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قيل معناه: ويفتيكم في ما يتلى عليكم، وقيل معناه: ونفتيكم ما يتلى عليكم، يريد: الله يفتيكم وكتابه يفتيكم فيهن، وهو قوله عزَّ وجلَّ: «وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ» [النساء: ٢]، قوله: ﴿فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأنه أراد باليتامى النساء ﴿ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ أي: لا تعطونهن ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من صداقهن ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: في نكاحهنَّ لمالِهنَّ وجمالِهنَّ بأقل من صداقهن، وقال الحسن وجماعة: أراد لا تؤتونهن حقهنَّ في الميراث؛ لأنهم كانوا لا يُورِّثون النساءَ، وترغبون أن تنكحوهنَّ، أي: عن نكاحهن لدمامتهن.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يريد: ويُفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار، أن تعطوهم حُقوقهم؛ لأنهم كانوا لا يُورِّثون الصغار، يريد ما يتلى عليكم في باب اليتامى من قوله: «وآتوا اليتامى أموالهم» يعني: بإعطاء حقوق الصغار ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ أي: ويفتيكم في أنْ تقُوموا لليتامى بالقسط بالعدل في مُهورهنَّ ومواريثهن ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ يُجازيكم عليه.

وقال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد، فأراد أن يطلقها ويتزوج عليها غيرها، فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي واقْسِمْ لي من كل شهرين إن شئت، وإن شئت فلا تَقْسِم لي، فقال: إن كان يصلح ذلك فهو أحب إليَّ، فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾، أي: علمت ﴿مِنۢ بَعْلِهَا﴾ أي: من زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ أي: بُغضًا، قال الكلبي: يعني: ترك مضاجعتها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بوجهه عنها وقلة مجالستها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي: على الزوج والمرأة ﴿أَن يُصْلِحَا﴾ أي: يتصالحا، ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ﴾ يعني: في القِسْمة والنفقة، وهو أن يقول الزوج لها: إنَّك قد دخلت في السن، وإني أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوْثرها عليك في القسمة ليلاً ونهارًا، فإن رضيتِ بهذا فأقيمي، وإن كرهتِ خَلَّيتُ سبيلك، فإن رضيتْ كانتْ هي المحسنة ولا تُجبر على ذلك، وإن لم ترض بدون حقها من القسم كان على الزوج أن يوفِّيها حقَّها من القِسْم والنفقة أو يسرحها بإحسان، فإن أمسكها ووفَّاها حقَّها مع كَراهيته فهو مُحسن.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ يعني: إقامتها بعد تخييره إياها، والمصالحة على ترك بعض حقِّها من القسم والنفقة خيرٌ من الفرقة، كما يُرْوَى أنَّ سودة ـ رضي الله عنها ـ كانت امرأة كبيرة وأراد النبي ﷺ أن يُفارقها، فقالتْ: لا تطلقني، وإنما بي أنْ أبعث في نسائك وقد جعلتُ نوبتي لعائشة ـ رضي الله عنها ـ فأمسكها رسول الله ﷺ، وكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ـ رضي الله عنها ـ.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ يريد: شُحَّ كلٍّ واحد من الزوجين بنصيبه من الآخر، والشُّح: أقبح البخل، وحقيقتُه: الحرص على منع الخير ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ أي: تصلحوا ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الجورَ، وقيل: هذا خطاب مع الأزواج، أي: وإنْ تُحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتَّقوا ظُلمَها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لن تقدروا أن تُسووا بين النساء في الحب وميل القلب ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على العدل ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟﴾ أي: إلى التي تُحبونها ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ في القِسْم والنَّفقة، أي: لا تُتْبِعُوا أهواءَكم أفعالَكم ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: فتدعُوا الأخرى كالمنوطة لا أيِّمًا ولا ذاتَ بعل.

ورُوي عن أبي قلابة أنَّ النبي ﷺ كان يقْسِمُ بين نسائه، فيعدل ويقول: «اللَّهمَّ هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أملك»[١].

ورُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانتْ له امرأتان فمالَ إلى إحداهما جاءَ يوم القيامةِ وشقُّه مائل»[٢]. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الجورَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/ ٦٣ - ٦٤)، والترمذي: (٤/ ٢٩٤)، وابن ماجه برقم١٩٧١: (١/ ٦٣٣)، وصححه ابن حبان برقم١٣٠٥: والحاكم على شرط مسلم: (٢/ ١٨٧) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ٦٣)، والترمذي: (٤/ ٢٩٥)، والنسائي: (٧/ ٦٣)، وابن ماجه برقم١٩٦٩: (١/ ٦٣٣)، ص٣١٧، وقال الترمذي: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث همام، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ١٨٦).

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ يعني: الزوج والمرأة بالطلاق ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من رزقه، يعني: المرأة بزوج آخر، والزوج بامرأة أخرى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ واسعَ الفضل والرحمة، حكيمًا فيما أمر به ونهى عنه.

وجملةُ حُكم الآية: أنَّ الرجل إذا كانت له امرأتان أو أكثر، فإنه يجب عليه التسوية بينهنَّ في القسْم، فإن ترك التسوية بينهنَّ في فعل القسْم عصى الله تعالى، وعليه القضاء للمظلومة، والتسوية شرط في البيتوتة، أما في الجماع فلا؛ لأنه يدور على النشاط، وليس ذلك إليه، ولو كانت في نكاحه حُرَّةٌ وأَمَةٌ فإنه يبيت عند الحرَّة ليلتين، وعند الأَمَةِ ليلة واحدة، وإذا تزوج جديدة على قديمات عنده يخصُّ الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال على التوالي إن كانت بكرًا، وإن كانت ثيِّبًا فثلاث ليال، ثم يسوِّي بعد ذلك بين الكل، ولا يجب قضاء هذه الليالي للقديمات.

عن أنس - رضي الله عنه - قال: مِنَ السُّنَّة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعًا، ثم قَسَمَ، وإذا تزوج الثَّيِّبَ أقام عندها ثلاثًا، ثم قسم. قال أبو قلابة: ولو شئتُ لقلتُ: إن أنسًا رفعه إلى النبي ﷺ[1].

وإذا أراد الرجل سفَرَ حاجةٍ فيجوز له أن يحمل بعض نسائه مع نفسه بعد أن يُقرع بينهنَّ فيه، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفرَ أقرعَ بين نسائه، فأيتهُنَّ خرج سهمُها خرج بها»[2]، أما إذا أراد سفر نقلة فليس له تخصيص بعضهنَّ لا بالقرعة ولا بغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ عبيدًا ومُلكًا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: أهل التوراة والإنجيل وسائر الأمم المتقدمة في كتبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أهل القرآن في كتابكم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ﴾ أي: وحِّدُوا اللهَ وأطيعوه ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ بما أوصاكم الله به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ قيل: فإن لله ملائكة في السموات والأرض وهم أطوع له منكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن جميع خلقه غير محتاج إلى طاعتهم ﴿حَمِيدًا﴾ محمودًا على نعمه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: يعني: شهيدًا أن فيها عبيدًا، وقيل: دافعًا ومُجيرًا.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٣١٣)، ومسلم برقم١٤٦١: (٢/ ١٠٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٢١٨)، ومسلم برقم٢٧٧٠: (٤/ ٢١٣٠).

يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: الكفار ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ يقول: بغيركم خير منكم وأطوع ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ قادرًا.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يُريد: من كان يريد بعمله عَرَضًا من الدنيا، ولا يريد بها الله عزَّ وجلَّ آتاه الله من عَرَضِ الدنيا، أو دفع عنه فيها ما أراد الله، وليس له في الآخرة من ثواب، ومن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أحب وجزاه الجنة في الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ يعني: كونوا قائمين بالشهادة بالقسط، أي: بالعدل لله، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كونوا قوامين بالعدل في الشهادة على من كانت ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ في الرحم، أي: قُولُوا الحقَّ ولو على أنفسكم بالإقرار أو الوالدين والأقربين، فأقيموها عليهم لله، ولا تُحابوا غنيًّا لغناه، ولا ترحموا فقيرًا لفقره، فذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم، أي: أقيموا على المشهود عليه وإن كان غنيًّا وللمشهود له، وإن كان فقيرًا فالله أولى بهما منكم، أي: كِلُوا أمرَهما إلى الله، وقال الحسن: معناه: الله أعلم بهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ أي: تجوروا وتميلوا إلى الباطل من الحق، وقيل: معناه لا تتبعوا الهوى لتعدلوا، أي: لتكونوا عادلين كما يقال: لا تتبع الهوى لترضي ربك.

﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ أي: تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عنها فتكتموها ولا تقيموها، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١٤٠)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» بمحمدٍ ﷺ والقرآن وبموسى عليه السلام والتوراة ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ قال قتادة: هم اليهود آمَنُوا بموسى ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل، ثم آمَنُوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام، ثم ازْدَادُوا كفرًا بمحمدٍ ﷺ.

وقيل: هو في جميع أهل الكتاب، آمَنُوا بنبيهم ثم كَفَرُوا به، وآمَنُوا بالكتاب الذي نُزِّل عليه ثم كفروا به، وكفرهم به: تركهم إيَّاه ثم ازدادوا كفرًا بمحمد ﷺ.

وقيل: هذا في قوم مرتدين آمنوا ثم ارتدوا ثمَّ آمنوا ثمَّ ارتدوا.

وقال مجاهد: «ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا»، أي: ماتوا عليه «لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ» ما أقاموا على ذلك ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا إلى الحق.

فإن قيل: ما معنى قوله: «لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ» ومعلوم أنه لا يغفر الشرك إن كان أول مرَّة؟

قيل: معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرَّة ودام عليه يُغفر له كفرُه السابق، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يُغفر له كفرُه السابق، الذي كان يُغفر له لو دَامَ على الإسلام.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ أخبرهم يا محمد ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ والبشارة: كل خبر تتغير به بشرة الوجه سارًّا كان أو غير سار.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: يتخذون اليهودَ أولياءَ وأنصارًا أو بطانة ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أي: المعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه، وقيل: أيطلبون عندهم القوة والغلبة ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ﴾ أي: الغلبة والقوة والقدرة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ يعني: مع الذين يستهزئون ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمدٍ ﷺ والقرآن، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» [الأنعام: ٦٨].

وقال الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: دخل في هذه الآية كلُّ مُحْدِثٍ في الدين، وكلُّ مُبتدع إلى يوم القيامة ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون

ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره، فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤)

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم الدوائر، يعني: المنافقين ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: ظفر وغنيمة ﴿قَالُوا﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ على دينكم في الجهاد، كنَّا معكم، فاجعلوا لنا نصيبًا من الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يعني: دولة وظهور على المسلمين ﴿قَالُوا﴾ يعني: المنافقين للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة.

﴿وَنَمْنَعْكُم﴾ ونصرفكم ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عن الدخول في جملتهم، وقيل: معناه ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين؟ أي: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إيَّاكم بأخبارهم وأمورهم، ومُرادُ المنافقين بهذا الكلام: إظهارُ المنة على الكافرين.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: بين أهل الإيمان وأهل النفاق ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال عليٌّ: في الآخرة، وقال عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: أي: حجة، وقيل: ظهورًا على أصحاب النبي ﷺ.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أي: يعاملونه معاملة المخادعين «وَهُوَ خَادِعُهُمْ»، أي: مجازيهم على خداعهم؛ ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني: المنافقين ﴿قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ أي: متثاقلين، لا يُريدون بها الله، فإن رآهم أحدٌ صلَّوا وإلاَّ انصرفُوا فلا يُصلون ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: يفعلون ذلك مراءاةً للناس لا اتِّباعًا لأمر الله ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقال قتادة: إنَّما قلَّ ذكرُ المنافقين؛ لأن الله تعالى لم يقبله، وكلُّ ما قَبِلَ الله فهو كثير.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مترددين متحيِّرين بين الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: ليسوا من المؤمنين فيجب عليهم ما يجب على المؤمنين، وليسوا من الكفار فيُؤخذ منهم ما يُؤخذ من الكفار ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا إلى الهُدى.

عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرَّة وإلى هذه مرَّة»[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار، وقال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجَّة بيِّنةً في عذابكم، ثم ذكر منازل المنافقين، فقال جلَّ ذكره:

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾» في توابيت من حديد مقفلة في النار، وقال أبو هريرة: بيت مقفل عليهم، تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ مانعًا من العذاب.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ مِنَ النفاق وآمنوا ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ عملهم ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا بالله ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أراد: الإخلاص بالقلب؛ لأن النفاق كفر القلب، فَزوالُه يكون بإخلاص القلب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الفرَّاء: من المؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ أي: إن شكرتم نعماءَهُ ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به، فيه تقديم وتأخير، تقديره: إن آمنتم وشكرتم؛ لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، وهذا استفهام بمعنى التقرير، معناه: إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عبادَهُ لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا يُنْقِصُ من سلطانه، والشكرُ: ضدُّ الكفر، والكفر ستر النعمة، والشكر إظهارُها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده وإضعاف

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين برقم٢٧٨٤: (٤/ ٢١٤٦).

الثواب عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب.

قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ يعني: لا يحب الله الجهر بالقبح من القول إلا من ظلم، فيجوز للمظلوم أن يخبر عن ظلم الظالم وأن يدعو عليه.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «المستبَّان ما قالا، فعلى البادىء ما لم يَعْتَدِ المظلوم»[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لدعاء المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بعقاب الظالم.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ يعني: حسنةٌ فيَعملُ بها كُتِبَتْ له عشرًا، وإنْ همَّ بها ولم يعملها كُتِبَتْ له حسنة واحدة، وهو قوله: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ وقيل: المراد من الخير: المال، يُريدُ: إنْ تُبدوا صدقةً تُعطونها جهرًا أو تخفوها فتعطونها سرًّا ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾ أي: عن مَظْلَمَةٍ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فهو أولى بالتجاوز عنكم يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية، نزلت في اليهود؛ وذلك أنهم آمنوا بموسى ﷺ والتوراة وعُزير، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد والقرآن ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: دينًا بين اليهودية والإسلام، ومذهبًا يذهبون إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ حقق كفرهم؛ ليعلم أن الكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٥٨٧: (٤/ ٢٠٠٠)، والبخاري في «الأدب المفرد»: ص١٢٧.

عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كُلّهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: بين الرُّسل، وهم المؤمنون، يقولون: لا نُفَرِّق بين أحدٍ من رسله ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بإيمانهم بالله وكتبه ورسله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية؛ وذلك أنَّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله ﷺ: إنْ كنتَ نبيًّا فأْتِنَا بكتاب جملةً من السماء، كما أتى به موسى عليه السلام؛ فأنزل الله عليه: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ»، وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكُّم واقتراح، لا سؤال انقياد، والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، قوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أعظم من ذلك، يعني: السبعين الذين خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عيانًا، قال أبو عُبيدة: معناه: قالوا جهرة: أرِنَا الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ يعني: إلهًا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ ولم نستأصلهم، قيل: هذا استدعاء إلى التوبة، معناه: أن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم، فتُوبوا أنتم حتى نعفوَ عنكم ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي: حجَّةً بيِّنةً من المعجزات، وهي الآيات التسع.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ معناه: لا تعتدوا ولا تظلموا باصطياد الحيتان فيه ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبنقضهم، ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ختم عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: ممن كذَّب الرُّسلَ لا ممن طُبِعَ على قلبه؛ لأنَّ من طبعَ اللهُ على قلبه لا يُؤمن أبدًا.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ حين رموها بالزنا ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وذلك أنَّ الله تعالى ألقى شَبَهَ عيسى عليه السلام على الذي دلَّ اليهودَ عليه، وقيل: إنهم حبسوا عيسى عليه السلام في بيت وجعلوا عليه رقيبًا، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه، وقيل غير ذلك، كما ذكرنا في سورة آل عمران.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في قتله ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: في قتله، ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ من حقيقة أنه قتل أو لم يُقتل، ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ لكنهم يتبعون الظنَّ في قتله، قال الله جلَّ جلاله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: ما قتلوا عيسى يقينًا ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعًا بالنقمة من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾ حكم باللعنة والغضب عليهم.

وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: وما من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ بعيسى عليه السلام، قبل موته.

وذهب قومٌ إلى أن الهاء في «مَوْتِهِ» كناية عن عيسى عليه السلام، معناه: وإن من أهل الكتاب إلا لَيُؤمِنَنَّ بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام؛ وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحدٌ إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة، ملة الإسلام.

وروينا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يُوشِكُ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَمًا عدْلاً يكسرُ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزية، ويفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحدٌ، ويهلك في زمانه الملل كلُّها إلاَّ الإسلام، ويقتلُ الدَّجالَ فيمكثُ في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفَّى ويُصلي عليه المسلمون»، وقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: «وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قبل موت عيسى ابن مريم، ثم يُعيدها أبو هريرة ثلاث مرات[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ يعني: عيسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أنَّه قد بلَّغهم رسالة ربه، وأقر بالعبودية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وهو ما تقدم ذكره من: نقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وبُهتانهم على مريم، وقولهم: إنَّا قتلنا المسيح ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي ما ذكر في سُورة الأنعام، فقال: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ» [الأنعام: ١٤٦].

ونظم الآية: فبظلم من الذين هادوا وهو ما ذكرنا ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ وبصرفهم أنفسَهم وغيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: عن دين الله صدًّا كثيرًا.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ في التوراة ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ من الرشا في الحكم، والمآكل التي يصيبونها من عوامِّهم؛ عاقبناهم بأنْ حرَّمنا عليهم طيباتٍ، فكانُوا كلَّما ارتكبوا كبيرةً حُرِّم عليهم شيءٌ من الطيبات التي كانت حلالاً لهم، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ يعني: ليس كل أهل الكتاب بهذه الصفة، لكن الراسخون

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٩٠ - ٤٩١)، ومسلم برقم١٥٥: (١/ ١٣٥).

البالغون في العلم أولو البصائر منهم، وأراد به: الذين أسلموا من علماء اليهود، مثل: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: المهاجرون والأنصار ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: سائر الكتب المنزلة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

واختلفوا في وجهه؛ فقال بعضهم: معناه: لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة، وقيل: معناه: يؤمنون بما أُنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة، ثمَّ قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رجوع إلى النسق الأوَّل ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فذكر عدَّةً من الرسل الذين أوحى إليهم، وبدأ بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام، قال الله تعالى: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ» [الصافات: ٧٧]؛ ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول من عذبت أُمته لردِّهم دعوته، وأُهلك أهلُ الأرض بدعائه، وكان أطول الأنبياء عمرًا، وجعلت معجزته في نفسه؛ لأنه عمِّر ألف سنة فلم تسقط له سن ولم تشب له شعرة ولم تنتقص له قوَّة، ولم يصبر نبيٌّ على أذَى قومه ما صبر هو على طول عمره.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب، ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وهو اسم الكتاب الذي أنزل الله تعالى على داود عليه السلام، وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عزَّ وجلَّ.

عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أُعطيتَ مِزْمَارًا من مَزَامِيرِ آلِ داود»، فقال: أمَا واللهِ يا رسول الله، لو علمتُ أنَّك تستمعُ لحَبَّرتُه لك تحبيرًا»[1]، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا رآه يقول: ذكِّرْنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده.

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وكما أوحينا إلى نوح وإلى الرسل، وقيل: معناه: وقصصنا عليك رسلاً.

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٩٢)، ومسلم برقم٧٩٣: (١/ ٥٤٦).

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ فيقولوا: ما أرسلتَ إلينا رسُولاً، وما أنزلتَ إلينا كتابًا، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثه الرسل، قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» [الإسراء: ١٥] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

عن المغيرة قال: قال سعد بن عُبادة ـ رضي الله عنه ـ: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربتُه بالسيف غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «تعجبون من غيرة سعد؟ واللهِ لأنا أغْيَرُ منه، واللهُ أغيرُ مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الله الفواحش ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعثَ المُنذرين والمُبشرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد اللهُ الجنَّةَ»[1].

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن رؤساء مكة أَتَوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، سألْنَا عنك اليهودَ وعن صفتك في كتابهم فزعمُوا أنهم لا يعرفونَكَ، ودخل عليه جماعة من اليهود فقال لهم: إنِّي ـ والله ـ أعلم إنكم لتعلمون أَنِّي رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ إن جحدوك وكذَّبوك ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بكتمانِ نَعْتِ محمد ﷺ ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ قيل: إنما قال: «وَظَلَمُوا» ـ مع أن ظلمهم بكفرهم ـ تأكيدًا، وقيل: معناه: كفروا بالله وظلموا محمدًا ﷺ بكتمان نعته ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ يعني: دين الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/٣٩٩)، ومسلم برقم١٤٩٩: (٢/١١٣٦).

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ يعني: اليهودية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هذا في حق من سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ تقديره: فآمِنُوا يكن الإيمان خيرًا لكم ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ نزلت في النصارى، وهم أصناف: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية، وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله، وقالت المرقوسية: ثالث ثلاثة؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأصل الغلو: مجاوزة الحدّ، وهو في الدِّين حرام.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ لا تُشدِّدوا في دِينكم فتفترُوا على الله ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ لا تقولوا: إنَّ له شريكًا وولدًا ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ وهي قوله «كُنْ» فكان بشرًا من غير أب، ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: أعلمها وأخبرها بها، كما يقال: ألقيتُ إليك كلمة حسنة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ قيل: هو روح كسائر الأرواح إلا أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفًا.

وقيل: الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل ﷺ في دِرْعِ مريم فحملت بإذن الله تعالى، سُمِّي النفخ روحًا؛ لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره.

وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ أي: رحمة، فكان عيسى ﷺ رحمةً لمن تبعه وآمن به.

وقيل «الروح»: الوحي، أوحى إلى مريم بالبشارة، وإلى جبريل ﷺ بالنفخ، وإلى عيسى أن كُنْ فكان.

عن عُبادة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شَريْكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، وأنَّ الجنَّةَ والنَّارَ حقٌّ؛ أدْخَلَهُ الله الجنة على ما كانَ مِنَ العمل»[1].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ أي: ولا تقولوا هم ثلاثة، وكانت النصارى تقول: أب وابن وروح قدس ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ تقديره: انتهوا يكن الانتهاءُ خيرًا لكم ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ﴾ واعلم أنَّ التبني لا يجوز لله تعالى؛ لأن التبني إنَّما يجوز لمن يُتصوَّر له ولد ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٧٤)، ومسلم برقم٢٨: (١/ ٥٧).

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ وذلك أنَّ وفد نجران قالوا: يا محمد، إنَّك تعيب صاحبنا فتقول: إنه عبد الله؛ فقال النبي ﷺ: «إنَّه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكونَ عبدًا لله»، فنزل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لن يأنف ولن يتعظم، والاستنكاف: التكبر مع الأنَفَة ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم حملة العرش، لا يأنفون أن يكونوا عبيدًا لله. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ قيل: الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار هو العلو والتكبر من غير أنَفَة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ من التضعيف ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: هو القرآن، والبرهانُ: الحُجَّة ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ يعني: القرآن.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ امتنعوا به من زيغ الشيطان ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ يعني: الجنة ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ﴾ نزلت في جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ وصبَّ عليَّ من وضوئه، فعقلتُ فقلتُ: يا رسول الله ﷺ، لمن الميراث إنما يرثني الكلالة؟ فنزلت «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ»(١).

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٤٣)، ومسلم برقم١٦١٦: (٣/ ١٢٣٤).

وفي هذه الآية بيان حكم ميراث الأخوة للأب والأم أو للأب.

قوله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يستخبرُونكَ ويسألونَكَ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ﴾، ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ يعني: إذا ماتت الأخت فجميع ميراثها للأخ ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فإن كان لها ابنٌ فلا شيء للأخ، وإنْ كان ولدها أنثى فللأخ ما فَضُلَ عن فرض البنات ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أراد اثنتين فصاعدًا، وهو أنَّ من مات وله أخوات فلهنَّ الثلثان ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

عن البراء ـ رضي الله عنهم ـ قال: آخرُ سورةٍ نزلت كاملة براءة، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ»(١).

سورة المائدة

مائة وعشرون آية، نزلت بالمدينة كلها إلا قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية، فإنها نزلت بعرفات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ أي: بالعهود.

واختلفوا في هذه العقود، قال ابن جُريج: هذا خطاب لأهل الكتاب، يعني: يا أيُّها الذين آمنُوا بالكتب المتقدمة أَوْفُوا بالعهود التي عهدتُها إليكم في شأن محمد ﷺ، وهو قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ» [آل عمران: ١٨٧].

وقال آخرون: هو عام، وقال قتادة: أراد بها الحِلْف الذي تعاقدوا عليه في الجاهلية.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هي عهود الإيمان والقرآن.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٦٧)، ومسلم برقم١٦١٨: (٣/ ١٢٣٦ - ١٢٣٧).

وقيل: هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ قال الحسن وقتادة: هي الأنعام كلّها، وهي الإبل والبقر والغنم، وأراد تحليل ما حرَّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام.

وقيل: «بهيمة الأنعام» هي الأجنَّة التي تُوجد ميتة في بطون أُمهاتها إذا ذُبحت أو نحرت، ذهب أكثر أهل العلم إلى تحليله.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهم ـ قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة فنجد في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إنْ شِئْتُمْ فإنَّ ذكاتَه ذكاةُ أُمِّه»[١].

عن جابر، عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أُمِّه»[٢].

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما ذُكر في قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ» إلى قوله: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ» [المائدة: ٣] ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ أي: لا مُحِلِّي الصيد، ومعنى الآية: أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام كلّها إلا ما كان منها وحشيًّا فإنه صيدٌ لا يَحِلّ لكم في حال الإحرام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ نزلت في الحُطَم، واسمه: شريح بن ضُبَيْعَة البكري، أتى المدينة وخلّف خيله خارج المدينة، ودخل وحده على النبي ﷺ فقال له: إلامَ تدعُو الناسَ؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، فقال: حسن، إلا أن لي أُمراء لا أقطع أمرًا دونهم، ولَعَلِّي أُسلم وآتي بهم ـ وكان النبي ﷺ قال لأصحابه: يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان ـ ثم خرج شريح من عنده، فقال رسول الله ﷺ: لقد دخل بوجه كافر وخرجَ بقفا غادرٍ وما الرجل بمسلم، فمرَّ بسرح المدينة فاستاقه وانطلق، فاتبعوه فلم يُدركوه، فلمَّا كان العام القابل خرج حاجًّا في حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقدْ قلَّدَ الهَدْيَ، فقال المسلمون للنبي ﷺ: هذا الحطم قد خرج حاجًّا فخلِّ بيننا وبينه، فقال النبي ﷺ: إنه قد قلَّد الهَدْيَ، فقالوا: يا رسول الله، هذا شيء كنَّا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد: هي مناسك الحج، وكان المشركون يحجون ويهدون، فأرادَ المسلمون أن يُغيِّرُوا عليهم فنهاهم الله عن ذلك.

وقال أبو عبيدة: شعائر الله هي الهدايا المُشْعَرة، والإشْعار من الشعار، وهي العلامة، وإشعارها: إعلامها بما يُعرف أنها هَدْي، وهي سنَّة في الهدايا إذا كانت من الإبل، عن عائشة

---

(١) أخرجه أبو داود: (٤/ ١١٨)، والترمذي ما جاء في ذكاة الجنين، بلفظ: «ذكاة الجنين ذكاة أُمه»، وقال: حديث حسن، والدارقطني في الصيد: (٤/ ٢٧٤)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٣١، ٤٥، ٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الضحايا، باب ما جاء في ذكاة الجنين: (٤/ ١١٩).

ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: فتلتُ قلائدَ بُدْنِ النبي ﷺ بيدي، ثم قلّدَها وأشعرَها وأهداها، فما حَرُمَ عليه شيء كان أُحِلّ له»[1].

قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: القتال فيه، وقال ابن زيد: هي النسيء؛ وذلك أنهم كانوا يُحِلُّونه في الجاهلية عامًا ويُحَرِّمُونه عامًا ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وهو كل ما يُهْدَى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي: الهدايا المُقَلَّدة.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: قاصدين البيت الحرام، يعني: الكعبة فلا تتعرَّضوا لهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: الرزق بالتجارة ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: على زعمهم؛ لأن الكافرين لا نصيب لهم في الرضوان، وقال قتادة: هو أن يصلح معاشهم في الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من إحرامكم ﴿فَٱصْطَادُوا۟ۚ﴾ أمرُ إباحة، أباح للحَلال أخذ الصيد، كقوله تعالى: «فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ» [الجمعة: ١٠].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: لا يحملنَّكم، يقال: جرمني فلان على أن صنعتُ كذا، أي: حملني، ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي: بغضُهم وعداوتهم، ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ومعنى الآية: ولا يحملنَّكم عداوةُ قوم على الاعتداء لأنهم صدوكم، وقال محمد بن جرير: لأن هذه السورة نزلت بعد قضية الحديبية، وكان الصَّدُّ قد تقدم ﴿أَن تَعْتَدُوا۟ۘ﴾ عليهم بالقتل وأخذ الأموال ﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾ أي: ليعنْ بعضُكم بعضًا ﴿عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ قيل: البرُّ: متابعة الأمر، والتقوى: مجانبة النهي، وقيل: البر: الإسلام، والتقوى: السنة ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ قيل: الإثم: الكفر، والعدوان: الظلم، وقيل: الإثم: المعصية، والعدوان: البدعة.

عن النَّواس بن سمعان الأنصاري قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن البِرّ والإثْم؟ قال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإثْمُ ما حَاكَ في نَفْسِكَ وكرهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاس»[2].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٥٤٢)، ومسلم برقم١٣٢١: (٢/ ٩٥٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٥٥٣: (٤/ ١٩٨٠).

مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ما ذُكر على ذبحه اسم غير الله تعالى ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي تختنق فتموت، ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ هي المقتولة بالخشب، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تتردَّى من مكانٍ عالٍ، أو في بئر فتموت ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي تنطحها أُخرى فتموت ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ يريد: ما بقي ممَّا أكل السبع، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يعني: إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء.

وأصل التذكية: الإتمام، يقال: ذَكَّيتُ النارَ إذا أتممتُ إشعالها، والمراد هنا: إتمام فري الأوداج، وإنهار الدم، قال النبي ﷺ: «ما أَنْهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكُلْ غير السِّن والظفر»(١).

وأقل الذكاة في الحيوان المقدور عليه: قطع المري والحُلقوم، وكماله أن يقطع الودجين معهما، ويجوز بكل مُحدّد يقطع من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر إلا السن والظفر، فنهى النبي ﷺ عن الذبح بهما، وإنَّما يحلّ ما ذكيته بعدما جرحَه السبعُ، أو أكل شيئًا منه، إذا أدركْتَه والحياةُ فيه مستقرةٌ فذبحته، فأمَّا ما صار بجرح السبع إلى حالة المذبوح، فهو في حكم الميتة، فلا يكون حلالاً وإن ذبحتَه، وكذلك المتردِّية والنَّطيحة إذا أدركتَها حيَّةً قبل أن تصير إلى حالة المذبوح فذبحتها تكون حلالاً، ولو رمى إلى صيد في الهواء فأصابه فسقط على الأرض فمات كان حلالاً؛ لأن الوقوع على الأرض من ضرورته، فإن سقط على جبل أو شجر أو سطح ثم تردَّى منه فمات لا يحلّ، وهو من المتردية إلا أن يكون السهم أصاب مذبحه في الهواء فيحلّ كيفَ مَا وقع؛ لأن الذبح قد حصل بإصابة السهم المَذْبَح.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ قيل: النُّصُب جمعٌ، واحده نصاب، وقيل: هو واحد وجمعه أنصاب، مثل: عنق وأعناق، وهو الشيء المنصوب.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي: ويحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، والاستقسام هو: طلب القسم والحكم من الأزلام، والأزلام هي: القِداح التي لا ريش لها ولا نَصْل، وكانت أزلامهم سبعة قداح مستوية من شوحط(٢)، يكون عند سَادِنِ الكعبة، مكتوبٌ على واحدٍ: نعم، وعلى واحدٍ: لا، وعلى واحدٍ: منكم، وعلى واحدٍ: مِنْ غيركم، وعلى واحدٍ: مُلْصَق، وعلى واحدٍ: العقل، وواحد: غُفْل ليس عليه شيء، فكانوا إذا أرادوا أمرًا من سفر أو نكاح أو ختان أو غيره، أو تدارؤوا في نسبٍ أو اختلفوا في تحمُّل عقلٍ جاؤوا إلى هُبل، وكان أعظم أصنام قريش

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٦٣١)، ومسلم برقم١٩٦٨: (٣/١٥٥٨).
(٢) الشَّوْحَط: شجر تتخذ منه القِسيُّ. «القاموس المحيط»: (٢/ ٦٨٠). وانظر: «الميسر والقداح» لابن قتيبة: ص٤٤، وما بعدها.

بمكة، وجاؤوا بمائة درهم فأعطوها صاحب القداح؛ حتى يُجِيلَ القِدَاحَ، ويقولون: يا إلهنا إنَّا أردنا كذا وكذا، فإن خرج «نعم» فعلوا، وإن خرج «لا» لم يفعلوا ذلك حولاً، ثمَّ عادوا إلى القِدَاح ثانيةً، فإذا أجالوا على نسبٍ، فإن خرج «منكم» كان وسطًا منهم، وإن خرج «من غيركم» كان حليفًا، وإن خرج «ملصق» كان على منزلته لا نسب له ولا حلف، وإذا اختلفوا في عقل فمن خرج عليه قدح «العقل» حمله، وإن خرج «الغفل» أجالوا ثانيًا حتى يخرج المكتوب، فنهى الله عزَّ وجلَّ عن ذلك وحرَّمه، وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ يعني: أنْ ترجِعُوا إلى دينهم كفارًا، وذلك أن الكفار كانوا يَطْمَعُون في عَوْدِ المسلمين إلى دينهم، فلما قوي الإسلام يئسوا.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ نزلت هذه الآية يوم الجمعة، يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء، فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت.

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلتْ لاتَّخذْنَا ذلك اليوم عيدًا، قال: أَيَّةُ آيةٍ؟ قال: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا»، قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة[1]. أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيدًا لنا.

وكانت هذه الآية نعي النبي ﷺ وعاش بعدها واحدًا وثمانين يومًا، ومات يوم الاثنين بعدما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل: تُوفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وكانت هجرته في الثاني عشر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يعني: يوم نزول هذه الآية أكملت لكم دينكم، يعني: الفرائض والسُّنن والحُدود والجهاد والأحكام والحلال والحرام، فلم ينزل بعد هذه الآية حلالٌ ولا حرام، ولا شيء من الفرائض. هذا معنى قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ يعني: وأنجزت وعدي في قولي «وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ» [البقرة: ١٥٠]، فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين، وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ أي: أُجهد في مجاعة، والمخمصة خلو البطن من الغذاء، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: مائل إلى إثم: وهو أن يأكل فوق الشبع، وقال قتادة: غير متعرض لمعصية في مقصده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفيه إضمار، أي: فأكله، فإن الله غفور رحيم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٧٠٠).

عن أبي واقد الليثي قال رجل: يا رسول الله، إنَّا نكون بالأرض فتصيبُنا بها المخمصة، فمتى تَحِلّ لنا الميتة؟ فقال: «ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تحتفئوا بها بقلاً فشأنكم بها»[١].

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية، نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين، وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ زيد الخير، قالا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحلّ لنا منها؟ فنزلت هذه الآية.

وقيل: سبب نزولها أن النبي ﷺ لما أمر بقتل الكلاب قالوا: يا رسول الله، ماذا يحلّ لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية؛ فلمَّا نزلت أَذِنَ رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي يُنتفع بها، ونهى عن إمساك مَا لاَ نفعَ فيه منها.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «من اتخذ كلبًا إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع، انتقص من أجره كل يوم قيراط»[٢]، والأول أصح في سبب نزول هذه الآية.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ يعني: الذبائح على اسم الله تعالى، قيل: كل ما تستطيبه العرب وتستلذّه من غير أنْ يرد بتحريمه نصٌّ من كتاب أو سنة ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ يعني: وأحل لكم صيد ما علّمتم من الجوارح.

فيَحلّ صيدُ جميعها، سميت جارحة: لجرحها لأربابها أقواتهم من الصيد، أي: كسبها، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ والمُكلِّب الذي يغري الكلاب على الصيد، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ تؤدبونهن آدابَ أخذ الصيد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: من العلم الذي علَّمكم الله، وقال السدي: أي: كما علَّمكم الله، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أراد أن الجارحة المعلَّمة إذا خرجتْ بإرسال صاحبها فأخذتِ الصيدَ وقتلتْه كان حلالاً، والتعليم هو أن يُوجدَ فيه ثلاثةُ أشياء: إذا أُشليتْ استَشْلَتْ، وإذا زُجِرَتْ انزجَرَتْ، وإذا أخذتِ الصيدَ أَمْسَكَتْ ولم تأكل، وإذا وجد ذلك منه مرارًا وأقله ثلاث مرات كانت معلَّمة، يحل قتلها إذا خرجت بإرسال صاحبها.

عن عدي بن حاتم، عن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلتَ كلبَك المعلَّم وسمّيتَ فأمسكَ وقتلَ فَكُلْ، وإن أكل فلا تأكل فإنَّما أمسك على نفسه، وإذا خالط كلابًا لم يذكر اسم الله عليها فأمسكنَ وقتلنَ فلا تأكل فإنك لا تدري أيَّها قتل، وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُلْ، وإن وقع في الماء فلا تأكل»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والدارمي (٢/ ٨٨)، وصححه ابن كثير على شرط الشيخين.
(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٥)، وأخرجه مسلم برقم١٥٧٥: (٣/ ١٢٠٣).
(٣) أخرجه البخاري: (٩/ ٦١٠)، ومسلم برقم١٩٢٩: (٣/ ١٥٣١).

عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت: يا نبي الله، إنَّا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم، وبأرض صيدٍ أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلّم، وبكلبي المعلم فما يصح لي؟ قال: «أمَّا ما ذكرت من آنية أهل الكتاب: فإنْ وجدتمْ غيرَها فلا تأكُلوا فيها، وإن لم تجدُوا فاغسلُوها وكُلُوا فيها، وما صِدْتَ بقوسك فذكرتَ اسمَ الله عليه فَكُلْ، وما صدتَ بكلبك المعلّم فذكرتَ اسمَ الله عليه فَكُلْ، وما صِدْتَ بكلبك غير المعلّم فأدركتَ ذكاتَه فَكُلْ»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ففيه بيان أن ذكرَ اسمِ الله عزَّ وجلَّ على الذبيحة شرطٌ حالةَ ما يُذبح، وفي الصيد حالةَ ما يُرسل الجارحةَ أو السهمَ.

عن أنس قال: «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر، قال: رأيته واضعًا قدمه على صِفَاحِهِمَا ويذبحهما بيده ويقول: بسم الله والله أكبر»[2].

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ يعني: الذبائح على اسم الله عزَّ وجلَّ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يريد: ذبائح اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأُمم قبل مبعث النبي محمد ﷺ حلالٌ لكم، فأمَّا من دخل في دينهم بعد مبعث محمد ﷺ فلا تحلّ ذبيحتُه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فإن قيل: كيف شرع لهم حِلّ طعامنا وهم كفار ليسوا من أهل الشرع؟! قال الزجاج: معناه: حلال لكم أن تطعموهم فيكون خطاب الحِلِ مع المسلمين، وقيل: لأنه ذكر عقيبه حكم النساء، ولم يذكر حِلَّ المسلمات لهم فكأنه قال: حلالٌ لكم أن تطعموهم حرام عليكم أن تُزوجوهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هذا راجع إلى الأول منقطع عن قوله: «وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ».

اختلفوا في معنى «المحصنات»، فذهب أكثر العلماء إلى أنَّ المراد منهنَّ: الحرائر، وأجازوا نكاح كل حرَّة: مؤمنة كانت أو كتابية، فاجرة كانت أو عفيفة، وهو قول مجاهد، وقال هؤلاء: لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى: «فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ» [النساء: ٢٥]،

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٦٠٤ - ٦٠٥)، ومسلم برقم١٩٣٠: (٣/ ١٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ١٨)، ومسلم برقم١٩٦٦: (٣/ ١٥٥٦ - ١٥٥٧).

جوَّز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وجوَّز أكثرهم نكاح الأمة الكتابية الحربية، وقال ابن عباس: لا يجوز، وقرأ: «قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ»، إلى قوله: «حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ» [التوبة: ٢٩]، فمن أعطى الجزية حَلَّ لنا نساؤه ومن لم يُعطِها فلا يحلّ لنا نساؤه.

وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات في الآية: العفائف من الفريقين، حرائرَ كُنَّ أو إماء، وأجازوا نكاح الأمة الكتابية، وحرَّموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهو قول الحسن، وقال الشعبي: إحصان الكتابية أن تستعف عن الزنا وتغتسل من الجنابة.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهنَّ ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غير مُعالنين بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي: يسرون بالزنا، قال الزجاج: حرَّم الله الجماع على جهة السفاح وعلى جهة اتخاذ الصديقة، وأحله على جهة الإحصان: وهو التزويج.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

قال ابن عباس ومجاهد في معنى قوله تعالى: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ» أي: بالله الذي يجب الإيمانُ به.

وقال الكلبي: «بِٱلْإِيمَٰنِ»، أي: بكلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله.

«وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ» قال ابن عباس: خسر الثواب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتُم القيامَ إلى الصلاةِ.

وظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء عند كلِّ مرَّةٍ يريد القيام إلى الصلاة، لكن أُعلمنا ببيان السُّنَّة وفعل النبي ﷺ أنَّ المرادَ من الآية: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ» وأنتم على غير طُهْرٍ، قال النبي ﷺ: «لا يقبلُ الله صلاةَ أحدكم إذا أحدثَ حتى يتوضأ»(١).

وقد جمع النبي ﷺ يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه أنَّ النبي ﷺ صلَّى يومَ فتحِ مكةَ الصلوات الخمس بوضوءٍ واحدٍ، ومسح على خُفيه(٢).

وقال بعضهم: هذا إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ أن لا وضوء عليه إلاَّ إذا قام

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٢٣٤)، ومسلم برقم٢٢٥: (١/ ٢٠٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٧٧: (١/ ٢٣٢).

إلى الصلاةِ دون غيرها من الأعمال، فأذن له أن يفعل بعد الحدث ما بَدَا له من الأفعال غير الصلاة، عن عمرو بن دينار، سمع سعيد بن الحويرث، سمع ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: «كنَّا عند النبي ﷺ فرجع من الغائط فأُتِيَ بطعامٍ فقيل له: ألا تتوضأ؟ فقال لهم: لِمَ؟ أأُصلي فأتوضأ!»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ وحدُّ الوجه من مَنَابِتِ شعر الرأس إلى مُنتهى الذقن طولاً وما بين الأُذنين عرضًا، يجب غسل جميعه في الوضوء، ويجب أيضًا إيصالُ الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والشارب والعذار أو العنفقة وإن كانت كثيفة، وأمَّا العارض واللحية فإن كانت كثيفة لا تُرى البشرة من تحتها لا يجب غسل باطنها في الوضوء، بل يجب غسل ظاهرها.

قوله تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق.

وأكثر العلماء على أنه يجب غسل المرفقين، وفي الرِّجْل يجب غسل الكعبين.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ اختلف العلماء في قدر الواجب من مسح الرأس، قال مالك: يجب مسح جميع الرأس كما يجب مسح جميع الوجه في التيمم، وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربع الرأس، وعند الشافعي: يجب قدرُ ما يُطلق عليه اسم المسح.

واحتج من أجاز مسح بعض الرأس بحديث المغيرة بن شعبة «أنَّ النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى عمامته وخُفيه»[2].

ولم يُجوِّز أكثر أهل العلم المسح على العمامة بدلاً من مسح الرأس، وقالوا: في حديث المغيرة إن فرض المسح سقط عنه بمسح الناصية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص «وَأَرۡجُلَكُمۡ» بنصب اللام، وقرأ الآخرون «وأرجلِكم» بالخفض، فمن قرأ «وَأَرۡجُلَكُمۡ» بالنصب فيكون عطفًا على قوله: «فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ» أي: واغسلوا أرجلكم، ومن قرأ بالخفض فقد ذهب قليل من أهل العلم إلى أنه يمسح على الرجلين، ورُوي عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان، ويُروى ذلك عن عكرمة وقتادة، وقال الشعبي: نزل جبريل بالمسح وقال: ألا ترى المتيمم يمسح ما كان غسلاً ويلغي ما كان مسحًا؟

وقال محمد بن جرير الطبري: يتخيَّر المتوضىء بين المسح على الخفين وبين غسل الرجلين.

وذهب عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى وجوب غسل الرجلين، وقالوا: خفض اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم، كما قال تبارك وتعالى: «عَذَابَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم٣٧٤: (١/ ٢٨٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٧٥: (١/ ٢٣١).

يَوۡمٍ أَلِيمٍ» [هود: ٢٦]، فالأليم صفة العذاب، ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة، وكقولهم: جُحْرُ ضبٍّ خربٍ، فالخرب نعت للجُحر، وأخذ إعراب الضبِّ للمجاورة.

والدليل على وجوب غسل الرجلين: عن عبد الله بن عمرو قال: «تخلف عنَّا رسول الله ﷺ في سفر سافرناه، فأدركَنا وقد أرهقتنا الصلاةُ - صلاة العصر - ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادانا بأعلى صوته: وَيْلٌ للأعقابِ مِنَ النَّارِ»(١).

عن حمران مولى عثمان قال: «رأيتُ عثمان - رضي الله عنه - توضأ فأفرغ على يديه ثلاثًا ثم مضمض واستنشق واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثًا، ثم غسل يده اليسرى إلى المرفق ثلاثًا، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى ثلاثًا ثم اليسرى ثلاثًا، ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ توضأ نحو وُضوئي هذا، ثم قال: من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدِّثُ نفسَه فيهما بشيء، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه»(٢).

عن عروة بن المغيرة، عن أبيه - رضي الله عنهما - قال: كنتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة في سفر فقال: «أمعك ماء»؟ فقلت: نعم، فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عني في سواد الليل، ثم جاء فأفرغتُ عليه من الإداوة فغسل وجهه ويديه، وعليه جبة من صوف فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبة فغسل ذراعيه، ثم مسح برأسه، ثم أهويتُ لأنزع خفيه فقال: «دَعْهُما فإني أدخلتُهما طاهرتين»، فمسح عليهما(٣).

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ فالكعبان هما: العظمان الناتئان من جانبي القدمين، وهما مجتمع مفصل الساق والقدم، فيجب غسلهما مع القدمين كما ذكرنا في المرفقين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ أي: اغتسلوا. عن عائشة - رضي الله عنها -: «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء فيخلل بها أصول شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على جلده كله»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم﴾ بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم ﴿مِّنۡ حَرَجٖ﴾ ضيق ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ من الأحداث والجنابات

(١) أخرجه البخاري في العلم: (١/ ١٨٩)، ومسلم برقم٢٤١: (١/ ٢١٤).
(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٢٥٩)، (٤/ ١٥٨)، ومسلم برقم٢٢٦: (١/ ٢٠٥).
(٣) أخرجه البخاري: (١٠/ ٢٦٨ - ٢٦٩)، ومسلم برقم٢٧٤: (١/ ٢٣٠).
(٤) أخرجه البخاري: (١/ ٣٦٠)، ومسلم برقم٣١٦: (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤).

والذنوب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: إتمام النعمة تكفير الخطايا بالوضوء.

عن هشام بن عروة عن أبيه، عن حمران: أنَّ عثمان توضأ بالمقاعد ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من توضَّأ وضوئي هذا خرجتْ خطاياه من وجهه ويديه ورجليه»[١].

عن نعيم المُجْمِر قال: رقيت مع أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ على ظهر المسجد فتوضأ، قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أُمتي يُدعون يومَ القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع أن يُطيل منكم غُرته فليفعل»[٢].

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: النِّعم كلها ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ عهده الذي عاهدكم به أيها المؤمنون ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وذلك حين بايعوا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا، هذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد ومقاتل: يعني الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: كُونوا قائمين بالعدل قوَّالين بالصدق، أمرهم بالعدل والصدق في أفعالهم وأقوالهم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يحملنكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ بغضُ قوم ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: على ترك العدل فيهم لعداوتهم، ثم قال: ﴿اعْدِلُوا﴾ يعني: في أوليائكم وأعدائكم ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يعني: إلى التقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في «المسند»: (١/ ٣١ ـ ترتيب المسند)، والبخاري: (١/ ٢٥٩) بلفظ: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»، ومسلم برقم٢٤٥: (١/ ٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٢٣٥)، ومسلم برقم٢٤٦: (١/ ٢١٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١ ۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالدفع عنكم ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بالقتل.

قال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخل فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة، فأطلع الله تبارك وتعالى نبيه على ذلك، وأنزل الله صلاة الخوف.

وقال الحسن: كان النبي ﷺ محاصرًا غطفان بنخل، فقال رجل من المشركين: هل لكم في أن أقتل محمدًا؟ قالوا: وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قالوا: وددنا أنك قد فعلت ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ والنبيُّ ﷺ متقلد سيفه، فقال: يا محمد، أرني سيفك، فأعطاه إيَّاه، فجعل الرجل يهزّ السيف وينظر مرة إلى السيف ومرة إلى النبي ﷺ، وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: الله، فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فشام السيف ومضى؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد وعكرمة والكلبي وابن يسار عن رجاله: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، في ثلاثين راكبًا من المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة، فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة، وهي من مياه بني عامر، فاقتتلوا، فقتل المنذر بن عمرو وأصحابه إلا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالة لهم، أحدهم عمرو بن أمية الضَّمْري، فلم يرعهم إلا الطير تحوم في السماء، يسقط من بين خراطيمها علق الدم، فقال أحد النفر: قتل أصحابنا، ثم تولى يشتد حتى لقي رجلاً فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال: الله أكبر الجنة وربِّ العالمين، فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم، وكان بين النبي ﷺ وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بني عامر فقتلاهما، وقدم قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون الدية، فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهم ـ، حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات، قالوا: نعم يا أبا القاسم، قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلسْ حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته، فجلس رسول الله ﷺ

وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحاش: أنا، فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده وجاء جبريل وأخبره، فخرج النبي ﷺ راجعًا إلى المدينة ثم دعا عليًّا فقال: لا تبرح مقامك، فمن خرج عليك من أصحابي فسألك عني فقل: توجه إلى المدينة، ففعل ذلك علي ـ رضي الله عنه ـ حتى تناهوا إليه ثم تبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ناصركم على عدوكم، ثم ابتدأ الكلام فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ يا معشر بني إسرائيل ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ نصرتموهم، وقيل: ووقرتموهم وعظمتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قيل: هو إخراج الزكاة، وقيل: هو النفقة على الأهل ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ لأمحونَّ عنكم سيئاتكم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ قصد السبيل، يريد: طريق الحق.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي: بنقضهم ﴿مِّيثَاقَهُمْ﴾ قال قتادة: نقضوه من وجوه؛ لأنهم كذَّبوا الرسل الذين جاؤوا بعد موسى، وقتلوا أنبياء الله، ونبذوا كتابه، وضيَّعوا فرائضه ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ قال عطاء أبعدناهم من رحمتنا، قال الحسن ومقاتل: عذبناهم بالمسخ ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان، بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ قيل: هو تبديلهم نعت النبي ﷺ، وقيل: تحريفهم بسوء التأويل ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: وتركوا نصيبَ أنفسهم مما أُمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: على خيانة، وقيل: على فرقة خائنة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «عَلَىٰ خَائِنَةٍ»، أي: على معصية، وكانت خيانتهم: نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وهمّهم بقتله وسمّه،

ونحوهما من خياناتهم التي ظهرت ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا ولم ينقضوا العهد، وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ أي: أعرض عنهم ولا تتعرض لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ قيل: أراد بهم اليهود والنصارى، فاكتفى بذكر أحدهما، والصحيح أن الآية في النصارى خاصَّة؛ لأنه قد تقدم ذكر اليهود، وقال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسميةِ الله تعالى، أخذنا ميثاقهم في التوحيد والنبوة ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالأهواء المختلفة والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني: بين اليهود والنصارى، وقال قوم: هم النصارى وحدهم صاروا فرقًا، منهم: اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكل فرقة تكفِّر الأُخرى ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في الآخرة.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يريد: يا أهل الكتابَيْنِ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من التوراة والإنجيل، مثل: صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغير ذلك ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم، فلا يتعرض له ولا يؤاخذكم به ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، وقيل: الإسلام ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن، وقيل: مُبيِّن، وهو القرآن.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ رضاه ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ قيل: السلام هو الله عزَّ وجلَّ، وسبيله: دينه الذي شرع لعباده، وبعث به رسله، وقيل: السلام هو السلامة، كاللَّذاذ واللَّذاذة بمعنى واحد، والمراد به: طرق السلامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتوفيقه وهدايته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهم اليعقوبية من النصارى، يقولون: المسيح هو الله تعالى ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئًا إذا قضاه؟ ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ قيل: أرادوا أن الله تعالى لنا كالأب في الحنو والعطف، ونحن كالأبناء له في القرب والمنزلة، وقال إبراهيم النخعي: إن اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري، فبدلوا: يا أبناء أبكاري، فمن ذلك قالوا: نحن أبناء الله، وقيل: معناه: نحن أبناء رسل الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ يريد: إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه، فإن الأب لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مقرون أنه معذبكم؟ وقيل: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُم»، أي: لِمَ عذَّب من قبلكم بذنوبهم فمسخهم قردة وخنازير؟ ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ كسائر بني آدم، مجزيون بالإساءة والإحسان ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فضلاً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ عدلاً ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أعلام الهدى وشرائع الدين ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: انقطاع من الرسل.

وسُمِّيتْ فترة؛ لأن الرسل كانت تترى بعد موسى عليه السلام من غير انقطاع إلى زمن عيسى عليه السلام، ولم يكن بعد عيسى عليه السلام سوى رسولنا ﷺ ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ كيلا تقولوا ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾

أي: منكم أنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

قال أبو عبد الرحمن الحُبُليُّ: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجلٌ فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإنَّ لي خادمًا، قال: فأنت من الملوك(١).

قال السدي: وجعلكم ملوكًا أحرارًا تملكون أمر أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم، ﴿وَءَاتَنكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يعني: عالمي زمانكم.

قوله تعالى: ﴿يَنقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ اختلفوا في الأرض المقدسة، قال مجاهد: هي الطور وما حوله، وقال الضحاك: إيليا وبيت المقدس، وقال عكرمة والسدي: هي أريحاء، وقال الكلبي: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هي الشام كلها، قال كعب: وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أعقابكم، بخلاف أمر الله ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

قَالُوا يَنمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَنمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

﴿قَالُوا يَنمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ أصل الجبار: المتعظم الممتنع عن القهر، يُقال: نخلة جبارة، إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدي إليها، وسُمِّي أولئك القوم جبارين؛ لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تعالى، والرجلان كانا من الجبارين فأسلما واتبعا موسى ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتوفيق والعصمة، قالا: ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ يعني: قرية الجبارين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ لأنَّ الله تعالى منجز وعده، وإنا رأيناهم وأجسامهم

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٧٩: (٤/ ٢٢٨٥).

عظيمة وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام: «فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ»، ولكنَّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرق وجهُه وسرَّه ما قال[1].

فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من مخالفتهم أمر ربهم وهمِّهم بيوشع وكالب غضب موسى عليه السلام ودعا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ قيل: معناه: وأخي لا يملك إلا نفسه، وقيل: معناه: لا يطيعني إلا نفسي وأخي ﴿فَٱفْرُقْ﴾ فافصل ﴿بَيْنَنَا﴾ قيل: فاقض بيننا ﴿وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ العاصين.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هاهنا تم الكلام، معناه: تلك البلدة محرمة عليهم أبدًا، لم يرد به تحريم تعبد، وإنما أراد تحريم منع، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ «يَتِيهُونَ» مكان كل يوم من الأيام التي تحبسون فيها سنة، ولألقين جيفهم في هذه القفار، وأمَّا بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، ﴿يَتِيهُونَ﴾ يتحيرون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا تحزن على مثل هؤلاء القوم.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهما هابيل وقابيل[2]، ويقال له: قابين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: (٧/ ٢٨٧).

(٢) هذه التسمية لابني آدم: (قابيل، هابيل) إنما هي من نقل العلماء عن أهل الكتاب، لم يرد بها نص في القرآن، ولا جاءت في سنة ثابتة فيما نعلم، فلا علينا أن لا نجزم بها ولا نرجحها، وإنما هي قول قيل. أنظر: «عمدة التفسير» للشيخ أحمد شاكر: (٤/ ١٢٣).

واختلفوا في مولد قابيل وهابيل، فقال بعضهم: غشي آدم حواءَ بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته أقليما في بطن واحدة، ثم ولد هابيل وتوأمته لبودا في بطن.

وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار من السماء بيضاء فأكلتها، وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسباع، فخرجا ليقربا قربانًا، وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من الطعام من أردأ زرعه، وأضمر في نفسه ما أُبالي أيقبل مني أم لا، وكان هابيل صاحب غنم، فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقرب به، وأضمر في نفسه رضا الله عزَّ وجلَّ، فوضعا قربانهما أعلى الجبل، ثم دعا آدم عليه السلام فنزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ يعني: هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ يعني: قابيل، فنزلوا عن الجبل وقد غضب قابيل لردِّ قربانه، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّ الله تعالى قبل قربانك وردَّ قرباني، ﴿قَالَ﴾ هابيل: وما ذنبي؟! ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ أي: مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ﴾ ترجع، وقيل: تحتمل ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: بإثم قتلي إلى إثمك، أي: إثم معاصيك التي عملت من قبل، هذا قول أكثر المفسرين. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: معناه إني أريد أن يكون عليك خطيئتي التي عملتها أنا إذا قتلتني وإثمك، فتبوء بخطيئتي ودمي جميعًا، وقيل: معناه أن ترجع بإثم قتلي وإثم معصيتك التي لم يتقبل لأجلها قربانك، أو إثم حسدك.

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: طاوعته وشايعته وعاونته ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي: في قتل أخيه.

﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ فلما رأى قابيل ذلك قال: يا ويلتا ـ كلمة تحسر ـ فقيل: لما رأى الدفن من الغراب أنه أكبر علمًا منه، وأنَّ ما فعله كان جهلاً فندم وتحسر ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ أي: جيفته، وقيل: عورته؛ لأنه كان قد سلب ثيابه ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على حمله على عاتقه لا على قتله، وقيل: على فراق أخيه، وقيل: ندم لقلة النفع بقتله، فإنه أسخط والديه، وما انتفع بقتله شيئًا، ولم يكن ندمه على القتل وركوب الذنب.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنَّه أوَّل من سنَّ القتل»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٦٤)، ومسلم برقم١٦٧٧: (٣/ ١٣٠٣ - ١٣٠٤).

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من جراء ذلك القاتل وجنايته، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قتلها، فيقاد منه ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: بغير نفس، وبغير فساد في الأرض من: كفر أو زنا أو قطع طريق أو نحو ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ اختلفوا في تأويلها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عكرمة: من قتل نبيًّا أو إمامًا عدلاً فكأنما قتل الناسَ جميعًا، ومن شدَّ على عصبة نبيٍّ أو إمام عدل فكأنما أحيا الناسَ جميعًا.

قال مجاهد: من قتل نفسًا محرَّمة يَصْلَى النار بقتلها، كما يصلاها لو قتل الناس جميعًا ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال مجاهد: من قتل نفسًا محرَّمة يَصْلَى النار بقتلها، كما يصلاها لو قتل الناس جميعًا ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ مَن سلم مِن قتلها فقد سلم مِن قتل الناس جميعًا.

قال قتادة: عظَّم الله أجرها وعظَّم وزرها، معناه: مَن استحل قتل مسلم بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا في الإثم؛ لأنهم لا يسلمون منه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ قال قتادة: عظَّم الله أجرها وعظَّم وزرها، معناه: مَن استحل قتل مسلم بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا في الإثم؛ لأنهم لا يسلمون منه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ وتورَّع عن قتلها ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ في الثواب؛ لسلامتهم منه. ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية، قال الضحاك: نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض.

وقال الكلبي: نزلت في قوم هلال بن عويمر؛ وذلك أن النبي ﷺ وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومَن مرَّ بهلال بن عويمر إلى رسول الله ﷺ فهو آمن لا يهاج، فمرَّ قومٌ من بني كنانة يريدون الإسلام بناس من أسلم من قوم هلال بن عويمر، ولم يكن هلال شاهدًا فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضية فيهم.

وقال سعيد بن جبير: نزلت في ناس من عُرَيْنَةَ وعُكْلٍ أتوا النبي ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فبعثهم النبي ﷺ إلى إبل الصدقة، فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم على النبي ﷺ نفر من عُكْل فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم، فأُتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَلَ أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا.

ورواه أيوب عن أبي قلابة عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم أمر بمسامير فكحلهم بها، وطرحهم بالحرة يستسقون، فما يسقون حتى ماتوا، قال أبو قلابة: قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسولَه وسعوا في الأرض فسادًا[١]، وهو المراد من قوله: «**وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا**».

واختلفوا في حكم هؤلاء العرنيين، فقال بعضهم: هي منسوخة؛ لأنَّ المثلة لا تجوز، وقال بعضهم: حكمه ثابت إلا السمل والمثلة، وروى قتادة عن ابن سيرين أن ذلك كان قبل أن ينزل الحدُّ، وقال أبو الزناد: فلما فعل رسول الله ﷺ ذلك بهم، أنزل الله الحدود ونهاه عن المثلة فلم يعد.

وعن قتادة قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان بعد ذلك يحث على الصدقة وينهى عن المثلة[٢]، وقال سليمان التيمي عن أنس: إنما سمل النبي ﷺ أعين أُولئك؛ لأنهم سملوا أعين الرعاة، وقال الليث بن سعد: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺ وتعليمًا منه إياه عقوبتهم، وقال: إنما جزاؤهم هذا لا المثلة، ولذلك ما قام النبي ﷺ خطيبًا إلا نهى عن المثلة.

واختلفوا في المحاربين الذين يستحقون هذا الحد، فقال قوم: هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح، والمكابرون في الأمصار، وهو قول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي رحمهم الله.

وقال قوم: المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذه الحدود، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه.

وعقوبة المحاربين ما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿**أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ فذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل والقطع والصلب والنفي كما هو ظاهر الآية، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والنخعي ومجاهد.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٥٨)، ومسلم برقم١٦٧١: (٣/ ١٢٩٦ - ١٢٩٧).
(٢) انظر: البخاري، كتاب المغازي: (٧/ ٤٥٨).

وذهب الأكثرون إلى أن هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير.

وهو قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي رحمهم الله تعالى.

وإذا قتل قاطع الطريق يُقتل حتمًا حتى لا يسقط بعفو ولي الدم، وإذا أخذ من المال نصابًا وهو ربع دينار تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإذا قتل وأخذ المال يُقتل ويُصلب.

واختلفوا في كيفيته، فظاهر مذهب الشافعي - رضي الله عنه - أن يُقتل ثم يُصلب، وقيل: يصلب حيًّا ثم يطعن حتى يموت مصلوبًا، وهو قول الليث بن سعد، وقيل: يصلب ثلاثة أيام حيًّا ثم ينزل فيقتل، وإذا أخاف السبيل يُنفى.

واختلفوا في النفي، فذهب قوم إلى أن الإمام يطلبه، ففي كل بلدة يوجد ينفى عنه، وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز، وقيل: يطلب لتقام الحدود عليه، وهو قول ابن عباس والليث بن سعد، وبه قال الشافعي، وقال أهل الكوفة: النفي هو الحبس، وهو نفي من الأرض، وقال محمد بن جرير: يُنفى من بلده إلى غيره، ويُحبس في السجن في البلد الذي نُفي إليه حتى تظهر توبته. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أول من حبس في السجون، وقال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد فيؤذيهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من الحدِّ ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ عذاب وهوان وفضيحة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ فمن ذهب إلى أن الآية نزلت في الكفار، قال معناه: إلا الذين تابوا من شركهم وأسلموا قبل القدرة عليهم، فلا سبيل عليهم بشيء من الحدود، ولا تبعة عليهم فيما أصابوا في حال الكفر من دم أو مال، وأما المسلمون المحاربون فمن تاب منهم قبل القدرة عليه، وهو قبل أن يظفر به الإمام، تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقًّا لله، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد، فإن كان قد قتل في قطع الطريق يسقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتم القتل، ويبقى عليه القصاص لولي القتيل، فإن شاء عفا، وإن شاء استوفاه، وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع، وإن كان قد جمع بينهما يسقط عنه تحتم القتل والصلب، ويجب ضمان المال، وهو قول الشافعي رضي الله عنه.

وقال بعضهم: إذا جاء تائبًا قبل القدرة عليه لا يكون لأحد عليه تبعة في دم ولا مال إلا أن يوجد معه مال بعينه فيرده إلى صاحبه.

ورُوي عن علي - رضي الله عنه - في حارثة بن يزيد كان خرج محاربًا فسفك الدماء وأخذ المال، ثم جاء تائبًا قبل أن يقدر عليه، فلم يجعل علي - رضي الله عنه - عليه تبعة في دم ولا مال، إلا أن يوجد معه مال فيرد إلى صاحبه، أما من تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء منها.

وقيل: كل عقوبة تجب حقًّا لله عزَّ وجلَّ من عقوبات قطع الطريق وقطع السرقة وحدّ الزّنا والشرب تسقط بالتوبة بكل حال، والأكثرون على أنها لا تسقط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ﴾ اطلبوا ﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: القربة، فعيلة مِنْ: توسل إلى فلان بكذا، أي: تقرب إليه، وجمعها وسائل ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تلخيصه: امتثلوا أمر الله تنجوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فيه وجهان، أحدهما: أنهم يقصدون ويطلبون المخرج منها، كما قال الله تعالى: «كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ» [الحج: ٢٢]، والثاني: أنهم يتمنون ذلك بقلوبهم، كما قال الله تعالى إخبارًا عنهم: «رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ» [المؤمنون: ١٠٧] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

وحكمه أن من سرق نصابًا من المال من حرز لا شبهة له فيه تقطع يده اليمنى من الرسغ، ولا يجب القطع في سرقة ما دون النصاب عند عامة أهل العلم، حكي عن ابن الزبير أنه كان يقطع في الشيء القليل، وعامة العلماء على خلافه.

واختلفوا في القدر الذي يقطع به، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقطع في أقل من ربع دينارٍ، فإن سرق ربع دينار أو متاعًا قيمته ربع دينار يقطع، وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي ـ رحمهم الله ـ.

عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «القطع في ربع دينار فصاعدًا»(١).

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ﷺ قطع سارقًا في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ٩٦)، ومسلم في الحدود، برقم١٦٨٤: (٣/ ١٣١٢).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»: (٢/ ٨٣١)، البخاري في الموضع السابق: (١٢/ ٩٧)، ومسلم في الموضع السابق برقم١٦٨٦: (٣/ ١٣١٣).

ورُوي عن عثمان أنه قطع سارقًا في أُتْرُجَّة قوِّمت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهمًا بدينار، وهذا قول مالك ـ رحمه الله تعالى ـ أنه يقطع في ثلاثة دراهم.

وذهب قوم إلى أنه لا تقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، يُروى ذلك عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

وقال قوم: لا يقطع إلا في خمسة دراهم، يُروى ذلك عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»(١).

ويحتج بهذا الحديث من يرى القطع في الشيء القليل.

وإذا سرق السارق أول مرَّة تقطع يده اليمنى من الكوع، ثم إذا سرق ثانيًا تقطع رجله اليسرى من مفصل القدم.

واختلفوا فيما إذا سرق ثالثًا، فذهب أكثرهم إلى أنه تقطع يده اليسرى، ثم إذا سرق رابعًا تقطع رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعده يعزر ويحبس حتى تظهر توبته، وهو المروي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لِما رُوي عن أبي سلمة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال في السارق يسرق: «إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله، ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله»(٢).

وذهب قوم إلى أنه إن سرق ثالثًا بعدما قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى لا يقطع، بل يحبس، ورُوي ذلك عن علي ـ رضي الله عنه ـ، وقال: «إني لأستحي أن لا أدع له يدًا يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها»، قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ نصبٌ على الحال والقطع، ومثله: ﴿نَكَٰلًا﴾ أي: عقوبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: سرقته ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ العمل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا فيما بينه وبين الله تعالى، فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين، قال مجاهد: قطع السارق توبته، فإذا قطع حصلت التوبة. والصحيح أن القطع للجزاء على الجناية، كما قال: «جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا»، فلا بدَّ من التوبة بعد، وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل، وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ٨١)، ومسلم برقم١٦٨٧: (٣/ ١٣١٤).

(٢) أخرجه الدارقطني في «السنن»: (٣/ ١٨١)، والطبراني والشافعي. «مجمع الزوائد»: (٦/ ٢٧٥)، «تلخيص الحبير»: (٣/ ٦٨)، وقال ابن حجر: (إسناده ضعيف)، وصححه الألباني بشواهده عند أبي داود والنسائي والبيهقي. انظر: «إرواء الغليل»: (٨/ ٨٦ - ٨٩).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الجميع، وقيل: معناه ألم تعلم أيها الإنسان، فيكون خطابًا لكل أحدٍ من الناس ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: في موالاة الكفار، فإنهم لن يعجزوا الله ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني: اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أي: قوم سماعون ﴿لِلْكَذِبِ﴾ أي: قائلون للكذب، وقيل: سماعون لأجل الكذب، أي: يسمعون منك ليكذبوا عليك؛ وذلك أنهم كانوا يسمعون من الرسول ﷺ ثم يخرجون ويقولون: سمعنا منه كذا، ولم يسمعوا ذلك منه ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: هم جواسيس، يعني: بني قريظة «لقوم آخرين»، وهم أهل خيبر.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم ـ قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها لآية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فقال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجلَ يحني على المرأة يقيها الحجارة(١).

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: يسمعون لكي يكذبوا عليك، واللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾ أي: لأجل قوم ﴿ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهم أهل خيبر ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ جمع الكلمة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: من بعد وضعه مواضعه، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أي: إن

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٦٣١)، ومسلم برقم١٦٩٩: (٣/ ١٣٢٦).

أفتاكم محمد ﷺ بالجلد والتحميم فاقبلوا ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ كفره وضلالته، قال الضحاك: هلاكه، وقال قتادة: عذابه ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلن تقدر على دفع أمر الله فيه ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ وفيه رد على من ينكر القدر ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: للمنافقين واليهود، فخزي المنافقين: الفضيحة وهتك الستر بإظهار نفاقهم، وخزيُ اليهود: الجزية والقتل والسبي والنفي، ورؤيتهم من محمد ﷺ وأصحابه فيهم ما يكرهون ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الخلود في النار.

سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وهو الحرام، وأصله: الهلاك والشدة، قال الله تعالى: «قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ» [طه: ٦١]، نزلت في حكام اليهود: كعب بن الأشرف وأمثاله، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم.

قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة جعلها في كمه فيريها إيَّاه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة.

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«لعن الله الراشي والمرتشي»(١).

والسحت: كل كسب لا يحل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ خيَّر الله تعالى رسولَه ﷺ في الحكم بينهم: إن شاء حكم، وإن شاء ترك.

قوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين، رُوينا عن النبي ﷺ أنه قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ هذا تعجيب للنبي ﷺ، وفيه اختصار، أي: كيف يجعلونك حكمًا بينهم فيرضون بحكمك وعندهم التوراة؟! ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ وهو الرجم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين لك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: أسلموا وانقادوا لأمر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: فيها هدى ونور للذين هادوا، ثم قال: يحكم بها النبيون الذين أسلموا والربانيون، وقيل: هو على موضعه، ومعناه: يحكم بها النبيون الذين أسلموا على الذين هادوا.

﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ يعني: العلماء، واحدهم: حَبْر، وحِبر بفتح الحاء وكسرها، والكسر أفصح، وهو العالم المحكِم للشيء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: استُودعوا من كتاب الله ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أنه كذلك.

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قال قتادة والضحاك: نزلت هذه الآيات الثلاث في اليهود دون من أساء من هذه الأمة. رُوي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ والظالمون والفاسقون كلها في الكافرين، وقيل: هي على الناس كلهم.

وقال ابن عباس وطاووس: ليس بكفر ينقل عن المِلَّةِ، بل إذا فعله فهو به كافر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر.

قال عطاء: هو كفرٌ دُونَ كفرٍ، وظُلْمٌ دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال عكرمة معناه: ومَن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به فقد كفر، ومن أقرَّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٠٧)، والترمذي: (٤/ ٥٦٧)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه: (٢/ ٧٧٥)، وصححه الحاكم: (٤/ ١٠٢، ١٠٣) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم برقم١٨٢٧: (٣/ ١٤٥٨).

وسئل عبد العزيز بن يحيى الكناني عن هذه الآيات؟ فقال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه، فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فأمَّا من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك الشرك، ثم لم يحكم بجميع ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات.

وقال العلماء: هذا إذا ردَّ نصَّ حكمِ الله عيانًا عمدًا، فأمَّا مَن خفي عليه أو أخطأ في تأويلٍ فلا.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: أوجبنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني: نفس القاتل بنفس المقتول وفاءً يقتل به ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ تُفقأ بها ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ يُجدع به ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ تُقطع بها، ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ تقلع بها، وسائر الجوارح قياس عليها في القصاص ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فهذا تعميم بعد تخصيص؛ لأنه ذكر العين والأنف والأذن والسن، ثم قال: «وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ»، أي: فيما يمكن الاقتصاص منه: كاليد والرجل واللسان ونحوها، وأمَّا ما لا يمكن الاقتصاص منه: من كسر عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه؛ لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالقصاص ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ﴾ أي: في الإنجيل ﴿هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا﴾ يعني: الإنجيل ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قال مقاتل بن حيان: أمر الله الربانيين والأحبار أن يحكموا بما في التوراة، وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل، فكفروا وقالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمر الله تعالى.

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟

ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من قبل ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أي: شاهدًا عليه.

وقال عكرمة: دالاً، وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة: مؤتمنًا عليه.

وقال سعيد بن المسيب والضحاك: قاضيًا، وقال الخليل: رقيبًا وحافظًا، والمعاني متقاربة، ومعنى الكل: أن كل كتاب يشهد بصدقه القرآن فهو كتاب الله تعالى، وما لا فلا ﴿فَٱحْكُم﴾ يا محمد ﴿بَيْنَهُم﴾ بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالقرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تعرض عمَّا جاءك من الحق، ولا تتبع أهواءهم ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أي: سبيلاً وسنَّةً، فالشرعة والمنهاج: الطريق الواضح، وكل ما شرعت فيه فهو شريعة وشرعة، ومنه شرائع الإسلام لشروع أهلها فيها، وأراد بهذا: أن الشرائع مختلفة، ولكل أهل ملة شريعة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على ملة واحدة ﴿وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الكتب وبيَّن لكم من الشرائع فيتبين المطيع من العاصي والموافق من المخالف ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فبادروا إلى الأعمال الصالحة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال كعب بن أسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس - من رؤساء اليهود - بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمدٍ لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود وأشرافهم، وإنَّا إن اتَّبعناك لم يخالفنا اليهود، وإن بيننا وبين الناس خصومات فنحاكمهم إليك، فاقض لنا عليهم نؤمن بك، ويتبعنا غيرنا، - ولم يكن قصدهم الإيمان، وإنما كان قصدهم التلبيس ودعوته إلى الميل في الحكم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: اليهود ﴿لَفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في العون والنصرة، ويدهم واحدة على المسلمين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ فيوافقهم ويُعِنْهم ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق، يعني: عبد الله بن أُبي وأصحابه من المنافقين الذين يُوالون اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ في معونتهم وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ دولة، يعني: أن يدول الدهر دولةً فنحتاج إلى نصرهم إيَّانا، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: معناه: نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور الأمر علينا، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ قال قتادة ومقاتل: بالقضاء الفصل من نصر محمد ﷺ على من خالفه، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قيل: بإتمام أمر محمد ﷺ، وقيل: هو عذاب لهم، ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من موالاة اليهود، ودسّ الأخبار إليهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

﴿و﴾ حينئذ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلفوا بأغلظ الأيمان ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: إنهم مؤمنون، يريد: أن المؤمنين حينئذ يتعجبون من كذبهم وحلفهم بالباطل. قال الله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بطل كل خير عملوه ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

قال الحسن: علم الله تبارك وتعالى أن قومًا يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ، فأخبر أنه يأتي بقوم يحبهم الله ويحبونه.

قال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء، ثم حمدناه عليه في الانتهاء.

وارتدَّ بعد وفاة النبي ﷺ في خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - خلق كثير، حتى كفى الله المسلمين أمرهم في نصر دينه على يدي أبي بكر رضي الله عنه.

قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ وارتدتِ العربُ، واشرأبَّ النفاق، ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها.

وقال قوم: المراد بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هم الأشعريون، رُوي عن عياض بن غنم الأشعري قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ» قال رسول الله ﷺ: «هم قومُ هذا، وأشار إلى أبي موسى الأشعري»[(١)]، وكانوا من اليمن.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبًا وأرق أفئدةً، الإيمانُ يمانٍ والحكمةُ يمانية»[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أرقاء رحماء، كقوله عزَّ وجلَّ: «وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ» [الإسراء: ٢٤]، ولم يرد به الهوان، بل أراد به أنَّ جانبهم ليِّنٌ على المؤمنين، وقيل: هو من الذُّلِّ، من قولهم: دابة ذلول، يعني: أنهم متواضعون كما قال الله تعالى: «وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا» [الفرقان: ٦٣]، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أشداء غلاظ على الكفار يُعادونهم ويُغالبونهم، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ يعني: لا يخافون في الله لوم الناس؛ وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم، وروينا عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة وأنْ نقومَ أو نقولَ بالحق حيثما كنَّا لا نخاف في الله لومةَ لائم»[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: محبتهم لله، ولين جانبهم للمسلمين، وشدتهم على الكافرين، من فضل الله عليهم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبي بن سلول حين تبرأ عبادة من اليهود، وقال: أتولَّى الله ورسوله والذين آمنوا، فنزل فيهم من قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ» إلى قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟»، يعني: عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله ﷺ.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: يتولَّى القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد المهاجرين والأنصار ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أنصار دين الله ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣١٣)، وصححه على شرط مسلم، وأخرجه الطبراني: (١٧/ ٣٧١) ورجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٩٨)، ومسلم برقم٥٢: (١/ ٧١).

(٣) أخرجه البخاري: (١٣/ ١٩٢)، ومسلم برقم١٧٠٩: (٣/ ١٤٧٠).

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا»، بإظهار ذلك بألسنتهم قولاً وهم مستبطنون الكفر ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وصلوا لا صلوا، على طريق الاستهزاء وضحكوا؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾.

قال ابن عباس: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود: أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أُومن «بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ»، إلى قوله: «وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ» [البقرة: ١٣٦]، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوَّته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: «قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ»، أي: تكرهون منَّا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: هل تكرهون منَّا إلا إيماننا وفسقكم، أي: إنَّما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنَّا على حق؛ لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم؛ لحب الرياسة وحب الأموال.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتم، يعني: قولهم لم نرَ أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينًا شرًّا من دينكم، ﴿مَثُوبَةً﴾ ثوابًا وجزاءً، نُصب على التفسير ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: هو من لعنه الله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ يعني: اليهود ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ أي: جعل منهم من عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوَّل له، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين، ﴿ءَامَنَّا﴾ بك وصدقناك فيما قلت، وهم يُسرُّون الكفر ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ يعني: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾.

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: من اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ قيل: الإثم المعاصي، والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما كتموا من التوراة، والعدوان ما زادوا فيها ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ الرِّشا ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَوْلَا﴾ هلاَّ ﴿يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ يعني: العلماء، قيل: الربانيون علماء النصارى، والأحبار علماء اليهود ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة: إنَّ الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس أموالاً وأخصبهم ناحية؛ فلما عصوا الله في أمر محمد ﷺ وكذبوا به كفَّ الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة عن الرزق، نسبوه إلى البخل، تعالى الله عن ذلك.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أُمسكت أيديهم عن الخيرات، ﴿وَلُعِنُواْ﴾ عُذِّبوا ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ فَمِنْ لعنهم: أنهم مُسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ويدُ الله صفةٌ من صفاته كالسمع والبصر والوجه، وقال النبي ﷺ: «كلتا يديه يمين»[1]، والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم.

وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمرُّوها كما جاءت بلا كيف».

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الإمام مسلم برقم١٨٢٧: (٣/ ١٤٥٨).

﴿يُنفِقُ﴾ يرزق ﴿كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: كلما نزلت آية كفروا بها وازدادوا طغيانًا وكفرًا كلما نزلت آية ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ يعني: بين اليهود والنصارى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ يعني: اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين.

وقيل: كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد ﷺ وأوقدوا نارَ المحاربة أطفأها الله، فردَّهم وقهرهم ونصرَ نبيَّه ودينه، هذا معنى قول الحسن، وقال قتادة: هذا عام في كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى اليهود في بلد إلا وجدتهم من أذلِّ الناس ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ الكفر ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ يعني: أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض.

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، «مُّقْتَصِدَةٌ» أي: عادلة غير غالية، ولا مقصرة جافية، ومعنى الاقتصاد في اللغة: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ بئس شيئًا عملهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عملوا القبيح مع التكذيب بالنبي ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، رُوي عن مسروق قال: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: مَن حدثك أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...» الآية[1]، روى الحسن: أنَّ الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعًا وعرف أنَّ من الناس من يكذبه، فنزلت هذه الآية.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٧٥)، ومسلم برقم١٧٧: (١/ ١٥٩).

وقيل: بلِّغ ما أُنزل إليك من الرجم والقصاص، نزلتْ في قصة اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ومعنى الآية: إن لم تبلِّغ الجميع وتركت بعضه، فما بلغت شيئًا، أي: جرمك في ترك تبليغ البعض كجرمك في ترك تبليغ الكل، كقوله: «وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» [النساء: ١٥٠ - ١٥١]، أخبر أن كفرهم بالبعض محبط للإيمان بالبعض.

وقيل: بلِّغْ ما أُنزل إليكَ، أي: أظهر تبليغه، كقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» [الحجر: ٩٤]، وإن لم تفعلْ: فإن لم تظهر تبليغه فما بلغت رسالته، أمره بتبليغ ما أنزل إليه مجاهرًا محتسبًا صابرًا، غير خائف، فإن أخفيتَ منه شيئًا لخوفٍ يلحقك فما بلَّغتَ رسالته.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يحفظك ويمنعك من الناس.

قيل: معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك.

وقيل: نزلت هذه الآية بعد ما شج رأسه؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

وقيل: والله يخصك بالعصمة من بين الناس؛ لأنَّ النبي ﷺ معصوم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ غزا جابر بن عبد الله مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، وأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي، فقال: «إنَّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صَلْتًا»، فقالْ: من يمنعك مني؟ فقلت: «الله»، ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس[(١)].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبي ﷺ سهر فلما قدم المدينة قال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة، إذ سمعنا صوت سلاح، فقال: من هذا؟ قال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك، فنام النبي ﷺ[(٢)].

وقال عبد الله بن شقيق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «أيُّها الناس انصرفوا فقد عصمني الله سبحانه وتعالى»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٩٦)، ومسلم برقم٨٤٣: (١/ ٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٨١)، ومسلم برقم٢٤١٠: (٤/ ١٨٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي: (٨/ ٤١١)، وقال: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجُريري عن عبد الله ابن شقيق قال: كان النبي ... ولم يذكروا فيه: عن عائشة.

وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣١٣) ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (وإسناده حسن).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تقيموا أحكامهما وما يجب عليكم فيهما ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ قال سيبويه: فيه تقديم وتأخير تقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله إلى آخر الآية، والصابئون كذلك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: باللسان، وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بالقلب، وقيل: الذين آمنوا على حقيقة الإيمان ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثبت على الإيمان ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوحيد والنبوة ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ يحيى وزكريا ﴿وَحَسِبُوٓا۟﴾ ظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: عذاب وقتل، وقيل: ابتلاء واختبار، أي: ظنوا أن لا يُبتلوا ولا يُعذبهم الله، ﴿فَعَمُوا۟﴾ عن الحق فلم يبصروه ﴿وَصَمُّوا۟﴾ عنه، فلم يسمعوه، يعني: عموا وصموا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿ثُمَّ

تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ببعث عيسى ﷺ ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهم الملكانية واليعقوبية منهم ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ يعني: المرقوسية، وفيه إضمار معناه: ثالث ثلاثة آلهة؛ لأنهم يقولون: الإلهية مشتركة بين الله تعالى ومريم وعيسى، وكل واحد من هؤلاء إله، فهم ثلاثة آلهة، ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به الإلهية لا يكفر، فإنَّ الله يقول: «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» [المجادلة: ٧]، وقال النبي ﷺ لأبي بكر - رضي الله عنه -: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[(١)]، ثمَّ قال ردًّا عليهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ ليصيبنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خصَّ الذين كفروا لعلمه أنَّ بعضهم يؤمنون.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ المعنى: أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: ليس هو بإله، بل هو كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: كثيرة الصدق، وقيل: سُمِّيت صدِّيقة لأنها صدَّقت بآيات الله، ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟!

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٢٥).

ثم قال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: يُصرفون عن الحق.

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحق، والغلو والتقصير كل واحد منهما مذموم في الدين، وقوله: «غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ»، أي: في دينكم المخالف للحق، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ﴾ والأهواء: جمع الهوى، وهو ما تدعو إليه شهوة النفس ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ يعني: رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى، والخطاب للذين كانوا في عصر النبي ﷺ، نُهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ يعني: من اتبعهم على أهوائهم ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد الطريق، أي: بالإضلال، فالضلال الأول من الضلالة، والثاني بإضلال من اتبعهم.

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ يعني: أهل أيلة، لما اعتدوا في السبت، وقال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردةً ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ أي: على لسان عيسى عليه السلام، يعني: كفار أصحاب المائدة، لما لم يؤمنوا قال عيسى: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضًا ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾. عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهي تعذيرًا، فإذا كان من الغد جالسه وآكله وشاربه كأنه لم يره على الخطيئة بالأمس، فلما رأى الله تبارك وتعالى ذلك منهم ضرب قلوبَ بعضهم على بعض، وجعل منهم القردة والخنازير، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يَدِ السفيه ولتأطرنَّه على الحق أطرًا، أو ليضربنَّ الله قلوبَ بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم»(1).

تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ

---

(1) أخرجه أبو يعلى في «المسند»: (٥/ ٣٣، ٥٧)، وأبو داود: (٦/ ١٨٦)، والترمذي: (٨/ ٤١٢ - ٤١٣)، وقال: (هذا حديث حسن غريب. وقال بعضهم: يقول عن أبي عبيدة عن النبي ﷺ: مرسل).

ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ مشركي مكة، حين خرجوا إليهم يجيشون على النبي ﷺ، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن: «مِّنْهُمْ»، يعني: من المنافقين يتولون اليهود ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ بئس ما قدَّموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ غضب الله عليهم ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ يعني: الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن أمر الله سبحانه وتعالى.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ﴾ يعني: مشركي العرب ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ﴾ لم يرد به جميع النصارى؛ لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم لا ولاء ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه، وقيل: نزلت في جميع اليهود وجميع النصارى؛ لأن اليهود أقسى قلبًا والنصارى ألين قلبًا منهم، وكانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ أي: علماء، قال قطرب: القَسُّ والقِسِّيْسُ: العالم، بلغة الروم ﴿وَرُهْبَانًا﴾ الرهبان: العُبَّاد أصحاب الصوامع، واحدهم راهب، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء: يريد النجاشي وأصحابه، قرأ عليهم جعفر بالحبشة «كٓهيعٓصٓ»، فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ يعني: أُمة محمد ﷺ.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وذلك أن اليهود عيَّروهم وقالوا لهم: لِمَ آمنتم؟ فأجابوهم بهذا ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في أمة محمد ﷺ.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أعطاهم الله ﴿بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ وإنما أنجح قولهم وعلق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص، بدليل قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: الموحدين المؤمنين، وقوله من قبل: «تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ» يدل على أن الإخلاص والمعرفة بالقلب مع القول يكون إيمانًا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية، رُوي عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أصبت من اللحم فانتشرت وأخذتني شهوة، فحرمت اللحم، فأنزل الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ»(١)، يعني: اللذات التي تشتهيها النفوس، مما أحل الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾ أي: ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما غذى وأنمى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان النبي ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزلت «لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ» قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٤١٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم مرسلاً، ليس فيه: عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ٦٢).

عليها؟ وكانوا حلفوا على ما اتفقوا عليه؛ فأنزل الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ المراد من الآية: قصدتم وتعمدتم ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: كفارة ما عقدتم الأيمان إذا حنثتم ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: من خير قوت عيالكم.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ كلّ من لزمته كفارة اليمين فهو فيها مخيَّرٌ إن شاء أطعم عشرة من المساكين، وإنْ شاء كساهم، وإن شاء أعتق رقبة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وإذا اختار العتق يجب إعتاق رقبة مؤمنة، وكذلك جميع الكفارات مثل كفارة القتل والظهار والجماع في نهار رمضان يجب فيها إعتاق رقبة مؤمنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ إذا عجز الذي لزمته كفارة اليمين عن الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة، يجب عليه صوم ثلاثة أيام، والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق فإنه يصوم ثلاثة أيام.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي ذكرت ﴿كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم، فإن الكفارة لا تجب إلا بعد الحنث.

واختلفوا في تقديم الكفارة على الحنث: فذهب قوم إلى جوازه، لِمَا رُوينا أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ حلف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها فليُكفِّر عن يمينه، وليفعلِ الذي هو خير»[(١)]، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ قيل: أراد به ترك الحلف، أي: لا تحلفوا، وقيل: وهو الأصح، أراد به: إذا حلفتم فلا تحنثوا، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث، هذا إذا لم تكن يمينه على ترك مندوب أو فعل مكروه، فإن حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب فالأفضل أن يُحنث نفسه ويُكفِّر؛ عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها، وإذا حلفتَ على يمينٍ فرأيت غيرَها خيرًا منها فكفِّر عن يمينك وائتِ الذي هو خير»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٦٥٠: (٣/ ١٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ١٢٣)، ومسلم برقم١٦٥٢: (٣/ ١٢٧٣ - ١٢٧٤)، و(٣/ ١٤٥٦).

فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ أي: القمار ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ يعني: الأوثان، سُمِّيت بذلك؛ لأنهم كانوا ينصبونها، ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ يعني: القِدَاح التي كانوا يستقسمون بها، ﴿رِجْسٌ﴾ خبيث مستقذر ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ من تزيينه ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ ردَّ الكناية إلى الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أما العداوة في الخمر: فإن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا، أما العداوة في الميسر: قال قتادة: كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزينًا مسلوب الأهل والمال مغتاظًا على حرفائه ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وذلك أن من اشتغل بشرب الخمر أو القمار ألهاه ذلك عن ذكر الله، وشوش عليه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ أي: انتهوا، استفهام ومعناه أمر، كقوله تعالى: «فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ» [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ المحارم والمناهي ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وفي وعيد شارب الخمر: عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّ مسكرٍ حرام، إن حتمًا على الله أن لا يشربه عبدٌ في الدنيا إلاَّ سقاه الله تعالى يوم القيامة من طينة الخبال، هل تدرون ما طينة الخبال؟ ـ قال ـ: عرق أهل النار»[1].

وعنه أيضاً أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ شربَ الخمرَ في الدنيا ثم لم يتبْ منها حُرمها في الآخرة»[2].

وعنه أنه قال: أشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: «لعنَ الله الخمرَ وشارِبَها وساقيها وبائعَها ومُبتاعَها وعاصرَها ومُعتصرَها وحاملَها والمحمولةَ إليه وآكلَ ثمنها»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ سبب نزول هذه الآية أنَّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قالوا لمَّا نزل تحريم الخمر: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون من مال الميسر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ وشَرِبُوا من الخمر، وأكلوا من مال الميسر ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ الشرك

---

(١) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٣٥٦)، وفيه عبد الملك بن قدامة، وهو ضعيف، ويشهد له عدة أحاديث صحيحة عن جابر بن عبد الله وغيره، منها حديث جابر عن مسلم برقم٢٠٠٢ في الأشربة، وحديث ابن عمر عند مسلم برقم٢٠٠٣، وهو الآتي.

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٠٠٣: (٣/ ١٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٦٠)، وابن ماجه برقم٣٣٨٠: (٢/ ١١٢١)، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٩٧)، وللحديث شواهد يتقوى بها، «تلخيص الحبير» (٤/ ٧٣).

﴿وَءَامَنُواْ﴾ وصدَّقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ الخمر والميسرَ بعد تحريمهما، ﴿وَءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حرَّم الله عليهم أكله وشربه ﴿وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقيل: معنى الأول: إذا ما اتقوا الشرك، وآمنوا وصدقوا ثمَّ اتقوا، أي: داوموا على ذلك التقوى، «وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ».

وقيل: معنى الأول: إذا ما اتقوا الشرك، وآمنوا وصدقوا ثمَّ اتقوا، أي: داوموا على ذلك التقوى، ﴿وَءَامَنُواْ﴾ ازْدادُوا إيمانًا، ثم اتقوا المعاصي كلها وأحسنوا.

وقيل: أي: اتقوا بالإحسان، وكلُّ محسن متقٍّ «وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ الآية، نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين، ابتلاهم الله بالصيد، وكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهمُّوا بأخذها، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ليختبرنَّكم الله، وفائدة البلوى: إظهار المطيع من العاصي، ﴿بِشَيْءٍ﴾ لأنه ابتلاهم بصيد البرِّ خاصةً ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني: الفرخ والبيض، وما لا يقدر أن يفرَّ من صغار الصيد ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني: الكبار من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ ليرى الله؛ لأنه قد علمه ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ أي: يخاف الله ولم يره، كقوله تعالى: «ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ» [الأنبياء: ٤٩] أي: يخافه فلا يصطاد في حال الإحرام ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: صاد بعد تحريمه ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾ أي: محرمون بالحج والعمرة، وهو جمع حرام.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾.

﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ﴾ ﴿مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ معناه: أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النَّعم، وأراد به: ما يقرب من الصيد المقتول شبهًا من حيث الخلقة لا من حيث القيمة.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء من النَّعم فيحكمان به.

عن جابر بن عبد الله أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قضى في الضَّبع بكبشين، وفي الغزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة(١).

قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: يُهدي تلك الكفارة إلى الكعبة، فيذبحها بمكة ويتصدق بلحمها على مساكين الحرم ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قال الفرَّاء رَحِمَهُ اللهُ: الـ «عِدْل» بالكسر: المثل من جنسه، والعَدْل بالفتح: المثل من غير جنسه، وأراد به: أنه في جزاء الصيدِ مخيَّر بين أن يذبح المثل من النَّعم، فيتصدق بلحمه على مساكين الحرم، وبين أن يقوّم المثل دراهم، والدراهم طعامًا، فيتصدق بالطعام على مساكين الحرم، أو يصوم عن كل مُدٍّ من الطعام يومًا، وله أن يصوم حيث شاء؛ لأنه لا نفع فيه للمساكين.

قوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: جزاء معصيته ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني: قبل التحريم ونزول الآية، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ وإذا تكرر من المحرم قتل الصيد فيتعدد عليه الجزاء عند عامة أهل العلم.

واختلفوا في المحرم هل يجوز له أكل لحم الصيد أم لا؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحل له بحال، عن عبد الله بن عباس، عن الصَّعْب بن جَثَّامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًّا، وهو بالأبواء أو بودّان؛ فردَّه عليه رسول الله ﷺ، قال: فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهي، قال: «إنا لم نردّه عليك إلا أنَّا حُرم»(٢).

وذهب الأكثرون إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا لم يصطد بنفسه ولا اصطيد لأجله أو بإشارته، عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان ببعض طريق مكة، تخلَّف مع أصحاب له محرمين وهو غير محرم فرأى حمارًا وحشيًّا فاستوى على فرسه وسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا، فسألهم رمحه فأبوا، فأخذه ثم شدَّ على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ وأبىٰ بعضهم، فلما أدركوا رسولَ الله ﷺ سألوه عن ذلك؟ فقال: «إنَّما هي طُعْمَةٌ أطعَمَكُموها اللهُ تعالى»(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمراد بالبحر: جميع المياه، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «صيده ما اصطيد وطعامه ما رُمي به»، وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتًا.

---

(١) أخرجه مالك: (١/ ٤١٤)، والشافعي في «المسند»: (١/ ٣٣٠ - ٣٣١)، والبيهقي في «السنن»: (٥/ ١٨٣، ١٨٤)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل»: (٤/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٣١)، ومسلم برقم١١٩٣: (٢/ ٨٥٠).

(٣) أخرجه البخاري: (٩/ ٦١٣)، ومسلم برقم١١٩٦: (٢/ ٨٥٢).

وقال قوم: هو المالح منه.

وقال مجاهد: صيده: طريُّه، وطعامه: مالحه، «مَتَٰعًا لَّكُمْ»، أي: منفعة لكم، «وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»، يعني: المارَّة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب في البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطَّهورُ ماؤُه الحِلُّ ميتته»[١].

قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ صيد البحر حلال للمحرم، كما هو حلال لغير المحرم، أما صيد البرِّ فحرام على المحرم وفي الحرم، والصيد: هو الحيوان الوحشي الذي يحل أكله، أمَّا ما لا يحلّ أكله فلا يحرم بسبب الإحرام، وللمحرم أخذه وقتله.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهنَّ جُناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور»[٢].

ورُوي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقتل المحرمُ السَّبُعَ العادي»[٣]، وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ قتلهنَّ حلال في الحرم: الحيَّة والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور»[٤].

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»: (١/ ٢٢)، وأبو داود: (١/ ٨١)، والترمذي: (١/ ٢٢٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: (١/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٣٤)، ومسلم برقم١١٩٩: (٢/ ٨٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود: (٢/ ٣٦٠)، والترمذي: (٣/ ٥٧٧)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه: (٢/ ١٠٣٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٣).

(٤) أخرجه أبو داود في الموضع السابق نفسه، والترمذي في الموضع السابق عن عائشة، وقال: حديث حسن صحيح وفي إسناد أبي داود: ابن عجلان. ويتقوى بالحديث السابق وغيره.

وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: قوامًا لهم في أمر دينهم ودنياهم، أما الدين فلأن به يقوم الحج والمناسك، وأما الدنيا ففيما يُجبى إليه من الثمرات، وكانوا يأمنون فيه من النهب والغارة فلا يتعرض لهم أحد في الحرم، قال الله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» [العنكبوت: ٦٧] ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أراد به: الأشهر الحُرم، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، أراد: أنه جعل الأشهر الحرم قيامًا للنَّاس يأمنون فيها القتال ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ أراد: أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدي، فذلك القوام فيه.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ التبليغ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أي: الحلال والحرام ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ سرَّك ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، عن أنس - رضي الله عنه -: سألوا رسول الله ﷺ حتى أحْفَوْهُ بالمسألة، فغضب فصعِد المنبر فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيَّنْتُه لكم»، فجعلتُ أنظر يمينًا وشمالاً فإذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل كان إذا لاَحَى الرجالَ يُدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «حُذَافَةُ»، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن، فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إني صُوِّرَتْ لي الجنةُ والنَّارُ حتى رأيتهما وراء الحائط»، وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ»(١).

عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: مَنْ أبي؟ ويقول الرجل تضلّ ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ» حتى فرغ من الآية كلها(٢).

ورُوي عن علي - رضي الله عنه - قال: لما نزلت «وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ» [آل عمران: ٩٧]، قال رجل: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثًا، فقال النبي ﷺ: «ما يُؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، فاتركوني

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٣)، ومسلم برقم٢٣٥٩: (٤/ ١٨٣٣ - ١٨٣٤).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٨٠).

ما تركتكم، فإنَّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»؛ فأنزل الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ»[1] أي: إن تظهر لكم تسؤكم، أي: إن أمرتم بالعمل بها فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به في كل عام فيسوؤه، ومن سأل عن نسبه لم يأمن من أن يلحقه بغيره فيفتضح.

﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ معناه: صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم، وليس في ظاهره شرح ما بكم إليه حاجة ومست حاجتكم إليه، فإذا سألتم عنها حينئذ تُبد لكم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾.

﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ كما سألت ثمود صالحًا الناقة، وسأل قوم عيسى المائدة ﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ فأُهلكوا.

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ أي: ما أنزل الله ولا أمرَ به ﴿وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ قال ابن عباس في بيان هذه الأوضاع: البحيرة: هي الناقة كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أُذنها، أي: شقُّوها، وتركوا الحمل عليها وركوبها، ولم يجزُّوا وَبَرَها، ولم يمنعوها الماء والكلأ، ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكرًا نحروه وأكله الرجال والنساء، وإن كان أُنثى بحروا أُذنها، أي: شقُّوها، وتركوها وحُرِّم على النساء لبنها ومنافعها، وكانت منافعها خاصة للرجال، فإذا ماتت حلت للرجال والنساء.

وقال أبو عبيد: السائبة البعير الذي يُسيَّب؛ وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض وغاب له قريب نذر فقال: إن شفاني الله تعالى أو شفى مريضي أو ردَّ غائبي، فناقتي هذه سائبة، ثم يسيِّبها فلا تحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبها أحدٌ فكانت بمنزلة البحيرة.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٤٢٠)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من حديث علي)، وابن ماجه برقم٢٨٨٤: (٢/ ٩٦٣).
وأصل الحديث في «صحيح مسلم» من رواية أبي هريرة برقم١٣٣٧: (٢/ ٩٧٥).

وأما الوصيلة: فمن الغنم، كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا: فإن كان السابع ذكرًا ذبحوه، فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أُنثى تركوها في الغنم، وإن كان ذكرًا وأُنثى استحيوا الذكر من أجل الأُنثى، وقال: وصلت أخاها فلم يذبحوه، وكان لبن الأُنثى حرامًا على النساء، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء جميعًا.

وأما الحَام: فهو الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: حُمي ظهرُه، فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من كلأ ولا ماء، فإذا مات أكله الرجال والنساء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في قولهم: الله أمرنا بها ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ في تحليل الحرث والأنعام، وبيان الشرائع والأحكام ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من الدِّين، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ روينا عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ» وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا منكرًا فلم يغيِّروه يُوشك أن يعمَّهم الله تعالى بعقابه»[1].

عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلتُ: يا أبا ثعلبة، كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أيَّةُ آية؟ قلت: قول الله عزَّ وجلَّ «عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ»، فقال: أمَا والله، لقد سألت عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «بل ائتمرُوا بالمعروف وتناهُوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا وهوًى متَّبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيتَ أمرًا لا بدَّ لك منه، فعليك نفسك ودع أمر العوام، فإنَّ من ورائكم أيَّامَ الصبرِ، فمن صبر فيهنَّ قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» قال ابن المبارك: وزادني غيره قالوا: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الضالّ والمهتدي ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٦/ ١٨٧)، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٤٥٧)، وأخرجه الترمذي: (٦/ ٣٨٨)، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود: (٦/ ١٨٨، ١٨٩)، والترمذي: (٨/ ٤٢٣ - ٤٢٦)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم٤٠١٤: (٢/ ١٣٣٠ - ١٣٣١)، وصححه الحاكم: (٤/ ٣٢٢) ووافقه الذهبي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ قيل: معناه: أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت اثنان، واختلفوا في هذين الاثنين، فقال قوم: هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي.

وقال آخرون: هما الوصيان؛ ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ﴾ ولا يلزم الشاهد يمين، وجعلُ الوصي اثنين تأكيدًا، فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور، كقولك: شهدتُ وصية فلان، بمعنى حضرت، ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي: أمانة وعقل ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من أهل دينكم يا معشر المؤمنين ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير دينكم وملَّتكم في قول أكثر المفسرين ـ قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ أي: سرتُم وسافرتُم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فأوصيتُم إليهما، ودفعتُم إليهما مالكم، فاتهمهما بعض الورثة وادَّعوا عليهما خيانة، فالحكم فيه أنْ ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: تستوقفونهما ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بعد الصلاة؛ لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ يحلفان ﴿بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم، ووقعت لكم الريبة في قول الشاهدين وصدقهما، أي: في قول اللذين ليسا من أهل ملتكم، فإن كانا مسلمين فلا يمين عليهما ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ أي: لا نحلف بالله كاذبين على عوض نأخذه، أو مال نذهب به، أو حق نجحده ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المشهود له ذا قربة منَّا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أضاف الشهادة إلى الله؛ لأنه أمَرَ بإقامتها ونهى عن كتمانها، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ أي: إن كتمناها كنَّا من الآثمين.

فلما نزلت هذه الآية صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعا تميمًا وعديًا فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يختانا شيئًا مما دُفع إليهما فحلفا على ذلك، وخلَّى رسول الله ﷺ سبيلهما.

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي: اطلع على خيانتهما، وأصل العثور: الوقوع على الشيء ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ يعني: الوصيين ﴿ٱسْتَحَقَّآ﴾ استوجبا ﴿إِثْمًا﴾ بخيانتهما وبأيمانهما الكاذبة ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ من أولياء الميت ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني: مقام الوصيين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: فيهم ولأجلهم الإثم، وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم.

ومعنى الآية: إذا ظهرتْ خيانة الحالفين؛ يقوم اثنان آخران من أقارب الميت ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ يعني: يميننا أحقّ من يمينهما، ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ في أيماننا، وقولنا: إنَّ شهادتنا أحقّ من شهادتهما ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: ذلك الذي حكمنا به من رَدِّ اليمين أجدر وأحرى أن يأتي الوصيان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم، أي: أقرب إلى الإتيان بالشهادة على ما كانت ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أقرب إلى أن يخافوا رد اليمين بعد يمينهم على المدعي فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن تحلفوا أيمانًا كاذبة أو تخونوا أمانة ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ الموعظة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا أجابَتكُم أُمَّتكم؟ ومَا الذي ردَّ عليكم قومُكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ قال ابن عباس: معناه: لا علم لنا إلا العلم الذي أنت أعلم به منَّا،

وقيل: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي: أنتَ الذي تعلم ما غاب، ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لَيَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتى إذا عرفتهم اخْتُلِجُوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ مريم، ثم ذكر النعم فقال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبريل عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: وتكلم الناس ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ صبيًّا ﴿وَكَهْلًا﴾ نبيًّا، قال ابن عباس: أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله إليه ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: الخط ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: العلم والفهم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تجعل وتصوِّر ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ كصورة الطير ﴿بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾ حيًّا يطير ﴿بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ﴾ وتصحح ﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ منعت وصرفت ﴿بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: اليهود ﴿عَنكَ﴾ حين همُّوا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: الدلالات والمعجزات، وهي التي ذكرنا.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: ما جاءهم من البينات.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ ألهمتُهم، وقذفت في قلوبهم، والحواريون خواص أصحاب عيسى عليه السلام ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى ﴿قَالُوٓا۟﴾ حين وفقتهم: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ معناه: هل ينزل ربك أم لا؟ كما يقول الرجل لصاحبه: هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد: هل يفعل ذلك أم لا؟ وقيل: «يستطيع» بمعنى يطيع، يقال: أطاع واستطاع بمعنى واحد، كقولهم: أجاب واستجاب، معناه: هل يطيعك ربك بإجابة سؤالك؟ وأجرى بعضهم على الظاهر، فقالوا: غلط القوم، وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشرًا، فقال لهم عيسى عليه السلام ـ عند الغلط، استعظامًا لقولهم ـ: «قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»، أي: لا تشكُّوا في قدرته.

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المائدة: الخوان الذي عليه الطعام، والمائدة: هي المطعمة للآكلين الطعام، وسمي الطعام أيضًا مائدة على المجاز؛ لأنه يؤكل على المائدة، ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام مجيبًا لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تشكُّوا في قدرته، وقيل: اتقوا الله أن تسألوه شيئًا لم يسأله الأمم قبلكم، فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان.

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ﴾ أي: إنَّما سألنا لأنَّا نُريد ﴿أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أكل تبرك لا أكل حاجة؛ فنستيقن قدرته ﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾ وتسكن ﴿قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنَّك رسول الله، أي: نزداد إيمانًا ويقينًا، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بالوحدانية والقدرة، ولك بالنبوة والرسالة، وقيل: ونكون

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٦٤)، ومسلم برقم٢٣٠٤: (٤/ ٨٠٠).

من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عند ذلك ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: عائدة من الله علينا حجة وبرهانًا، والعيد: يوم السرور، سمي به للعود من الترح إلى الفرح، وهو اسم لما اعتدته ويعود إليك، وسمي يوم الفطر والأضحى عيدًا؛ لأنهما يعودان كل سنة، «لِّأَوَّلِنَا»، أي: لأهل زماننا، «وَءَاخِرِنَا»، أي: لمن يجيء بعدنا، ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ دلالة وحجة ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى - مجيبًا لعيسى عليه السلام -: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ يعني: المائدة، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي: بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾ أي: جنس عذاب ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: عالمي زمانه، فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمُسِخُوا قردة وخنازير، قال عبد الله بن عمرو: إنَّ أشد الناس عذابًا يوم القيامة: المنافقون، ومَن كفر مِن أصحاب المائدة، وآل فرعون[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هذا السؤال عنه لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة، كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا وكذا؟ فيما يعلم أنه لم يفعله، إعلامًا واستعظامًا لا استخبارًا واستفهامًا.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري موقوفًا على عبد الله بن عمرو: (١١/ ٢٣٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في «عمدة التفسير».

وأيضًا: أراد الله عزَّ وجلَّ أنْ يقرَّ عيسى عليه السلام عن نفسه بالعبودية، فيسمع قومه، ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا لك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ قال ابن عباس: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: معناه: تعلم سرِّي ولا أعلَم سرَّك، وقال ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون.

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ وحِّدوه ولا تشركوا به شيئًا ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ﴾ أقمت ﴿فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ قبضتني ورفعتني إليك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والحفيظ عليهم، تحفظ أعمالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ فإن قيل: كيف طلب المغفرة لهم وهم كفار، وكيف قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وهذا لا يليق بسؤال المغفرة، قيل: أما الأول فمعناه: إن تعذبهم بإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم بعد الإيمان، وهذا يستقيم على قول السدي: إن هذا السؤال قبل يوم القيامة؛ لأن الإيمان لا ينفع في القيامة.

وقيل: هذا في فريقين منهم، معناه: إن تعذب من كفر منهم، وإن تغفر لمن آمن منهم.

وقيل: ليس هذا على وجه طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال: فإنك أنت الغفور الرحيم، ولكنه على تسليم الأمر وتفويضه إلى مراده.

وأما السؤال الثاني: فكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقرأ: «وإن تغفر لهم فإنَّك أنت الغفور الرحيم»، وكذلك هو في مصحفه، وأما على القراءة المعروفة قيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: إن تغفر لهم فإنهم عبادك، وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

وقيل: معناه: إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك العزيز في الملك الحكيم في القضاء لا ينقص من عزِّك شيء، ولا يخرج من حكمك شيء، ويدخل في حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته الكفار، لكنه أخبر أنه لا يغفر وهو لا يخلف خبره.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ...» الآية [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: «إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ»، فرفع يديه وقال: «اللهم أُمتي» وبكى؛ فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربُّك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال؛ فقال الله تعالى: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنَّا سنرضيك في أُمَّتك ولا نسوءُك[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٠٢: (١/ ١٩١).

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: ينفع الصادقين في الدنيا صدقُهم في الآخرة، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافتضحوا، وقيل: أراد بالصادقين النبيين.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ثم عظَّم نفسه فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

سورة الأنعام

مكية، وهي مائة وخمس وستون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد الله نفسه تعليمًا لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض، خصَّهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع للعباد ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ والجعل بمعنى الخلق، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار.

وقال الحسن: «وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ»، يعني: الكفر والإيمان.

ورُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ»[١].

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون، أي: يشركون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام، خاطبهم به إذ كانوا من ولده، قال السدي: بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني، فرجع جبريل ولم يأخذ وقال: يا ربِّ إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل،

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٤٠١)، وقال: هذا حديث حسن. وصححه ابن حبان: ص٤٤٩، والحاكم: (١/ ٣٠، ٣١)، وأخرجه الإمام أحمد: (٢/ ١٧٦، ١٩٧).

فاستعاذت فرجع، فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أُخالف أمره، فأخذ من وجه الأرض لخط الحمراء والسوداء والبيضاء؛ فلذلك اختلفتْ ألوان بني آدم، ثم عجنها بالماء العذب والملح والمرِّ؛ فلذا اختلفت أخلاقهم، فقال الله تعالى لملك الموت: رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها، لا جرمَ أَجْعَلُ أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾، قال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول من الولادة إلى الموت، والأجل الثاني من الموت إلى البعث، وهو البرزخ، ورُوي ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان بَرًّا تقيًّا وَصُولاً للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجرًا قاطعًا للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث، يعني: جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ يعني: وهو أجل مسمًّى عنده، لا يعلمه غيره«ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ» تشكُّون في البعث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِۖ﴾ يعني: وهو إله السموات والأرض، وقال محمد بن جرير: معناه: هو الله في السموات يعلم سركم وجهركم في الأرض، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ تعملون من الخير والشر.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ يعني: أهل مكة ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مثل: انشقاق القمر وغيره، وقال عطاء: يريد من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لها تاركين، بها مكذبين.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة استهزائهم إذا عُذِّبوا.

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني: الأُمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون، ويقال: مائة سنة؛ لِمَا رُوي أنَّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن بُسْر المازني: «إنكَ تعيشُ قرنًا» فعاش مائة سنة.

فيكون معناه على هذه الأقاويل: من أهل قرنٍ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: أعطيناهم ما لم نعطكم، وقال ابن عباس: أمهلناهم في العمر، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يعني: المطر، مِفْعَال من الدَّر، قال ابن عباس: «مِّدْرَارًا»، أي: مُتتابعًا في أوقات الحاجات.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا وابتدأنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أُمية ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ مكتوبًا من عندي ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه ومسّوه بأيديهم، وذكر اللمس ولم يذكر المعاينة؛ ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ معناه: لا ينفع معهم شيء لِمَا سبق فيهم من علمي.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﷺ ﴿مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لوجب العذاب، وفُرغ من الأمر، وهذا سنَّة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية فأُنزلت ثم لم يؤمنوا استُؤصلوا بالعذاب ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤجلون ولا يمهلون.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ يعني: لو أرسلنا إليهم ملكًا ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني: في صورة رجل آدمي؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: خلطنا عليهم ما يخلطون، وشبَّهنا عليهم فلا يدرون أملَكٌ هو أم آدمي.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزىء بك يا محمد ـ يعزِّي نبيه ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ قال الربيع بن أنس: فنزل. وقيل: أحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معتبرين: يحتمل ـ هذا ـ السيرَ بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: آخر أمرهم، وكيف أورثهم الكفرُ والتكذيبُ الهلاكَ، فحذَّر كفارَ مكة عذاب الأُمم الخالية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن أجابوك وإلاَّ فـ ﴿قُلْ﴾ أنتَ: ﴿لِّلَّهِ﴾

أمره بالجواب عقيب السؤال؛ ليكون أبلغ في التأثير، وآكد في الحجة ﴿كَتَبَ﴾ أي: قضى ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ هذا استعطاف منه تعالى للمتولِّين عنه إلى الإقبال عليه، وإخبار بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة.

ثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ كتابًا فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي»[١]. وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: «إنَّ رحمتي سبقت غضبي»[٢].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله مائةَ رحمةٍ: واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراجمون، وبها تتعاطف الوحوش على أولادها، وأخَّرَ الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[٣].

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم ـ قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلَّب ثديها، تسعى إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار»؟ فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «اللهُ أرحم بعباده مِنْ هذه بولدها»[٤].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد، مجازه: والله ليجمعنَّكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه: ليجمعنكم في قبوركم إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ غبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: استقر، قيل: أراد ما سكن وما تحرك، كقوله: «سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ» [النحل: ٨١]، أي: الحرَّ والبرد، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأصواتهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأسرارهم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٣٨٤)، ومسلم برقم٢٧٥١: (٤/ ٢١٠٧).
(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٤٠).
(٣) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٣١)، ومسلم برقم٢٧٥٢: (٤/ ٢١٠٨).
(٤) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٢٦ - ٤٢٧)، ومسلم برقم٢٧٥٤: (٤/ ٢١٠٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؟ وهذا حين دعا إلى دين آبائه، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، أغير الله أتخذ وليًا: ربًا ومعبودًا وناصرًا ومُعينًا؟ ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومُبدعهما ومبتديهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو يَرْزُق ولا يُرْزَق، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يعني: وقيل لي: ولا تكوننَّ ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فعبدتُ غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم القيامة.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ يعني: من يُصرف العذابُ عنه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: النجاة البينة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلية ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ لا رافع ﴿إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ونعمة ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الخير والضر.

عن ابن عباس قال: أُهدي للنبي ﷺ بغلة، أهداها له كسرى، فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليًا ثم التفت إليَّ فقال: يا غلام، فقلتُ: لبيك يا رسولَ الله، قال: «احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجدْهُ أمامك، تعرَّفْ على اللهِ في الرخاء يعرفْك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله تعالى عليك، ما قدروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين فافعلْ، فإن لم تستطع فاصبرْ، فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع الكرب الفرج، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١).

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القاهر: الغالب، وفي القهر زيادة معنى على القدرة، وهي منع غيره عن بلوغ المراد، وقيل: هو المنفرد بالتدبير الذي يُجْبِرُ الخلقَ على مُراده، «فَوْقَ عِبَادِهِ»: هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عزَّ وجلَّ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأعمال عباده.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣٠٧)، والترمذي: (٧/ ٢١٩ - ٢٢٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ الآية، قال الكلبي: أتى أهل مكة رسولَ الله ﷺ فقالوا: أرنا من يشهد أنك رسول الله، فإنّا لا نرى أحدًا يصدقك، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿شَهَٰدَةً﴾؟ فإن أجابوك، وإلاَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو ﴿شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على ما أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ لأخوّفكم به يا أهل مكة ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ يعني: ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأُمم إلى يوم القيامة.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «بلِّغُوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذبَ عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعدَه مِنَ النار»(١).

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نضَّر اللهُ عبدًا سمعَ مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها، فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تحيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»(٢).

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟ ولم يقل أُخر؛ لأن الجمع يلحقه التأنيث، كقوله عزَّ وجلَّ: «وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا» [الأعراف: ١٨٠]، ﴿قُل﴾ يا محمد: إن شهدتم أنتم، فـ ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ أنا أنَّ معه إلهًا ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعني: محمدًا ﷺ بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ من بين الصبيان ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوا أنفسَهُمْ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، وإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، وذلك الخسران.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أكفر ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فأشرك به غيره ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ يعني: القرآن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها تشفع لكم عند ربكم.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: قولهم وجوابهم، وقال ابن عباس وقتادة: معذرتهم.

قال الزَّجّاج في قوله: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ» معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يفتتن بمحبوب ثم

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي: (٧/ ٤١٧ - ٤١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم٢٣٦: (١/ ٨٦).

يصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنت إلا هذا، كذلك الكفار فُتنوا بمحبة الأصنام، ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ في محبتهم الأصنام ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيختم على أفواههم وتشهدُ عليهم جوارحُهم بالكفر.

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ باعتذارهم بالباطل وتبريهم عن الشرك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ زال وذهب عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كله في ذلك اليوم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُمية وأُبيّ ابنا خلف والحارث بن عامر، يستمعون القرآن فقالوا للنضر: يا أبا قُتَيْلَة، ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلا، لا نقرُّ بشيء من هذا، وفي رواية: لَلْمَوْتُ أهونُ علينا من هذا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» وإلى كلامك ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان، كالأعنَّة جمع عنان ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أن يعلموه، قيل: معناه: أن لا يفقهوه، وقيل: كراهة أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صممًا وثقلاً، هذا دليل على أن الله تعالى يقلّب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من المعجزات والدلالات ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون عنه بأنفسهم، نزلت في كفار مكة ـ قاله محمد بن الحنفية والسدي والضحَّاك، وقال قتادة: ينهون عن القرآن وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه.

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ ما يهلكون ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا يرجع وبال فعلهم إلاَّ إليهم، وأوزار الذين

يصدونهم عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني: في النار، كقوله تعالى: «عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ» [البقرة: ١٠٢]، أي: في ملك سليمان، ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ يعني: إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءة العامة كلها بالرفع على معنى: يا ليتنا نرد ونحن لا نكذبُ، ونكونُ من المؤمنين.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ قوله: «بل» تحته ردّ لقولهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو رُدُّوا لآمنُوا، ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ يسرّون ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون وهو قولهم: «وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣]، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدتْ عليهم جوارحُهم بما كتمُوا وستروا؛ لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلا أن تُجعل الآية في المنافقين.

ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا﴾ يعني: إلى ما ﴿نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم، لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ هذا إخبار عن إنكارهم البعث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: على حكمه وقضائه ومسألته، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم: والله ربِّنا ما كنَّا مشركين في موقف آخر، وللقيامة مواقف، ففي موقف يُقرون، وفي موقف يُنكرون ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله بالبعث بعد الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ ندامتَنا، ذُكر على وجه النداء للمبالغة.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أثقالهم وآثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ قال السدي وغيره: إن المؤمن إذا أُخرج

من قبره استقبله أحسن شيء صورةً وأطيبه ريحًا فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا» [مريم: ٨٥]، أي: ركبانًا، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورةً وأنتنه ريحًا، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الخبيث، طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك، فهذا معنى قوله: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ»، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يحملون، قال ابنُ عباس: بئس الحمل حملوا.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغُرور لا بقاء لها ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ سُمِّيت الدنيا لدنوها، وقيل: لدناءتها، وسُمِّيت الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة أفضل من الدنيا.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ قال السُّديُّ: التقى الأخْنسُ بن شُرَيْق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمدٍ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله، إنَّ محمدًا لصادق، وما كذب محمد قَطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية.

وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبي ﷺ: لا نتهمك ولا نكذبك، ولكنَّا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾(١) بأنك كاذب ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقول: إنهم لا يكذبونك في السِّرِّ؛ لأنهم قد عرفوا صدقك فيما مضى، وإنَّما يكذِّبون وَحْيي ويجحدون آياتي، كما قال: «وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ» [النمل: ١٤].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كذبهم قومهم كما كذبتْك قريشٌ ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ بتعذيب مَنْ كذبهم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا ناقض لِمَا حكم به، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه ﷺ، فقال: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٤٣٧).

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾» [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ و«مِن» صلة، كما تقول: أصابنا من مطر.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عظم عليك وشقَّ أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالى ذلك طمعًا في إيمانهم، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾ تطلب وتتخذ نفقًا سَرَبًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومنه نافقاء اليربوع، وهو أحد جحريه فيذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أي: دَرَجًا ومصعدًا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فتصعد فيه ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ فافعل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فآمنوا كلُّهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: بهذا الحرف، وهو قوله: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ»، وأن من يكفر لسابق علم الله فيه.

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتَّبعُونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: رؤساء قريش ﴿لَوْلَا﴾ هلاَّ ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عليهم في إنزالها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيَّد الطيران بالجناح تأكيدًا، كما يقال: نظرت بعيني وأخذت بيدي ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال مجاهد: أصناف مصنفة تعرف بأسمائها.

عن عبد الله بن مغفَّل، عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلابَ أُمَّةٌ لأمرتُ بِقَتْلِها، فاقتُلوا منها كُلَّ أسودٍ بهيم»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود: (٤/ ١٣٢ - ١٣٣)، والترمذي: (٥/ ٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي: (٧/ ١٨٥)، وابن ماجه برقم٣٢٠٥: (٢/ ١٠٦٩).

وقيل: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» يفقه بعضهم عن بعض، وقيل: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» في الخلق والموت والبعث، وقال عطاء: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» في التوحيد والمعرفة، وقال ابن قتيبة: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ ﴿مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال ابن عباس والضحاك: حَشْرُهَا موتها، وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول: «يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا» [النبأ: ٤٠].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتردنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقادَ للشاةِ الجلحاء مِنَ القَرْناء»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في ضلالات الكفر ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هل رأيتم؟ قال ابن عباس: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ قبل الموت ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في صرف العذاب عنكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وأراد: أن الكفار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر الله عنهم: «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» [لقمان: ٣٢].

ثم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي: تدعون الله ولا تدعون غيره ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ قيَّد الإجابة بالمشيئة، والأمور كلها بمشيئته ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ وتتركون ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٥٨٢: (٤/١٩٩٧).

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والجوع ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض والزمانة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يتوبون ويخضعون.

﴿فَلَوْلَآ﴾ فهلاً ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابُنا ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾ فآمنوا فكشف عنهم، أخبر الله عزَّ وجلَّ أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أُخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا، فذلك قوله: ﴿وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ تركوا ما وعظوا وأُمروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدَّلنا مكان البلاء والشدة الرخاء والصحة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ وهذا فرح بطر، مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا ﴿أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة آمَنَ ما كانوا، وأَعْجَبَ ما كانت الدنيا إليهم ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، وروى عقبة بن عامر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيم على معصيته، فإنَّما ذلك استدراج»، ثم تلا: «فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ» الآية(١).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: آخرهم، ومعناه: أنهم استُؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حمدَ الله نفسه على أن قطع دابرهم؛ لأنه نعمة على الرُّسل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ حتى لا تسمعوا شيئًا أصلاً ﴿وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾ حتى لا تبصروا شيئًا ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ حتى لا تفقهوا شيئًا ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا ﴿مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ ولم يقل «بها» مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه يأتيكم بما أخذ منكم، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نبيِّن لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عنها مكذبين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معاينة ترونه عند نزوله، قال ابن عباس والحسن: ليلاً أو نهارًا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المشركون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف أهل النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزنوا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ﴾ يصيبهم ﴿ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يكفرون.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٤٥)، وفيه: رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، والطبراني في «الأوسط»: برقم (٩٢٦٨) عن شيخه الوليد بن العباس المصري وهو ضعيف).

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ نزلت حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: «لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ»، أي: خزائن رزقه، فأعطيكم ما تريدون ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ قال ذلك؛ لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي، ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد: لا أقول لكم شيئًا من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما آتيكم به فمِن وَحْيِ الله تعالى، وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؟ قال قتادة: الكافر والمؤمن، وقال مجاهد: الضال والمهتدي، وقيل: الجاهل والعالم ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: أنهما لا يستويان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ خوِّف به، أي: القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾ يجمعوا ويبعثوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وقيل: يخافون، أي: يعلمون؛ لأن خوفهم إنَّما كان من علمهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿وَلِىٌّ﴾ قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فينتهون عمَّا نُهوا عنه، وإنَّما نفى الشفاعة لغيره ـ مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون ـ لأنهم لا يشفعون إلاَّ بإذنه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾.

قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلتْ هذه الآية، جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة ابن حصن الفزاري وذووهم من المؤلَّفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعدًا مع بلال وصهيب وعمار وخباب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمَّا رأوهم حوله حقَّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنَّا هؤلاء وأرواح جبابهم ـ وكان عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها ـ لجالسناك وأخذنا عنك، فقال النبي ﷺ لهم: «ما أنا بطاردِ المؤمنين» قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنَّا، فإذا فرغنا فاقعدْ معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: اكتب لنا عليك بذلك كتابًا، قال: فدعا بالصحيفة ودعا عليًّا ليكتب، قالوا: ونحن قعود في ناحية، إذْ نزل جبريل بقوله: «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ» إلى

قوله: «بِالشَّاكِرِينَ» فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيته، وهو يقول: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»، فكنَّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» [الكهف: ٢٨]، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد وندنو منه حتى كادت ركبنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال لنا: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أُمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»(١).

قال ابن عباس: يعني: يعبدون ربهم بالغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح وصلاة العصر.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يريدون الله بطاعتهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يطلبون ثواب الله، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لا تكلف أمرهم ولا يتكلفون أمرك، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ ولا رزقك عليهم، قوله: «فَتَطْرُدَهُمْ» جوابٌ لقوله: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ»، قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جوابٌ لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ أحدهما جواب النفي، والآخر جواب النهي.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ أي: ابتلينا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أراد: ابتلاء الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له، فذلك قوله: ﴿لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فهو جواب لقولهم: «أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا»، فهو استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمن شكر الإسلام؛ إذ هداه الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه الطبري: (١١/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٢/ ٢٠٧)، وابن ماجه في الزهد برقم٤١٢٧: (٢/ ٣٨٢ - ٣٨٣)، قال في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وقد روى مسلم والنسائي بعضه من حديث سعد. وانظر: «صحيح مسلم» فضائل الصحابة برقم٢٤١٣: (٤/ ١٨٨٧)، «تفسير النسائي»: (١/ ٤٦٩ - ٤٧٠).

عن أبي سعيد الخدري قال: جلستُ في نفرٍ من ضعفاء المهاجرين وإنَّ بعضهم ليستتر ببعض من العُري، وقارئٌ يقرأ علينا، إذ جاء رسولُ الله ﷺ، فقام علينا، فلمَّا قام رسول الله ﷺ سكت القارىء، فسلم رسول الله ﷺ وقال: «ما كنتم تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله، كان قارئٌ يقرأ علينا فكنَّا نستمع إلى كتاب الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أُمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»، قال: ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلَّقوا، وبرزت وجوههم له، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحدًا غيري، فقال رسول الله ﷺ: «أبشرُوا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنُّور التَّامِّ يومَ القيامةِ تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: قضى على نفسه الرحمة ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام فمن جهالته ركب الذنب، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ رجع عن ذنبه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، وقيل: أخلص توبته ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: وهكذا، وقيل: معناه: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلَنا وإعلامَنا على المشركين كذلك نفصل الآيات، أي: نميِّز ونبيِّن لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: طريق المجرمين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ﴾ في عبادة الأوثان وطرد الفقراء ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيل الحق وسلكتُ غير طريق الهدى.

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: على بيان وبصيرة وبرهان ﴿مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ﴾ أي: ما جئت به ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ﴾ قيل: أراد به: استعجالهم العذاب، كانوا يقولون: «إن كان

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٥٥)، قال المنذري: (وفي إسناده المعلى بن زياد أبو الحسن، وفيه مقال).

هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً...» الآية [الأنفال: ٣٢]، قيل: أراد به القيامة، قال الله تعالى: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا» [الشورى: ١٨]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ قرأ أهل الحجاز وعاصم «يَقُصُّ» بضم القاف والصاد مشددًا، أي: يقول الحق؛ لأنه في جميع المصاحف بغير ياء؛ ولأنه قال الحق ولم يقل بالحق، وقرأ الآخرون «يقضي» بسكون القاف والضاد مكسورة، من قضيت، أي: يحكم بالحق.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وبيدي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: فرغ من العذاب وأهلكتم، أي: لعجلته حتى أتخلَّص منكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ مفاتح الغيب: خزائنه، جمع مفتح.

واختلفوا في مفاتح الغيب، أنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «مفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاَّ الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يعلم ما في الغد إلا الله عزَّ وجلَّ، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلاَّ الله، ولا تَدْرِي نفسٌ بأيِّ أرض تموت، ولا يعلمُ متَى تقومُ الساعة أحدٌ إلاَّ الله»(١)، وكما قال الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ» [لقمان: ٣٤].

وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب.

وقال عطاء: ما غاب عنكم من الثواب والعقاب.

وقال ابن مسعود: «أُوتي نبيُّكم عِلْمَ كلِّ شيء إلا علم مفاتيح الغيب»(٢).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال مجاهد: البَرُّ: المفاوز والقفار، والبحر: القرى والأمصار، لا يحدث فيهما شيء إلاَّ يعلمه، وقيل: هو البر والبحر المعروف ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يريد: ساقطة وثابتة، يعني: يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه، وقيل: يعلم كم انقلبت ظهرًا لبطن إلى أن سقطت على الأرض ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: هو الحب المعروف في بطون الأرض، وقيل: هو تحت الصخرة في أسفل الأرضين ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الرطب الماء، واليابس البادية، وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٢٤).

(٢) أخرجه الطبري: (١١/ ٤٠١)، والإمام أحمد: (١/ ٣٨٦، ٤٣٨، ٤٤٥)، وقال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح). «مجمع الزوائد»: (٨/ ٢٦٣).

وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ كسبتم ﴿بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يوقظكم في النهار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني: أجل الحياة إلى الممات، يريد استيفاء العمر على التمام ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يعني: الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، وهو جمع حافظ، نظيره: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾» [الانفطار: ١٠ - ١١] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾ قرأ حمزة «توفيه» و«استهويه» بالياء وأمالهما ﴿رُسُلُنَا﴾ يعني: أعوان مَلَك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى جعل الدنيا بين يدي ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هاهنا ومن هاهنا فإذا كثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يقصِّرون.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: الملائكة، وقيل: يعني: العباد يُردُّون بالموت إلى الله مولاهم الحق، فإن قيل: الآية في المؤمنين والكفار جميعًا، وقد قال في آية أُخرى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾» [محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟ فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفار، والمولى هاهنا بمعنى الملك الذي يتولى أمرهم، والله عزَّ وجلَّ مالك الكل ومتولي الأُمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردون إلى مولاهم، والكفار فيه تبع ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء دون خلقه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ أي: إذا حاسب فحسابه سريع؛ لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البر والبحر فضلُّوا الطريق وخافوا الهلاك، دَعَوُا الله مخلصين له الدين فينجيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: علانية وسرًا، ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ أي: يقولون لئن أنجيتنا، ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: من هذه الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها.

قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ﴿٦٦﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ والكرب: غاية الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يريد: أنهم يقرون أنَّ الذي يدعونه عند الشدة هو الذي ينجيهم، ثم تُشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضرّ ولا تنفع.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال الحسن وقتادة: نزلت الآية في أهل الإيمان، وقال قوم: نزلت في المشركين.

قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الصيحة والحجارة والريح والطوفان، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون.

وعن ابن عباس ومجاهد: «عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ» السلاطين الظلمة، ومن تحت أرجلكم: العبيد السوء، وقال الضحاك: «مِّن فَوْقِكُمْ» من قبل كباركم، «أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»، أي: من أسفل منكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يخلطكم فرقًا، ويبث فيكم الأهواء المختلفة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضًا.

عن جابر قال: لمَّا نزلت هذه الآية «قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ» قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بوجهك»، قال: «أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»، قال: «أعوذ بوجهك»، قال: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ»، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر»[١].

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلى ركعتين وصلينا معه فناجى ربه طويلاً ثم قال: سألتُ ربِّي ثلاثًا: سألته أن لا يُهلك أُمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلك أُمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فَمَنَعَنِيهَا»[٢].

عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري أن عبد الله بن عمر جاءهم ثم قال: «إن النبي ﷺ دعا في المسجد فسأل الله ثلاثًا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة: سأله أن لا يُسلِّط على أُمته عدوًّا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يُهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسَ بعضهم على بعض فمنعه ذلك»[٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بالعذاب ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ برقيب،

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٩١).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٨٩٠: (٤/ ٢٢١٦).
(٣) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢١٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وقيل: بمسلَّطٍ ألزمكم الإسلام شِئْتُمْ أو أبيتم، إنَّما أنا رسول.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبر من أخبار القرون ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبيَّن صدقه من كذبه وحقه من باطله، إما في الدنيا وإمَّا في الآخرة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قال مقاتل: لكل خبر يخبره الله وقت وقَّته ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير.

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: في القرآن بالاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فاتركهم ولا تجالسهم، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ نهينا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: إذا جلست معهم ناسيًا فقم من عندهم بعد ما تذكرت.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدًا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الخوض ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ أي: من آثام الخائضين ﴿مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي: ذكّروهم وعِظُوهم بالقرآن، والذكر والذكرى واحد، يريد: ذكروهم ذكرى، فتكون في محل نصب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الخوض إذا وعظتموهم، فرخَّصَ في مجالستهم على الوعظ لعلَّه يمنعهم ذلك من الخوض.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيدًا فاتخذ كل قوم دينهم ـ أي: عيدهم ـ لعبًا ولهوًا، وعيد المسلمين الصلاةُ والتكبير وفعل الخيرات، مثل: الجمعة والفطر والنحر ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: و عِظْ بالقرآن ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ أي: لأن لا تبسل، أي: لا تسلَّم ﴿نَفْسٌۢ﴾ للهلاك ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ـ قاله مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن عباس: تهلك، ومعناه: ذكِّرهم ليؤمنوا، كيلا تهلك نفس بما كسب، قال الأخفش: تبسل: تُجازى، وقيل: تفضح، ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ أي: لتلك النفس ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ قريب ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها في الآخرة ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: تَفْدِ كلَّ فداء ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

أُبْسِلُوا﴾ أُسلِموا للهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ إن عبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ إلى الشرك مرتدِّين ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يكون مَثَلُنا كمثل الذي استهوته الشياطين، أي: أضلَّته ﴿حَيْرَانَ﴾ قال ابن عباس: كالذي استهوته الغيلان في المهامه فأضلُّوه فهو حائر بائر، والحيران: المتردِّد في الأمر، لا يهتدي إلى مخرج منه ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى، كمثل رجل في رفقة ضلَّ به الغُوْل عن الطريق يدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلمَّ إلى الطريق، ويدعوه الغول هلمَّ، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك، فإن الهدى هدى الله لا هدى غيره ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ أي: أن نُسلم ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: وأُمرنا بإقامة الصلاة والتقوى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون في الموقف للحساب.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قيل: الباء بمعنى اللام، أي: إظهارًا للحق؛ لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قيل: هو راجع إلى خلق السمواتِ والأرض والخلق، بمعنى: القضاء والتقدير، أي: كل شيء قضاه وقدَّره قال له: كن، فيكون.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد: أن ما وعده حق كائن ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يعني: مُلْكُ الملوك يومئذ زائل، كقوله: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾» [الفاتحة: ٤]، وكما قال: «وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» [الانفطار: ١٩]، والأمر له في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله، و«الصُّور»: قرنٌ يُنفخ فيه، قال مجاهد: كهيئة البوق، وقيل: هو بلغة أهل

اليمن، وقال أبو عبيدة: «الصور» هو الصُّوَر وهو جمع الصُّورة، وهو قول الحسن، والأول أصح.

والدليل عليه ما أخبرنا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يُنفخُ فيه»(١).

عن أبي سعيد الخدري أنَّ النبي ﷺ قال: «كيف أنْعَمُ وصاحبُ الصُّورِ قد التَقَمَهُ، وأصْغَى سمعَهُ وحنَى جبهتَهُ ينتظرُ متى يُؤمر»؟ فقالوا: يا رسول الله، وما تأمرنا؟ قال: «قولُوا: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل»(٢).

وقال أبو العلاء عن عطية: متى يؤمر بالنفخ فينفخ.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه، لا يغيب عن علمه شيء ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قرأ يعقوب «ءَازَرُ» بالرفع، يعني: «آزرُ» والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف، فينتصب في موضع الخفض.

قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي: «آزر» اسم أبي إبراهيم، وهو تارخ أيضًا، مثل: إسرائيل ويعقوب، وكان من كوثى(٣): قرية من سواد الكوفة، وقال مقاتل بن حيان وغيره: «آزر» لقب لأبي إبراهيم، واسمه: تارخ.

وقال سعيد بن المسيَّب ومجاهد: «آزر» اسم صنم، فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ آزر إلهًا، قوله: ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ دون الله ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والملكوت: الملك، زيدت فيه التاء للمبالغة، قال ابن عباس: يعني:

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ١١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي: (٧/ ١١٧ - ١١٨)، وقال: هذا حديث حسن، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٠٣)، وقال: هذا حديث حسن.

(٣) بالضم ثم السكون، والتاء المثلثة، وألف مقصورة، تكتب بالياء لأنها رابعة الاسم. انظر: «معجم البلدان»: (٤٠/ ٤٨٧).

خلق السموات والأرض، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني: آيات السموات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخر وكشف له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنة، فذلك قوله تعالى: «وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا» [العنكبوت: ٢٧]، يعني: أريناه مكانه في الجنة.

ورُوي عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ ورفعه بعضهم عن علي ـ رضي الله عنه ـ: لمَّا أُرِي إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فَدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الربُّ عزَّ وجلَّ: «يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدعونَّ على عبادي، فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إمَّا أن يتوبَ فأتوب عليه، وإمَّا أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإمَّا أن يبعث إليَّ فإن شئتُ عفوت عنه، وإن شئتُ عاقبتُه»، وفي رواية: «وإمَّا أن يتولى فإن جهنم من ورائه»[1].

وقال قتادة: ملكوت السموات: الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ عطف على المعنى، ومعناه: نريه ملكوت السموات والأرض، ليستدل به وليكون من الموقنين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ الآية، قال أهل التفسير: وُلد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان، وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه، ودعا الناسَ إلى عبادته، وكان له كُهَّان ومُنَجِّمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلامٌ يغيِّر دين أهل الأرض، ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، يقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام.

قال محمد بن إسحاق: لمَّا وجدتْ أُم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدَّت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حيًّا يمص إبهامه.

ويقال: إنه قال لأبويه: أخرجاني، فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس، فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه ما هذه؟ فقال: إبل وخيل وغنم، فقال: ما لهذه بدٌّ من أن يكون لها ربٌّ وخالق، ثم نظر فإذا المشتري قد طلع، ويقال: الزهرة، وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فيها، فرأى الكوكب قبل القمر، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: دخل، يقال: جنَّ الليل وأجنَّ الليل، وجنَّه الليل، وأجن عليه الليل يجنّ جُنُونًا وجَنَانًا إذا أظلم وغطى كل شيء، وجُنُونُ الليل سواده ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ قرأ أبو عمرو «رَإِي» بفتح

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٢): (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب، وشهر: صدوق كثير الأوهام).

الراء وكسر الألف، ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر، فإن اتصل بكاف أو هاء فتحهما ابن عامر، وإن لقيها ساكن كسر الراء، وفتح الهمزة حمزة وأبو بكر، وفتحهما الآخرون ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾.

واختلفوا في قوله ذلك: فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم عليه السلام مسترشدًا طالبًا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى وآتاه رشده فلم يضرّه ذلك في حال الاستدلال، وأيضًا كان ذلك في حال طفولته قبل قيام الحجة عليه، فلم يكن كفرًا.

وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقتٌ من الأوقات إلاَّ وهو لله موحِّدٌ وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهَّره وآتاه رشده من قبل وأخبر عنه فقال: «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾» [الصافات: ٨٤]، وقال: «وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبًا قال: هذا ربي معتقدًا؟ فهذا ما لا يكون أبدًا.

ثم قالوا: فيه أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظَّموه، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها، ويرون أن الأُمور كلها إليها، فأراهم أنه مُعظِّم ما عظموه ومُلتمس الهدى من حيث ما التمسوه، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدَّعون، ومثل هذا مثل الحواريّ الذي ورد على قوم يعبدون الصنم، فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صَدَروا في كثير من الأُمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدو فشاوروه في أمره، فقال: الرأي أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنَّا ما قد أظلنا، فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبيَّن لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوا الله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون، فأسلموا.

والوجه الثاني من التأويل: أنه قاله على وجه الاستفهام تقديره: أهذا ربي؟ كقوله تعالى: «أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»؟ [الأنبياء: ٣٤]، أي: أفهمُ الخالدون؟ وذكره على وجه التوبيخ منكرًا لفعلهم، يعني: ومثل هذا يكون ربًا، أي: ليس هذا ربي.

والوجه الثالث: أنه على وجه الاحتجاج عليهم، يقول: هذا ربي بزعمكم؟ فلمَّا غاب قال: لو كان إلهًا لَمَا غاب، كما قال: «ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» [الدخان: ٤٩]، أي: عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى أنه قال: «وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ» [طه: ٩٧]، يريد: إلهكَ بزعمك.

والوجه الرابع: فيه إضمار، وتقديره: يقولون هذا ربي، كقوله: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ» [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولون: ربَّنا تقبَّل منَّا ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾ وما لا يدوم.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ قيل: لئن لم يثبتني على الهدى، ليس أنه لم يكن مهتديًا، والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان، وكان إبراهيم يقول: «وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ» [إبراهيم: ٣٥]، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: عن الهدى.

فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الكوكب والقمر، ولم يقل «هذه» مع أن الشمس مؤنثة؛ لأنه أراد هذا الطالع، أو ردَّه إلى المعنى، وهو الضياء والنور؛ لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ غربت ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ولما رجع إبراهيم عليه السلام إلى أبيه، وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذَّبَّاحين، وضمه آزر إلى نفسه، جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم عليه السلام وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى النهر فضرب فيه رؤوسها، وقال: اشربي، استهزاءً بقومه، وبما هم فيه من الضلالة، حتى فشا استهزاؤُهُ بها في قومه وأهل قريته، ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾ أي: خاصمه وجادله ﴿قَوْمُهُۥ﴾ في دينه ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر بتخفيف النون، وقرأ الآخرون بتشديدها إدغامًا لإحدى النونين في الأخرى، ومن خفف حذف إحدى النونين تخفيفًا، يقول: أتجادلونني في توحيد الله ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ للتوحيد والحق؟! ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام، فإنا نخاف أن تمسَّك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إيَّاها، فقال لهم: ولا أخاف ما تُشركون به ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ وليس هذا باستثناء عن الأول بل هو استثناء منقطع، معناه: لكن إن يشأ ربي شيئًا سوءًا، فيكون ما شاء ﴿وَسِعَ رَبِّى

﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ يعني: الأصنام، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبرهانًا، وهو القاهر القادر على كل شيء ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ﴾ أولى ﴿بِالْأَمْنِ﴾ أنا وأهل ديني أم أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فقال الله تعالى قاضيًا بينهما: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

عن عبد الله قال: لَمَّا نزلت: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ؛ شقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألَمْ تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: «يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣]»[1].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَاجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ حتى خصمهم وغلبهم بالحجة، قال مجاهد: هي قوله: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ»، وقيل: أراد به الحِجاج الذي حاجَّ نمرود على ما سبق في سورة البقرة.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وفَّقنا وأرشدنا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: ومن ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذرية إبراهيم؛ لأنه ذكر في جملتهم يُونس ولوطًا ولم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ﴾ يعني: داود بن أيشا ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ يعني: ابنه ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ﴿وَيُوسُفَ﴾ هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ﴿وَمُوسَىٰ﴾ وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب ﴿وَهَٰرُونَ﴾ هو أخو موسى أكبر منه بسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٦٥).

وكما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته، ووهبنا له أولادًا أنبياء أتقياء كذلك ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ وهو زكريا بن اذن ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ وهو ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ وهو ابن مريم بنت عمران ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ اختلفوا فيه، قال ابن مسعود: هو إدريس، وله اسمان مثل: يعقوب وإسرائيل، والصحيح أنه غيره؛ لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح، وإدريس جد أبي نوح وهو إلياس ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ وهو ولد إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ وهو ابن أخطوب بن العجوز، وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَٱلَّيْسَعَ﴾ بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفي ص ﴿وَيُونُسَ﴾ وهو يونس بن متّى ﴿وَلُوطًا﴾ وهو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ «من» فيه للتبعيض؛ لأن آباء بعضهم كانوا مشركين ﴿وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ أي: ومن ذرياتهم، وأراد به: ذرية بعضهم؛ لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد، وكان في ذرية بعضهم من كان كافرًا ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ﴾ اخترناهم واصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ أرشدناهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ يرشد به ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: هؤلاء الذين سمّيناهم ﴿لَحَبِطَ﴾ لبطل وذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الكتب المنزلة عليهم ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ يعني: العلم والفقه ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار، يعني: أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ يعني: الأنصار وأهل المدينة ـ قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فإن يكفر بها هؤلاء الكفار فقد وكّلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين، يعني: الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم هاهنا، وقال أبو رجاء العطاردي: معناه: فإن يكفر بها أهل الأرض فقد وكّلنا بها أهل السماء، وهم الملائكة، ليسوا بها بكافرين.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: هداهم الله ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ فبسنتهم وسيرتهم ﴿اقْتَدِهْ﴾ الهاء فيها هاء الوقف، وحذف حمزة والكسائي الهاء في الوصل، والباقون بإثباتها وصلاً ووقفًا، وقرأ ابن عامر: ﴿اقْتَدِهْ﴾ بإشباع الهاء كسرًا ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرة وعِظَة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظَّموه حق عظمته، وقيل: ما وصفوه حق صفته ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصَّيف، يخاصم النبي ﷺ بمكة، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنَّ الله يبغض الحبر السمين» وكان حبرًا سمينًا فغضب، وقال: والله، ما أنزل الله على بشر من شيء[1].

وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء، وهو قائل هذه المقالة[2].

وفي القصة: أنَّ مالك بن الصَّيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟ فَلِمَ قلتَ ما أنزل الله على بشرٍ من شيء؟ فقال مالك بن الصَّيف: أغضبني محمد فقلتُ ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق، فنزعوه عن الحبرية، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قالت اليهود: يا محمد، أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا، فأنزل الله: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ»، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يعني: التوراة ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: تكتبون عنه دفاتر وكتبًا مقطعة تبدونها، أي: تُبدون ما تُحبون وتُخفون كثيرًا من نعت محمد ﷺ وآية الرجم.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ الأكثرون على أنها خطاب لليهود، يقول: عُلِّمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا ﴿أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به.

وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكِّرهم النعمة فيما علَّمهم على لسان محمد ﷺ.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هذا راجع إلى قوله: «قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ»، فإن أجابوك وإلاَّ فقل أنت: الله، أي: قل أنزله الله ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١١/ ٥٢١ - ٥٢٢)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٥٣ .

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١١/ ٥٢٢)، وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ. «الدر المنثور»: (٣/ ٣١٤).

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: القرآن كتاب مبارك أنزلناه ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ﴾ يا محمد، قرأ أبو بكر عن عاصم «ولينذر» بالياء، أي: ولينذر الكتاب ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة، سُمّيت أُمَّ القرى؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد: أهل أُم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: أهل الأرض كلها شرقًا وغربًا ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالكتاب ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ يعني: الصلوات الخمس ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يداومون، يعني: المؤمنين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن الله تعالى بعثه نبيًّا ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ قال قتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي، وكان يسجع ويتكهن، فادَّعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين، فقال النبي ﷺ لهما: «أتشهدان أن مسيلمة نبي»؟ قالا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لولا أنَّ الرسلَ لا تُقْتَلُ لضربتُ أعناقكما»[1].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم إذ أُوتِيْتُ خزائن الأرض فوضع في يديَّ سواران من ذهب، فَكَبُرا عليَّ وأَهَمَّاني فأُوحِي إليَّ أن انفخهما، فنفخْتُهُما فذهبا، فَأَوَّلْتهما الكذابَيْن اللَّذَين أنا بينهما: صاحبَ صنعاءَ وصاحبَ اليمامةِ»[2]، أراد بصاحب صنعاء: الأسود العنسي، وبصاحب اليمامة: مسيلمة الكذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: قوله: «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» يريد: المستهزئين، وهو جواب لقولهم: «لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ» [الأنفال: ٣١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ سكراته، وهي جمع غمرة، وغمرة كل شيء: معظمه، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بالعذاب والضرب، يضربون

---

(١) أخرج قصة الرسولين: عبد الرزاق: (١٠/ ١٦٩)، والطبري: (١١/ ٥٣٥)، وأبو داود: (٤/ ٦٤)، وأحمد: (١/ ٣٩٠)، والحاكم: (٣/ ٥٣)، وابن حبان: ص٣٩٣، والبيهقي: (٩/ ٢١١)، ولم يذكر أن الآية نزلت في مسيلمة.

(٢) أخرجه همَّام بن منبّه في صحيفته برواية عبد الرزاق: برقم (١٣٥).

وجوههم وأدبارهم، وقيل: بقبض الأرواح ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾ أي يقولون: أخرجوا ﴿أَنفُسَكُمُ﴾ أي: أرواحكم كُرْهًا؛ لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربها، والجواب محذوف، يعني: لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجبًا ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ هذا خبر من الله أنه يقول للكفار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فُرادَى وحدانًا، لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراةً حفاةً غُرْلاً ﴿وَتَرَكْتُم﴾ خلّفتم ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ خلف ظهوركم في الدنيا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ وذلك أن المشركين زعموا أنّهم يعبدون الأصنام؛ لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لقد تقطع ما بينكم من الوصل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ الفلق: الشق، قال الحسن وقتادة والسدي: معناه: يشق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها، والحب جمع الحبة، وهي اسم لجميع البذور والحبوب من البر والشعير والذرة، وكل ما لم يكن له نوى.

والنوى جمع النواة، وهي كل ما لم يكن حبًّا، كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها.

وقال الضحاك: «فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ»، يعني: خالق الحبِّ والنَّوى ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحقّ.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شاقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه.

وقال الضحاك: خالق النهار، والإصباح مصدر كالإقبال والإدبار، وهو الإضاءة، وأراد به: الصبح.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه خلقه، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: جعل الشمس والقمر

بحسابٍ معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما، والحسبان مصدر كالحساب ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي: خلقها لكم ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

والله تعالى خلق النجوم لفوائد:

أحدها: هذا، وهو أن راكب البحر والسائر في القفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده.

والثاني: أنها زينة للسماء كما قال: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ» [الملك: ٥].

ومنها: رمي الشياطين، كما قال: «وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ» [الملك: ٥].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ خلقكم وابتدأكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

واختلفوا في المستقر والمستودع، قال عبد الله بن مسعود: «فَمُسْتَقَرٌّ» في الرحم إلى أن يُولد، «وَمُسْتَوْدَعٌ» في القبر إلى أن يبعث.

وقال سعيد بن جبير وعطاء: «فَمُسْتَقَرٌّ» في أرحام الأمهات، «وَمُسْتَوْدَعٌ» في أصلاب الآباء.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من الماء، وقيل: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ يعني: أخضر، مثل: العَوَر والأعور، يعني: ما كان رطبًا أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: متراكمًا بعضه على بعض، مثل: سنابل البُرِّ والشعير والأرز وسائر الحبوب ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ والطَّلع أول ما يخرج من ثمر النخل ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنْو: وهو العِذق، مثل: صنو وصنوان، ولا نظير لهما في الكلام ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المتناول، ينالها القائم والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتزقة بالأرض، ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: وأخرجنا منه جنات، وقرأ الأعمش عن

عاصم «وجناتٌ» بالرفع نسقًا على قوله: «قِنْوَانٌ»، وعامة القراء على خلافه ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ يعني: وشجر الزيتون وشجر الرمان ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال قتادة: معناه: مشتبهًا ورقها مختلفًا ثمرها؛ لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، وقيل: مشتبه في المنظر مختلف في الطعم ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، هذا وما بعده وفي «يس» على جمع الثمار، وقرأ الآخرون بفتحهما على جمع الثمرة، مثل: بقرة وبقر ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ ونضجه وإدراكه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ يعني: الكافرين جعلوا لله الجن شركاء ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يعني: وهو خلق الجن.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وذلك مثل قول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن مريم، وقول كفار العرب: الملائكة بنات الله، ثم نزَّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما لا على مثال سبق ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فأطيعوه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بالحفظ له، وبالتدبير فيه.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية، يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رُؤية الله عزَّ وجلَّ عيانًا.

ومذهب أهل السنة: إثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ عيانًا، جاء به القرآن والسنة، قال الله تعالى: «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)» [القيامة: ٢٣]، وقال: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)» [المطففين: ١٥]، قال مالك ـ رضي الله عنه ـ: لو لم يرَ المؤمنون ربَّهم يوم القيامة لم يعيِّر اللهُ الكفارَ بالحجاب، وقرأ النبي ﷺ: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» [يونس: ٢٦]، وفسَّره بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (٨/ ٥٩٧).

عن جرير بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «إنَّكم سترَوْنَ ربكم عيانًا»[1].

وأما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فاعلم أن الإدراك غير الرؤية؛ لأن الإدراك هو: الوقوف على كُنْهِ الشيء والإحاطة به، والرؤية: المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله تعالى في قصة موسى «فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ» [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، وقال: «لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ» [طه: ٧٧]، فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله عزَّ وجلَّ يجوز أن يُرى من غير إدراك وإحاطة كما يُعرف في الدنيا ولا يُحاط به، قال الله تعالى: «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا» [طه: ١١٠]، فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، قال سعيد بن المسيِّب: لا تُحيط به الأبصار، وقال عطاء: كلَّتْ أبصار المخلوقين عن الإحاطة، وقال ابن عباس ومقاتل: لا تُدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لا يخفى عليه شيء ولا يفوته ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اللطيف بأوليائه الخبير بهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: الحجج البينة التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فمن عرفها وآمن بها فلنفسِهِ عَمِلَ، ونفعُه له ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: من عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها، أي: فبنفسه ضرٌّ، وَوَبَال العمى عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ برقيب، أحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول إليكم أُبلغكم رسالاتِ ربي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نفصلها ونبيِّنها في كل وجه ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ قيل: معناه: لئلا يقولوا ﴿دَرَسْتَ﴾.

قال ابن عباس: «﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾»، يعني: أهل مكة، حين تقرأ عليهم القرآن: «درست»، أي: تعلمتَ من يسار وجبر، كانا عبدين من سبي الروم، ثم قرأتَ علينا تزعم أنه من عند الله، من قولهم: درست الكتاب أدْرس درسًا ودراسة.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد أولياء الذين هداهم إلى سبيل الرشاد، وقيل: يعني: أن تصريف الآيات ليشقى به قوم ويسعد به آخرون، فمن قال «درست» فهو شقي، ومن تبيَّن له الحق فهو سعيد.

ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآن اعمل به ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تجادلهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: لو شاء الله لجعلهم مؤمنين ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيبًا، قال عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظًا تمنعهم مني، أي: لم تبعث لتحفظ المشركين عن العذاب، إنما بعثت مبلغًا ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: لما نزلت «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد، لتنتهين عن سَبِّ آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله تعالى أن يسبُّوا أوثانهم.

وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فنهاهم الله عزَّ وجلَّ عن ذلك؛ لئلا يسبُّوا الله فإنهم قوم جهلة.

وقال السدي: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمرنَّه أن ينهى عنَّا ابنَ أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأُميَّة وأُبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي مُعيط وعمرو بن العاص، والأسود بن البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدُنا وإن محمدًا قد آذانا وآلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعنَّه وإلهه، فدعاه فقال: هؤلاء قومك يقولون: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك، فقد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتُم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم»؟ قال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله»، فأبَوْا ونفروا، فقال أبو طالب: قلْ غيرها يا ابن أخي، فقال: يا عمُّ ما أنا بالذي أقول غيرها، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي، فقالوا: لتكفنَّ عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنَّك ولنشتمنَّ من يأمرك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] يعني: الأوثان ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ أي: اعتداء وظلمًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: كما زيَّنا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زينَّا لكل أُمة عملَهم من الخير والشر والطاعة والمعصية ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويجازيهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش: يا محمد، إنك تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشر عينًا،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٣٨ - ٣٣٩)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٥٥.

وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى فأْتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: أيُّ شيء تحبون؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبًا، أو ابعثْ لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحقٌّ ما تقول أم باطل، أو أرنا الملائكة يشهدون لك، فقال رسول الله ﷺ: فإن فعلتُ بعض ما تقولون أتصدقونني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنَّك أجمعين، وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله ﷺ يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبًا فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: اختر ما شئت؛ إن شئت أصبح ذهبًا، ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبُهم، فقال رسول الله ﷺ: بلْ يتوب تائبُهم؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[1]، أي: حلفوا بالله جهد أيمانهم، أي: بجهد أيمانهم، يعني: أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدها.

﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ كما جاءت من قبلهم من الأُمم ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ والله قادر على إنزالها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم.

واختلفوا في المخاطبين بقوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ»، فقال بعضهم: الخطاب للمشركين الذين أقسموا، وقال بعضهم: الخطاب للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم «إنَّها» بكسر الألف على الابتداء، وقالوا: تمَّ الكلام عند قوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ»، فمَنْ جعل الخطاب للمشركين قال: معناه: وما يُشعركم أيها المشركون أنها لو جاءت آمنتم؟ ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال: معناه: وما يُشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: ونحول بينهم وبين الإيمان، فلو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره.

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ فرأوهم عيانًا ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ بإحيائنا إياهم، فشهدوا لك

---

(١) أخرجه الطبري: (١٢/٣٨)، الواحدي: ص٢٥٦.

بالنبوة كما سألوا ﴿وَحَشَرْنَا﴾ وجمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر «قِبَلاً» بكسر القاف وفتح الباء، أي: معاينة، وقرأ الآخرون بضم القاف والباء، هو جمع قبيل، ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: أعداء، فيه تعزية للنبي ﷺ، يعني: كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، ثم فسَّرهم فقال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ قال عكرمة والضحاك والسدي والكلبي: معناه: شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين فبعث فريقًا منهم إلى الإنس وفريقًا منهم إلى الجن، وكلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه، وهم الذين يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن: أضللتُ صاحبي بكذا فأضلَّ صاحبك بمثله، وتقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

قال قتادة ومجاهد والحسن: إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس: وهو شيطان الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدل عليه ما رُوي عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس»؟ فقلت: يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شرٌّ من شياطين الجن»(١).

قوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يلقي ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ وهو قول ممّوه مزّين بالباطل لا معنى تحته ﴿غُرُورًا﴾ يعني: هؤلاء الشياطين يُزيِّنون الأعمال القبيحة لبني آدم، يغرونهم غرورًا، والغرور: القول الباطل ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما ألقاه الشيطان من الوسوسة في القلوب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

(١) أخرجه النسائي: (٨/ ٢٧٥)، دون قوله: «هم شر من شياطين الجن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ١٨٧، ٢٦٥).

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: تميـــل إليه، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ ليكتسبوا ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ يقال: اقترف فلان مالاً، أي: اكتسبه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ فيه إضمار، أي: قلْ لهم يا محمد: أفغير الله ﴿أَبْتَغِى﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ قاضيًا بيني وبينكم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَمًا، فأجابهم به ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ مبينًا فيه أمره ونهيه، يعني: القرآن، وقيل: «مُفَصَّلًا»، أي: خمسًا وخمسًا وعشرًا عشرًا، كما قال: «لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ» [الفرقان: ٣٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾ يعني: القرآن، ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ من الشاكِّين أنهم يعلمون ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب «كَلِمَتُ» على التوحيد، وقرأ الآخرون «كلمات» بالجمع، وأراد بالكلمات: أمره ونهيه ووعده ووعيده ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقًا في الوعد والوعيد، وعدلاً في الأمر والنهي، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لا رادَّ لقضائه ولا مغيِّر لحكمه ولا خُلْف لوعده ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قيل: أراد بالكلمات: القرآن، لا مبدِّل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله، وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة، وقالوا: أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون من قتله الله عزَّ وجلَّ؟ فقال: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ» أي: وإن تطعهم في أكل الميتة يُضلُّوكَ عن سبيل الله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يريد: أن دينهم الذي هم عليه ظنٌّ وهوًى لم يأخذوه عن بصيرة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذِّبون.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قال الزجاج: موضعه رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام، والمعنى: إنَّ ربك هو أعلم أيُّ الناس يضل عن سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين فيجازي كلاً بما يستحقه.

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: كلوا ممَّا ذُبح على اسم الله ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم كانوا يُحرِّمون أصنافًا من النَّعم ويحلُّون الأموات، فقيل لهم: أحلُّوا ما

أحلَّ الله وحرِّموا ما حرَّم الله.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يعني: أي شيء لكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ وما يمنعكم من أن تأكلوا ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أراد بتفصيل المحرمات ما ذكر في قوله تعالى «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ» [المائدة: ٣]، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ وقيل: أراد به: عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين الذين اتخذوا البحائر والسوائب، ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حين امتنعوا من أكل ما ذكر اسم الله عليه، ودعوا إلى أكل الميتة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ يعني: الذنوب كلها؛ لأنها لا تخلو من هذين الوجهين، قال قتادة: علانيته وسره، وقال مجاهد: «ظَاهِرَ الْإِثْمِ»: ما يعمله بالجوارح من الذنوب، «وَبَاطِنَهُ»: ما ينويه ويقصده بقلبه كالمُصرِّ على الذنب القاصد له.

وقال الكلبي: ظاهره: الزنا، وباطنه: المخالَّة، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم: الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الرايات، وباطنه: الاستسرار به؛ وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا، فكان الشريف منهم يتشرف فيُسرُّ به، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرمهما الله عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخقنة وغيرها.

وقال عطاء: الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام.

واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها؛ فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامدًا أو ناسيًا، وهو قول ابن سيرين والشعبي، واحتجوا بظاهر هذه الآية.

وذهب قوم إلى تحليلها، يُروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول مالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين.

وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عامدًا لا يحل، وإن تركها ناسيًا يحل، حكى الخرقي في أصحاب أحمد: أن هذا مذهبه، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي.

من أباحها قال: المراد من الآيات الميتات أو ما ذبح على غير اسم الله بدليل أنه قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والفسق في ذكر اسم غير الله كما قال في آخر السورة: «قل لا أجد فيما أُوحيَ إليَّ محرمًا على طاعم»، إلى قوله: «أو فسقًا أُهِلَّ لغير الله به».

واحتج مَن أباحها بما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قالوا: يا رسول الله، إنَّ هنا أقوامًا حديثٌ عهدهم بشرك يأتونا بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٣٧٩).

أنتم اسم الله وكُلوا»[1].

ولو كانت التسمية شرطًا للإباحة لكان الشك في وجودها مانعًا مِن أكلها، كالشك في أصل الذبح.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ أراد: أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم، وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد، أخبرنا عن الشاة إذا ماتت مَنْ قَتَلَها؟ فقال: الله قتلها، قالوا: أفتزعم أن ما قتلتَ أنتَ وأصحابُك حلالٌ، وما قتله الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في أكل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قال الزجاج: وفيه دليل على أن من أحلَّ شيئًا مما حرَّم الله أو حرَّم ما أحلَّ الله فهو مشرك.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ قرأ نافع «ميِّتًا»، و«لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» [الحجرات: ١٢]، و«ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا» [يس: ٣٣] بالتشديد فيهن، والآخرون بالتخفيف ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا﴾» [يس: ٣٣] بالتشديد فيهن، والآخرون بالتخفيف ﴿فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ أي: كان ضالاً فهديناه، كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ يستضيء به ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ على قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام؛ لقوله تعالى: «يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ» [البقرة: ٢٥٧]، وقال قتادة: هو كتاب الله بيِّنةٌ من الله مع المؤمن، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ المثل صلة، أي: كمن هو في الظلماتِ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يعني: في ظلمة الكفر.

قيل: نزلت هذه الآية في رجلين بأعيانهما، ثم اختلفوا فيهما، قال ابن عباس: «وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا» يريد حمزة بن عبد المطلب، «كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ» يريد أبا جهل بن هشام، وذلك أنَّ أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بِفَرْثٍ، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، وحمزة لم يؤمن بعد، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه، ويقول: يا أبا يعلى، أما ترى ما جاء به؟ سفَّه عقولنا وسبَّ آلهتنا وخالف آباءنا، فقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله،

فأنزل الله هذه الآية.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعصية، قال ابن عباس: يريد: زيَّن لهم الشيطان عبادة الأصنام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: كما أن فُسَّاق مكة أكابرها، كذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها، أي: عظماءها، ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون لكل من يقدم: إيَّاك وهذا الرجل؛ فإنه كاهن ساحر كذاب ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني: مثل ما أُوتي رسل الله من النبوة، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقًّا لكنتُ أولى بها منك، لأني أكبر منك سنًّا وأكثر منك مالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إنا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منَّا نبي يُوحَى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾[1] حجة على صدق محمد ﷺ ﴿قَالُوا۟﴾ يعني: أبا جهل: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وحفص «رِسَالَتَهُ» على التوحيد، وقرأ الآخرون «رسالاته» بالجمع، يعني: الله أعلم بمن هو أحق بالرسالة ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذُلٌّ وهَوَان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عند الله ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ قيل: صَغَارٌ في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: يفتح قلبه وينوره حتى

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق، «السيرة»: (١/ ٣١٥ - ٣١٦)، ولم يذكر أنها سبب لنزول الآية.

يقبل الإسلام، ولما نزلت هذه الآية سُئل رسول الله عن شرح الصدر، فقال: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح»، قيل: فهل لذلك أمارة؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾: يجعل قلبه ضيقًا حتى لا يدخله الإيمان، وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإذا ذكر شيئًا من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك.

وقرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الآية، فسأل أعرابيًّا من كنانة: ما الحَرَجَةُ فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير(٢).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ ابن كثير: «يَصْعَد» بالتخفيف، وقرأ أبو بكر عن عاصم «يصاعد» بالألف، أي: يتصاعد، وقرأ الآخرون «يَصَّعَّدُ» بتشديد الصاد والعين، أي: يتصعد، يعني: يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء، وأصل الصعود: المشقة، ومنه قوله تعالى: «سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا» أي: عاقبة شاقة ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس: الرجس هو الشيطان، أي: يسلط عليه، وقال الكلبي: هو المأثم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه، وقال عطاء: الرجس العذاب مثل الرِّجْز، وقيل: هو النجس، رُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ النّجس»(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه وهو الإسلام ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: الجنة، قال أكثر المفسرين: السلام هو الله، وداره الجنة، وقيل: السلام هو السلامة من الآفات، وهي الجنة، وسُمِّيت دار السلام؛ لأن كل من دخلها سَلِمَ من البلايا والرزايا.

وقيل: سُمِّيت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، يقال في الابتداء: «ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ»، [الحجر: ٤٦] «وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم» [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا» [الواقعة: ٢٥ - ٢٦] ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، «سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ» [يس: ٥٨] ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال الحسين بن الفضل: يتولاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٢/ ٩٨ - ١٠٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: (١/ ٢٥٧ - ٢٥٨)، قال البيهقي: (هذا منقطع).

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ. «الدر المنثور»: (٣/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه، برقم٢٩٩: (١/ ١٠٩)، وقال في «الزوائد»: إسناده ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص: «يَحْشُرُهُمْ» بالياء ﴿جَمِيعًا﴾ يعني: الجن والإنس يجمعهم في موقف القيامة فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ والمراد بالجن: الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يعني: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

قال الكلبي: استمتاع الإنس بالجن: هو أن الرجل كان إذا سافر ونزل بأرض قَفْرٍ وخاف على نفسه من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فيبيت في جوارهم.

وأما استمتاع الجن بالإنس: هو أنهم قالوا: قد سُدْنَا الإنس مع الجن، حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفًا في قومهم وعِظَمًا في أنفسهم، وهذا كقوله تعالى: «وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا» [الجن: ٦].

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعني: القيامة والبعث ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ مقامكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

اختلفوا في هذا الاستثناء كما اختلفوا في قوله: «خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ» [هود: ١٠٧].

قيل: أراد إلاَّ قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم، يعني: هم خالدون في النار إلاَّ هذا المقدار.

وقيل: الاستثناء يرجع إلى العذاب، وهو قوله «ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ»، أي: خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب.

وقال ابن عباس: الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار، و«ما» بمعنى «من» على هذا التأويل ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قيل: عليم بالذي استثناه وبما في قلوبهم من البِرِّ والتقوى.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ قيل: أي: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض؛ نولي بعض الظالمين بعضًا، أي: نسلِّط بعضهم على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما جاء: «مَنْ أعان ظالمًا سلَّطه اللهُ عليه»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ اختلفوا في أن الجن هلْ أُرسل إليهم منهم رسول؟ فسُئل الضحاك عنه؟ فقال: بلى ألم تسمع الله يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يعني بذلك: رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقرؤون عليكم ﴿ءَايَٰتِى﴾ كتبي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وهو يوم القيامة ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أنهم قد بلَّغوا، قال مقاتل: وذلك حين شهدتْ عليهم جوارحهم بالشرك والكفر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى لم يؤمنوا ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم؛ لأنه لم يكنْ ربُّكَ مُهلك القرى بظلم، ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لم ينذروا حتى نبعث إليهم رسلاً ينذرونهم.

وقال الكلبي: لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ يعني: في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم من هو أشد عذابًا، ومنهم من هو أجزل ثوابًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ قال ابن عباس: ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته، وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم، وعيد لأهل مكة ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ يخلق وينشيء ﴿مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ خلقًا غيركم أمثل وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: آبائهم الماضين، قرنًا بعد قرن.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ما توعدون من مجيء الساعة والحشر ﴿لَءَاتٍ﴾ كائن ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين، يعني: يدرككم حيث ما كنتم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يقول: قل لهم: اعملوا على ما أنتم عاملون ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ ما أمرني به ربي عزَّ وجلَّ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي:

---

(١) قال في «اللآلىء»: (ذكره صاحب «الفردوس» بسنده من حديث ابن مسعود)، وقال في «المقاصد الحسنة»: (رواه ابن عساكر في «تاريخه» عن ابن مسعود رفعه، وفيه: ابن زكريا العدوي، متهم بالوضع، فهو آفته). انظر: «كشف الخفاء»: (٢/ ٢٩٨ - ٢٩٨)، «فيض القدير»: (٦/ ٧٢)، «تمييز الطيب من الخبيث»: ص١٧٧.

الجنة، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: لا يسعد من كفر بي وأشرك، قال الضحاك: لا يفوز.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآية، كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبًا، وللأوثان نصيبًا، فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها، فإن سقط شيءٌ مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إنَّ الله غني عن هذا، وإن سقط شيءٌ من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردُّوه إلى الأوثان، وقالوا: إنها محتاجة، وكان إذا هلك أو انتقص شيءٌ مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه للأصنام جبروه بما جعلوه لله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ وفيه اختصار، مجازه: وجعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ وهو القول من غير حقيقة ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ يعني: الأوثان ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ ومعناه: ما قلنا إنهم كانوا يتمون ما جعلوه للأوثان مما جعلوه لله، ولا يتمون ما جعلوه لله مما جعلوه للأوثان، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يصنعون.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زيَّن لهم تحريم الحرث والأنعام، كذلك زيَّن لكثير من المشركين ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ قال مجاهد: «شُرَكَآؤُهُمْ»، أي: شياطينهم، زيَّنوا وحسَّنوا لهم وَأْدَ البنات خيفة العيلة، سُميت الشياطين شركاء؛ لأنهم أطاعوهم في معصية الله، وأضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها.

وقال الكلبي: «شُرَكَآؤُهُمْ»: سدنة آلهتهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل الأولاد، فكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلامًا لينحرنَّ أحدَهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليُهلكوهم ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ﴾ ليخلطوا عليهم ﴿دِينَهُمْ﴾ قال ابن عباس: ليُدخلوا عليهم الشَّك في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بِلَبْسِ الشياطين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: لو شاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا ذلك من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الكذب، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: المشركين ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: حرام، يعني: ما جعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على ما مضى ذكره، ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يعنون: الرجال دون النساء ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي: الحوامي كانوا لا يركبونها ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ يعني: أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراءً عليه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أي: نسائنا، قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد: أَجِنَّةَ البحائر والسوائب، فما وُلد منها حيًّا فهو خالص للرجال دون النساء، وما وُلد ميْتًا أكله الرجال والنساء جميعًا.

﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ ولم يقل فيها، وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: بوصفهم، أو على وصفهم الكذب على الله تعالى ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ جهلاً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم، كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ حيث قالوا: إن الله أمرهم بها ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ ابتدع ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات، وقال ابن عباس: «مَّعْرُوشَٰتٍ» ما انبسط على وجه الأرض وانتشر مما يعرش، مثل: الكرم والقرع والبطيخ وغيرها، «وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ»: ما قام على ساق وبَسَقَ، مثل: النخل والزرع وسائر الأشجار.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ أي: وأنشأ النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ ثمره وطعمه، منها الحلو والحامض والجيد والرديء ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ في المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في المطعم، مثل: الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ هذا أمر إباحة.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾. اختلفوا في هذا الحق؛ فقال ابن عباس وطاووس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب: إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر.

وقال علي بن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد والحكم: هو حق في المال سوى الزكاة أمر بإتيانه؛ لأن الآية مكية، وفرضت الزكاة بالمدينة.

وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا يجيؤون بالعذق فيعلقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه.

وقال مِقْسَم عن ابن عباس: نَسَخَتِ الزكاةُ كلَّ نفقة في القرآن.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: أراد بالإسراف: إعطاء الكل، قال ابن عباس في رواية الكلبي: إنَّ ثابت بن قيس بن شَمَّاس صَرَمَ خمسمائة نخلة وقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئًا؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية.

قال السدي: لا تسرفوا، أي: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء، قال الزَّجَّاج: على هذا إذا أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئًا فقد أسرف؛ لأنه قد جاء في الخبر: «ابدأ بمن تعول»[1]، وقال سعيد بن المسيب: معناه: لا تمنعوا الصدقة، فتأويل الآية على هذا: لا تتجاوزوا الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة.

وقال مقاتل: لا تُشركوا الأصنام في الحرث والأنعام.

وقال الزهري: لا تنفقوا في المعصية، وقال مجاهد: الإسراف ما قصّرت به عن حق الله عزَّ وجلَّ، وقال: لو كان أبو قبيس ذهبًا لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفًا، ولو أنفق درهمًا أو مدًّا في معصية الله كان مسرفًا.

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري: (٣/ ٢٩٤)، ومسلم برقم١٠٣٤: (٢/ ٧١٧).

ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وأنشأ من الأنعام ﴿حَمُولَةً﴾ وهي كل ما يحمل عليها من الإبل ﴿وَفَرْشًا﴾ وهي الصغار من الإبل التي لا تحمل ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والأنعام ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثم بيَّن الحمولة والفرش فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾. نصبها على البدل من الحمولة والفرش، أي: وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: الذكر والأنثى، فالذكر زوج والأنثى زوج، والعرب تسمي الواحد زوجًا إذا كان لا ينفكُّ عن الآخر، والضأن النعاج ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهي ذوات الشعر من الغنم، وجمع الماعز مَعِيْز، وجمع الماعزة مواعز ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله عليكم، يعني: ذكر الضأن والمعز ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني: أُنثى الضأن والمعز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما، فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، ﴿نَبِّـُٔونِى﴾ أخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ قال الزَّجَّاج: فسِّروا ما حرَّمتُم بعلم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن الله تعالى حرم ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حِجْر، وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وحرَّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء، ، وبعضها على النساء دون الرجال، فلمَّا قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ، وكان خطيبهم مالك بن عوف أبو الأحْوَص الجُشَمِيّ، فقال: يا محمد، بَلَغَنا أنك تحرم أشياء ممَّا كان آباؤنا يفعلونه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنكم قد حرَّمتم أصنافًا من الغنم على غير أصل، وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ من قِبَل الذكر أم من قِبَل الأُنثى»؟ فسكت مالك بن عوف وتحيَّر فلم يتكلم. فلو قال جاء التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرّم جميع الذكور، وإن قال بسبب الأُنوثة وجب أن يحرّم جميع الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل؛ لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر وأنثى، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو البعض دون البعض فمن أين؟

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضورًا ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ قيل: أراد به: عمرو بن لحي ومن جاء بعده على طريقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

ثم بيّن أن التحريم والتحليل يكون بالوحي والتنزيل فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ وروي أنهم قالوا: فما المحرم إذًا فنزل: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ أي: شيئًا محرَّمًا ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ آكلٍ يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: مُهراقًا سائلاً.

وقال إبراهيم: لا بأس بالدم في عرق أو مخ، إلا المسفوح الذي تعمد ذلك، وقال عكرمة: لولا هذه الآية لاتَّبع المسلمون من العروق ما يتبع اليهود.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ حرام ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى، فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء، يُروى ذلك عن عائشة وابن عباس قال: ويدخل في الميتة: المنخنقة والموقوذة، وما ذُكر في أول سورة المائدة.

وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختص بهذه الأشياء، والمحرم بنص الكتاب ما ذكر هنا، ذلك معنى قوله تعالى: «قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا»، وقد حرَّمتِ السُّنَّة أشياء يجب القول بها.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[1].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكلُ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السباع حرامٌ»[2].

والأصل عند الشافعي: أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل، فإن كان مما أمر الشرع بقتله - كما قال: «خمسُ فواسق يقتلن في الحِل والحَرم»[3]، أو نهى عن قتله، كما رُوي أنه نهى عن قتل النحلة والنملة[4]. فهو حرام، وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب،

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٩٣٤: (٣/ ١٥٣٤).

(٢) أخرجه مالك برقم١٤: (٢/ ٤٩٦)، ومسلم في الموضع السابق برقم١٩٣٣: (٣/ ١٥٣٤).

(٣) أخرجه البخاري: (٤/ ٣٤)، ومسلم برقم١١٩٨: (٢/ ٨٥٦).

(٤) فيما أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارمي وأحمد عن ابن عباس. انظر: «شرح السنة»: (١١/ ٢٤١)، وراجع «تفسير القرطبي»: (١٣/ ١٧٣ - ١٧٤).

فما يأكله الأغلب منهم فهو حلال، وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام؛ لأن الله تعالى خاطبهم بقوله: «قل أحل لكم الطيبات»، فثبت أن ما استطابوه فهو حلال.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أباح أكل هذه المحرمات عند الاضطرار في غير العدوان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني: اليهود ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل: البعير والنعامة والأوز والبط.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ يعني: شحوم الجوف، وهي الثُّروب، وشحم الكليتين ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي: إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي المباعر، واحدتها: حاوية وحَوِيَّة، أي: ما حملته الحوايا من الشحم ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: شحم الإلية، هذا كله داخل في الاستثناء، والتحريم مختص بالثَّرْبِ[1] وشحم الكلية.

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حَرَّمَ بيعَ الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنه يُطلى بها السفن ويُدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام»، ثم قال رسول الله عند ذلك: «قاتلَ اللهُ اليهودَ إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا حرم شحومها جَمَلُوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه»[2].

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ أي: ذلك التحريم عقوبة لهم ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: بظلمهم من قتلهم الأنبياء وصدِّهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلال أموال الناس بالباطل ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار عما حرَّمنا عليهم وعن بغيهم.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ بتأخير العذاب عنكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ عذابه ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء وقتُه.

---

(١) الثَّرْب: على وزن فَلْس: شحم رقيق على الكرش والأمعاء.

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٤٢٤)، ومسلم برقم١٥٨١ : (٣/ ٢٠٧).

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ لمَّا لزمتهم الحجة، وتيقَّنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله، وتحريم ما لم يحرمه الله قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ من قبل ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ من البحائر والسوائب وغيرها، أرادوا أن يجعلوا قوله: «لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا» حجةً لهم على إقامتهم على الشرك، وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يَحُول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منَّا وأمرَنا به لَحَالَ بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من كفار الأمم الخالية ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ عذابنا.

ويستدل أهل القَدر بهذه الآية، يقولون: إنهم لما قالوا: لو شاء الله ما أشركنا كذَّبهم الله وردَّ عليهم، فقال: «كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ».

قلنا: التكذيب ليس في قولهم: «لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا»، بل ذلك القول صدق، ولكن في قولهم: إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه، كما أخبر عنهم في سورة الأعراف (الآية ٢٨): «وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ»، فالردُّ عليهم في هذا كما قال تعالى: «قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ».

وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرًا لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان، وردَّ عليهم في هذا لأنَّ أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنهُ مريدٌ لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذرًا لأحد.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ أي: كتاب وحجة من الله ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ حتى يظهر ما تدَّعون على الله تعالى من الشرك أو تحريم ما حرمتم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون فيما أنتم عليه ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ من غير علم ويقين ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ تكذبون.

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ التامَّة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فهذا يدل على أنه لم يشأ إيمان الكافر، ولو شاء لهداه.

قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ

﴿أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿قُلْ هَلُمَّ﴾ يقال للواحد والاثنين والجمع ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ أي: ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾ هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعواهم أن الله أمرهم به ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ كاذبين ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ أنت ﴿مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ وذلك أنهم سألوا وقالوا: أيُّ شيءٍ الذي حرَّم الله تعالى؟ فقال عزَّ وجلَّ: «قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ» أقرأ ما حرم ربكم عليكم حقًّا يقينًا، لا ظنًّا ولا كذبًا كما تزعمون.

فإن قيل: ما معنى قوله: «حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ»، والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك؟

قيل: موضع «أن» رفع، معناه: هو أن لا تشركوا، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ أي: لا تئدوا بناتكم خشية العيلة، فإني رازقكم وإيَّاهم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ ما ظهر، يعني: العلانية، وما بطن، يعني: السِّر.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ حرَّم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلا بالحق، إلاَّ بما يبيح قتله من ردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دمُ امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة»[1].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: بما فيه صلاحه وتثميره، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ قال الشعبي ومالك: الأَشُدُّ: الحُلم، حتى يكتب له الحسنات، وتكتب عليه السيئات، قال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوّته.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ بالعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ أي: طاقتها في إيفاء الكيل والميزان.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ فاصدقوا في الحكم والشهادة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ أي: ولو كان المحكوم

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ٢٠١)، ومسلم برقم١٦٧٦ : (٣/ ١٣٠٢).

والمشهود عليه ذا قرابة ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

قال ابن عباس: هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، لم ينسخهنَّ شيء وهنَّ محرمات على بني آدم كلهم، وهنَّ أُم الكتاب من عمل بهنَّ دخل الجنَّة، ومن تركهنَّ دخل النَّار.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي: هذا الذي وصيتكم به في هاتين الآيتين ﴿صِرَٰطِى﴾ طريقي وديني، ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ مستويًا قويمًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل: اليهودية والنصرانية وسائر الملل، وقيل: الأهواء والبدع ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فتميل ﴿بِكُمْ﴾ وتشتَّت ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عن طريقه ودينه الذي ارتضى وبه أوصى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

عن عبد الله قال: خطَّ لنَا رسولُ الله ﷺ خطًّا ثم قال: «هذا سبيلُ الله»، ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه سُبُلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثم قرأ: «﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإن قيل: لمَ قال: «﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾» وحرف «ثم» للتعقيب، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن؟ قيل: معناه: ثم أخبرُكم أنَّا آتينا موسى الكتاب، فدخل «ثم» لتأخير الخبر لا لتأخير النزول.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ اختلفوا فيه، قيل: تمامًا على المحسنين من قومه، فتكون «ٱلَّذِىٓ» بمعنى «مَنْ»، أي: على من أحسن من قومه، وكان بينهم محسن ومسيء، يدل عليه قراءة ابن مسعود: «على الذين أحسنوا»، وقال أبو عبيدة: معناه: على كل من أحسن، أي: أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين، يعني: أظهرنا فضله عليهم، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وقيل: «ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ» هو موسى، و«ٱلَّذِىٓ» بمعنى «ما»، أي: على ما أحسن موسى، تقديره: آتيناه الكتاب، يعني: التوراة، إتمامًا عليه للنعمة؛ لإحسانه في الطاعة والعبادة، وتبليغ الرسالة وأداء الأمر.

---

(١) أخرجه الدارمي: (١/ ٦٧)، والطبري في «التفسير» برقم١٤١٦٨، وصححه ابن حبان: ص٤٣١، والحاكم: (٢/ ٣١٨) ووافقه الذهبي.

﴿وَتَفْصِيلًا﴾ بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه من شرائع الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ هذا في صفة التوراة ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس: كي يؤمنوا ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿وَهَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ واعملوا بما فيه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ وأطيعوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ يعني: لئلا تقولوا، كقوله تعالى: «يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟» [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلُّوا، وقيل: معناه: أنزلناه كراهة ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ قال الكسائي: معناه: اتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا﴾ وقد كنا ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا نعلم ما هي، معناه: أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا: إن الكتاب أُنزل على من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته، فتجعلونه عذرًا لأنفسكم.

أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ وقد كان جماعة من الكفار قالوا ذلك: لو أنَّا أُنزل علينا ما أُنزل على اليهود والنصارى لكنَّا خيرًا منهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة واضحة بلغة تعرفونها ﴿وَهُدًى﴾ بيان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة لمن اتبعه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ﴾ أعرض ﴿عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدَّة العذاب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، وقيل: بالعذاب، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ بلا كيف، لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يعني: طلوع الشمس من مغربها، عليه أكثر المفسرين، ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعًا[1] ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: لا ينفعهم الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ

(١) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري. رضي الله عنه. عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، قال: (طلوع الشمس من مغربها)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه. انظر: «السنن»، تفسير سورة الأنعام: (٨/٤٤٨ - ٤٤٩)، ويؤيده ما أخرجه أيضًا عن أبي هريرة وهو الحديث الآتي بعده.

إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يريد: لا يُقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ يا أهل مكة ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكم العذاب.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعتْ ورَآها الناسُ آمنُوا أجمعين، وذلك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ مِنْ قَبْلُ أو كسبتْ في إيمانها خيرًا»(١).

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدا الله بُسْطَان لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ولمسيء النهار ليتوب بالليل، حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها»(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ أنْ تطلعَ الشمسُ من مغربها تابَ اللهُ عليه»(٣).

وعن زِرّ بنِ حُبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسَّال المرادي فذكر عن رسول الله ﷺ: «أنَّ الله عَزَّ وجلَّ جعل بالمغرب بابًا مسيرة عرضه سبعونَ عامًا للتوبة لا يُغلق ما لَمْ تطْلُع الشمسُ مِنْ قِبَلِهِ»، وذلك قول الله تعالى: «يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ»(٤).

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل أو كسبتْ في إيمانها خيرًا: الدجال، والدَّابَّة، وطلوع الشمس من مغربها»(٥).

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٩٧)، ومسلم برقم١٥٧: (١/ ١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٧٥٩: (٤/ ٢١١٣)، بلفظ: «إن الله عزَّ وجلَّ يبسط يده بالليل ليتوب ...».

(٣) أخرجه مسلم برقم٢٧٠٣: (٤/ ٢٠٧٦).

(٤) أخرجه الترمذي: (٩/ ٥١٧ - ٥١٩) مطولاً، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أخرجه مسلم برقم١٥٨: (١/ ١٣٨).

بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ أي: جعلوا دينَ الله وهو واحد ـ دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية ـ أديانًا مختلفة، فتهوَّد قوم وتنصَّر قوم، يدل عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ أي: صارُوا فرقًا مختلفة، وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي.

وقيل: هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأمة، ورُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائشةُ، إنَّ الذين فارقُوا دينَهم وكانوا شِيَعًا هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأُمَّة»[(١)].

عن العرباض بن سارية، قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظةً بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، وقال قائل: يا رسول الله، كأنَّها موعظةُ مودِّع فأَوْصِنَا؛ فقال: «أُوصِيكُمْ بتقوى الله والسمعِ والطَّاعةِ وإنْ كان عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجِذِ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل بدعة ضلالة»[(٢)].

ورُوي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل تفرَّقَتْ على اثنينِ وسبعين فرقة، وتفرَّقَت أُمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة، كلهم في النار إلاَّ واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»[(٣)].

قال عبد الله بن مسعود: «فإن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمورِ مُحدثاتُها»[(٤)]، ورواه جابر مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ[(٥)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ قيل: لست من قتالهم في شيء، نسختها آية القتال،

---

(١) عزاه ابن كثير لابن مردويه، وقال: (وهو غريب . . . ولا يصح رفعه)، ثم قال: (والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد، لا اختلاف فيه، ولا افتراق). «تفسير ابن كثير»: (٢/ ١٩٧).
وعزاه السيوطي للحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والطبراني، وأبي نعيم، والسجزي، والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود: (٧/ ١١)، وسكت عنه المنذري.

(٣) روى هذا الحديث من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة بألفاظ مختلفة، فقد أخرجه أبو داود: (٧/ ٣ - ٤)، والترمذي: (٧/ ٣٩٧)، وقال: حسن صحيح.
وابن ماجه برقم٣٩٩١: (٢/ ١٣٢١)، والدارمي: (٢/ ٢٤١)، وابن حبان برقم١٨٣٤ من «الموارد»، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي: (١/ ١٢٨ - ١٢٩)، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٥١).

(٥) هذه الرواية أخرجها مسلم برقم٨٦٧: (٢/ ٥٩٢). وانظر: «فتح الباري»: (١٣/ ٢٥٣).

وهذا على قول من يقول: المراد في الآية اليهود والنصارى، ومن قال: أراد بالآية أهل الأهواء قال: المراد من قوله: «لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ»، أي: أنتَ منهم بريء وهم منك براء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: في الجزاء والمكافآت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ إذا وردُوا للقيامة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي: له عشر حسنات أمثالها، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدُكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملُها تُكتبُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعف، وكلُّ سيئةٍ يعملُها تُكتبُ له بمثلها حتى يَلْقَى الله عزَّ وجلَّ»(١).

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فَلَهُ عشرُ أمثالِها وأزيد، ومَنْ جاء بالسيئةِ فجزاءُ سيئةٍ بمثلها أو أغفر، ومَنْ تقرَّبَ منِّي شِبْرًا تقرَّبْتُ منه ذراعًا، ومَنْ تَقَرَّبَ منِّي ذِرَاعًا تقرَّبْتُ منه باعًا، ومَنْ أتاني يمشي أتيتُه هرولةً، ومن لقيني بِقُرَابِ الأرضِ خطيئةً لا يُشْرِكُ بي شيئًا لقيتُه بمثلها مغفرة»(٢).

قال ابن عمر: الآية في غير الصدقات من الحسنات، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ وهو القويم المستقيم، وانتصابه على معنى هداني دينًا قيمًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ قيل: أراد بالنسك: الذبيحة في الحج والعمرة، وقال مقاتل: نسكي: حجي، وقيل: ديني ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي: حياتي ووفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو يحييني ويميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ قال قتادة: وأنا أول المسلمين من هذه الأُمة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سيِّدًا وإلَهًا ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون للنبي ﷺ: ارجعْ إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتبعوا سبيلي أحملْ عنكم أوزاركم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا تجني كل نفس إلا ما كان من إثمه على الجاني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس حمل أُخرى، أي: لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أهلك أهل القرون الماضية وأورثكم الأرض يا أُمة

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٠٠)، ومسلم برقم١٢٩: (١/ ١١٨ - ١١٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٦٨٧: (٤/ ٢٠٦٨).

محمد ﷺ من بعدهم، فجعلكم خلائف منهم فيها تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: خالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليختبركم فيما رزقكم، يعني: يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع والحرّ والعبد، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت فهو سريع قريب، قيل: هو الهلاك في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ قال عطاء: سريع العقاب لأعدائه، غفور لأوليائه رحيم بهم.

سورة الأعراف

مكيّة كلها إلا خمس آيات، أولها «واسألهم عن القرية التي كانت».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد: شك، فالخطاب للرسول ﷺ والمراد به الأمة، وقال أبو العالية: حرج أي: ضيق، معناه: لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أُرسلت به ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: كتاب أُنزل إليك لِتُنْذِرَ به ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عظة لهم.

﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ أي: وقلْ لهم: اتَّبعوا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله تعالى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظُونَ.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالعذاب ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار. ومعنى الآية: أنهم جاءهم بأسُنا وهم غير متوقعين له إمَّا ليلاً أو نهارًا.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: قولهم ودعاؤهم وتضرُّعهم، ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ عذابنا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ معناه: لم يقدروا على ردِّ العذاب، وكان حاصل أمرهم: الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأمم عن إجابتهم الرسل، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، يعني: لنسألهم عمَّا عملوا فيما بلَّغتهم الرسل ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عن الإبلاغ.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: لنخبرنهم عن علم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ينطق عليهم كتاب أعمالهم كقوله تعالى: «هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ» [الجاثية: ٢٩]، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: يوم السؤال، قال الأكثرون: أرادَ به: وزن الأعمال بالميزان، وذاك أن الله تعالى ينصب ميزانًا له لسان وكفتان، كل كِفَّة بقدر ما بين المشرق والمغرب.

واختلفوا في كيفية الوزن، فقال بعضهم: تُوزن صحائف الأعمال، ورُوينا: «أنَّ رجلاً يُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مدّ البصر، فيُخرج له بطاقةٌ فيها شهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السجلاتُ وثَقُلَتِ البطاقةُ»[1].

وقيل: توزن الأشخاص، ورُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضة»[2].

وقيل: تُوزن الأعمال، رُوي ذلك عن ابن عباس، فيُؤتَى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمةُ في وزن الأعمال امتحانُ الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال مجاهد: حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ يجحدون، قال

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣٩٥ - ٣٩٧)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم٤٣٠٠: (٢/ ١٤٣٧)، وصححه الحاكم: (١/ ٦)، وابن حبان: ص٦٢٥ من «الموارد»، وأخرجه الإمام أحمد: (٢/ ٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٢٦)، ومسلم برقم٢٧٨٥: (٤/ ٢١٤٧).

أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ حين حضره الموت في وصيته لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّتْ موازينُ من خفَّتْ موازينُه يومَ القيامة باتِّباعهم الباطلَ في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكنَّاكم، والمراد من التمكين: التمليك والقدرة ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي: أسبابًا تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب. والمعايش جمع المعيشة ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعتُ إليكم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ قال ابن عباس: خلقناكم، أي: أُصُولكم وآباءَكم، ثم صوَّرناكم في أرحام أُمهاتكم، وقال قتادة والضحاك والسدي: أمَّا «خَلَقْنَٰكُمْ» فآدم، وأمَّا «صَوَّرْنَٰكُمْ» فذريته.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ يعني: الملائكة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي: وما منعك أن تسجد، و«لا» زائدة كقوله تعالى: «وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» [الأنبياء: ٩٥]، ﴿قَالَ﴾ إبليس مجيبًا: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لأنك ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ والنار خير وأنور من الطين.

قال ابن عباس: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس.

قال ابن سيرين: ما عُبِدَتِ الشَّمْسُ إلا بالقياس.

قال محمد بن جرير: ظن الخبيث أن النار خير من الطين، ولم يعلم أن الفضل لمن جعل الله له الفضل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، وقيل: من السماء إلى الأرض، وكان له مُلْك الأرض فأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه في البحر الأخضر، فلا يدخل الأرض إلا خائفًا على هيئة السارق، مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ﴾ بمخالفة الأمر ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة، فلا ينبغي أن يسكن في الجنة ولا السماء متكبرٌ مخالفٌ لأمر الله تعالى ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من الأذلاء، والصَّغار: الذل والمهانة.

قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

﴿قَالَ﴾ إبليس عند ذلك: ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ أخِّرني وأمهلني فلا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم، وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ المؤخرين، وبيَّن مدة النظر والمهلة في موضع آخر فقال: «إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ» [الحجر: ٣٨]، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أضللتني عن الهدى، وقيل: أهلكتني، وقيل: خيَّبتني ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لأجلسنَّ لبني آدم على طريقك القويم: وهو الإسلام.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»، أي: مِنْ قِبل الآخرة فأُشكِّكُهم فيها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أُرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أشبِّه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أُشهي لهم المعاصي، وروى عطية عن ابن عباس: «مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» من قِبلِ دنياهم، يعني: أُزينها في قلوبهم «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» من قِبَل الآخرة، فأقول: لا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار «وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ» من قِبَلِ حسناتهم «وَعَن شَمَآئِلِهِمْ» من قِبَلِ سيئاتهم.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ مؤمنين، فإن قيل: كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل: قاله ظنًّا فأصاب، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ» [سبأ: ٢٠].

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: معيبًا، والمدحور: المبعد المطرود، يقال: دحره يدحره دحرًا إذا أبعده وطرده، قال ابن عباس: «مَذْءُومًا»، أي: ممقوتًا، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من بني آدم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام لام القسم، ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم أجمعين.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: إليهما، والوسوسة: حديث يُلقيه الشيطان في قلب الإنسان ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: أظهر لهما ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما، ثم بيَّن الوسوسة فقال: ﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبليس لآدم وحواء: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا

مَلَكَيْنِ﴾ يعني: لئلا تكونا، كراهية أن تكونا مَلَكَيْنِ من الملائكة يعلمان الخير والشر ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ من الباقين الذين لا يموتون.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾ أي: وأقسم وحلف لهما، وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد، قال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتَّبِعاني أرشدكما، وإبليس أول من حلف بالله كاذبًا، فلما حلف ظنَّ آدم أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، فاغترَّ به.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: خدعهما، يقال: ما زال فلان يدلي لفلان بغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف باطل من القول.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ قال الكلبي: فلما أكلا منها، ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: قبل أن ازدردا أخذتْهما العقوبةُ، والعقوبةُ أن «بَدَتْ» ظهرت لهما «سَوْآتُهُمَا» عوراتُهما، وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما وُورِيَ عنه من عورة صاحبه، وكانا لا يريان ذلك، ﴿وَطَفِقَا﴾ أقبلا وجعلا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يرقعان ويلزقان ويصلان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب.

قال الزَّجَّاج: يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما، ورُوي عن أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «كان آدم رجلاً طِوَالاً كأنه نخلة سَحُوق كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأتُه، وكان لا يراها فانطلق هاربًا في الجنة، فعرضت له شجرةٌ من شجر الجنة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني، قالت: لست بمرسلتك، فناداه ربُّه: يا آدمُ أَمِنِّي تفرّ؟ قال: لا يارب، ولكن استحييتُك»(١).

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ يعني: الأكل منها ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنَ العداوة.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ

---

(١) أخرجه ابن جرير مرفوعًا وموقوفًا: (١٢/ ٣٥٢، ٣٥٤).

هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني: في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أي: خلقْنا لكم ﴿لِبَاسًا﴾ وقيل: إنَّما قال: «أَنزَلْنَا»؛ لأن اللباس إنما يكون من نبات الأرض، والنبات يكون بما ينزل من السماء، فمعنى قوله: «أَنزَلْنَا»، أي: أنزلنا أسبابه، وسبب نزول هذه الآية: أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة.

وقال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

فأمر الله سبحانه بالستر فقال: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾، يستر عوراتكم، واحدتها سوأة، سُمِّيت بها؛ لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها، فلا تطوفوا عراةً ﴿وَرِيشًا ۖ﴾ يعني: مالاً في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي: يُقال: تَرَيَّش الرَّجل إذا تمول، وقيل: الريش: الجمال، أي: ما يتجملون به من الثياب، وقيل: هو اللباس.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي «وَلِبَاسَ» بنصب السين عطفًا على قوله «لِبَاسًا»، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره «خَيْرٌ» وجعلوا «ذَٰلِكَ» صلة في الكلام؛ ولذلك قرأ ابن مسعود وأُبيُّ بن كعب «ولباس التقوى خير».

واختلفوا في «وَلِبَاسُ»، قال قتادة والسدي: لباس التقوى هو الإيمان، وقال الحسن: هو الحياء؛ لأنه يبعث على التقوى، وقال عطية عن ابن عباس: هو العمل الصالح.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لا يضلنَّكم الشيطان ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ أي: كما فتن أبويكم آدم وحواء فأخرجهما ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ ليرى كل واحد سوأة الآخر ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ يعني: أن الشيطانَ يراكم يا بني آدم ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده، قال ابن عباس: هو وولده، وقال قتادة: قبيله: الجن والشياطين ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾ قال مالك بن دينار: إنَّ عدوًّا يراكَ ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلاَّ مَن عَصَمَ الله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ قرناء وأعوانًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال الزَّجَّاج: سلطانهم عليهم يزيدون في غيهم، كما قال: «أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» [مريم: ٨٣].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة، وقال عطاء: الشرك والفاحشة: اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وفيه إضمار معناه: وإذا فعلوا فاحشةً فَنُهُوا عنها قالوا: وجدنا عليها آباءنا، قيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ قال ابن عباس: بلاَ إلهَ إلاَّ الله، وقال الضحاك: بالتوحيد، وقال مجاهد والسدي: بالعدل ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني: وجِّهوا وجوهكم حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلُّوا فيه، ولا يقولنَّ أحدكم أصلي في مسجدي، وقيل: معناه: اجعلوا سجودكم لله خالصًا ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ الطاعة والعبادة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا كما قال: «هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ» [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرا، قال مجاهد: يبعثون على ما ماتوا عليه.

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه، المؤمن على إيمانه والكافر على كفره»(١).

عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناسُ بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ أي: هداهم الله ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾ أي: بالإرادة السابقة ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٨٧٨: (٤/٢٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم١١٢: (١/١٠٦).

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ قال أهل التفسير: كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ»، يعني: الثياب، قال مجاهد: ما يُواري عورتك ولو عباءة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجِّهم من الطعام إلاَّ قوتًا ولا يأكلون دسمًا، يعظمون بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلُواْ﴾ يعني: اللحم والدسم ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ اللبن ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ بتحريم ما أحلَّ الله لكم من اللحم والدسم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الذين يفعلون ذلك، قال ابن عباس: كُلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة، قال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطِّبَّ كله في نصف آية فقال: «كُلُوا وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ».

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ يعني: لبس الثياب في الطواف، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ يعني: اللحم والدسم في أيام الحج.

وعن ابن عباس وقتادة: «وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ» ما حرَّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب.

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فيه حذف تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظَّ للمشركين فيها.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يعني: الطواف عراة، «مَا ظَهَرَ»: طواف الرجال بالنهار، «﴿وَمَا بَطَنَ﴾»: طواف النساء بالليل، وقيل: هو الزنا سرًّا وعلانيةً.

عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قلت: أنت سمعت هذا من عبد الله؟ قال: نعم، فرفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغْيَرُ من الله؛ فلذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المَدْحُ من الله، فلذلك مَدَحَ نفسه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٩٦)، ومسلم برقم٢٧٦٠: (٤/ ٢١١٣ - ٢١١٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ يعني: الذنب والمعصية، وقال الضحاك: الذنب الذي لا حدَّ فيه، قال الحسن: الإثم: الخمر، قال الشاعر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حتَّى ضَلَّ عَقْلي كذاك الإِثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ

﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ الظلم والكِبْر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجةً وبرهانًا ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في تحريم الحرث والأنعام.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدَّة، وأكل وشرب، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وانقطع أكلهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: ولا يتقدمون، وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: أن يأتيكم، قيل: أراد جميع الرسل، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ قال ابن عباس: فرائضي وأحكامي ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أي: اتقى الشرك وأصلح عمله، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: إذا حزنوا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ تكبروا على الإيمان بها، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ جعل له شريكًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالقرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: حظهم ممَّا كتب لهم في اللوح المحفوظ، قال عطية عن ابن عباس: كُتب لمن يفتري على الله أنَّ وجهه مسودٌّ، قال الله تعالى: «وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ» [الزمر: ٦٠].

وقال محمد بن كعب القرظي: ما كتب لهم من الأرزاق والآجال والأعمار والأعمال، فإذا فنيت ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: يقول الرسل للكافر: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سؤال تبكيت وتقريع ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ بطلوا وذهبوا عنَّا ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اعترفوا عند معاينة الموت ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ يعني: يقول الله لهم يوم القيامة: ادخلوا في أمم، أي: مع جماعات ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعني: كفار الأمم الخالية ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يريد: أختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهودَ والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أُختها، ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل أخاه؛ لأنه عنى الأمة والجماعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ قال مقاتل: يعني: أُخراهم دخولاً، وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: لأُولاهم دخولاً، وهم القادة؛ لأن القادة يدخلون النار أوّلاً، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى، يعني: القادة ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ضَعِّفْ عليهم العذاب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ يعني: للقادة والأتباع ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ يعني: القادة ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنكم كفرتم كما كفرنا، فنحن وأنتم في الكفر سواء، وفي العذاب سواء ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأدعيتهم ولا لأعمالهم، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، والخياط والمخيط: الإبرة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: لُحف، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟

أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي: طاقتها، وما لا تحرج فيه ولا تضيق عليه ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا، فجعلناهم إخوانًا على سُرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خصَّ الله به بعضهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ﴾ روى الحسن عن علي - رضي الله عنه - قال: فينا والله - أهل بدر - نزلت: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾»(١).

وقال علي - رضي الله عنه - أيضًا: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال لهم الله عزَّ وجلَّ: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ».

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخَلَّصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُونَ على قنطرةٍ بين الجنَّةِ والنار، فَيُقْتَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، فَوَالذي نفسُ محمدٍ بيدِه لأحَدُهُمْ أهدى بمنزلِهِ في الجنة منه بمنزلِهِ كان في الدنيا»(٢).

وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غِلّ، فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبدًا، أي إلى هذا، يعني: طريق الجنة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ قال سفيان الثوري: معناه: هدانا لعملٍ هذا ثوابه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانًا ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: هذا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد نُودُوا أنْ تلكم الجنة.

وقيل: هذا النداء يكون في الجنة.

عن أبي سعيد، وعن أبي هريرة قالا: ينادي منادٍ: إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسُوا

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٦٤: «رواه ابن سعد: (٣/ ١١٣) من رواية جعفر بن محمد عن أبيه، والطبري: (١٢/ ٤٣٢) من رواية معمر عن قتادة عن علي، وكلاهما منقطع. وفي ابن أبي شيبة من رواية ربعي عن علي، وهو متصل».

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٩٥).

أبدًا؛ فذلك قوله: «وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ»[(١)].

ورُوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أحدٍ إلاَّ وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأمَّا الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر ومنزله من الجنة»[(٢)].

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب، ﴿حَقّٗا﴾ أي: صدقًا ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ من العذاب ﴿حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعة الله ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يطلبونها زيغًا وميلاً، أي: يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد.

قال ابن عباس: يصلُّون لغير الله، ويعظمون ما لم يعظمه الله، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ يعني: بين الجنة والنار حجاب، وهو السور الذي ذكر الله تعالى في قوله: «فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ» [الحديد: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ والأعراف: هي ذلك السور الذي بين الجنة والنار.

واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف، فقال حذيفة وابن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يُدخلهم الجنة بفضل رحمته، وهم آخر من يدخل الجنة.

قال سعيد بن جبير، يُحدِّث عن ابن مسعود قال: يُحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناتُه أكثرَ من سيئاته بواحدة دخل الجنَّةَ، ومن كانت سيئاتُه أكثرَ من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله تعالى: «فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم» [الأعراف: ٨، ٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح[(٣)]، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٨٣٧: (٤/ ٢١٨٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٨/ ١٩٠ - ١٩١).

النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادَوا سلامٌ عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا: ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فأمَّا أصحاب الحسنات فإنهم يُعطون نورًا يمشُون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطى كل عبدٍ يومئذ نورًا، فإذا أتوا على الصراط سَلَبَ اللهُ نورَ كلِّ منافق ومنافقة، فلمَّا رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ربَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا.

فأمَّا أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم، ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا، فبقي في قلوبهم الطمع إذْ لم يُنزع النورُ من بين أيديهم، فهنالك يقول الله: «لم يدخلوها وهم يطمعون»، وكان الطمع النُّور الذي بين أيديهم، ثم أُدخلوا الجنَّة، وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً.

وقال الحسن: هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطَّلِعُون على أهل الجنة وأهل النار جميعًا، ويطالعون أحوال الفريقين.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ أي: يعرفون أهل الجنَّة ببياض وجوههم وأهل النار بسواد وجوههم ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾ أي: إذا رأوا أهل الجنة قالوا: سلامٌ عليكم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ يعني: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريد بهم.

۞ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تعوَّذُوا بالله ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: الكافرين في النار.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ كانوا عظماء في الدنيا من أهل النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا من المال والولد ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان، قال الكلبي: ينادون وهم على السور: يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم، مثل: سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم، فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ حلفتم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي: حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ﴾ أي: صُبُّوا ﴿عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: أوسعوا علينا مما رزقكم الله من طعام الجنة.

قال عطاء عن ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفَرَجِ، وقالوا: يا رب، إنَّ لنا قَرابات من أهل الجنة، فأْذنْ لنا حتى نراهم ونكلِّمهم، فينظروا إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم، فينادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممَّا رزقكم الله ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: الماء والطعام ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ وهو ما زيَّن لهم الشيطان من تحريم البَحيرة وأخواتها، والمُكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة، التي كانوا يفعلونها في الجاهلية، وقيل: «دِينَهُمۡ»، أي: عيدهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ يعني: القرآن ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بيَّنّاه ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ منّا لِما يصلحهم ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ أي: جعلنا القرآن هاديًا وذا رحمة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: هل ينتظرون ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ قال مجاهد: جزاءه، وقال السدي: عاقبته، ومعناه: هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم في العذاب ومصيرهم إلى النار ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: جزاؤه وما يؤول إليه أمرهم ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ اعترفوا به حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿فَهَل لَّنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أهلكوها بالعذاب ﴿وَضَلَّ﴾ وبطل ﴿عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أراد به: في مِقْدارِ سِتَّةِ

أيام؛ قال سعيد بن جبير: كان الله عزَّ وجلَّ قادرًا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهن في ستة أيام؛ تعليمًا لخلقه التثبت والتأني في الأمور، وقد جاء في الحديث: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»[1].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة: صعد، وأوّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويَكِل العلم فيه إلى الله عزَّ وجلَّ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: «الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ» [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه مَلِيًّا، وعلاه الرُّحَضَاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلاَّ ضالاً، ثم أمر به فأُخرج.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي: سريعًا، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه، فكأنه يطلبه ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ أي: مُذلَّلاتٍ ﴿بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ﴾ له الخلق؛ لأنه خلقهم، وله الأمر: يأمر في خلقه بما يشاء، قال سفيان بن عيينة: فرَّق الله بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما فقد كفر.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: تعالى الله وتعظَّم.

وعن ابن عباس قال: جاء بكل بركة، وقيل: تبارك: تقدس، ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ تذللاً واستكانةً ﴿وَخُفْيَةً ۚ﴾ أي: سرًا، قال الحسن: بَيْنَ دعوةِ السِّرِّ ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، وإن كان إلاَّ همسًا بينهم وبين ربِّهم، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قيل: المعتدين في الدعاء.

عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفَّل سمع ابنه يقول: اللهم إنِّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سلِ اللهَ الجنة، وتعوَّذْ من النار، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطُّهور والدُّعاء»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد بن منيع والحارث بن أبي أُسامة، انظر: «المطالب العالية» لابن حجر: (٣/ ٣٥)، «كشف الخفاء» للعجلوني: (١/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ٨٧)، وابن ماجه برقم٣٨٦٤، (٢/ ١٢٧١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (١/ ٥٠٤).

وروينا عن أبي موسى قال: لمَّا غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرف الناسُ على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «ارْبَعُوا على أنفسِكم، إنَّكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تدعون سميعًا قريبًا»(١).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيَّاها ببعث الرسل وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا منه ومن عذابه، وطمعًا فيما عنده من مغفرته وثوابه، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: قريبة، قال سعيد بن جبير: الرحمة هنا الثواب، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ يعني: أنها تبشر بالمطر، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: قدام المطر.

عن أبي هريرة قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة وعمر حاجٌّ فاشتدَّتْ، فقال عمر - رضي الله عنه - لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئًا، فبلغني الذي سأل عمر عن أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركتُ عمرَ - رضي الله عنه - وكنتُ في مؤخر الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين أُخبرت أنك سألتَ عن الريح وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب، فلا تسبوها، وسلو الله من خيرها، وتعوَّذُوا به من شرها»(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالمطر ﴿سُقْنَٰهُ﴾ وردَّ الكناية إلى السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: إلى بلد ميت محتاج إلى الماء، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بالسحاب، وقيل: بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ﴾ يعني: المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استدل بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطرًا كمنيِّ الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان، فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم يُلقي عليهم النوم فينامون في قبورهم، ثم يُحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، فعند ذلك يقولون: «قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا» [يس: ٥٢].

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٧٠)، ومسلم برقم٢٧٠٤: (٤/ ٢٠٧٦).
(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»: ص٢٦٤، وأبو داود: (٨/ ٤) واللفظ له، وابن ماجه: (٢/ ١٢٢٨).

﴿إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ هذا مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب، يصيبه المطر فيخرج نباته بإذن ربه ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ يريد: الأرض السبخة التي ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتها ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: عسرًا قليلاً بعناء ومشقة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ نبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني اللهُ بهِ مِنَ الهُدَى والعلمِ كمثلِ الغيثِ الكثير أصابَ أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللهُ بها الناسَ فشربُوا وسَقَوْا وزرعُوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنَّما هي قيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني اللهُ بهِ فَعَلِمَ وعلَّم، ومثلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأسًا ولم يقبلْ هُدى الله الذي أُرْسِلْتُ به»[1].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو أول نبي بُعث بعد إدريس، وكان نجارًا بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة.

﴿فَقَالَ﴾ لقومه ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ خطأ وزوال عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ بيِّن.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل «ليست»؛ لأن معنى الضلالة: الضلال، أو على تقديم الفعل ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ يقال: نصحته ونصحت له، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن عقابه لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: موعظة، وقيل: بيان، وقيل: رسالة ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ أي: لكي تتقوا الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي ترحموا.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٧٥)، ومسلم برقم٢٢٨٢: (٢/ ١٧٨٧).

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: كذبوا نوحًا ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ من الطوفان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: كفارًا، قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله، قال الزَّجّاج: عموا عن الحق والإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أرسلنا إلى عاد «أَخَاهُمْ» في النسب لا في الدين «هُودًا»: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون نقمته؟

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾: يا هود ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ في حمق وجهالة، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أنك رسول الله إلينا.

﴿قَالَ﴾ هود: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ ناصح أدعوكم إلى التوبة، أمين على الرسالة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني نفسه ﴿لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ يعني: في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: من بعد إهلاكهم ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: طولاً وقوّة، قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستون ذراعًا، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعَم الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

﴿قَالَ﴾ هود: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ وجب ونزل ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ أي: عذاب، ﴿وَغَضَبٌ﴾ أي: سخط ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني: هودًا عند نزول العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وهو ثمود بن عامر بن أرم بن سام بن نوح، وأراد هاهنا القبيلة.

وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب لا في الدين: صالحًا، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة من ربكم على صدقي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إليه على التفضيل والتخصيص، كما يقال: بيت الله ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصب على الحال ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ العشب ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا تصيبوها بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم وأنزلكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كانوا ينقبون في الجبال البيوت، ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبال، وقيل: كانوا ينحتون البيوت في الجبل؛ لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعيث: أشدُّ الفساد.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يعني: الأشراف والقادة الذين تعظَّموا عن الإيمان بصالح ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يعني: الأتباع ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ يعني: قال الكفار للمؤمنين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إليكم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ جاحدون.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ قال الأزهري: العَقْر: هو قطع عرقوب البعير، ثم جُعل النحر عقرًا؛ لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ والعتوُّ: الغلو في الباطل، والمعنى: عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذَّبوا نبيَّهم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وهي زلزلة الأرض وحركتها، وأُهلكوا بالصيحة والرجفة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ قيل: أراد الديار، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خامدين ميتين.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض صالح ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فإن قيل: كيف خاطبهم بقوله: لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم بعدما هلكوا بالرجفة؟

قيل: كما خاطب النبي ﷺ الكفار من قتلى بدر حين ألقاهم في القَلِيب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: أيسُرُّكم أنَّكم أطعتم الله ورسوله، فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون»[1].

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: فتولى عنهم، وقال: يا قوم، لقد أبلغتُكم رسالة ربي فأخذتهم الرجفة.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: وأرسلنا لوطًا، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني: إتيان الذكران ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال عمرو بن دينار: ما يُرى

---

(١) قطعة من حديث أنس بن مالك، أخرجه البخاري: (٧/ ٣٠٠ - ٣٠١).

ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوط.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ في أدبارهم ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ فسَّر تلك الفاحشة، يعني: أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحلال إلى الحرام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ يعني: لوطًا وأهل دينه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن أدبار الرجال.

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ يعني: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُ﴾ المؤمنين، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقين في العذاب، وإنما قال: «مِنَ الْغَابِرِينَ» لأنه أراد: ممن بقي من الرجال، فلما ضمَّ ذِكْرَها إلى ذِكْرِ الرجال قال: «مِنَ الْغَابِرِينَ».

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني: حجارة من سجيل، قال وهب: الكبريت والنار ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: يقال في العذاب: أمطر، وفي الرحمة: مطر.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى ولد مدين أخاهم شعيبًا في النسب لا في الدين، وكان شعيب أعمى، وكان يقال له: خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: «قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ»، ولم تكن لهم آية؟ قيل: قد كانت لهم آية إلا أنها لم تذكر، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن. وقيل: أراد بالبينة مجيء شعيب.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموا الكيل ﴿وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: ببعث الرسل والأمر بالعدل، وكل نبي بعث إلى قوم فهو صلاحهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت لكم وأمرتكم به

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدِّقين بما أقول.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: على كل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تهددون ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الله ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيغًا، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ فكثر عددهم ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخر أمر قوم لوط.

وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين: مكذبين ومصدقين ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بتعذيب المكذبين، وإنجاء المصدقين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ يعني: الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لترجعن إلى ديننا الذي نحن عليه ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يعني: لو كنَّا، أي: وإن كنا كارهين لذلك فتجبروننا عليه؟

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ بعد إذ أنقذنا الله منها ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ يقول: إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا، وينفذ حكمه علينا.

فإن قيل: ما معنى قوله: «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا»، «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا»، ولم يكن شعيب قَطُّ على ملتهم حتى يصحَّ قولُهم: ترجع إلى ملتنا؟

قيل: معناه: أو لتدخلن في ملتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها.

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علمه بكل شيء ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فيما توعدوننا به، ثم عاد شعيب بعد ما أيس من فلاحهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أي: اقضِ بيننا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والفتاح: القاضي ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي: الحاكمين.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتركتم دينكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ مغبونون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قال الكلبي: الزلزلة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: لم يقيموا ولم ينزلوا فيها، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا المؤمنين كما زعموا.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ شعيب شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أحـــــزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ والأسى: الحزن، والأسى: الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ فيه إضمار، يعني: فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ﴾ عاقبنا ﴿أَهْلَهَا﴾ حين لم يؤمنوا ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قال ابن مسعود: البأساء: الفقر، والضراء: المرض، وهذا معنى قول من قال: البأساء في المال، والضراء في النفس، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ لكي يتضرعوا فيتوبوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ يعني: مكان البأساء والضراء الحسنة، يعني: النعمة والسعة والخصب والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي: كثروا وازدادوا، وكثرت أموالهم، ﴿وَّقَالُوا۟﴾ من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: هكذا كانت عادة الدهر قديمًا لنا ولآبائنا، ولم يكن ما مسَّنا من الضراء عقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فإنهم لم يتركوا دينهم لِما أصابهم من الضراء، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأةً: آمَنَ ما كانُوا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يـعـني: المـطـر مـن السماء، والنبات من الأرض، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال الخبيثة.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الذين كفروا وكذبوا، يعني: أهل مكة وما حولها ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ﴾ أي: نهارًا، والضحى: صدر النهار، ووقت انبساط الشمس ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ساهون لاهون.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ومكر الله استدراجه إيَّاهم بما أنعم عليهم في دنياهم، وقال عطية: يعني: أخذه وعذابه.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ يعني: أوَ لم نبيِّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ﴾ هلاك ﴿أَهْلِهَآ﴾ الذين كانوا فيها قبلهم ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ أي: أخذناهم وعاقبناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾ كما عاقبنا من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الإيمان ولا يقبلون الموعظة.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها، يعني: قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ أخبارها لما فيها من الاعتبار ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات والمعجزات والعجائب ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب الأُمم الخالية التي أهلكها، كذلك يطبع الله على قلوب الكفار الذين كُتِب عليهم أنْ لا يؤمنوا من قومك.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ﴾ أي: وفاء بالعهد الذي عاهدهم يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي: ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين ناقضين للعهد.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ

عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد نوح وهود وصالح وشعيب ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بأدلتنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فجحدوا بها، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وكيف فعلنا بهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما دخل على فرعون ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك؛ فقال فرعون: كذبتَ، فقال موسى:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾، أي: خليق بأن لا أقول على الله إلاَّ الحق، «عَلَىٰٓ» بمعنى الباء، كما يقال: رميت بالقوس ورميت على القوس، ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: العصا ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلق عنهم وخلِّهم يرجعون إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة من ضرب اللَّبِن ونقل التراب ونحوهما، فقال فرعون مجيبًا لموسى:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ والثعبان: الذكر العظيم من الحيات، فإن قيل: أليس قال في موضع: «كَأَنَّهَا جَآنٌّ» [النمل: ١٠]، والجانُّ: الحية الصغيرة؟ قيل: إنها كانت كالجان في الحركة والخفة، وهي في جثتها حية عظيمة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ فأدخل يده في جيبه ثم نزعها، وقيل: أخرجها من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى آدم، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ يعنون: أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض، ويُري الشيء بخلاف ما هو به.

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ

وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ يا معشر القبط ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: تشيرون إليه، هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره، وقيل: هذا من قول الملأ لفرعون وخاصته.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: الملأ: ﴿أَرْجِهْ﴾ قال عطاء: معناه: أخِّره، وقيل: احبسه ﴿وَأَخَاهُ﴾ معناه: أشاروا إليه بتأخير أمره وترك التعرض له بالقتل ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يعني: الشُّرط والمدائن، وهي مدائن الصعيد من نواحي مصر، قالوا: أرسل إلى هذه المدائن رجالاً يحشرون إليك مَنْ فيها مِنَ السحرة، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد، فإن غلبهم موسى صدقناه، وإن غلبوا علمنا أنه ساحر.

فذلك قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ قيل: الساحر: الذي يَعْلَمُ السحر ولا يُعَلِّمُ، والسحَّار الذي يعلِّم.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ واجتمعوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: جُعْلاً ومالاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ في المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: السحرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لعصِيِّنا وحبالنا.

﴿قَالَ﴾ موسى: بل ﴿أَلْقُواْ﴾ أنتم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل: وهذا هو السحر ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أرهبوهم وأفزعوهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ وذلك أنهم ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا.

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يكذبون من التخاييل، وقيل: يزوِّرون على الناس.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قال الحسن ومجاهد: ظهر الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر، وذلك أن السحرة قالوا: لو كان ما يصنع موسى سحرًا لبقيت حبالنا وعصيُّنا، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ذليلين مقهورين.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ لله تعالى، قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ فقال فرعون: إياي تعنون؟ فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ قال مقاتل: قال موسى لكبير السحرة تُؤمن بي إن غلبتك؟ فقال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، ولئن غلبتني لأومنن بك، وفرعون ينظر.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ حين آمنوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أصدَّقتم موسى من غير أمري إيَّاكم؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي: صنيع صنعتموه أنتم وموسى ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أفعل بكم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ وهو أن يقطع من كل شقٍّ طرفًا، قال الكلبي: لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطىء نهر مصر.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: السحرة لفرعون: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون في الآخرة.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي: ما تكره منَّا، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ﴾ ثم فزعوا إلى الله عزَّ وجلَّ فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ اصبُبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ذكر الكلبي: أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأرادوا بالإفساد في الأرض: دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته ﴿وَيَذَرَكَ﴾ أي: وليذرك ﴿وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ فلا يعبدك ولا يعبدها.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ قرأ أهل الحجاز: «سَنَقْتُل» بالتخفيف من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على التكثير ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ نتركهنَّ أحياء ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ غالبون، قال ابن عباس: كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل: إنه يولد مولود يذهب بملكك، فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة، وكان من أمره ما كان، فقال فرعون: أعيدوا عليهم القتل، فأعادوا عليهم القتل، فشكت ذلك بنو إسرائيل.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ يعني: أرض مصر ﴿يُورِثُهَا﴾ يعطيها ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر والظفر، وقيل: السعادة والشهادة، وقيل: الجنة.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا﴾ قال ابن عباس: لَمَّا آمنت السحرةُ اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، فقالوا - يعني: قوم موسى -: إنا أُوذينا ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادة القتل علينا، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسكنكم أرض مصر من بعدهم، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فحقق الله ذلك بإغراق فرعون واستخلافهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ أي: بالجدوب والقحط، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والغلاَّت بالآفات والعاهات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون، وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله عزَّ وجلَّ.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ يعني: الخصب والسعة والعافية ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن أهلها ومستحقوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا، ولم يروها تفضلاً من الله عزَّ وجلَّ فيشكروا عليها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء، ورأوا ما يكرهون ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ يتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصباؤهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله، وقال ابن عباس: طائرهم ما قضى الله عليهم وقدَّر لهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الذي أصابهم من الله.

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني: القبط لموسى ﴿مَهۡمَا﴾ متى ما، كلمة تستعمل للشرط والجزاء ﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ من علامة ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ لتنقلنا عمَّا نحن عليه من الدين ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بمصدقين.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق ـ دخل كلام بعضهم في بعض ـ: لمَّا آمنت السحرة، ورجع فرعون مغلوبًا، أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشَّرِّ، فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فلما عالج منهم بالآيات الأربع: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمار، فأبوا أن يؤمنوا فدعا عليهم، فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا، وإن قومه قد نقضوا عهدك، ربِّ فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومي عظةً ولمن بعدهم آيةً وعبرة، فبعث الله عليهم الطوفان: وهو الماء، أرسل الله عليهم الماء، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل من الماءِ قطرة، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئًا، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت.

قال زيد بن أسلم: الدم الذي سُلِّط عليهم كان الرعاف، فأتوا موسى وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربَّك يكشف عنَّا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه عزَّ وجلَّ فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ يتبع بعضها بعضًا، وتفصيلها أن كل عذاب يمتد أُسبوعًا، وبين كل عذابين شهرًا ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وهو ما ذكر الله عزَّ وجلَّ من الطوفان وغيره، وقال سعيد بن جبير: الرجز: الطاعون، وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس، حتى مات منهم سبعون ألفًا في يوم واحد، فأمسوا وهم لا يتدافنون ﴿قَالُواْ﴾ لموسى: ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ أي: بما أوصاك.

﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ وهو الطاعون ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه أنه سمعه يسأل أُسامة بن زيد: أسمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أُسامة بن زيد: قال رسول الله ﷺ: «الطاعونُ رجزٌ أُرْسِلَ على بني إسرائيل أو على مَنْ كان قَبْلَكُم، فإذا سمعتُم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»[1].

---

(١) أخرجه مالك: (٢/ ٨٩٦)، والبخاري: (٦/ ٥١٣)، ومسلم برقم٢٢١٨: (٤/ ١٧٣٧).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ يعني: إلى الغرق في اليمّ ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون العهد.

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يعني: البحر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: عن النقمة قبل حلولها غافلين.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يُقهرون ويُستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني: مصر والشام ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: وفَّت كلمة الله، وهي وعده إيَّاهم بالنصر والتمكين في الأرض، وذلك قوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ» [القصص: ٥] ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على دينهم وعلى عذاب فرعون ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ في أرض مصر من العمارات ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ قال مجاهد: يبنون من البيوت والقصور، وقال الحسن: يعرشون من الأشجار والثمار والأعناب.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ قال الكلبي: عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرًا لله عزَّ وجلَّ ﴿فَأَتَوْا۟﴾ فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ يقيمون، ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾ أوثان ﴿لَّهُمْ﴾ يعبدونها من دون الله.

قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر، وذلك أول شأن العجل، قال قتادة: كان أولئك القوم من لَخْم وكانوا نزولاً بالرقة، فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ أي: مثالاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ولم يكن ذلك شكًّا من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنَّما معناه: اجعل لنا شيئًا نعظِّمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله عزَّ وجلَّ، وظنّوا أن ذلك لا يضر الديانة، وكان ذلك لشدة جهلهم ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ مُهلَكٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ والتتبير: الإهلاك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿قَالَ﴾ يعني: موسى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾ أي: أبغي لكم وأطلب ﴿إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانكم.

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع النبي ﷺ قِبَلَ حُنين، فمررنا بسدرةٍ، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما كان للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ذي القعدة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾ كن خليفتي ﴿فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ أي: أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله، وقال ابن عباس: يريد: الرفقَ بهم والإحسانَ إليهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تطع من عصى الله ولا توافقه على أمره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: للوقت الذي ضربنا له أن نكلمه فيه، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال الزَّجَّاج: فيه اختصار تقديره: أرني نفسك أنظر إليك، قال ابن عباس: أعطني أنظر إليك، فإن قيل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا؟ قال الحسن: هاج به الشوق فسأل الرؤية، وقيل: سأل الرؤية ظنًّا منه أنه يجوز أن يُرى في الدنيا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ٣٦٩)، وفي «التفسير»: (١/ ٢٣٥)، والترمذي: (٦/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وليس لبشر أن يطيق النظر إليَّ في الدنيا، من نظر إليَّ في الدنيا مات، فقال: إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليَّ من أن أعيش ولا أراك، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ وهو أعظم جبل بمدين يقال له: زبير.

وتعلق نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله تعالى: «لَن تَرَىٰنِى»، ولن تكون للتأبيد، ولا حجة لهم فيها. ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال؛ لأنه كان يسأل الرؤية في الحال و«لن» لا تكون للتأبيد، كقوله تعالى: «وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا» [البقرة: ٩٥]، إخبارًا عن اليهود، ثم أخبر عنهم أنهم يتمنون الموت في الآخرة يقولون: «يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» [الزخرف: ٧٧]، و«يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ» [الحاقة: ٢٧]، والدليل عليه: أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية، ولم يقل: (إني لا أُرى)، حتى يكون لهم حجة، بل علق الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل على التجلي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة، والمُعلَّق بما لا يستحيل لا يكون محالاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ قال وهب وابن إسحاق: لما سأل موسى ربه الرؤية، أرسل الله الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال ابن عباس: ظهر نورُ ربِّه للجبل: جبل زبير.

وقيل: معناه: جعله مثل دكاء، وهي الناقة التي لا سنام لها، قال ابن عباس: جعله ترابًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال ابن عباس والحسن: مغشيًا عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسى من صعقته وثاب إليه عقله عرف أنه قد سأل أمرًا لا ينبغي له ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن سؤال الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك لا تُرى في الدنيا، وقال مجاهد والسدي: وأنا أول من آمن بك من بني إسرائيل.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك على الناس، ﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أعطيتك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله على نعمه.

فإن قيل: فما معنى قوله: «ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى»، وقد أُعطي غيره الرسالةَ؟

قيل: لمَّا لم تكن الرسالة على العموم في حق الناس كافة استقام قوله: «اصطفيتك على الناس» وإن شاركه فيه غيره، كما يقول للرجل: خصصتك بمشورتي، وإن شاور غيره، إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيمًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ يعني: لموسى ﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ قال ابن عباس: يريد: ألواح التوراة.

قال الحسن: كانت الألواح من خشب، قال الكلبي: كانت من زبرجدة خضراء.

وقال الحسن: هذه الآية في التوراة ألف آية يعني: «وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ» ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما أُمروا به ونُهوا عنه ﴿مَّوْعِظَةً﴾ نهيًا عن الجهل، وحقيقة الموعظة: التذكرة والتحذير بما يخاف عاقبته ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: تبيينًا لكل شيء من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد، وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة؛ لأنه إذا أخذه بضعف النِّيَّة أداه إلى الفتور ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ قال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يُحِلُّوا حلالها، ويُحرِّموا حرامها، ويَتَدبَّروا أمثالها، ويعملوا بمُحْكَمِها، ويقفوا عند متشابهها، وكان موسى عليه السلام أشدَّ عبادة من قومه، فأُمِر بما لم يُؤمروا به.

﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال مجاهد: مصيرها في الآخرة، قال الحسن وعطاء: يعني: جهنم، يحذركم أن تكونوا مثلهم، وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشام فأُريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس: يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي.

قال سفيان بن عيينة: سأمنعهم من فهم القرآن، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ معنى الآية: إن يروا طريق الهدى والسداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ لأنفسهم ﴿سَبِيلًا﴾، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ أي: طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ عن التفكير فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ولقاء الدار الآخرة التي هي موعد الثواب

والعقاب ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بطلت وصارت كأن لم تكن ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في العقبى ﴿إِلَّا مَا كَانُوا﴾ أي: إلا جزاء ما كانوا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروها من قوم فرعون، واتخذ السامريُّ منها ﴿عِجْلًا﴾ وألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلاً ﴿جَسَدًا﴾ حيًّا لحمًا ودمًا ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وهو صوت البقر، وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير.

وقال السدي: كان يخور ويمشي ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: الذين عبدوا العجل ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: اتخذوه إلهًا وكانوا كافرين.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على عبادة العجل، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ يتُبْ علينا ربُّنا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ يتجاوز عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ قال أبو الدرداء: الأسف: شديد الغضب، وقال ابن عباس: والسدي: «أَسِفًا»، أي: حزينًا، والأسف: أشد الحزن ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أسبقتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟! قال الحسن: وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ليلة، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي فيها التوراة وكان حاملاً لها، فألقاها على الأرض من شدة الغضب.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بذوائبه ولحيته ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وأحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى؛ لأنه كان ليِّن الغضب ﴿قَالَ﴾ هارون عن ذلك: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ وكان هارون أخاه لأبيه وأمه؛ ليرققه ويستعطفه.

وقيل: كان أخاه لأمه دون أبيه ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ يعني: عَبَدَةَ العجل ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى﴾ همُّوا وقاربوا أن يقتلوني ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى﴾ في مؤاخذتك عليَّ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: عبدة العجل.

﴿قَالَ﴾ موسى لما بين له عذر أخيه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما صنعت إلى أخي ﴿وَلِأَخِى﴾ إن كان منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ جميعًا ﴿فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: اتخذوه إلهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال أبو العالية: هو ما أُمروا به من قتل أنفسهم، وقال عطية العوفي: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ»، أراد: اليهودَ الذين كانوا في عصر النبي ﷺ عيَّرهم بصنيع آبائهم فنسبه إليهم، «سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»، أراد: ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الجزية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين، قال أبو قلابة: هو ـ والله ـ جزاءُ كل مفترٍ إلى يوم القيامة أن يُذِلَّه الله، قال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي كان ألقاها وقد ذهبت ستة أسباعها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ اختلفوا فيه، قيل: أراد بها الألواح؛ لأنها نسخت من اللوح المحفوظ.

وقيل: إن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فنسخ منها نسخة أُخرى فهو المراد من قوله: «وَفِى نُسْخَتِهَا».

وقال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسَّرت صام أربعين يومًا فردت عليه في لوحين فكان فيه ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: للخائفين من ربهم.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم

بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من قومه، فانتصب لنزع حرف الصفة ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ فيه دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل، قال السدي: أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ﴿فَلَمَّآ﴾ أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرة فأخَذَتْهم الصاعقةُ فماتوا.

وقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب: ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ لأنهم لم يُزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر.

وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا: «لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ» [البقرة: ٥٥]، كانوا قبل السبعين الذين أخذتهم الرجفة، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا أن قالوا: اللهم أعطِنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا، ولا تعطه أحدًا بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة.

﴿قَالَ﴾ يعني: موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: عن عبادة العجل ﴿وَإِيَّـٰىَ﴾ بقتل القبطي ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ يعني: عَبَدَة العجل، وظنَّ موسى أنهم عُوقبوا باتخاذهم العجل، وقال هذا على طريق السؤال، يسأل: أتهلكنا بفعل السفهاء؟

وقال المبرِّد: قوله: «﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾» استفهام استعطاف، أي: لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدلُ من أن يأخذ بجريرة الجاني غيرَه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: التي وقع فيها السفهاء، لم تكن إلا اختبارك وابتلاءك، أضللت بها قومًا فافتتنوا، وهديت قومًا فعصمتَهم حتى ثبتوا على دينك، فذلك معنى قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ناصرنا وحافظنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أوجب لنا ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ النعمة والعافية ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة «حَسَنَةً»: المغفرة والجنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ أي: تبنا إليك ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ﴾ من خلقي ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ عمَّتْ كلَّ شيء، قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته في الدنيا البرَّ والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة وابن جريج: لمَّا نزلت «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ»

قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فتمنَّاها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتقي ونؤمن، ونؤتي الزكاة، فجعلها الله لهذه الأمة فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية، وهو محمد ﷺ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو نبيكم، كان أُميًّا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، وقال النبي ﷺ: «إنَّا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب»[1].

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: يجدون صفته ونعته ونبوته ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾.

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيُّها النبي، إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيْتُك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا»[2].

عن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: إني أجد في التوراة مكتوبًا: محمد رسول الله ﷺ لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أُمته الحمادون يحمدون الله في كل منزلة ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون على أنصافهم ويوضِّؤون أطرافهم، صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جوِّ السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة ومهاجره بطابة وملكه بالشام[3].

قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالإيمان ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي: عن الشرك، وقيل: المعروف: الشريعة والسنة، والمنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف: بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام، وينهاهم عن المنكر: عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: ما كانوا يحرمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني: الميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغيرها من المحرمات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر ﴿آصارهم﴾ بالجمع، والإصر: كل ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل.

﴿وَالْأَغْلَالَ﴾ يعني: الأثقال ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك مثل: قتل الأنفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ١٢٦)، ومسلم برقم١٠٨٠: (٢/ ٧٦١).

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

(٣) أخرجه الدارمي: (١/ ٥)، وابن سعد في «الطبقات»: (١/ ٣٦٠)، والبغوي في «المصابيح»: (٤/ ٣٦).

الدية، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد، وشُبِّهَتْ بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقَّروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على الأعداء ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني: القرآن ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: آياته، وهي القرآن، وقال مجاهد والسدي: يعني: عيسى ابن مريم، ويقرأ «كلمته» ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يرشدون ويدعون إلى الحق، وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: بالحق يحكمون، وبالعدل يقومون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: فرَّقناهم، يعني: بني إسرائيل ﴿اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أُمما.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، وقطعناهم أسباطًا أُمما اثنتي عشرة، والأسباط القبائل واحدها سبط.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ في التيه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانۢبَجَسَتْ﴾ انفجرت، وقال أبو عمرو بن العلاء: عرقت وهو الانبجاس، ثم انفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ وكل سبط بنو أب واحد.

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ﴾ في التيه، تقيهم حرَّ الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ

وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قيل: هي «مدين»، أي: بقربه، قال ابن عباس: هي قرية يقال لها «إيلة» بين «مدين» و«الطور» على شاطىء البحر، وقال الزهري: هي «طبرية الشام» ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يظلمون فيه، ويجاوزون أمر الله تعالى بصيد الأسماك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرة على الماء كثيرة، جمع شارع. وقال الضحاك: متتابعة.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كإتيانهم يوم السبت، قرأ الحسن: ﴿يُسْبِتُونَ﴾، ومعناه: لا يعظمون السبت ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ فوسوس إليهم الشيطان وقال: إن الله لم ينهكم عن الاصطياد، وإنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا، وقيل: وسوس إليهم أنكم إنما نُهيتم عن الأخذ، فاتخذوا حياضًا على شاطىء البحر، تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، ثم تأخذونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زمانًا ثم تجرؤوا على السبت، وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أُحلَّ لنا، فأخذوا وأكلوا وباعوا، فصار أهل القرية أثلاثًا، وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا: ثلث نهوا، وثلث لم ينهوا وسكتوا، وقالوا: لِمَ تعظون قومًا الله مُهلكهم؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ

كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ اختلفوا في الذين قالوا هذا، قيل: كانوا من الفرقة الهالكة، وذلك أنهم لما قيل لهم: انتهوا عن هذا العمل السيىء، قبل أن ينزل بكم العذاب، وأنَّا نعلم أن الله مُنزل بكم بأسه إن لم تنتهوا، أجابوا وقالوا: «لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ»؟ ﴿أَوْ﴾ علمتم أنه ﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ﴾ أي: قال الناهون: ﴿مَعْذِرَةً﴾ أي: موعظتنا معذرة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله ويتركون المعصية.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي: تركوا ما وُعِظوا به ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يعني: الفرقة العاصية ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: شديد وجيع.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أسمع الله يقول: «أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ»، فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ قال عكرمة: قلت له: جعلني الله فداك، ألاَ تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا: لَمِ تعظون قومًا الله مهلكهم؟ وإن لم يقل الله أنجيتهم فلم يقل: أهلكتهم، فأعجبه قولي، فَرَضِيَ وأمر لي بِبُرْدَيْن فكسانيهما.

وقال ابن زيد: نَجتِ الناهية، وهلكتِ الفرقتان، وهذه أشَدُّ آية في ترك النهي عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ قال ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ مبعدين، فمكثوا ثلاثة أيام ينظر إليهم الناس ثم هلكوا.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: آذن وأعلم ربك، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: على اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بعث الله عليهم محمدًا ﷺ وأُمته يقاتلونهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ وفرَّقْناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقًا، فرقهم الله فتشتت أمرهم، ولم تجتمع لهم كلمة ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: الذين بقوا على الكفر.

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ بالخصب والعافية ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الجدب والشدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم ﴿خَلْفٌ﴾ والخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن.

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾، أي: انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ فالعَرَضَ: متاع الدنيا، والعَرْض ـ بسكون الراء ـ: ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير، وأراد بالأدنى: العالَم، وهو هذه الدار الفانية، يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذنوبنا، يتمنون على الله الأباطيل.

عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نفسَه وعَمِلَ لِما بَعْدَ الموتِ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنّى على الله»[1].

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب، يقول: إذا أشرف لهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حرامًا، ويتمنون على الله المغفرة، وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه، وقال السُّدّي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، فيقال له: مالك ترتشي؟ فيقول: سيغفر لي، فيطعن عليه الآخرون، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي أيضًا، يقول: وإن يأتِ الآخرين عرضٌ مثله يأخذوه.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: أخذ عليهم العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله الباطل، وهو تمني المغفرة مع الإصرار، ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قرأوا ما فيه، فهم ذاكرون لذلك، ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة، ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قال مجاهد: هم المؤمنون من أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ

(١) أخرجه الترمذي: (٧/١٥٦)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه برقم ٤٢٦٠: (٢/١٤٢٣)، وصححه الحاكم: (١/٥٧)، وتعقّبه الذهبي فقال: قلت: لا والله، أبو بكرٍ: واهٍ [يعني ابن أبي مريم].

تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: فلقنا الجبل، وقيل: رفعناه ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قال عطاء: سقيفة، والظُّلَّة: كل ما أظلك ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ علموا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ﴾ أي: وقلنا لهم: خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ واجتهاد ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك حين أبَوْا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله على رؤوسهم جبلاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية.

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سُئل عن هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...» الآية؟ قال عمر بن الخطاب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسأل عنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرِّيَّةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجلٌ: فَفِيمَ العملُ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أشهد بعضهم على بعض ﴿شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ﴾ يعني: وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا، أي: لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا، ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام: أخاطبكم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ» لئلا تقولوا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: عن هذا الميثاق والإقرار.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ يقول: إنما أُخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون: «إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ»، ونقضوا العهد، «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ»، أي: كنَّا أتباعًا لهم فاقتدينا بهم، فتجعلوا هذا عذرًا لأنفسكم وتقولوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين، فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»: (٢/ ٨٩٨ - ٨٩٩)، وأبو داود: (٧/ ٧١ - ٧٢)، والترمذي: (٨/ ٤٥٢ - ٤٥٥)، وقال: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وصححه الحاكم: (١/ ٢٧).

إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نُبيِّن الآيات؛ ليتدبرها العباد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ لمن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله، فذلك قوله: «وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا»، قال ابن عباس والسدي: اسم الله الأعظم، قال ابن زيد: كان لا يسأل شيئًا إلا أُعطيه، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ أي: رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات، ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سكن إلى الدنيا ومال إليها، يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام بها، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ انقاد لما دعاه إليه الهوى، قال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وهذه أشدّ آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آية من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها، ومَن الذي يَسْلَمُ من هاتين الخلتين إلا من عصمه الله؟

عن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذِئْبَانِ جائعان أُرسلا في غَنَم بأفسدَ لَهَا من حرص المرءِ على المال والشرف لدينه»[1].

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ يقال: لهث الكلب يلهث لهثًا: إذا أدلع لسانه، قال مجاهد: هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به.

والمعنى: إن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالتي الكلب: إن طرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثًا، وإن تُرك وربَض كان لاهثًا، ثم عمَّ بهذا التمثيل جميع من يكذب بآيات الله فقال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقيل: هذا مثل لكفار مكة؛ وذلك أنهم كانوا يتمنَّون هاديًا يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله، فلما جاءهم نبي لا يشكُّون في صدقه كذَّبوه، فلم يهتدوا تُركوا أو دُعوا.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وتقديره: ساء مثلاً مثلُ القوم، فحذف مثل وأقيم القوم مقامه فرُفع ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٤٦)، وقال: هذا حديث صحيح، وصححه ابن حبان: ص٦١٢ من «موارد الظمآن».

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ أخبر الله تعالى أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس للنار، وهم الذين حقَّت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومَنْ خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها.

عن عائشة أُم المؤمنين قالت: أدرك النبي ﷺ جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له عصفورٌ من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريكِ؟ إنَّ الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»(١)، ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يعلمون بها الخير والهدى ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ مواعظ القرآن، فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، ثم ضرب لهم مثلاً في الجهل والاقتصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ أي: كالأنعام في أنَّ همتهم في الأكل والشرب والتمتع بالشهوات، بل هم أضل؛ لأن الأنعام تُميِّز بين المضار والمنافع، فلا تقدم على المضار، وهؤلاء يقدمون على النار معاندةً، مع العلم بالهلاك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ قال مقاتل: وذلك أن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال بعض مشركي مكة: إن محمدًا ﷺ وأصحابه يَدَّعُون أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ»، و«الحسنى» تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى، فادعوه بها.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة، إنَّه وِتْرٌ يحب الوتر»(٢).

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾، يقال: أَلْحَدَ يُلحد إلحادًا، ولحد يلحد لحودًا: إذا مال.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ هم المشركون، عدلوا بأسماء الله تعالى عمَّا هي عليه،

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٦٢: (٤/ ٢٠٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٢١٤)، ومسلم برقم٢٦٧٧: (٤/ ٢٠٦٢).

فسَمَّوا بها أوثانهم فزادُوا ونقصوا، فاشتقوا اللاَّت من «الله»، والعزى من «العزيز»، ومناة من «المنان»، هذا قول ابن عباس ومجاهد.

وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يُسَمَّ به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ أي: عصابة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ، وهم المهاجرون والتابعون لهم بإحسان.

حدثني عمير بن هانىء أنه سمع معاوية ـ رضي الله عنه ـ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال من أُمتي أُمةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك»[1].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون، وقيل: نأتيهم من مأمنهم، قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً فلا يباغت ولا يجاهر، ومنه درج الصبيُّ إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتابَ إذا طواه شيئًا بعد شيء.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إن أخذي قوي شديد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ قال قتادة: ذُكر لنا أن النبي ﷺ قام على الصفا ليلاً، فجعل يدعو قريشًا فَخِذًا فَخِذًا، يا بني فلان، يا بني فلان، يحذِّرُهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يُصَوِّت إلى الصباح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾[2] محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ثم حثَّهم على النظر المؤدي إلى العلم فقال:

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٦٣٢)، ومسلم برقم١٠٣٧: (٣/ ١٥٢٤).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٢٨٩) بإسناد صحيح إلى قتادة.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ فيهما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: وينظروا إلى ما خلق الله من شيء ليستدلوا بها على وحدانيته ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لعلَّ أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ويصيروا إلى العذاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعد القرآن يؤمنون، ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال:

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسِرَّ إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[1] يعني: القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: منتهاها، وقال قتادة: قيامها، وأصله: الثبات، أي: متى مثبتها؟ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ استأثر بعلمها ولا يعلمها إلا هو ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ لا يكشفها ولا يظهرها، ﴿لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: ثقل علمها وخفي أمرها على أهل السموات والأرض، وكل خفي ثقيل، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقْحته فلا يطعمه، ولتقومنَّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[2].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، من قولهم: أحفيت في المسألة، أي: بالغت فيها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله حتى سألوا محمدًا ﷺ عنها.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه وتربح فيه عند الغلاء؟ وبالأرض التي يريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر لنفسي نفعًا، أي: اجتلاب نفع بأن أربح ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرٍّ بأن

---

(١) أخرجه الطبري: (١٣/ ٢٩٢، ٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٥٢)، ومسلم برقم٢٩٥٤: (٤/ ٢٢٧٠).

أرتحل من أرض تريد أن تجدب ﴿إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن أملكه.

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي: لو كنت أعلم الخصب والجدب «﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾»، أي: من المال لسنة القحط «﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾»، أي: الضر والفقر والجوع.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ لمن لا يصدق بما جئت به ﴿وَبَشِيرٞ﴾ بالجنة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدّقون.

۞﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يعني: آدم ﴿وَجَعَلَ﴾ وخلق ﴿مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يعني: حواء ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ ليأنس بها ويأوي إليها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: واقعها وجامعها ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفًا عليها ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ أي: استمرت وقامت وقعدت به، لم يثقلها ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ أي: كبر الولد في بطنها، وصارت ذات ثقل بحملها، ودنت ولادتها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني: آدم وحواء ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا﴾ يا ربّنا ﴿صَٰلِحٗا﴾ أي: بشرًا سويًّا مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ بشرًا سويًّا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ أي: جعلا له شريكًا؛ إذ سمّياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكًا في العبادة ولا أن الحارث ربُّهما، فإن آدم كان نبيًّا معصومًا من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أُمه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك، كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع لا على أن الضيف ربه، ويقول للغير: أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر: إنه ربي، ولم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قيل: هذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في الاسم.

وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله: «خلقكم»، أي: خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها، أي: جعل من جنسها زوجها، وهذا قول حَسَنٌ، لولا قول السلف مثل

عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة من المفسرين أنه في آدم وحواء.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: إبليس والأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: هم مخلوقون.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: الأصنام لا تنصر مَنْ أطاعها ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه مَنْ أراد بهم بكسر أو نحوه، ثم خاطب المؤمنين فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾. إلى الدين ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ عن دعائهم لا يؤمنون.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يريد: أنها مملوكة أمثالكم، وقيل: أمثالكم في التسخير.

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنها آلهة، قال ابن عباس: فاعبدوهم، هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة؟ ثم بيَّن عجزهم فقال:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فأنتم مفضَّلون عليهم بالأرجل الماشية والأيدي الباطشة والأعين الباصرة والآذان السامعة، فكيف تعبدون مَنْ أنتم أفضل وأقدر منهم؟ ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني واعجلوا في كيدي.

قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن، أي: أنه يتولاَّني وينصرني كما أيَّدني بإنزال الكتاب ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد الذين لا يعدلون بالله شيئًا، فالله يتولاهم بنصره فلا يضرهم عداوة من عاداهم.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ يعني: الأصنام ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني: الأصنام ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وليس المراد من النظر حقيقة النظر، إنما المراد منه: المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، أي: تقابلها، وقيل: وتراهم ينظرون إليك، أي: كأنهم ينظرون إليك.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عبد الله بن الزبير: أمر الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس.

ورُوي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأله، ثم رجع فقال: إنَّ ربَّك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[١].

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع، وقال عطاء: وأْمُرْ بالعُرف، يعني: بلا إله إلا الله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أبي جهل وأصحابه، قال جعفر الصادق: أمر الله نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا سَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح»[٢].

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي: يصيبك ويعتريك ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة، والنزغ من الشيطان: الوسوسة، وقال عبد الرحمن بن زيد: لما نزلت هذه

---

(١) أخرجه الطبري: (١٣/ ٣٠٣)، وعبد الرزاق في «التفسير»: (١/ ٢٤٦)، قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٦٦: (هذا منقطع، وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر وحديث قيس بن سعد، وزاد في أوله: لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة قال: والله لأمثِّلنَّ بسبعين منهم ـ فجاء جبريل بهذه الآية، فذكر الحديث).

(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ١٥٧ - ١٥٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٢٣٦) وإسناده صحيح.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط»: برقم (٦٨٩١)، وفيه عمر بن إبراهيم القرشي، وهو ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد»: (٨/ ١٨٨).

الآية: «خُذِ ٱلْعَفْوَ»، قال النبي ﷺ: «كيف يا رب والغضب»؟ فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، أي: استجرْ بالله ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يعني: المؤمنين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قيل: الطائف: ما طاف به من وسوسة الشيطان، والطيف: اللمم والمسّ ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ عرفوا، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم الغيظ، وقال مجاهد: هو الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر، قال السدي: إذا زلّوا تابُوا، وقال مقاتل: إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية، فأبصر فنزع عن مخالفة الله.

قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعني: إخوان الشياطين من المشركين يمدونهم، أي: يمدهم الشيطان، قال الكلبي: لكل كافر أخٌ من الشياطين ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: يطلبون هم الإغواء حتى يستمروا عليه، وقيل: يزيدونهم في الضلالة، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يكفُّون، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا الإنس يقصرون عمَّا يعملون من السيئات، ولا الشياطين يمسكون عنهم، فعلى هذا قوله: «ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ» من فعل المشركين والشياطين جميعًا، قال الضحاك ومقاتل: يعني: المشركين لا يُقْصِرون عن الضلالة ولا يُبصرونها، بخلاف ما قال في المؤمنين: «تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ».

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ يعني: إذا لم تأت المشركين بآية ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ هلاَّ افتعلتها وأنشأتها مِنْ قِبَلِ نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجتبيتُ الكلام إذا اختلقتُه، قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنُّتًا، فإذا تأخرت اتهموه وقالوا: لولا اجتبيتها؟ أي: هلاَّ أحْدَثْتَها وأنشأتها من عندك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ثم قال: ﴿هَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾ حجج وبيان وبرهان ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واحدتها بصيرة، وأصلها: ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان، فيهتدي به. يقول: هذا دلائل تقودكم إلى الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ اختلفوا في سبب

نزول هذه الآية، فذهب جماعة إلى أنها في القراءة في الصلاة، رُوي عن أبي هريرة: كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم، فأُمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن، وقال قوم: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام.

وروي عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة[(١)].

وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قُلْتَ لصاحبِكَ أَنْصِتْ والإمامُ يخطبُ يوم الجمعة فقد لغوت»[(٢)].

واختلف أهل العلم في القراءة خلف الإمام في الصلاة، فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أَسَرَّ، رُوي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ، وهو قول الأوزاعي والشافعي.

وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسر الإمام فيه بالقراءة ولا يقرأ إذا جهر، يُروى ذلك عن ابن عمر، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق.

وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر، يُروى ذلك عن جابر، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي، ويتمسك من لا يرى القراءة خلف الإمام بظاهر هذه الآية.

ومن أوجبها قال الآية في غير الفاتحة، وإذا قرأ الفاتحة يتبع سكتات الإمام ولا ينازع الإمام في القراءة.

والدليل عليه: عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: صلى النبيُّ ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إنِّي أراكم تقرؤون وراءَ إمامكم» قال: قلنا: يا رسول الله، إي والله، قال: «لا تفعلوا إلاَّ بأُمِّ القرآن، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني بالذكر: القراءةَ في الصلاة، يريد: يقرأ سرًّا في نفسه ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ خوفًا، أي: تتضرع إليَّ وتخاف مني هذا في صلاة السِّرِّ، وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أراد: في صلاة الجهر جهرًا شديدًا، بل في خفض وسكون، يسمعُ مَنْ خلفك، وقال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع إليه في الدعاء والاستكانة دون رفع الصوت والصياح بالدعاء ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: بالبُكَرِ

---

(١) رواه الدارقطني في «السنن»: (١/ ٣٢٦)، وقال: فيه عبد الله بن عامر: ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ٤١٤)، ومسلم برقم٨٥١: (٢/ ٥٨٣).

(٣) أخرجه أبو داود: (١/ ٣٩٠)، والترمذي: (٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧)، وقال: حديث عبادة حديث حسن.

والعَشِيَّات، واحد آصال: أصيل، مثل: يمين وأيمان، وهو ما بين العصر والمغرب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين بالفضل والكرامة ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لا يتكبرون ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السَّجدة فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله، أُمرَ هذا بالسجود فسجدَ فَلَهُ الجنَّةُ، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فليَ النار»(١).

عن معدان قال: سألتُ ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قلت: حدِّثْني حديثًا ينفعني الله به، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يسجدُ لله سجدةً إلاَّ رفعه الله بها درجة وحطَّ عنه بها سيئةً»(٢).

سورة الأنفال

مدنية، وهي خمس وسبعون آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ الآية، قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ أتى مكان كذا فله من النَّفَل كذا، ومَنْ قتلَ قتيلاً فله كذا، ومَنْ أسر أسيرًا فله كذا»، فلما التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال الأشياخ: كنَّا رِدْءًا لكم ولو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، وقام أبو اليَسْر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله، وعدت من قتل قتيلاً فله كذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا، وإنا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين، فقام سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فقال: والله يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةٌ في الأجر ولا جبن عن العدو، ولكن كرهنا أن نعري مصافك فيعطف عليه خيل من المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، وقال سعيد: يا رسول الله، إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك، فإن تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لأصحابك كبير شيء، فنزلت: «يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم برقم٨١: (١/ ٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم١٤٢٣: (١/ ٤٥٧)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٧٦، ٢٨٠).

(٣) جاء هذا السبب في نزول الآية، في جملة أحاديث جمع بينها المصنف رحمه الله، وهي عند الطبري من طرق، بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٦٧ - ٣٦٩).

وروى مكحول عن أبي أُمامة الباهليِّ قال: سألت عُبادة بنَ الصامتِ عن الأنفال، قال: فينا مَعْشَرَ أصحاب بدر نزلتْ، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسولُ الله بيننا عن بواء - يقول: على السواء - وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين[١].

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي: عن حكم الأنفال وعلمها، وهو سؤال استخبار لا سؤال طلب، وقوله: «عَنِ ٱلْأَنفَالِ»، أي: من الأنفال، «عن» بمعنى «من»، وقيل: «عن» صلة، أي: يسألونك الأنفال، وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف «عن»، والأنفال: الغنائم، واحدها: نَفَل، وأصله: الزيادة، يقال: نفلتك وأنفلتك، أي: زدتك سُمِّيت الغنائم أنفالاً؛ لأنها زيادة من الله تعالى لهذهالأمة على الخصوص.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يقسمها كما شاءَ، واختلفوا فيه، فقال مجاهد وعكرمة والسُّدي: هذه الآية منسوخة بقوله عزَّ وجلَّ: «وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ...» الآية [الأنفال: ٤١]، كانت الغنائم يومئذ للنبي ﷺ فنسخها الله عزَّ وجلَّ بالخُمس[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة غير منسوخة، ومعنى الآية: قل: الأنفال لله مع الدنيا والآخرة، وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى، أي: الحكم فيها لله ولرسوله، وقد بيَّن الله مصارفها في قوله عزَّ وجلَّ: «وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ...» الآية[٣].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته، وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول: ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله، إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت وفَرَقَتْ قلوبهم، وقيل: إذا خُوِّفوا بالله انقادوا خوفًا من عقابه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا ويقينًا، وقال عمير بن حبيب - وكانت له صحبة -: إن للإيمان زيادةً ونقصانًا، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله عزَّ وجلَّ

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي القاسم هبة بن سلامة: ص٤٨ - ٤٩.

(٣) أخرجه الطبري: (١٣/ ٣٨١)، ورجح أنها محكمة غير منسوخة.

وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يُفَوِّضون إليه أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يعني: يقينًا، قال ابن عباس: بَرِئوا من الكفر، قال مقاتل: «حقًّا» لا شك في إيمانهم، وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنًا حقًّا؛ لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قومًا مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه.

وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنتَ تسألني عن قوله: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...» الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال عطاء: يعني: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، وقال الربيع بن أنس: سبعون درجة ما بين كل درجتين حَضَرُ الفرس المُضَمَّر سبعين سنةً ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن، يعني: ما أعدَّ لهم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: «كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ»، قال المبرِّد: تقديره: الأنفال لله وللرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا، وقيل: تقديره: امض لأمر الله في الأنفال وإن كرهوا.

قيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة، والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربك بالخروج من بيتك إلى المدينة بالحق، قيل: بالوحي لطلب المشركين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منهم ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾.

يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ أي: في القتال ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا

ذلك، وقالوا: لم تُعْلِمْنَا أنَّا نلقى العدو فنستعدّ لقتالهم، وإنَّما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلاَّ ما أمرك، وتبين صدقك في الوعد ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ لشدَّة كراهيتهم القتال ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: وإنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهون كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، يجادلونك في الحق بعد ما تبيَّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي: الفريقين، إحداهما: أبو سفيان مع العير، والأخرى: أبو جهل مع النفير.

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي: تريدون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعني: العير التي ليس فيها قتال، و«الشوكة»: الشدة والقوة، ويقال: السلاح.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يظهره ويُعْليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأمره إيَّاكم بالقتال، وقيل: بعِدَاتِه التي سبقت من إظهار الدين وإعزازه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد، يعني: كفار العرب.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ليثبت الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يفني الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون، وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشر ليلة من شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تستجيرون به من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر، رُوي عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لمَّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، دخل العريش هو وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ واستقبل القبلة ومدَّ يده فجعل يهتف بربه عزَّ وجلَّ: اللَّهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللَّهم إنَّك إنْ تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض، فمازال يهتف بربِّه عزَّ وجلَّ مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتُك ربَّك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾[١] ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ مرسلٌ إليكم مددًا وردءًا لكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

يُروى أنه نزل جبريل في خمسمائة، وميكائيل في خمسمائة، في صورة الرجال على خيل بلق، عليهم ثياب بيض، وعلى رؤوسهم عمائم بيض قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم[٢].

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فرسِه عليه أداةُ الحرب»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني: الإمداد بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: بشارة ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٦٣: (٣/ ١٣٨٣ - ١٣٨٥).

(٢) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٢٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٧/ ٣١٢).

قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ النعاس: النوم الخفيف ﴿أَمَنَةً﴾ أمنًا ﴿مِّنْهُ﴾ قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون بعضهم مُحْدِثين وبعضهم مُجْنِبِينَ، وأصابهم الظمأ، ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلُّون مُحْدِثِيْنَ ومُجْنِبِيْنَ، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عزَّ وجلَّ عليهم مطرًا سال منه الوادي، فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا، وسَقَوا الركاب وملؤوا الأسقية، وأطفأ الغبارَ ولبَّد الأرض حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الأحداث والجنابة.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسته ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ باليقين والصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ في الرمل بتلبيد الأرض، وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوَّة القلب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين أمدَّ بهم المؤمنين ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قوُّوا قلوبهم، قيل: ذلك التثبيت: حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين.

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ قال عطاء: يريد الخوف من أوليائي ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ قيل: هذا خطاب مع المؤمنين، وقيل: هذا خطاب مع الملائكة، وهو متصل بقوله: «فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟»، وقوله: «فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ» قال عكرمة: يعني: الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، وقال الضحاك: معناه: فاضربوا الأعناق.

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال عطية: يعني: كل مفصل، وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني: الأطراف.

عن عبد الله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم؛ إذ نظر إلى المشرك أمامه

فخرَّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السَّوْط فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «صدقتَ، ذلك من مَدَدَ السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين[١].

ورُوي عن أبي داود المازني، وكان شهد بدرًا قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري[٢].

ورَوى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر: كعب بن عمرو أخو بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعًا، وكان العباس رجلاً جسيمًا، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: «كيف أَسَرْتَ العباس»؟ قال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه قبل ذلك ولا بعده، هيئتُه كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم»[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ خالفوا الله ﴿وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار ببدر ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: واعلموا وأيْقِنوا أن للكافرين آجلاً في المعاد ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو أسير في وثاقه: لا يصلح، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَه»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك[٤].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي: مجتمعين متزاحمين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ يقول: فلا تولوهم ظهوركم، أي: تنهزموا، فإن المنهزم يولى دُبره.

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس الذي أخرجه مسلم آنفًا. و«حيزوم»: اسم فرس جبريل.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٥ - ٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣٥٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٦): (رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات).

(٤) أخرجه الترمذي: (٨/ ٤٧١ - ٤٧٢)، وقال: هذا حديث حسن، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣١٤).

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ ظهره ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: منعطفًا يُري من نفسه الانهزام، وقصده طلب الغِرَّة، وهو يريد الكرة ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: منضمًّا صائرًا إلى جماعة من المؤمنين يريد العودة إلى القتال، ومعنى الآية: النهي عن الانهزام من الكفار والتولي عنهم، إلا على نيَّة التحرّف للقتال والانضمام إلى جماعة من المسلمين؛ ليستعين بهم ويعودوا إلى القتال، فمن ولَّى ظهره لا على هذه النية لحقه الوعيد، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

واختلف العلماء في هذه الآية، فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام؛ لأن النبي ﷺ كان معهم، ولم يكن لهم فئة يتحيّزون إليها دون النبي ﷺ، ولو انحازُوا لانحازُوا إلى المشركين، فأمّا بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض[1]، فيكون الفارُّ متحيِّزًا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك.

وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ولَّى منهزمًا، جاء في الحديث: «من الكبائر الفِرارُ من الزحف»[2].

وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عزَّ وجلَّ: «ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ» [الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت تلك إلاَّ في هذه العدة[3]، وعلى هذا أكثر أهل العلم: أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا أو يولّوا ظهورهم إلا متحرفين لقتالٍ أو متحيِّزين إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يُولّوا ظهورهم وينحازوا عنهم، قال ابن عباس: مَنْ فَرَّ من ثلاثة فلم يفر، ومن اثنين فقد فرَّ.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ قال مجاهد: سبب هذه الآية أنهم لمَّا انصرفُوا عن القتال كان الرجل يقول: أنا قتلتُ فلانًا، ويقول الآخر مثله، فنزلت الآية، ومعناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ولكنَّ الله قتلهم بنصره إيَّاكم وتقويته لكم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال أهل التفسير والمغازي: ندب رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٤٣٧)، ورواه مختصرًا أبو داود: (٣/ ٤٣٩)، والحاكم: (٢/ ٣٢٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي شيبة. «الدر المنثور: (٤/ ٣٨).

(٣) أخرجه الطبري: (١٣/ ٤٣٩).

الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا، ووردتْ عليهم روايا قريش وفيهم أسلم: غلامٌ أسود لبني الحجاج، وأبو يسار: غلامٌ لبني العاص بن سعيد، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فقال لهما: «أين قريش»؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ـ والكثيب: العقنقل ـ فقال رسول الله ﷺ لهما: «كَم القوم»؟ قالا: كثير، قال: «ما عِدتُهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلّ يوم»؟ قالا: يومًا عشرة ويومًا تسعة، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري ابن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأُميَّة بن خلف ونبيه ومُنبّه ابنا الحجاج وسُهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»، فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله تصوَّب من العقنقل، وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي، قال لهم: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتُكذِّب رسولك، اللَّهمَّ فنصرَكَ الذي وعدتَني»، فأتاه جبريل ﷺ وقال له: خُذْ قبضةً من تراب فارمِهم بها، فلمَّا التقى الجمعان تناول رسولَ الله ﷺ كفًّا من حصًى عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فلم يبق منهم مشرك إلاَّ دخل في عينيه وفمه ومنخريه منها شيء، فانهزموا ورَدَفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

وقيل: معنى الآية: وما بلَّغْتَ إذْ رميت ولكنَّ الله بلَّغ.

وقيل: وما رميت بالرعب في قلوبهم إذْ رميت بالحصباء، ولكنَّ الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، أي: ولينعم على المؤمنين نعمةً عظيمةً بالنصر والغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قيل: فيه إضمار، أي: واعلموا أن الله ﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الناس: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لم نعرف فَأَحِنْهُ الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه.

قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذِ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتَيَان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عمّ، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ فقال: عاهدتُ الله عزَّ وجلَّ إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه،

فقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، فما سرني أني بين رجلين بمكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدًّا عليه مثل الصَّقْرَينِ حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء[(١)].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ يم بدر: «مَنْ ينظرُ لنا ما صنع أبو جهل»؟ قال: فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَدَ، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه[(٢)].

وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللَّهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين، ففيه نزلت: «إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ»، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

وقال عكرمة: قال المشركون: والله لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ»، أي: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء.

وقال أُبي بن كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ، قال الله تعالى للمسلمين: «﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾»، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر.

عن خباب ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى النبي ﷺ وهو متوسِّد بُرْدَةً له في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا؟ فجلس محمارًّا لونه أو وجهه فقال لنا: «قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل ويحفر له في الأرض ثم يُجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، والله لَيتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخشىٰ إلا الله، ولكنكم تعجلون»[(٣)].

قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ يقول للكفار: إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيّه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ لحربه وقتاله ﴿نَعُدْ﴾ بمثل الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر، وقيل: وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نَعُدْ للفتح لمحمد ﷺ ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولأن الله مع المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي: لا تُعرضوا عنه ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن ومواعظه.

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٣٠٧ - ٣٠٨)، ومسلم برقم١٧٥٢: (٣/ ١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٦١٩).

وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون، أي: لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: شرّ من دبَّ على وجه الأرض ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ عن الحق، فلا يسمعونه ولا يقولونه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَمْرَ الله عزَّ وجلَّ، سمَّاهم دواب؛ لقلة انتفاعهم بعقولهم، قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ عما جاء به محمد، فقُتلوا جميعًا بأحد، وكانوا أصحاب اللواء لم يسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عُمير وسويبط بن حرملة.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأسْمَعَهم سماع التفهم والقبول ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ بعد أن علم أن لا خير فيهم ما انتفعوا بذلك ﴿لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ يقول: أجيبوهما بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول ﷺ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: إلى ما يُحييكم، قال السدي: هو الإيمان؛ لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان.

وقيل: هو أنَّ القوم لمَّا دُعُوا إلى القتال في حالة الضعف ساءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، فيبدل الخوف أمنًا والجبن جُرْأةً ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قلبي علي دينك»، قالوا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «القلوبُ بين أُصبعين من أصابع الله يُقلِّبها»(١).

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ اختبارًا وبلاءً ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ ليس بجزاء محض، ولو كان جزاءً لم تدخل فيه النون، لكنه نفي وفيه طرف من الجزاء، وتقديره: واتقوا فتنة إنْ لم تتقوها أصابتكم.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والترمذي بزيادة «كيف شاء»: (٦/ ٣٤٩).

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، ومعناه: اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم.

قال الحسن: نزلت في عليّ وعمَّار وطلحة بن الزبير - رضي الله عنهم -، قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زمانًا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، يعني: ما كان يوم الجمل.

وقال السدي ومقاتل والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل.

وقال ابن عباس: أمر الله عزَّ وجلَّ المؤمنين أن لا يُقِرُّوا المُنْكَرَ بَيْنَ أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم.

عن سيف بن أبي سليمان قال: سمعت عديَّ بن عدي الكندي يقول: حدثني مولًى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يُعذبُ العامَّة بعملِ الخاصة حتى يَرَوا المُنْكَرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن يُنكروه فلا ينكرون، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة»[1].

وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضًا.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكونُ فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرّفَ لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[2].

قوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ يعني: العذاب ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: واذكروا يا معشر المهاجرين إذْ أنتم قليل في العدد، مستضعفون في أرض مكة، في ابتداء الإسلام ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يذهب بكم الناس، يعني: كفار مكة، وقال عكرمة: كفار العرب، وقال وهب: فارس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٩٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ٦٦)، وعبد الله ابن المبارك في «الزهد» برقم١٣٥٢: ص٤٧٦، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٩)، ومسلم برقم٢٨٨٦: (٤/ ٢٢١٢).

والروم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: قوّاكم يوم بدر بالأنصار، وقال الكلبي: قوّاكم يوم بدر بالملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: الغنائم، أحلَّها لكم ولم يُحلّها لأحدٍ قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ قال السدي: كانوا يسمعون الشيء من رسول الله ﷺ فيفشونه، حتى يبلغ المشركين.

وقال الزهري والكلبي: نزلت الآية في أبي لبابة، هارون بن عبد المنذر الأنصاري، من بني عوف بن مالك، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحًا لهم؛ لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ، وأتاهم، فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح، فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب اللهُ عليَّ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبرُه قال: أما لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه، فمكث سبعة أيام، لا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خرَّ مغشيًّا عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إنَّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله، قال النبي ﷺ: «يجزيك الثُّلُث فتصدق به»، فنزلت فيه: «لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ»، ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أي: ولا تخونوا أماناتكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها أمانة، وقيل: وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق: خيانةٌ.

قال قتادة: اعلموا أنَّ دين الله أمانة، فأدوا إلى الله عزَّ وجلَّ ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ قيل: هذا أيضًا في أبي لبابة. وقيل: هذا في جميع الناس.

عن عائشة أن النبي ﷺ أُتي بصبي فقبَّله وقال: «أما إنَّهم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وإنَّهم لَمِنْ ريحانِ الله عزَّ وجلَّ».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن نصح لله ولرسوله وأدى أمانته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۙ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بطاعته وترك معصيته ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال مجاهد: مخرجًا في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجًا في الدين من الشبهات.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ يمح عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذه الآية معطوفة على قوله: «وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ»، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، وإذ قالوا: اللهم...؛ لأن هذه السورة مدنية، وهذا المكر والقول إنما كانا بمكة، ولكن الله ذكَّرهم بالمدينة كقوله تعالى: «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ» [التوبة: ٤٠].

﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ قال الضحاك: يصنعون ويصنع الله، وقيل: يجازيهم جزاء المكر ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ﴾ يعني: النضر بن الحارث ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۙ﴾ وذلك أنه كان يختلف تاجرًا إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم واسفنديار، وأحاديث العجم ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء إلى مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلي ويقرأ القرآن فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أخبار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآية، نزلت في النضر بن الحارث من بني عبد الدار.

قال ابن عباس: لما قص رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر: لو شئت لقلت مثل

هذا، إنْ هذا إلا أساطير الأولين ـ أي: ما هذا إلا ما سطره الأولون في كتبهم ـ فقال له عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ اتق الله، فإنَّ محمدًا يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمدًا يقول لا إله إلا الله، قال: وأنا أقول لا إله إلا الله، ولكن هذه بنات الله، يعني: الأصنام، ثم قال: اللَّهم إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أمطرتها على قوم لوط ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ببعض ما عذبت به الأمم.

وروى أنس ـ رضي الله عنه ـ أن الذي قاله أبو جهل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال محمد بن إسحاق: هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، وذلك أنهم كانوا يقولون: إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره، ولا يعذب أُمةً ونبيُّها معها، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم: «وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...» الآية، وقالوا: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»، ثم قال ردًّا عليهم: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون «وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ».

وقال الآخرون: هذا كلام مستأنف، يقول الله عزَّ وجلَّ إخبارًا عن نفسه: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ».

وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون، أي: يُسْلِمون، يقول: لو أسلموا لما عُذِّبوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا، يريد: بعد خروجك من بينهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ قال الحسن: كانالمشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام، فردَّ الله عليهم بقوله: «وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ»، أي: أولياء البيت ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: ليس أولياء البيت ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين يتقون الشرك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصفير.

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون.

قال سعيد بن جبير: التصدية: صدُّهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة، ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ليصرفوا عن دين الله.

قال الحكم بن عتيبة: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أُحد أربعين أوقية.

قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ يريد: ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ ولا يظفرون ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ خص الكفار لأن منهم من أسلم.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ يعني: الكافر من المؤمن، فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران.

﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: فوق بعض ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾ أي: يجمعه، ﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ردَّه إلى قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ»، الذين خسرت تجارتهم؛ لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ عن الشرك ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ أي: ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في نصر الله أنبياءه وإهلاك أعدائه.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شرك، قال الربيع: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ أي: ويكون الدين خالصًا لله لا شرك فيه ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان، وعادوا إلى قتال أهله ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ ناصركم ومعينكم ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية، الغنيمة والفيء: اسمان لمالٍ يصيبه المسلمون من أموال الكفار.

فذهب أكثر المفسرين والفقهاء إلى أن قوله: «لله» افتتاح كلام على سبيل التبرك، وإضافة هذا

المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أنَّ سهمًا من الغنيمة لله مفردًا، فإن الدنيا والآخرة كلها لله عزَّ وجلَّ.

وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يجعلان سهم النبيِّ ﷺ في الكراع والسلاح.

قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أراد: أن سهمًا من الخمس لذوي القربى وهم أقارب النبي ﷺ، واختلفوا فيه، فقال قوم: جميع قريش، وقال قوم: هم الذين لا تحل لهم الصدقة.

وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم.

وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو المطلب، وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء، وإن كانوا إخوة، والدليل عليه:

عن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط منه أحدًا من بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئًا[(١)].

عن ابن شهاب، أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: لمَّا قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم؛ لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا، وشبَّك بين أصابعه»[(٢)].

قوله: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ وهو جمع اليتيم، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم، الذي لا أب له، إذا كان فقيرًا ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة، ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة، للفارس منهم ثلاثة أسهم، وللرَّاجِل سهم واحد:

عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ أسهم لرجل ولفرسه ثلاثة أسهم: سهمًا له، وسهمين لفرسه»[(٣)].

ومن قتل مشركًا في القتال يستحق سَلَبَهُ من رأس الغنيمة، لِمَا رُوي عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال يوم حنين: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سَلَبُهُ»[(٤)]، والسَّلَبُ: كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذي هو راكبه.

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ١١٢).

(٢) أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ١١١)، وأبو داود: (٤/ ٢٢٠ - ٢٢١)، والنسائي: (٧/ ١٣٠ - ١٣١)، وابن ماجه: (٢/ ٩٦١).

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٦٧)، ومسلم برقم١٧٦٢: (٣/ ١٣٨٢).

(٤) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٤ - ٣٥).

ويجوز للإمام أن ينفِّل بعض الجيش من الغنيمة؛ لزيادة عناءٍ وبلاء يكون منهم في الحرب، يَخُصُّهُم به من بين سائر الجيش ويجعله أُسوة الجماعة في سهمان الغنيمة:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان ينفِّل بعض من يبعثُ من السرايا لأنفسهم خاصة، سوى قسم عامة الجيش(١).

وأمَّا الفيء: وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، بأن صالحهم على مال يؤدونه، ومالُ الجزية، وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة، أو يموت واحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كله فيء.

ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله ﷺ في حياته، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الله قدْ خص رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، ثم قرأ: «وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ»، إلى قوله: «شَىْءٍ قَدِيرٌ» [الحشر: ٦].

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قيل: أراد «وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ» يأمر فيه بما يريد، فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله: «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ»، ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يعني: يوم بدر، فرَّق الله بين الحق والباطل وهو ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ على نصركم مع قلَّتكم وكثرتهم.

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

﴿إِذْ أَنتُم﴾ أي: إذ أنتم نزول يا معشر المسلمين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا: تأنيث الأدنى ﴿وَهُم﴾ يعني: عدوكم من المشركين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ بشفير الوادي الأقصى من المدينة، والقصوى: تأنيث الأقصى.

﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ يعني: العير، يريد: أبا سفيان وأصحابه ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، على ثلاثة أميال من بدر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٣٧)، ومسلم برقم ١٧٥٠: (٣/ ١٣٦٩).

وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها، فالتقوا على غير ميعاد، فقال تعالى: «وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ»؛ لقلّتكم وكثرة عدوكم ﴿وَلَكِن﴾ الله جمعكم على غير ميعاد ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليموت من يموت على بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ويعيش من يعيش على بينة لوعده: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» [الإسراء: ١٥]، وقال محمد بن إسحاق: معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، فالهلاك هو الكفر، والحياة هي الإيمان.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لدعائكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يريكَ يا محمد المشركين ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ أي: نومك، وقال الحسن: «فِي مَنَامِكَ»، أي: في عينك؛ لأن العين موضع النوم ﴿قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾ أي: اختلفتم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في الإحجام والإقدام ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلَّمكم من المخالفة والفشل ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال ابن عباس: علم ما في صدوركم من الحب لله عزَّ وجلَّ.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدد قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلَّل الله المشركين في أعين المؤمنين.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لقد قُلِّلوا في أعيننا حتى قُلْتُ لرجلٍ إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال السدي: قال ناس من المشركين: إن العير قد انصرفت فارجعُوا، فقال أبو جهل: الآن إذْ برزَ لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أَكَلَةُ جَزُور، فلا تقتلوهم، واربطوهم بالحبال ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ من إعلاء الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ كائنًا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: جماعة كافرة ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي: ادعوا الله بالنصر والظفر بهم ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: كونوا على رجاء الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ لا تختلفوا ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ أي: تجبنُوا وتضعفوا ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ قال مجاهد: نُصرتكم، وقال السدي: جراءتكم وجَدُّكم، قال قتادة وابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله عزَّ وجلَّ تضرب وجوه العدو، ومنه قول النبي ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبَا وأُهلكتْ عادٌ بالدبور»[١].

وعن النعمان بن مُقَرِّن قال: شهدت مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتبًا له قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى فقرأته أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس لا تتمنَّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف»، ثم قال: «اللَّهمَّ مُنَزِّل الكتاب ومُجريَ السحاب وهَازِمَ الأحزاب اهْزِمْهُمْ وانصرْنا عليهم»[٣].

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا﴾ فخرًا وأشَرًا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قال الزَّجَّاج: البطر: الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل لِيُرى وإبطان القبيح ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم هذه قريشٌ قدْ أقبلتْ بخيلائها وفخرها تُجادِلُك وتُكذِّبُ رسولَكَ، اللهم فنصرُكَ الذي وعدتني»، قالوا: لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرزَ عِيرَهُ إلى قريش:

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٢٠)، ومسلم برقم٩٠٠: (٢/ ٦١٧).

(٢) أخرجه أبو داود: (٤/ ٧)، والترمذي: (٥/ ٢٣٨)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم: (٢/ ١١٦)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٤٤٤ - ٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ١٣٠)، ومسلم برقم١٧٤٢: (٣/ ١٣٦٢).

إنكم إنَّما خرجتُم لتمنعوا عِيْرَكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا، وكان بدرٌ موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيمَ بها ثلاثًا فننحر الجزور ونُطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وكان تزيينه أن قريشًا لما اجتمعت للسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته، فتبدَّىٰ لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ﴿وَقَالَ﴾ لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: مجير لكم من كنانة ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: التقى الجمعان رأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء علم أنه لا طاقة له بهم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال الضحاك: ولّى مدبرًا، وقال النضر بن شميل: رجع القهقرى على قفاه هاربًا.

قال الحسن في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال: رأى إبليسُ جبريلَ معتجرًا ببرد يمشي بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام يقودُ الفرس، ما رَكِبَ.

وقال قتادة: كان إبليس يقول: إني أرى ما لا ترون وصدق، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة به ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه، إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ قيل: معناه: إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب، وقيل: انقطع الكلام عند قوله: «أَخَافُ ٱللَّهَ»، ثم يقول الله: «وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ».

عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيْز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُئِي الشيطانُ يومًا هو فيه أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه يوم عرفة، وما ذاك إلاَّ لِمَا يرى من تَنَزُّلِ الرحمة وتجاوزِ الله تعالى عن الذنوب العِظَام، إلاَّ ما كان من يوم بدر»، فقيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو يَزَعُ الملائكة» هذا حديث مرسل[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يعني: غرَّ المؤمنين دينهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي، يفعل بأعدائه ما يشاء ﴿حَكِيمٌ﴾.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

(١) أخرجه مرسلاً: الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ٤٢٢)، وعبدالرزاق في «المصنف»: (٥/ ١٧ - ١٨).

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: يقبضون أرواحهم، اختلفوا فيه؛ قيل: هذا عند الموت، تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط النار، وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر، كانت الملائكة يضربون ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد أستاههم، ولكن الله حييٌّ يكني، قال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: وتقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب الحريق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الضرب الذي وقع بكم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بما كسبت أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون، قال ابن عباس: هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصدق فكذبوه، فأنزل الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أراد: أنَّ الله تعالى لا يغيِّر ما أنعم على قوم حتى يغيِّروا هم ما بهم، بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غيَّر الله ما بهم، فسلبهم النعمة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كصنع آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح وبعضهم بالغرق، فكذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف، لمَّا كذَّبوا بآيات ربِّهم ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ يعني: الأولين والآخرين.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم

﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾ قال الكلبي ومقاتل: يعني: يهود بني قريظة، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يعني: عاهدتهم، وقيل: أي: عاهدت معهم، ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ وهم بنو قريظة، نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب كعبُ بن الأشرف إلى مكة، فوافقهم على مخالفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون الله تعالى في نقض العهد.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تجدنَّهم ﴿فِى ٱلْحَرْبِ﴾ قال مقاتل: إن أدركتهم في الحرب وأسرتهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قال ابن عباس: فنكِّلْ بهم مَنْ وَراءهم، وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتذكرون ويعتبرون فلا ينقضون العهد.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: تعلمن يا محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بما يظهر لكم منهم من آثار الغدر كما ظهر من قريظة والنضير ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يقول: أعلِمْهمْ قبلَ حربك إيَّاهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، فلا يَتَّهِمُوا أنك نقضت العهد بِنَصْبِ الحرب معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

عن سليم بن عامر، عن رجل من حِمْيَر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهدٌ، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظر فإذا هو عمرو بن عَبَسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» فرجع معاوية رضي الله عنه[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي: فاتُوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لا يفوتوني.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ

(١) أخرجه أبو داود: (٤/ ٦٣ - ٦٤)، والترمذي: (٥/ ٢٠٣ - ٢٠٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الإعداد: اتخاذ الشيء لوقت الحاجة «مِّن قُوَّةٍ»، أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح.

عن أبي علي ثمامة بن شُفَيٍّ أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إنَّ القُوَّةَ الرمي، ألا إنَّ القُوَّةَ الرمي، ألا إنَّ القُوَّةَ الرمي»[١].

وبهذا الإسناد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عزَّ وجلَّ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»[٢].

عن حمزة بن أبي أسيد، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صففنا لقريش وصفُّوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل»[٣].

عن أبي نجيح السلمي قال: حاصرنا مع النبي ﷺ الطائف فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة»، قال: فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر»[٤].

عن عقبة بن عامر الجهني، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، والمِمِدَّ به، والرامي به في سبيل الله»[٥].

وروي عن خالد بن زيد بن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يُدخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ في الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به ومُنْبِلَه، وارْمُوا وارْكَبُوا، وإن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلاَّ رميَهُ بقوسه وتأديبَهُ فرسَهُ وملاعبتَهُ امرأتَه فإنَّهنَّ من الحق، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنَّه نعمة تركها أو قال كفرها»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم، برقم١٩١٧: (٣/ ١٥٢٢).
(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق نفسه.
(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٩١).
(٤) أخرجه أبو داود: (٥/ ٤٢٥)، والترمذي (٥/ ٢٦٧ - ٢٦٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: (٦/ ٢٧)، والحاكم: (٢/ ١٢١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٣٨٦).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: برقم(١٩٥٢٢)، وأحمد في «المسند»: (٤/ ١٥٤)، وعبد الله بن زيد الأزرق لم يوثقه غير ابن حبان.
(٦) أخرجه أبو داود: (٣/ ٣٧٠)، والترمذي: (٥/ ٢٦٥ - ٢٦٦)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي: (٦/ ٢٢٢ - ٢٢٣)، وابن ماجه برقم٢٨١١: (٢/ ٩٤٠)، وصححه الحاكم: (٢/ ٩٥) ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: (٤/ ١٤٤).

قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ يعني: ربطها واقتناؤها للغزو، عن عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمَغْنَم»[١].

عن طلحة بن أبي سعيد قال: سمعتُ سعيدًا المقبري يحدث أنه سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «مَنِ احتبسَ فرسًا في سبيل اللهِ إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإنَّ شِبَعَهُ وريَّهُ وروْثَهُ وبوْلَهُ في ميزانه يوم القيامة»[٢].

عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة: لِرَجُلٍ أجرٌ، ولِرَجُلٍ سِترٌ، وهي لِرَجُلٍ وِزْرٌ، فأمَّا التي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيلِ الله، فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها من ذلك المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستنَّتْ شرفًا أو شرفين، كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرَّت بنهرٍ فشربتْ منه، ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات، فهي لذلك الرجل أجر، وأمَّا التي هي له سِترٌ: فرجلٌ ربطها تغنيًّا وتعففًا، ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظُهورها ولا رقابها، فهي له سِترٌ، وأمَّا التي هي له وِزْرٌ: فرجلٌ ربطها فخرًا ورياءً، ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر» وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الحُمرِ فقال: «ما أُنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: فمن يعمل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ، ومَنْ يعمل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»[٣] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوِّفونَ ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ﴾ أي: وترهبون آخرين ﴿مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة: هم بنو قريظة، وقال السدي: هم أهل فارس، وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون، لا تعلمونهم؛ لأنهم معكم يقولون: لا إله إلا الله، وقيل: هم كفار الجن. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفّ لكم أجره ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقص أجوركم.

۞وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٦)، ومسلم برقم١٨٧٢: (٣/ ١٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٦٣ - ٦٤)، ومسلم برقم٩٨٧: (٢/ ٦٨٠ - ٦٨٢).

عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي: مالوا إلى الصلح ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: مِلْ إليها وصالحهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثق بالله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يغدروا ويمكروا بك، قال مجاهد: يعني: بني قريظة ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ أي: بين الأوس والخزرج، كانت بينهم إحن وثارات في الجاهلية، فصيَّرهم الله إخوانًا بعد أن كانوا أعداء ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ قال سعيد بن جبير: أسلم مع رسول الله ﷺ ثلاث وثلاثون رجلاً وستُ نسوة، ثم أسلم عمر بن الخطاب فتم به الأربعون، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ أي: حُثَّهم على القتال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلاً ﴿صَـٰبِرُونَ﴾ محتسبون ﴿يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ من عدوهم يقهروهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ صابرة محتسبة ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: إن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، وكان هذا يوم بدر فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين، فخفَّف الله عنهم، فنزل:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ أي: ضعفًا في الواحد عن قتال العشر، وفي المائة عن قتال الألف، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فردَّ من العشرة إلى الاثنين، فإن كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا.

مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك فاستبقهم واستأنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم، وخُذْ منهم فدية، تكون لنا قوة على الكفار، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، كذَّبوك

وأخرجوك قدِّمْهُم نضربْ أعناقهم، مكِّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، ومكِّني من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا، فقال له العباس: قطعتَ رحمك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يُجِبْهم ثم دخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله تعالى لَيُلَيِّنُ قلوب رجال حتى تكون أَلْيَنَ من اللبن، ويشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: «فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حيث قال: «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ» [المائدة: ١١٨]، وإن مثل يا عمر مثل نوح حيث قال: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: ٢٦]، ومثل موسى قال: «رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ» [يونس: ٨٨]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتنَّ منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق»، قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء»[1]، قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فَهَوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ، وأنزل الله تعالى: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا» [الأنفال: ٦٧ - ٦٩]، فأحل الله الغنيمة لهم بقوله: «لَهُۥٓ أَسْرَىٰ» جمع أسير، مثل: قتلى وقتيل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يبالغ في قتال المشركين وأسرهم ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأخذكم الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصر دين الله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٤٧٦)، وقال: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه (فهو منقطع).

يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ قال ابن عباس: كانت الغنائم حرامًا على الأنبياء والأمم، فكانوا إذا أصابوا شيئًا من الغنائم جعلوه للقربان، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ»، يعني: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحلّ لكم الغنائم.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لَنَالَكُمْ وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن إسحاق: لم يكن المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلاَّ عمر بن الخطاب، فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ قال: يا رسول الله، كان الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ»(١).

فقال الله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ رُوي أنه لما نزلت الآية الأولى كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزل: «فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ» الآية.

ورُوِّينا عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «أُحلتْ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائمُ لأحد من قبلنا؛ وذلك بأنَّ الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيَّبها لنا»(٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ نزلت في العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وكان أُسر يوم بدر، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر، وكان يوم بدر نوبته، وكان خرج بعشرين أوقية من الذهب ليطعمها الناس، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا وبقيت العشرون أوقية معه، فأُخذتْ منه في الحرب، فكلَّم النبي ﷺ أن يحتسب العشرين أوقية في فدائه فأبى، وقال: «أمَّا شيء خرجتَ تستعينُ به علينا فلا أتركه لك»، وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد، تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أُم الفضل وقت خروجك من مكة

---

(١) أخرجه الطبري: (١٤/ ٧١)، قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٧١: (ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه.

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٤٣٥ - ٤٣٦)، ومسلم برقم٥٢١: (١/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٢٠)، ومسلم مطولاً واللفظ له، برقم١٧٤٧: (٣/ ١٣٦٦ - ١٣٦٧).

وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لكِ ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم» يعني: بنيه، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي عزَّ وجلَّ، قال العباس: أشهد أنك صادق! وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلاَّ الله عزَّ وجلَّ، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: إيمانًا ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال العباس - رضي الله عنه -: فأبدلني الله عنها عشرين عبدًا كلهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عزَّ وجلَّ[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ يعني: الأسارى ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ ببدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال ابن جريج: أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ أي: هجروا قومهم وديارهم، يعني: المهاجرين ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ رسول الله ﷺ والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم منازلهم ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضي الله عنهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» عن الكلبي: ص٢٧٦، والطبري: (١٤/ ٧٣)، والحاكم في «المستدرك»: (٣/ ٣٢٤) عن عائشة، وقال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه).

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ دون أقربائهم من الكفار، قيل: في العون والنصرة، وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام، وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة، وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا، وصار ذلك منسوخًا بقوله عزَّ وجلَّ: «وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ» [الأحزاب: ٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: الميراث ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد، فلا تنصروهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في العون والنصرة، وقال ابن عباس: في الميراث، أي: يرث المشركون بعضهم من بعض ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: إلاَّ تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به.

ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فالفتنة في الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لا مرية ولا ريب في إيمانهم، ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة، فإن قيل: أي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات: فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى، وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية، وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: معكم، يريد: أنتم منهم وهم منكم ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وهذا نسخ التوارث بالهجرة، ورد الميراث إلى ذوي الأرحام.

قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله عزَّ وجلَّ، وقيل: أراد بكتاب الله القرآن، يعني: القسمة التي بيَّنها في سورة النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

سورة التوبة

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

قال مقاتل: هذه السورة مدنية إلا آيتين من آخر السورة.

قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة، مازالت تنزل: «ومنهم ..»، «ومنهم ..» حتى ظنوا أنها لم تُبْق أحدًا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلتُ: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: قل سورة بني النضير.

ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلت لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطُّوالِ؟

فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان، وهو ينزل عليه السُّوَرُ ذوات العدد، فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعضَ من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبيِّنْ لنا أنها منها، فمن ثَمَّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطُّوالِ[1].

قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه براءة من الله.

قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهودًا كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزَّ وجلَّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ...» الآية [الأنفال: ٥٨].

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم؛ لأنه عاهدهم وأصحابه راضون بذلك، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رَجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قلْ لهم: سيحوا، أي: سيروا في الأرض، مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحدًا من المسلمين ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: غير فائتين ولا سابقين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مذلُّهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة.

واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذين برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ٣٨٠)، والترمذي: (٨/ ٤٧٧ - ٤٨٠)، وقال: هذا حديث حسن.

فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى للمشركين، فمن كانت مدةُ عهده أقلَّ من أربعة أشهر: رفعه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر: حطّه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده بغير أجل محدود: حدَّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيُقتل حيث أُدرك ويُؤسر إلا أن يتوب.

وابتداء هذا الأجل: يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر.

قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشًا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمَنُ فيها الناسُ، ودخلت خزاعةُ في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فنالت منها، وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هُمَّ إني ناشدٌ محمدَا حِلْفَ أَبِيْنا وأبيه الأَتْلَدَا

فانصرْ هداكَ اللهُ نصرًا أبدَا وادعُ عِبَادَ الله يأتوا مَدَدَا

فقال رسول الله ﷺ: «لا نُصرتُ إنْ لم أنصركم»، وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة.

فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج، ثم قال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة، فبعث أبا بكر تلك السنة أميرًا على الموسم ليقيم للناس الحج، وبعث معه بأربعين آية من صدر براءة؛ ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده عليًّا ـ كرَّم الله وجهه ـ على ناقته العضباء؛ ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يُؤذِّن بمكة ومنى وعرفة: أن قد بَرِئَتْ ذِمَّةُ الله وذمة رسوله ﷺ من كل مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أَنَزَلَ في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا ينبغي لأحدٍ أن يبلِّغ هذا إلا رجل من أهلي، أَمَا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله.

فسار أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أميرًا على الحج، وعلي ـ رضي الله عنه ـ ليؤذن ببراءة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحدَّثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج، والعربُ في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فأذَّن في الناس بالذي أُمر به، وقرأ عليهم سورة براءة[1].

ثم حج النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع.

---

(١) جمع المصنف الروايات وساقها مساقًا واحدًا، وهي عند ابن إسحاق والواقدي، وطرف منها في «صحيح البخاري»، و«المستدرك» للحاكم. وانظر: «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٣٩٤ - ٣٩٦، ٥٤٥ - ٥٤٦)، «تفسير الطبري»: (١٤/ ٩٦ - ٩٧)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٥٠ - ٥١).

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا۟ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذَانٌ﴾ عطف على قوله: «بَرَآءَةٌ»، أي: إعلام، ومنه الأذان بالصلاة، يقال: آذنته فأذن، أي: أعلمته.

﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ واختلفوا في يوم الحج الأكبر، وقال جماعة: هو يوم النحر، واختلفوا في الحج الأكبر، فقال مجاهد: الحج الأكبر: القِران، والحج الأصغر: إفراد الحج. وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر: الحج، والحج الأصغر: العمرة.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ورسوله أيضًا بريء من المشركين، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الإيمان ﴿فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا استثناء من قوله: «بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ» إلا مِنْ عَهْد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضُمْرَةَ، حيٌّ من كنانة، أمر الله تعالى رسولَه ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه: أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ لم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من عدوكم، ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأوفوا لهم بعهدهم ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ انقضى ومضى ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ قيل: هي الأشهر الأربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد، فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر، ومن لا عهد له: فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يومًا، وقيل لها: «حُرُمٌ»؛ لأن الله تعالى حرَّم فيها على المؤمنين دماءَ المشركين والتعرُّضَ لهم.

قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا۟ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحل والحرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي: احبسوهم.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد إن تَحَصَّنُوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج.

﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: على كل طريق.

﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ يقول: دعوهم فليتصرفوا في أمصاركم ويدخلوا مكة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ به.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأعِذْهُ وآمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ فيما له وعليه من الثواب والعقاب ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي: الموضع الذي يأمن فيه: وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدِرْتَ عليه فاقتله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون دين الله تعالى وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله، قال الحسن: وهذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ هذا على وجه التعجب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله، ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلَّ وعلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال ابن عباس: هم قريش، وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ أي: على العهد ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ فلم يستقيموا، ونقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم: إمَّا أن يُسْلِمُوا، وإمَّا أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر.

قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم من قبائل بكر: بنو خُزيمة وبنو مُدْلج وبنو ضُمْرة وبنو الدِّيل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الدِّيل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة.

وهذا القول أقرب إلى الصواب؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يقول لشيء قد مضى: «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ»؟ وإنما هم الذين قال عزَّ وجلَّ: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا»، كما نقصتكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحدًا كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ هذا مردود على الآية الأولى، تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله كيف وإن يظهروا عليكم! ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾قال الأخفش: كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم، أي: يظفروا بكم، لا يرقبوا: لا يحفظوا. قال ابن عباس والضحاك: قرابةً، وقال يمان: رحمًا، وقال قتادة: «الإلُّ» الحِلْفُ، وقال السدي: هو العهد، وكذلك الذمة، إلاَّ أنه كرر لاختلاف اللفظين. «ذِمَّةٗۚ»، أي: عهدًا ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: يُعْطُونكُم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ الإيمان ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون، فكيف قال: «وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ»؟

قيل: أراد بالفسق: نقضَ العهد، وكان في المشركين من وفَّى بعهده، وأكثرُهم نقضوا، فلهذا قال: «وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ».

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ أطعمهم إيَّاها أبو سفيان، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ فمنعوا الناس من الدخول في دين الله، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وذلك أنَّ أهل الطائف أمدُّوهم بالأموال ليقوُّوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ﴾ بئس ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ يقول: لا تُبْقُوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يُبْقُونَ عليكم لو ظهروا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ بنقض العهد.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ونبين الآيات ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة، قال ابن مسعود: أمرتهم بالصلاة والزكاة، فمن لم يزكِّ فلا صلاة له.

حدثنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعده، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أنْ أُقاتلَ

النَّاسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فَمَنْ قال لا إله إلا الله عَصَمَ منِّي مالَهُ ونفسَه إلا بحقِّهِ وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يُؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على مَنْعها، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فوالله ما هو إلا أن قد شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنه الحق[1].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى صلاتَنَا واستقبل قِبْلَتَنَا وأكل ذبيحتنا: فذلك المسلمُ الذي له ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله»[2].

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم﴾ نقضوا عهودهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ عقدهم، يعني: مشركي قريش ﴿وَطَعَنُواْ﴾ قدحوا ﴿فِى دِينِكُمْ﴾ عابوه، فهذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظاهرًا لا يبقى له عهد ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهود لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم، وقيل: عن الكفر، ثم حض المسلمين على القتال، فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ نقضوا عهودهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على قتال خزاعة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمدًا وأصحابه.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ﴾ أتخافونهم فتتركون قتالهم؟ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ في ترك قتالهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يقتلهم الله بأيديكم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ ويبرىء داء قلوب قوم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مما كانوا ينالونه من الأذى منهم، وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت قريش

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٥٠)، ومسلم برقم٢٠: (١/ ٥١ - ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٤٩٦).

بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ كَرْبَها ووَجْدَها بمعونة قريش بكرًا عليهم، ثم قال مستأنفًا: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أظننتم ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ قيل: هذا خطاب للمنافقين، وقيل: للمؤمنين الذين شق عليهم القتال، فقال: أم حسبتم أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد، ولا تُمتحنوا، ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم يرَ الله ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانةً وأولياء يُوالونَهم ويُلقون إليهم أسرارهم، وقال قتادة: وليجة خيانة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ الآية.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لما أُسر العباسُ يوم بدرٍ عيَّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ علي - رضي الله عنه - له القولَ، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟!

فقال له علي - رضي الله عنه -: ألكم محاسن؟ فقال: نعم، إنَّا لَنَعْمُرُ المسجدَ الحرام ونحجبُ الكعبةَ ونسقي الحاج، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ردًّا على العباس: «﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾»، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله.

أوجب على المسلمين منعهم من ذلك؛ لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان كافرًا بالله فليس من شأنه أن يعمرها.

قوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ أرادَ: وهم شاهدون، فلما طرحت «وهم» نصبت، قال الحسن: لم يقولوا نحن كفار، ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: سجودهم للأصنام، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون بالبيتِ عراة، كلما طافوا شوطًا سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بُعْدًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ لأنها لغير الله عزَّ وجلَّ ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ ولم يَخَفْ في الدين غيرَ الله، ولم يترك أمر الله لخشية غيره ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ و«عسى» من الله واجب، أي: فأولئك هم المهتدون، والمهتدون: هم المتمسكون بطاعة الله عزَّ وجلَّ التي تؤدي إلى الجنة.

﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدُوا له بالإيمان»، فإن الله قال: «﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾»[1].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدا إلى المسجد أو راحَ أعدَّ الله له نُزُلَه مِنَ الجنةِ كلَّما غَدا أو رَاحَ»[2].

عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أراد بناء المسجد فكره الناسُ ذلك، وأحبُّوا أن يَدَعَهُ، فقال عثمان: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى للهِ مسجدًا بنىٰ اللهُ له كهيئته في الجنة»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ الآية.

عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أُسقي الحاج، وقال الآخر: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمر المسجد الحرام، وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣٦٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم٨٠٢: (١/ ٢٦٣)، والدارمي: (١/ ٢٢٢)، وصححه ابن حبان: ص٩٩ من «موارد الظمآن»، والحاكم: (١/ ٢١٢)، (٢/ ٣٣٢)، وتعقبه الذهبي فقال: درَّاج كثير المناكير.

(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ١٤٨)، ومسلم برقم٦٦٩: (١/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاري: (١/ ٥٤٤)، ومسلم برقم٥٣٣: (١/ ٣٧٨).

دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، إلى قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»(١).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال العباس حين أُسِرَ يومَ بدرٍ: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنَّا نعمر المسجد الحرام، ونَسْقي الحاجّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ مما هم عليه.

قوله: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه اختصار تقديره: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان مَن آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله؟

﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأْتِ رسولَ الله ﷺ بشرابٍ من عندها، فقال: اسقني، فقال: يا رسول الله، إنَّهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح، ثم قال: لولا أن تُغْلَبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه، وأشار إلى عاتقه(٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ فضيلة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الناجون من النار.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٨٧٩: (٣/ ١٤٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٤٩١).

قبلها، نزلت في قصة العباس وطلحة وامْتِنَاعِهما من الهجرة.

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم، فأنزل الله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ» بطانةً وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ اختاروا ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ فيطلعهم على عورة المسلمين ويُؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وكان في ذلك الوقت لا يُقبل الإيمان إلاَّ من مهاجر، فهذا معنى قوله: «فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ».

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إنْ نحنُ هاجرنا ضاعت أموالُنا وذهبت تجاراتُنا وخُرِّبتْ دُورُنَا وقطعنا أرحامنا، فنزل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تستطيبونها، يعني: القصور والمنازل ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال عطاء: بقضائه، وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة، وهذا أمر تهديد ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يُوفِّق ولا يُرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ﴾ أي: مشاهد ﴿كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ﴾ وحُنَيْن: وادٍ بين مكة والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ كثرتكم ﴿شَيْـًٔا﴾ يعني: إن الظفر لا يكون بالكثرة ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها وسعتها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بعد الهزيمة ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ يعني: الأَمَنَة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون ﴿عَلَىٰ

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة، قيل: لا للقتال، ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين؛ لأنه يُروى: أن الملائكة لم يقاتلوا إلاَّ يوم بدر ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة: نجس: قذر، وقيل: خبيث، سُمّوا نَجَسًا على الذم، وقال قتادة: سماهم نجسًا لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون، ويُحْدِثون فلا يتوضؤون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ أراد: منعهم من دخول الحرم؛ لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به: الحرم، وهذا كما قال الله تعالى: «سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ» [الإسراء: ١]، وأراد به: الحرم؛ لأنه أسرى به من بيت أم هانىء.

قال الشيخ الإمام الأجل: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام:

أحدها: الحرم، فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال، ذميًّا كان أو مستأمنًا؛ لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام، والإمامُ في الحرم: لا يأذن له في دخول الحرم، بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم، وجوَّز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم.

والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز، فيجوز للكافر دخولها بالإذن، ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام، لِمَا رُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالى لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ فيها إلا مسلمًا»[١]، فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[٢]، فلم يتفرغ لذلك أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، وأجلاهم عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته، وأجَّل لمن يقدم منهم تاجرًا ثلاثًا، وجزيرة العرب: من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدة وما وَالاَهَا من ساحل البحر إلى أطراف الشام.

والقسم الثالث: سائر بلاد المسلمين، فيجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة وأمان، ولكن لا يدخلون المساجد إلاَّ بإذن مسلم.

قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ يعني: العام الذي حجَّ فيه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بالنَّاس، ونادَى علي ـ كرَّم الله وجهه ـ ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة.

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ وذلك أنَّ أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٦٧: (٣/ ١٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٧١)، ومسلم برقم١٦٣٧: (٣/ ١٢٥٧ - ١٢٥٨).

يأتون مكة بالطعام ويتجرون، فلما مُنِعُوا من دخول الحرم خافُوا الفقر وضيقَ العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً»: فقرًا وفاقةً، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال عكرمة: فأغناهم الله عزَّ وجلَّ بأن أنزل عليهم المطر مدرارًا فكثر خيرهم، وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجُرَش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون.

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإنْ قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيمانًا بالله ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون الدين الحق، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ وهي الخراج المضروب على رقابهم ﴿عَن يَدٍ﴾ عن قهر وذلّ، وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء مقهورون، قال عكرمة: يعطون الجزية عن قيام، والقابض جالس.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ روى سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس قال: أتى رسولَ الله ﷺ جماعةٌ من اليهود: سلام بن مكشم، والنعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركتَ قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ»[1].

وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء، وهو الذي قال: «إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ» [آل عمران: ١٨١].

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يقولون بألسنتهم من غير علم، قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقرونًا بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زورًا ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يشابهون، والمضاهاة: المشابهة، ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة والسدي:

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير: (١٤/ ٢٠٢).

ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، «كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ» [البقرة: ١١٨]، وقال القتيبي: يريد: أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه.

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي: علماءهم وقرّاءهم، فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه: أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما أحلُّوا وحرَّموا ما حرَّموا، فاتخذوهم كالأرباب، رُوي عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: «يا عدي اطرحْ هذا الوثن من عنقك»، فطرحته ثم انتهيت إليه، وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حتى فرغ منها، قلت له: إنَّا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتستحلونه»؟ قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم».

قال عبد الله بن المبارك:

وهلْ بدَّلَ الدينَ إلاَّ الملوك ... وأحبارُ سَوْءٍ ورهبانُها

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: اتخذوه إلهًا ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: يُعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعثَ به محمدًا ﷺ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: الذي يأبىٰ إلا إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ قيل: بالقرآن، وقيل: ببيان الفرائض ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه وينصره ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

واختلفوا في معنى هذه الآية: فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ، أي: ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدَان الله تعالى إلا به.

وقال أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام، وروينا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلاَّ الإسلام»[١]، وروى المقداد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلاَّ أدخله الله كلمة الإسلام إمَّا بعزِّ عزيزٍ أو ذلِّ ذليلٍ»[٢]، إمَّا يعزهم الله فيجعلهم من أهله، فيعز به، أو يذلهم فيدينون له.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ الَّلاتُ والعُزَّى»، قالت: قلت: يا رسول الله، ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالى عليك: «هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ»، ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله تعالى ريحًا طيبة، فتقبض من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، ثم يبقىٰ من لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم»[٣].

قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: وأظهره بأن جماع الشرك دينان: دين أهل الكتاب، ودين أُمِّيين، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعًا وكرهًا، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين، وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم[٤].

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ يعني: العلماء والقراء من أهل الكتاب ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يريد: ليأخذون الرشا في أحكامهم، ويُحرِّفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا يقولون: هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمنًا قليلاً من سفلتهم،

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم٢٩٠٧: (٤/ ٢٢٣٠).

(٤) راجع: «أحكام القرآن» للشافعي: (٢/ ٤٩ - ٥٠)، «سنن البيهقي»: (٩/ ١٨٢).

وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي ﷺ، يخافون لو صدقوهم لذهبت عنهم تلك المآكل ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كل مال تؤدَّى زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونًا، وكل مالٍ لا تُؤدَّى زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفونًا، ومثله عن ابن عباس.

عن زيد بن أسلم أن أبا صالح ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فِضَّةٍ لا يؤدي منها حقّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامة صُفّحتْ له صفائحُ من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوىٰ بها جبينُه وظهره، كلما بردت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا صاحبِ إبلٍ لا يُؤدي منها حقّها، ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها إلاَّ إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقاع قرقر، أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحدًا، تطؤه بأخفافِها، وتعضّه بأفواهها، كلَّما مرَّ عليه أُوْلاها رُدَّ عليه أُخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا صاحبَ بَقَرٍ ولا غنم، لا يُؤدي منها حقّها، إلاَّ إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقَاعٍ قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس فيها عقصاء، ولا جلحاء، ولا عضباءَ، تنطحه بقرونها، وتطؤُه بأظلافها، كلَّما مرَّ عليه أُوْلاها رُدَّ عليه أُخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يَقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار»[١].

وروينا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِ زكاتَه، مُثِّلَ له مالُه يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان يُطوّقه يوم القيامة، فيأخذه بِلِهْزِمَتَيْهِ، يعني: شِدْقيه، ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزُك، ثم تلا: «﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾...»[٢] الآية [آل عمران: ١٨٠].

وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز.

عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة»، قال: فجئت حتى جلست، فلم أتقارّ أن قمت فقلت: يا رسول الله، فداكَ أبي وأُمي، مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليلٌ مَّا هم»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٩٨٧: (٢/ ٦٨٠ - ٦٨١).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٢٤)، ومسلم برقم٩٩٠: (٢/ ٦٨٦).

والقول الأول أصح؛ لأن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال، قال النبي ﷺ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح»[(١)].

ورَوى مجاهد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت هذه الآية، كبُرَ ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يدع لولده شيئًا، فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّبَ بها ما بقي من أموالكم»[(٢)].

وسئل ابن عمر - رضي الله عنهما - عن هذه الآية؟ فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهْرًا للأموال.

قوله عزَّ وجلَّ: «وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ» ولم يقل: ولا ينفقونهما، وقد ذكر الذهب والفضة جميعًا، قيل: أراد: الكنوز وأعيان الذهب والفضة، وقيل: ردَّ الكناية إلى الفضة لأنها أعم، كما قال تعالى: «وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ» [البقرة: ٤٥]، ردَّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمُّ، وكقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا» [الجمعة: ١١] ردَّ الكناية إلى التجارة لأنها أعمُّ «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» أي: أنذرهم.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: تدخل النار فيوقد عليها، أي: على الكنوز ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ فتحرق بها ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ أي: جباه كانزيها ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ رُوي عن ابن مسعود قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدة.

وسئل أبو بكر الوراق: لِمَ خَصَّ الجباه والجنوب والظهور بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض وجهه، وزوى ما بين عينيه، وولاَّه ظهره، وأعرض عنه بكشحه.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٤/ ١٩٧، ٢٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/ ٢٥٠)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٣٣)، والبيهقي: (٤/ ٨٣).

عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي: عدد الشهور ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وهي المحرَّم وصفر وربيع الأول وشهر ربيع الثاني وجُمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، وقوله: «فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ»، أي: في حكم الله، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والمراد منه: الشهور الهلالية، وهي الشهور التي يعتدُّ بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أُمورهم، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سَرْد ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الحساب المستقيم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: قوله: «فِيهِنَّ» ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعاصي وترك الطاعة، وقيل: «فِيهِنَّ»، أي: في الأشهر الحرم، قال قتادة: العمل الصالح أعظم أجرًا في الأشهر الحرم، والظلم فيهنَّ أعظم من الظلم فيما سواهنَّ، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ جميعًا عامة ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم، فقال قوم: كان كبيرًا ثم نسخ بقوله: «وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً»، كأنه يقول فيهن وفي غيرهنَّ، وهو قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري، وقالوا: إنَّ النبي ﷺ غزا هَوازن بحُنين، وثقيفًا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة، وقال آخرون: إنه غير منسوخ، قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يُقاتلُوا فيها وما نسخت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ وهو من التأخير، ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسأ الله في أجله، أي: أخَّر.

وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي، أي: المتروك، ومعنى النسيء: هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشقُّ عليهم الكفُّ عن ذلك ثلاثةَ أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا، أي: أخَّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخِّرون تحريم المحرَّم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخَّروه إلى ربيع، هكذا شهرًا

بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عزَّ وجلَّ فيه، وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبي في حجته فقال: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، وقال: «أيّ شهر هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة»؟ قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس البلد الحرام»؟ قلنا: بلى، قال: «فأيّ يوم هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر»؟ قلنا: بلى، قال: «فإنَّ دماءَكم وأموالكم ـ قال محمد: أحسبه قال: وأعراضَكم ـ عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب، فلعلَّ بعضَ من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغتُ ألا هل بلغت»[(١)]؟

قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر ويحجون من قابل في شهر آخر.

فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يريد: زيادة كفر على كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ﴾ يعني: النسيء ﴿عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ أي: ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ يريد: أنهم لم يحلوا شهرًا من الحرام إلا حرَّموا مكانه شهرًا من الحلال، ولم يحرموا شهرًا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرًا من الحرام، لئلا يكون الحرام أكثر من أربعة أشهر، كما حرم الله فيكون موافقة العدد ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٧ - ٨)، ومسلم برقم١٦٧٩: (٣/ ١٣٠٥).

مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية، نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحرِّ، حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاَّ ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفاوز هائلة، وعدوًّا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة عدوهم، فشقَّ عليهم الخروج وتثاقلوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾، أي: قال لكم رسول الله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: بخفض الدنيا ودَعَتِها من نعيم الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ثم أوعدهم على ترك الجهاد، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ في الآخرة، وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا، وسأل نجدةُ بن نفيع ابنَ عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حيًّا من أحياء العرب، فتثاقلوا عليه، فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ خيرًا منكم وأطوع، قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس، وقيل: هم أهل اليمن ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ بترككم النفير ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ هذا إعلام من الله عزَّ وجلَّ أنه المتكفِّلُ بنصرِ رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء، وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدَدِ والعُدَد ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مكة حين مكروا به وأرادوا تبييته وهمُّوا بقتله ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: هو أحد الاثنين، والاثنان: أحدهما رسول الله ﷺ، والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ وهو نقب في جبل ثور بمكة ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ قال الشعبي: عاتب الله عزَّ وجلَّ أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

عن جُمَيْع بن عُمَيْر قال: أتيت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي: (١٠/ ١٥٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٨٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي الحديث: كثير بن إسماعيل أو ابن نافع النوَّاء: ضعيف من السادسة. «تقريب».

قال الحسين بن الفضل: من قال إن إبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نصَّ القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعًا، لا يكون كافرًا.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لم يكن حزن أبي بكر جُبْنًا منه، وإنَّما كان إشفاقًا على رسول الله ﷺ، وقال: إن أُقتل فأنا رجل واحد وإن قُتِلْتَ هلكَتْ الأمة.

حدثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حدَّثهم قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظرَ تحتَ قدميه أبصرَنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثُهما»[1]؟

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قيل: على النبي ﷺ، وقال ابن عباس: على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ وكلمتهم الشرك، وهي السفلى إلى يوم القيامة ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ إلى يوم القيامة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شُبَّانًا وشُيوخًا، وعن ابن عباس: نشاطًا وغير نشاط، وقال عطية العوفي: ركبانًا ومشاةً.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقال له: إنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٨ - ٩)، ومسلم برقم٢٣٨١: (٤/ ١٨٥٤).

وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نُسخت هذه الآية بقوله: «وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً» [التوبة: ١٢٢].

ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ واسم «كان» مضمر، أي: لو كان ما تدعونهم إليه عرضًا قريبًا، أي: غنيمة قريبة المتناول ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا هيِّنًا ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لخرجوا معك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة، والشقة: السفر البعيد؛ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: باليمين الكاذبة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أيمانهم وإيمانهم؛ لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من أُسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيِّره بالذنب.

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي: في التخلُّف عنك ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في أعذارهم ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيها، أي: تعلم من لا عذر له، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: لا يستأذنك في التخلف ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكَّت ونافقت ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ متحيِّرين.

۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ﴾ أي: لهيَّؤوا ﴿عُدَّةً﴾ أهبة وقوة من السلاح والكراع ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ منعهم وحبسهم عن الخروج ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ﴾ في بيوتكم ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ يعني: مع المرضى والزَّمْنَى، وقيل: مع النسوان والصبيان، قوله عزَّ وجلَّ: «وَقِيلَ»، أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا، وقيل: أوحى إلى قلوبهم وأُلهِموا أسباب الخذلان.

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك، فضرب رسول الله

ﷺ عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أُبيّ على ذي جُدَّة أسفل من ثنية الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزّي نبيه ﷺ: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ يعني: المنافقين ﴿فِيكُم﴾ أي: معكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فسادًا وشرًّا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ أسرعوا ﴿خِلَالَكُمْ﴾ وسطكم، بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ قال مجاهد: معناه: وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين وردَّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أُبيّ يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ وأجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك وتشتيت أمرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ النصر والظفر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ نزلت في جَدِّ بن قَيْسٍ المنافق، وذلك أن النبي ﷺ لمَّا تجهَّز لغزوة تبوك قال: «يا أبا وهب، هل لك في جلاد بني الأصفر؟ - يعني: الروم -، تتخذ منهم سراري ووصفاء»، فقال جد: يا رسول الله، لقد عرف قومي أني رجلٌ مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، ائذنْ لي في القعودِ ولا تفتني بهنَّ وأُعينُك بمالي، قال ابن عباس: اعتلَّ جد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: «أذنت لك» فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم﴾ يعني: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ببنات الأصفر، قال قتادة: ولا تؤثمني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمْرَ الله وأمرَ رسوله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مطبقة بهم وجامعة لهم فيها.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ نصرة وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم، يعني: المنافقين ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ قتل وهزيمة ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ حذَرَنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ ويدبروا ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: علينا في اللوح المحفوظ ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرنا وحافظنا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا أيها المنافقون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة، وروينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تَكفَّلَ اللهُ لِمَنْ جاهد في سبيلِه لا يُخْرِجُه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته: أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوأتين: إمَّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان، إنا متربصون مواعيد الله: من إظهار دينه، واستئصال من خالفه.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعًا أو كرهًا، نزلت في جدِّ بن قيس حين استأذن في القعود، قال: أُعِيْنُكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعًا أو كرهًا ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ﴾ أي: لأنكم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ صدقاتهم ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلون؛ لأنهم لا يرجون على أدائها ثوابًا، ولا يخافون على تركها عقابًا، فإن قيل: كيف ذمَّ الكسلَ في الصلاة ولا صلاة

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٢٠)، ومسلم برقم١٨٧٦: (٣/ ١٤٩٦).

لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسل، والإيمان منشط ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لأنهم يعدونها مغرمًا ومنعها مغنمًا.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ والإعجاب: هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد؛ لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثَّر الله ماله وولده ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن قيل: أيُّ تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟

قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنَّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تخرج ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: يموتون على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون أن يظهروا ما هم عليه.

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حرزًا وحصنًا ومعقلاً، وقال عطاء: مهربًا، وقيل: قومًا يأمنون فيهم ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ غِيرانًا في الجبال، جمع مغارة: وهو الموضع الذي يغور فيه، أي: يستتر، وقال عطاء: سراديب ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضع دخول فيه، ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأدبروا إليه هربًا منكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون في إباءٍ ونفورٍ لا يردّ وجوهَهم شيء، ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصًا منكم ومهربًا لفارقوكم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية، نزلت في ذي الخويصرة التميمي، واسمه: حرقوص بن زهير، أصل الخوارج.

أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا فينا، أتاه ذُو الخُويصرة، وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: «وَيْلَكَ فمَنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ، قد خبت وخسرت إن لم أكنْ أعدل»، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّين كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ينظر إلى نَصْلِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافِهِ فلا يوجد

فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضيِّه، وهو قِدْحُه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قَذَذِهِ فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّم، آيَتُهم: رجل أسود إحدى عضديه مثل ثَدْيِ المرأة، أو مثل البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يخرجون على حين فُرْقَةٍ من الناس»، قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فَالْتُمِس، فَوُجِدَ، فَأُتِيَ به حتى نظرتُ إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته[١].

وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجَوَّاظ لرسول الله ﷺ: لم تقسمْ بالسوية، فأنزل الله تعالى: «وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ»، أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ويطعن عليك فيها، يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني: أن المنافقين كانوا يقولون: إن محمدًا لا يعطي إلا من أحب، ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قيل: إن أعطوا كثيرًا فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ ما نحتاج إليه ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يوسّع علينا من فضله، فيُغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ الآية، بيَّن الله تعالى في هذه الآية أهل سهمان الصدقات وجعلها لثمانية أصناف، ورُوي عن زياد بن الحارث الصُّدَائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لم يرضَ بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزَّأها ثمانية أجزاء، فإن كنتَ من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»[٢].

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ فأحدُ أصناف الصدقة: الفقراءُ، والثاني: المساكين.

واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: «الفقير»: الذي لا يسأل، و«المسكين»: الذي يسأل.

وقال ابن عمر: ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شيء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٦١٧ - ٦١٨)، ومسلم برقم١٠٦٤: (٢/ ٧٤٤ - ٧٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/ ٢٣٠ - ٢٣١)، والدارقطني: (٢/ ١٣٧)، والبيهقي في «السنن»: (٤/ ١٧٤)، وقال المنذري: في إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وقد تكلم فيه غير واحد.

وقال الشافعي: «الفقير» من لا مالَ ولا حِرْفَة تقع منه موقعًا، زَمِنًا كان أو غير زَمِن، و«المسكين» من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه، سائلاً أو غير سائل. فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: «﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾» [الكهف: ٧٩]، أثبت لهم ملكًا مع اسم المسكنة.

وفي الجملة: الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فَقَارَ ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت.

عن عبيد الله بن عدي بن الخِيَار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله فسألاه عن الصدقة فصعَّد فيهما وصوَّب، فقال: «إنْ شئتما أعطيتُكما ولا حظَّ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب»[١].

واختلفوا في حدِّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة، فقال الأكثرون: حدُّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي.

وقال أصحاب الرأي: حدُّه أن يملك مائتي درهم.

وقال قوم: من ملك خمسين درهمًا لا تحل له الصدقة، لِما رُوينا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل النَّاسَ وله ما يُغنيه جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتُه في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح»، قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهمًا أو قيمتُها من الذهب»[٢]، وهو قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وقالوا: لا يجوز أن يعطى من الزكاة أكثر من خمسين درهمًا، وقيل: أربعون درهمًا لِما رُوي أنَّ النبي ﷺ قال: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافًا»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السُّعَاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيُعطون من مال الصدقة، فقراء كانوا أو أغنياء، فيُعطَون أجر مثل عملهم.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم: المؤلَّفةُ قلوبُهم، وهم قسمان: قسم مسلمون، وقسم كفار، فأمَّا المسلمون فقسمان: قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم؛ تألفًا كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس، أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام، وهم شرفاء في قومهم مثل: عدي بن حاتم والزِّبْرِقان بن بدر، فكان يعطيهم تألفًا لقومهم وترغيبًا لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٢٣٣)، والنسائي: (٥/ ٩٩ - ١٠٠)، والشافعي في «المسند»: (١/ ٢٤٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»: (٢/ ١٥). وقال الإمام أحمد: ما أجوده من حديث. انظر: «التلخيص الحبير»: (٣/ ١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/ ٢٢٦)، والترمذي: (٣/ ٣١٣ - ٣١٤)، وقال: «حديث حسن، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير من أجل هذا الحديث».

(٣) أخرجه أبو داود: (٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩)، والنسائي: (٥/ ٩٨ - ٩٩).

خمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات.

والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين: أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع مُتَناط، لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إمَّا لضعف نيتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة، وقيل: من سهم المؤلفة، ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام، فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات، وقيل: من سهم سبيل الله.

رُوي أنَّ عدي بن حاتم جاء أبا بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرًا.

وأمَّا الكفار من المؤلفة: فهم من يُخشى شرُّهُ منهم، أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي هذا حذرًا من شره، أو يُعطي ذلك ترغيبًا له في الإسلام، فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لِمَا يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعز الله الإسلام فله الحمد، وأغناه أن يُتَألف عليه رجالٌ، فلا يُعطى مشركٌ تألفًا بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط، رُوي ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثوري، وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهوية.

وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ الصنف الخامس: الرقاب، وهم المكاتَبون، لهم سهم من الصدقة، هذا قول أكثر الفقهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الصنف السادس: هم الغارمون، وهم قسمان: قسم ادَّانوا لأنفسهم في غير معصية، فإنهم يُعْطَون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاءٌ فلا يُعطون، وقسم ادَّانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يُعْطَون من مال الصدقة ما يفون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء.

عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَحِلُّ الصدقة لغني إلاَّ لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جارٌ مسكين فتصدق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها»[1].

أما من كان دَينه في معصيةٍ فلا يُدفع إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أراد بها: الغزاة، فلهم سهم من الصدقة، يُعْطَون إذا

---

(١) رواه مرسلاً: مالك في «الموطأ» (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

أرادوا الخروج إلى الغزو ما يستعينون به على أمر الغزو من: النفقة والكسوة والسلاح والحمولة، وإن كانوا أغنياء، ولا يُعطى منه شيء في الحج عند أكثر أهل العلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ الصنف الثامن: هم أبناء السبيل، فكل من يريد سفرًا مباحًا ولم يكن له ما يقطع به المسافة يُعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة، سواء كان له في البلد المنتقل إليه مالٌ أو لم يكن.

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: واجبةً ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

اختلف الفقهاء في كيفية قسم الصدقات، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف:

فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف، وهو قول عكرمة، وبه قال الشافعي، قال: يجب أن تقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستة، الذين سُهْمَانهم ثابتة قسمةً على السواء؛ لأن سهم المؤلفة ساقط، وسهم العامل إذا قسم بنفسه، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدِّ الاستحقاق، فإن انتهتْ حاجتُه وفضل شيء رَدَّه إلى الباقين.

وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف، أو إلى شخص واحد منهم يجوز.

وقال مالك: يتحرى موضع الحاجة منهم ويُقَدّم الأَوْلَى فالأَوْلَى من أهل الخُلَّة والحاجة، فإن رأى الخلة في الفقراء في عام أكثر قدَّمَهم، وإن رآها في عام في صنف آخر حوَّلها إليهم.

واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر، مع وجود المستحقين فيه: فكرهه أكثر أهل العلم لما أخبرنا ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن فقال: «إِنَّكَ تأتي قومًا أهل كتاب فادْعُهُمْ إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأَعْلِمْهُمْ أنَّ الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوةَ المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

فهذا يدل على أن صدقة أغنياء كل قوم تُرَدّ على فقراء ذلك القوم.

واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر أُدِّي مع الكراهة، وسقط الفرض عن ذمته، إلا ما حُكي عن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ أنَّه ردَّ صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٦١)، ومسلم: (١/ ٥٠ - ٥١).

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يُؤذون النبي ﷺ، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال الجُلاَس بن سُوَيْد منهم: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا، ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنَّما محمدٌ أُذُنٌ، أي: أُذُنٌ سامعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ قرأه العامة بالإضافة، أي: مستمعُ خير وصلاح لكم، لا مستمع شر وفساد، وقرأ الأعمش والبُرْجُمِيّ عن أبي بكر: «أُذُنٌ خيرٌ لكم» مرفوعين منونين، يعني: أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذَّبهم فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا، بل يؤمن بالله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدِّق المؤمنين ويقبل منهم لا من المنافقين، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ قرأ حمزة: «ورحمةٍ» بالخفض على معنى أُذن خير لكم، وأذن رحمة، وقرأ الآخرون: «ورحمة» بالرفع، أي: هو أُذن خير، وهو رحمة ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ﴾ لأنه كان سبب إيمان المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ قال قتادة والسُّدِّي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجُلاس بن سُوَيْد ووديعة بن ثابت، فوقعوا في النبي ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقًّا فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس، فحقروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حقٌّ وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبيَّ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أنَّ عامرًا كذاب، وحلف عامر أنهم كذبة، فصدقهم النبي ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدِّق الصادقَ وكذِّب الكاذِبَ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ

---

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة»، ورواه عبد الرزاق في «مصنفه».

وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الفضيحة العظيمة.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: يخشى المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تنزل على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم.

قال قتادة: هذه السورة تُسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم.

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُظْهِر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

عن قيس بن عبادة قال: قلنا لعمَّار أرأيتَ قتالكم أرأيًا رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطىء ويصيب، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسولُ الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس كافة، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في أُمتي ـ قال شعبة: وأحسبه قال: حدثني حذيفة قال: في أُمتي ـ اثنا عشر منافقًا لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدُّبَيْلة، سراجٌ من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم»[1].

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين، اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك.

قيل: كانوا يقولون: إن محمدًا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم، ما أبعده من ذلك! وقيل: كانوا يقولون: إن محمدًا يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأَطْلَعَ اللهُ نبيَّه ﷺ على ذلك؛ فقال: احبسوا عليَّ الركب، فدعاهم وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي: كنَّا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٧٧٩: (٤/ ٢١٤٣).

قال عمر: فلقد رأيت عبد الله بن أُبي يشتد قدام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ»، ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ كتابه ﴿وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟

قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحدًا ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ بالاستهزاء.

وقال محمد بن إسحاق: الذي عفا عنه رجلٌ واحد، هو مَخْشِيّ بن حُمَيِّر الأشجعي، يقال: هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مجانبًا لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللَّهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ أُعْنَىٰ بها، تقشعرُّ الجلود منها، وتجب منها القلوب، اللَّهم اجعلْ وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت، فأُصيب يومَ اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عُرِفَ مصرعُه غيره.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: هم على دين واحد، وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالشرك والمعصية ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعةَ الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ كافيتهم جزاءً على كفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعُدول عن أمر الله، فَلُعِنْتُم كما لُعِنُوا ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ بطشًا ومنعةً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ فتمتعوا

وانتفعوا بخلاقهم؛ بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا به عوضًا عن الآخرة ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ أيها الكفار والمنافقون ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وسلكتم سبيلهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والكذب على الله تعالى، وتكذيب رُسله، والاستهزاء بالمؤمنين ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي: كما خاضوا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا، كذلك حبطتْ أعمالُكم وخسرتُم.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُم شِبْرًا بشبرٍ وذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لاتَّبعتُموهُم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية أبي هريرة: «فهلِ الناسُ إلاَّ هُمْ»، وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «أنتم أشبه الأُمم ببني إسرائيل سَمْتًا وهَدْيًا تتبعون عملهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ غيرَ أني لا أدْرِي أتعبدُون العِجْلَ أمْ لا؟»[1].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿نَبَأُ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حين عصوا رُسلنا وخالفوا أمرنا، كيف عذبناهم وأهلكناهم، ثم ذكرهم فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أُهلكوا بالطُّوفان ﴿وَعَادٍ﴾ أُهلِكُوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بسلب النعمة وهلاك نمرود ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ يعني: قوم شعيب، أُهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فكذَّبوهم وعَصَوْهم كما فعلتم يا معشر الكفار، فاحذرُوا تعجيلَ النِّقْمة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٣٠٠)، ومسلم برقم٢٦٦٩: (٤/ ٢٠٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الدِّين واتفاق الكلمة والعون والنصرة ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة والخير ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ منازل طيبة ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: «عَدَنَ بالمكان» إذا قام به.

قال ابن مسعود: هي بُطْنَان الجنة، أي: وسطها.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصرًا يقال له: «عَدْنٌ» حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلاَّ نبيٌّ أو صديق أو شهيدٌ.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ رُوينا عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ لأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنَّة هل رضيتُم؟ فيقولون: ربَّنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِهِ أحدًا من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: ربَّنا وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[1].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف والقتل ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، قال ابن مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال عطاء: نسخت هذه الآية كلَّ شيء من العفو والصفح.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظل حجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه»، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك»؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[2].

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٨٧)، ومسلم برقم٢٨٢٩: (٤/ ٢١٧٦).

(٢) أخرجه الطبري: (١٤/ ٣٦٣)، وصحح الشيخ شاكر إسناده.

نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام، قيل: هي سبُّ النبي ﷺ، ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قال مجاهد: هَمَّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شر من الحمير، لكي لا يفشيه.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ وما كرهوا وما أنكروا منهم ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ في ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَ عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم.

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ يعرضوا عن الإيمان ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالخزي ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم﴾ يعني: المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولنؤدِّين حقَّ الله منه ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نعمل بعمل أهل الصلاح فيه: من صلة الرحم، والنفقة في الخير.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ فأخلفهم ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: صيَّر عاقبة أمرهم النفاق، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يريد: حرمهم التوبة إلى يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٨٩)، ومسلم برقم٥٩: (١/ ٧٨).

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية.

قال أهل التفسير: حثَّ رسولُ الله على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ»، فبارك الله في ماله حتى أنه خلَّف امرأتين يوم مات فبلغ ثُمُنُ ماله لهما مائة وستين ألف درهم، وتصدَّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وَسْقٍ من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري، واسمه: الحباب، بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله، بتُّ ليلتي أجر بالجرير الماءَ حتى نِلْتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما لأهلي وأتيتُك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، وإن الله ورسوله لغنيَّان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يُذكِّر بنفسه ليعطى من الصدقة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ[1]:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتبرعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يعني: عبد الرحمن بن عوف وعاصمًا ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون منهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم الله على السخرية ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لفظه أمر، ومعناه خبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ الله لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وذكر عدد السبعين للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك، والمخلَّف: المتروك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ، وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار

---

(١) رواه الطبري: (١٤/ ٣٨٣ - ٣٨٨)، والبزار في «مسنده» موصولاً ومرسلاً.

وأقاموا ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحرِّ ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ يعلمون.

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾ في الدنيا ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ في الآخرة، تقديره: فليضحوا قليلاً فسيبكون كثيرًا ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

عن أنس - رضي الله عنهم - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيرًا»[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردَّك يا محمد من غزوة تبوك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني: من المخلفين، وإنما قال: ﴿طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾؛ لأنه ليس كل من تخلف عن غزوة تبوك كان منافقًا ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ معك في غزوة أخرى ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ في سفر ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ في غزوة تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أي: مع النساء والصبيان، وقيل: مع الزَّمْنَى والمرضى، وقال ابن عباس: مع الذين تخلفوا بغير عذر.

وقيل: «مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ» قال الفرَّاء: «صاحب خالف» إذا كان مخالفًا.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ الآية، قال أهل التفسير: بعث عبد الله بن أُبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له: «أهلكك حبُّ اليهود»؟ فقال: يا رسول الله، إني لم أبعث إليك لتؤنبني، إنما بعثت إليك لتستغفر لي، وسأله أن يكفنه في قميصه ويصلي عليه[٢].

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - أنه قال: لما مات عبد الله بن أُبي بن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أُبيٍّ بن سلول وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ أعدِّد عليه قوله، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «أخِّرْ عني يا عمر» فلما أكثرتُ عليه قال: «إني خُيِّرْتُ فاخترتُ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»، قال: فصلَّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: «وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ»، إلى قوله: «وَهُمۡ فَٰسِقُونَ»، قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم[٣].

حدثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: أتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ بعدما أُدخل في حفرته فأمر به فأُخرج فوضعه على ركبتيه ونفث في فيه من ريقه وألبسه قميصه. فالله أعلم وكان كَسَا عبَّاسًا قَمِيصًا.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٨٠)، ومسلم برقم٢٣٥٩: (٤/ ١٨٣٢).

(٢) رواه الحاكم والبيهقي. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (٢/ ٩١ - ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٢٨).

قال سفيان: وقال هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال ابن عبد الله: يا رسول الله، ألبسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك[١].

قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يدٌ فأحبَّ أن يُكافئه[٢].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ولا تَقِفْ عليه، ولا تَتَولَّ دَفْنَهُ، من قولهم: قام فلان بأمر فلان: إذا كفاه أمره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فما صلى النبيُّ ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قُبِض.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الغنى والسَّعة منهم في القعود ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ في رحالهم.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ يعني: النساء، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ يعني: الحسنات، وقيل: الجواري الحسان في الجنة، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢١٤).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ١٤٤).

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية قال ابن عباس: هم الذي تخلَّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: المنافقين.

قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئًا، قوم تكلفوا عذرًا بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: «سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ثم ذكر أهل العذر، فقال جلَّ ذِكْرُه:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ قال ابن عباس: يعني: الزَّمْنى والمشايخ والعجزة، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ يعني: الفقراء ﴿حَرَجٌ﴾ مأثم، وقيل: ضيق في القعود عن الغزو ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في مغيبهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وبايعوا الرسول ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق بالعقوبة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ معناه: أنه لا سبيل على الأولين ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُمّوا البكَّائين: أَتَوْا رسولَ الله فقالوا: يا رسول الله، إنَّ الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا[1].

واختلفوا في قوله: «لِتَحْمِلَهُمْ»، قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب.

وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة، ليغزوا معه، فقال النبي ﷺ: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ تولَّوا وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقوبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلُّف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء والصبيان ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

---

(١) أخرجه الطبري: (١٤/ ٤٢٣)، وانظر: «السيرة» لابن هشام: (٢/ ٥١٨).

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يُروى أن المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعةً وثمانين نفرًا، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ فيما سلف ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في المستأنف، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إذا انصرفتم إليهم من غزوكم ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نجس، أي: إن عملَهم قبيح ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين، فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تُجالِسُوهم ولا تُكلموهم».

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيٍّ حَلَفَ للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية، ونزل: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي: أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أخلق وأحرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السُّنن ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من فرائضه.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ قال عطاء: لا يرجو على إعطائه ثوابًا، ولا يخاف على إمساكه عقابًا، إنما ينفق خوفًا أو رياءً، والمغرم: التزام ما لا يلزم ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ وينتظر ﴿بِكُمُ

﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ يعني: صروف الزمان، ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ عليهم يدور البلاء والحزن، ولا يرون في محمد ودينه إلاَّ ما يسوؤهم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم، ثم استثنى فقال:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ قال مجاهد: هم بنو مُقرِّن من مُزينة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينة ومُزينة خيرٌ عندَ اللهِ يومَ القيامة مِن تميمٍ وأسدِ بن خُزيْمَةَ وهوازنَ وغطفان»[1].

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبي ﷺ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ قرأ نافع برواية ورش «قُرُبة» بضم الراء، والباقون بسكونها ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ في جنته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ الآية، قرأ يعقوب بالرفع عطفًا على قوله: «وَٱلسَّٰبِقُونَ».

واختلفوا في السابقين الأولين، قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلُّوا إلى القبلتين.

وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر.

وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية.

واختلفوا في أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتفاقهم على أنَّها أولُ من آمن برسول الله ﷺ، فقال بعضهم: أول من آمن وصلَّى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين.

وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، ومن العبيد زيد بن حارثة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٤٣)، ومسلم برقم ٢٥٢١: (٤/ ١٩٥٥).

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلاً محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجرًا ذا خُلُقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وحُسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فأسلم على يديه ـ فيما بلغني ـ: عثمان بن عفان، والزبير بن العوَّام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلُّوا، فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام، ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، أما السَّابقون من الأنصار: فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستة في العقبة الأولى، وسبعين في الثانية، والذين آمنوا حين قدم عليهم مُصعب بن عُمير يعلمهم القرآن، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الذينَ هاجرُوا قومَهم وعشيرتَهم وفارقوا أوطانهم ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي: ومن الأنصار، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأوَّلين.

وقال أبو صخر حميد بن زياد: أتيتُ محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟ فقال: يا هذا اقرأْ قولَ اللهِ تعالى: «وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ» إلى أن قال: «رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ»، وقال: «وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ» شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة.

قال أبو صخر: فكأني لم أقرأْ هذه الآية قط.

رُوِّينا أن النبي ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذَهبًا ما أدْرَكَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفه»[1].

ثم جمعهم الله عزَّ وجلَّ في الثواب فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرأ ابن كثير: «من تحتها الأنهار»، وكذلك في مصاحف أهل مكة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وهم من مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مرنوا على النفاق.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أنتَ يا محمد ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ اختلفوا في هذين العذابين.

قال ابن زيد: الأولى: المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأُخرى: عذاب الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٢١)، ومسلم برقم٢٥٤١: (٤/ ١٩٦٧ - ١٩٦٨).

وعن ابن عباس: الأولى: إقامة الحدود عليهم، والأُخرى: عذاب القبر.

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر.

وقيل: الأولى: إحراق مسجدهم، مسجد الضرار، والأُخرى: إحراقهم بنار جهنم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إلى عذاب جهنم يخلدون فيه.

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومن أهل المدينة، أو من الأعراب آخرون، ﴿ٱعْتَرَفُوا۟﴾ أقرُّوا ﴿بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو إقرارُهم بذنوبهم وتوبتُهم ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: بعمل آخر سيء.

والعمل السيء: هو تخلُّفهم عن رسول الله.

والعمل الصالح: هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري، وقيل: غزواتُهم مع النبي ﷺ.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزلت هذه الآية في قوم تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندِمُوا على ذلك، وقالوا: نكون في الظِّلال مع النساء، ورسولُ الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللَّأواء! فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا: والله لَنُوثِقَنَّ أنفسَنا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكونَ رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ويعذُرُنا، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، فلما رجع رسول الله ﷺ مرَّ بهم فرآهم فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدُوا اللهَ عزَّ وجلَّ أن لا يُطلقوا أنفسَهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أُطلِقهم ولا أعذرهم حتى أُومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلَّفوا عن الغزو مع المسلمين! فأنزل الله هذه الآية، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلَّفَتْنَا عنك فتصدقْ بها وطَهِّرْنَا واستغفرْ لنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئًا»، فأنزل الله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً...» الآية[1].

فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين؛ لأن الله تعالى قال: «خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ»، ولم يقل: خذ أموالهم، قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلِّفوا.

---

(١) رواه البيهقي في «الدلائل»، وابن مردويه في «تفسيره».

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ بها من ذنوبهم ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وقيل: تنمّي أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادْعُ لهم واستغفرْ لهم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: إن دعاءك رحمة لهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوْفَى ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومُه بصدقةٍ قال: «اللَّهُمَّ صلِّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صلِّ على آل أبي أوْفَى»[1].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يقبلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، ما من عبدٍ يتصدَّق بصدقةٍ من كسبٍ طيِّبٍ، ولا يقبلُ اللهُ إلا طيِّبًا، ولا يَصْعَدُ إلى السماءِ إلا طيِّبٌ، إلاَّ كأنما يضعها في يد الرحمن عزَّ وجلَّ فيُربيها له كما يُربي أحدكم فَلُوَّه، حتى إنَّ اللّقمةَ لتأتي يومَ القيامةِ وإنَّها لمثلِ الجبلِ العظيم، ثم قرأ: «أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ»[2].

وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ قال مجاهد: هذا وعيد لهم، قيل: رؤية النبي ﷺ بإعلام الله تعالى إيَّاه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة لأهل الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾: مؤخرون، «لِأَمْرِ ٱللَّهِ»: لحكم الله عزَّ وجلَّ فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعدُ: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى شقهم القلق

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٦١)، ومسلم برقم١٠٧٨: (٢/ ٧٥٦ - ٧٥٧).

(٢) أخرجه الشافعي بإسناد حسن في «المسند»: (١/ ٢٢٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ٣٣٥).

وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وكانوا من أهل بدر فجعل أُناسٌ يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مُرْجَئِيْنَ لأمر الله لا يدرون أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين، بنوا مسجدًا يضارّون به مسجدَ قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق: بنوا هذا المسجد ضرارًا، يعني: مضارةً للمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا جميعًا يصلُّون في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضِّرار ليصلي فيه بعضهم، فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، وكان يصلي بهم مجمع بن جارية.

فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلَّة والحاجة، والليلة المَطِيْرة والليلة الشاتية، وإنَّا نحب أن تأتينا وتصلي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفرٍ، ولو قَدِمْنَا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه».

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: انتظارًا وإعدادًا لمن حارب الله ورسوله.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ما أردنا ببنائه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلا الفعلة الحسنى، وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قيلهم وحلفهم، رُوي أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ونزل بذي أوَان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما همُّوا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشيًّا قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدمُوه واحرقوه، فخرجوا سريعًا حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم، فقال مالك: أَنْظِرُونِي حتى أخرج إليكم بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سَعَفًا من النخل فأشعل فيه نارًا، ثم خرجوا يشتدُّون، حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرَّقُوه وهدموه، وتفرق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقىٰ فيه الجِيَف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدًا فريدًا غريبًا.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أنْ لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضارّ أحدُهما صاحبَه.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ قال ابن عباس: لا تُصلِّ فيه. منعَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يصلي في مسجد الضِّرار ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بُني أصلُه على التقوى ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: من أول يومٍ بُني ووضع أساسه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مصليًا.

واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة، مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه:

عن حميد الخراط قال: سمعتُ أبا سلمة عبد الرحمن قال: مرَّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: فقلت له: كيف سمعتَ أباك يذكر في المسجد الذي أُسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله، أيُّ المسجدين الذي أُسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًّا من الحصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «مسجدكم هذا، مسجد المدينة»، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك يذكره[١].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[٢].

وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كلَّ سبت ماشيًا وراكبًا، وكان عبد الله بن عمر يفعله[٣].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ من الأحداث والجنابات والنجاسات، وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء»: «﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾»، قال: «كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية»[٤] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي: المتطهرين.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خيرٌ ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ على شفير ﴿جُرُفٍ﴾ هي البئر التي لم تُطْوَ، قال أبو عبيدة: هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينجرف بالماء فيبقى واهيًا ﴿هَارٍ﴾ أي: هائر،

(١) أخرجه مسلم برقم١٣٩٨: (٢/ ١٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٧٠)، ومسلم برقم١٣٩١: (٢/ ١٠١١).

(٣) أخرجه البخاري: (٣/ ٦٩)، ومسلم برقم١٣٩٩: (٢/ ١٠١٦ - ١٠١٧).

(٤) أخرجه أبو داود: (١/ ٣٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة: (٨/ ٥٠٣)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وهو الساقط، ومعناه: الساقط الذي يتداعى بعضه في إثْر بعض، كما ينهار الرمل والشيء الرخو ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ أي: سقط بالباني ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يريد: بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: صيَّرهُم النفاقُ إلى النار.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال قتادة: والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه، فرُؤيَ الدخان يخرج منها.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾ أي: شكًّا ونفاقًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يحسبون أنهم كانوا في بنيانه مُحسنين كما حُبب العجل إلى قوم موسى.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تتصدَّع قلوبهم فيموتوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسًا، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربي عزَّ وجلَّ: أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: رَبحَ البيعُ، لا نقيلُ ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقرأ الأعمش: «بالجنة».

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: ثواب الجنة لهم وعدٌ وحقٌّ ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: أنَّ الله عزَّ وجلَّ وعدهم هذا الوعد، وبيَّنه في هذه الكتب، ثم هنَّأهم فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فافرحوا ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بايعك وجعل الصفقتين لك.

ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد؛ لأنَّ بعض المسلمين يُجزي عن بعض في الجهاد، فمن كانت هذه صفته فله الجنة أيضًا.

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عزَّ وجلَّ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الصائمون.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ يعني: المصلين ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالإيمان ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عن الشرك، وقيل: المعروف: السنة، والمنكر: البدعة ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ القائمون بأوامر الله، وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية.

قال قوم: سبب نزولها: حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة فقال: «أيْ عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لكَ بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلب؟ فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويُعيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على مِلَّةِ عبد المطلب، وأَبَى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنكَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ وأنزل في أبي طالب: «إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ» [القصص: ٥٦] (١).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قلْ لا إله إلا الله أشهدُ لكَ بها يوم القيامة»، فقال: لولا أن تُعَيِّرَني قريشٌ، فيقولون: إنَّما حمله على ذلك الجَزَعُ، لأقررتُ بها عَيْنَكَ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ»(٢).

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع النبي ﷺ، وذُكِرَ عنده عمُّه فقال: «لعله تنفعُه شفاعتي يومَ القيامة، فَيُجْعَلَ في ضَحْضَاحٍ مِنَ النار يبلغُ كعبيه يغلي منه دِماغُه»(٣).

عن أبي هريرة قال: زار النبيُّ ﷺ قبرَ أُمِّه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنتُ ربي عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٢٢)، (٧/ ١٩٣)، ومسلم برقم٢٤: (١/ ٥٤).
(٢) أخرجه مسلم: (١/ ٥٥).
(٣) أخرجه البخاري: (١/ ١٩٣)، ومسلم برقم٢١٠: (١/ ١٩٥).

في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي، فزوروا القبور فإنها تُذَكِّر الموت»[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ قال بعضهم: الهاء في «إياه» عائدة إلى إبراهيم ﷺ، والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم: سأستغفر لك ربي، يعني: إذا أسلمت.

وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب، وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه، وهو قوله: «سأستغفِرُ لك ربي»، يدل عليه قراءة الحسن: «وعدها أباه» بالباء الموحدة.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ لموته على الكفر ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه، أي: يتبرأ منه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيمُ أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تَعْصِني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم ﷺ : يا رب، إنَّك وعدتني أن لا تُخْزِيَني يومَ يُبْعَثُون، فأيُّ خزيٍ أخزَى من أبي الأَبْعَدَ؟ فيقول الله تعالى: إني حَرَّمْتُ الجنَّةَ على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِبْحٍ مُلْتَطِخٍ، فيُؤخذُ بقوائمِه فَيُلْقَىٰ في النار»[٢]، وفي رواية: يتبرأ منه يومئذ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ اختلفوا في معنى الأوَّاه، جاء في الحديث: «إن الأوَّاه الخاشعُ المتضرع»[٣].

وقال عبد الله بن مسعود: «الأوَّاه» الدَّعَّاء.

وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التواب.

وأصله: من التأوِهِ، وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء، والفعل منه أوّه وتأوّه، و«الحليم» الصفوح عمن سبَّه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه، عند وعيده، وقوله: «لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ» [مريم: ٤٦ - ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ الآية، معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر باستغفاركم للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يريد: حتى يتقدم إليكم بالنهي، فإذا تبيَّن ولم تأخذوا به فعند ذلك تَسْتَحِقُّون الضلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم عظَّم نفسه فقال:

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم برقم٩٧٧: (٢/ ٦٧٢).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٨٦ - ٣٨٧).
(٣) أخرجه الطبري: (١٤/ ٥٣١، ٥٣٢).

نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ يحكم ما يشاء ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، تاب الله، أي: تجاوز وصفح، ومعنى توبته على النبي ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلُّف عنه، ﴿وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة، والعسرة: الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظَّهر والزاد والماء.

وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبي ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادْعُ اللهَ لنا ... قال: «أتحبُّ ذلك»؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلَّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ أي: من بعد ما كاد تميل ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: قلوب بعضهم، ولم يُرِدِ الميلَ عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلُّف والانصراف للشِّدة التي عليهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: «لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ»؟

قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عزَّ وجلَّ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبدًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أي: خُلِّفُوا عن غزوة تبوك، وقيل: خُلِّفوا، أي: أُرجِىء أمرهم، عن توبة أبي لُبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية، كلهم من الأنصار.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ اتسعت ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ غمًّا وهمًّا ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: تيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا مفزع من الله ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: ليستقيموا على التوبة، فإن توبتهم قد سبقت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ قال نافع: مع محمد وأصحابه.

وكان ابن مسعود يقرأ: «وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ»، وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جِدٍّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيَّه شيئًا ثم لا ينجز له، اقرؤا إن شئتم وقرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظاهره خَبَرٌ، ومعناه نهي، كقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ» [الأحزاب: ٥٣] ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ سكان البوادي: مُزينة، وجُهينة، وأشجع، وأسلم، وغِفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا غزا ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ﴾ أي: ولا أن يرغبُوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه، قال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدَّعة، ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في سفرهم ﴿ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ أرضًا ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وطؤهم إياه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: لا يصيبون من عدوهم قتلاً أو أسرًا أو غنيمةً أو هزيمةً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

حدثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل اللهِ حرَّمهما اللهُ على النار»[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ أي: في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولو عِلاَقَة سوط ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ لا يجاوزون واديًا في مسيرهم مقبلين أو مدبرين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يعني: آثارهم وخطاهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ رُوي عن خُرَيْم بن فاتِك قال: قال

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٩٠).

رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقةً في سبيل الله كُتِبَ له سبعُمائةِ ضِعْفٍ»[١].

عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُمائةِ ناقة كلها مخطومة»[٢].

عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جهز غازيًا في سبيل الله فقدْ غَزَا، ومن خَلَفَ غازيًا في سبيل الله بخيرٍ فقدْ غَزَا»[٣].

﴿۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ الآية، قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما أنزل الله عزَّ وجلَّ عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعًا إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية. وهذا نفي بمعنى النهي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: فهلاً خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعةٌ ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعةٌ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ يعني: الفرقة القاعدين، يتعلمون القرآن والسُّنَنَ والفرائضَ والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أُنزل بعدهم، فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم، وتبعث سرايا أُخر، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ وليعلموهم بالقرآن ويخوفوهم به ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ لا يعملون بخلافه.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين»[٤].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناسَ معادنَ كمعادنِ الذهب والفضةِ، فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٢٥٤)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي: (٦/ ٤٩)، وصححه ابن حبان: (٣٩٦) من «الموارد»، والحاكم: (٢/ ٨٧٢)، وقال الألباني في تعليقه على «المشكاة»: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم برقم١٨٩٢: (٣/ ١٥٠٥).

(٣) رواه البخاري: (٦/ ٤٩)، ومسلم برقم١٨٩٥: (٣/ ١٥٠٧).

(٤) أخرجه البخاري: (١/ ١٦٤)، ومسلم برقم١٠٣٧: (٢/ ٧١٨).

(٥) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٢٥ - ٥٢٦)، ومسلم برقم٢٥٢٦: (٨/ ١٩٥).

والفقه: هو معرفة أحكام الدين، وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين مثل: علم الطهارة، والصلاة، والصوم، فعلى كل مكلف معرفته.

وأما فرض الكفاية فهو: أن يتعلم حتى يبلغ درجة الاجتهاد ورتبة الفتيا، فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعًا، وإذا قام من كل بلد واحد فتعلَّمه سقط الفرض عن الآخرين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية، أُمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها.

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شِدَّةً وحمية، قال الحسن: صبرًا على جهادهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصرة.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يقينًا، كان المنافقون يقولون هذا استهزاءً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقينًا وتصديقًا ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول القرآن.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفرًا إلى كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها.

قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان: يزيد وينقص.

وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتى نزداد إيمانًا.

قوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله: قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُبتلون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالأمراض والشدائد، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نقض العهد، ولا يرجعون إلى الله من النفاق ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ

فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريدون الهرب، يقول بعضهم لبعض إشارة: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحد من المؤمنين إن قمتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدًا يراهم أقاموا وثبتوا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن الإيمان بها، وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، قال أبو إسحاق الزجاج: أضلَّهُم اللهُ مجازاةً على فعلهم ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ عن الله دينه، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لا تقولوا إذا صليتم انصرفنا من الصلاة، فإنَّ قومًا انصرفُوا فصرفَ اللهُ قلوبَهم، ولكن قُولُوا قد قضينا الصلاة»[١].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وحسبه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدَني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاحٌ كنكاحِ الإسلام»[٢].

وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن «من أنْفَسكم» بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ قيل: «ما» صلة، أي: عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة عليكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانِكم وصلاحِكم، وقال قتادة: حريص عليكم، أي: على ضالّكم أن يهديه الله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك الحرب ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

روي عن أُبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان «لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ» إلى آخر السورة، وقال: هما أحدث الآيات بالله عهدًا[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٥٨٣)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٣٨)، ووافقه الذهبي.

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٤): (رواه الطبراني عن المديني عن أبي الحويرث، ولم أعرف المديني ولا شيخه، وبقية رجاله وثّقوا).

(٣) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٣٨)، والإمام عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»: (٥/ ١١٧).

سورة يونس

مكيَّة إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى آخرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٤)

قال ابن عباس والضحاك: «الٓر» أنا الله أرى، و«الٓمٓر» أنا الله أعلم وأرى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذه، وأراد بالكتاب الحكيم: القرآن، و«الْحَكِيمِ»: المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام.

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ العَجَبُ: حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة.

وسبب نزول الآية: أن الله عزَّ وجلَّ لما بعث محمدًا ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾، يعني: أهل مكة، الألِفُ فيه للتوبيخ ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي: أعْلِمْهم مع التخويف ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ واختلفوا فيه، قال ابن عباس: أجرًا حسنًا بما قدموا من أعمالهم، قال الضحاك: ثواب صدق، وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه.

وأضيف «القَدَمُ» إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحب الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم﴿قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون محمدًا ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يقضيه وحده ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ معناه: أن الشفعاء لا يشفعون إلا بإذنه، وهذا رَدٌّ على النَّضْر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربكم لا ربّ لكم غيره

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ صدقًا لا خلف فيه، نصب على المصدر، أي: وعدكم وعدًا حقًّا ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يُحييهم ابتداء ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامة: «إِنَّهُۥ» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ ماءٌ حارٌّ انتهى حرُّه ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ بالنهار ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ بالليل، وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذَا نُور ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: قدَّر له، يعني: هيَّأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قَدَّرهما.

وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة؛ لأن القمر يُعرف به انقضاء الشهور والسنين، لا بالشمس.

قوله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي: قدَّر المنازل دخولها وانقضاءها ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ يعني: حساب الشهور والأيام والساعات ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ ردَّه إلى الخلق والتقدير، ولو ردَّه إلى الأعيان المذكورة لقال: تلك ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: لم يخلقه باطلاً، بل إظهارًا لصنعه، ودلالةً على قدرته ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ يؤمنون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون عقابنا، ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فاختاروها وعملوا لها ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ سكنوا إليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: عن أدلتنا غافلون لا يعتبرون، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «عن آياتنا»: عن محمدٍ ﷺ والقرآنِ «غافلون» معرضون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه إضمار، أي: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة. قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نورًا يمشون فيه.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: بين أيديهم. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: قولهم وكلامهم، وقيل: دعاؤهم ﴿فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ وهي كلمة تنزيه، تنزه الله من كل سوء، وروينا: «أن أهل الجنةِ يلهمون الحمدَ والتسبيح، كما يُلهمون النَّفَسَ»[1].

قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة مِيلٌ في مِيل، على كل مائدة سبعون ألف صَحْفَة، وفي كل صَحْفَة لون من الطعام لا يشبه بعضُها بعضًا، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله، فذلك قولُه تعالى: «وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ».

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام.

وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام، وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: يفتتحون كلامهم بالتسبيح، ويختمونه بالتحميد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس: هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله، ولا بارك الله فيكم، معناه: لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم بالخير، أي: كما يحبون استعجالهم بالخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لأهلك من دعا عليه وأماته.

وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: «ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ» الآية [الأنفال: ٣٢]، يدل عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) رواه مسلم برقم٢٨٣٥: (٤/ ٢١٨٠ - ٢١٨١).

﴿يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون البعث والحساب ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

عن همام بن منبِّه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تُخْلِفَنِيْه، فإنَّما أنا بشر فيصدر مني ما يصدر من البشر، فأيّ المؤمنين آذيتُه أو شتمته أو جلدتُه أو لعنته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً، تقرّبه بها إليك يوم القيامة»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الجَهْد والشدة ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: على جنبه مضطجعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ يريد في جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ دفعنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرٍّ مَّسَّه، أي: لم يطلب منا كشف ضُرٍّ مَّسَّه ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفرِ والمعصية ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من العصيان.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أهلكناهم بكفرهم ﴿نَجْزِى﴾ نعاقب ونهلك ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين، بتكذيبهم محمدًا ﷺ، يخوِّف كفار مكة بعذابِ الأُمم الخالية المكذبة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: خلفاء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد القرون التي أهلكناهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهو أعلم بهم.

وروينا عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنَّ هذه الدنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قال قتادة: يعني: مشركي مكة، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ترك عبادة اللاَّتِ والعُزَّى ومَناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقلْ أنت من عند

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ١٧١)، ومسلم برقم٢٦٠١: (٤/ ٢٠٠٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٧٤٢: (٤/ ٢٠٩٨).

نفسك ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حرام حلالاً، أو مكان حلالٍ حرامًا ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ من قِبَلِ نفسي ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ أي: ما أتبع إلاَّ ما يُوحى إليَّ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليَّ ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ أي: ولا أعلمكم الله.

﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ حينًا: وهو أربعون سنة ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنه ليس من قِبَلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة، ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكًا أو ولدًا ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ لا ينجو المشركون.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ إن عصوه وتركوا عبادته ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ إن عبدوه، يعني: الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ الله صحته، ومعنى الآية: أَتُخْبِرُونَ الله أن له شريكًا، أو عنده شفيعًا بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكًا؟! ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: على الإسلام، ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ وتفرقوا إلى مؤمن وكافر ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن جعل لكل أُمَّة أجلاً، ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ على ما نقترحه ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لَمْ يفعلْ ذلك ولا يعلمه إلا هو، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزولها ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الكفار ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ أي: راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء، ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ أي: أصابتهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: تكذيب واستهزاء.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أعجل عقوبة وأشد أخذًا وأقدر على الجزاء، يريد: عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ حفظتنا ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يجريكم ويحملكم، ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ على ظهور الدواب ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على الفلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ يعني: جرت السفن بالناس، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ليِّنة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: بالريح ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ﴾ أي: جاءت الفلك ريحٌ ﴿عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، ﴿وَجَآءَهُمُ﴾ يعني: ركبانَ السفينة ﴿ٱلْمَوْجُ﴾ وهو حركة الماء واختلاطه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دَنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحدًا سوى الله، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الريح العاصف ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك بالإيمان والطاعة.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عزَّ وجلَّ في الأرض ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالفساد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: هذا متاع الحياة الدنيا.

ومعناه: إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا، لا يصلح زادًا لمعادٍ؛ لأنكم تستوجبون به غضب الله.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في فنائها وزوالها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الحشيش ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنَها وبهجتَها وظهر الزهرُ أخضر وأحمر وأصفر وأبيض ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: تزينت، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ على جذاذِها وقطافِها وحصادِها، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا بإهلاكها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: محصودة مقطوعة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ كأن لم تكن بالأمس، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال قتادة: «السلام» هو الله، وداره: الجنة، وقيل: «السلام» بمعنى السلامة، سُمِّيت الجنة دارَ السلام؛ لأنَّ من دخلها سَلِمَ من الآفات، وقيل: المراد بالسلام التحية، سُمِّيت الجنة دار السلام؛ لأنَّ أهلها يُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، والملائكة تسلم عليهم، قال الله تعالى: «وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم» [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

ورُوينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: مثله كمثل رجل بَنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومَنْ لمْ يُجِبِ الداعي: لم يدخل الدار ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا: أوِّلُوهَا له يَفْقَهْهَا، قال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إن العينَ نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: فالدارُ الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فرّقَ بين الناس»(١).

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالصراط المستقيم هو الإسلام، عمَّ بالدعوة؛ لإظهار

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٤٩).

الحجة، وخُصَّ بالهداية؛ استغناءً عن الخلق.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنَى، وهي الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم.

عن صُهيب ـ رضي الله عنه ـ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ»، قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ نادى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ إنَّ لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزَكُمُوه، قالوا: ما هذا الموعود؟ ألَمْ يثقِّلْ موازيننا، ويبيِّضْ وجوهَنا، ويدخلْنَا الجنةَ، ويُجِرْنَا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، قال: فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه»[1].

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبار، جمع قترة، قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هَوَانٌ، قال قتادة: كآبة، قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي: لهم مثلها، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ و«مِنَ» صلة، أي: ما لهم من الله عاصم ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ أُلبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ جمع قطعة ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ نصبت على الحال دون النعت، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي: الزمُوا مكانَكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ يعني: الأوثان، معناه: ثم نقول للذين أشركوا: الزمُوا أنتم وشركاؤكم مكانَكم، ولا تبرحوا ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ميَّزنا وفرَّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المشركين وشركائهم، وقطَعْنَا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وذلك حين يتبرأ كلُّ معبودٍ من دون الله ممن عبده ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ يعني: الأصنام ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بطلبتنا، فيقولون: بلى، كنا نعبدكم، فتقول الأصنام:

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ما كنا عن عبادتكم إيَّانا

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٨١ - ١٨٢: (١/ ١٦٣).

إلا غافلين، ما كنَّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا﴾ أي: تختبر، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ صحيفتها، وقيل: معناه: تتبع كل نفس ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ ما قدَّمتْ من خير أو شر، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه فيتفرد فيهم بالحكم ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الذي يتولى ويملك أمورهم، فإن قيل: أليس قد قال: «وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ» [محمد: ١١]؟ قيل: المولى هناك بمعنى: الناصر، وهاهنا بمعنى: المالك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ زال عنهم وبطل ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من التكذيب.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: من إعطائكم السمع والأبصار ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقضي الأمر ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذه الأشياء ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي: هكذا ﴿حَقَّتْ﴾ وجبتْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حكمه السابق ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ كفروا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أوثانكم ﴿مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشيء الخلق من غير أصل ولا مثال ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ثم يحييه من بعد الموت كهيئته؟ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ﴾ أنتَ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون عن قصد السبيل.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي﴾ يرشد ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ فإذا قالوا: لا ـ ولابدَّ لهم من ذلك ـ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: إلى الحق.

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ معنى الآية: الله الذي يهدي إلى

الحق أحقُّ بالاتباع أمِ الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يُهْدَى؟ فإن قيل: كيف قال: «إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ»، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يُهْدَى؟!

قيل: معنى الهداية في حق الأصنام: الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تُحمل وتُنقل، يَتَبيَّنُ به عجز الأصنام.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكًا؟

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ منهم يقولون: إن الأصنام آلهة، وإنها تشفع لهم في الآخرة ظنًّا منهم، لم يَرِدْ بِهِ كتابٌ ولا رسولٌ، وأراد بالأكثر: جميع من يقول ذلك ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء: معناه: وما ينبغي لمثل هذا القرآن أنْ يُفترَى من دون الله.

قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قال أبو عبيدة: «أم» بمعنى الواو، أي: ويقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُۖ﴾ اختلق محمد القرآن من قِبَلِ نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ شبه القرآن ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ممن تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليُعِينُوكم على ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن محمدًا افتراه، ثم قال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ﴾ أي: عاقبة ما وعد اللهُ في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد: أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ أي: كما كذب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذَّب الذين من قبلهم من كفار الأُمم الخالية ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ آخر أمر المشركين بالهلاك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: من قومك من يؤمن بالقرآن ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ لعلم الله

السابق فيهم ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يُؤمنون.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ وجزاؤه ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ وجزاؤه ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بأسماعِهم الظاهرة، فلا ينفعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ يريد: سَمعَ القلبِ ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ بأبصارهم الظاهرة ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يريد: عمى القلب ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وهذا تسلية من الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسْمِعَ من سلبتُه السمعَ، ولا أن تهديَ من سلبتُه البصرَ، ولا أن تُوفق للإيمان من حكمتُ عليه أن لا يُؤمن.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا﴾ لأنه في جميع أفعاله مُتفضِّل عادل ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاَّ قدر ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضُهم بعضًا حين بعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في حياتك مِنَ العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجزيهم به.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ

عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ وكذبوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: عُذِّبُوا في الدنيا وأُهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذبون بغير ذنب، ولا يُؤاخذون بغير حجة، ولا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد على سيئاتهم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول المشركون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنتَ يا محمدُ وأتباعُك.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ لا أقدر لها على شيء ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: دفع ضر ولا جلب نفع ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة مضروبة ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وقت فناء أعمارهم ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ماذا يستعجل من الله المشركون.

﴿أَثُمَّ﴾ قيل: معناه: أهنالك؟ وحينئذ، ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ نزل العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: بالله، في وقت اليأس، وقيل: «ءَامَنتُم بِهِۦٓ»، أي: صدقتم بالعذاب وقت نزوله ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ فيه إضمار، أي: يقال لكم: آلآن تُؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيبًا واستهزاءً.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ أي: نعم وربي ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين من العذاب؛ لأن من عجز عن شيء فقدْ فاته.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ

أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: أشركت ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ يوم القيامة، والافتداء هاهنا: بذل ما ينجو به من العذاب ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: أظهرُوا الندامة؛ لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبُّرٍ وتصنُّع، ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ فرغ من عذابهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ تذكرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواء للجهل، لما في الصدور، أي: شفاء لعَمَى القلوب، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والرحمة: هي النعمة على المحتاج.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: مما يجمعه الكفار من الأموال.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لكفار مكة: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ عبَّر عن الخَلْقِ بالإنزال؛ لأن ما في الأرض من خير فمما أُنزل من السماء من رزق، من زرع وضرع ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ هو ما حرموا من الحرث ومن الأنعام: كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا التحريم والتحليل ﴿أَمْ﴾ بل ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وهو قولهم: «وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا» [سورة الأعراف: ٢٨].

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أنَّ الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم

عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾ عمل من الأعمال، وجمعه: شُؤون ﴿وَمَا تَتْلُوا۟﴾ من الله ﴿مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ نازلٍ، ثم خاطبه وأُمَّته فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تدخلون وتخوضون فيه، الهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يغيب عن ربك، ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: مثقال ذرة، و«من» صلة، والذرة هي: النملة الحميراء الصغيرة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم، قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وقال قوم: هم المتحابُّون في الله عزَّ وجلَّ.

عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إنَّ للهِ عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيُّون والشهداء؛ لقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمىٰ بيديه ثم قال: حدِّثْنَا يا رسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيتُ في وجه النبي ﷺ البِشْرَ، فقال: «هُمْ عبادٌ مِنْ عبادِ الله، من بلدانٍ شتَّى وقبائل، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورًا، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون»[(١)].

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ اختلفوا في هذه البشرى: رُوي عن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: «لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»[(٢)].

عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ من النبوةِ إلاَّ المُبَشِّرات»، قالوا: وما المبشراتُ؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ»[(٣)].

عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يا رسول الله، الرجل يعمل لنفسه ويحبه الناس؟ قال: تلكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن، وأخرج مسلم بن الحجاج هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق: (١١/ ٢٠١ - ٢٠٢)، والطبري: (١٥/ ١٢٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٤١، ٣٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ٥٥٤)، وابن ماجه برقم(٣٨٩٨): (٢/ ١٢٨٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (٢/ ٣٤٠)، (٤/ ٣٩١)، والدارمي في الرؤيا: (٢/ ١٢٣)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣١٥، ٣٢١).

(٣) أخرجه البخاري: (١٢/ ٣٧٥).

الحديث عن يحيى بن يحيى عن حماد بن زيد عن أبي عمران، وقال: «ويحمده الناس عليه»[(١)].

وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» [فصلت: ٣٠].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لقوله، ولا خُلْفَ لوعده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: قول المشركين تمَّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ، فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ يعني: الغلبة والقدرة لله ﴿جَمِيعًا﴾ هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم.

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ هو استفهام معناه: وأيّ شيءٍ يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟

وقيل: وما يتبعون حقيقة؛ لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا، وليس على ما يظنون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يظنون أنها تُقرِّبهم إلى الله تعالى ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا يبصر فيه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سمعَ الاعتبار أنه مما لا يقدر عليه إلاَّ عالم قادر.

﴿قَالُوا﴾ يعني: المشركين: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهو قولهم: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ عبيدًا وملكًا ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ ما عندكم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان، ﴿بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لا ينجون، ولكن:

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٤٢: (٤/ ٢٠٣٤ - ٢٠٣٥).

﴿مَتَٰعٌ﴾ قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ وهم ولد قابيل ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ عَظُمَ وثَقُلَ عليكم ﴿مَّقَامِي﴾ طول مكثي فيكم ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ ووَعْظِي إيَّاكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بحججه وبيناته، فعزمتم على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ أي: أحكموا أمركم واعْزِمُوا عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: وادعوا شركاءَكم، أي: آلهتكم، فاستعينوا بها لتجتمع معكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: خفيًّا مبهمًا، ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أي: أمْضُوا ما في أنفسكم وافرغوا منه.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تؤخرون، وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقًا بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علمًا منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر إلا أن يشاء الله.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أعرضتم عن قولي وقَبُولِ نصحي ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم﴾ على تبليغ الرسالة والدعوة ﴿مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ جُعْلٍ وعِوَض ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ ما أجري وثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: من المؤمنين، وقيل: من المستسلمين لأمر الله.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: نوحًا ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا﴾ أي: من بعد نوح رسلاً ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: بما كذب به قوم نوح من قبل ﴿كَذَٰلِكَ

نَطْبَعُ﴾ أي: نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يعني: أشراف قومه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ يعني: جاء فرعون وقومه ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ تقدير الكلام: أتقولون للحقِّ لما جاءكم: سحر، أسحر هذا؟! فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: فرعون وقومه لموسى ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا، وقال قتادة: لتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ الملك والسلطان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدِّقين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ لم يصدِّق موسى مع ما أتاهم به من الآيات ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ اختلفوا في الهاء التي في «قومه»، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم: مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه، قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، هلك

الآباء وبقي الأبناء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون، روى عطية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هم ناسٌ يسيرٌ من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطته.

قال الفرَّاء: سُمّوا ذرية؛ لأن آباءهم كانوا من القبط وأُمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء؛ لأن أُمهاتهم من غير جنس آبائهم.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ﴾ قيل: أراد بفرعون: آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم، ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم عن دينهم، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ لمتكبر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدّ؛ لأنه كان عبدًا فادَّعى الربوبية.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمؤمني قومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تُظهرْهم علينا، ولا تُهلكنا بأيديهم، فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانًا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: تَبوَّأ فلان لنفسه بيتًا ومضجعًا إذا اتخذه، وبَوَّأْتُه أنا إذا اتخذتُه له ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبِيَعِهم، وكانت ظاهرة، فلما أُرسل موسى أَمَرَ فرعونُ بتخريبها ومنعهم من الصلاة، فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفًا من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس.

وروى ابن جريج عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت الكعبة قِبْلَةَ موسى ومَن معه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يا محمد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَمْوَٰلًا فِى

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾: آتيتهم كي تفتنهم فيضلوا ويُضلوا.

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال مجاهد: أهْلِكها، والطمس: المَحْق، وقال أكثر أهل التفسير: امسخها وغيِّرها عن هيئتها، وقال قتادة: صارت أموالهم وحروثُهم وزروعُهم وجواهرُهم حجارةً.

قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة، والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أقْسِهَا واطبعْ عليها؛ حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ قال الفراء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهو الغرق، قال السدي: معناه: أمِتْهُم على الكفر.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ إنما نسب إليهما، والدعاء كان من موسى؛ لأنه رُوي أن موسى كان يدعو وهارون يُؤمِّن، والتأمين دعاء، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ نهي بالنون الثقيلة، ومحله جزم، ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وَعْدي، فإن وعدي لا خُلفَ فيه، ووعيدي نازل بفرعونَ وقومِه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ عبرنا بهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لحقهم وأدركهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلمًا واعتداءً، وقيل: بغيًا في القول وعدوًا في الفعل، وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس وَدِيْقٍ وخاض البحر، فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهمَّ أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: غمره الماء وقرب هلاكه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فدسَّ جبريلُ عليه السلام في فِيْهِ مِنْ حمأة البحر.

وقال: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ ورُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل ﷺ: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فِيْهِ مخافة أن تدركه الرحمة»(١)، فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرًا كأنّه ثور، فرآه بنو إسرائيل، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماءُ مَيْتًا، فذلك قوله:

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نُلقيك على نجوة من الأرض، وهي: المكان المرتفع، ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بجسدك لا روح فيه، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عِبرةً وعظةً ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أنزلنا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل صدق، يعني: مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ الحلالات ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ يعني: اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ في تصديقه وأنه نبي ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يعني: القرآن والبيان بأنّه رسولُ ﷺ صدق ودينُه حق.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين.

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة.

قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره، على عادة العرب: فإنهم يخاطبون الرجل

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٢٢٥)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٥٧٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (١/ ٥٧)، (٤/ ٢٤٩)، وابن حبان: ص٤٣٢.

ويريدون به غيره.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني: من آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، فيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوَّته.

قال الفرَّاء: عَلِمَ الله سبحانه وتعالى أن رسوله غيرُ شاكٍّ، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد منهم لعبده: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إن كنتَ ابني، ولا يكون ذلك على وجه الشك.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ من الشاكِّين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وهذا كله خطاب مع النبي ﷺ والمراد منه غيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وجبتْ عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قيل: لعنته، وقال قتادة: سخط الله، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ دلالة ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ أي: فهلا كانت ﴿قَرْيَةٌ﴾ ومعناه: فلم تكن قرية؛ ﴿ءَامَنَتْ﴾ عند معاينة العذاب ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ في حالة البأس ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنه نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم.

واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عيانًا أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب، والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عيانًا، بدليل قوله: «كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ»، والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُب.

وقصة الآية ـ على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم ـ أن قوم يونس كانوا بنينوى، من أرض الموصل، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان، فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذبًا فانظرُوا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ، وذلك أنه كان حريصًا على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جلَّ ذكره: أنه لا يؤمن إلاَّ مَن قد سبق له من الله السعادة، ولا يضل إلاَّ من سبق له الشقاوة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ وما ينبغي لنفس، وقيل: ما كانت نفس ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ قال

ابن عباس: بأمر الله، وقال عطاء: بمشيئة الله، وقيل: بعلم الله ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: ويجعل الله الرجسَ، أي: العذاب وهو الرجز ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله أمره ونهيه.

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ أي: قلْ للمشركين الذين يسألونك الآيات: انظروا ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ من الآيات والدلائل والعبر، ففي السموات: الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض: الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ الرسل ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا في قومٍ عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من مكذبي الأمم، ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ معهم عند نزول العذاب، معناه: نجينا، مستقبلٌ بمعنى الماضي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما نجيناهم ﴿حَقًّا﴾ واجبًا ﴿عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ الذي أدعوكم إليه.

فإن قيل: كيف قال: إن كنتم في شك، وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟

قيل: كان فيهم شاكُّون، فهم المراد بالآية، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمرهم وأمر النبي ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي

﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يميتكم ويقبض أرواحكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قال ابن عباس: عملك، وقيل: استقم على الدين حنيفًا ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ﴾ ولا تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن أطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فعبدت غيرَ الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الضارين لأنفسهم، الواضعين للعبادة في غير موضعها.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: يصبك بشدة وبلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا دافع له ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ رخاء ونعمة وسَعة ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا مانع لرزقه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بكل واحد من الضر والخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن والإسلام ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، ووباله عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بكفيلٍ: أحفظ أعمالكم.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بنصرك وقهر عدوك وإظهار دينه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يَدٍ وهم صاغرون.

سورة هود

مكيّة إلا قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ وهي مائة وثلاث وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ بالأحكام والحلال والحرام، وقال الحسن: «أُحْكِمَتْ»: بالأمر والنهي، ثم «فُصِّلَتْ» بالوعد والوعيد، قال قتادة: «أُحْكِمَتْ»: أحكمها الله، فليس فيها اختلاف ولا تناقض، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وفي ذلك الكتاب: أنْ لا تعبدوا إلا الله، ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ للعاصين ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين.

﴿وَأَنِ﴾ عطف على الأول ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة، قال

الفرَّاء: «ثم» هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار. ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يعيشكم عيشًا حسنًا في خفض ودعة وأمن وسعة، قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين الموت ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة.

وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شُريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يَلْقَى رسولَ الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه على ما يكره.

قوله: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ»، أي: يُخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة.

قال عبد الله بن شداد: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأطأ رأسه وغطَّى وجهه؛ كي لا يراه النبي ﷺ.

﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: من رسول الله ﷺ، قال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطون رؤوسهم بثيابهم ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قال الأزهري: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم.

قال ابن عباس: كان أُناس يستحيون أن يتخلَّوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليس دابة. ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: هو المتكفل بذلك فضلاً، وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال ابن

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٤٩).

مقسم: ويُروَى ذلك عن ابن عباس، «مُسْتَقَرَّهَا»: المكان الذي تأوي إليه، وتستقر فيه ليلاً ونهارًا، «وَمُسْتَوْدَعَهَا»: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت.

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: المستقر أرحام الأمهات، والمستودع المكان الذي تموت فيه. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كل مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن خلق السماء والأرض، وكان ذلك الماء على متن الريح. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم، وهو أعلم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أعْمَلُ بطاعة الله، وأوْرَعُ عن محارم الله تعالى ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمد ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي: ﴿مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون: القرآن.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى أجل محدود، وأصل الأمة: الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أُمة ومجيء أُمة أخرى ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أيُّ شيءٍ يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً، يعنون: أنه ليس بشيء.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ يعني: العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ لا يكون مصروفًا عنهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وبال استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة وسعة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبناها منه ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ قنوط من الشدة ﴿كَفُورٌ﴾ في النعمة.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ بعد بلاء أصابه ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ زالت الشدائد عني ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أشِرٌ بَطِرٌ، والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى، والفخر: هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهيٌّ عنه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: لكنَّ الذين صبرُوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ فلا تبلِّغه إياهم، وذلك أن كفار مكة لما قالوا: «فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ...»، يعني: سب الآلهة ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ أي: فلعلك يضيق صدرك ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ أي: لأن يقولوا ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ ينفقه ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ ليس عليك إلا البلاغ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ حافظ.

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ بل يقولون: اختلقه ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾.

فإن قيلَ: قد قال في سورة يونس: «فأْتُوا بسورةٍ مثلِهِ» وقد عجزوا عنه، فكيف قال: «فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ»؟! فهو كرجل يقول لآخر: أعطِني درهمًا فيعجز، فيقول: أعطِني عشرة؟!

الجواب: قد قيل سورة هود نزلت أولاً.

وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس: «فأْتُوا بسورةٍ مثلِهِ»، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا، فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأْتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ واستعينوا بمن استطعتم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ يا أصحاب محمد، وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ قيل: هذا خطاب مع المؤمنين، وقيل: مع المشركين ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن، وقيل: أنزله وفيه علمه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت في كل من عمل عملاً يريد به غير الله عزَّ وجلَّ ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ أي: نُوَفِّ لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ أي: في الدنيا لا ينقص حظهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: في الدنيا ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

اختلفوا في معنى هذه الآية: قال مجاهد: هم أهل الرياء. وروينا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[1].

ورُوينا عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يظلم المؤمنَ حسنةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكنْ له حسنة يُعطى بها خيرًا»[2].

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو مَنْ كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بينة من ربه: النبيُّ ﷺ.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: يتبعه من يشهد به بصدقه، واختلفوا في هذا الشاهد، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام.

وروى ابن جريج، عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده.

وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ.

وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبلِ مجيء محمد ﷺ، وقيل: من قبل نزول القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: كان كتاب موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها، يعني: التوراة، وهي مصدقة للقرآن، شاهدة للنبي ﷺ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ، وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/٤٢٨ - ٤٢٩)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/١٠٢): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٨٠٨: (٤/٢١٦١).

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ، وقيل: بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من الكفار من أهل الملل كلها ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به إلاَّ كان من أصحاب النار»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك منه ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنَّ له ولدًا أو شريكًا، أي: لا أحد أظلم منه ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يعني: الكاذبين والمكذبين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيسألهم عن أعمالهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنهم الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وهو قول الضحاك.

وقال قتادة: الخلائق كلهم. ورُوينا عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ، حتى إذا قرَّرَهُ بذنوبِهِ ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتابَ حسناته» وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الخلائق، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يمنعون عن دين الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ قال ابن عباس: سابقين، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أنصارًا وأعوانًا يحفظونهم من عذابنا ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: يزاد في عذابهم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٥٣: (١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٩٦)، وأخرجه مسلم برقم٢٧٦٦: (٤/ ٢١٢٠).

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهُدَى، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أخبر الله عزَّ وجلَّ أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: «مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ»، وهو طاعتُه، وفي الآخرة قال: «فلا يستطيعون» خاشعة أبصارهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ غَبَنُوا أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ قال ابن عباس: خافوا، قال قتادة: أنابوا، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لربهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ قال الفراء: لم يقل هل يستوون؛ لأن الأعمى والأصم في حيِّزٍ كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف المؤمن ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: مؤلم.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ والملأ هم الأشراف والرؤساء ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ آدميًا ﴿مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ سَفَلَتُنا، ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكر، ولو تفكروا لم يتبعوك، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بيان من ربِّي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ أي: هدى ومعرفة ﴿مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت والتبست عليكم، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنلزمكم البينة والرحمة ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تريدونها.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: صائرون إلى ربهم في المعاد فيجزي من طردهم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ من يمنعني من عذاب الله ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فآتي منها ما تطلبون ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما تريدون، وقيل: إنهم لما قالوا لِنُوح: إن الذين آمنوا بِكَ إنما اتَّبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مجيبًا لهم: ولا أقول لكم عندي خزائن غيوب الله، التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب، فأعلم ما يسترونه في نفوسهم، فسبيلي قَبُول ما ظهر من إيمانهم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ هذا جواب قولهم: «ما نراك إلا بشرًا مثلَنا» ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحقره وتستصغره أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: توفيقًا وإيمانًا وأجرًا ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الخير والشر مني ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لو قلتُ هذا.

﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ يعني: بالعذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بِفائِتِين.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ أي: نصيحتي ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ يضلكم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ له الحكم والأمر ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: نوحًا عليه السلام، وقال مقاتل:

يعني: محمدًا ﷺ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: إثمي ووبال جُرمي، والإجرام: كسب الذنب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ لا أُؤاخذُ بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحًا حتى يسقط، فيلقونه في لَبَدٍ، ويلقونه في قعر بيت، يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فإنِّي مهلكهم ومنقذك منهم، فحينئذ دعا نوح عليهم فقال: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: ٢٦].

وحكى محمد بن إسحاق، عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: ربِّ اغفرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل، فلا يأتي قرن إلاَّ كان أخبث من الذي قبله، حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونًا لا يقبلون منه شيئًا، فشكا إلى الله تعالى فقال: «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا» إلى أن قال: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا»، فأوحى الله تعالى إليه:

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال ابن عباس: بمرأى منَّا، ﴿وَوَحْيِنَا﴾ بأمرنا ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطوفان، قيل: معناه: لا تخاطبني في إمهال الكفار، فإني قد حكمت بإغراقهم، وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك وَاعِلة فإنهما هالكان مع القوم.

وفي القصةِ أن جبريل أتى نوحًا عليه السلام فقال: إن ربَّك عزَّ وجلَّ يأمرك أن تصنع الفلك، قال: كيف أصنع ولستُ بنجارٍ؟ فقال: إن ربَّك يقول: اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدوم وجعل يصنع ولا يخطىء، وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولَهَا عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القارّ وغيره، وجعل قومه يمرُّون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح، قد صرت نجارًا بعد النبوة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد.

وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين، وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة

بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ كانوا يقولون: إنَّ هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارًا، ورُوي أنهم كانوا يقولون له: يا نوح، ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتًا يمشي على الماء، فيضحكون منه ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذا عاينتم عذاب الله ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني: إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم، وقيل: معناه: إن تسخروا منَّا فسترون عاقبة سخريتكم.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهينه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ يجب عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء فارَ على وجه الأرض فاركبِ السفينة.

وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين.

قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة، وكان الشعبي يحلف: ما فار التنور إلاَّ من ناحية الكوفة، وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فورانُ الماء منه عَلَمًا لنوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، والمراد بالزوجين هاهنا: الذكر والأنثى.

وفي القصة: أن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: يا ربِّ كيفَ أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه السباعَ والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحملْ أهلكَ، أي: ولدك وعيالك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالهلاك، يعني: امرأته وَاعِلة وابنه كنعان ﴿وَمَنْ ءَامَنَۚ﴾ يعني: واحمل من آمن بك، كما قال الله تعالى:

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب

القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر: نوح، وامرأته، وثلاثة بنين له: سام وحام ويافث، ونساؤهم.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أي: وقال لهم نوح: اركبوا فيها، أي: في السفينة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بسم الله جريها ورسوها، وهما مصدران، ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسوَ قال: بسم الله، فرست.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبّهه بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام، وكان كافرًا ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عنه، لم يركب في السفينة: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فتهلك.

قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

﴿قَالَ﴾ له ابنه: ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ سأصير وألتجىء ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يمنعني من الغرق ﴿قَالَ﴾ له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ قيل: «من» في محل الرفع، أي: لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم، وقيل: «من» في محل النصب، معناه: لا معصوم إلا من رحمه الله، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ فصار ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

ورُوي أن الماء علا رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعًا، وقيل: خمسة عشر ذراعًا.

﴿وَقِيلَ﴾ يعني: بعدما تناهى أمر الطوفان: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ تَشَرَّبي ﴿مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أمسكي ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص ونضب، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فرغ من الأمر وهو هلاك القوم ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ يعني: السفينة استقرت ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هلاكًا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وَقَدْ وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالهلاك.

﴿قَالَ﴾ الله عزَّ وجلَّ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ معناه: أن سؤالك إيَّاي أن أنجيه عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ يا نوح ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه، وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وقوله: «إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ»، أي: من أهل الدين؛ لأنه كان مخالفًا له في الدين، وقوله: «فَخَانَتَاهُمَا»، أي: في الدين والعمل الصالح لا في الفراش.

وقوله: «إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ»، يعني: أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر.

قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ انزل من السفينة ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: بأمن وسلامة منَّا، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ البركة هي: ثبوت الخير، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ أي: على ذرية أُمم ممن كان معك في السفينة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ هذا ابتداء، أي: أُمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أخبار الغيب ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ من قبل نزول القرآن ﴿فَٱصْبِرْ ۖ﴾ على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ آخر الأمر بالسعادة والنصرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحِّدُوا الله ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ما أنتم في

إشراككم إلاَّ كاذبون.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾ جُعْلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: آمنوا به، والاستغفار هاهنا بمعنى الإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يرسل المطر عليكم متتابعًا، مرة بعد أُخرى في أوقات الحاجة ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: شدة مع شدتكم، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر، فتزدادون مالاً، ويعيد أرحام الأُمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد، وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة البدن ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تدبروا مشركين.

قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: أصابك، يعني: لست تتعاطى ما نتعاطاه من مخالفتنا وسبِّ آلهتنا إلاَّ أن بعض آلهتنا اعتراك ﴿بِسُوٓءٍ﴾ أي: أصابك بخبلٍ وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل، لا نحمل أمرك إلا على هذا ﴿قَالَ﴾ لهم هود: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ يا قوم ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأوثان ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ فاحتالوا في مكركم وضري أنتم وأوثانكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تؤخرون ولا تمهلون.

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ قال الضحاك: يحييها ويميتها. وقال الفرَّاء: مالكها والقادر عليها.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يعني: إن ربي وإن كان قادرًا عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلا بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: تتولوا، يعني: تعرضوا عمَّا دعوتُكم إليه ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: إن أعرضتم يهلككم الله عزَّ وجلَّ، ويستبدل بكم قومًا غيركم أطوع منكم، يوحِّدُونه ويعبدونه ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾ بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ بنعمة ﴿مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ وهو الريح التي أهلك بها عادًا.

﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ﴾ ردَّه إلى القبيلة ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ يعني: هودًا وَحْدَهُ، ذكره بلفظ الجمع؛ لأن من كذَّبَ رسولاً كان كمَن كذَّب جميع الرسل ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ أي: واتبع السفلة والسقاط أهل التكبر والعناد، والجبار: المتكبر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق.

وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ أي: أُرْدِفُوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطَّرد عن الرحمة ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: وفي يوم القيامة ـ أيضًا ـ لُعنوا كما لُعنوا في الدنيا والآخرة ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ أي: بربهم، ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ قيل: بعدًا من رحمة الله، وقيل: هلاكًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحِّدُوا الله عزَّ وجلَّ ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتدأ خلقَكُم من الأرض، وذلك أنهم من آدم عليه السلام، وآدم خُلق من الأرض ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمَّارَها وسُكَّانَها.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ من المؤمنين ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعائهم.

﴿قَالُوا﴾ يعني: ثمود: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ القول، أي: كنَّا نرجو أن تكون سيدًا فينا، ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من قبلُ، من الآلهة ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موقع للريبة والتهمة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة وحكمة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من يمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ قال ابن عباس: معناه: غير بصارة في خسارتكم.

قال الحسين بن الفضل: لم يكن صالح عليه السلام في خسارة حتى قال: «فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ»، وإنما المعنى: ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إيَّاكم إلى الخسارة.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ نصب على الحال والقطع، وذلك أن قومَهُ طلبوا منه أن يخرج ناقةً عُشَراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة، فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولدًا مثلها، فهذا معنى قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ من العشب والنبات فليست عليكم مؤونتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تصيبوها بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إن قتلتموها ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي: في دياركم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم تهلكون ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير كذب.

رُوي أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتُصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مُصْفَرَّة، وفي اليوم الثاني مُحْمَرَّة، وفي اليوم الثالث مسودَّة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ بنعمة منَّا ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: من عذابه وهوانه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الصَّيْحَةُ﴾ وذلك أنَّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة

فهلكوا جميعًا ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ صَرْعَى هَلْكَى.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ يقيموا ويكونوا فيها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أراد بالرسل الملائكة، قال السدي: كانوا أحد عشر مَلَكًا على صورة الغلمان الوضاء وجوههم ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: سلَّموا سلامًا ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ والحنيذ والمحنوذ: هو المشوي على الحجارة في خَدٍّ من الأرض، وكان سمينًا يسيل دسمًا.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى العجل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفًا، قال مقاتل: وقع في قلبه، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم إنا رسل ربك، يعني: ﴿إِنَّآ﴾ ملائكة الله ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران بن أحور وهي ابنة عم إبراهيم ﴿قَآئِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف.

قال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنِّها وسنِّ زوجها.

وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأتُه قائمةٌ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكتْ، وقالت: يا ويلتى أألِدُ وأنا عجوزٌ؟

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ أي: من بعد إسحاق ﴿يَعْقُوبَ﴾ أراد به والد الولد فبشرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها، فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجبًا.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ نداء ندبة، أي: يا عجبًا، والأصل: يا ويلتاه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد: تسعًا وتسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجي، سُمي بذلك؛ لأنَّه قيِّم أمرها ﴿شَيْخًا﴾ نصب على الحال، وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: الملائكة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ معناه: لا تعجبي من أمر الله، فإنَّ الله عزَّ

وجلَّ إذا أراد شيئًا كان ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: بيت إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد: الرفعة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الخوف ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا.

وقال عامة أهل التفسير: معناه: يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتُم إنْ كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطًا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف، فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم:

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أي: أعرض عن هذا المقال ودعْ عنك الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: عذاب ربِّك وحكم ربِّك ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ﴾ نازل بهم ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي: غير مصروف عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعني: هؤلاء الملائكة ﴿لُوطًا﴾ على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي: حزن لوط بمجيئهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: قلبًا، وذلك أن لوطًا عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد، كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شدَّ.

قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية لوط فأتوا لوطًا نصف النهار، وهو في أرض له يعمل فيها.

ورُوي: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قط.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ

ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يسرعون إليه.

﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يعني: بالتزويج، وقى أضيافه ببناته.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أي: خافوا الله ولا تخزونِ في ضيفي، أي: لا تسوؤني ولا تفضحُوني في أضيافي ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ صالح سديد، قال عكرمة: رجل يقول: لا إله إلا الله، وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي: لسن أزواجًا لنا فنستحقهن بالنكاح، وقيل: معناه مَا لَنَا فيهن من حاجة وشهوة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الرجال.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط عند ذلك: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أراد: قوة البدن، أو القوة بالأتباع ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ أي: انضم إلى عشيرةٍ مانعة، قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبيًّا إلا في منعة من عشيرته.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «يغفرُ اللهُ للوطِ إنْ كانَ ليأْوي إلى رُكْنٍ شديدٍ»(١).

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوطٌ بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوُّرَ الجدار، فلما رأتِ الملائكة ما يلقى لوطٌ بسببهم:

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ إن رُكنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ فافتح الباب ودعنا وإيَّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربَّه عزَّ وجلَّ في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو بَرَّاق الثنايا، أجلَى الجبين، ورأسه حُبُك مثل المرجان، كأنه الثلج بياضًا وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منَّا غدًا، يُوعِدُونه، فقال لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم، فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا: «﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾»؟ ثم قالوا: ﴿فَأَسۡرِ﴾ يا لوط ﴿بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤١٥).

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تَسْرِ بِهَا وخلِّفْها مع قومها، فإنَّ هَوَاهَا إليهم.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحيه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف، وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، فلم يُكفأ لهم إناءٌ ولم ينتبه نائمٌ، ثم قَلَبها فجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على شذاذها ومسافريها، وقيل: بعدما قلبها أمطر عليها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. قال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طينًا فشددت.

قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: متتابع. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ من نعت الحجارة، وهي نصب على الحال، ومعناها: معلمة، قال ابن جريج: عليها سيما لا تُشاكِلُ حجارة الأرض. ﴿عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ﴾ يعني: تلك الحجارة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من مشركي مكة ﴿بِبَعِيدٍ﴾ وقال قتادة وعكرمة: يعني: ظالمي هذه الأمة، واللهِ ما أجار اللهُ منها ظالمًا بعدُ.

ورُوي: أن الحجر اتُّبع شذاذهم ومسافريهم أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر معلقًا في السماء أربعين يومًا حتى خرج فأصابه فأهلكه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: وأرسلنا إلى ولد مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُطفِّفون مع شِركهم، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ قال ابن عباس: موسرين في نعمة ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يحيط بكم فيهلككم.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموهما ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ لا تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خيرٌ مما تأخذونه بالتطفيف، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ بوكيل، وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ من الأوثان، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، لذلك قالوا هذا، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾ من الزيادة والنقصان.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أرادوا: السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضده فتقول للَّديغ: سليم، وللفلاة: مفازة، وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيرة وبيان ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِلَّا الْإِصْلَٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع فيما ينزل بي من النوائب، وقيل: في المعاد.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنَّكم ﴿شِقَاقِي﴾ خلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: على فعل ما أنهاكم عنه ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ وللودود معنيان، أحدهما: أنه محب للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود، أي: محبوب المؤمنين، وجاء في الخبر: إن شعيبًا عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ وذلك أنه كان ضرير البصر، فأرادوا ضعف البصر ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عشيرتُك، وكان في منعة من قومه ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلْناك، والرجم: أقبح من القتل ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا﴾ عندنا ﴿بِعَزِيزٍ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مكان رهطي أهيب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على تؤدتكم وتمكنكم، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على تمكني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيُّنا الجاني على نفسه، والمخطىء في فعله، فذلك قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يذلّه ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا العذاب ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ أي: كأن لم يقيموا ولم يكونوا ﴿فِيهَآ أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكًا ﴿لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ﴾ هلكت ﴿ثَمُودُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ حجة بينة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ بسديد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ يتقدمهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ﴾ فأدخلهم ﴿ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس المدخل المدخول فيه.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ﴾ أي: في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: العون المعان، وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ خراب، وقيل؛ منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف، وحصيد، أي: انمحى أثره.

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بالعذاب والهلاك ﴿وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعصية ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذاب ربك ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غير تخسير.

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وهكذا ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلِتْهُ»، قال: ثم قرأ: «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ...»(١) الآية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ لعبْرَةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يشهده أهل السماء والأرض.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: وما نُؤخر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ معلوم عند الله.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ﴾ أي: لا تتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة، ومنهم من سبقت له السعادة.

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا على جنازة، فبينا نحن بالبقيع إذْ خرج علينا رسولُ الله ﷺ وبيده مِخْصَرَةٌ، فجاء فجلس، ثم نكتَ بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٥٤)، ومسلم برقم٢٥٨٣: (٤/ ١٩٩٧ - ١٩٩٨).

نفسٍ منفوسةٍ إلاَّ قد كُتِبَ مكانُها من الجنة أو النار، وإلاَّ وقدْ كُتِبَتْ شقيةً أو سعيدة»، قال: فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا يا رسول الله وندعُ العملُ؟ قال: «لا، ولكن اعْمَلُوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما أهل الشقاء فيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فييسَّرون لعمل أهل السعادة»، قال: ثم تلا: «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾» [الليل: ٥ - ١٠][1].

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لابثين مقيمين فيها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الضحاك: ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما وكلُّ ما علاكَ وأظلَّكَ فهو سماء، وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. اختلفوا في هذين الاستثناءين، فقال بعضُهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوبٍ اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء من غير الجنس؛ لأن الذين أخرجوا من النار سعداء استثناهم الله من جملة الأشقياء، وهذا كما روى أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أقوامًا سَفْعٌ من النار بذنوبٍ أصابوها، ثم يدخلهم الله الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ، فيقال لهم: الجَهَنَّمِيُّون»[2].

وعمران بن حصين - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «يخرج قومٌ من النار بشفاعةِ محمدٍ، فيدخلون الجنة، ويسمون الجهَنَّمِيِّين»[3]

وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

۞ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۝١٠٩ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٢٥)، وأخرجه مسلم برقم٢٦٤٧: (٤/ ٢٠٣٩ - ٢٠٤٠).
(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٤١٦)، (١٣/ ٤٣٤).
(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٤١٨).

﴿تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾، أي: رُزقوا السعادة، ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال الضحاك: إلا ما مكثوا في النار حتى أُدخلوا الجنة، قال قتادة: الله أعلم بثنياه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: ليأتين على جهنَّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان، وأما مواضع الكفار فممتلئة أبدًا.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أنهم ضُلاَّل ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾ فيه إضمار، أي: كما كان يعبد ﴿ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من الجزاء ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فَمن مصدق به ومكذب، كما فعل قومك بالقرآن، يُعزِّي نبيَّه ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعُذِّبوا في الحال وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والتهمة.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: استقم على دين ربك، والعمل به، والدعاء إليه كما أمرت ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: ومن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب.

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله، قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قلْ آمنتُ باللهِ ثم استقم»[١].

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني، وقيل: معناه: ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُ.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدُّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها»[٢].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الدين يُسْرٌ ولنْ يشادّ الدينَ أحدٌ إلاَّ

---

(١) أخرجه مسلم برقم٣٨: (١/ ٦٥).
(٢) سيأتي تخريجه قريبًا في ختام السورة.

غلبه، فسدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجة»[1].

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولا تميلوا، والركون: هو المحبة والميل بالقلب، ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ فتصيبكم ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعوان يمنعونكم من عذابه ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح والمغرب، «وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ»: صلاة المغرب والعشاء.

قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعاته، واحدتها زلفة.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

رُوي أنها نزلت في أبي اليَسَر، قال: أتتني امرأة تبتاع تمرًا فقلتُ لها: إن في البيت تمرًا أطيب منه فدخلت معي البيت، فأهويتُ إليها فقبلتها، فأتيتُ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فذكرت ذلك له فقال: استرْ على نفسك وتُبْ، فأتيتُ عمر ـ رضي الله عنه ـ فذكرت ذلك له، فقال: استرْ على نفسك وتُبْ، فلم أصبر فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفتَ غازيًا في سبيل الله في أهله بمثل هذا»؟! حتى ظنَّ أنه من أهل النار. فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ...» الآية، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصةً أم للناس عامةً؟ قال: «بلْ للناس عامةً»[2].

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ»، قال الرجل: يا رسول الله أَلِيَ هذا؟ قال: «لجميع أُمتي كلهم»[3].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي: (٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٥٥).

إلى رمضان مكفراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر»[1].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهرًا ببابِ أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، قال: فكذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا، وقيل: هو إشارة إلى القرآن ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عِظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: لمن ذكره.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: المصلين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ التي أهلكناهم ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ والآية للتوبيخ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: أُولو تمييز، وقيل: أُولو طاعة. ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه: جحد، أي: لم يكن فيهما أُولو بقية ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلاً ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ﴾ نَعِمُوا ﴿فِيهِ﴾ والمترفُ: المُنعم، أي: واتبع الذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: لا يهلكهم بشركهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم، يتعاطون الإنصاف، ولا يظلم بعضهم بعضًا، وإنما يهلكهم إذا تظالموا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على أديان شتى: من بين يهودي، ونصراني ومجوسي، ومشرك.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ معناه: لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق فهم لا يختلفون ﴿وَلِذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٣٣: (١/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ١١)، ومسلم برقم٦٦٧: (١/ ٤٦٢ - ٤٦٣).

﴿خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن وعطاء: وللاختلاف خلقهم، وقال أشهب: سألتُ مالكًا عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

وحاصل الآية: أن أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متفقون، فخلق الله أهل الحق للاتفاق، وأهل الباطل للاختلاف.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وتم حكم ربِّك ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أُممهم نقصُّها عليك لنثبِّتَ به فؤادك، لنزيدك يقينًا ونقوي قلبك، وذلك أنَّ النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا.

وقال غيرهما: في هذه السورة، وهذا قول الأكثرين.

خصَّ هذه السورة تشريفًا، وإن كان قد جاءه الحقُّ في جميع السور.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: وجاءتك موعظة ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أمرُ تهديدٍ ووعيدٍ ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾.

﴿وَانْتَظِرُوا﴾ ما يحل بنا من رحمة الله ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ما يحل بكم من نقمة الله.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ في المعاد.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وثِقْ به ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله قد شبت! فقال ﷺ: «شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشمس كُوِّرتْ»[(١)]. ويُروى: «شيبتني هودٌ وأخواتُها»[(٢)].

سورة يوسف

سورة يوسف عليه السلام مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ١٨٤)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه).

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية»: ص٤٧ عن أبي جحيفة السُّوائي.

عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ أي: البيِّن حلالُه وحرامه، وحدوده وأحكامه.

قال قتادة: مبين ـ والله ـ بركتُه وهداه ورشدُه، فهذا مِنْ بان، أي: ظهر.

وقال الزجّاج: مبيِّنٌ الحَقَّ من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أنزلناه بلغتكم، لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ عليك ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ والقاصُّ: هو الذي يتبع الآثار ويأتي بالخبر على وجهه. معناه: نبيِّن لك أخبار الأُمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان.

وقيل: المراد منه: قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمَّاها أحسن القصص لِمَا فيها من العِبَر والحِكَمِ والنُّكَتِ والفوائد التي تصلح للدِّين والدنيا، من سِيَرِ الملوك والمماليك، والعلماء، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ «ما» المصدر، أي: بإيحائنا إليك ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ﴾ وقد كنت ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: قبل وحينا ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لمن الساهين عن هذه القصة لا تعلمها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ أي: واذكر إذْ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم عبري عُرِّب.

سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف؟ فقال: الأسف في اللغة: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعا في يوسف عليه السلام فسُمِّي به.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابن الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم»[1].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أي: نجمًا من نجوم السماء، ونصب الكواكب على التفسير.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وكان النجوم في التأويل إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً، يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه، والقمر أُمه، قاله قتادة.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤١٩).

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي، فعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا في إهلاكك؛ لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: يزين لهم الشيطانُ، ويحملهم على الكيد؛ لعداوته القديمة.

عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنتُ أرى الرؤيا تهمّني حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الصالحةُ من الله تعالى، والحُلْمُ من الشَّيْطان، فإذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فلا يحدِّثْ به إلاَّ من يحبُّ، وإذا رأى ما يكره ليتعوذْ بالله من شرِّها ومن شرِّ الشيطان، وَلْيَتْفُلْ ثلاثًا، ولا يحدِّثْ به أحدًا فإنها لنْ تضرّ»(١).

عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا جزءٌ من أربعينَ أو ستةٍ وأربعينَ جزءًا من النبوة، وهو على رِجْلِ طائرٍ فإذا حدث بها وقعت»، وأَحْسبُهُ قال: «لا تُحَدِّثْ بها إلا حبيبًا أو لبيبًا»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ربك، يقوله يعقوب ليوسف، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ربُّك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يريد تعبير الرؤيا، سمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل ما يؤول إلى عاقبة الأمر ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يعني: بالنبوة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: على أولاده، فإنَّ أولاده كلهم كانوا أنبياء ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فجعلهما نبيين ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير.

يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في خبره وخبر إخوته. ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام.

وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر، فذكر لهم قصة يوسف،

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢/ ٣٧٣)، ومسلم برقم٢٢٦١: (٤/ ١٧٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود: (٧/ ٢٩٨ - ٢٩٩)، والترمذي: (٦/ ٥٥٨ - ٥٥٩)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه برقم٣٩١٤: (٢/ ١٢٨٨)، وصححه الحاكم: (٤/ ٣٩٠) ووافقه الذهبي.

فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منها، فهذا معنى قوله: «ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ»، أي: دلالة على نبوة رسول الله ﷺ.

وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف، وما آل إليه أمرُهم في الحسد، وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق، وفي السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد، وغير ذلك من الآيات.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ﴾ اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف ﴿وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ كان يوسف وأخوه بنيامين من أُم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، وكانوا عشرة. قال الفراء: العصبة هي العشرة فما زاد.

وقيل: جماعة يتعصب بعضها لبعض، لا واحد لها من لفظها كالنَّفَرِ والرَّهْط.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خطأ بيِّن في إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد منه الضلال عن الدين، ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه: الخطأ في تدبير أمر الدنيا، يقولون: نحن أنفع له في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه، فنحن أولى بالمحبة منه، فهو مخطىء في صرف محبته إليه.

ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: إلى أرض يُبْعدُ عن أبيه، وقيل: في أرض تأكله السباع.

﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ يخلصْ لكم ويَصْفُ لكم ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن شغله بيوسف ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد قتل يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين، أي: توبوا بعدما فعلتم هذا يعفُ الله عنكم، وقال مقاتل: يُصْلِحْ أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ وهو يهوذا، وقال قتادة: روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سنًّا وأحسنهم رأيًا فيه، والأول أصح أنه يهوذا، نهاهم عن قتله، وقال: القتل

كبيرة عظيمة ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ والغيابةُ: كلُّ موضع ستر عنك الشيء وغيَّبه، والجُبُّ: البئر غير المطوية لأنه جُبَّ، أي: قطع ولم يطوَ. ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه، والالتقاط: أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أُخرى، فتستريحوا منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن عزمتم على فعلكم، وهم كانوا يومئذ بالغين، ولم يكونوا أنبياء بعد.

وقيل: لم يكونوا بالغين، وليس بصحيح، بدليل أنهم قالوا: «وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ».

وقال محمد بن إسحاق: اشتمل فعلهم على جرائم من: قطع الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله.

﴿قَالُوا۟﴾ ليعقوب: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه؟ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا لأبيهم: «أرسله معنا» فقال أبوهم: «إني ليحزنني أن تذهبوا به»، فحينئذ قالوا: «مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ» النصح هاهنا هو: القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، معناه: إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، نحفظه حتى نردّه إليك.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾. والرتع: هو الاتساع في الملاذ، يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد: ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهوا وننشط. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يحزنني ذهابكم به، والحزن هاهنا: ألم القلب وفراق المحبوب ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام أن ذئبًا شدَّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثم قال هذه المقالة.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عشرة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ عجزة ضعفاء.

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ أي: عزموا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ يلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقنَّ رؤياك ولتخبرنَّ إخوتك

بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إيَّاه ذلك، قاله مجاهد.

وذهب وَهْبٌ وغيره: أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فإذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة ـ وقيل: ثمانية عشرة سنة ـ فجاؤوا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس، قال مُقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام، وقال كعب: بين مدين ومصر، وقال وهب: بأرض الأردن، وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس، فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليَّ القميص أتوارى به في الجب، فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تواريك، قال: إني لم أرَ شيئًا، فألقوه فيها.

«وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا»، الأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العِشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتدُّ على أقدامنا ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا وأقمشتنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ وإن كنَّا ﴿صَـٰدِقِينَ﴾. فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب: أنت لا تصدق الصادق؟ قيل: معناه: إنك تتهمنا في هذا الأمر؛ لأنك خفتنا في الابتداء واتهمتنا في حقه.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ﴾ أي: بدمٍ هو كذب؛ لأنه لم يكن دم يوسف.

وفي القصة: أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقُّوه فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟! فاتهمهم. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زيَّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبرٌ جميل. والصبر الجميل: الذي لا شكوى فيه ولا جزع. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أستعين بالله على الصبر على ما تكذبون.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ وهم القوم المسافرون، سُمّوا سيارة؛ لأنهم يسيرون في الأرض، ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ والوارد: الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسلها في البئر، فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون. قال النبي ﷺ: «أُعطيَ يوسفُ شطر الحُسْن»(١).

فلما رآه مالك بن ذعر وقد جاء لطلب الماء ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء، بشَّر المستقي أصحابه يقول: أبشروا، ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ﴾ أخفوْهُ ﴿بِضَٰعَةً﴾ قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم، وقالوا: هو بضاعة استبضعها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فأتى يهوذا يوسفَ بالطعام فلم يجده في البئر، فأخبر بذلك إخوته، فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزولاً، فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا: هذا عبد آبق منَّا.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ قال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام؛ لأنَّ ثمن الحرِّ حرام. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من الثمن ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ ذكَّر العدد عبارة عن قلتها. ﴿وَكَانُوا۟﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿فِيهِ﴾ أي: في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله. وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين؛ لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن، إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ واسمها: راعيل، وقيل: زليخا ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: منزلته ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع، أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنَّاه.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز في يوسف؛ حيث قال لامرأته: «أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ»، وابنة شعيب عليه السلام؛ حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: «يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ» [القصص: ٢٦]، وأبو بكر في عمر ـ رضي الله عنهما ـ؛ حيث استخلفه(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مصر، أي: كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب، كذلك مكنَّا له في الأرض فجعلناه على خزائنها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٦٢: (١/ ١٤٥ - ١٤٧).
(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي، «المستدرك»: (٢/ ٣٤٦).

﴿ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ أي: مكَّنَّا له في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ قيل: الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يردُّ حكمه رادّ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الله به صانع.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى شبابه وشدته وقوته، قال مجاهد: ثلاثًا وثلاثين سنة. وسئل مالك رحمه الله عن الأشد؟ قال: هو الحلم.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: المؤمنين. وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يعني: امرأة العزيز، والمراودةُ: طلب الفعل، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أي: أطبقتها، وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾ أي: هلمَّ وأقْبِلْ.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «أقرأني النبي ﷺ: «هَيْتَ لَكَۚ»»[1].

قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز، معناها: إليَّ تعالَ.

﴿قَالَ﴾ يوسف لها عند ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يريد: أن زوجك قطفير سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ﴾ أي: أكرم منزلي، هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى، يريد: أن الله تعالى ربِّي أحسن مثوايَ، أي: آواني، ومن بلاء الجبِّ عافاني. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون. وقيل: «لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ»، أي: لا يسعد الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ والهمُّ هو: المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا. وأمَّا همُّه: فرُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: حلَّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٤٦، وصححه على شرط الشيخين.

وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام[1]، وقال: تَمَّ الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم.

وقال بعض أهل الحقائق: الهمُّ همَّان: همٌّ ثابتٌ، وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمٌّ عارضٌ وهو الخطرة، وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همِّ يوسف عليه السلام، فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل.

حدثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا تحدث عبدي بأنْ يعملَ حَسنةً فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها»[2].

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ اختلفوا في ذلك البرهان، قال قتادة وأكثر المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب، وهو يقول له: يا يوسف، تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء!

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضًّا على أصبعه.

وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف: لِمَ فعلتِ هذا؟

فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية. فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحق أن أستحي من ربِّي، وهرب.

وقال جعفر بن محمد: البرهان النبوة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل. وهو أقرب إلى الصواب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جواب لولا محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربِّه لواقع المعصية.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «دقائق التفسير» (٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣): (الهمُّ: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهمُّ همَّان: همُّ خطرات، وهمُّ إصرار، وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: إن العبد إذا همَّ بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة . . . ويوسف همَّ همًّا تركه لله، لذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه . . . وأما ما ينقل من أنه حلَّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًّا على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فهو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ١٩٨)، ومسلم برقم٢٠٥: (١/ ١١٧).

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فالسوءُ: الإثم، وقيل: السوء: القبيح، والفحشاء: الزنا. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وذلك أن يوسف لمَّا رأى البرهان قام مبادرًا إلى باب البيت هاربًا، وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف، وأدركته المرأة، فتعلَّقت بقميصه من خلفه، فجذبته إليها حتى لا يخرج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ أي: فشقَّته ﴿مِن دُبُرٍ﴾ أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: وجدا زوج المرأة قطفيرَ عند الباب جالسًا مع ابن عمٍّ لراعيل، فلما رأته هابته و﴿قَالَتْ﴾ سابقةً بالقول لزوجها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي: يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ضرب بالسِّياط، فلما سمع يوسف مقالتها. ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ وحكم حاكم ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ اختلفوا في ذلك الشاهد:

فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبيًّا في المهد، أنطقه الله عزَّ وجلَّ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلَّم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام»(١).

قال السدي: هو ابن عم راعيل، فحكم فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدّام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إن هذا الصنيع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وقيل: إن هذا من قول الشاهد، ثم أقبل

---

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» عن ابن عباس: (١٦/ ٥٥)، والإمام أحمد في «المسند» مطولاً برقم٢٨٢٢ - ٢٨٢٥، ولم يرفعه، وابن حبان في «صحيحه»: ص٤٠ من «موارد الظمآن».

قطفير على يوسف فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن هذا الحديث، فلا تذكره لأحدٍ حتى لا يشيع. ثم قال لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أي: توبي إلى الله ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

وأراد بقوله: «وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ»، أي: سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك «إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ»: من المذنبين، حتى راودتِ شابًّا عن نفسه وخُنْتِ زوجك، فلما استعصم كذبتِ عليه.

۞وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية. يقول: شاع أمرُ يوسف والمرأة في المدينة: مدينة مصر، وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدث النساء بذلك وقلن ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ أي: عبدها الكنعاني ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تطلب من عبدها الفاحشة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: عَلِقَها حبًّا.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ بقولهنَّ وحديثهن، قاله قتادة والسدي. قال ابن إسحاق: إنما قلن ذلك؛ مكرًا بها لِتُرِيَهُنَّ يوسف، وكان يوصف لهنَّ حسنُه وجماله.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قال وهب: اتخذت مأدبة، ودعتْ أربعين امرأة، منهنَّ هؤلاء اللاتي عَيَّرْنَها ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: أعدت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتكأ عليه. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: «مُتَّكَـًٔا»، أي: طعامًا، سماه متكأ؛ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكئون على الوسائد، فسمى الطعام متكأ على الاستعارة، يقال: اتكأنا عند فلان، أي: طعمنا. ﴿وَءَاتَتْ﴾ وأعطت ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فكُنَّ يأكلنَ اللحم حزًّا بالسكين.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت أجلسته في مجلس آخر، فخرج عليهن يوسف. قال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه، قال أبو العالية: هالَهُنَّ أمره وبُهتن. ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ أي: حززن بالسكاكين التي معهنَّ ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ وهنَّ يحسبن أنهن يقطعن الأترج. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: معاذ الله أن يكون هذا بشرًا. ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ﴾ من الملائكة ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى.

﴿قَالَتْ﴾ يعني: راعيل: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: في حبِّه، ثم صرحت بما فعلت،

فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع، وإنما صرحت به لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهنَّ، وقد أصابهنَّ ما أصابها من رؤيته، فقلنَ له: أَطِعْ مولاتك، فقالتْ راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليعاقبن بالحبس ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من الأذلاء، فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة.

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّى أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: رب ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ قيل: كان الدعاء منها خاصة، ولكنه أضاف إليهن خروجًا من التصريح إلى التعريض، وقيل: إنهنَّ جميعًا دعونه إلى أنفسهن.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلْ إليهنَّ وأتابعهن. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنبًا يرتكبه عن جهالة.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ﴾ أجاب له ﴿رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لدعائه العليم بمكرهنَّ.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: للعزيز وأصحابه في الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض، ثم بدا لهم أن يحبسوه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على براءة يوسف من قَدِّ القميص، وكلام الطفل، وقطع النساء أيديهنَّ وذهاب عقولهنَّ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدَّةٍ يرون فيه رأيهم. قال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة الناس. قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين همَّ بها فسجن، وحين قال: «اذكرني عند ربك» فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة: «إنكم لسارقون»، فقالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل».

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وهما غلامان كانا للريان بن الوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر، أحدهما: خبَّازه وصاحب طعامه، والآخر: ساقيه وصاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما. فرآهما يوسف وهما مهمومان، فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما صاحبا الملك، حبسهما، وقد رأيا رؤيا غمتهما، فقال يوسف: قُصَّا عليَّ ما رأيتُما، فقصَّا عليه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو صاحب الشراب: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنبًا، سمي العنب خمرًا باسم ما يؤول إليه، وذلك أنه قال: إني رأيتُ كأني في بستان، فإذا بأصل حَبَلَةٍ عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتهما، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخباز: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منه ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: العالمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى: العلم.

ورُوي أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله: «إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ»، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق عليه المجلس وسع له، وإذا احتاج جمع له شيئًا، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة.

قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ قيل: أراد به: في النوم، يقول: لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ في اليقظة. ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ قبل أن يصل إليكما، وأيّ طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم، فقالا: هذا فعل العرَّافين والكَهَنَةِ، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن وإنَّما ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ العلم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وتكرار «هُمۡ» على التأكيد.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ أظهر أنه من ولد الأنبياء ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾

ما ينبغي لنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد والعلم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ما بيَّن لهم من الهدى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: آلهة شتَّى، ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي لا ثاني له، القهار: الغالب على الكل، ثم بيَّن عجز الأصنام فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ آلهةً وأربابًا خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ما القضاء والأمر والنهي ﴿إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم فسَّر رؤياهما فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو صاحب الشراب ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ يعني: الملك ﴿خَمْرًا﴾ والعناقيد الثلاثة: ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة الأيام، ويردّه إلى منزلته التي كان عليها ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسلال الثلاث: الثلاثة الأيام يبقى في السجن، ثم يخرجه ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

قال ابن مسعود: لمَّا سَمِعَا قولَ يوسفَ قالا: ما رأينا شيئًا إنَّما كنَّا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي: فُرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتُكما به، رأيتُما أو لم تَرَيا.

﴿وَقَالَ﴾ يعني: يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾ علم ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: سيدك الملك، وقل له: إن في السجن غلامًا محبوسًا ظلمًا طال حبسه. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: أنسى الشيطان الساقي ذِكر يوسف للملك، تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه.

قال ابن عباس وعليه الأكثرون: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه حين ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان.

﴿فَلَبِثَ﴾ فمكث ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ واختلفوا في معنى البضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع، وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس: ما دون العشر. وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين.

فلما انقضت سبع سنين ـ قال الكلبي: رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان، خرجت من البحر، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجافُ السِّمانَ فدخلن في بطونهنَّ، ولم يُرَ منهنَّ شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حَبُّها، وسبعًا أُخرى يابسات قد استحصدت، فالتوت

اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من خضرتها شيء، فجمع السحرة والكهنة والحازة والمعبرين وقص عليهم رؤياه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ من القتل ﴿مِنْهُمَا﴾ من الفتيين وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي: تذكر قول يوسف: اذكرني عندَ ربِّك ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد حين وهو سبع سنين: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه؛ فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ يعني: يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ والصديق الكثير الصدق ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ فإن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أهل مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويل الرؤيا، وقيل: لعلَّهم يعلمون منزلتك في العلم. فقال لهم يوسف معبرًا ومعلمًا: أمَّا البقرات السمان والسنبلات الخضر: فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات: فالسنون المجدبة، فذلك قوله تعالى إخبارًا عن يوسف:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعُوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة. والدأب: العادة، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أمرهم بترك الحنطة في السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مما تدرسون قليلاً للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة.

﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سمى السنين المجدبة شدادًا؛ لشدَّتها على الناس ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: يفنين ويُهلكن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يؤكل فيهن ما أعددتم لهن من الطعام، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾

تُحرِزُونَ وتدخرون للبذر. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يمطرون، من الغيث: وهو المطر، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، ومعناه: يعصرون العنب خمرًا والزيتون زيتًا والسمسم دهنًا، وأراد به كثرة النعيم والخير.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ﴾ وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وقال له: أجب الملك، أبى أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته، ثم ﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني: سيدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ﴾ ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبًا واحترامًا.

قال النبي ﷺ: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي»[١].

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهنَّ بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة، ويصير إليه بعدَ زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز.

﴿قَالَ﴾ لهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكنَّ وأمركنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ خاطبهنَّ، والمراد: امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أَمَرْنَهُ بطاعتها فلذلك خاطبهن. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذَ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ خيانة.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر وتبيَّن، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردِّي رسول الملك إليه ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في حال غيبته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ قوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز: أنا

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٦٦).

روادته عن نفسه، من غير تميز، لمعرفة السامعين.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ﴾ من الخطأ والزلل فأزكيها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالمعصية ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ أي: إلا من رحم ربي فعصمه. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فلما تبيَّن للملك عذر يوسف عليه السلام وعرف أمانته وعلمه:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي: أجعله خالصًا لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ فيه اختصار تقديره: فجاء الرسولُ يوسفَ فقال له: أجب الملك الآن.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لسانًا، فكلما تكلم بلسان أجاب يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك ما رأى منه مع حداثة سنه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأجلسه و﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ﴾ المكانة في الجاه ﴿أَمِينٞ﴾ أي: صادق.

قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾

فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الخزائن: جمع خزانة، وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض: أرض مصر، أي: خزائن أرضك. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي: حفيظ للخزائن، عليم بوجوه مصالحها.

وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين الخصبة في الأرض الجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع. واستوثق ليوسف مُلْك مصر، أي: اجتمع، فأقام فيهم العدل، وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: أرض مصر ملكناه ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا﴾ أي: ينزل ﴿حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ ويصنع فيها ما يشاء. ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي: بنعمتنا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال ابن عباس ووهب: يعني: الصابرين. قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلم الملك وكثير من الناس، فهذا في الدنيا. ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ثواب الآخرة ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

فلما اطمأن يوسف في ملكه دبَّر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله.

قال: وقصد الناسُ مصرَ من كل أوبٍ يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحدًا منهم ـ وإن كان عظيمًا ـ من أكثر من حمل بعير تقسيطًا بين الناس، وتزاحم الناس عليه وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأُمه، فذلك قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالعرنات من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بني، بلغني أن بمصر ملكًا صالحًا يبيع الطعام، فتجهزوا لِتَشْتَرُوا منه الطعام، فأرسلهم فقدمُوا مصرَ، ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ على يوسف ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف عليه السلام. قال ابن عباس ومجاهد: عرفهم بأول ما نظر إليهم. ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه، قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: حمّل لكل واحد بعيرًا بعدّتهم ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ يعني: بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أُتمه ولا أبخس الناس شيئًا، فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ قال مجاهد: أي: خير المضيفين، وكان قد أحسن ضيافتهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي: ليس لكم عندي طعام أكيله لكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك، وهو جزم على النهي.

قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ما أمرتنا به.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ ثمن طعامهم وكانت دراهم.

﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم، وهي جمع رحل ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ انصرفوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يريهم كرمه في رد البضاعة وتقديم الضمان في البر والإحسان، ليكون أدعى لهم إلى العود، لعلَّهم يعرفونها، أي: كرامتهم علينا. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾ إنا قدمنا على خيرِ رجلٍ، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرئوه مني السلام، وقولوا له: إنَّ أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر، وأخبروه بالقصة، فقال لهم: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال: أنتم جواسيس ـ حيث كلمناه بلسان العبرانية ـ وقصُّوا عليه القصة، وقالوا: يا أبانا، ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ قال الحسن: معناه: يمنع منَّا الكيل إن لم تحمل أخانا معنا. والمراد بالكيل: الطعام؛ لأنه يكال. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ وهو الطعام، وقيل: نكتل له ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾، يقول: حفظه خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ﴾ الذي حملوه من مصر ﴿وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾ ثمن الطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ماذا نبغي، وأي شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب ﷺ إحسان الملك إليهم وحثّوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أيُّ شيء نطلب بالكلام، فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أَوْفَى لنا الكيلَ وردَّ علينا الثمن، أرادوا: تطييب نفس أبيهم ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين، أي: مما تخاف عليه ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على أحمالنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: حمل بعير يكال لنا من أجله؛ لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: ما حملناه قليل لا يكفينا وأهلنا.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾ ميثاقًا وعهدًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والعهد الموثَّق: المؤكَّد بالقسم، ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام: اليمين ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال مجاهد: إلاَّ أن تهلكوا جميعًا. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه عهودهم ﴿قَالَ﴾ يعني: يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شاهد، وقيل: حافظ.

وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾

﴿وَقَالَ﴾ لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوّة وامتداد قامةٍ، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم؛ لئلا يصابوا بالعين، فإن العين حق، وجاء في الأثر: «إنَّ العينَ تُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ».

ثم قال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع من القدر ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ ما الحكم ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ اعتمدتُ ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي: من الأبواب المتفرقة، ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي﴾ يدفع ﴿عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ صَدَقَ اللهُ تعالى يعقوبَ فيما قال: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ﴾ مرادًا ﴿فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلۡمٖ﴾ يعني: كان يعمل ما يعمل عن علمٍ لا عن جهل ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيَّاه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما يعلم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيدًا، فأجلسه معه على مائدته فجعل يُواكله، فلمَّا كان الليل أمر لهم بمثل ذلك، وقال: لينم كل أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه، فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح قال لهم: إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إليَّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأُمه معه، فذلك قوله تعالى:

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ أي: ضم إليه أخاه، فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لما وُلد هلكت أُمُّه، قال: وما اسم أُمك؟ قال: راحيل بنت لاوي، فقال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، قال: فهل لك من أخ لأُمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومن يجد أخًا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه:

وقال له: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، ولا تعلمْهم شيئًا مما أعلمتك، ثم أوفى يوسف لإخوته الكيل، وحمل لهم بعيرًا بعيرًا، ولبنيامين بعيرًا باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها.

قال ابن عباس: كانت من زبرجد. والسقاية والصواع واحد، وجعلت في وعاء طعام بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الأحمال، ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ قفوا، فلما انتهى إليهم الرسول قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا نتَّهِمُ عليها غيركم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ عطفوا على المؤذن وأصحابه ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ما الذي ضلَّ عنكم.

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ كفيل، يقوله المؤذن.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿تَٱللَّهِ﴾ أي: والله، ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لنسرق في أرض مصر. فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟ قيل: قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإنا منذ قطعنا هذا الطريق لم نَرْزَأ أحدًا شيئًا فاسألوا عنَّا مَن مررنا به، هل ضررنا أحدًا. ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: جزاء السارق ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ في قولكم: «وما كنَّا سارقين».

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي: فالسارق جزاؤه أن يسلَّم السارق بسرقته إلى

المسروق منه فيسترقه سنة، وكان ذلك سُنَّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير.

فقال الرسول عند ذلك: لابدَّ من تفتيش أمتعتكم. فأخذ في تفتيشها.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ لإزالة التهمة ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فكان يفتش أوعيتهم واحدًا واحدًا، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعًا ولا ينظر في وعاء إلاَّ استغفر الله تأثمًا مما قذفهم به حتى إذا لم يبق إلا رحل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء، متى أخذت هذا الصواع؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فأخذوا بنيامين رقيقًا.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ والكيد هاهنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم، وقد قال يعقوب ﷺ ليوسف: «فيكيدُوا لكَ كيدًا»، فكدنا ليوسف في أمرهم.

والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله تعالى: التدبير بالحق. ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته. ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ﴾ فيضمه إلى نفسه ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: في حكمه، قاله قتادة، وقال ابن عباس: في سلطانه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ يعني: إن يوسف لم يكن يتمكن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كِدْنَا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجرى على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى.
﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته. ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ قال ابن عباس: فوقَ كلِّ عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فالله تعالى فوق كل عالم.

۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ

خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يريدون أخًا له من أُمِّه، يعني: يوسف.

﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أضمرها ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ وإنما أنَّث الكناية لأنه عنى بها الكلمة، وهي قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف؛ لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتُكم حقيقيةٌ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ وفي القصة أنهم غضبوا غضبًا شديدًا لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسَّه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه.

فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا، وقالوا: يا أيها العزيز، إنَّ له أبًا شيخًا كبيرًا يحبه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدلاً منه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل إلا من سرق تحرزًا من الكذب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ إن أخذنا بريئًا بمجرم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾ أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه، ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يعني: في العقل والعلم، لا في السن. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عهدًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾ قصَّرتم ﴿فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أنا بها، وهي أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالخروج منها ويدعوني ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بردِّ أخي إليَّ، أو بخروجي وترك أخي، وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأسترد أخي. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أعدل مَنْ فَصلَ بين الناس.

ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ﴾ يقوله الأخ المحتبس بمصر لإخوته: ارجعوا إلى أبيكم ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ يعني: ما قلنا هذا إلاَّ بما علمنا، فإنَّا رأينا إخراج الصاع من متاعه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا إليه، وإنما قلنا: ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: أهلَ القرية، وهي مصر، ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ أي: القافلة التي كنَّا فيها، وكان صَحِبَهم قوم من كنعان من جيران يعقوب. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه، وحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه، وفيه معنى العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة؟

قيل: قد أكثر الناس فيه، والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، أمره بذلك؛ ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين.

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ﴾ زيَّنت ﴿أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ وفيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: «بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ»، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل. ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ يعني: يوسف، وبنيامين، وأخاهم المقيم بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحزني ووجدي على فقدهم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ وذلك أن يعقوب عليه السلام لمَّا بلغه خبر بنيامين تتامَّ حزنه وبلغ جهده، وتهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ يا حزناه ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ والأسفُ أشدُّ الحزن ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ عُمي بصره، ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: أولاد يعقوب ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال ابن عباس: دنفًا. ومعنى الآية: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل. وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهرم أو العشق، ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ أي: من الميتين.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك لما رأى غِلظتَهم ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والبثُّ: أَشدُّ الحزن، سمي بذلك؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه، أي: يظهره.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون.

يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ تخبَّروا واطلبوا الخير ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ والتحسُّس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر، إلا أن التحسس بالحاء في الخير وبالجيم في الشر، والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة، قال ابن عباس: التمسوا ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ ولا تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله، وقيل: من فرج الله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف عليه السلام ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: الشدة والجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: قليلة رديئة كاسدة.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا ما كنت تعطينا قَبْلُ بالثمن الجيد الوافي. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا، هذا قول أكثر المفسرين. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي﴾ يثيب ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾. وقال الضحاك: لم يقولوا: إن الله يجزيك؛ لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فارفضَّ دمعُه، فباح بالذي كان يكتم منهم.

وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه إليه فلم يتمالك البكاء، فقال: هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف وأخيه إذْ فرقتُم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتُم جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذنبون وعاصون، وقال الحسن: إذ أنتم شباب ومعكم جهل الشباب.

فإن قيل: كيف قال: ما فعلتم بيوسف وأخيه، وما كان منهم إلى أخيه، وهم لم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الصاع: ما يزال لنا بلاء، وقيل: ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرًا، وقيل: لما كانا من أُم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلم من وراء ستر، فلما قال يوسف: هل علمتم ما فعلتم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه. ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ بنيامين ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ أنعم الله علينا بأن جمع بيننا. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ بأداء الفرائض واجتناب المعاصي ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ عمَّا حرَّم الله عزَّ وجلَّ عليه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿قَالُواْ﴾ معتذرين ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: اختارك الله وفضَّلك علينا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: وما كنَّا في صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين.

﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليمًا: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ لا تعيير عليكم اليوم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

فلما عرَّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه، وقال: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي: يعد مبصرًا، وقيل: يأتيني بصيرًا؛ لأنه كان قد دعاه. قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيرًا إلا بعد أن أعلمه الله عزَّ وجلَّ. وقال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي: خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ أي: قال يعقوب لولد ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾. رُوي أن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير. ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تسفِّهوني، وعن ابن عباس: تُجهِّلوني، وقال الضحاك: تهرِّمون فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: أولاد أولاده ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي: خطئك القديم من ذكر يوسف لا تنساه.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ وهو المبشر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير.

﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ يعني: ألقى البشيرُ قميصَ يوسف على وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فعاد بصيرًا بعدما كان عمي، وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا.

ورُوي أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ مذنبين.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ قال أكثر المفسرين: أخَّر الدعاء إلى السَّحَر، وهو الوقت الذي يقول الله تعالى: «هل من داع فأستجيب له»[1]، فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزَّ وجلَّ وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفرْ لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله تعالى إليه أني قد غفرتُ لك ولهم أجمعين. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقال الثوري: لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبت بكيتَ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني، ولكن خشيتُ أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك.

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ضم إليه ﴿أَبَوَيْهِ﴾ قال أكثر المفسرين: هو أبوه وخالته ليًا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين.

﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ فإن قيل: فقد قال: فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، فكيف قال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة الصحيح: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».
أخرجه البخاري: (٣/ ٢٩)، ومسلم برقم٧٥٨: (١/ ٥٢١).

الاستثناء وقد حصل الدخول؟

قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر، وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: على السرير أجلسهما، والرفع: هو النقل إلى العلو ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ يعني: يعقوب وخالته وإخوته. وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يُرِدْ بالسجود وضعَ الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع.

وقيل: وضعوا الجباه على الأرض، وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم، لا على طريق العبادة، وكان ذلك جائزًا في الأُمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ وهو قوله: «إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمرَ رأيتهم لي ساجدين».

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ ربي، أي: أنعم عليَّ ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجُبِّ مع كونه أشد بلاء من السجن، استعمالاً للكرم، لكيلا يخجل إخوته بعدما قال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم»؛ ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم؛ لأنه بعد الخروج من الجب صار إلى العبودية والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك؛ ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته، وفي السجن مكافأة من الله تعالى لزلة كانت منه.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أفسد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ بالحسد. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ﴾ أي: ذُو لُطف ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ وقيل: معناه بمن يشاء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله علم أنَّ نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حُسنَ العاقبة فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعني: تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ﴾ أي: يا فاطر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ أي: مُعيني ومتولي أمري ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ يقول: اقبضني إليك مسلمًا ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يريد بآبائي النبيين. قال قتادة: لم يسأل نبيٌّ من الأنبياء الموت إلا يوسف.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ

مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: عَزَمُوا على إلقاء يوسف في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يا محمد ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ على إيمانهم. ورُوي أن اليهود وقريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ، فقيل له: إنهم لا يؤمنون وإن حَرَصْتَ على إيمانهم.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ وجزاءً ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو، يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ وتذكير ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ عِبْرَةٍ ودلالةٍ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: مَن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزِّل القطرَ؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون.

وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك؛ لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة مجللة، قال مجاهد: عذاب يغشاهم، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها، قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعُو إليها والطريقة التي أنا عليها ﴿سَبِيلِىٓ﴾ سُنَّتي ومنهاجي، ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على يقين، والبصيرة: هي المعرفة التي تُمَيِّزُ بها بين الحق

والباطل ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أي: ومن آمن بي وصدقني أيضًا يدعو إلى الله.

قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن.

قال عبد الله بن مسعود: من كان مُسْتَنًّا فليستنّ بمن قد مات فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، وأبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفُوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وقلْ سبحانَ الله تنزيهًا له عمَّا أشركوا به ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني: من أهل الأمصار دون البوادي؛ لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: هؤلاء المشركين المكذبين ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ آخر أمر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأُمم المكذبة فيعتبروا.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يقول جلَّ ذكرُه: هذا فعلنا بأهل ولايتنا وطاعتنا؛ أن ننجيهم عند نزول العذاب، وما في الدار الآخرة خيرٌ لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاءً؛ لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: «وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ»، قيل: معناه: ولدار الحال الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنُون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ حتى استيأس الرسلُ من إيمان قومهم. وظنّوا: أي: أيقنوا ـ يعني: الرسل ـ أن الأُمم قد كذَّبوهم تكذيبًا لا يُرجى بَعْدُ إيمانهم جاءهم نصرُنا. ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ عند نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابُنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: في خبر يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ﴾ عِظة ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ﴾ يعني: القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: يُختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى﴾ أي: ولكن كان تصديقَ الذي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ بيانًا ونعمةً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سورة الرعد

مكية إلا قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، وهي ثلاث وأربعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿الٓمٓر﴾ قال ابن عباس: معناه: أنا الله أعلم وأرى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: تلك الأخبار التي قصصتُها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: وهذا القرآن الذي أُنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هو الحق فاعتصم به. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمدًا يقوله من تلقاء نفسه، فردَّ قولهم ثم بيَّن دلائل ربوبيته، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يعني: السَّواري. ومعناه: نفي العمد أصلاً، وهو الأصح، يعني: ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلَّلها لمنافع خلقه فهما مقهوران ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: يجريان على ما يريد الله عزَّ وجلَّ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم: وهو فناء الدنيا، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقضيه وحده ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يبيِّن الدلالات ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثابتة، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعل فيها أنهارًا ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: صنفين اثنين أحمر وأصفر، وحلوًا وحامضًا ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبس النهار بظلمة الليل، ويلبس الليل بضوء النهار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلون.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ متقاربات يقرب بعضها من بعض، وهي مختلفة: هذه طيبة

تنبت، وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع، وهذه كثيرة الريع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾. والصنوان: جمع صنو، وهو النخلات يجمعهن أصل واحد. ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ هي النخلة المنفردة بأصلها.

وقال أهل التفسير: صنوان: مجتمع، وغير صنوان: متفرق، ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «عمُّ الرجل صنو أبيه»[1].

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أي: يسقى ذلك كله بماء واحد. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر والطعم.

قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، يقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عزَّ وجلَّ فسطحها، فصارت قطعًا متجاورةً، فينزل عليها المطر من السماء، فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سَبَخَها وملحها وخبيثها، وكل يُسقَى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسوا قلوب فتلهوا. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

۞وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ العجب تغير النفس برؤية المُستبْعَد في العادة، والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله عزَّ وجلَّ فعجب أمرهم. وكان المشركون ينكرون البعث، مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: نعاد خلقًا جديدًا كما كنَّا قبل الموت.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الاستعجال: طلب تعجيل الأمر قبل مجي

---

(١) أخرجه مسلم برقم٩٨٣: (٢/ ٦٧٦ - ٦٧٧).

وقته، والسيئة هاهنا هي: العقوبة، والحسنة: العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: «ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» [الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوباتُ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مُخوِّف ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من ذكر أو أُنثى، سويّ الخلق أو ناقص الخلق، واحدًا أو اثنين أو أكثر ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: ما تنقص ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

قال أهل التفسير: غيض الأرحام: الحيض على الحمل؛ فإذا حاضت الحامل كان نقصانًا في الولد؛ لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتمُّ، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم.

وأقل مدة الحمل: ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش.

واختلفوا في أكثرها: فقال قوم: أكثرها سنتان، وهو قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله. وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة: إنما سُمّي هَرِم بن حيَّان هرمًا؛ لأنه بقي في بطن أُمه أربع سنين. ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بتقديرٍ وَحَدٍّ لا يجاوزه ولا يقصر عنه.

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: يستوي في علم الله المُسِرُّ بالقول والجاهر به ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مستتر بظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذاهب في سربه ظاهر.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقَبُون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ، ثم يَعْرُجُ الذين بَاتُوا فيكم، فيسألُهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون وأتيناهم وهم يصلُّون»[1].

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار، ومن خلفه: من وراء ظهره ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجيء المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه. وقال عكرمة: الآية في الأُمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم.

وقال لهذين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة فيعصوا ربهم. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أي عذابًا وهلاكًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: لا رادَّ له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: ملجأ يلجؤون إليه، وقيل: والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: خوفًا من الصاعقة، طمعًا في نفع المطر، ومن البلدان ما إذا أمطروا قحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر. ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أكثر المفسرين على أن الرعد اسم مَلَكٍ يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه.

قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليَّ ديته.

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأن بحور الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله تعالى، فإذا سبح لا يبقى مَلَكٌ في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القَطْر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: تسبح الملائكة من خيفة الله عزَّ وجلَّ وخشيته.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة، وهي: العذاب المهلك، ينزل من البرق فيحرق من يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ كما أصاب أربد بن ربيعة. ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾ يخاصمون ﴿فِى

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٣)، ومسلم برقم٦٣٢: (١/ ٤٣٩).

﴿ٱللَّهِ﴾ نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: ممَّ ربك أمن دُرٍّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال علي ـ رضي الله عنه ـ: شديد الأخذ.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله دعوة الصدق. قال علي ـ رضي الله عنه ـ: دعوة الحق التوحيد. وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء لا يكون في يده شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع، لا يكون بيده شيء. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أصنامهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ يضل عنهم إذا احتاجوا إليه.

قوله عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ يعني: الملائكة والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف. ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ يعني: ظلال الساجدين طوعًا وكرهًا تسجد لله عزَّ وجلَّ طوعًا. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ يعني: إذا سجد بالغدو أو العشي يسجد معه ظله. ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾: جمع الأُصُل، والأُصُل جمع الأصيل، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقُهما ومدبِّرهما فسيقولون الله لأنهم يقرُّون بأنَّ الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإذا أجابوك فقُل أنت أيضًا يا محمد: «الله».

ورُوي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أَجِبْ أنت، فأمرهُ الله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾. ثم قال الله لهم إلزامًا للحجة: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فكيف يملكون لكم؟

ثم ضرب لهم مثالاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿أَمْ

﴿هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي: جعلوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَنْزَلَ﴾ يعني: الله عزَّ وجلَّ ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ من ذلك الماء ﴿أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: في الصغر والكبر ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ الذي حدث من ذلك الماء ﴿زَبَدًا رَابِيًا﴾ الزَّبد: الخَبَثُ الذي يظهر على وجهِ الماءِ، وكذلك على وجه القِدْر، «رَابِيًا»، أي: عاليًا مرتفعًا فوق الماء، فالماء الصَّافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل.

والمثل الآخرُ: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾. والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليذوب. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: لطلب زينة، وأراد الذهبَ والفضةَ؛ لأن الحلية تُطلبُ منهما ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أي: طلب متاع، وهو ما ينتفع به، وذلك مثل: الحديد والنحاس والرصاص والصُّفْر، تُذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: إذا أُذيبَ فله أيضًا مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الذي علا السيل والفِلِزّ ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: ضائعًا باطلاً، والجفاء: ما رمى به الوادي من الزَّبَد، والقِدْرُ إلى جنباته. معناه: أن الباطل وإن علا في وقتٍ فإنه يضمَحِلُّ.

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يبقى ولا يذهبُ.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ جعل الله تعالى هذا مثلاً للحق والباطل، أي: أنَّ الباطل كالزبد يذهبُ ويضيع، والحقّ كالماء والفلز يبقى في القلوب.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أجابوا لربهم، فأطاعوه ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنة ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة

افتداءً من النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قال إبراهيم النخعي: «سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ» أي: يحاسب الرجلُ بذنبه كلّه لا يغفر له من شيء ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الفِراش، أي: بئس ما مُهِد لهم.

﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ فيؤمن به ويعمَلُ بما فيه ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ عنه، لا يعلمُه ولا يعملُ به. أي: لا يستوي من يُبصر الحق ويتبعُه ومن لا يُبْصُره ولا يتبعُهُ.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ذوو العقول. ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ بما أمرهم الله تعالى به وفَرَضَهُ عليهم فلا يُخالفونه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ وقيل: أراد العهدَ الذي أخذه على ذرية آدمَ عليه السلام حين أخرَجهم من صُلبه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: أراد به: الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما. والأكثرون على أنه أرادَ به: صِلَة الرَّحِم.

عن أبي سلمة أَنَّ عبد الرحمن بن عوف عادَ أبا الدَّرداء فقال ـ يعني: عبد الرحمن ـ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول فيما يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ: «أنا اللهُ، وأنا الرحمن، وهي الرَّحِمُ، شققت لها من اسمي اسمًا، فمن وصلها وصَلْتُه، ومن قطعَها بَتَتُّه»[1].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرَّحِمُ فأخذت بِحَقْوَيِ الرَّحمنِ، فقال: مَهْ، قالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أَصِلَ من وصلك وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى يا ربِّ، قال: فذلك لك»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: «فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ»[2] [محمد: ٢٢].

حدثنا الحسن بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ تحت العَرْشِ يوم القيامة: القرآنُ يُحاجُّ العباد له ظهرٌ وبطنٌ، والأمانةُ، والرَّحِمُ تنادي: ألاَ مَنْ وصَلني وصله الله، ومَنْ قطعني قطعَه الله»[3].

عن ابن شهاب، أخبرني أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (٨/ ٥٣٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه»: (١١/ ١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤١٧).

(٣) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٢ - ٢٣).

أن يُبْسَطَ له في رزقه وينسأَ له في أثره فليصلْ رحمه»(١).

عن عُيينة بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ ذَنْبٍ أحرى أن يعجِّل الله لصاحبه العقُوبَة في الدنيا مع ما يدَّخِرَ له في الآخرة من البغي وقطيعةِ الرَّحِمِ»(٢).

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنَّةَ قاطِعٌ»(٣).

عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أن أعرابيًّا عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني من الجنَّة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبدُ الله، لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»(٤).

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ بالمكافىء، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُه وَصَلَها»(٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على طاعة الله. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلب تعظيمه أن يخالفوه. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: يؤدُّون الزكاة. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيءَ من العمل، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملتَ سيئةً فاعملْ بجنبها حسنةً تمحها، السِّرُّ

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤١٥)، ومسلم برقم٢٥٥٧: (٤/ ١٩٨٢).
(٢) أخرجه أبو داود: (٧/ ٢٢٥)، والترمذي: (٧/ ٢١٣ - ٢١٤، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه برقم٤٢١١: (٢/ ١٤٠٨)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ١٦٣).
(٣) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤١٥)، ومسلم برقم٢٥٥٦: (٤/ ١٩٨١).
(٤) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٦١)، ومسلم برقم١٣: (١/ ٤٢ - ٤٣).
(٥) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٢٣).

بالسِّرِ والعلانيةُ بالعلانية»[١].

حدثنا أبو الخير أنه سمع عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجلٍ كانت عليه درعٌ ضيِّقةٌ قد خنقته، ثم عَمِل حسنة، فانفكَّت عنه حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت أُخرى، حتى يخرج إلى الأرض»[٢].

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب، ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بساتين إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ قيل: من أبواب الجنة، وقيل: من أبواب القصور. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ أي: يقولون: سلام عليكم.

قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرَّات، معهم الهدايا والتحف من الله عزَّ وجلَّ، يقولون: سلام عليكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ هذا في الكفار ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، وقيل: يقطعون الرَّحم ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يعملون بالمعاصي ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يعني: النار.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُوسِّع على من يشاء ويُضيِّقُ على من يشاء. ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: مشركي مكة أشِروا وبَطِروا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: قليل ذاهب.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: يهدي إليه من يشاء بالإنابة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: بالقرآن، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تسكن قلوب المؤمنين، ويستقر فيها اليقين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٥/ ١٦٩) وفيه انقطاع.

(٢) أخرجه الإمام أحمد: (٤/ ١٤٥)، وفيه ابن لهيعة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ابتداءٌ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبرُه. واختلفوا في تفسير «طُوبَىٰ». رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فَرَحٌ لهم وقُرَّةُ عين. وقال معمرٌ عن قتادة: هذه كلمة عربية، يقول الرجل للرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيرًا.

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: حسن المنقلب. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية.

عن زيادٍ مولى بني مخزوم أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: إنَّ في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ في ظلِّها مائة سنةٍ لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ» [الواقعة: ٣٠] فبلغ ذلك كعبًا فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد ﷺ، لو أنَّ رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرِمًا، إن الله تعالى غرسَها بيده ونفخ فيها من رُوحه، وإنَّ أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ﴾ كما أرسلنا الأنبياءَ إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

قال قتادة ومقاتل وابن جريج: الآية مدنية نزلت في صُلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عَمرو لمَّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ: اكتبْ «بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرَّحمنَ إلا صاحب اليمامة ـ يعنون: مسيلمةَ الكذَّابَ ـ اكتب كما كنتَ تكتب: «باسْمِك اللهم» فهذا معنى قوله: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ»[2].

والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو يا الله يا رحمنُ، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمدًا يدعو إلهين، يدعو الله، ويدعو إلهًا آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: «قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ» [الإسراء: ١١٠].

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت في كفَّار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن»، قالوا: وما الرحمن؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، إنَّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: توبتي ومرجعي.

---

(١) عزاه السيوطي بطوله في «الدر المنثور» لعبد بن حميد: (٤/ ٦٤٩)، وقد أخرج عبد بن حميد في «المنتخب»: ص٤٢٤ القطعة الأولى منه، وأخرجه عن أنس: ص٣٥٦.
وأخرج القطعة الأولى منه إلى قوله: «اقرؤوا إن شئتم ...»: البخاريُّ: (٦/ ٣١٩)، ومسلم برقم٢٨٢٦: (٤/ ٢١٧٥).

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/ ٤٤٥ - ٤٤٦).

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية، نزلت في نفر من مشركي مكة، منهم: أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أُمية، جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله بن أبي أُمية: إن سَرَّك أن نتبعك فسيِّرْ جبال مكة بالقرآن فأذهِبْها عنا حتى تنفسح، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيونًا وأنهارًا، لنغرس فيها الأشجار ونزرعَ ونتخذ البساتين، فلستَ كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تُسبح معه، أو سخِّرْ لنا الريحَ فنركبَها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجعَ في يومنا، فقد سُخرت الريحُ لسليمانَ كما زعمتَ، ولستَ بأهون على ربك من سُليمان، وأحيي لنا جدَّك قُصَيًّا أو مَنْ شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحقٌّ ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولستَ بأهون على الله منه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ فأذهبت عن وجه الأرض ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: شققت فجعلت أنهارًا وعُيونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي: في هذه الأشياء، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قال أكثر المفسرين: معناه: أفلم يعلم. وأنكر الفرَّاء أن يكون ذلك بمعنى العلم، وزعم أنه لم يسمع أحدًا من العرب يقول: يئستُ بمعنى: علمتُ، ولكن معنى العلم فيه مضمر.

وذلك أن أصحابَ رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركينَ طمعوا في أن يفعلَ الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: «أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ»، يعني: الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - من إيمان هؤلاء، أي: لم ييأسُوا علمًا، وكلُّ مَن علم شيئًا يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلمُ: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء، أحيانًا بالجدب، وأحيانًا بالسلب، وأحيانًا بالقتل والأسر.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ يعني: السرية والقارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ وقيل: أو تحلُّ، أي: تنزل أنت يا محمد بنفسك قريبًا من ديارهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء، فأنزل الله تسليةً لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ

﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزؤوا بك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمهلتهم وأطلت لهم المدة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عقابي لهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَٰفِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت، وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بيّنُوا أسماءهم، وقيل: صفوهم ثم انظروا هَلْ هي أهل لأن تُعبد؟ ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ﴾ أي: تخبرون الله تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ فإنه لا يعلم لنفسه شريكًا ولا في الأرض إلهًا غيره ﴿أَم بِظَٰهِرٍ﴾ يعني: أم تتعلقون بظاهر ﴿مِّنَ الْقَوْلِ﴾ مسموع، وهو في الحقيقة باطل لا أصل له. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صرفوا عن الدين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه إيّاهُ ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشد ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو ردّ على الجهمية حيث قالوا: إن نعيم الجنة يفنى. ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي: عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ يعني: الجنة ﴿وَّعُقْبَى الْكَٰفِرِينَ النَّارُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وهم: اليهود والنصارى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ هذا قول مجاهد وقتادة.

وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن فرحوا

به، فأنزل الله سبحانه وتعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ»، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ» [الأنبياء: ٣٦]، «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ» [الرعد: ٣٠]. وإنما قال: «بَعْضَهُۥ»؛ لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ يقول: كما أنزلنا إليك الكتابَ يا محمد، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزلنا الحكم والدين عربيًا. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ في الملة، وقيل: في القبلة ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ رُوي أن اليهود ـ وقيل: إن المشركين ـ قالوا: إنَّ هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربُون ولا ينكحون. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذا جواب عبد الله بن أبي أُمية، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يقول: لكل أمر قضاهُ الله كتابٌ قد كتبهُ فيه ووقت يقع فيه.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ واختلفوا في معنى الآية:

فقال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه.

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة.

ورُوينا عن حذيفة بن أُسَيدٍ عن النبي ﷺ: «يدخُلُ المَلَكُ على النُّطْفَةِ بعدما تستقرُّ في الرَّحِم

بأربعين أو خمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربِّ، أشَقِيٌّ أم سَعيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فيقولُ: أيْ ربِّ، أذكرٌ أم أُنثى؟ فَيُكْتَبَانِ، ويُكْتَبُ عملُه وأثرُه وأجلُه ورزقُه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا يُنْقَصُ»[١].

وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ثم يعود لمعصيةِ الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ فهو الذي يثبت. وقال الحسن: «يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ»، أي: من جاء أجلُه يذهب به، «وَيُثْبِتُ» من لم يجيء أجلُهُ إلى أجله. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير.

وقال عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هما كتابان: كتابٌ سوى أُم الكتاب، يمحو منه ما يشاء ويثبتُ، وأُم الكتاب الذي لا يُغيّر منه شيء.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب قبل وفاتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ ليس عليك إلا ذلك ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني: أهل مكة، الذين يسألون محمدًا ﷺ الآيات ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» فنفتحُها لمحمد أرضًا بعد أرض حوالي أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قولُ ابن عباس وقتادة وجماعةٍ.

وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ الناس رُؤساءَ جُهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأَضَلُّوا»[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادَّ لقضائه، ولا ناقض لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصالُ المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: عند الله جزاء مكرهم. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ إني رسوله إليكم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد: مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضًا على ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٤٤: (٤/ ٢٠٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ١٩٤)، ومسلم برقم٢٦٧٣: (٤/ ٢٠٥٨).

سورة إبراهيم

مكية وهي إحدى وخمسون آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿الر كِتَابٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، يعني: القرآن ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر ربهم. ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: إلى دينه، و«العزيز» هو الغالب، و«الحميد»: هو المستحق للحمد.

﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبونها زيغًا وميلاً، يريد: يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد. ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بلغتهم؛ ليفهموا عنه. فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟ قيل: بُعث من العرب بلسانهم، والناس تَبَعٌ لهم، ثم بثَّ الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزَّ وجلَّ ويترجمون لهم بألسنتهم. ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله. وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

شَكُورٍ﴾ و«الصبَّارُ»: الكثير الصبر، و«الشكور»: الكثير الشكر، وأراد: لكل مؤمن؛ لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قال الفرَّاء: العلَّة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في «يذّبحون» و«يقتّلون» أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركوهنَّ أحياءً ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي أعلم. ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ في النعمة. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ أي: غنيٌّ عن خلقه، حميدٌ محمود في أفعاله؛ لأنه فيها متفضِّل وعادل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ﴾ خبر الذين ﴿مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: من كان بعد قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ. ورُوي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قرأ هذه الآية ثم قال: كذب النسَّابُون.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلالات الواضحات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظًا. قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موجب للريبة موقع للتهمة.

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا

كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب.

﴿قَالُوٓا۟﴾ للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الصورة، ولستم ملائكة، وإنما ﴿تُرِيدُونَ﴾ بقولكم ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بينة على صحة دعواكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالنبوة والحكمة ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقد عرفنا أن لا ننال شيئًا إلا بقضائه وقدره ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ بيَّن لنا الرشد، وبصَّرنا طريق النجاة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ «اللام» لام القسم، مجازُه: والله لنَصْبِرنَّ ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يعْنُون: إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هلاكهم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: قيامه بين يدي، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: عقابي.

وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصروا، قال ابن عباس ومقاتل: يعني: الأُمم، وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذِّبْنا. ﴿وَخَابَ﴾ خسر، وقيل: هلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والجبَّار: الذي لا يرى فوقه أحدًا.

قال مقاتل: هو المتكبر، وقال قتادة: «العنيدُ»: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامه، كقوله تعالى: «وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ» [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: من ماءٍ هو صديدٌ، وهو ما يسيل من أبدان الكفار من القَيْح والدم.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتحسَّاهُ ويشربه، لا بمرةٍ واحدة، بل جرعةً جرعةً، لمرارته وحرارته ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ و«يكاد»: صلة، أي: لا يسيغه، كقوله تعالى: «لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا» [النور: ٤٠]، أي: لم يَرَهَا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يجيزه.

عن أبي أُمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله: «جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ»، قال: يقرب إلى فيه فيتكرهه، فإذا أُدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءه، حتى يخرج من دُبُره، يقول الله عزَّ وجلَّ: «وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ» [محمد: ١٥]، ويقول: «وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ»(١) [الكهف: ٢٩].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: يجدُ همَّ الموت وألَمَهُ من كل مكان من أعضائه.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح، قال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أمامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ شديدٌ، وقيل: العذاب الغليظ الخلود في النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يعني: أعمال الذين كفروا بربهم، ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وصف اليومَ بالعصوف، والعصُوف من صفة الريح؛ لأن الريحَ تكون فيها.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم

(١) أخرجه الطبري: (١٦/ ٥٤٩ - ٥٥٠)، والترمذي: (٧/ ٣٠٣ - ٣٠٤)، وقال: (هذا حديث غريب، هكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر، ولا يعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث).

بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً، وإنما خلقهما لأمرٍ عظيم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم أَطْوَعَ لله منكم. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ منيع شديد، يعني: أن الأشياء تسهل في القدرة، لا يصعب على الله تعالى شيء وإن جلَّ وعَظُم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعًا ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تكبروا على الناس، وهم القادة والرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾جمع تابع، مثل: حَرَس وحارس ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿قَالُوا﴾ يعني: القادة المتبوعين: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهُدَى، فلما أضلَّنا دعوناكم إلى الضلالة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مهربٍ ولا منجاة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: إبليس ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. قال مقاتل: يوضع له منبر في النار، فيرقاه فيجتمع عليه الكفار باللائمة فيقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ فوفى لكم به ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وقيل: يقول لهم: قلتُ لكم لا بعثَ ولا جنة ولا نار ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ وِلاية، وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هذا استثناء منقطعٌ، معناه: لكن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمُغيثِكم ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثيَّ. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت بجعلكُم إياي شريكًا في عبادته، وتبرأت من ذلك. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: «يقول عيسى عليه السلام: ذلكم النبي الأُمي، فيأتي فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي من أطيب ريح شَمَّها أحدٌ، حتى آتي ربي عزَّ وجلَّ فيشفِّعني ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس، هو الذي أضلَّنا، فيأتونه فيقولون له: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شَمَّها أحدٌ، ثم تعظم جهنم، ويقول عند ذلك: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ... الآية»[1].

---

(١) أخرجه الدارمي: (٢/ ٣٢٧)، وابن جرير الطبري: (١٦/ ٥٦٢ - ٥٦٣).

وعزاه السيوطي لابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر، وقال: (أخرجوه بسند ضعيف).

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يسلِّم بعضهم على بعض، وتسلِّم الملائكة عليهم. وقيل: المحيِّي بالسلام هو الله عزَّ وجلَّ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ألم تعلم، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي قول: لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة، يريد: كشجرة طيبة الثمر. وقال ظبيان عن ابن عباس: هي شجرة في الجنة. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ كذلك أصل هذه الكلمة: راسخٌ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزَّ وجلَّ. ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ والحين في اللغة: هو الوقت.

قال الربيع بن أنس: «كُلَّ حِينٍۭ»، أي: كل غدوة وعشية؛ لأن ثمر النخل يؤكل أبدًا ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، إما تمرًا أو رُطَبًا أو بُسْرًا، كذلك عملُ المؤمن يصعدُ أول النهار وآخره، وبركةُ إيمانِه لا تنقطع أبدًا، بل تصل إليه في كل وقت.

والحكمةُ في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عِرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

حدثنا عبد الله ابن دينار أنه سمع ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم فحدِّثوني ما هي»؟ قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة»، قال عبد الله: فذكرتُ ذلك لعمر، فقال: لأنْ تكون قلتَ هي النخلة كان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا[1].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٤٥)، ومسلم برقم ٢٨١١ (٤/ ٢١٦٤ – ٤٢١٦٥).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظل. وقيل: هي الثوم. ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ يعني: انقلَعت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ثبات.

معناه: ليس لها أصل ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه، ولا يصعدُ له قول طيب ولا عمل صالح.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: قبل الموت ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني: في القبر، هذا قول أكثر أهل التفسير. وقيل: «فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»: عند السؤال في القبر، «وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ»: عند البعث. والأول أصح.

عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله تعالى: «يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ»»[1].

حدثنا شعبة عن النبي ﷺ قال: «يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ» قال: «نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربُّك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد، فذلك قوله تعالى: «يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ... الآية»»[2].

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه مَلَكان فيُقْعِدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل، لمحمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا» قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفْسَحُ له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال:

«وأما المنافقُ والكافر فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بمطارقَ من حديدٍ ضربةً، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غيرَ الثَّقَلَيْن»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٨٧١: (٤/ ٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٣٢)، ومسلم برقم٢٨٧٠: (٤/ ٢٢٠٠ - ٢٢٠١).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يسمع حِسَّ النِّعال إذا ولَّى عنه الناس مُدْبِرين، ثم يُجْلَسُ ويُوضَعُ كفنُه في عُنُقِهِ ثم يُسأل»(١).

ورُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا قُبِرَ الميتُ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النَّكير، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، فيقولان له: قد كنَّا نعلم أنك تقولُ هذا، ثم يُفْسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينوَّر له فيه، ثم يقال: نَمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله تعالى، وإن كان منافقًا أو كافرًا قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنَّا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»(٢).

عن هانىء مولى عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل»(٣).

وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يبكي: فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسنُّوا عليَّ التراب سنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها؛ حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي.

قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي: لا يهدي الله المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من التوفيق والخذلان، والتثبيت وترك التثبيت.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية. عن ابن عباس في قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا»، قال: هم والله كفار قريش(٤).

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: البوار: يوم بدر، قوله: «بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ»، أي: غيَّروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعثه الله تعالى منهم «كُفْرًا» كفروا به فـ«وَأَحَلُّواْ»، أي: أنزلوا، «قَوْمَهُمْ» ممن تابعهم على كفرهم «دَارَ ٱلْبَوَارِ» الهلاك، ثم بيَّن البوار فقال:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ المستقر.

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل

---

(١) أخرجه ابن حبان: ص١٩٦ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد: (٢/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي: (٤/ ١٨١ - ١٨٤)، وقال: وهو حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود: (٤/ ٣٣٩)، والبيهقي: (٤/ ٥٦)، وحسنه النووي في «الأذكار»: ص١٣٧، وصححه الألباني في «تعليقه على مشكاة المصابيح»: (١/ ٤٨).

(٤) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٧٨)، بلفظ: «هم كفار أهل مكة».

لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً، ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ ليضلوا الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ عيشوا في الدنيا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال الفراء: هو جزم على الجزاء ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ مخاللة وصداقة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ﴾ ذللها لكم، تجرونها حيث شئتم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ﴾ يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يَفْتُران، قال ابن عباس: دؤوبُهما في طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان في الضياء والظلمة، والنقصان والزيادة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ يعني: وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئًا، فحذف الشيء الثاني؛ اكتفاءً بدلالة الكلام، على التبعيض. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعم الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ أي: لا تطيقوا عدَّها ولا القيام بشُكرِها. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي: ظالم لنفسه بالمعصية، كافرٌ بربِّه عزَّ وجلَّ في نعمته. وقيل: الظلوم: الذي يشكر غير من أنعم عليه، والكافر: من يجحد مُنْعِمَه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني: الحرم ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن يؤمن فيه ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ أبعِدْني ﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

فإن قيل: قد كان إبراهيم عليه السلام معصومًا من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟ وقد عبد كثير من بنيه الأصنام، فأين الإجابة؟

قيل: الدعاء في حق إبراهيم عليه السلام لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه: فأراد بنيه من صُلْبه، ولم يعبد منهم أحدٌ الصنم.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: ضل بهنَّ كثيرٌ من الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهنَّ. ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: مِنْ أهل ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال السدي: معناه: ومن عصاني ثم تاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أدخل «من» للتبعيض، ومجاز الآية: أسكنت من ذريتي ولدًا ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وهو مكة؛ لأن مكة وادٍ بين جبلين ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ سماه محرَّمًا؛ لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره.

عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: أول ما اتَّخذ النساءُ المِنْطَقَ من قِبَلِ أُمِّ إسماعيلَ، اتخذت مِنْطَقًا لتُعَفِّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَل إبراهيم منطلقًا، فتبعتْه أُم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنْس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال: «رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ»، حتى بلغ: «يَشْكُرُونَ».

وجعلتْ أُم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء عطشتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبَّط أو قال يتلَوَّى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعِها، ثم سَعَتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِوَاث، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تَحُوضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في

سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا مَعينًا».

قال: فشربتْ وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان موضع البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرَّت بهم رُفْقة من جُرْهُم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، ولَعَهْدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأُم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفىٰ ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم، وأَنْفَسَهُم وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته[1] ... ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الأفئدة: جمع الفؤاد ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تشتاق وتحنُّ إليهم. قال السدي: معناه: أَمِلْ قلوبهم إلى هذا الموضع. قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما رزقت سكان القرى ذوات الماء ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ من أُمورنا، وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأُمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل:

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٩٦ - ٣٩٨).

هذا صلة قول إبراهيم. وقال الأكثرون: يقول الله عزَّ وجلَّ: «وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ».

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أعطاني ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ يعني: اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: عملي وعبادتي.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غيرُ مؤمنين؟ قيل: قد قيل إن أُمه أسلمت. وقيل: أراد: إن أسلما وتابا. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اغفر للمؤمنين كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يبدو ويظهر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الغفلة: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأُمور، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال قتادة: مسرعين. ومعنى «الإهطاع»: أنهم لا يلتفون يمينًا ولا شمالاً، ولا يعرفون مواطن أقدامهم. ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم. قال القتيبي: المُقْنِعُ: الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم. ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: خالية، قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم، فصارت في حناجرهم، لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، فالأفئدة هواء لا شيء فيها، ومنه سُمِّي ما بين السماء والأرض هواء لِخُلُوِّهِ.

وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خوِّفهم ﴿يَوْمَ﴾ أي: بيوم ﴿يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أشركوا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هذا سؤالهم الردّ إلى الدنيا، أي: ارجِعْنا إليها ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجابون:

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ حلفتم في دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ عنها، أي: لا تبعثون.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والعصيان، قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: عرفتم عقوبتنا إيَّاهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: بيَّنَّا أن مثلكم كمثلهم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ معناه: وما كان مكرهم. وقيل معناه: إن مكرهم يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ كقُرْصة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[1].

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفؤها الجبَّار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة»[2].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: «يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ»، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط»[3].

وروى ثوبان أن حبرًا من اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «هم في الظلمة دون الجسر»[4].

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٧٢)، ومسلم برقم٢٧٩٠: (٤/ ٢١٥٠).
(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٧٢)، ومسلم برقم٢٧٩٢: (٤/ ٢١٥١).
(٣) أخرجه مسلم برقم٢٧٩١: (٤/ ٢١٥٠).
(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم٣١٥: (١/ ٢٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ خرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ مشدودين بعضهم ببعض ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ في القيود والأغلال. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قُمُصُهم، واحدها: سربال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو الذي تهنأ به الإبل.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلو. ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا القرآن ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: تبليغ وعظة ﴿لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ﴾ وليخوفوا ﴿بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ليتعظ أُولو العقول.

سورة الحجر

مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

﴿الٓر﴾ قيل: معناه: أنا الله أرى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ أي: وآيات قرآن ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بيَّن الحلال من الحرام والحق من الباطل.

فإن قيل: لِمَ ذكر الكتاب ثم قال: «وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ»، وكلاهما واحد؟

قلنا: قد قيل كل واحد يفيد فائدة أخرى، فإن الكتاب: ما يكتب، والقرآن: ما يجمع بعضه إلى بعض.

﴿رُّبَمَا﴾ «رُبَّ» تدخل على الاسم، و«رُبَمَا» على الفعل، يقال: رُبَّ رجل جاءني، ورُبَمَا جاءني رجل، وأدخل ما هاهنا للفعل بعدها ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام.

قال الضحاك: حالة المعاينة. وقيل: يوم القيامة.

والمشهور: أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا محمد، يعني: الذين كفروا ﴿يَأْكُلُواْ﴾ في الدنيا ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ من لذاتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ يشغلهم ﴿ٱلْأَمَلُ﴾ عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه، ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه، ولا يتأخر عنهم.

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ «من» صلة ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب المضروب.

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي: القرآن، وأرادوا به محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء.

﴿لَّوۡ مَا﴾ هلا ﴿تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ شاهدين لك بالصدق على ما تقول ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ إنك نبي.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعذاب، ولو نزلت، يعني: الملائكة لعجلوا بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانًا فأجابهم الله تعالى بهذا، ومعناه: إنهم لو نزلوا عيانًا لزال عن الكفار الإمهال وعُذِّبوا في الحال.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: رسلاً ﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم والقرون الماضية.

والشيعة: هم القوم المجتمعون المتفقة كلمتهم.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ كما فعلوا بك، ذكره تسلية للنبي ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأولين، كذلك نسلكه: ندخله ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يعني: مشركي مكة قومك، وفيه ردٌّ على القدرية.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ﴾ مضت ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

أي: وقائع الله تعالى بالإهلاك فيمن كذب الرسل من الأُمم الخالية، يخوِّف أهل مكة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ يعني: على الذين يقولون: لو ما تأتينا بالملائكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فظلت الملائكة يعرجون فيها، وهم يرونها عيانًا، هذا قول الأكثرين.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ سُدَّت ﴿أَبْصَٰرُنَا﴾ قاله ابن عباس.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد ﷺ.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ والبروج: هي النجوم الكبار، مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة، أي: ظهرت.

وأراد بها: المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة، وهي اثنا عشر برجًا: الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرَطان والأسد، والسُّنْبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت.

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ مرجوم، وقيل: ملعون.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ لكن من استرق السمع ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ والشهاب: الشُّعلة من النار.

وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضًا إلى السماء الدنيا، ويستَرِقُون السمع من الملائكة، فيُرْمون بالكواكب فلا تخطىء أبدًا، فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضلّ الناس في البوادي.

حدثنا عمروٌ قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَانًا لقوله، كأنه سلسلةٌ على صَفْوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه - فيسمعُ أحدهم الكلمةَ فيُلْقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذبُ معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدَّقُ بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[١].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٣٧)، (٨/ ٣٨٠).

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الملائكة تنزل في العَنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قُضيَ في السماء فتسترقُ الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم»[1].

واعلم أن هذا لم يكن ظاهرًا قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساسًا لنبوته ﷺ.

قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ» [الجن: ٩]، قال: غُلِّظت وشُدِّد أمرُها حين بعث النبي ﷺ.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها على وجه الماء، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدَّر معلوم.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: جعلنا فيها من لستم له برازقين من الدوابِّ والأنعام.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ أي: وما من شيء ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: مفاتيح خزائنه.

وقيل: أراد به: المطر.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لكل أرضٍ حدٌّ مقدر، ويقال: لا تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عزَّ وجلَّ ويشاء.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: حوامل؛ لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد.

قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب، فيدرُّ كما تدر اللقحة ثم تمطر.

قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا المطر لكم سقيًا.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٠٤)، وفي مواضع أخرى.

﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ يعني: المطر في خزائننا لا في خزائنكم، وقال سفيان: بمانعين.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بأن نميت جميعَ الخلائق، فلا يبقى حي سوانا.

والوارث من صفات الله عزَّ وجلَّ، قيل: الباقي بعد فناء الخلق.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: أراد بالمستقدمين: الأموات، وبالمستأخرين: الأحياء، قال الشعبي: الأولين والآخرين.

وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها، وذلك أن النساء كنَّ يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال مَن في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال، فنزلت هذه الآية.

وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ على ما علم منهم.

وقيل: يميت الكلَّ، ثم يحشرهم، الأولين والآخرين.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله عليه»[2].

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني: آدم عليه السلام، سُمي إنسانًا لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل: من النسيان؛ لأنه عهد إليه فنسي ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلة، أي: صوتًا.

﴿مِّنۡ حَمَإٖ﴾ والحمأ: الطين الأسود ﴿مَّسۡنُونٖ﴾ أي: متغيِّر.

قال ابن عباس: هو التراب المبتلُّ المنتن، جعل صلصالاً كالفخار.

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ والسموم: ريح حارة تدخل مسامَّ الإنسان فتقتله، ويقال: السَّموم بالنهار والحَرور بالليل.

وعن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم: الجن، خلقوا

---

(١) أخرجه مسلم برقم٤٤٠: (١/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣١٣) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم٢٨٣: (١/ ٥١٠)، وانظر: «كنز العمال»: (١٥/ ٦٨١).

من نار السَّموم، وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا من النور(١).

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: سأخلق بشرًا ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلْتُ صورته، وأتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فصار بشرًا حيًّا، والروح: جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفًا ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ سجود تحية لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين أمروا بالسجود ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

فإن قيل: لِمَ قال «كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ»، وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟

قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيدًا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ أراد: أنا أفضل منه؛ لأنه طينيّ، وأنا ناريّ، والنار تأكل الطين.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ طريد.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أراد الخبيث: أن لا يموت.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٢٩٤) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قلت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى.

ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة، وهي ما بين النفختين.

ويقال: لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكرامًا له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أضللتني، وقيل: خَيَّبْتَني من رحمتك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حُبَّ الدنيا ومعاصيك ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: لأضلنَّهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ المؤمنين الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال الحسن: معناه: صراط إليَّ مستقيم.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: قوة. قال أهل المعاني: يعني: على قلوبهم.

وسُئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾ يعني: موعد إبليس ومن تبعه.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أطباق.

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: تدرون كيف أبواب النار؟ هكذا، ووضع شعبة إحدى يديه على الأخرى، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض، وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض.

قال ابن جريج: النار سبع دركات، أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: لكل دركةٍ قومٌ يسكنونها.

وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أُدخلوا النار، يعذَّبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: «إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ» [النساء: ١٤٥].

ورُوي عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لجهنَّم سبعة أبواب، باب منها لمن

سلَّ السيف على أُمتي أو قال على أمة محمد»[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: في بساتين وأنهار.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: بسلامة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الموت والخروج والآفات.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد ﴿إِخْوَٰنًا﴾ نصب على الحال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ يقابل بعضهم بعضًا، لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه.

وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا وَدَّ أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ لا يصيبهم ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ هذه أنصُّ آية في القرآن على الخلود.

قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: لمن تاب منهم.

﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ قال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه».

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمةٍ، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خَلْقِهِ كلِّهم رحمةً واحدة، فلو يعلمُ الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلمُ المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[2].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٥٥١ - ٥٥٢)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول، والإمام أحمد: (٢/ ٩٤)، والبخاري في «التاريخ»: (٢/ ٢٣٥) باختصار.

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٠١).

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ أي: عن أضيافه، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم عليه السلام بالولد، ويهلكوا قوم لوط.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون؛ لأنهم لم يأكلوا طعامه.

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: غلام في صِغَرِه، عليم في كبره، يعني: إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ أي: بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: على حال الكبر، قاله على طريق التعجب ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فبأي شيء تبشرون؟.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ أي: من ييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: الخاسرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ مشركين.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أتباعه وأهل دينه ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أي: امرأة لوط ﴿قَدَّرْنَآ﴾ قضينا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب، والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ لوط لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنا لا أعرفكم.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: يشكُّون أنه نازلٌ بهم، وهو العذاب؛ لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين، وقيل: بالعذاب ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: سِرْ خلفهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الشام.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: فرغنا إلى آل لوط من ذلك الأمر، أي: أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أصلهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مستأصل ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ إذا دخلوا في الصبح.

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: سدوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط، أي: يبشر بعضهم بعضًا، طمعًا في ركوب الفاحشة منهم.

﴿قَالَ﴾ لوط لقومه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ وحقٌّ على الرجل إكرام ضيفه ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ ولا تُخجلُون.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحدًا من العالمين.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ أزوجهنَّ أياكم إن أسلمتم، فأتوا الحلال ودعُوا الحرام ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما آمركم به.

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا محمد، أي: وحياتك ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ حيرتهم وضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: حين أضاءت الشمس، فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا، وتمامه حين أشرقوا.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قال ابن عباس: للناظرين.

﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قرى لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: بطريق واضح.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾

﴿وَإِن كَانَ﴾ وقد كان ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ الغيضة ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ لكافرين، واللام للتأكيد، وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض وشجر ملتفٍّ، وكان عامة شجرهم الدَّوْم، وهو المُقْل.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب، وذلك أن الله سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام فبعث الله سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث الله عليهم منها نارًا فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: «فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ» [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ بطريق واضح مستبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ وهي مدينة ثمود قوم صالح، وهي بين المدينة والشام ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أراد: صالحًا وحده.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: الناقة وولدها والبئر، فالآيات في الناقة: خروجها من الصخرة، وكبرها، وقرب ولادتها، وغزارة لبنها ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ من الخراب ووقوع الجبل عليهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الصبح.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾ من الشرك والأعمال الخبيثة.

أخبرنا سالم بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه لما مر بالحِجْرِ قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، قال: وتقنَّع بردائه وهو على الرَّحْل(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني: القيامة ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فأعرضْ عنهم واعفُ عفوًا حسنًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ بخلقه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٧٨ - ٣٧٩)، ومسلم برقم ٢٩٨٠: (٤/ ٢٢٨٦).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال عمر وعلي: هي فاتحة الكتاب، وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[1].

واختلفوا في أن الفاتحة لِمَ سُمِّيت مثاني؟

قال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تُثنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما رُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: يقول الله عزَّ وجلَّ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[2].

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: إن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة، وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال.

عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئِين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل»[3].

قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني؛ لأن الفرائض والحدود والأمثال والخَبَر والعبر ثنيت فيها.

وقال طاووس: القرآن كله مثاني، قال الله تعالى: «ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ» [الزمر: ٢٣]، وسمي القرآن مثاني لأنَّ الأنباء والقصص ثنيت فيه.

وعلى هذا القول: المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا: وهي القرآن العظيم، وقيل: الواو مقحمة، مجازه: ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٨١). وانظر: «فتح الباري»: الموضع نفسه.

(٢) أخرجه مسلم رقم٣٩٥: (١/ ٢٩٦).

(٣) تقدم تخريجه فيما سبق: (١/ المقدمة).

وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار متمنيًا لها. نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تغتمَّ على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفلَ منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أَجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم»[1].

وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها لمَّا مَنَّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا.

رُوي أن سفيان بن عُيَيْنة رحمه الله تأوَّل قول النبي ﷺ: «ليس منَّا من لم يتغن بالقرآن»[2]، أي: يستغن بالقرآن، فتأوَّل هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ ليِّن جناحك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وارفق بهم، والجناحان لابن آدم جانباه.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال الفرَّاء: مجازه: أنذركم عذابًا كعذاب المقتسمين.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ جزَّؤوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرقوه وبدَّلوه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ يوم القيامة.

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا، قال محمد بن إسماعيل: قال عدَّة من أهل العلم: عن «لا إله إلا الله».

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال ابن عباس: أَظْهِرْه.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاصدع بأمر الله، ولا تخف أحدًا غير الله عزَّ وجلَّ، فإن الله كافيك مَن عاداك كما كفاك المستهزئين، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وقيل: استهزاؤهم واقتسامهم: هو أن الله عزَّ وجلَّ لما أنزل في القرآن سورة البقرة وسورة النحل وسورة النمل وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء: هذا في سورة البقرة،

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٩٦٣: (٤/ ٢٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٥٠١) وفي مواضع أخرى.

(٣) أخرج البخاري: (٩/ ٦٨).

ويقول هذا في سورة النحل، ويقول هذا في سورة العنكبوت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: فصلِّ بأمر ربك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ من المصلين المتواضعين.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ أي: الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم: «وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا».

ورُوي عن عمر - رضي الله عنه - قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي قد نوَّر الله قلبه! لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلَّة شراها أو شريت له بمائتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه»[1]، والله أعلم.

سورة النحل

مكية مائة وثمان وعشرون آية إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

﴿أَتَىٰٓ﴾ أي: جاء ودَنَا وقَرُبَ ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عرفة: تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع بعد، أي: أتى أمر الله وعدًا فلا تستعجلوه وقوعًا. ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ المراد منه القيامة.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الاستعجال: طلب الشيء قبل حينه.

ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصبعيه، وإن كادت لتسبقني»[2].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معناه: تعاظم بالأصاف الحميدة عمَّا يصفه به المشركون.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (١/ ١٠٨) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٥٠)، قال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٤٨): (أخرجه أحمد والطبري وسنده حسن).

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي، سماه روحًا؛ لأنه يُحيي به القلوب والحق. ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أعلِموا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾. وقيل: معناه: مروهم بقول «لا إله إلا الله» منذرين مخوِّفين بالقرآن إن لم يقولوا. وقوله: «﴿فَٱتَّقُونِ﴾»، أي: فخافون.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: ارتفع عما يشركون.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ جَدِلٌ بالباطل ﴿مُّبِينٌ﴾

نزلت في أُبي بن خلف الجمحي، وكان ينكر البعث، جاء بعظم رميم فقال: أتقول إن الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رمَّ؟ كما قال جل ذكره: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ» [يس: ٧٨]، نزلت فيه أيضًا.

والصحيح أن الآية عامة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحد نعم الله مع ظهورها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يعني: من أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولُحفًا تستدفئون بها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ بالنسل والدر والركوب والحمل وغيرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: لحومها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: تردونها بالعشيِّ من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها، وقدم الرواح؛ لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ آخر غير بلدكم، قال عكرمة: البلد مكة ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾ أي: بالمشقة والجهد. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بخلقه حيث جعل لهم هذه المنافع.

﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ يعني: وخلق الخيل، ﴿وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ يعني: وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها.

واحتج بهذه الآية من حرَّم لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس، وتلا هذه الآية، فقال: هذه للركوب (وإليه ذهب) الحَكَمُ ومالك وأبو حنيفة. وذهب جماعة إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق.

ومن أباحها قال: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منه تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، واحتجوا بما روى جابر - رضي الله عنه - قال: «نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخَّص في لحوم الخيل»(1). ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قيل: يعني: ما أعدَّ الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين، ولم تسمعه أُذن، ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: بيان طريق الهدى من الضلالة، والقصد: الصراط المستقيم.

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يعني: ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوجٌّ، فالقصد من السبيل: دين الإسلام، والجائر منها: اليهودية، والنصرانية، وسائر مِلَلِ الكفر.

قال جابر بن عبد الله: «قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ»: بيان الشرائع والفرائض. وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله: «قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ»: السنة، «وَمِنْهَا جَآئِرٌ»: الأهواء والبدع، دليله قوله تعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ» [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ نظيره: قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا» [السجدة: ١٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: من ذلك الماء شرب أشجاركم، وحياة نباتكم ﴿فِيهِ﴾ يعني: في الشجر ﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعون مواشيكم.

يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي: يُنْبِتُ الله لكم به، ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

(1) أخرجه البخاري: (٩/٦٤٨)، ومسلم برقم١٩٤١: (٣/١٥٤١).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ ذلل لكم ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ مذللات ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بإذنه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ﴾ لأجلكم، أي: وسخر ما خلق لأجلكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الدواب والأشجار والثمار وغيرها ﴿مُخْتَلِفًا﴾ نصب على الحال ﴿أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري. قال قتادة: مقبلة ومدبرة، وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والآخرى تدبر، تجريان بريح واحدة. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعني: التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذا رأيتم صنع الله فيما سخر لكم.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: تتحرك وتميل. ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا وطرقًا مختلفة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما تريدون فلا تضلون.

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ يعني: معالم الطرق، قال بعضهم: هاهنا تم الكلام ثم ابتدأ ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. قال محمد بن كعب والكلبي: أراد بالعلامات: الجبال، فالجبال علامات النهار، والنجوم علامات الليل. وقال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، ومعالم للطرق، ورجومًا للشياطين، فمن قال غير هذا فقد تكلّف ما لا علم له به[1].

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ يعني: الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يعني: الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لتقصيركم في شكر نعمه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: (٦/ ٢٩٥)، ووصله الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٩١ - ٩٢).

وسَّع عليكم النِّعم، ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أي: الأصنام ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: الأصنام ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ والقرآن يدل على أن الأصنام تُبْعث وتُجعل فيها الحياة فتتبرأ من عابديها.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ متعظِّمون.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ مَن في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ، ولا يدخلُ النار مَن في قلبهِ مثقالُ ذرةٍ من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا؟ قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجَمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ يعني: لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عِقَابها، إذا سأل الحاج: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأباطيلهم.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوب أنفسهم ﴿كَامِلَةً﴾ وإنما ذكر الكمال؛ لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون من الحسنات لا تكفِّر عنهم شيئًا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجة فيصدُّونهم عن الإيمان ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يحملون.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثلُ أُجورِ من تَبِعَه لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[٢].

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى

---

(١) أخرجه مسلم برقم٩١: (١/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٦٧٤: (٤/ ٢٠٦٠).

هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء. ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: قصد تخريب بنيانهم من أصولها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ يعني: أعلى البيوت ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من مأمنهم.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم بالعذاب ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخالفون المؤمنين فيهم، ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب؟ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم المؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ الهوان ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر، ونصب على الحال، أي: في حال كفرهم ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وانقادوا، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ شرك، فقال لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال عكرمة: عنى بذلك من قتل من الكفار ببدر.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟﴾ أي: قال لهم: ادخلوا ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم مَن يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه، فيقولون: ساحر، كاهن، شاعر، كذاب، مجنون، ولو لم تلقه خيرٌ لك، فيقول السائل: أنا شر وافدٍ إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة فألقاه، فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث، فذلك قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ يعني: أنزل خيرًا.

ثم ابتدأ فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كرامة من الله. قال ابن عباس: هي تضعيف الأجر إلى العشر. ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ولَدارُ الحال الآخرة ﴿خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال أكثر المفسرين: هي الجنة، ثم فسرها فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن

شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ﴾ مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم. ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ وقيل: يبلغونهم سلام الله ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَۚ﴾ يعني: يوم القيامة، وقيل: العذاب ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ أي: كفروا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبه إيَّاهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ﴾ يعني: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فلولا أن الله رضيها لغيَّر ذلك وهدانا إلى غيرها ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي: كما بعثنا فيكم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ وهو كلُّ معبود من دون الله ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هداه الله إلى دينه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي: وجبت بالقضاء السابق حتى مات على كفره ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: مآل أمرهم، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ يا محمد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ﴾، أي: لا يهدي الله من أضلَّه.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: مانعين من العذاب.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ

﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ وهم منكرُو البعث، قال الله تعالى رَدًّا عليهم: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: ليظهر لهم الحق فيما يختلفون فيه ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ يقول الله تعالى: إذا أردنا أن نبعث الموتى فلا تَعَبَ علينا في إحيائهم، ولا في شيء مما يحدث، إنما نقول له: كن، فيكون.

حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كذَّبَني عَبْدِي، ولم يكن ذلك له، وشَتَمَني عبدي ولم يكن ذلك له، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ، أن يقول: لن يعيدَنا كما بدأنا، وأما شتمُه إيَّايَ، أن يقول: اتخذ الله ولدًا، وأنا الصَّمَدُ، لم ألِدْ، ولم يكن لي كفوًا أحد»[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ عذبوا وأُوذوا في الله. نزلت في بلال وصُهيب وخبَّاب وعمَّار وعابس وجبر وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذَّبوهم.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ وهو أنه أنزلهم بالمدينة. وقيل: معناه لَنُحْسِنَنَّ إليهم في الدنيا.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، وقوله «لو كانوا يعلمون» ينصرف إلى المشركين؛ لأن المؤمنين كانوا يعلمونه.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ في الله، على ما نابهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظمَ من أن يكون رسوله بشرًا، فهلاً بعث إلينا مَلَكًا؟

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ مجازه: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يُوحى إليهم ولم نبعث ملائكة.

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أراد بالذكر: الوحيَ، وكان النبي ﷺ مبيِّنًا للوحي، وبيان الكتاب يطلب من السنة ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣٩).

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ عملوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من قبل، يعني: نمرودَ بن كنعان وغيره من الكفار ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ بالعذاب ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ تصرُّفهم في الأسفار، وقال ابن عباس: في اختلافهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بسابقين الله.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ والتخوُّف: التنقُّص، أي: ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حين لم يعجل بالعقوبة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من جسم قائم، له ظلٌّ ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: تميل وتدور من جانب إلى جانب، فهي في أول النهار على حال، ثم تتقلص، ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى «سُجَّدًا لِّلَّهِ»، فميلانُها ودورانُها: سجودها لله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ قال قتادة والضحاك: أما اليمين: فأول النهار، والشمال: آخر النهار، تسجد الظلال لله. ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إنما أخبر بما لغلبة ما لا يعقل على من يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أراد: من كل حيوان يدب، ويقال: السجود: الطاعة، والأشياء كلها مطيعة لله عزَّ وجلَّ من حيوانٍ وجماد. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ خصَّ الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة ما في السموات والأرض تشريفًا ورفعًا لشأنهم. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ كقوله: «وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ» [الأنعام: ١٨] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أرى ما لا ترونَ، وأسمعُ ما لا تسمعونَ، أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، والذي نفسي بيده ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وفيه مَلَكٌ يُمَجِّد الله، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيرًا وما تلذَّذْتُم بالنساءِ على الفُرُشَات، ولَصَعَدْتُم إلى الصُّعُداتِ تجأرون»، قال أبو ذر: يا ليتني كنتُ شجرةً تُعْضَدُ. رواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع عن أبي أحمد الزبيري عن إسرائيل وقال: «إلا وَمَلَكٌ واضعٌ جبهَته ساجدًا لله»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ٦٠١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٠٢)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٥١٠).

﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًاۚ﴾ دائمًا ثابتًا. معناه: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك، غير الله عزَّ وجلَّ، فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع. ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: تخافون، استفهام على طريق الإنكار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: وما يكن بكم من نعمة فمن الله ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ القحط والمرض ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ تضجُّون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ ليجحدوا، ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ أي: عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم، هذا وعيدٌ لهم.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ له حقًّا، أي: الأصنام ﴿نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ من الأموال، وهو ما جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم، فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا. ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ وهم: خزاعة وكنانة، قالوا: الملائكة بنات الله تعالى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يشتهونهم.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ متغيرًا من الغمِّ والكراهية ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ وهو ممتلىء حزنًا وغيظًا، فهو يكظمه، أي: يمسكه ولا يظهره.

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ أي: يختفي ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ من الحزن والعار، ثم يتفكر: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ ذكر الكناية ردًّا على «ما» ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هَوانٍ ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ أي: يخفيه منه، فيئده.

وذلك: أن مضر وخزاعة وتميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء، خوفًا من الفقر عليهم، وطمع

غير الأكفاء فيهن، وكان الرجل من العرب إذا وُلدت له بنت وأراد أن يستحييها: ألبسها جُبَّةً من صوف أو شعر، وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها: تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء، فإذا بلغ بها البئر قال لها: انظري إلى هذه البئر، فيدفعها من خلفها في البئر، ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ».

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين، نظيره: «أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾» [النجم: ٢١ - ٢٢]، وقيل: بئس حكمهم وأد البنات.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني: لهؤلاء الذين يصفون لله البنات لأنفسهم البنينَ ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ صفة السوء من الاحتياج إلى الولد، وكراهية الإناث، وقتلهن خوف الفقر ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصفة العليا، وهي التوحيد، وأنه لا إله إلا هو. وقيل: جميع صفات الجلال والكمال، من العلم، والقدرة، والبقاء، وغيرها من الصفات.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾. قال قتادة في الآية: قد فعل الله ذلك في زمن نوح، فأهلك مَنْ على الأرض، إلا مَنْ كان في سفينة نوح ﷺ. رُوي أنَّ أبا هريرة سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بئس ما قلت، إن الحبارى تموت في وكرها بظلم الظالم. وقال ابن مسعود: إن الجُعَل لتعذب في جحرها بذنب ابن آدم. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ يمهلهم بحلمه إلى أجل ﴿مُّسَمًّى﴾ إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، يعني: البنات ﴿وَتَصِفُ﴾ أي: تقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: البنين. قال يمان: يعني بـ «الحسنى»: الجنة في المعاد، إن كان محمد صادقًا في البعث. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا، قال ابن عباس: بلى ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ في الآخرة

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. قال الفراء: مقدّمون إلى النار، ومنه قوله ﷺ: «أنا فَرَطكُم على الحوض»[1]، أي: متقدمكم.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلنا إلى هذه الأمة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ ناصرهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وقرينهم، سمّاه وليًّا لهم؛ لطاعتهم إيّاه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من الدين والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا وهدًى ورحمة، فالهدى والرحمة عطف على قوله: «لتبين».

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بيبوستها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سمع القلوب لا سمع الآذان.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ نسقيكم مما في بطونه اللبن، إذ ليس لكلها لَبَن، واللّبن فيه مضمرٌ. ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما في الكرش من الثقل، فإذا خرج منه لا يُسمى فرثًا ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ هنيئًا يجري على السهولة في الحلق.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ يعني: ولكم أيضًا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾، أي: ما تتخذون منه ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾. قال قوم: «السَّكَر»: الخمر، و«الرزق الحسن»: الخَلُّ والزبيب والتمر والرُّبُّ، قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر، وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد. وقال بعضهم: «السَّكَر» النبيذ المُسْكِر، وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتدَّ، والمطبوخ من العصير، وهو قول الضحاك والنخعي.

ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرمه يقول: المراد من الآية: الإخبار لا الإحلال.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٦٣)، ومسلم برقم٢٤٩: (١/ ٢١٨).

وأولى الأقاويل أن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ منسوخ، رُوي عن ابن عباس قال: «السَّكَر»: ما حرم من ثمرها، و«الرزق الحسن»: ما أحل. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته. ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يبنون. ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: «وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ» [النمل: ٢٣]. ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قيل: هي نعت الطرق، يقول: هي مذللة للنحل سهلة المسالك، قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان سلكته، وقال آخرون: الذلل نعت النحل، أي: مطيعة منقادة بالتسخير، يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان، ولها يعسوب إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت. ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسل ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أبيض وأحمر وأصفر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل، وقال مجاهد: أي: في القرآن، والأول أولى.

عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلقَ بطنُه، فقال رسول الله ﷺ: «اسقِهِ عسلاً»، فسقاه، ثم جاء فقال: إني سقيتُه فلم يَزِدْهُ إلا استطلاقًا، فقال النبي ﷺ له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: «اسقه عسلاً»، قال: قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»، فسقاه فبرأ[1].

قال عبد الله بن مسعود: العسلُ شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صبيانًا أو شبانًا أو كهولاً ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أردئه، قال مقاتل: يعني الهرم، قال قتادة: أرذل العمر تسعون سنة. ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ لكي لا يعقل

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ١٣٩)، ومسلم برقم٢٢١٧: (٤/ ١٧٣٦ - ١٧٣٧).

بعد عقله الأول شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخلِ، والكسلِ، وأرذل العُمُرِ، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»[1].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ بسط على واحدٍ، وضيّق على الآخر، وقلَّل وكثَّر. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ من العبيد ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك، يقول الله تعالى: لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني، يلزم به الحجة على المشركين. قال قتادة: هذا مَثَل ضربه الله عزَّ وجلَّ، فهل منكم أحد يشركه مملوكه في زوجته وفراشه وماله؟ أفتعدلون بالله خلقه وعباده؟! ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بالإشراك به.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: النساء، خلق من آدم زوجته حواء، وقيل: «مِّنْ أَنفُسِكُمْ»، أي: من جنسكم أزواجًا ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قال ابن مسعود والنخعي: الحفدة أختان الرجل على بناته. وعن ابن مسعود أيضًا: أنهم الأصهار، فيكون معنى الآية على هذا القول: وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات، تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار.

وقال عكرمة والحسن والضحاك: هم الخدم، وقال مجاهد: هم الأعوان، مَنْ أعانك فقد حفدك. وقال عطاء: هم ولد ولد الرجل، الذين يعينونه ويخدمونه. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ من النِّعم والحلال ﴿أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ﴾ يعني: الأصنام ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يعني: التوحيد والإسلام. وقيل: «الباطل»: الشيطان، أمرهم بتحريم البَحِيْرَة والسائبة، و«بنعمة الله»، أي: بما أحلَّ الله لهم، «يكفرون»: يجحدون تحليله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ يعني: المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: النبات ﴿شَيْـًٔا﴾ قال الأخفش: هو بدل من الرزق، معناه: أنهم لا يملكون من أمر الرزق شيئًا، قليلاً ولا كثيرًا. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون على شيء، يذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضر.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعني: الأشباه، فتشبِّهونه بخلقه، وتجعلون له شريكًا، فإنه واحد لا مثل له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ خطأ ما تضرِبُون من الأمثال، ثم ضرب مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال جل ذِكْره:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٨٧ - ٣٨٨)، ومسلم برقم٢٧٠٦: (٤/ ٢٠٨٠).

ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هذا مَثَلُ الكافر، رزقه الله مالاً، فلم يقدِّم فيه خيرًا ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ هذا مَثَلُ المؤمن، أعطاه الله مالاً، فعمل فيه بطاعة الله، وأنفقه في رضاء الله، سرًّا وجهرًا، فأثابه الله عليه الجنة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ ولم يقل يستويان لمكان «من» وهو اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع، وكذلك قوله: «لا يستطيعون» بالجمع لأجل «ما».

معناه: هل يستوي هذا الفقير البخيل والغنيُّ السخي؟ كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن المطيع.

وروى ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى: «عَبْدًا مَّمْلُوكًا» أي: أبو جهل بن هشام «وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا»: أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، ثم قال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ليس الأمر كما تقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله عزَّ وجلَّ؛ لأنه المنعِم والخالق والرازق، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون، ثم ضرب مثلاً للأصنام فقال:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقل ووبال ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ ابن عمه، وأهل ولايته ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يرسله ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يفهم عنه، هذا مَثَلُ الأصنام، لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عابده، يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه. ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني: الله تعالى قادر، متكلم، يأمر بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال الكلبي: يعني: يدلكم على صراط مستقيم. وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قرب كونها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إذا قال له: «كن» فيكون ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بل هو أقرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء.

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا

يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ تم الكلام، ثم ابتدأ فقال جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأُمهات، وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ نعمة الله.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذللات ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الهواء بين السماء والأرض. ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في الهواء ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ التي هي من الحجر والمدر ﴿سَكَنٗا﴾ أي: مسكنًا تسكنونه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ يعني: الخيام، والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخف عليكم حملها ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ رحلتكم في سفركم، ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ في بلدكم، لا تثقل عليكم في الحالين. ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ يعني: أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، والكنايات راجعة إلى الأنعام ﴿أَثَٰثٗا﴾ قال ابن عباس: مالاً، قال مجاهد: متاعًا. قال القتيبي: «الأثاث»: المال أجمع، من الإبل والغنم والعبيد والمتاع. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ بلاغًا ينتفعون بها ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ يعني: الموت.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ تستظلُّون بها من شدة الحرِّ، وهي ظلال الأبنية والأشجار ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ يعني: الأسراب والغيران، واحدها كَنٌّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾ قمصًا من الكتان والقَزِّ والقطن والصوف ﴿تَقِيكُمُ﴾ تمنعكم ﴿ٱلۡحَرَّ﴾ قال أهل المعاني: أراد الحرَّ والبَرْدَ، فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ يعني: الدروع، والبأس: الحرب، يعني: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم. ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ تُخْلِصون له الطاعة.

قال عطاء الخراساني: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم، فقال: «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا»، وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال: «وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ»؛ لأنهم كانوا أصحاب وَبَرٍ وشعرٍ، وكما قال: «وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ» [النور: ٤٣]، وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج، وقال:

«تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ»، وما تقي من البرد أكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حرٍّ.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فإن أعرضوا فلا يلحقك في ذلك عَتَبٌ ولا سِمَةُ تقصير ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ قال السُّدي: يعني: محمدًا ﷺ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يكذبون به. وقال قوم: هي الإسلام. وقال مجاهد وقتادة: يعني: ما عدَّ لهم من النِّعم في هذه السورة، يقرُّون أنها من الله، ثم إذا قيل لهم: تصدَّقوا وامتثِلوا أمر الله فيها، ينكرونها فيقولون: ورثناها من آبائنا.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجاحدون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: رسولاً ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار، وقيل: في الكلام أصلاً ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يسترضون، يعني: لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون، وحقيقة المعنى في الاستعتاب: أنه التعرض لطلب الرضا، وهذا الباب مُنسدٌّ في الآخرة على الكفار.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: جهنَّم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ أوثانهم ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ أربابًا ونعبدهم ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ يعني: الأوثان ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: قالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في تسميتنا آلهة، ما دعوناكم إلى عبادتنا.

﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ يعني: المشركين ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم، ولم تُغْنِ عنهم آلهتهم شيئًا ﴿وَضَلَّ﴾ وزال ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من أنها تشفع لهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منعوا الناس عن طريق الحق ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عبد الله: عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال.

وقال ابن عباس ومقاتل: يعني: خمسة أنهار من صُفْرٍ مذاب كالنار تسيل من تحت العرش، يعذبون بها، ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا بالكفر، وصدِّ الناس عن الإيمان.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيًّا من أنفسهم؛ لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين بُعِثت إليهم. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى الناس. وعن ابن عباس: «العدل»: التوحيد، و«الإحسان»: أداء الفرائض. ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صلة الرحم. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما قَبُحَ من القول والفعل، وقال ابن عباس: الزنا ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما لا يُعْرف في شريعةٍ ولا سنةٍ ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الكبر والظلم. ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

وقال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن هذه الآية. وقال أيوب عن عكرمة: إن النبي ﷺ قرأ على الوليد: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ» إلى آخر الآية فقال له: يا ابن أخي أعِدْ، فأعاد عليه، فقال: إن له والله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ والعهد هاهنا هو: اليمين. قال الشعبي: العهد يمين، وكفارته كفارة يمين ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تشديدها، فتحنثوا فيها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شهيدًا بالوفاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، وإن كان حكمها عامًّا؟

قيل: نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أمرهم الله بالوفاء بها. وقال مجاهد وقتادة: نزلت

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٢٧٠).

في حلف أهل الجاهلية، ثم ضرب الله مثكلاً لنقض العهد فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد غزله وإحكامه. ومعناه: أنها لم تكفّ عن العمل، ولا حين عملت كفَّت عن النقض، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد، لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به. ﴿أَنكَاثًا﴾ يعني: أنقاضًا، واحدها «نكث»: وهو ما نقض بعد الفتل، غزلاً كان أو حبلاً.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دَخلاً وخيانة وخديعة. ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي: لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر وأعلى ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قومًا أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العز بنقض العهد، بأن كانت أُمة أكثر من أُمة، فنهاهم الله عن ذلك. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على ملة واحدة، وهي الإسلام ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بخذلانه إيَّاهم، عدلاً منه ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إيَّاهم، فضلاً منه ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ خديعة وفسادًا ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فتغرون بها الناس، فيسكنون إلى أيمانكم، ويأمنون، ثم تنقضونها ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين، والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زلَّت قدمه ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: معناه: سهَّلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عَرَضًا قليلاً من

الدنيا، ولكن أوفوا بها ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ﴾ من الثواب لكم على الوفاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَضْل ما بين العوضين، ثم بيَّن ذلك، فقال:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي: الدنيا وما فيها يفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على الوفاء في السراء والضراء ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[١].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء: هي الرزق الحلال، قال الحسن: هي القناعة، وقال مقاتل بن حيان: يعني العيش في الطاعة، وقال أبو بكر الوراق: هي حلاوة الطاعة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أردت قراءة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن. وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة. ولفظه: أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». عن ابن جبير بن مطعم، عن أبيه: «أنه رأى النبي ﷺ يصلي، قال: فكبَّر، فقال: الله أكبر كبيرًا، ثلاث مرات، والحمد لله كثيرًا، ثلاث مرات، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاث مرات اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من هَمْزِهِ ونَفْخِه، ونَفْثِه».

قال عمروٌ: ونفخُه: الكِبْر، ونَفْثُه: الشعر، وهَمْزه: الموتة، والموتة: الجنون، والاستعاذة بالله هي الاعتصام به[٢].

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: ٤/ ١٧٥، وصححه الحاكم في: (٤/ ٣٠٨)، وتعقبه الذهبي بأن فيه انقطاعًا.

(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ٣٧٢)، وابن ماجه: (١/ ٢٦٥)، وصححه ابن حبان: ص١٢٣، والحاكم: (١/ ٢٣٥).

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ حجة وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال سفيان: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يُغفر. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يطيعونه ويدخلون في ولايته ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بالله مشركون.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ يعني: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكمًا آخر ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يا محمد، ﴿مُفْتَرٍ﴾ مُخْتَلِق، وذلك أن المشركين قالوا: إن محمدًا يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غدًا، ما هو إلاَّ مفترٍ، يتقوَّله من تلقاء نفسه. قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن، وبيان الناسخ من المنسوخ.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا ويقينًا ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ آدمي، وما هو من عند الله، واختلفوا في هذا البشر: قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلم قينًا بمكة، اسمه «بَلْعَام»، وكان نصرانيًّا، أعجميَّ اللسان، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج، فكانوا يقولون إنما يعلمه «بَلْعام».

وقال عكرمة: كان النبي ﷺ يُقرِيء غلامًا لبني المغيرة يقال له: «يعيش»، وكان يقرأ الكتب، فقالت قريش: إنما يعلمه «يعيش».

وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني، عبدٍ لبعض بني الحضرمي، يقال له: «جبر»، وكان يقرأ الكتب.

قال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يميلون ويشيرون إليه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ الأعجمي: الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية، والعجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا، والأعرابي البدوي، والعربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحًا ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فصيح، وأراد باللسان القرآن، والعرب تقول: اللغة لسان، ورُوي أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ لا يرشدهم الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون.

فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لا محمد ﷺ. قيل: «إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ»: إخبار عن فعلهم، و«هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ»: نعت لازم لهم، كقول الرجل لغيره: كذبت وأنت كاذب، أي: كذبت في هذا القول، ومن عادتك الكذب.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عمار، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأُمه سُميَّة وصهيبًا وبلالاً وخبَّابًا وسالمًا فعذبوهم، فأما سُمية: فإنها ربطت بين بعيرين ووُجِيء قُبُلُها بحربة فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قُتِلا في الإسلام، وأما عمار: فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا.

قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عمارًا وغطُّوه في بئر ميمون، وقالوا له: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك، وقلبه كاره، فأخبر رسول الله ﷺ بأن عمارًا كفر، فقال: «كلا، إن عمارًا مُلِيء إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال رسول الله ﷺ: «ما وراءك»؟ قال: شرٌّ يا رسول الله، نلتُ منك، وذكرت آلهتهم، قال: «كيف وجدت قلبك»، قال: مطمئنًا بالإيمان، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «إن عادُوا لَكَ فعُدْ لهم بما قلت»، فنزلت هذه الآية[1].

وقال مقاتل: نزلت في جَبْرٍ، مولى عامر بن الحضرمي، أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرهًا ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثم أسلم مولى جبر، وحسن إسلامه، وهاجر جبر مع سيده ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: فتح صدره للكفر بالقبول واختاره ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأجمع العلماء على: أن من أُكره على كلمة الكفر، يجوز له أن يقول بلسانه، وإذا قال بلسانه غيرَ معتقدٍ لا يكون كفرًا، وإن أبى أن يقول حتى يقتل كان أفضل.

واختلف أهل العلم في طلاق المكره، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقع.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٤/ ١٨١)، والحاكم: (٢/ ٣٥٧).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ لا يرشدهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ عمّا يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: المغبونون.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ عذبوا ومنعوا من الإسلام، فتنهم المشركون ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

نزلت في عياش بن أبي ربيعة، أخي أبي جهل من الرضاعة، وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسيد الثقفي، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم، ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا.

وقال الحسن وعكرمة: نزلتْ في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزلّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة، فاستجاره له عثمان، وكان أخاه لأمه من الرضاعة، فأجاره رسول الله ﷺ، ثم إنه أسلم وحسن إسلامه، فأنزل الله هذه الآية.

۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾ تخاصم وتحتج ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ بما أسلفت من خير وشر، مشتغلاً بها لا تتفرغ إلى غيرها ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

رُوي أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: خوِّفنا، قال: يا أمير المؤمنين، والذي نفسي بيده، لو وافيتَ يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيًّا لأتت عليك ساعات وأنت لا تهمك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى مَلَك مقرَّب، ولا نبي مرسل منتخب، إلا وقع جاثيًا على ركبتيه، حتى إبراهيم خليل الرحمن، يقول: يا رب، لا أسألك إلا نفسي، وإن تصديق ذلك: الذي أنزل الله عليكم «يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا».

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ يعني: مكة، كانت آمنة، لا يهاج أهلها ولا يُغار عليها ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارّة بأهلها، لا يحتاجون إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يُحمل إليها من البر والبحر، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ جمع النعمة، ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين، وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجِيَف والكلاب الميتة والعهن: وهو الوبر يعالج بالدم، حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، ثم إن رؤساء مكة كلّموا رسول الله ﷺ وقالوا: هذا عَاديتَ الرجال، فما بال النساء والصبيان؟ فأذِنَ رسول الله ﷺ للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون. وذكر اللباس؛ لأن ما أصابهم من الهزال والشحوب وتغير ظاهرهم عما كانوا عليه من قبل كاللباس لهم ﴿وَالْخَوْفِ﴾ يعني: بعوث النبي ﷺ وسراياه التي كانت تطيف بهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: لا تقولوا لوصف ألسنتكم، أو لأجل وصفكم الكذب، أي: أنكم تُحلّون وتُحرّمون لأجل الكذب لا لغيره ﴿هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ يعني: البحيرة والسائبة ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فتقولون: إن الله أمرنا بهذا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من عذاب الله.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يعني: الذي هم فيه متاع قليل، أو لهم متاع قليلٌ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ يعني: في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: «وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ» [الأنعام: ١٤٦] الآية.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ فحرمنا عليهم ببغيهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ معنى الإصلاح: الاستقامة على التوبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد الجهالة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ قال ابن مسعود: الأُمة: معلّم الخير، أي: كان معلمًا للخير، يأتَّم به أهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أُمة. قال مجاهد: كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار. قال قتادة: ليس من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه. ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ مطيعًا له، ﴿حَنِيفٗا﴾ مسلمًا مستقيمًا على دين الإسلام، ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَٰهُ﴾ اختاره ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: إلى دين الحق.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ يعني: الرسالة والخلة. وقال مقاتل بن حيان: يعني: الصلوات في قول هذه الأُمة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم. ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مع آبائه الصالحين في الجنة.

ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ حاجًّا مسلمًا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ قيل: معناه: إنما جعل السبت لعنةً على الذين اختلفوا فيه، أي: خالفوا فيه.

قال الكلبي: أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة، فقال: تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يومًا، فاعبدوه يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه لصنعتكم، وستة أيام لصناعتكم، فأبوا وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق يوم السبت، فجعل ذلك اليوم عليهم وشدَّد عليهم فيه، ثم جاءهم

عيسى عليه السلام بيوم الجمعة، فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ـ يعنون: اليهود ـ فاتخذوا الأحد، فأعطى الله الجمعة هذه الأُمَةَ، فقبلوها وبُورك لهم فيها.

حدثنا أبو هريرة قال: «نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تَبَع، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غد»(١).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قال قتادة: الذين اختلفوا فيه هم اليهود، استحلَّه بعضُهم، وحرَّمه بعضهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالقرآن ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ يعني: مواعظ القرآن. وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب. ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن، أي: أعرِضْ عن أذاهم، ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ هذه الآيات نزلت بالمدينة في شهداء أُحد، وذلك أن المسلمين لمَّا رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد، من تبقير البطون، والمُثْلة السيئة ـ حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلاَّ مُثِّلَ به غير حنظلة بن الراهب، فإن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان، فتركوا حنظلة لذلك ـ فقال المسلمون حين رأوا ذلك: لئن أَظْهَرَنا الله عليهم لنزِيْدَنَّ على صنيعهم، ولنُمَثِّلن بهم مُثْلة لم يفعلها أحدٌ من العرب بأحد، فوقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة بن عبد المطلب، وقد جدعوا أنفه وأُذنه، وقطعوا مذاكيره، وبقرُوا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبدًا، حمزة أكرم على الله تعالى من أن يُدْخِل شيئًا من جسده النار»، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى عمه حمزة، ونظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، فقال النبي ﷺ: «رحمة الله عليك، فإنك ما علمتُ ما كنتَ إلا فاعلاً للخيرات، وصولاً للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرَّني أن أدعك حتى تحشر من أفواجٍ شتى، أما والله لئن أظفرني الله بهم لأُمثِّلنَّ بسبعين منهم مكانك»، فأنزل الله تعالى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ ...» الآية، «وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ»، أي: ولئن عفوتم لهو خير للعافين فقال النبي ﷺ: «بل نصبر»، وأمسك عما أراد وكفَّر عن يمينه.

قال ابن عباس والضحاك: كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي ﷺ بقتال من قاتله ومنع من الابتداء بالقتال، فلما أعز الله الإسلام وأهله نزلت براءة، وأُمروا بالجهاد ونسخت هذه الآية.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٥٤)، ومسلم: (٢/ ٥٨٦).

وقال النَّخَعيُّ والثوريُّ ومجاهد وابن سيرين: الآية محكمة نزلت في من ظلم بظلامة، فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه، أمر بالجزاء والعفو، ومنع من الاعتداء، ثم قال لنبيه ﷺ:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتوفيقه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في إعراضهم عنك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: فيما فعلوا من الأفاعيل. قال أبو عمرو: «الضَّيق» بالفتح: الغم، وبالكسر: الشِّدة. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ المناهي ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بالعون والنصرة.

سورة الإسراء

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحان الله: تنزيه الله تعالى من كل سوء، ووصفه بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة، ويكون «سبحان» بمعنى التعجب، «أسرى بعبده»، أي: سيَّره، وكذلك سرى به، والعبد هو: محمد ﷺ.

﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: كان الإسراء من مسجد مكة، روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في «الحِجْر بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق»[1]، فذكر حديث المعراج. وقال قوم: عرج به من دار أُم هانىء بنت أبي طالب[2]، ومعنى قوله: «مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، أي: من الحرم.

قال مقاتل: كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، ويقال: كان في رجب، وقيل: كان في شهر رمضان.

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ يعني: بيت المقدس، وسُمي أقصى؛ لأنه أبعد المساجد التي تزار.

﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالأنهار والأشجار والثمار، وقال مجاهد: سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة. ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ من عجائب قدرتنا، وقد رأى هناك الأنبياء والآيات الكبرى.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ذكر «السميع» لينبِّه على أنه المجيب لدعائه، وذكر «البصير» لينبه على

(١) وهو مروي في «الصحيحين» وغيرهما، وسيأتي تخريجه قريبًا.
(٢) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٤٠٢ - ٤٠٣).

أنه الحافظ له في ظلمة الليل. ورُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تقول: ما فقد جسد النبي ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه[1]. والأكثرون على أنه أسرى بجسده في اليقظة، وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِّج عني سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرَّج صدري، ثم غسله بماء زمزمَ، ثم جاء بطَسْتٍ من ذهب ممتلىءٍ حكمةً وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه».

وقال سعيد وهشام: «ثم غُسِلَ البطنُ بماء زمزم ثم ملىء إيمانًا وحكمةً، ثم أُوتيتُ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طَرْفِهِ، فركبتُه فانطلقت مع جبريل حتى أتيت بيت المقدس»، قال: «فربطته بالحلقة التي تَرْبِط بها الأنبياء»، قال: «ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرةَ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنِعْمَ المجيءُ جاء، ففُتِح، فلما خَلَصْتُ، فإذا فيها آدم، فقال لي: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح».

وفي حديث أبي ذر: عَلَوْنَا السماء الدنيا، فإذا رجلٌ قاعدٌ عن يمينه أَسْوِدَةٌ وعن يساره أَسْوِدة، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال: مرحبًا بالنبيِّ الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيءُ جاء، ففتح، فلما خَلَصْتُ، إذا بيحيى وعيسى عليهما السلام وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلِّم عليهما، فسلمت فردَّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خَلَصْتُ، فإذا يوسف، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن، قال: هذا يوسف فسلِّمْ عليه، فسلمتُ عليه فردَّ عليَّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل قيل: ومَن معك؟

---

(١) وقد تعقب الطبري رحمه الله هذا الرأي وردَّه ردًّا شديدًا، انظر: (١٥/١٦ - ١٧).

قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خَلَصْتُ فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيءُ جاء، فلما خَلَصْتُ فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خَلَصْتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما جاوزتُ بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بُعِثَ بعدي يدخل الجنةَ من أُمته أكثرُ ممن يدخلها من أُمتي.

ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خَلَصْتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، فَرُفِع لي البيت المعمور، فسألت جبريل؟ فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم.

وقال ثابت عن أنس: فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَكٍ لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا نَبِقُها مثل قِلاَل هَجَرَ، وإذا ورقها مثل آذان الفِيَلة، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيَّرت، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنِها، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ فقال: أما الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

وأوحى إليَّ ما أوحى، فَفَرَض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخَبَرْتُهُم، قال: فرجعتُ إلى ربي فقلت: يا رب خفِّف على أُمتي، فحطَّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمسًا، قال: إن أُمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال: يا محمَّدُ، إنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلة، لكل صلاةٍ عَشْرٌ، هي خمسٌ وهي خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، ومَنْ همَّ بحسنة فلم

يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتُه، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك.

فقلت: سألت ربي حتى استحييت ولكني أرضى وأُسلِّمُ، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي، ثم أُدْخِلْتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك.

قال ابن شهابٍ: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: ثم عُرِج بي حتى ظهرتُ لمستوًى فيه صريف الأقلام[1].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا﴾ بأن لا ﴿تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربًا وكفيلاً.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ قال مجاهد: هذا نداء، يعني: يا ذرية من حملنا ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة فأنجيناهم من الطوفان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ كان نوح عليه السلام إذا أكل طعامًا أو شرب شرابًا أو لبس ثوبًا قال: الحمد لله؛ فسُمِّي عبدًا شكورًا، أي: كثير الشكر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي: أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتب أنهم سيفسدون. والقضاء على وجوه: يكون أمرًا، كقوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ» [الإسراء: ٢٣]. ويكون حكمًا، كقوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ» [يونس: ٩٣، والنحل: ٧٨]. ويكون خَلْقًا، كقوله: «فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ» [فصلت: ١٢].

وقال ابن عباس وقتادة: يعني: وقضينا عليهم، و«إلى» بمعنى «على»، والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ. ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ لام القسم، مجازه: والله لتفسدن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ بالمعاصي، والمراد بالأرض: أرض الشام وبيت المقدس ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ ولتستكبِرُنَّ، ولتظلمن الناس ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني: أولى المرتين. قال قتادة: إفسادهم في المرة الأولى: ما خالفوا من أحكام التوراة، وركبوا المحارم. وقال ابن إسحاق: إفسادهم في المرة الأولى: قتل شعياء بين

---

(١) هذا الحديث برواياته وطرقه التي ساقها المصنف: أخرجه البخاري: (١/ ٤٥٨ - ٤٥٩)، وفي: (٦/ ٣٠٢ - ٣٠٣)، وأخرجه مسلم برقم١٦٢ - ١٦٤: (١/ ١٤٥ - ١٥١).

الشجرة، وارتكابهم المعاصي. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ قال قتادة: يعني: جالوت الخزري وجنوده، وهو الذي قتله داود. وقال سعيد بن جبير: يعني: سنجاريب من أهل نينوي. وقال ابن إسحاق: بختنصر البابلي وأصحابه، وهو الأظهر. ﴿أُولِي بَأْسٍ﴾ ذوي بطش ﴿شَدِيدٍ﴾ في الحرب ﴿فَجَاسُوا﴾ أي: فطافوا وداروا ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ وسطها، يطلبونكم ويقتلونكم، والجوس: طلب الشيء بالاستقصاء، قال الفرَّاء: جاسوا: قتلوكم بين بيوتكم. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ قضاء كائنًا لا خلف فيه.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ يعني: الرجعة والدولة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ عددًا، أي: من ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لها ثوابها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كقوله تعالى: «فَسَلَامٌ لَّكَ» [الواقعة: ٩١]، أي: عليك، وقيل: فلها الجزاء والعقاب.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة من إفسادكم، وذلك قصدهم قتل عيسى عليه السلام حين رفع، وقتلهم يحيى بن زكريا عليه السلام، فسلط الله عليهم الفرس والروم، خردوش وطيطوس حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: تحزن وجوهكم، وسوء الوجه بإدخال الغم والحزن. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ يعني: بيت المقدس ونواحيه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتْبِيرًا﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم، فيردَّ الدولة إليكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة، قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمدًا ﷺ فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجنًا ومحبسًا، من الحصر: وهو الحبس. قال الحسن: حصيرًا، أي: فراشًا، وذهب إلى الحصير الذي يبسط ويفرش.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: إلى الطريقة التي هي أصوب، وقيل: الكلمة التي

هي أعدل: وهي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ يعني: القرآن ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو الجنة.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ وهو النار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ معناه: ويدعو الإنسان على ماله وولده ونفسه ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ فيقول عند الغضب: اللهم العنه وأهلِكْه ونحوهما ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: كدعائه ربه بالخير أن يهب له النعمة والعافية، ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك، ولكن الله لا يستجيب بفضله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه، قاله جماعة من أهل التفسير، وقال ابن عباس: ضَجِرًا، لا صبر له على السَّرَّاء والضَّرَّاء.

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: علامتين دالَّتَيْن على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن عباس: جعل الله نور الشمس سبعين جزءًا، ونور القمر كذلك، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءًا فجعلها مع نور الشمس.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ منيرة مضيئة، يعني: يبصر بها، ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار، ولم يَدْرِ الصائم متى يفطر، ولم يَدْرِ وقت الحج ولا وقت حلول الآجال ولا وقت السكون والراحة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال ابن عباس: عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان.

وقال أهل المعاني: أراد بالطائر: ما قضى الله عليه أنه عامله، وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة، سُمِّي «طائرًا» على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ يقول الله تعالى: ونحن نخرج له ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ وفي الآثار: إن الله تعالى يأمر الملك بطي الصحيفة إذا تَمَّ عمر العبد فلا تنشر إلى يوم القيامة.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي: يقال له: اقرأ كتابك، قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ محاسبًا، قال الحسن: لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك، قال قتادة: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئًا في الدنيا.

﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لها ثوابه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن عليها عقابه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل حاملة حمل أُخرى من الآثام، أي: لا يؤخذ أحد بذنب أحد ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إقامةً للحجة وقطعًا للعذر، وفيه دليل على أن ما وَجَبَ وَجَبَ بالسمع لا بالعقل.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قرأ مجاهد «أمَّرنا» بالتشديد، أي: سلَّطنا شرارها فعصوا، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب «آمرنا» بالمد، أي: أكثرنا.

وقرأ الباقون مقصورًا مخففًا، أي: أمرنا بالطاعة فعصوا.

﴿مُتْرَفِيهَا﴾ منعَّميها وأغنياءها ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ وجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي: خربناها وأهلكنا من فيها.

عن زينب بنت جحش أنَّ النبي ﷺ دخل عليها فزِعًا وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلَّق بأصبعه الإبهام والتي تليها»، قالت زينب فقلت: يا رسول الله، أنهلَكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[1].

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: المكذبة ﴿مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ يُخوِّف كفار مكة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ قال عبد الله بن أبي أوفى: القَرْنُ مائة وعشرون سنة، فبعث رسول الله ﷺ في أول قرن، وكان في آخره يزيد بن معاوية، وقيل: مائة سنة، ورُوي عن محمد بن القاسم عن عبدالله بن بسر المازني أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرنًا»[2]، قال محمد بن القاسم فمازلنا نعدُّ له حتى تم له مائة سنة، ثم مات.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ١٠٦)، ومسلم برقم ٢٨٨٠: (٤/ ٢٢٠٧).

(٢) أخرجه ابن جرير: (١٥/ ٥٨)، وذكره البخاري في «التاريخ الصغير»: ص٣٩، وأخرجه أبو نُعيم في «معرفة الصحابة» كما في «التهذيب»: (٥/ ١٣٩).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني: الدنيا، أي: الدار العاجلة ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ من البسط والتقتير ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن نفعل به ذلك أو إهلاكه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يدخل نارها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ عمل عملها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: يرزقهما جميعًا ثم يختلف بهما الحال في المآل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ رزق ربك ﴿مَحْظُورًا﴾ ممنوعًا عن عباده، فالمراد من العطاء: العطاء في الدنيا وإلا فلا حظَّ للكفار في الآخرة.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل الصالح، يعني: طالب العاجلة وطالب الآخرة ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب مع النبي ﷺ والمراد غيره.

وقيل: معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلهًا آخر ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ مذمومًا من غير حمد، مخذولاً من غير نصر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر ربك، قاله ابن عباس وقتادة والحسن. قال الربيع بن أنس: وأوجب ربك. قال مجاهد: وأوصى ربك. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحسانًا برًّا بهما وعطفًا عليهما. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فيه ثلاث لغات، ومعناها واحد: وهي كلمة كراهية. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ حسنًا جميلاً ليِّنًا، قال ابن المسيب: كقول العبد المذنب للسيد الفظ. وقال مجاهد: لا تسمِّيهما، ولا تكنِّهما، وقل: يا أبتاه، يا أُماه. وقال أيضًا: إذا بلغا عندك من الكبر ما يبولان فلا تتقذرهما، ولا تقل لهما أُف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرًا.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: أَلِنْ جانبك لهما واخضع، قال عروة بن الزبير: لِنْ لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحبَّاه ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ من الشفقة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أراد: إذا كانا مسلمين.

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ إن شئت أو ضيّع»[١]. وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد»[٢]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنةَ منَّان، ولا عاقٌّ، ولا مُدمنُ خمرٍ»[٣]. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ أتى عليه شهرُ رمضان فلم يُغْفَرْ له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه الكِبَرُ فلم يُدْخِلاَه الجنةَ»[٤].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من برِّ الوالدين وعقوقهما ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أبرارًا مطيعين بعد تقصيرٍ كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ بعد المعصية ﴿غَفُورًا﴾.

قال سعيد بن جبير في هذه الآية: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به. وقال سعيد بن المسيب: «الأوَّاب»: الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب. وقال سعيد بن جبير: الرَّجَّاع إلى الخير. وعن ابن عباس قال: هو الرجَّاع إلى الله فيما يحزبه وينوبه.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعني: صلة الرحم، وأراد به: قرابة الإنسان، وعليه الأكثرون. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي: لا تنفق مالك في المعصية. وقال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرًا، ولو أنفق مُدًّا في باطل كان تبذيرًا. وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه. قال شعبة: كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ٢٤ - ٢٥)، وقال: (هذا حديث صحيح)، وابن ماجه: (٢/ ١٢٠٨)، وصححه ابن حبان برقم٢٠٢٣: ص٤٩٦ من «موارد الظمآن»، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ١٩٧)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ٢٥) مرفوعًا وموقوفًا، وقال: (وهذا - الموقوف - أصح)، وأخرجه ابن حبان برقم٢٠٢٦: ص٤٩٦ من «موارد الظمآن»، وصححه الحاكم: (٤/ ١٥٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (٣/ ٢٨، ٤٤) عن أبي سعيد الخدري، وفيه: يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٢/ ٢٨٥ - ٢٩١).

(٤) أخرجه الترمذي: (٩/ ٥٣٠ - ٥٣١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه).

الكوفة، فأتى على باب دارٍ بُني بجصّ وآجُرٍّ، فقال: هذا التبذير.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: أولياءهم، والعرب تقول لكل ملازمٍ سُنَّةَ قومٍ هو أخوهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ جحودًا لنعمه.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ نزلت في مِهْجَع وبلال وصهيب وسالم وخبَّاب، كانوا يسألون النبي في الأحايين ما يحتاجون إليه، ولا يجد، فيعرض عنهم حياءً منهم ويمسك عن القول، فنزل: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ»، وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ليِّنًا، وهي العِدَة، أي: عِدْهم وَعْدًا جميلاً، وقيل: القول الميسور: أن تقول: يرزقنا الله وإيَّاك.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يعني: ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق كالمغلولة يده لا يقدر على مدها. ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ بالعطاء ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتعطي جميع ما عندك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك سائلوك بالإمساك إذا لم تعطهم، ﴿مَّحْسُورًا﴾ منقطعًا بك، لا شيء عندك تنفقه.

قال قتادة: «محسورًا» نادمًا على ما فرط منك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ﴾ يوسع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقتر ويضيق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهوا عنه، وأُخبروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وحقها ما روينا أن النبي ﷺ قال: «لا يَحِلُّ دمُ امرىءٍ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: رجل كَفَر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس فيقتل بها»[1]. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: قوةً وولاية على القاتل

(١) أخرجه أبو داود: (٦/ ٣٠١)، والترمذي: (٣/ ٣٧٣)، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجه برقم ٢٥٣٣: (٢/ ٨٤٧).

بالقتل، قاله مجاهد.

وقال الضحاك: سلطانه هو أنه يتخيَّر: فإن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا. ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾. اختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: معناه: لا يقتل غير القاتل، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قُتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقعلوا أشرف منه. وقال سعيد بن جبير: إذا كان القاتل واحدًا فلا يقتل جماعة بدل واحد، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفًا لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه. وقال قتادة: معناه: لا يمثل بالقاتل. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فالهاء راجعة إلى المقتول في قوله: «وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا»، يعني: إن المقتول منصور في الدنيا بإيجاب القَوَدِ على قاتله، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله، هذا قول مجاهد. وقال قتادة: الهاء راجعة إلى ولي المقتول، معناه: إنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بالإتيان بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه، وقيل: أراد بالعهد ما يلتزمه الإنسان على نفسه.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ قال السدي: كان مطلوبًا، وقيل: العهد يسأل عن صاحب العهد، فيقال: فِيْمَ نقضت، كالمؤودة تَسأل فيم قُتِلت؟

وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾، أي: زنوا بالعدل ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبةً.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تره، وسمعت، ولم تسمعه، وعلمت، ولم تعلمه، وقال مجاهد: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم. وحقيقة المعنى: لا تتكلم أيُّها الإنسان بالحدس والظن. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ قيل: معناه: يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده. وقيل: يسأل السمع والبصر والفؤاد عمَّا فعله المرء. وقوله: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: كل هذه الجوارح والأعضاء، وعلى القول الأول يرجع «أولئك» إلى أربابها.

عن شكل بن حميد قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله، علِّمني تعويذًا أتعوَّذ به، فأخذ بيدي ثم قال: «قلِ: اللهمَّ إني أعوذ بك من شرِّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ لساني، وشرِّ قلبي،

وشرِّ مَنِيِّي» قال: فحفظتها، قال سعد: المني ماؤه[١].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطرًا وكبرًا وخيلاء، وهو تفسير المشي، فلذلك أخرجه على المصدر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك، معناه: أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئًا، كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا يحصل على شيء.

وقيل: ذكر ذلك؛ لأن من مشى مختالاً يمشي مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه، فقيل له: إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك، ولن تبلغ الجبال طولاً إن مشيت على صدور قدميك. عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ إذا مشى يتكفَّأ تكفُّؤًا، كأنما يَنْحَطُّ من صَبَبٍ»[٢]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما رأيتُ شيئًا أحسنَ من رسول الله ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحدًا أسرعَ في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرضُ تُطْوَى له، إنا لنُجْهِدُ أنفسنا وإنه لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ»[٣].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة برفع الهمزة وضم الهاء على الإضافة، ومعناه: كل الذي ذكرنا من قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ . . . كَانَ سَيِّئُهُۥ»، أي: سيء ما عددنا عليك عند ربك مكروهًا؛ لأنه قد عدَّ أمورًا حسنة كقوله: «وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ»، «وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ»، وغير ذلك.

وقرأ الآخرون «سيئةً» منصوبة منونة، يعني: كل الذي ذكرنا من قوله: «وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ»، إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه، إذ الكل يرجع إلى المنهي عنه دون غيره، ولم يقل مكروهة؛ لأن فيه تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: كل ذلك كان مكروهًا سيئةً، وقوله: «مَكْرُوهًا»، على التكرير، لا على الصفة، مجازه: كل ذلك كان سيئةً وكان مكروهًا، أو رجع إلى المعنى دون اللفظ؛ لأن السيئة الذنب وهو مذكر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ وكلُّ ما أمر الله به أو نهى عنه فهو حكمة. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ خاطب النبي ﷺ في هذه الآيات، والمراد منه الأُمة ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا من كل خير.

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ١٦٠)، والترمذي: (٩/ ٤٦٤ - ٤٦٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وأخرجه النسائي: (٨/ ٢٦٠)، وصححه الحاكم: (١/ ٥٣٣)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي: (١/ ١١٦ - ١١٧).

(٣) أخرجه الترمذي: (١٠/ ١٣١ - ١٣٢)، وقال: (هذا حديث غريب)، وأخرجه في «الشمائل»: ص٨٥، وصححه ابن حبان: ص٥٢١ - ٥٢٢ من «موارد الظمآن».

فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾ أي: اختاركم، فجعل لكم الصفوة، ولنفسه ما ليس بصفوة، يعني: اختاركم ﴿بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ يخاطب مشركي مكة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: ما ذُكر من العبر والحِكَم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام، والتشديدُ للتكثير والتكرير ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا وتذكيرنا ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ ذهابًا وتباعدًا عن الحق.

﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ لطلبوا، يعني: الآلهة ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. قال قتادة: لعرفوا الله وفضله، وابتغوا ما يقربهم إليه. والأول أصح، ثم نزه نفسه، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه قال: وإن من شيء حي إلا يسبح بحمده. وقال قتادة: يعني: الحيوانات والناميات. وقال عكرمة: الشجرة تسبِّح، والأسطوانة لا تسبح. وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حيًّا كان أو ميتًا أو جمادًا، وتسبيحها سبحان الله وبحمده.

عن عبد الله قال: كنَّا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدُّونها تخويفًا، كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء» فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[1].

واعلم أن لله تعالى علمًا في الجمادات لا يقف عليه غيره، فينبغي أن يوكل علمه إليه.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تعلمون تسبيح ما عدا من يسبح بلغاتكم وألسنتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٨٧).

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به. قال قتادة: هو الأكنَّة، والمستور بمعنى الساتر. وقيل: مستور عن أعين الناس فلا يرونه. وفسره بعضهم بالحجاب عن الأعين الظاهرة، كما رُوي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت: «تبت يدا أبي لهب» جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر، والنبي ﷺ مع أبي بكر، فلم تَرَهُ، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال: والله ما ينطق الشعر، ولا يقوله، فرجعت وهي تقول: قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه، فقال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله، قال: «لا، لم يزل مَلَكٌ بيني وبينها يسترني»[1].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهية أن يفقهوه، وقيل: لئلا يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلاً لئلا يسمعوه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يعني: إذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ جمع «نافر»، أي: نافرين.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ قيل: «به» صلة، أي: يطلبون سماعه ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يتناجون في أمرك، وقيل: ذوو نجوى، فبعضهم يقول: هذا مجنون، وبعضهم يقول: كاهن، وبعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: شاعر ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: الوليد بن المغيرة وأصحابه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مطبوبًا. وقال أبو عبيدة: أي: رجلاً له سحر، والسحر: الرئة، أي: إنه بشر مثلكم معلل بالطعام والشراب يأكل ويشرب.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ﴾ الأشباه، قالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون ﴿فَضَلُّوا۟﴾ فحاروا وحادوا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: وصولاً إلى طريق الحق.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ بعد الموت ﴿وَرُفَٰتًا﴾ قال مجاهد: ترابًا، وقيل: حطامًا، و«الرُّفات»: كل ما تكسَّر وبَلِيَ من كل شيء، كالفتات والحطام ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

---

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم. وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤٤)، (٤/ ٥٦٥ - ٥٦٦)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٤٤).

﴿قُل كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ في الشدة والقوة، وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز، أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة. ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قيل: السماء والأرض والجبال. وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين: إنه الموت، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، أي: لو كنتم الموت بعينه لأُميتنَّكم ولأَبعثنَّكم. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ من يبعثنا بعد الموت؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرِّكونها إذا قلتَ لهم ذلك مستهزئين بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؟ أي: البعث والقيامة ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأن عسى من الله واجب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى موقف القيامة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال ابن عباس: بأمره، وقال قتادة: بطاعته، وقيل: مقرين بأنه خالقهم وباعثهم، ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد، وقيل: هذا خطاب مع المؤمنين، فإنهم يبعثون حامدين ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا وفي القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنَّ الإنسان لو مكث أُلوفًا من السنين في الدنيا وفي القبر عدَّ ذلك قليلاً في مدة القيامة والخلود، قال قتادة: يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال الكلبي: كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: «وَقُل لِّعِبَادِي» المؤمنين «يَقُولُوا» للكافرين «الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، ولا يكافؤوهم بسفههم. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد ويُلْقِي العداوة بينهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يوفقكم فتؤمنوا ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ يميتكم على الشرك فتعذبوا، قاله ابن جريج. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حفيظًا وكفيلاً.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝٥٥ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: ربك العالم بمن في السموات والأرض، فجعلهم مختلفين في صورهم وأخلاقهم وأحوالهم ومللهم. ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ قيل: جعل أهل السموات والأرض مختلفين كما فضل بعض النبيين على بعض. قال قتادة في هذه الآية: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلَّم موسى تكليمًا، وقال لعيسى: كن فيكون، وآتى سليمان ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وآتى داود زَبُورًا كما قال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ والزبور: كتاب علمه الله داود، يشمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله عز وجل، وليس فيها حرام ولا حلال، ولا فرائض وإ حدود.

معناه: إنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي ﷺ وإعطاءه القرآن؟ وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب وغيرهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجِيَف، فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم، قال الله تعالى: ﴿قُلِ﴾ للمشركين: ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أنها آلهة ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾ القحط والجوع ﴿عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ إلى غيركم، أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ يعني: الذين يدعونهم المشركون آلهة يعبدونهم. قال ابن عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، «يبتغون»، أي: يطلبون إلى ربهم «الوسيلة»، أي: القُرْبة، وقيل: الوسيلة: الدرجة العليا، أي: يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا، وقيل: الوسيلة: كلُّ ما يتقرب به إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ معناه: ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به، وقال الزَّجَّاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ جنته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي: يطلب منه الحذر.

وقال عبد الله بن مسعود: نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجنيُّون ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم، فتمسكوا بعبادتهم فعيَّرهم الله وأنزل هذه الآية.

وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا

ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وما من قرية ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مخربوها ومهلكو أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا. قال عبد الله بن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها(١). ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا.

قال عبادة بن الصامت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: القدر، وما كان، وما هو كائن إلى الأبد»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ قال ابن عباس: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا وأن يُنَحِّيَ الجبال عنهم فيزرعوا، فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ: إن شئت أن أستأني بهم فعلتُ، وإن شئتَ أن أُوتيهم ما سألوا فعلتُ، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكتُ مَنْ كان قبلهم من الأُمم فقال النبي ﷺ: «لا بل تستأني بهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ(٣): ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ التي سألها كفار قومك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ فأهلكناهم، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكتهم؛ لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات، ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها، أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأُمة في العذاب، فقال جلَّ ذكره: «بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾» [القمر: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة بينة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: جحدوا بها أنها من عند الله. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: العبر والدلالات ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للعباد ليؤمنوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ أي: هم في قبضته، لا يقدرون على الخروج من مشيئته، فهو حافظك ومانعك منهم، فلا تهبهم وامضِ لما أمرك به من تبليغ الرسالة، كما قال: «وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ» [المائدة: ٦٧].

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي ﷺ ليلة

---

(١) أخرجه الطبري: (١٥/١٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود: (٧/٦٩)، والترمذي: (٦/٣٦٨ - ٣٦٩)، وقال: (هذا حديث غريب)، وصححه الألباني في تعليقه على «المشكاة»: (١/٣٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (١/٢٥٨)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/٣٦٢)، والطبري: (١٥/١٠٨)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٣٣ - ٣٣٤)، والنسائي في «تفسيره»: (١/٦٥٦).

المعراج من العجائب والآيات. قال ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها النبي ﷺ، وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين[1]. ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: شجرة الزقوم، ونصب الشجرة عطفًا على الرؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة للناس، فكانت الفتنة في الرؤيا ما ذكرنا.

والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين، أحدها: أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة.

والثاني أن عبد الله بن الزبعري قال: إن محمدًا يخوِّفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد، فقال: يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوِّفكم به محمد، فوصفها الله تعالى في الصافات.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ أي: تمردًا وعتوًّا عظيمًا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ أي: خلقته من طين أنا جئتُ به.

﴿قَالَ﴾ يعني: إبليس: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أي: أخبِرْني، ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضلته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أمهلتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأستأصلنَّهم بالإضلال، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: المعصومين الذين استثناهم الله عزَّ وجلَّ في قوله: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ» [الحجر: ٤٢].

﴿قَالَ﴾ الله: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاء أتباعك ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ وافرًا مكملاً.

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ واستخفف واستجهِدْ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أي: من ذرية آدم ﴿بِصَوْتِكَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: بدعائك إلى معصية الله، وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس. قال

(١) أخرجه البخاري: (٨/٣٩٨).

الأزهري: معناه: ادعهم دعاء تستفزهم به إلى جانبك، أي: تستخفهم. وقال مجاهد: بالغناء والمزامير. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قيل: اجمع عليهم مكايدك وخيلك. قال أهل التفسير: كل راكب وماشٍ في معاصي الله فهو من جند إبليس. وقال مجاهد وقتادة: إن له خيلاً ورَجِلاً من الجن والإنس، وهو كل من يقاتل في المعصية.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فالمشاركة في الأموال: كل ما أصيب من حرام، أو أنفق في حرام، هذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير. وقال عطاء: هو الربا. وأما الشركة في الأولاد: رُوي عن ابن عباس: أنها الموءودة. وقال مجاهد والضحاك: هم أولاد الزنا. وعن ابن عباس رواية أخرى: هو تسميتهم الأولاد عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار، ونحوها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهم الجميل في طاعتك، وقيل: قل لهم: لا جنة ولا نار ولا بعث.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ والغرور: تزيين الباطل بما يظن أنه حق.

فإن قيل: كيف ذكر الله هذه الأشياء، وهو يقول: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ» [الأعراف: ٢٨]؟

قيل: هذا على طريق التهديد، كقوله تعالى: «ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ» [فصّلت: ٤٠]، وكقول القائل: افعل ما شئت فسترى.

قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: حافظًا مَنْ يوكل الأمر إليه.

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: يسوق ويُجري لكم الفُلك ﴿فِى ٱلْبَحْرِ

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لتطلبوا من رزقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ الشدة، وخوف الغرق ﴿فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ﴾ أي: بطل وسقط ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ من الآلهة ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا الله، فلم تجدوا مغيثًا غيره وسواه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان والإخلاص والطاعة، كفرًا منكم لنِعَمِه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ بعد ذلك ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يغور بكم ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ناحية البر: وهي الأرض ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: يمطر عليكم حجارةً من السماء كما أمطر على قوم لوط، وقال أبو عبيدة والقتيبي: الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء: وهي الحصا الصغار ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ قال قتادة: مانعًا.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ يعني: في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ قال ابن عباس: أي: عاصفًا، وهي الريح الشديدة. ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ ناصرًا ولا ثائرًا، و«تَبِيعٌ» بمعنى تابع، أي: تابعًا مطالبًا بالثأر، وقيل: من يتبعنا بالإنكار.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه قال: هو أنهم يأكلون بالأيدي، وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض، ورُوي عنه أنه قال: بالعقل. وقال الضحاك: بالنطق. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: حملناهم في البر على الدواب، وفي البحر في السفن. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: لذيذ المطاعم والمشارب، قال مقاتل: السمن والزُّبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وظاهر الآية: أنه فضلهم على كثير ممن خلقهم لا على الكل، وقال قوم: فُضِّلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة، وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، وأشباههم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال مجاهد وقتادة: بنبيِّهم، وقال أبو صالح والضحاك: بكتابهم الذي أُنزل عليهم.

﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ويسمى الكتاب إمامًا كما قال عزَّ وجلَّ: «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ» [يس: ١٢]. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى. ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا ينقص من حقهم قدر فتيل.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ اختلفوا في هذه الإشارة، فقال قوم: هي راجعة إلى النِّعَم التي عدَّدها الله تعالى في هذه الآيات من قوله: «رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ»، إلى قوله:

«تَفۡضِيلًا»، يقول: ومن كان منكم في هذه النِّعم التي قد عاين أعمى ﴿فَهُوَ فِي﴾ أمر ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي لم يعاينْ ولم يَرَ ﴿أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ يروى هذا عن ابن عباس.

وقال الآخرون: هي راجعة إلى الدنيا، يقول: «وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ» القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق، «فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ»، أي: أشد عمًى، «وَأَضَلُّ سَبِيلٗا»، أي: أخطأ طريقًا.

وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ ليصرفونك ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ﴿لِتَفۡتَرِيَ﴾ لتختلق ﴿عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا﴾ لو فعلت ما دَعَوْكَ إليه ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: وَالوكَ وصَافَوْكَ.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على الحق بعصمتنا ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ﴾ أي: تميل ﴿إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ أي: قريبًا من الفعل.

﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ أي: لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، يعني: أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقيل: «الضعف»: هو العذاب، سُمي ضعفًا لتضاعف الألم فيه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ أي: ناصرًا يمنعك من عذابنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ اختلفوا في معنى الآية، فقال بعضهم: هذه الآية مدنية. وقال مجاهد وقتادة: «الأرض» أرض مكة، والآية مكية، هَمَّ المشركون أن يُخرجوه منها، فكفَّهم الله عنه حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه، وهذا أليق بالآية؛ لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية. ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: لا يلبثون بعدك إلا قليلاً حتى يهلكوا، فعلى هذا القول الأول: مدة حياتهم، وعلى الثاني: ما بين خروج النبي ﷺ إلى المدينة إلى أن قتلوا ببدر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ أي: كسُنَّتنا، فانتصب بحذف الكاف، وسنة الله في الرسل إذا كذبتهم الأُمم أن لا يعذبهم ما دام نبيهم بين أظهرهم، فإذا خرج نبيهم من

بين أظهرهم عذبهم. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تبديلاً.

قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ اختلفوا في الدلوك: رُوي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الدلوك هو الغروب، وهو قول إبراهيم النخعي ومقاتل بن حيان والضحاك والسدي، وقال ابن عباس وابن عمر وجابر: هو زوال الشمس، وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين. ومعنى اللفظ يجمعهما؛ لأن أصل الدلوك الميل، والشمس تميل إذا زالت وإذا غربت.

والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به؛ ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها؛ «فدلوك الشمس»: يتناول صلاة الظهر والعصر، و«إلى غسق الليل»: يتناول المغرب والعشاء، و«قرآن الفجر»: هو صلاة الصبح.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ظهور ظلمته، وقال ابن عباس: بدُوّ الليل، وقال قتادة: وقت صلاة المغرب، وقال مجاهد: غروب الشمس. ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر، سُمِّي صلاة الفجر قرآنًا؛ لأنها لا تجوز إلا بقرآن، وانتصاب القرآن من وجهين، أحدهما: أنه عطف على الصلاة، أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفرَّاء، وقال أهل البصرة: على الإغراء، أي: وعليك قرآن الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفْضُلُ صلاةُ الجميع على صلاة أحدكم وحدَه بخمسٍ وعشرين جزءًا، وتجتمعُ ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: «﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾»[١].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: قم بعد نومك، والتهجد لا يكون إلا بعد النوم، يقال: تهجد إذا قام بعدما نام، وهجد إذا نام. والمراد من الآية: قيام الليل للصلاة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادة لك، يريد: فضيلة زائدة، عن المغيرة بن شعبة قال: قام النبي ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلَّفُ هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٢].

عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: لأرْمُقَنَّ صلاة رسول الله ﷺ الليلة، فتوسَّدْتُ عتبته أو فسطاطه، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٨٤)، ومسلم برقم٢٨١٩: (٤/ ٢١٧١).

دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة[(١)].

عن سعيد بن أبي سعيد المقبريِّ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه أخبره أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كيف كانت صلاةُ رسولِ الله ﷺ في رمضان؟ قال: فقالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضانَ، ولا في غيرِه على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلي ثلاثًا، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي»[(٢)].

عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلِّم من كل ركعتين، ثم يوتر بواحدة، فيسجد السجدة قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، فإذا سكت المؤذن من أذان الفجر، وتبيَّن له الفجر، قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة فيخرج»، وبعضهم يزيد على بعض[(٣)].

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كنَّا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ من الليل مصليًا إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائمًا إلا رأيناه، وقال: كان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئًا، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئًا[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عسى من الله تعالى واجب؛ لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه. والمقام المحمود هو: مقام الشفاعة لأمته؛ لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سَلُوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة»[(٥)].

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٧٦٥: (١/ ٥٣١ - ٥٣٢).
(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٣)، ومسلم برقم٧٣٨: (١/ ٥٠٩).
(٣) أخرجه مسلم برقم٧٣٦: (١/ ٥٠٨).
(٤) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٢).
(٥) أخرجه مسلم برقم٣٨٤: (١/ ٢٨٨ - ٢٨٩).
(٦) أخرجه البخاري: (٢/ ٩٤).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوةً مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي، وهي نائلة منكم ـ إن شاء الله ـ من مات لا يشرك بالله شيئًا»(١).

حدثنا همام بن يحيى، حدثنا قتادة، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يُحْبَسُ المؤمنون يومَ القيامة حتى يهتموا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب وأكْلَه من الشجرة، وقد نهي عنها، ولكنِ ائتوا نوحًا أولَّ نبي بعثه الله إلى أهل الأرض.

فيأتون نوحًا فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، سؤالَه ربَّه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، قال: فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم، ويذكر ثلاث كذبات كذبهن، ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلَّمه وقرَّبه نَجِيًّا.

قال: فيأتون موسى، فيقول: إني لستُ هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب بقتل النفس، ولكن ائتوا عيسى، عبدَ الله ورسوله وروح الله وكلمته.

فيأتون عيسى، فيقول: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمدًا عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدًا فَيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ رأسك يا محمدُ، وقلْ تُسمع واشفعْ تُشَفَّع وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي، فأُثني على ربي بثناء وتحميد يعلِّمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حدًّا فأخرج، فأدخلهم الجنة.

قال قتادة: وسمعته أيضًا يقول: فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ رأسك يا محمد، وقلْ تُسْمَعْ، واشفعْ تُشفَّعْ، وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي فأُثني على ربي بثناء وتحميد يعلِّمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد، وقلْ تسمعْ واشفعْ تشفعْ وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة».

قال قتادة: وقد سمعته أيضًا يقول: «فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن» ـ أي: وجب عليه الخلود ـ قال: ثم تلا هذه الآية: «عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» قال: «وهذا المقام المحمود الذي وُعِده نبيكم ﷺ»(٢).

(١) أخرجه مسلم برقم١٩٩: (١/ ١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٢٢).

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ والمراد من المدخل والمخرج: الإدخال والإخراج، واختلف أهل التفسير فيه: فقال ابن عباس والحسن وقتادة: «أدخلني مدخل صدق»: المدينة، «وأخرجني مخرج صدق»: مكة، نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة[١].

وقال الضحاك: «وأخرجني مخرج صدق»: من مكة آمنًا من المشركين، «وأدخلني مدخل صدق»: مكة ظاهرًا عليها بالفتح.

وقال مجاهد: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق: الجنة، وأخرجني من الدنيا، وقد قمت بما وجب عليَّ من حقها، مخرج صدق.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال مجاهد: حجة بيِّنة، وقال الحسن: ملكًا قويًّا تنصرني به على من ناوأني، وعزًّا ظاهرًا أقيم به دينك، فوعده الله لينزعنَّ ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: القرآن ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ أي: ذهب الشيطان، قاله قتادة، وقال السدي: «الحق»: الإسلام، و«الباطل»: الشرك. ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ذاهبًا.

عن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحولَ البيتِ ستونَ وثلاثُمائة نُصُبٍ، فجعل يطعنُها بعُوْدٍ في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل»، «جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: «من» ليس للتبعيض، ومعناه: وننزل من القرآن ما كلُّه شفاء، أي: بيان من الضلالة والجهالة، يتبين به المختلف، ويتضح به المشكل، ويستشفى به من الشبهة، ويهتدى به من الحيرة، فهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها ورحمة للمؤمنين. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأن الظالم لا ينتفع به، والمؤمن مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عباس. انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٩)، وهو ما رجحه الطبري في «التفسير»: (١٥/ ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٠٠).

ينتفع به فيكون رحمة له. قال قتادة: لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضى الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا ودعائنا ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: تباعد عنا بنفسه، أي: ترك التقرب إلى الله بالدعاء. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الشدة والضرر ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: آيسًا قنوطًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. قال الحسن وقتادة: على نيَّته، وقال مقاتل: على خليقته. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أوضح طريقًا.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية. عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حَرْثِ المدينة، وهو يتوكأ على عَسِيْبٍ معه، فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم لنسألنَّه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الرُّوح؟ فسكت، فقلت: إنه يُوْحَى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه الوحي، قال: «وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾»[1].

واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه، فرُوي عن ابن عباس: أنه جبريل، وهو قول الحسن وقتادة. ورُوي عن علي أنه قال: هو مَلك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، يسبِّح الله تعالى بكلها.

وأولى الأقاويل: أن يوكل علمه إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو قول أهل السنة، قال عبد الله بن بريدة: إن الله تعالى لم يُطْلِعْ على الروح مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلاً.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم﴾ قيل: من علم ربي. ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في جنب علم الله تعالى، قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ معناه: إنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك، لو شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك، يعني: القرآن ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٠١)، ومسلم برقم٢٧٩٤: (٤/ ٢١٥٢).

أي: من يتوكل بردِّ القرآن إليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ هذا استثناء منقطع، معناه: لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ فإن قيل: كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عزَّ وجلَّ؟ قيل: المراد منه: مَحْوُه من المصاحف، وإذهاب ما في الصدور.

وقال عبد الله بن مسعود: اقرءوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع، قيل: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يسري عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم، فيصبحون لا يحفظون شيئًا، ولا يجدون في المصاحف شيئًا، ثم يفيضون في الشعر[1].

قوله جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ لا يقدرون على ذلك ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ عونًا ومظاهرًا. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذبهم الله تعالى.

فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق؛ لأنه غير مخلوق، ولو كان مخلوقًا لأتوا بمثله.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل وجه من العِبَر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾. يعني: أرض مكة «يَنۢبُوعًا» أي: عيونًا. ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وأخرج نحوه أيضًا موقوفًا عبد الرزاق، ومن طريقه رواه: الطبراني بسند صحيح، ورواه ابن أبي شيبة والثعلبي، ورواه ابن مردويه والواحدي في «التفسير».
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٣٤)، «فتح الباري»: (١٣/ ١٦)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٩١ - ٢٩٢).

خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ تشقيقًا.

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾، أي: قِطَعًا، وهي جمع «كسفة»، وهي: القطعة والجانب. ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ قال ابن عباس: كفيلاً، أي: يكفلون بما تقول، وقال الضحاك: ضامنًا، وقال مجاهد: هو جمع القبيلة، أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة.

﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ أي: من ذهب، وأصله: الزينة ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لصعودك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ أُمِرنا فيه باتِّباعك ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾، أي: قلْ يا محمد ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أمره بتنزيهه وتمجيده على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل، ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر، وما أنا إلا بشر، وليس ما سألتم في طوق البشر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ جهلاً منهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أراد: أن الكفار كانوا يقولون: لن نؤمن لك لأنك بشر، وهلا بعث الله إلينا ملكًا؟ فأجابهم الله تعالى:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين مقيمين ﴿لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ من جنسهم؛ لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس.

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أني رسول الله إليكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾.

وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ يهدونهم ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾.

عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه»(١).

﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾. فإن قيل: كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم، وقد قال: «وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ» [الكهف: ٥٣]، وقال: «دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا» [الفرقان: ١٣]، وقال: «سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٩٢)، ومسلم برقم٢٨٠٦: (٤/ ٢١٦١).

وَزَفِيرًا» [الفرقان: ١٢]، أثبت الرؤية والكلام والسمع؟

قيل: يحشرون على ما وصفهم الله، ثم تعاد إليهم هذه الأشياء.

وجواب آخر، قال ابن عباس: عميًا لا يرون ما يسرهم، بكمًا لا ينطقون بحجة، صمًّا لا يسمعون شيئًا يسرهم.

وقال الحسن: هذا حين يساقون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار.

وقال مقاتل: هذا حين يقال لهم: «قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا» [المؤمنون: ١٠٨]، فيصيرون بأجمعهم عميًا وبكمًا وصمًّا، لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: كلما سكنت، أي: سكن لهيبها، ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: وقودًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ فأجابهم الله تعالى فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ في عظمتها وشدتها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في صغرهم وضعفهم. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أي: وقتًا لعذابهم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه يأتيهم، قيل: هو الموت، وقيل: هو يوم القيامة ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحودًا وعنادًا.

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي: نعمة ربي، وقيل: رزق ربي ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخلتم وحبستم ﴿خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ أي: خشية الفاقة، قاله قتادة. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً ممسكًا عن الإنفاق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات، فهي الآيات التسع. قال ابن عباس والضحاك: هي العصا، واليد البيضاء، والعقدة التي كانت بلسانه فحلَّها، وفلق البحر، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. وقال بعضهم: هنَّ آيات الكتاب.

عن صفوان بن عسال المرادي، أن يهوديًّا قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر: لا تقل نبيّ، فإنه لو سمع صارت له أربع أعين، فأتياه فسألاه عن هذه الآية: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ»، فقال: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تسحروا، ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله، ولا تسرقُوا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصَّة اليهود أن لا تعدوا في السبت، فقبَّلا يده، وقالا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا: إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود[1].

﴿فَسْـَٔلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ موسى، يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره، ويجوز أن يكون خاطبه ﷺ وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: مطبوبًا سحروك.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ قال ابن عباس: علمه فرعون ولكنه عاند، قال الله تعالى: «وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» [النمل: ١٤]. ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هذه الآيات التسع ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ جمع بصيرة، أي: يبصر بها. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال ابن عباس: ملعونًا، وقال مجاهد: هالكًا، وقال قتادة: مُهلكًا، وقال الفراء: أي: مصروفًا ممنوعًا عن الخير.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: أراد فرعون أن يستفزَّ موسى وبني إسرائيل، أي: يخرجهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ ونجينا موسى وقومه.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد هلاك فرعون ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعًا إلى موقف القيامة.

وقال الكلبي: «فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ»، يعني: مجيء عيسى من السماء، «جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا»، أي: النُّزَّاع من كل قوم، مِنْ هاهنا ومن هاهنا، لفوا جميعًا.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٥٨٠)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيعين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصين.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ قيل: معناه: أنزلناه نجومًا، وقال الحسن: معناه: فرقنا به بين الحق والباطل ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تؤدة وترتيل وترسّل، في ثلاث وعشرين سنة ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ هذا على طريق الوعيد والتهديد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، وهم الذين كانوا يطلبون الدِّين قبل مبعث رسول الله ﷺ، ثم أسلموا بعد مبعثه، مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأبي ذر، وغيرهم.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يسقطون على الأذقان، قال ابن عباس: أراد بها الوجوه.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: كائنًا واقعًا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: يقعون على الوجوه يبكون، البكاء مستحب عند قراءة القرآن ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ نزول القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ خضوعًا لربهم، نظيره قوله تعالى: «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا» [مريم: ٥٨].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَنْ بكى من خشيةِ الله حتى يعودَ اللبَنُ في الضَّرْعِ، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنَّمَ في مَنْخِرَي مسلم أبدًا»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ قال ابن عباس: سجد رسول الله ﷺ بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول في سجوده: «يا الله، يا رحمن»، فقال أبو جهل: إن محمدًا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين! فأنزل الله تعالى هذه الآية، ومعناه: أنهما اسمان لواحد.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ «ما» صلة، معناه: أيًّا ما تدعو من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا»، قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومَنْ أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: «وَلَا تَجْهَرْ

---

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٢٦٠ - ٢٦١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

بِصَلَاتِكَ»، أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، «وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[١].

وعنه أيضاً في معنى: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أسمعهم، ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن[٢].

وقال قوم: الآية في الدعاء، وهو قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ والنخعي ومجاهد ومكحول.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قوله: «وَلَا تُخَافِتْ بِهَا»، قالت: أُنزل ذلك في الدعاء[٣].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته، ومعنى الحمد لله هو: الثناء عليه بما هو أهله. قال الحسين بن الفضل: يعني: الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولدًا. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: لم يذل فيحتاج إلى ولي يتعزز به. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي: وعظِّمْه عن أن يكون له شريك أو ولي.

عن قتادة أن عبد الله بن عمرٍو قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رأس الشكر، ما شكر الله عبدٌ لا يحمده»[٤].

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أفضل الدعاء الحمدُ لله، وأفضل الذكر لا إله إلا الله»[٥].

عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله تعالى أربع: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، لا يضرك بأيهنَّ بدأت»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٠٤ - ٤٠٥)، ومسلم برقم٤٤٦: (١/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١٠/ ٤٢٤).

(٥) أخرجه الترمذي: (٩/ ٣٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٨٤٠ - ٨٤١، وابن ماجه في الأدب، باب فضل الحامدين برقم٣٨٠٠: (٢/ ١٢٤٩)، وصححه ابن حبان: ص٥٧٨ من «موارد الظمآن»، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٥٠٣) ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه مسلم برقم٢١٣٧: (٣/ ١٦٨٥).

سورة الكهف

مائة وعشر آيات وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه، وخصَّ رسوله ﷺ بالذكر؛ لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾.

﴿قَيِّمًا﴾ فيه تقديم وتأخير، معناه: أنزل على عبده الكتاب قيِّمًا، ولم يجعل له عوجًا، «قَيِّمًا»، أي: مستقيمًا، قال ابن عباس: عدلاً، وقال الفراء: قيمًا على الكتب كلها، أي: مصدقًا لها ناسخًا لشرائعها.

وقال قتادة: ليس على التقديم والتأخير، بل معناه: أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، ولكن جعله قيمًا، ولم يكن مختلفًا.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر ببأسٍ شديد ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: الجنة.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)﴾ أي: مقيمين فيه.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤)﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ﴾ أي: قالوه عن جهل لا عن علم ﴿كَبُرَتْ﴾ أي: عظمت ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، يقال تقديره: كبرت الكلمةُ كلمةً، ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ﴾ أي: تظهر من أفواههم ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ من بعدهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي: حزنًا، وقيل: غضبًا.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ

أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ فإن قيل: أي: زينة في الحيَّات والعقارب والشياطين؟ قيل: فيها زينة على معنى أنها تدل على وحدانية الله تعالى.

وقال مجاهد: أراد به الرجال خاصة، وهم زينة الأرض، وقيل: أراد بهم العلماء والصلحاء، وقيل: الزينة بالنبات والأشجار والأنهار، كما قال: «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ» [يونس: ٢٤]. ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ لنختبرهم ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أي: أصلح عملاً.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ فالصعيد: وجه الأرض، وقيل: هو التراب، «جُرُزًا»: يابسًا أملس لا ينبت شيئًا.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ يعني: أظننتَ يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا، أي: هم عجب من آياتنا.

و«الكهف»: هو الغار في الجبل، واختلفوا في «الرقيم»، قال سعيد بن جبير: هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم ـ وهذا أظهر الأقاويل ـ ثم وضعوه على باب الكهف، وكان اللوح من رصاص، وقيل: من حجارة، فعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم، أي: المكتوب، والرَّقْم: الكتابة.

وقيل: اسم للجبل الذي فيه الكهف، ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف، فقال:

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي: صاروا إلى الكهف[1].

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾ ومعنى الرحمة: الهداية في الدين، وقيل: الرزق ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا﴾ يسر لنا ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ أي: ما يلتمس من رضاك وما فيه رشدنا، وقال ابن عباس: رشدًا، أي: مخرجًا من الغار في سلامة.

﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم، وقيل: معناه: منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ أي: أنمناهم سنين معدودة، وذكر العدد على سبيل التأكيد.

---

(١) ذكر المصنف رحمه الله روايات طويلة فيما يتعلق بخروج الفتية وأسمائهم واسم كلبهم . . . إلخ بجملتها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا، وحمله عنهم بعض الصحابة والتابعين وحكوه عنهم لغرابته والعجب منه. وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٧٦ - ٧٩): (... ولم يخبرنا الله تعالى بمكان هذا الكهف، ولا في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه، ولا قصد شرعي، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً... والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه... فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ يعني: من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: علم المشاهدة ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: الطائفتين ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ وذلك أن أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف، واختلفوا في قوله عزَّ وجلَّ: «أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟»، أحفظ لما مكثوا في كهفهم نيامًا «أَمَدًا»، أي: غاية، وقال مجاهد: عددًا، ونصبه على التفسير.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك ﴿نَبَأَهُم﴾ خبر أصحاب الكهف ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبان ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ إيمانًا وبصيرة.

﴿وَرَبَطْنَا﴾ شددنا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالصبر والتثبيت، وقوّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العزِّ وخصب العيش، وفرُّوا بدينهم إلى الكهف ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بين يدي دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ قالوا ذلك؛ لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ يعني: إن دعونا غير الله لقد قلنا إذًا شططًا، قال ابن عباس: جورًا، وقال قتادة: كذبًا، وأصل الشطط والإشطاط مجاوزة القدر والإفراط.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ يعني: أهل بلدهم ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله ﴿ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنام يعبدونها ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي: على عبادتهم ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجة واضحة تبين وتوضح أن الأصنام لا تستحق العبادة من دون الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وزعم أن له شريكًا وولدًا.

ثم قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ يعني: قومهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان، يقولون: وإذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلاَّ الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادته ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فالجأوا إليه ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ يبسط لكم ﴿رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ يسهل لكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي: ما يعود إليه يسركم ورفقكم.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ أي: تميل وتعدل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جانب اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تتركهم وتعدل عنهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أصل القرض: القطع ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: متسع من الكهف، وجمعها: فجوات، وقال بعضهم: هذا القول خطأ، وهو أن الكهف كان مستقبل بنات نعش فكانت الشمس لا تقع عليهم، ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم، ألا ترى أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من عجائب صنع الله ودلالات قدرته التي يعتبر بها ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: من يضلله الله، ولم يرشده ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا﴾ معينًا ﴿مُّرْشِدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ أي: منتبهين، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام، وإنما اشتبه حالهم؛ لأنهم كانوا مفتَّحي الأعين يتنفسون ولا يتكلمون. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر، قال ابن عباس: كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم. ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب. قوله: ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال مجاهد والضحاك: «والوصيد»: فناء الكهف، وقال عطاء: «الوصيد» عتبة الباب. ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد، حتى يبلغ الكتاب أجله، فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفًا.

واختلفوا في أن الرعب كان لماذا، قيل: من وحشة المكان. وقال الكلبي: لأن أعينهم كانت مفتحة، كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم، وهم نيام. ورُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس - رضي الله عنهم -: لقد منع ذلك من هو خير منك، فقال: «لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا»، فبعث معاوية ناسًا فقال: اذهبوا فانظروا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأخرجتهم[1].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وإسناده صحيح. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٣٠١)، «الكافي الشاف»: ص١٠٣، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٣٨٩).

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم في الكهف، وحفظنا أجسادهم من البلى على طول الزمان، فكذلك بعثناهم من النومة التي تشبه الموت ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضًا. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو رئيسهم «مكسلمينا»: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومكم؟ وذلك أنهم استنكروا طول نومهم. ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ وذلك أنهم دخلوا الكهف غدوة، فقالوا حين انتبهوا عشية: لبثنا يومًا، ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقية، فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فلما نظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم.

﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وقيل: إن رئيسهم «مكسلمينا» لما سمع الاختلاف بينهم قال: دعوا الاختلاف، ربكم أعلم بما لبثتم ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ يعني: «يمليخا». وهي الفضة مضروبةً كانت أو غير مضروبة ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل: هي «طرسوس»، وكان اسمها في الجاهلية «أفسوس»، فسموها في الإسلام «طرسوس».

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أحلُّ طعامًا حتى لا يكون من غصْب أو سبب حرام، وقال الضحاك: أطيب طعامًا، ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوت وطعام تأكلونه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليترفق في الطريق وفي المدينة، وليكن في ستر وكتمان ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من الناس. ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعلموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال ابن جريج: يشتمونكم ويؤذونكم بالقول، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي: إلى الكفر ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ إن عدتم إليه.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: قوم «بيدروس»، الذين أنكروا البعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ قال ابن

عباس: يتنازعون في البنيان، فقال المسلمون: نبني عليهم مسجدًا يصلي فيه الناس؛ لأنهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم بنيانًا؛ لأنهم من أهل نسبنا. ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ «بيدروس» الملك وأصحابه: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ رُوي أن «السيد» و«العاقب» وأصحابهما من نصارى أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد ـ وكان يعقوبيًّا ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب ـ وكان نسطوريًّا ـ: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين بعد ما حكى قول النصارى، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: ظنًّا وحَدْسًا من غير يقين، ولم يقل هذا في حق السبعة، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: المسلمين ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. اختلفوا في الواو في قوله: «وَثَامِنُهُمْ»، قيل: تركها وذكرها سواء.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: بعددهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: إلاَّ قليل من الناس، قال ابن عباس: أنا من القليل، كانوا سبعة. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ إلاَّ بظاهر ما قصصنا عليك، يقول: حسبك ما قصصت عليك، فلا تزد عليه، وقِفْ عنده ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ أي: لا ترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: إذا عزمت على أن تفعل غدًا شيئًا، فلا تقل: أفعل غدًا، حتى تقول: إن شاء الله، وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غدًا، ولم يقل: إن شاء الله، فلبث الوحي أيامًا ثم نزلت هذه الآية. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن.

وجوَّز ابنُ عباس الاستثناءَ المنقطع، وإن كان إلى سنة، وجوَّزه الحسن ما دام في المجلس، وجوَّزه بعضهم إذا قرب الزمان، فإن بَعُدَ فلا يصح، ولم يجوِّزه جماعة حتى يكون متصلاً بالكلام.

عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «من نسي صلاة فَلْيُصَلِّها إذا ذكرها»[1].

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٧٠)، ومسلم برقم٥٩٧: (٢/ ٢٤١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ يعني: أصحاب الكهف، قال بعضهم: هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك، ولو كان خبرًا من عند الله عزَّ وجلَّ عن قدر لبثهم لم يكن لقوله: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ» وَجْهٌ، وهذا قول قتادة، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: «وقالوا لبثوا في كهفهم» ثم ردَّ الله تعالى عليهم فقال: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ». وقال الآخرون: هذا إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف وهو الأصح.

وأما قوله: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ»، فمعناه: أن الأمر من مدة لبثهم كما ذكرنا، فإن نازعوك فيها فأجِبْهم، وقل: الله أعلم بما لبثوا، أي: هو أعلم منكم، وقد أخبرنا بمدة لبثهم.

قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ قال الكلبي: قالت نصارى نجران: أما ثلثمائة فقد عرفنا، وأما التسع فلا علم لنا بها، فنزلت:

قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ رُوي عن علي أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة شمسية، والله تعالى ذكر ثلثمائة قمرية، والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون في ثلاثمائة تسع سنين، فلذلك قال: «وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا». ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالغيب ما يغيب عن إدراكك، والله عزَّ وجلَّ لا يغيب عن إدراكه شيء. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع! أي: لا يغيب عن سمعه وبصره شيء. ﴿مَا لَهُم﴾ أي: ما لأهل السموات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتْلُ﴾ أي: واقرأ يا محمد ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن، واتبع ما فيه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قال الكلبي: لا مغيِّر للقرآن، وقيل: لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنت ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إن لم تتبع القرآن ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حرزًا، وقال الحسن: مدخلاً، وقال مجاهد: ملجأ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية، نزلت في عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم، وعنده جماعة من الفقراء، فيهم سلمان وعليه شملةٌ قد عرق فيها، وبيده خوصة يشقها ثم ينسجها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أمَا يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها، فإن أسلمنا

أسلم الناس، وما يمنعنا من اتِّباعك إلاَّ هؤلاء فنحِّهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا ولهم مجلسًا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾[1]، أي: احبس يا محمد نفسك ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ طرفي النهار ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي: يريدون الله، لا يريدون به عَرَضًا من الدنيا.

قال قتادة: نزلت في أصحاب الصُّفَّة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع، يصلُّون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم»[2].

﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ أي: لا تصرف ولا تتجاوز ﴿عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: طلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا. ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، يعني: عيينة بن حصن، وقيل: أُمية بن خلف ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: مراده في طلب الشهوات ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ قال قتادة ومجاهد: ضياعًا.

وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والقرآن، معناه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس قد جاءكم من ربكم الحق وإليه التَّوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، ليس إليَّ من ذلك شيء ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ هذا على طريق التهديد والوعيد، كقوله: «ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ» [فصلت: ٤٠].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أعددنا وهيَّأنا، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ السُّرادق: الحجرة التي تطيف بالفساطيط.

قال ابن عباس: هو حائط من نار. ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾. قال ابن عباس: هو ماء غليظ مثل دُرْدِيِّ الزيت. وقال مجاهد: هو القيح والدم. ﴿يَشۡوِي

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٨٠ - ٣٨٢)، الطبري: (١٥/ ٢٣٤ - ٢٣٦)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٤٤ - ٣٤٥، «زاد المسير»: (٥/ ١٣٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٨٠)، «أسباب النزول»: ص٣٤٥، ابن كثير: (٣/ ٨٢).

﴿ٱلْوُجُوهَ﴾ ينضج الوجوه من حرّه. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: منزلاً، وقال مجاهد: مجتمعًا، وقال عطاء: مقرًّا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ فإن قيل: أين جواب قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ» ؟

قيل: جوابه قوله: «أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى»، وأما قوله: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» فكلام معترض.

وقيل: فيه إضمار، معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجرهم بل نجازيهم، ثم ذكر الجزاء فقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، يقال: عَدَنَ فلان بالمكان إذا أقام به، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يحلى كل واحد منهم ثلاث أساور: واحد من ذهب، وواحد من فضة، وواحد من لؤلؤ ويواقيت ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ وهو ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ منه، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ في الجنان ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السُّرُر في الحِجَال، واحدتُها: أَرِيكَة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي: نِعْمَ الجزاء ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنان ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: مجلسًا ومقرًّا.

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية، قيل: نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم، أحدهما مؤمن: وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وكان زوج أُم سلمة قبل النبي ﷺ، والآخر كافر: وهو الأسود بن عبد الأسد بن عبد ياليل. ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ اذكر لهم خبر رجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: أطفناهما من جوانبهما بنخل، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا حول الأعناب النخيل، ووسط الأعناب الزرع.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ﴾ أي: أعطت كلُّ واحدة من الجنتين ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها تامًّا ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾ لم تنقص ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ يعني: شققنا وأخرجنا وسطهما نهرًا.

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لصاحب البستان ﴿ثَمَرٌ فَقَالَ﴾ يعني: صاحب البستان ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يخاطبه ويجاوبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: عشيرة ورهطًا.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ يعني: الكافر، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به فيها ويريه أثمارها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بكفره ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ تهلك ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قال أهل المعاني: راقَهُ حُسنها وغرَّتْهُ زهرتُها، فتوهَّم أنها لا تفنى أبدًا، وأنكر البعث، فقال:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: مرجعًا.

إن قيل: كيف قال: «ولئن رددت إلى ربي»، وهو منكر البعث؟ قيل: معناه: ولئن رددت إلى ربي ـ على ما تزعم أنت ـ يعطيني هنالك خيرًا منها، فإنه لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلاَّ ليعطيني في الآخرة أفضل منها.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك من تراب ﴿ثُمَّ﴾ خلقك ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عدلك بشرًا سويًّا ذكرًا.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، مجازه: لكن الله هو ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾.

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: هلا إذ دخلت جنتك ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمر ما شاء الله، وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: لا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلاَّ بإذن الله.

وروي عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئًا يعجبه أو دخل حائطًا من حيطانه، قال: ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله[1].

ثم قال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ معناه: إن ترني أقل منك مالاً وولدًا فتكبرت وتعظمت عليَّ.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ فلعلَّ ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾ يعطيني في الآخرة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ قال قتادة: عذابًا، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي مثل صاعقة أو شيء يهلكها، واحدتها: «حسبانة» ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: أرضًا جرداء ملساء لا نبات فيها.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٩١).

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا منقطعًا ذاهبًا، ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ يعني: إن طلبته لم تجده.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أحاط العذاب بثمر جنته، وذلك أن الله تعالى أرسل عليها نارًا فأهلكتها وغار ماؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صاحبها الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: يصفق بيده على الأخرى، ويقلب كفيه ظهرًا لبطن، تأسفًا وتلهفًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ممتنعًا منتقمًا، أي: لا يقدر على الانتصار لنفسه.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: في القيامة. قال القتيبي: يريد أنهم يولُّونه يومئذ ويتبرءون مما كانوا يعبدون.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد، أي: لقومك ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: المطر ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ خرج منه كل لون وزهرة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عن قريب ﴿هَشِيمًا﴾ يابسًا، قال ابن عباس وقال الضحاك: كسيرًا، ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ قال ابن عباس: تثيره الرياح، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ قادرًا.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ التي يفتخر بها عتبة وأصحابه الأغنياء ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليست من زاد الآخرة. قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: المال والبنون حَرْث الدنيا، والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ اختلفوا فيها، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هي قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «أفضل الكلام أربع كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر»(١).

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله،

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: (١١/ ٥٦٦)، ووصله النسائي من طريق ضرار بن مرة عن أبي صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعًا بلفظه.

ولا إله إلاَّ الله، وأكبر، أحبّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس»[١].

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «الملة»، قيل: وما هي يا رسول الله؟، قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم»[٢].

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء، المراد ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: ما يأمله الإنسان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة، ليس عليها شجر، ولا جبل، ولا نبات. ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ جميعًا إلى الموقف والحساب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ﴾ أي: نترك منهم ﴿أَحَدًا﴾.

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي: صفًّا صفًّا فوجًا فوجًا، ثم يقال لهم، يعني الكفار: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: أحياءً، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ يوم القيامة، يقوله لمنكري البعث.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ الناسُ على ثلاثِ طرائقَ، راغبينَ وراهبينَ، واثنان على بعير، وثلاثةٌ على بعير، وأربعةٌ على بعير، وعَشَرَةٌ على بعير، وتحشر بَقِيَّتَهُم النارُ، تَقِيْل معهم حيث قالوا، وتَبيتُ معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أَمْسَوا»[٣].

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غُرْلاً»، ثم قرأ: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» [الأنبياء: ١٠٤]، وأول من يُكْسَى يومَ القيامة إبراهيمُ، وإن ناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدِّين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ» إلى قوله: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»[٤] [المائدة: ١١٧ - ١١٨].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٩٥: (٤/ ٢٠٧٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٧٥)، وابن حبان: ص٥٧٩ من «موارد الظمآن»، والحاكم: (١/ ٥١٢)، وقال: (هذا أصح إسناد المصريين فلم يخرجاه)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٨٧): (رواه أحمد وأبو يعلى... وإسنادهما حسن).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٧٧)، ومسلم برقم ٢٨١٧: (٤/ ٢١٩٥).

(٤) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٨٦)، ومسلم برقم٢٦٨٠: (٤/ ٢١٩٤ - ٢١٩٥).

عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يحشر الناس يوم القيامة؟ قال: «عُراةً حفاةً»، قالت: قلت: والنساء؟! قال: «والنساء»، قالت: قلت: يا رسول الله، نستحي، قال: «يا عائشة، الأمر أشد من ذلك أن يُهِمَّهُم أن ينظر بعضُهم إلى بعضٍ»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني: كتب أعمال العباد توضع في أيدي الناس، في أيمانهم وشمائلهم، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيئة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا، و«الويل» و«الويلة»: الهلكة، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء: تنبيه المخاطبين ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا، قال ابن عباس: «الصغيرة»: التبسم، و«الكبيرة»: القهقهة، ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ عدَّها، قال السدي: كتبها وأثبتها، قال مقاتل بن حيان: حفظها.

عن أبي حازمٍ قال: لا أعلمه إلاَّ عن سهل بن سعدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم ومحقَّراتِ الذنوبِ، فإنما مَثَلُ محقَّراتِ الذنوب مَثَلُ قوم نزلوا بطنَ وادٍ فجاء هذا بعودٍ وجاء هذا بعودٍ، فأنضجوا خُبزَتَهُمْ، وإنَّ محقراتِ الذنوبِ لَمُوبقاتٌ»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مكتوبًا مثبتًا في كتابهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا ينقص ثواب أحد عمل خيرًا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ يقول: واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال ابن عباس: كان من حي من الملائكة يقال لهم: الجن، خُلقوا من نار السموم، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس ﴿فَفَسَقَ﴾ أي: خرج ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ عن طاعة ربه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ يعني: يا بني آدم ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي: أعداء.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٨٥٩: (١٥/ ١٢٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٣١)، ورجاله رجال الصحيح.

روى مجالد عن الشعبي قال: إني لقاعد يومًا إذْ أقبل رجل فقال: أخبرني هل لإبليس زوجة؟ قلت: إن ذلك العرس ما شهدته، ثم ذكرت قوله تعالى: «أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى»، فعلمت أنه لا تكون الذرية إلاَّ من الزوجة، فقلت: نعم. وقال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين.

عن أبي العلاء أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي، يَلْبِسُها عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خِنْزِبٌ، فإذا أَحْسَسْتَه فتعوَّذْ بالله منه، واتفُلْ عن يسارك ثلاثًا»، قال: ففعلتُ ذلك فأذهبه الله عنِّي[(١)].

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عَرْشَه على الماء ثم يبعث سَرَايَاه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فتنةً، يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئًا، قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فَرَّقْتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت»، قال الأعمش: أُراه قال: «فَيَلْتَزِمُه»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ قال قتادة: بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ما أحضرتهم، يعني: الملائكة ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: ما أشهدتهم خلقًا فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: الشياطين الذين يضلون الناس عضدًا، أي: أنصارًا وأعوانًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ﴾ يعني: الأوثان ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فاستغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوهم، ولم ينصروهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ يعني: بين الأوثان وعبدتها، ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكًا، قاله عطاء والضحاك: وقال ابن عباس: هو وادٍ في النار.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي: المشركون ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها وواقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ معدلاً؛ لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بيَّنَّا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ خصومة في الباطل.

وعن علي أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً، فقال: «ألا تُصَلِّيان»؟ فقلت: يا رسول الله، إن أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٢٠٣: (٤/١٧٢٨ - ١٧٢٩).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٨١٣: (٤/٢١٦٧).

قلتُ له ذلك ولم يُرْجِعْ إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول: «وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا»(١).

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ القرآن، والإسلام، والبيان من الله عزَّ وجلَّ، وقيل: إنه الرسول ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: سنتنا في إهلاكهم إن لم يؤمنوا. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قال ابن عباس: أي: عيانًا من المقابلة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ومجادلتهم قولهم: «أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا» [الإسراء: ٩٤]، «لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» [الزخرف: ٣١]، وما أشبهه ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ ليبطلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وأصل الدحض: الزلق، يريد: ليزيلوا به الحق ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ فيه إضمار، يعني: وما أنذروا به وهو القرآن، هزوًا، أي: استهزاء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وُعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ما عمل من المعاصي من قبل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: يفهموه، يريد: لئلا يفهموه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صممًا وثقلاً ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الدين ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ذو النعمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ يعاقب الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ يعني: البعث والحساب ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ ملجأ.

وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٠).

كفروا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: أجلاً.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عامة أهل العلم قالوا: إنه موسى بن عمران.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا البَكَالِيَّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أُبيُّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه، إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مِكْتَل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سَرَبًا، وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبًا، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به، وقال له فتاه: أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلاَّ الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبًا، قال: فكان للحوت سربًا ولموسى ولفتاه عجبًا، وقال موسى: ذلك ما كنا نبغ، قال: رجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلَّم عليه موسى، فقال الخضر عليه السلام: وأنَّى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا، قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا يا موسى، إني على علم من علم الله علَّمَنِيْهِ لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله، لا أعلمُه، فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِث لك منه ذكرًا، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت سفينة فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْلٍ، فلما ركبا في السفينة لم يضح إلاَّ والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نَوْلٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئًا إمرًا! قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تُرهقني من أمري عُسرًا»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا والوسطى شرطًا والثالثة عمدًا»، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نَقْرَةً فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاَّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله،

فقال له موسى: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس؟! لقد جئت شيئًا نكرًا، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: وهذه أشد من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغتَ من لَدُنِّي عذرًا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبَوْا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض، فأقامه، قال: كان مائلاً، فقال الخضر بيده فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، قال: «هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا»، فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أنَّ موسى كان صبر حتى يُقَصَّ علينا من خبرهما»[1].

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا»، وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين».

وعن سعيد بن جبير في رواية أخرى عن ابن عباس عن أُبيٍّ بن كعب، قال رسول الله ﷺ: «قام موسى رسول الله فذكَّر الناس يومًا حتى إذا فاضتِ العيون ورقَّتِ القلوب ولَّى فأدركه رجل فقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، ـ فعَتَبَ الله عليه، إذ لم يردَّ العلمَ إلى الله ـ قيل: بلى عبدنا الخضر، قال: أي ربِّ وأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: ربِّ اجعل لي علمًا أعلم بك منه، قال: خذ حوتًا ميِّتًا حيث ينفخ فيه الروح، وفي رواية قيل له: تزود حوتًا مالحًا فإنه حيث تفقد الحوت، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل»[2].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قال قتادة: بحر فارس وبحر الروم، مما يلي المشرق. ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ وإن كان حُقُبًا، أي: دهرًا طويلاً وزمانًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ يعني: موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين البحرين ﴿نَسِيَا﴾ تركا ﴿حُوتَهُمَا﴾ وإنما كان الحوت مع يوشع، وهو الذي نسيه. ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ أي: الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٢١٧ - ٢١٨)، ومسلم: (٤/ ١٨٤٧ - ١٨٥٠).

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري: (٨/ ٤١١ - ٤١٢).

سَرَبًا﴾ أي: مسلكًا.

قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلاَّ يبس حتى صار صخرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: ذلك الموضع، وهو مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: طعامنا، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي: تعبًا وشدة، وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة؛ ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه.

﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكَّر: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ وهي صخرة كانت بالموضع الموعود، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: تركته وفقدته. ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت إلاَّ الشيطان.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قيل: هذا من قول يوشع، ويقول: طفر الحوت إلى البحر، فاتخذ فيه مسلكًا، فعجبت من ذلك عجبًا.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: رجعا يقصان الأثر الذي جاء منه، أي: يتبعانه، فوجدا عبدًا من عبادنا، قيل: كان مَلَكًا من الملائكة، والصحيح الذي جاء في التواريخ، وثبت عن النبي ﷺ أنه الخضر[1].

عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمي خَضِرًا؛ لأنه جلس على فروةٍ بيضاء فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء»[2].

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة ﴿مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علم الباطن إلهامًا، ولم يكن الخضر نبيًّا عند أكثر أهل العلم.

فلما ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يقول: جئتك لأتبعك وأصحبك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

---

(١) تقدم ذلك في الأحاديث السابقة، وانظر: «صحيح البخاري»: (٦/ ٤٣١ - ٤٣٣)، وهو بفتح الخاء وكسر الضاد، ويجوز إسكان الضاد مع كسر الخاء وفتحها.

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٣٣).

﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وإنما قال ذلك؛ لأنه علم أنه يرى أمورًا منكرة، ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات، ثم بيَّن عذره في ترك الصبر، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: علمًا.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ إنما استثنى؛ لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: لا أخالفك فيما تأمر.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني، ولكن جعل الاختيار إليه إلاَّ أنه شرط عليه شرطًا فقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أعمله مما تنكره ولا تعترض عليه ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أبتدىء لك بذكره فأبيِّن لك شأنه.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها، فقال أهل السفينة: هؤلاء لصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: ما هم بلصوص، ولكني أرى وجوه الأنبياء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ﴾ له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: منكرًا.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

﴿قَالَ﴾ العالم، وهو الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ قال ابن عباس: إنه لم يَنْسَ، ولكنه من معاريض الكلام، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ ولا تغشني ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ وقيل: لا تكلفني مشقة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرًّا بغلمانٍ يلعبون، فأخذ الخضر غلامًا ظريفًا وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، قال السدي: كان أحسنهم وجهًا، كان وجهه يتوقد حسنًا.

عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طُبعَ

كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا»[1].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أقتلت نفسًا زكية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل نفسًا بشيء وجب به عليها القتل. ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا.

﴿قَالَ﴾ يعني: الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قيل: زاد «لك»؛ لأنه نقض العهد مرتين.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وفارقني، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قال ابن عباس: أي: قد أعذرتَ فيما بيني وبينك.

عن أُبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى»، وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه، «لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذَمَامَةٌ، قال: «إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا»، فلو صبر لرأى العجب»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: «أنطاكية»، وقال ابن سيرين: هي «الأُبُلَّة»، ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط، ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: سوَّاه.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جعلاً، معناه: إنك قد علمت أننا جياع، وأن أهل القرية لم يطعمونا، فلو أخذت على عملك أجرًا.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ يعني: هذا وقت فراق بيني وبينك. ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سوف أخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفي بعض التفاسير أن موسى أخذ بثوبه، فقال: أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني، فقال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قال كعب: كانت لعشرة إخوة: خمسة زَمْنَى،

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٦١: (٤/ ٢٠٥٠).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٣٨٠/ ١٧٢: (٤/ ١٨٥١).

وخمسة يعملون في البحر، ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي: يؤاجرون ويكتسبون بها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أي: أمامهم ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كل سفينة صالحة غصبًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ﴾ أي: فعلمنا، ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشيهما، وقال الكلبي: يكلفهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ قال سعيد بن جبير: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: صلاحًا وتقوى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ وكان اسمهما أصرم وصريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختلفوا في ذلك الكنز: روي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان ذهبًا وفضة»[1].

قال الزجاج: الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز المال، ويجوز عند التقييد أن يقال عنده كنز علم، وهذا اللوح كان جامعًا لهما. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾. قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويراتٍ حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم. قال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: يبلغا ويعقلا، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ حينئذ ﴿كَنزَهُمَا رَحْمَةً﴾ نعمة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: لم تطق عليه صبرًا.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ خبرًا. والأكثرون على أنه كان مَلِكًا عادلاً صالحًا. واختلفوا في سبب تسميته بـ «ذي القرنين»، قال الزهري: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقيل: لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أوطأنا، والتمكين: تمهيد الأسباب، قال علي: سخر له السحاب فحمله عليه، ومدَّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكينه في الأرض، وهو أنه سهل عليه السير فيها، وذلَّل له طُرقَها. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ

(١) أخرجه الترمذي: (٨/ ٦٠٠)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٦٩).

شَيْءٍ﴾ أي: أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق. ﴿سَبَبًا﴾ أي: علمًا يتسبب به إلى كل ما يريد، ويسير به في أقطار الأرض.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: سلك وسار. وقوله: «سببًا»، أي: طريقًا، وقال ابن عباس: منزلاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وسأل معاوية كعبًا ـ رضي الله عنه ـ: كيف تجد في التوراة أين تغرب الشمس؟ قال: نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين. قال القتيبي: يجوز أن يكون معنى قوله: «فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ»، أي: عندها عين حمئة، أو في رأي العين.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: عند العين أُمَّة. ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يستدل بهذا من زعم أنه كان نبيًّا، فإن الله تعالى خاطبه، والأصح: أنه لم يكن نبيًّا، والمراد منه: الإلهام. ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ يعني: إمَّا أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يعني: تعفو وتصفح، وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدى. خيَّره اللهُ بين الأمرين.

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: كفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا، يعني: بالنار.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله الحسنى. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: نلين له القول، ونعامله باليسر من أمرنا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي: سلك طرقًا ومنازل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: موضع طلوعها ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال قتادة والحسن: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، فكانوا يكونون في أسرابٍ لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قيل: معناه: كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها، والصحيح أن معناه: كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس كذلك حكم في الذين هم عند مطلع الشمس ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ يعني: بما عنده ومعه من الجند والعدة والآلات، «خبرًا»، أي: علمًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما هاهنا: جبلان، سدَّ ذو القرنين ما بينهما حاجزًا بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ يعني: أمام السَّدَّين ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قال ابن عباس: لا يفقهون كلام أحد، ولا يفهم الناس كلامهم.

قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال الكلبي: فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئًا أخضر إلاَّ أكلوه، ولا شيئًا يابسًا إلاَّ احتملوه وأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديدًا وقتلاً. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: جُعْلاً وأجرًا من أموالنا. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: حاجزًا، فلا يصلون إلينا.

﴿قَالَ﴾ لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾ أي: ما قوَّاني عليه ﴿رَبِّي خَيْرٌ﴾ من جعلكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ معناه: إني لا أريد المال، بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: سدًّا، قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فَعَلَةٌ وصُنَّاع يحسنون البناء والعمل، والآلة، قالوا: وما تلك الآلة؟ قال:

﴿ءَاتُونِي﴾ أعطوني، ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: قِطَع الحديد، واحدتها: زُبْرَة، فأتوه بها وبالحطب، وجعل بعضها على بعض، فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وهما الجبلان، «سَاوَىٰ»، أي: سوى بين طرفي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ وفي القصة: أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد، ثم قال: انفخوا، يعني: في النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: صار الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: آتوني قطرًا أفرغ عليه، و«القِطْر»: هو النحاس المذاب.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ من أسفله؛ لشدَّته ولصلابته.

﴿قَالَ﴾ يعني: ذا القرنين ﴿هَٰذَا﴾ أي: السد ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: نعمة ﴿مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾

قيل: القيامة، وقيل: وقت خروجهم ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: جعله مدكوكًا مستويًا مع وجه الأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قيل: هذا عند فتح السد، يقول: تركنا يأجوج ومأجوج يموج، أي: يدخل بعضهم في بعض كموج الماء، ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ في صعيد واحد.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أبرزنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ حتى يشاهدوها عيانًا.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ﴾ أي: غشاء، ﴿عَن ذِكْرِي﴾ يعني: عن الإيمان والقرآن، وعن الهدى والبيان. ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: سَمْعَ القَبُولِ والإيمانِ؛ لغلبة الشقاوة عليهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أفظن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أربابًا، يريد بالعباد: عيسى والملائكة، كلا بل هم لهم أعداء ويتبرءون منهم.

قال ابن عباس: يريد: إني لأغضب لنفسي، يقول: أفظنَّ الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: منزلاً، قال ابن عباس: هي مثواهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ يعني: الذين أتعبوا أنفسهم في عملٍ يرجون به فضلاً ونَوالاً، فنالوا هلاكًا وبوارًا، كمن يشتري سلعة يرجو عليها ربحًا، فخسر وخاب سعيه.

واختلفوا فيهم، قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص: هم اليهود والنصارى، وقيل: هم الرهبان ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حبسوا أنفسهم في الصوامع، وقال علي بن أبي طالب: هم أهل حروراء ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ بطل عملهم واجتهادهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: عملاً.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نجعل لهم خطرًا وقدرًا.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيأتيَ الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة»، وقال: «اقرؤوا إن شئتم: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا»»[١].

قال أبو سعيد الخدري: يأتي أُناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العِظَم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئًا، فذلك قوله تعالى: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ من حبوط أعمالهم وخسة أقدارهم، ثم ابتدأ فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ يعني: القرآن ﴿وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي: سخرية ومهزوءًا بهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ روينا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[٢].

﴿نُزُلًا﴾ قيل أي: منزلاً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ﴾ لا يطلبون ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: تحولاً إلى غيرها، قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: يا محمد، تزعم أنَّا قد أُوتينا الحكمة، وفي كتابك «ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيرًا كثيرًا»، ثم تقول: «وما أُوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً»؟ فأنزل الله هذه الآية.

قال مجاهد: لو كان البحر مدادًا للقلم والقلم يكتب ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: ماؤه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ أي: علمه وحكمه ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ معناه: لو كان الخلائق يكتبون، والبحر يمدُّهم لنفد البحر، ولم تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته مددًا أو زيادة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قال ابن عباس: علَّم الله رسوله التواضع؛ لئلا يزهو على خلقه، فأمره أن يقر فيقول: إني آدمي مثلكم، إلاَّ أني خُصصت بالوحي وأكرمني الله به، يوحى إليَّ أنَّما إلهكم إله واحد لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخاف المصير إليه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٢٦)، ومسلم برقم٢٧٨٥: (٤/ ٢١٤٧).

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٠٤).

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: لا يُرائي بعمله.

عن سلمة هو ابن كهيل قال: سمعت جُنْدُبًا يقول: قال النبي ﷺ: «من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به»(١).

ورُوينا عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»(٢).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء، هو للذي عمله»(٣).

وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال»(٤).

وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورًا من قدميه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نورًا من الأرض إلى السماء»(٥).

سورة مريم

مكية، وهي ثمان وتسعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: اسم للسورة، وقيل: هو قَسَمٌ أقسم الله به.

﴿ذِكْرُ﴾ رفع بالمضمر، أي: هذا الذي نتلوه عليك ذكر ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ معناه: ذكر ربك ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ برحمته.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٣٥ - ٣٣٦)، ومسلم برقم٢٦٤٢: (٤/ ٢٠٣٤ - ٢٠٣٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد: (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، قال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح).
(٣) أخرجه مسلم برقم٢٩٨٥: (٤/ ٢٢٨٩).
(٤) أخرجه مسلم برقم٨٠٩: (١/ ٥٥٥).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٣٩)، قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد يحسّن حديثه). انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٢).

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبَّهُۥ﴾ في محرابه ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ دعا سرًّا من قومه في جوف الليل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ ضَعُفَ ورقَّ ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ من الكِبَر، قال قتادة: اشتكى سقوط الأضراس ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾ أي: ابيضَّ شعر الرأس ﴿شَيْبًا﴾ شمطًا ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يقول: عوَّدتني الإجابة فيما مضى ولم تخيِّبني.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ و«الموالي»: بنو العم، قال مجاهد: العصبة، ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: من بعد موتي.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أعطني من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ ابنًا.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قال الحسن: معناه: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة.

والمعنى: إنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه وليًّا صالحًا يأمنه على أُمَّتِهِ، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين، وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: برًّا تقيًّا مرضيًّا.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ وفيه اختصار، معناه: فاستجاب الله دعاءه، فقال: يا زكريا إنا نبشرك ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ بولد ذكر ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال قتادة والكلبي: لم يُسَمَّ أحد قبله يحيى.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي: وامرأتي عاقر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: يبسًا، قال قتادة: يريد نحولَ العظم.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يسير ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل يحيى ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ دلالة على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ

﴿سَوِيًّا﴾ أي: صحيحًا سليمًا من غير ما بأس ولا خَرَس.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون، إذْ خرج عليهم زكريا متغيِّرًا لونه، فأنكروه وقالوا: مالك يا زكريا؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ فأومأ إليهم، ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أي: صلُّوا لله ﴿بُكْرَةً﴾ غدوة ﴿وَعَشِيًّا﴾ ومعناه: أنه كان يخرج على قومه بكرةً وعشيًّا فيأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع الكلام حتى خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ قيل: فيه حذف معناه: ووهبنا له يحيى وقلنا له: يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: النبوَّة ﴿صَبِيًّا﴾ وهو ابن ثلاث سنين، وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب، فقرأ التوراة وهو صغير. ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ رحمة من عندنا .﴿وَزَكَوٰةً﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص. وقال قتادة ـ رضي الله عنه ـ: هي العمل الصالح، وهو قول الضحاك. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مسلمًا مخلصًا مطيعًا، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا همَّ بها.

وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: بارًّا لطيفًا بهما محسنًا إليهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ و«الجبَّار»: المتكبر، و«العَصِيُّ»: العاصي.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أي: سلامة له ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال: يوم ولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم يرَ مثله، فخصَّ يحيى بالسلامة في هذه المواطن.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في القرآن ﴿مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ تنحَّت واعتزلت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ من قومها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: مكانًا في الدار مما يلي المشرق. قال الحسن: ومن ثَمَّ اتخذت النصارى المشرقَ قبلةً.

﴿فَٱتَّخَذَتْ﴾ فضربتْ ﴿مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سترًا.

وقال عكرمة: إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي تغتسل من المحيض قد تجردت، إذْ عرض لها جبريل في صورة شابٌّ أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، سويِّ الخلق، فذلك قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾

يعني: جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقيل: المراد من الروح: عيسى عليه السلام، جاء في صورة بشر فحملت به، والأول أصح، فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد، فـ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ مؤمنًا مطيعًا. فإن قيل: إنما يستعاذ من الفاجر، فكيف قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا؟ قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمنًا فلا تظلمني، أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعًا من الظلم، كذلك هاهنا. معناه: ينبغي أن تكون تقواك مانعًا لك من الفجور.

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

﴿قَالَ﴾ لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب.

﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لم يقربني زوج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرةً؟ تريد أن الوليد يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن هنا واحد منهما.

﴿قَالَ﴾ جبريل: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ قيل: معناه: كما قلت يا مريم، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وقيل: هكذا قال ربك ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: خَلْق ولد بلا أب ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ علامة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ودلالة على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ونعمة لمن تبعه على دينه ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ محكومًا مفروغًا عنه لا يُرَدُّ ولا يبدَّل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ قيل: إن جبريل رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت حين لبست.

وقيل: نفخ في كم قميصها، وقيل: في فيها. ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي: تنحَّتْ بالحمل وانفردت ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدًا من أهلها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أقصى الوادي، وهو وادي ببيت لحم، فرارًا من قومها أن يعيِّروها بولادتها من غير زوج.

واختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة، وقيل: كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء.

﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أي: ألجأها وجاء بها ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وهو وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وكانت نخلة يابسة في الصحراء، في شدة الشتاء، لم يكن لها سعف. وقيل: التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تمنت الموت استحياءً من الناس وخوف الفضيحة ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ و«النسيُّ» في اللغة: كل ما أُلقي ونُسي ولم يذكر لحقارته. ﴿مَّنسِيًّا﴾

أي: متروكًا، قال قتادة: شيء لا يعرف ولا يذكر، قال عكرمة والضحاك ومجاهد: جيفة ملقاة.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، يعني: جبريل عليه السلام، وكانت مريم على أَكَمَةٍ وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها. وقيل: هو عيسى لما خرج من بطن أُمه ناداها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ وهو قول مجاهد والحسن. والأول قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والسدي وقتادة والضحاك وجماعة: أن المنادي كان جبريل لما سمع كلامها وعرف جزعها ناداها: ألا تحزني.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ السَّري: النهر الصغير. قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: ضرب جبريل عليه السلام، ـ ويقال: ضرب عيسى عليه الصلاة والسلام ـ برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى. وقال الحسن: «تحتك سريًّا»، يعني: عيسى، وكان واللهِ عبدًا سريًّا، يعني: رفيعًا.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ﴾ يعني قيل لمريم: حرِّكي ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مجنيًّا، قال الربيع بن خُثَيْم: ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي: فكلي يا مريم من الرُّطَب، واشربي من ماء النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفسًا ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: تري. معناه: فإما ترين من البشر أحدًا فيسألك عن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ يقال: كانت تكلم الملائكة، ولا تكلم الإنس.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ قيل: إنها ولدته، ثم حملته في الحال إلى قومها ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ عظيمًا منكرًا. قال النبي ﷺ في عمر: «فلم أرَ عبقريًّا يفري فريه»[1]، أي: يعمل عمله.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٦٢٩ - ٦٣٠)، ومسلم برقم٢٣٩٣: (٤/ ١٨٦٢).

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ يريد: يا شبيهة هارون. عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون: «﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾»، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا! فلمَّا قدمت على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[1]. ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: زانيًا ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ﴾ حنَّة ﴿بَغِيّٗا﴾ أي: زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

﴿فَأَشَارَتۡ﴾ مريم ﴿إِلَيۡهِۖ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام: أن كلِّموه. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لما لم يكن لها حجة أشارت إليه؛ ليكون كلامه حجةً لها. وفي القصة: لما أشارت إليه غضب القوم، وقالوا: مع ما فعلت تسخرين بنا؟ ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي: من هو في المهد، وهو حجرها. قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم.

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أقرَّ على نفسه بالعبودية لله عزَّ وجلَّ أول ما تكلم لئلا يتخذ إلهًا ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ قيل: معناه: سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيًّا.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ أي: نفَّاعًا حيث ما توجهت، وقال مجاهد: معلِّمًا للخير. ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: أمرني بهما. فإن قيل: لم يكن لعيسى مال، فكيف يؤمر بالزكاة؟ قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال، وقيل: بالاستكثار من الخير. ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾.

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: وجعلني برًّا بوالدتي ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ أي: عاصيًا لربِّه، قيل: «الشَّقيُّ»: الذي يذنب ولا يتوب.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ أي: السلامة عند الولادة من طعن الشيطان ﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ﴾ أي: عند الموت من الشرك ﴿وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ من الأهوال، ولما كلَّمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى عليه السلام، فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ قال الزجاج: أي: ذلك الذي قال: إني عبد الله عيسى ابن مريم ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: قالَ قَوْلَ الحقِّ ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي: يختلفون، فقائل يقول: هو ابن الله،

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢١٣٥: (٣/ ١٦٨٥).

وقائل يقول: هو الله، وقائل يقول: هو ساحر كاذب.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي: ما كان من صفته اتخاذ الولد، ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ إذا أراد أن يحدث أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ يعني: النصارى، سُمُّوا أحزابًا؛ لأنهم تحزَّبوا ثلاث فرقٍ في أمر عيسى: النسطورية، والملكانية، واليعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر! أخبرَ أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا في الدنيا.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خطأ بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذبح الموت. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرفون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرفون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، ثم قرأ: «﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾»(١). عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهلُ الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنة إلاَّ أُري مقعدَه من النار لو أساء ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحدٌ إلاَّ أُري مقعدَه من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلاَّ ندم»، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسنًا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون نزع»(٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: عمَّا يُفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٢٨)، ومسلم برقم٢٨٤٩: (٤/ ٢١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٤١٥)، ومسلم: (٤/ ٢١٨٩).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٤١٨).

(٤) أخرجه الترمذي: (٧/ ٨٤)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ويحيى بن عبيد الله قد تكلم فيه شعبة).

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعًا، ويبقى الربُّ وحده فيرثهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجزيهم بأعمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ «الصِّدِّيق»: الكثير الصدق القائم عليه، و«النَّبِيُّ»: العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إيَّاه.

﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر، وهو يعبد الأصنام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ صوتًا ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئًا ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ﴾ أي: لا يكفيك ﴿شَيْـًٔا﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالله والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ على ديني ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيمًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تطعه فيما يزيِّن لك من الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ عاصيًا، «كان» بمعنى الحال، أي: هو كذلك.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أي: أعلم ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ يصيبك ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إن أقمتَ على الكفر ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ قرينًا في النار.

﴿قَالَ﴾ أبوه مجيبًا له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ لئن لم تسكت وترجع عن عيبك آلهتنا وشتمك إيَّاها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قال الكلبي ومقاتل والضحاك: لأشتمنَّك، ولأُبْعِدَنَّك عني بالقولِ القبيح. قال ابن عباس: لأضربنَّك، وقال عكرمة: لأقتلنَّك بالحجارة. ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قال الكلبي: اجتنبني طويلاً، وقال مجاهد وعكرمة: حينًا.

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا

لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أي: سلمت مني لا أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره. وقيل: هذا سلام هجران ومفارقة.

قوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ قيل: إنه لما أعياه أَمْرُهُ ووعده أن يراجع الله فيه، فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له، معناه: سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها المغفرة. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ برًّا لطيفًا.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعتزل ما تعبدون من دون الله، قال مقاتل: كان اعتزاله إيَّاهم أنه فارقهم من «كوثى» فهاجر منها إلى الأرض المقدسة ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: أعبدُ ربي ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي: عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فذهب مهاجرًا ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد الهجرة ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ آنسنا وحشته من فراقهم، وأقررنا عينه بأولادٍ كرام على الله عزَّ وجلَّ ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ يعني: إسحاق ويعقوب.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ قال الكلبي: المال والولد، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يعني: ثناءً حسنًا رفيعًا في كل أهل الأديان، فكلُّهم يتولَّونهم، ويثنون عليهم.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ غير مُراءٍ، أخلص العبادة والطاعة لله عزَّ وجلَّ، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ يعني: يمين موسى، والطور: جبل بين مصر ومدين. ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي: مناجيًا.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ وذلك حين دعا موسى فقال: «وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾» [طه: ٢٩ - ٣٠]، فأجاب الله دعاءه وأرسل هارون، ولذلك سماه هبة له.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو إسماعيل بن إبراهيم جدُّ النبي ﷺ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ قال مجاهد: لم يَعِدْ شيئًا إلاَّ وفَّى به. وقال مقاتل: وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى

يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل. ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى جُرْهم ﴿نَّبِيًّا﴾ مخبرًا عن الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: قومه، ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ قال ابن عباس: يريد التي افترضها الله تعالى عليهم، وهي الحنيفية التي افترضت علينا ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ قائمًا بطاعته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ وهو جَدّ أبي نوح، واسمه: «أخنوخ»، سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قيل: يعني: الجنة، وقيل: هو أنه رفع إلى السماء الرابعة. روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يعني: إدريس ونوحًا ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، يريد: إبراهيم؛ لأنه ولد من سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يريد: إسماعيل وإسحاق ويعقوب. ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، وهم: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ هؤلاء كانوا ممن أرشدنا واصطفينا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ «سُجَّدًا»: جمع ساجد، و«بكيًّا»: جمع باكٍ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: من بعد النبيين المذكورين خَلْف، وهم قوم سوء، و«الخَلَفُ» ـ بالفتح ـ: الصالح، وبالجزم: الطالح. قال السدي: أراد بهم اليهود ومن لحق بهم، وقال مجاهد وقتادة: هم في هذه الأمة. ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوا الصلاة المفروضة. وقال ابن مسعود وإبراهيم: أخَّروها عن وقتها. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: المعاصي، وشرب الخمر، يعني: آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله، وقال مجاهد: هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو

بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال وهب: «الغيُّ»: نهر في جهنم، بعيدٌ قعره، خبيث طعمه. وقوله: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا»، ليس معناه يرون فقط، بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ولم يروها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ يعني: آتيًا، مفعول بمعنى فاعل. وقال ابن جرير: «وعده»، أي: موعده، وهو الجنة، «مأتيًّا»: يأتيه أولياؤه أهل الجنة، وأهل طاعته.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً وفحشًا وفضولاً من الكلام. ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناءٌ من غير جنسه، يعني: بل يسمعون فيها سلامًا. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال أهل التفسير: ليس في الجنة ليل يعرف به البكرة والعشي، بل هم في نور أبدًا، ولكنهم يأتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار.

تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نعطي وننزل، وقيل: يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: المتقين من عباده.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا» فنزلت: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا...» الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ[(١)].

وقال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال: «أخبركم غدًا» ولم يقل: إن شاء الله، حتى شقَّ على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام، فقال له رسول الله ﷺ: «أبطأت عليَّ حتى ساء ظني واشتقت إليك»، فقال له جبريل: إني كنت أشْوَق، ولكني عبد مأمور، إذا بُعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فأنزل الله: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»، وأنزل: «وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/٤٢٨ - ٤٢٩).

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/١٠٣ - ١٠٤)، وابن إسحاق: (١/٣٠٠ - ٣٠١).

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: له علم ما بين أيدينا، واختلفوا فيه، فقال سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا»: من أمر الآخرة والثواب والعقاب، «وَمَا خَلْفَنَا»: ما مضى من الدنيا، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: ما يكون من هذا الوقت إلى قيام الساعة. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ناسيًا.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر على أمره ونهيه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مِثْلاً، وقال الكلبي: هل تعلم أحدًا يُسمى «الله» غيره؟

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: أُبيّ بن خلف الجمحي، كان منكرًا للبعث، قال: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ قاله استهزاءً وتكذيبًا للبعث.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ أي: يتذكر ويتفكر، «الإنسانُ» يعني: أُبي بن خلف ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه، فيستدل به على الإعادة، ثم أقسم بنفسه، فقال:

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنَّهم في المعاد، يعني: المشركين المنكرين للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ مع الشياطين، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ قيل: في جهنم ﴿جِثِيًّا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: جماعات، جمع جثوة، وقال الحسن والضحاك: جمع «جاثٍ»، أي: جاثين على الرُّكَب.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ لنخرجنَّ ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: من كل أُمة وأهل دين من الكفار ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ عتوًا، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: جرأة، وقال مجاهد: فجورًا، يريد: الأعتى فالأعتى.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾، أي: أحق بدخول النار.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وما منكم إلاَّ واردها. واختلفوا في معنى الورود هاهنا، وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله: «واردها»، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو قول الأكثرين: معنى الورود هاهنا هو الدخول، والكناية راجعة إلى النار، وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر، ثم ينجي الله المتقين، فيخرجهم منها.

وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرقَ مَارَى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الورود، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الدخول، وقال نافع: ليس الورود الدخول، فتلا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾» [الأنبياء: ٩٨] أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع أما والله أنت وأنا سَنَرِدُها، وأنا أرجو أن يخرجني الله، وما أرى الله عزَّ وجلَّ أن يخرجك منها بتكذيبك[١].

وهو الأصح، وعليه أهل السنة، أنهم جميعًا يدخلون النار ثم يخرج الله عزَّ وجلَّ منها أهل الإيمان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: اتقوا الشرك، وهم المؤمنون، والنجاة إنَّما تكون مما دخلت فيه. والدليل على هذا: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلاَّ تحلَّة القسم»[٢].

وأراد بالقسم قوله: «وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا». عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»[٣].

وأما قوله عزَّ وجلَّ: «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾» [الأنبياء: ١٠٢]، قيل: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنهم لا يسمعون حسيسها، فيجوز أن يكونوا قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة؛ لأنه لم يقل: لم يسمعوا حسيسها، ويجوز أن لا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إيَّاها؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يجعلها عليهم بردًا وسلامًا.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودكم جهنم حتمًا لازمًا «مَّقْضِيًّا»: قضاه الله عليكم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: اتقوا الشرك، ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ جميعًا، وقيل: جاثين على الركب، وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتقين، وترك فيها الظالمين، وهم المشركون.

عن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب»، قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله عزَّ وجلَّ فيقول: أنا ربكم، فيقولون:

---

(١) أخرجه الطبري: (١٦/ ١١١)، وهنَّاد في الزهد: (١/ ٢٣١).
(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٤١)، ومسلم برقم٢٦٣٢: (٤/ ٢٠٢٨).
(٣) أخرجه البخاري: (١/ ١٠٣)، ومسلم برقم١٩٣: (١/ ١٨٢).

هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم، ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأُمته، ولا يتكلم يومئذ إلاَّ الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلِّمْ سلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلاَّ الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يجردل ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يُخرجوا مَن كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلاَّ أثر السجود، فيُخرجون من النار قد امْتَحَشُوا، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحِبَّة في حَمِيْل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة، مقبل بوجهه قِبَلَ النار، فيقول: يا ربِّ اصرف وجهي عن النار، قد قَشَبَني ريحها وأحرقني ذُكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا، وعزَّتِك، فيعطي الله ما شاء من عهدٍ وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا ربِّ قدمني عند باب الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت، فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزَّتِك لا أسألك غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها ورأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخِلني الجنة، فيقول الله تعالى: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسألني غير الذي أُعطيتَ؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمنَّ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أُمنيتُه، قال الله تعالى: تمنَّ كذا وكذا، أقبل يُذكّره ربه، حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد لأبي هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ـ تعالى ـ: لك ذلك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلاَّ قوله: «لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد: إني سمعته يقول: «ذلك لك وعشرة أمثاله»(١).

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعَذَّبُ أُناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حُمَمًا، ثم تدركهم الرحمة، قال: فيُخرون فيُطرحون على أبواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما تنبتُ الغثاء في حَمَالةِ السيل، ثم يدخلون الجنة»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤١٩ - ٤٢٠)، ومسلم برقم١٨٢: (١/ ١٦٣ - ١٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣٢٤ - ٣٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والإمام أحمد: (٣/ ٧٧).

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، رجل يخرج منها زحفًا فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب ليدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيرجع فيقول: يا رب، قد أخذ الناس المنازل، فيقال: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تمنَّ، فيتمنى، فيقال له: فإن لك الذي تمنيته وعشرة أضعاف الدنيا، قال: فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[1].

وعن حفصة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النارَ إن شاء الله أحدٌ شهد بدرًا والحديبية»، قال: قلت: يا رسول الله، الله أليس قد قال تعالى: «وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾»؟ قال: «أفلم تسمعيه يقول: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾»[2].

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: النضر بن الحارث وذويه من قريش ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: فقراء أصحاب النبي ﷺ، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خشونة، وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعورهم، ويدهنون رؤوسهم ويلبسون حرير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلاً ومسكنًا. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلسًا، ومثله: النادي، فأجابهم الله تعالى فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أي: متاعًا وأموالاً، وقال مقاتل: لباساً وثيابًا ﴿وَرِئْيًا﴾ معناه: الارتواء من النعمة، فإن المتنعم يظهر فيه ارتواء النعمة، والفقير يظهر عليه ذبول الفقر.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ هذا أمر بمعنى الخبر، معناه: يدعه في طغيانه ويمهله في كفره ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ وهو الأسر والقتل في الدنيا ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يعني:

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٤١٨ - ٤١٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه: (٢/ ١٤٣١)، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٢٨٥).

القيامة، فيدخلون النار ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلاً ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أقل ناصرًا، أهم أم المؤمنون؟ لأنهم في النار، والمؤمنون في الجنة. وهذا ردٌّ عليهم في قوله: «أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ أي: إيمانًا وإيقانًا على يقينهم ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ عاقبة ومرجعًا.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾، حدثنا خباب قال: كنت قَيْنًا فعملت للعاص بن وائل، فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموتَ ثم تُبْعَثَ فَلا، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لي ثَمَّ مال وولد فأقضيك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس: أنظرَ في اللوح المحفوظ؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يعني قال: لا إله إلاَّ الله، وقال قتادة: يعني: عملاً صالحًا قدَّمه.

﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه، يعني: لم يفعل ذلك ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾ فنجازيه به في الآخرة، وقيل: نأمر به الملائكة حتى يكتبوا ما يقول ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نزيده عذابًا فوق العذاب، وقيل: نطيل مدة عذابه. ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيَّاه وإبطال ملكه وقوله ما يقول؛ لأنه زعم أنَّ له مالاً وولدًا في الآخرة، أي: لا نعطيه ونعطي غيره فيكون الإرث راجعًا إلى ما تحت القول لا إلى نفس القول. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يوم القيامة، بلا مال ولا ولد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يعني: مشركي قريش، اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: منعة، حتى يكونوا لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب.

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: تجحد الأصنام والآلهة التي

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٣٠ - ٤٣١).

كانوا يعبدونها عبادةَ المشركين ويتبرءون منهم. ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: أعداءً لهم، وكانوا أولياءهم في الدنيا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: سلَّطناهم عليهم، ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تزعجهم إزعاجًا من الطاعة إلى المعصية.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تعجل بطلب عقوبتهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال الكلبي: يعني: الليالي والأيام والشهور والأعوام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: اذكر لهم يا محمد، اليوم الذي يجمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى الرحمن، إلى جنته وفدًا، أي: جماعات. وقال علي بن أبي طالب: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوقٍ، رحالها الذهب، ونجائبَ سرجها يواقيت، إن همُّوا بها سارت، وإن همُّوا بها طارت.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: مشاة، وقيل: عطاشًا، قد تقطعت أعناقهم من العطش.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ يعني: لا إله إلاَّ الله.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ يعني: اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس: منكرًا، وقال قتادة ومجاهد: عظيمًا، وقال مقاتل: لقد قلتم قولاً عظيمًا.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾، يقال: انفطر الشيء وتفطر، أي: تشقق. ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تنكسر كسرًا. «وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أي: تنطبق عليهم.

﴿أَن دَعَوْا﴾ أي: من أجل أن جعلوا ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ قال ابن عباس وكعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلاَّ الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولدًا. ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال:

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إلاَّ آتيه يوم القيامة ﴿عَبْدًا﴾ ذليلاً خاضعًا، يعني: أن الخلق كلهم عبيده.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: عدَّ أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، فلا يخفى عليه شيء.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ وحيدًا ليس معه من الدنيا شيء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ أي: محبة، قال مجاهد: يحبهم الله، ويحبِّبهم إلى عباده المؤمنين.

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل: قد أحببتُ فلانًا فأحبَّهُ، فيحبه جبرائيل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله عزَّ وجلَّ قد أحب فلانًا فأَحِبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يُوْضَعُ له القَبُول في الأرض، وإذا أبغض العبد»، قال مالك: لا أحسبه إلاَّ قال في البغض مثل ذلك(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سهَّلنا القرآن بلسانك يا محمد ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ شدادًا في الخصومة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ﴾ هل ترى، وقيل: هل تجد ﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ أي: صوتًا، قال الحسن: بادوا جميعًا، فلم يبق منهم عين ولا أثر.

سورة طه

مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

﴿طه ﴿١﴾﴾ قيل: هو قَسَمٌ، وقيل: اسم من أسماء الله تعالى. وقال مجاهد والحسن وعطاء

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٦١)، ومسلم برقم٢٦٣٧: (٤/ ٢٠٣٠).

والضحاك: معناه: يا رجل. قال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله عزَّ وجلَّ بِطَوْله وهدايته.

«مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾»، أي: لتتعنى وتتعب، وأصل الشقاء في اللغة العناء.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي: لكن أنزلناه عظة لمن يخشى.

﴿تَنزِيلًا﴾ بدل من قوله: «تذكرةً» ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: من الله الذي خلق الأرض ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ يعني: العالية الرفيعة.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: الهواء ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ والثرى هو: التراب الندي، قال الضحاك: يعني: ما وراء الثرى من شيء.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: تعلن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال الحسن: «السِّرُّ»: ما أسرَّ الرجل إلى غيره، «وأخفى» من ذلك: ما أسرَّ في نفسه.

ثم وحَّدَ نفسه، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ أي: قد أتاك، استفهام بمعنى التقرير.

﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ وذلك أن موسى استأذن شعيبًا في الرجوع من مدين إلى مصر؛ لزيارة والدته وأخته، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكان أيام الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوكِ الشام، وامرأته في سقمها، لا تدري أليلاً أم نهارًا، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطَّلْقُ، فقدح زنده فلم يُوره. فأبصر نارًا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾: أقيموا، ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أي: أبصرت ﴿نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ شعلة من نار، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي: أجد عند النار من يدلني على الطريق.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، فلا ضوء النار يغيّر خضرة الشجرة، ولا خضرة الشجرة تغيّر ضوء النار.

قال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه موسى نارًا، بل كان نورًا، ذكر بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارًا.

وقال أكثر المفسرين: إنه نور الرب عزَّ وجلَّ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما.

وقال سعيد بن جبير: هي النار بعينها، وهي إحدى حجب الله تعالى، يدلُّ عليه: ما روينا عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «حجابُهُ النار لو كشفَها لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِهِ»(١).

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾. قال وهب: نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى، فأجاب سريعًا ما يدري مَنْ دعاه، فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك، وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلاَّ لله، فأيقن به(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أُمر بخلع النعلين ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدسة، فيناله بركتها؛ لأنها قُدِّست مرتين، فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي. ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهر ﴿طُوًى﴾ وطوى اسم الوادي.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك برسالاتي، ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك:

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ قال مجاهد: أقم الصلاة لتذكرني فيها، وقال مجاهد: إذا تركت الصلاة ثم ذكرتها فأقمها.

عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «من نسي صلاةً فَلْيصلِّها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلاَّ ذلك»(٣)، ثم قال: سمعته يقول بعد ذلك: «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ».

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قيل: معناه: إن الساعة آتية أخفيها. والمعنى في إخفائها التهويلُ؛ لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذرٍ منها كلَّ وقت. ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بما تعمل من خير وشر.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ مراده، خالف أمر الله ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قَلَبها حيةً علم أنه معجزة عظيمة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٩: (١/ ١٦١ - ١٦٢).
(٢) عزاه السيوطي: (٥/ ٥٥٤ - ٥٥٥) للإمام أحمد في الزهد، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه البخاري: (٢/ ٧٠)، ومسلم برقم٦٨٤: (١/ ٤٧٧).

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ قيل: وكانت لها شعبتان، وفي أسفلها سنان، ولها محجن. ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها: إذا مشيت، وإذا أعييت، وعند الوثبة ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات ومنافع أخرى.

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ انبذها.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ على وجه الرفض، ثم حانت منه نظرة ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ صفراء من أعظم ما يكون من الحيَّات ﴿تَسْعَىٰ﴾ تمشي بسرعة على بطنها.

﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هيئتها الأولى، أي: نَرُدُّها عصًا كما كانت. قال المفسرون: أراد الله عزَّ وجلَّ أن يُري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إبطك، قال مجاهد: تحت عضدك، وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ نيرة مشرقة ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عيب، ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: دلالة أخرى على صدقك سوى العصا.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ ولم يقل الكُبَر لرؤوس الآية.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: جاوز الحدّ في العصيان والتمرد، فادعه إلى عبادتي.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسِّعْه للحق، قال ابن عباس: يريد: حتى لا أخاف غيرك.

﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ أي: سهِّلْ عليَّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره، فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: إن هذا عدوي وأراد أن يقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل ولا يميِّز.

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ يقول: احْلُلِ العقدة كي يفقهوا كلامي.

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ مُعِينًا وظهيرًا ﴿مِّنْ أَهْلِى﴾، ثم بيَّن من هو فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين، وكان أفصح منه لسانًا وأجمل وأوسم وأبيض اللون، وكان موسى آدم أقنى جعدًا.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ قوِّ به ظهري.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أي: في النبوة وتبليغ الرسالة.

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ قال الكلبي: نصلي لك كثيرًا.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ خبيرًا عليمًا.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ أعطيتَ ﴿سُؤْلَكَ﴾ جميع ما سألته ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ يعني: قبل هذه المرة، وهي:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وحي إلهام ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما يلهم، ثم فسر ذلك الإلهام وعدَّد نعمه عليه:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: ألهمناها أنِ اجعليه في التابوت ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يعني: نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ يعني: شاطىء النهر، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني: فرعون، فاتخذت تابوتًا وجعلت فيه قطنًا محلوجًا ووضعت فيه موسى، وقيَّرت رأسه وخصاصه - يعني: شقوقه - ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذا بتابوت يجيىء به الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهًا، فلما رآه فرعون أحبَّه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال ابن عباس: أحبه وحبَّبه إلى خلقه. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ يعني: لتُربَّى بمرآى ومنظرٍ مني.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ واسمها: مريم، متعرفةً خبره ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؟ أي: على امرأة ترضعه وتضمُّه إليها؛ وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فلما قالت ذلك لهم أخته، قالوا:

نعم، فجاءت بالأم فقَبِلَ ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: لأن يذهب عنها الحزن. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان قتل قبطيًّا كافرًا، ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: من غم القتل وكربه ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: اختبرناك اختبارًا.

وعن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير: أنَّ الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلَّصه الله منها، أولها أن أُمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلاَّ من ثدي أُمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى همَّ بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي، وخروجه إلى مدين خائفًا، فكان ابن عباس يقص القصة على سعيد بن جبير، فعلى هذا معنى «وَفَتَنَّٰكَ»: خلصناك من تلك المحن، كما يفتن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث فيه. ﴿فَلَبِثْتَ﴾ فمكثت، ﴿سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يعني: ترعى الأغنام عشر سنين. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال مقاتل: على موعد، ولم يكن هذا الموعد مع موسى، وإنما كان موعدًا في تقدير الله. وقال عبد الرحمن بن كيسان: على رأس أربعين سنة، وهو القدر الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، وهذا معنى قول أكثر المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ أي: اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي، يعني: لتنصرف على إرادتي ومحبتي.

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ بدلائلي، ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تضعفا، ﴿فِى ذِكْرِى﴾.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ يقول: دارياه وارفقا معه، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا تعنفا في قولكما. وكان هارون يومئذٍ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي بهارون وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلةٍ، وأخبره بما أوحي إليه. ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: يتعظ ويخاف فيسلم.

﴿قَالَا﴾ يعني: موسى وهارون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يعجل علينا بالقتل والعقوبة، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: يجاوز الحد في الإساءة إلينا.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه، لست بغافلٍ عنكما، فلا تهتما.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خلِّ عنهم وأطلقهم عن أعمالك ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده، لها شعاع كشعاع الشمس ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ليس المراد منه التحية، إنما معناه: سَلِم من عذاب الله من أسلم.

إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ من إلهكما الذي أرسلكما؟

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ قال الحسن وقتادة: أعطى كلَّ شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ومعنى «البال»: الحال، أي: ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، مثل: قوم نوح وعاد وثمود، فيما تدعوني إليها، فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: أعمالها محفوظة عند الله يجازي بها. ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ أي: لا يخطىء، وقيل: لا يضلُّ عنه شيء ولا يغيب عن شيء ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يخطىء ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشًا. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ قال ابن عباس: سهَّل لكم فيها طرقًا تسلكونها. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر. ثم أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ بذلك الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مختلف الألوان والطعوم والمنافع من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس ومنها للدواب.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: أسيموا أنعامكم ترعى. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول. قال الضحاك: «لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ»: الذين ينتهون عمَّا حُرِّم عليهم. قال قتادة: لذوي الورع.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾

﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: أباكم آدم. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ عند الموت والدفن ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يوم البعث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ يعني: فرعون ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني: الآيات التسع التي أعطاها الله موسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ بها، وزعم أنها سحر ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يُسْلِم.

﴿قَالَ﴾ يعني فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي: تريد أن تغلب على ديارنا، فيكون لك الملك وتخرجنا منها.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: فاضرب بيننا أجلاً وميقاتًا ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾. قال مقاتل وقتادة: مكانًا عدلاً بيننا وبينك.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان يوم عيدٍ لهم، يتزينون فيه، ويجتمعون في كل سنة، وقيل: هو يوم النيروز. ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي: وقت الضحوة نهارًا جهارًا، ليكون أبعد من الريبة.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ مكره وحيلته وسحرته ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ الميعاد.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ﴾ يعني: للسحرة الذين جمعهم فرعون، وكانوا اثنين وسبعين ساحرًا، مع كل واحد منهم حبل وعصا. ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ قال مقاتل والكلبي: فيهلككم، وقال قتادة: فيستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تناظروا وتشاوروا ـ يعني: السحرة ـ في أمر موسى سرًّا من فرعون. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي: المناجاة، ثم ﴿قَالُوا﴾ وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يعني: موسى وهارون. ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ

﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قال ابن عباس: يعني: بسراة قومكم وأشرافكم، حدَّث الشعبي عن علي، قال: يَصْرِفان وجوهَ الناس إليها.

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ أي: أعزموا كلكم على كيده مجتمعين له، ولا تختلفوا فيختل أمركم. ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: جميعًا، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: فاز مَنْ غلب.

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: السحرة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ عصاه.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أولاً ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ وفيه إضمار، أي: فألقَوا فإذا حبالهم ﴿وَعِصِيُّهُمْ﴾ جمع العصا ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصيَّ أخذوا أعين الناس، فرأى موسى والقوم كأنَّ الأرض امتلأت حيَّات، وكانت قد أخذت ميلاً من كل جانب ورأوا أنها تسعى.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ أي: وجد، وقيل: أضمر في نفسه خوفًا، واختلفوا في خوفه، قيل: خوف طبع البشرية، وذلك أنه ظنَّ أنها تقصده.

﴿قُلْنَا﴾ لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الغالب، يعني: لك الغلبة والظفر.

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ يعني العصا ﴿تَلْقَفْ﴾ تلتقم وتبتلع ﴿مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾ إن الذي صنعوا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ أي: حيلة سحر، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ من الأرض، قال ابن عباس: لا يسعد حيث كان.

فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لرئيسكم ومعلِّمكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنَا على إيمانكم به، أو رَبُّ موسى على

ترك الإيمان به؟ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أدوم.

﴿قَالُواْ﴾ يعني السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: الدلالات.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: لن نؤثرك على الله الذي فطرنا، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: أمرك وسلطانك في الدنيا، وسيزول عن قريب.

إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ فإنه قيل: كيف قالوا هذا، وقد جاؤوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة؟! قيل: روي عن الحسن أنه قال: كان فرعون يُكره قومًا على تعلم السحر لكيلا يذهب أصله، وقد كان أكرههم في الابتداء.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ قال محمد بن إسحاق: خير منك ثوابًا، وأبقى عقابًا.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيل: هذا ابتداء كلام من الله تعالى، وقيل: من تمام قول السحرة ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مشركًا، يعني: مات على الشرك ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ مات على الإيمان ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ الرفيعة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي: تطهَّر من الذنوب.

عن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم مَنْ تحتهم كما ترون الكوكب الدُّرِّي في أُفق من آفاق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأَنْعَمَا»[1].

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سِرْ بهم ليلاً من أرض مصر

---

(١) أخرجه أبو داود: (٦/ ٨)، والترمذي: (١٠/ ١٤١، ١٤٢)، وقال: (هذا حديث حسن).

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: اجعل لهم طريقًا في البحر بالضرب بالعصا ﴿يَبَسٗا﴾ يابسًا: ليس فيه ماء ولا طين، ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ قيل: لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك، ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك.

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ فلحقهم ﴿فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم﴾ أصابهم ﴿مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ وهو الغرق.

﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ أي: ما أرشدهم، وهذا تكذيب لفرعون في قوله: «وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ» [غافر: ٢٩].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ قال ابن عباس: لا تظلموا، قال الكلبي: لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ هلك وتردَّى في النار.

وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢ ۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ۝٨٦

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ قال ابن عباس: تاب من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ ووحَّدَ الله وصدَّقه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أدى الفرائض ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ قال عطاء وابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله.

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ أي: وما حملك على العجلة ﴿عَن قَوۡمِكَ﴾ وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً حتى يذهبوا معه إلى الطور، ليأخذوا التوراة، فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقًا إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، وخلَّف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل، فقال الله تعالى له: ﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾.

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لربه تعالى: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: هم بالقرب مني يأتون من بعدي ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ لتزداد رضًا.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي: ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفًا ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي: من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل، وأضافه إلى السامري؛ لأنهم ضلوا بسببه.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ حزينًا ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ صدقًا: أنه يعطيكم التوراة ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ مدة مفارقتي إياكم ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب عليكم به الغضب من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ونحن نملك أمرنا. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا﴾ أي: جعلونا نحملها وكلفنا حملها ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ من حُلي قوم فرعون، سَمَّاها أوزارًا؛ لأنهم أخذوها على وجه العارية، فلم يردوها، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حليًّا من القبط، وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر. ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي: طرحناها في الحفرة ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحلي فيها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أوقد هارون نارًا وقال: اقذفوا فيها ما معكم، فألقوه فيها، ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل. قال قتادة: كان قد أخذ قبضة من ذلك التراب في عمامته.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: تركه موسى هاهنا، وذهب يطلبه، وقيل: أخطأ الطريق وضل.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم، ولا يجيبهم إذا دعوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ﴾ ابتليتم بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ على ديني في عبادة الله ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في ترك عبادة العجل.

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ﴾ أي: لن نزال ﴿عَلَيْهِ﴾ على عبادته ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفًا من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى

هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾﴾ أشركوا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: أن تتبعني و«لا» صلة، أي: تتبع أمري ووصيتي، يعني: هلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي: خالفت أمري.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ أي: بشعر رأسي، ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ لو أنكرتُ عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضًا ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزابًا يتقاتلون، فتقول: أنت فرَّقت بين بني إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: اخلفني في قومي، ثم أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟ ﴿يَٰسَٰمِرِىُّ﴾.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ رأيت ما لم يروا، وعرفت ما لم يعرفوا. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من تراب أثر فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها في فم العجل. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ أي: زينت ﴿لِى نَفْسِى﴾.

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي: ما دمت حيًا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تخالط أحدًا، ولا يخالطك أحد.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامري ﴿مَوْعِدًا﴾ لعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن تغيب عنه، ولا مذهب لك عنه، بل توافيه يوم القيامة. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ بزعمك ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: ظلت ودمت عليه مقيمًا تعبده. ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار، ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لنذرينه ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر ﴿نَسْفًا﴾ وقال السدي: أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ وسع علمُه كلَّ شيء.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من الأمور ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن القرآن، فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ حملاً ثقيلاً من الإثم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في عذاب الوزر ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفرًا بالقرآن.

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ والزرقة: هي الخضرة: في سواد العين، فيحشرون زرق العيون سود الوجوه، وقيل: عميًا، وقيل: عطاشًا ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون بينهم، ويتكلمون خفية ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: عشر ليال.

قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: يتسارُّون بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أوفاهم عقلاً وأعدلهم قولاً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ قال ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ فقال: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله هذه الآية.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيدع أماكن الجبال من الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: أرضًا ملساء مستوية لا نبات فيها.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ قال مجاهد: انخفاضًا وارتفاعًا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ أي: صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، وذلك أنه يضع الصور في فيه، ويقول: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمُّوا إلى عرض الرحمن. ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لدعائه، وهو من المقلوب، أي: لا عوج لهم عن دعاء الداعي، لا يزيغون عنه يمينًا وشمالاً، ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعًا. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: سكنت وذلت وخضعت، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ يعني: صوت وطء الأقدام إلى المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ يعني: لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني: إلاَّ من أذن له أن يشفع ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ يعني: ورضي قوله، قال ابن عباس يعني: قال لا إله إلاَّ الله، وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الكناية راجعة إلى الذين يتَّبعون الداعي، أي: يعلم الله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قدموا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما خلفوا من أمر الدنيا. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ قيل: الكناية ترجع إلى «ما»، أي: هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم لا يعلمونه، وقيل: الكناية راجعة إلى الله؛ لأن عباده لا يحيطون به علمًا.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: خسر من أشرك بالله، والظلم هو الشرك.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف أن يزاد عليه في سيئاته، ولا ينقص من حسناته.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيَّنا في هذه السورة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: أنزلنا هذا الكتاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يعني: بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: صرَّفنا القول فيه بذكر الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يجتنبون الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: يجدد لهم القرآن عبرةً وعظة فيعتبروا ويتعظوا بذكر عقاب الله للأمم الخالية.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ جلَّ الله عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أراد: النبيَّ ﷺ، كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة، ومخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تعجل بقراءته ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ يعني: بالقرآن ومعانيه.

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا

يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: «لعلهم يتقون» ﴿فَنَسِيَ﴾ فترك الأمر، والمعنى: أنهم نقضوا العهد، فإن آدم أيضًا عهدنا إليه فنسي ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قال الحسن: لم نجد له صبرًا عمَّا نُهي عنه، وقال عطية العوفي: حفظًا لما أُمر به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ أن يسجد.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ يعني: تتعب وتنصب، ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك، قال السدي: يعني: الحرث والزرع والحصيد والطحن والخبيز.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟﴾ لا تعطش ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ يعني: لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني: على شجرةٍ إن أكلت منها بقيت مخلدًا ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يبيد ولا يفنى.

﴿فَأَكَلَا﴾ يعني: آدم وحواء ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ يعني: فعل ما لم يكن له فعله.

قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال عصى آدم، ولا يجوز أن يقال: آدم عاصٍ؛ لأنه إنما يقال عاصٍ لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه، يقال: خاط ثوبه، ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده.

عن طاوس سمعَ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أفتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى»[(١)].

ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٠٥)، ومسلم برقم٢٦٥٢: (٤/ ٢٠٤٢).

أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره واصطفاه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ بالعفو ﴿وَهَدَىٰ﴾ هداه إلى التوبة حين قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ يعني: الكتاب والرسول ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة، ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: «فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ». وقال الشعبي عن ابن عباس: أجار الله تعالى تابعَ القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ يعني: القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقًا، روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: هو عذاب القبر، قال أبو سعيد: يضغط حتى تختلف أضلاعه.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قال ابن عباس: أعمى البصر، وقال مجاهد: أعمى عن الحجة.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ بالعين أو بصيرًا بالحجة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ﴾ فتركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في النار.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ أشرك ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ مما يعذبهم به في الدنيا والقبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ وأدوم.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يبيِّن لهم القرآن، يعني: كفار مكة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ﴾ ديارهم ومنازلهم إذا سافروا، والخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحِجْرِ وثمود وقريات لوط ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ أي: ولولا حكم سبق بتأخير العذاب

عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان لزامًا، أي: لكان العذاب لازمًا لهم كما لزم القرون الماضية الكافرة.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ نسختها آية القتال، و﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ بأمر ربك، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتها، واحدها: إنَى ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء، قال ابن عباس: يريد أول الليل ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني: صلاة الظهر، وسمى وقت الظهر أطراف النهار؛ لأن وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأول انتهاء، وطرف النصف الآخر ابتداء. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي: ترضى ثوابه في المَعاد.

عن جرير بن عبد الله قال: كنَّا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»[1].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تنظر ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أعطينا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: زينتها وبهجتها، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفرًا وطغيانًا ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ في المعاد، يعني: الجنة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ قال أُبي بن كعب: من لم يتعزَّ بعزة الله تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس يطل حزنه، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قلَّ علمه وحضر عذابه.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: قومك، ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: اصبر على الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لا نكلفك أن ترزق أحدًا من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك، وإنما نكلفك عملاً ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الخاتمة الجميلة المحمودة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى، قال ابن عباس: الذين صدَّقوك واتبعوك واتقوني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: المشركين ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: الآية المقترحة، فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: بيان ما فيها، وهو

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٣)، ومسلم برقم٦٣٣: (١/ ٤٣٩).

القرآن أقوى دلالة وأوضح آية. وقيل: أولم يأتهم بيان ما في الصحف الأولى: التوراة والإنجيل وغيرهما، من أنباء الأُمم أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، كيف عجَّلنا لهم العذاب والهلاك، فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل إرسال الرسل وإنزال القرآن ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلاً ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا، أي: لقالوا يوم القيامة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ بالعذاب والذل والهوان والخزي والافتضاح.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر دوائر الزمان، وذلك أن المشركين قالوا: نتربص بمحمد حوادث الدهر، فإذا مات تخلصنا، قال الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟

سورة الأنبياء

مكية.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ أي: اقترب من الناس حسابهم، أي: وقت محاسبة الله إيَّاهم على أعمالهم، ﴿حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأهب له.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ يعني: ما يُحدِث الله من تنزيل شيء من القرآن يُذَكِّرهُم ويعظُهم به، وقيل: الذكر المحدَثُ ما قاله النبي ﷺ وبيَّنه من السُّننِ والمواعظ سوى ما في القرآن، وأضافه إلى الربِّ عزَّ وجلَّ؛ لأنه قال بأمر الرب ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتَّعِظون.

﴿لَاهِيَةً﴾ ساهيةً غافلة ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ معرضةً عن ذكر الله، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: أشركوا، فيه تقديم وتأخير، أراد: والذين ظلموا أسروا النجوى.

ثم بيَّن سرهم الذي تناجَوْا به فقال: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أنكروا إرسال البشر، وطلبوا إرسال الملائكة.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: تحضرون السحر وتقبلونه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنه سحر.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

﴿قَالَ﴾ لهم محمد: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ أباطيلُها وأقاويلها وأهاويلُها رآها في النوم ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يعني: أن المشركين اقتسموا القول فيه وفيما يقوله، قال بعضهم: أضغاث أحلام، وقال بعضهم: بل هو فِرْية، وقال بعضهم: بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ إنْ كان صادقًا ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ من الرسل بالآيات.

قال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أهلكناهم بالتكذيب ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إن جاءتهم آية معناه: أن أولئك لم يؤمنوا بالآيات لمَّا أتتهم أفيؤمنُ هؤلاء؟

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ هذا جواب لقولهم: «هل هذا إلاَّ بشر مثلكم»، يعني: إنَّا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالاً نوحي إليهم ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يعني: أهل التوراة والإنجيل، يريد: علماء أهل الكتاب، فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرًا، وإن أنكروا نبوة محمد ﷺ، وأمر المشركين بمسألتهم؛ لأنهم إلى تصديق من لم يؤمن بالنبي ﷺ أقرب منهم إلى تصديق من آمن به، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: الرسل ﴿جَسَدًا﴾ ولم يقل أجسادًا؛ لأنه اسم الجنس ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ هذا ردٌّ لقولهم: «مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ» [الفرقان: ٧]، يقول: لم نجعل الرسل ملائكة، بل جعلناهم بشرًا يأكلون الطعام ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: أنجينا المؤمنين الذين صدَّقوهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين المكذبين، وكلُّ مشركٍ مسرفٌ على نفسه.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يا معشر قريش ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم، وهو شرف لمن آمن به. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا، ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي: أحدثنا بعد هلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ أي: رأوا عذابنا بحاسة البصر ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يسرعون هاربين.

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: قيل لهم: لا تهربوا ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: نَعِمتم به ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ قال ابن عباس: عن قتل نبيكم.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: تلك الكلمة وهي قولهم: يا ويلنا، دعاؤهم يدعون بها ويرددونها. ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميتين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: عبثًا وباطلاً.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ اختلفوا في اللهو، قال ابن عباس في رواية عطاء: اللهو المرأة، وهو قول الحسن وقتادة، وقال في رواية الكلبي: اللهو الولد، وهو قول السدي، وهو في المرأة أظهر؛ لأن الوطء يسمى لهوًا في اللغة، والمرأة محل الوطء ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض.

وتأويل الآية: أن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رَدَّ الله عليهم بهذا وقال: «لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ»؛ لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج: «إن» للنفي، أي: ما كنا فاعلين.

﴿بَلْ﴾ أي: دع ذلك الذي قالوا، فإنه كذب وباطل ﴿نَقْذِفُ﴾ نرمي ونسلِّط ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالإيمان ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ على الكفر، وقيل: الحق قول الله، أنه لا ولد له، والباطل قولهم: اتخذ الله ولدًا ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيهلكه، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب، ثم أوعدهم على كذبهم فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾

يا معشر الكفار ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا وملكًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يأنفون عن عبادته، ولا يتعظَّمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يعيون، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لا يضعفون ولا يسأمون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً﴾ استفهام بمعنى الجحد، أي: لم يتخذوا ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الأصنام من الخشب والحجارة، وهما من الأرض ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ يُحيُون الأموات، ولا يستحق الإلهية إلاَّ مَنْ يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النِّعم.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: من السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتا، وهلك مَن فيهما بوجود التمانع من الآلهة؛ لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام، ثم نزَّه نفسه فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يصفه به المشركون من الشريك والولد.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ويحكم على خلقه؛ لأنه الرب ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: الخلق يسئلون عن أفعالهم وأعمالهم؛ لأنهم عبيد.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حجتكم على ذلك، ثم قال مستأنفًا ﴿هَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿وَذِكْرُ﴾ خبر ﴿مَن قَبْلِى﴾ من الأُمم السالفة، ما فُعل بهم في الدنيا، وما يُفعل بهم في الآخرة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وحِّدون.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ

وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۚ﴾ نزَّه نفسه عمَّا قالوا ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي: هم عباد، يعني: الملائكة ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ لا يتقدمونه بالقول، ولا يتكلمون إلاَّ بما يأمرهم به ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ معناه: أنهم لا يخالفونه قولاً وعملاً.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما عملوا، وما هم عاملون، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي لمن قال لا إله إلاَّ الله، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون، لا يأمنون مكره.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ قال قتادة: عنى به إبليس، حيث دعا إلى عبادة نفسه، وأمر بطاعة نفسه، فإن أحدًا من الملائكة لم يقل إنِّي إلهٌ من دون الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، معناه: ألم يعلم الذين كفروا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعطاء وقتادة: كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ فصلنا بينهما بالهواء. قال عكرمة وعطية: كانت السماء رتقًا لا تمطر والأرض رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات. ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ﴾ أي: وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي، أي: من الحيوان، ويدخل فيه النبات والشجر، ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ يعني: كي لا تميد بهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾

في الرواسي: ﴿فِجَاجًا﴾ طرقًا ومسالك، ﴿سُبُلًا﴾ تفسير للفجاج ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ من أن تسقط، ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ ما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ دوام البقاء في الدنيا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفهم الخالدون إن مت؟ نزلت هذه الآية حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالشدة والرخاء، والصحة والسَّقم، والغنى الفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ سخريًا، قال السدي: نزلت في أبي جهل مرَّ به النبي ﷺ فضحك، وقال: هذا نبيٌّ بني عبد مناف ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: أهذا الذي ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيبها، ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: لا نعرف الرحمن إلاَّ مسيلمة.

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ اختلفوا فيه، فقال قوم: معناه أن بنيته وخلقته من العَجَلَةِ وعليها طُبع، كما قال: «وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا» [الإسراء: ١١]. قال سعيد بن جبير والسدي: لما دخلت الروح في رأس آدم وعينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة فوقع، فقيل: «خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ»، والمراد بالإنسان: آدم، وأورث أولاده العجلة.

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ نزل هذا في المشركين، كانوا يستعجلون العذاب ويقولون: أمطرْ علينا حجارة من السماء، فقال تعالى: «سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى»، أي: وعيدي، فلا تستعجلون،

أي: فلا تطلبوا العذاب من قبل وقته، فأراهم يوم بدر، وقيل: كانوا يستعجلون القيامة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ فقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ لا يدفعون ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ قيل: ولا عن ظهورهم السياط، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون من العذاب، وجواب «لو» في قوله: «لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ» محذوف، معناه: ولو علموا لَمَا أقاموا على كفرهم، ولَمَا استعجلوا، ولا قالوا: متى هذا الوعد؟

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ يعني: الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تُحيِّرهم، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ نـزل ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاء استهزائهم.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إن أنزل بكم عذابه، ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ عن القرآن ومواعظ الله ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، ثم وصف الآلهة بالضعف، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ منع أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: يمنعون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ في الدنيا، أي: أمهلناهم، ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ﴾ أي: امتدَّ بهم الزمانُ فاغتروا. ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ﴾ يعني: ما ننقص من أطراف المشركين، ونزيد في أطراف المؤمنين، يريد ظهورَ النبي ﷺ وفتحَه ديارَ الشرك أرضًا فأرضًا ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أم نحن.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ أي: أخوفكم بالقرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ يُخوَّفون.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طَرَفٌ، ﴿مِّنْ عَذَابِ

رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: بإهلاكنا، إنَّا كنَّا مشركين، دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالشرك.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ذوات القسط، ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ لا ينقص من ثواب حسناته، ولا يزاد على سيئاته. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: زنة حبة من خردل ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها لنجازي بها. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ قال السدي: مُحصين، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عالمين حافظين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: الكتاب المفرِّق بين الحق والباطل، وهو التوراة؛ لأنه قال: «وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ» [الأنفال: ٤١]، يعني يوم بدر؛ لأنه قال: ﴿وَضِيَآءً﴾ أدخل الواو فيه، أي: آتينا موسى النصر والضياء وهو التوراة. ﴿وَذِكْرًا﴾ تذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخافونه ولم يروه ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، وهو ذكر لمن يذكر به، مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ جاحدون؟ وهذا استفهام توبيخ وتعيير.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ قال القرظي أي: صلاحه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى وهارون، وقال المفسرون: رشده، أي: هداه من قبل، أي: من قبل البلوغ، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل للهداية والنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الصور، يعني: الأصنام ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: على عبادتها مقيمون.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فاقتدينا بهم.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بيِّن بعبادتكم إيَّاها.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يعنون: أجادٌّ أنت فيما تقول أم أنت من اللاعبين؟.

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: على أنه الإله الذي لا يستحق العبادةَ غيرُه.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأمكرنَّ بها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي: بعد أن تُدْبِروا منطلقين إلى عيدكم.

قال السدي: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم، لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال: إني سقيم، يقول: أشتكي رجلي، فلما مَضَوْا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس: «وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم» فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهنَّ في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغرُ منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعامًا فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم - على طريق الاستهزاء -: ألا تأكلون؟ فلما لم تجبه، قال: ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضربًا باليمين، وجعل يكسرهنَّ في يده حتى إذا لم يبق إلاّ الصنم الأكبر علّق الفأس في عنقه ثم خرج، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسره ووضع الفأس في عنقه، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ قيل: لعلّهم إليه يرجعون فيسألونه، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم جُذاذًا. ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: من المجرمين.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: الذين سمعوا قول إبراهيم «وتالله لأكيدن أصنامكم»: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويسبهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ هو الذي نظن صنع هذا، فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ

عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال نمرود، يقول: جيئوا به ظاهرًا بمرأى من الناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه أنه الذي فعله، كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة، ﴿قَالُوٓا۟﴾ له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهنَّ، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، فذلك قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ حتى يخبروا من فعل ذلك بهم.

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: فتفكروا بقلوبهم، ورجعوا إلى عقولهم ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ ما نراه إلاَّ كما قال: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: بعبادتكم مَنْ لا يتكلم، وقيل: أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤالكم إيَّاه، وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قال أهل التفسير: أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، فهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف نسألهم؟ فلما اتجهت الحجة لإبراهيم ﷺ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ إن عبدتموه ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن تركتم عبادته ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: تبًّا وقذرًا لكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أليس لكم عقل تعرفون هذا؟ فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إن كنتم ناصرين لها.

عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ النار على إبراهيم»[(١)].

قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ قال ابن عباس: لو لم يقل سلامًا

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٨٩)، ومسلم برقم٢٢٣٧: (٤/ ١٧٥٧).

لمات إبراهيم من بردها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ قيل: معناه: أنهم خسروا السعي والنفقة، ولم يحصل لهم مرادهم، وقيل: معناه: إن الله عزَّ وجلَّ أرسل على نمرود وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت واحدة في دماغه فأهلكته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ من نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: الشام، بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار، ومنها بعث أكثر الأنبياء، وقال أُبي بن كعب: سماها مباركة؛ لأنه ما من ماء عذب إلاَّ وينبع أصله من تحت الصخرة التي هي ببيت المقدس.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرةٌ بعد هجرة، فخيار الناس إلى مهاجَر إبراهيم»[(١)].

«وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾».

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة: العطية، وهما جميعًا من عطاء الله نافلة، يعني: عطاء، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدعون الناس إلى ديننا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ العمل بالشرائع ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: المحافظة عليها ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ إعطاءها ﴿وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحدين.

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي: وآتينا لوطًا، ﴿حُكْمًا﴾ يعني: الفصل بين الخصوم بالحق ﴿وَعِلْمًا﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني: «سدومًا»، وكان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم مع أشياء أخر، كانوا يعملون من المنكرات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/٣٥٣ - ٣٥٤)، والحاكم: (٤/٤٨٦ - ٤٨٧)، وأحمد: (٢/١٩٩)، وشهر بن حوشب تكلم فيه غير واحد.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم ولوط ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال ابن عباس: من الغرق، وتكذيب قومه، ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ منعناه ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أن يصلوا إليه بسوء، وقال أبو عبيدة: أي على القوم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ اختلفوا في الحرث، قال ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ وأكثر المفسرين: كان الحرث كرمًا قد تدلَّت عناقيدُه، وقال قتادة: كان زرعًا ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: رعته ليلاً فأفسدته، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي: كان ذلك بعلمنا ومرأى منَّا لا يخفى علينا علمه.

قال ابن عباس وقتادة والزهري: وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما: صاحب حرث، والآخر: صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبقَ منه شيء، فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه، فقال سليمان: لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا.

فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: علمناه القضية، وألهمناها سليمان ﴿وَكُلًّا﴾ يعني: داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصَوَابه، وأثنى على هذا باجتهاده، واختلف العلماء في أن حكم داود كان بالاجتهاد أم بالنص، وكذلك حكم سليمان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر، قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير، وقال قتادة: يسبحن، أي: يصلين معه إذا صلى، وقيل: كان داود إذا فتر يُسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يعني: ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ والمراد باللبوس هنا: الدروع؛ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ لتحرزكم وتمنعكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: حرب عدوكم، قال السدي: من وقع السلاح فيكم، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ يقول لداود وأهل بيته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ علمناه ﴿عَٰلِمِينَ﴾ بصحة التدبير فيه علمنا أن ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه عزَّ وجلَّ.

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وسخرنا له من الشيطان ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الغوص، وهو ما ذكر الله عزَّ وجلَّ: «يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ...» الآية [سبأ: ١٣] ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ حتى لا يخرجوا من أمره، وقال الزجاج: معناه: حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله: أني مسني الضر، وفي مدة بلائه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ وذلك أنه قال: اركض برجلك، فركض برجله فنبعت عينُ ماء، فأمره أن يغتسل منها، ففعل فذهب كلُّ داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى، ففعل فنبعت عين ماء بارد، فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجملهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ واختلفوا في ذلك، فقال ابن مسعود وقتادة وابن عباس والحسن وأكثر المفسرين: ردَّ الله عزَّ وجلَّ إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله له وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن.

وروي عن أنس يرفعه: أنه كان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله عزَّ وجلَّ سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض[1].

أخبرنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه جراد من ذهب

---

(١) أخرجه الحاكم: (٢/ ٥٨١ - ٥٨٢) وصححه على شرط الشيخين.

فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك»[1].

قال عكرمة: قيل لأيوب: إن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتى مثلهم في الدنيا، فعلى هذا يكون معنى الآية: وآتيناه أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا، وأراد بالأهل الأولاد ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: نعمة من عندنا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: عظة وعبرة لهم.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ يعني: ابن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ وهو أخنوخ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على أمر الله، واختلفوا في «ذي الكفل».

قال عطاء: إن نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه: أني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل لا يفتر، ويصوم بالنهار ولا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل ووفَّى به، فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل.

واختلفوا في أنه كان نبيًّا، فقال بعضهم: كان نبيًّا، وقيل: هو إلياس، وقيل: زكريا، وقال أبو موسى: لم يكن نبيًّا ولكن كان عبدًا صالحًا.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ يعني: ما أنعم الله عليهم من النبوة، وصيرهم إليه في الجنة من الثواب ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: اذكر صاحب الحوت، وهو يونس بن متى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ اختلفوا في معناه: فقال الضحاك: مغاضبًا لقومه، وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس.

وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة: ذهب عن قومه مغاضبًا لربه إذ كشف عن قومه العذاب بعدما أوعدهم، وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم، واستحيا منهم، ولم يعلم السبب الذي به رفع العذاب، وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده، وأنه يسمى كذابًا لا كراهية لحكم الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نقضي بالعقوبة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٢٠).

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وروي عن أبي هريرة مرفوعًا: أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحمًا ولا تكسر له عظمًا، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه: أن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة، وفي رواية: صوتًا معروفًا من مكان مجهول، فقال: ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له، عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله تعالى: «۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾» [الصافات: ١٤٥].

فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ يعني: أجبناه ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ من تلك الظلمات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من كل كرب إذا دعونا واستغاثوا بنا.

واختلفوا في أن رسالة يونس متى كانت؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل أن الله عزَّ وجلَّ ذكره في سورة الصافات: «فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ» [الصافات: ١٤٥]، ثم ذكر بعده: «وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾» [الصافات: ١٤٧]، وقال: الآخرون: إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى: «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾» [الصافات: ١٣٩ - ١٤٠].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ دعا ربَّه ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ وحيدًا لا ولد لي، وارزقني وارثًا ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ ثناء على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه أفضل من بقي حيًّا.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ ولدًا ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ أي: جعلناها ولودًا بعد ما كانت عقيمًا، قاله أكثر المفسرين، وقال بعضهم: كانت سيئة الخلق فأصلحها له بأن رزقها حسن الخلق ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني: الأنبياء الذين سماهم في هذه السورة ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ طمعًا ﴿وَرَهَبًا﴾ خوفًا، رغبًا في رحمة الله، ورهبًا من عذاب الله ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: متواضعين، قال قتادة: ذللاً لأمر الله، قال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم في القلب.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظت من الحرام، وأراد: مريم بنت عمران ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها، وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضاف الروح إليه تشريفًا لعيسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب، ولم يقل آيتين وهما آيتان؛ لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية؛ ولأن الآية كانت فيهما واحدة، وهي أنها أتت به من غير فحل.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦)﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملتكم ودينكم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينًا واحدًا وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفوا في الدين فصاروا فرقًا وأحزابًا، ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجزيهم بأعمالهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ لا يُجحد ولا يبطل سعيُه، بل يُشكر ويُثاب عليه ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ لعمله حافظون.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: معنى الآية: وحرام على قرية، أي: أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أن يرجعوا بعد الهلاك، ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ يريد: فتح السدِّ عن يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: نشز وتل، ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون النزول من الآكام والتلال كنسلان الذئب، وهو سرعة مشيه، واختلفوا في هذه الكناية، فقال قوم: عنى بهم يأجوج ومأجوج، بدليل ما روينا عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون»[1].

وقال قوم: أراد جميع الخلق، يعني: أنهم يخرجون من قبورهم، ويدل عليه قراءة مجاهد «وهم

(١) أخرجه مسلم برقم٢١٣٧: (٤/ ٢٢٥٠ - ٢٢٥٥).

من كل جدث» بالجيم والثاء كما قال: «فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ» [يس: ٥١].

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطَّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ، فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: «نذكر الساعة»، قال: «إنها لن تقوم حتى ترَوْا قبلها عشرَ آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمغرب وخسفٌ بالمشرق وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: القيامة.

قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقال الكلبي: شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهو قوله، يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة في غير موضعها.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها، ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: الأصنام ﴿ءَالِهَةً﴾ على الحقيقة ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: ما دخل عابدوها النار ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني: العابد والمعبودين.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ قال ابن مسعود: في هذه الآية إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى عليها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئًا ولا يرى أحد منهم أن في النار أحدًا يعذب غيره، ثم استثنى فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال بعض أهل العلم: «إنَّ» هاهنا بمعنى «إلاَّ» الذين سبقت لهم منَّا الحسنى، يعني: السعادة، والعِدَة الجميلة بالجنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة، وقال أكثر المفسرين: عنى بذلك كل من عُبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٩٠١: (٤/ ٢٢٢٥).

قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ثم تلا عليه: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» الآيات الثلاثة، ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ فقال عبد الله: أمَا والله لو وجدته لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعري: أنت قلت: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم»؟ قال: «نعم»، قال: أليست اليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد المسيح، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشياطين»، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ»، يعني: عزيرًا والمسيح والملائكة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، وأنزل في ابن الزبعري: «وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾» [الزخرف: ٥٨].

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ يعني: صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة، ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ مقيمون.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس: الفزع الأكبر: النفخة الأخيرة، بدليل قوله عزَّ وجلَّ: «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾» [النمل: ٨٧]، قال الحسن: حتى يؤمر بالعبد إلى النار، وقال ابن جريج: حين يذبح الموت، ويُنادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم، ويقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والأكثرون: السجل: الصحيفة، للكتب، أي: لأجل ما كتب، معناه: كطي الصحيفة على مكتوبها، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً، كذلك نعيدهم يوم القيامة.

وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلاً»، ثم قرأ: «كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ»[1]، ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يعني: الإعادة والبعث.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/٣٨٦)، ومسلم برقم٢٨٦٠: (٤/٢١٩٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد: «الزبور» جميع الكتب المنزلة، و«الذكر»: أُم الكتاب الذي عنده، والمعنى: من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ.

وقال ابن عباس والضحاك: «الزبور»: التوراة، و«الذكر»: الكتب المنزلة من بعد التوراة.

وقال الشعبي: الزبور: كتاب داود، والذكر: القرآن، و«بعد» بمعنى «قبل»، كقوله تعالى: «وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ» [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم، ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يعني: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال مجاهد: يعني: أمة محمد ﷺ، دليله قوله تعالى: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ» [الزمر: ٧٤]، وقال ابن عباس: أراد: أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون، وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز المسلمين، وقيل: أراد بالأرض: الأرض المقدسة.

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: في هذا القرآن ﴿لَبَلَاغًا﴾ وصولاً إلى البغية، أي: من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجوه من الثواب، ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: المؤمنين الذين يعبدون الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ قال ابن زيد: يعني: رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم، وقال ابن عباس: هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن، فمن آمن فهو رحمةٌ له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم، وقد قال النبي ﷺ: «إنَّما أنا رحمةٌ مهداة»(١).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: أسلِمُوا.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم بالحرب، وأن لا صلح بيننا ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: إنذار بيِّن يستوي في علمه لا استبدانًا به دونكم لتتأهبوا لما يُراد بكم، أي: آذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به، وقيل: لتستووا في الإيمان ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي: وما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: القيامة.

---

(١) أخرجه الدارمي عن أبي صالح مرسلاً: (١/ ٩)، ووصله الحاكم: (١/ ٣٥)، وصححه على شرط الشيخين.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعل تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور ﴿فِتْنَةٌ﴾ اختبار ﴿لَّكُمْ﴾ ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: تتمتعون إلى انقضاء آجالكم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: رب احكم بحكمك الحق، فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه، والله تعالى يحكم بالحق طُلِب أو لم يُطلب، ومعنى الطلب: ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الكذب والباطل.

سورة الحج

مكيَّة غير آيات من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: احذروا عقابه بطاعته ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ والزلزلة والزِّلْزال: شدة الحركة على الحال الهائلة، واختلفوا في هذه الزلزلة: فقال علقمة والشعبي: هي من أشراط الساعة. وقال ابن عباس: زلزلة الساعة قيامها فتكون معها.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ يعني: الساعة، ﴿تَذْهَلُ﴾ قال ابن عباس: تشغل، ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: كل امرأة معها ولد ترضعه، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم. ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ قال الحسن: معناه: وترى الناس سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب. وقيل: معناه: وترى الناس كأنهم سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: يا آدم، قم فابعثْ بَعْثَ النار، قال فيقول: لبيك وسعديك والخير كله في يديك، يا رب وما بعث النار؟ قال فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فحينئذ يشيب المولود، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، قال: فيقولون: وأينا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد»، فقال الناس: الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، والله

إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، قال: فكبَّر الناس، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم يومئذ في الناس إلاَّ كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو الشعرة السوداء في الثور الأبيض»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، كان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابًا ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: يتبع في جداله في الله بغير علم ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ والمَرِيد: المتمرد المستمر في الشر.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قُضي على الشيطان ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ يعني: الشيطان ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ أي: يضل من تولاه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ يعني: أباكم آدم الذي هو أصل النسل ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: ذريته، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الغليظ المتجمد، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: «مخلَّقة»، أي: تامة الخلق، «وغير مخلَّقة» غير تامة.

روي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها مَلَك بكفِّه وقال: أيْ ربِّ مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة، قذفها الرحم دمًا ولم تكن نسمة، وإن قال: مخلقة، قال الملك: أيْ ربِّ أذَكَرٌ أم أُنثى، أشقي أم سعيد؟ ما الأجل ما العمل ما الرزق وبأي أرض تموت؟ فيقال له: اذهب إلى أُمِّ الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك، فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها، فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته»[٢]. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٨٢)، ومسلم برقم٢٢٢: (١/ ٢٠١ - ٢٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في «نوادر الأصول» وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٩).

الإعادة. ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ فلا تمجه ولا تسقطه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أُمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي: صغارًا، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ يعني: الكمال والقوة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ من قبل بلوغ الكبر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: الهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: يبلغ من السن ما يتغير عقله فلا يعقل شيئًا.

ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: يابسة، لا نبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات، وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: صنف حسن يبهج به من رآه، أي: يُسَرُّ، فهذا دليل آخر على البعث.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: النضر بن الحارث ﴿وَلَا هُدًى﴾ بيان ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: متبخترًا لتكبُّره، وقال مجاهد وقتادة: لاوِي عنقه، قال عطية وابن زيد: معرضًا عمَّا يدعى إليه تكبرًا، ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ عذاب وهوان، وهو القتل ببدر، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط يوم بدر صبرًا ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ويقال له: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ فيعذبهم بغير ذنب، وهو جلَّ ذكره على أي وجه شاء تصرف في عبده، فحكمه عدل وهو غير ظالم.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية نزلت في قوم من الأعراب، كانوا

يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصحَّ بها جسمه ونُتِجَتْ بها فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حسنٌ وقد أصبت فيه خيرًا، واطمأن إليه، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأُجهضت رماكه وقلَّ مالُه، قال: ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلاَّ شرًّا، فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة[1]، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أكثر المفسرين قالوا: على شك، ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ صحةٌ في جسمه، وسعةٌ في معيشته ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ أي: رضي به وسكن إليه ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ بلاء في جسده، وضيق في معيشته ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: هذا الشاك خسر الدنيا بفوات ما كان يؤمل ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ بذهاب الدين، والخلود في النار، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الظاهر.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن عصاه ولم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ إن أطاعه وعبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن الحق والرشد.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ هذه الآية من مشكلات القرآن، وفيها أسئلة:

أولها: قالوا: قد قال الله في الآية الأولى «يدعو من دون الله ما لا يضره»، وقال هاهنا: «لمن ضَرُّه أقرب» فكيف التوفيق بينهما؟

قيل: قوله في الآية الأولى «يدعو من دون الله ما لا يضره»، أي: لا يضره ترك عبادته، وقوله: «لَمَن ضَرُّه أقربُ»، أي: ضر عبادته.

فإن قيل: قد قال: «لَمَنْ ضرُّه أقربُ من نفعه» ولا نفع في عبادة الصنم أصلاً؟ قيل: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون لِما لا يكون أصلاً: بعيدٌ، كقوله تعالى: «ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ» [ق: ٣]، أي: لا رجع أصلاً، فلما كان نفع الصنم بعيدًا، على معنى: أنه لا نفع فيه أصلاً، قيل: ضره أقرب؛ لأنه كائن.

﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ أي: الناصر، وقيل: المعبود ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أي: الصاحب والمخالط، يعني: الوثن، والعرب تسمي الزوج عشيرًا؛ لأجل المخالطة.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٥٥ عن المفسرين، وأخرجه الطبري: (١٧/ ١٢٢ - ١٢٣)، وأخرج البخاري نحوه في التفسير: (٨/ ٤٤٢) عن ابن عباس.

وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني: نبيه محمدًا ﷺ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بالسماء: سقف البيت، على قول الأكثرين، أي: ليشد حبلاً في سقف بيته فليختنق به حتى يموت ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ الحبل بعد الاختناق، وقيل: «ثم ليقطع»، أي: ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقًا ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ صنيعه وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ «ما» بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنَّ كيدُه وحيلتُه غيظَه، معناه: فليختنقْ غيظًا حتى يموت، وليس هذا على سبيل الحتم، أي: أن يفعله؛ لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت، ولكنه كما يقال للحاسد: إن لم تَرْضَ هذا فاختنق ومُتْ غيظًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك، يعني: ما تقدم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يحكم بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها، وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلاَّ يقع ساجدًا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، وقيل: سجودها بمعنى الطاعة، فإنه ما من جماد إلاَّ وهو مطيع لله خاشع له مسبح له، وهذا مذهبٌ حسن موافق لقول أهل السنة.

قوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ أي: من هذه الأشياء كلها تسبح الله عزَّ وجلَّ، «وكثير من الناس»، يعني: المسلمين ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾ وهم الكفار؛ لكفرهم وتركهم السجود، وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عزَّ وجلَّ. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ أي: يهنه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ أي: من يذله الله فلا يكرمه أحدٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يكرم ويهين، فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته.

۞هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: جادلوا في دينه وأمره، واختلفوا في هذين الخصمين:

عن قيس بن عُباد قال: سمعت أبا ذر يقسم قسمًا أن هذه الآية: «هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ» نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة[١].

وقال ابن عباس وقتادة: نزلت الآية في المسلمين وأهلِ الكتاب، فقال أهلُ الكتاب: نحن أولى بالله وأقدمُ منكم كتابًا، ونبيُّنا قبلَ نبيِّكم، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله، آمنا بنبينا محمد ﷺ ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبيَّنا وكتابَنا وكفرتم به حسدًا، فهذه خصومتهم في ربهم[٢].

وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والكلبي: هم المؤمنون والكافرون كلُّهم من أي ملةٍ كانوا.

وقال عكرمة: هما الجنة والنار اختصمتا كما أخبرنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: أُوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالتِ الجنةُ: فما لي لا يدخلني إلاَّ ضعفاءُ الناس وسقَطُهم وغرَّتُهم؟ قال الله عزَّ وجلَّ للجنة: إنما أنتِ رحمتي أرحمُ بك مَنْ أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابي أُعذِّبُ بك مَنْ أشاء من عبادي، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤها، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضعَ الله فيها رجله فتقول قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله عزَّ وجلَّ ينشىء لها خَلْقًا»[٣]، ثم بيَّن الله عزَّ وجلَّ ما للخصمين فقال:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس مذاب، وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حرًّا منه وسُمي باسم الثياب؛ لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب. وقال بعضهم: يلبس أهل النار مُقطَّعات من النار ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ الحميم: هو الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يذاب بالحميم ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ معناه: يذاب بالحميم الذي يصب من

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٢٩٧)، ومسلم برقم٣٠٣٣: (٤/ ٢٣٢٣).

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ١٣٢) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٩٥)، ومسلم برقم٢٨٤٦: (٤/ ٢١٨٦).

فوق رؤوسهم حتى يسقط ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: يشوي حرُّها جلودَهم فتتساقط.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الحميمَ لَيصب على رؤوسهم فينفذُ الجمجمةَ حتى يخلُصَ إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرقَ من قدميه، وهو الصهر، ثم يُعادُ كما كان»[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ سياطٌ من حديد.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ أي: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكَرْبِ الذي يأخذ بأنفاسهم ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: رُدُّوا إليها بالمقامع، وفي التفسير: إن جهنم لَتجيشُ بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانيةُ بمقامع من الحديد فيهوون فيها سبعين خريفًا ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب الحريق.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ جمع: سوار ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: يلبسون في الجنة ثياب الإبريسم وهو الذي حرم لبسه في الدنيا على الرجال.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يُلبسْهُ الله إيَّاه في الآخرة، فإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يَلْبسْهُ هو»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال ابن عباس: هو شهادةُ أن لا إله إلاَّ الله، وقال ابن زيد: لا إله إلاَّ الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى دين الله وهو الإسلام، و«الحميد»: هو الله المحمود في أفعاله.

قوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطف المستقبل على الماضي؛ لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي. معناه: إن الذين كفروا فيما تقدم، ويصدون عن سبيل الله في الحال، أي: وهم يصدون ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ويصدون عن المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣٠٢ - ٣٠٣)، وقال: (هذا حديث غريب صحيح)، والإمام أحمد: (٢/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه الحاكم: (٤/ ١٩١) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو داود الطيالسي: ص٢٩٤.

﴿لِلنَّاسِ﴾ قبلةً لصلاتهم ومَنْسكًا ومُتعبدًا ﴿سَوَآءً﴾ معناه: مستويًا فيه ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وأراد بالعاكف: المقيم فيه، والبادي: الطارىء المنتاب إليه من غيره.

واختلفوا في معنى الْآية، فقال قوم: «سواء العاكف فيه والباد»، أي: في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه، وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة، وقالوا: المراد منه نفس المسجد الحرام، ومعنى التسوية: هو التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت.

وقال آخرون: المراد منه جميع الحرم، ومعنى التسوية: أن المقيم والبادي سواء في النزول به، ليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الْآخر، غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل.

وقال عبد الرحمن بن سابط: كان الحُجَّاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم، وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم، وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وعلى القول الأول ـ وهو الأقرب إلى الصواب ـ يجوز؛ لأن الله تعالى قال: «ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم» [الحج: ٤٠]، وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[1]، فنسب الدار إليه نسب ملك، واشترى عمر دارًا للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم، فدل على جواز بيعها، وهذا قول طاووس وعمرو بن دينار، وبه قال الشافعي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أي: في المسجد الحرام، بإلحاد بظلم: وهو الميل إلى الظلم.

واختلفوا في هذا الإلحاد، فقال مجاهد وقتادة: هو الشرك وعبادة غير الله، وقال قوم: هو كل شيء كان منهيًا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم، وقال عطاء: هو دخول الحرم غير محرم، أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم: من قتل صيد، أو قطع شجر، وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه من لا يقتلك، أو تظلم فيه من لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك، وعن مجاهد أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات، وقال حبيب بن أبي ثابت: هو احتكار الطعام بمكة.

وقال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال: لو أن رجلاً همَّ بخطيئةٍ لم تكتب عليه ما لم يعملْها، ولو أن رجلاً همَّ بقتل رجلٍ بمكةَ وهو بعدن أبين، أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم، وقال السدي: إلاَّ أن يتوب.

وروي عن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان، أحدهما في الحل والْآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الْآخر، فسئل عن ذلك فقال: كنَّا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم١٧٨٠: (٣/ ١٤٠٥ - ١٤٠٧).

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: وطَّأنا، قال ابن عباس: جعلنا.

وقال الكلبي: بعث الله سحابةً بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم: يا إبراهيم، ابنِ على قَدَري، فبنى عليه، قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: عهدنا إلى إبراهيم، وقلنا له: لا تشرك بي شيئًا ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ يعني: الذين يطوفون بالبيت ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: المقيمين ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المصلين.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أعلِمْ ونادِ في الناس ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ فقال إبراهيم: وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذانُ وعليَّ البلاغُ، فقام إبراهيم على المَقام فارتفع المقامُ حتى صار كأطول الجبال، فأدخل أصبعيه في أُذنيه، وأقبل بوجهه يمينًا وشمالاً وشرقًا وغربًا، وقال: يا أيها الناس، ألاَ إن ربَّكم قد بنى بيتًا وكتب عليكم الحجَّ إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه كل مَنْ كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأُمهات: لبيك اللهم لبيك، قال ابن عباس: فأول من أجابه أهل اليمن، فهم أكثر الناس حجًّا.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا»[١].

قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة على أرجلهم، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركبانًا على كل ضامر، والضامر: البعير المهزول ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل طريق بعيد.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال سعيد بن المسيب ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة، وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس، قال: الأسواق، وقال مجاهد: التجارة، وما يَرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ يعني: عشر ذي الحجة، في قول أكثر المفسرين، قيل لها: «معلومات»؛ للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها، ويروى عن علي - رضي الله عنه -: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق، وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني: الهدايا والضحايا، تكون من النعم: وهي الإبل والبقر والغنم. واختار الزجاج أن الأيام المعلومات: يوم النحر

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٣٣٧ : (٢/ ٩٧٥).

وأيام التشريق؛ لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها، ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة وليس بواجب، وإنما قال ذلك؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئًا، واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعًا يجوز للمهدي أن يأكل منه، وكذلك أُضحية التطوع لِمَا روى جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع قال: وقدم عليّ ببدن من اليمن، وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثًا وستين بدنة بيده ونحر عليٌّ ما بقي، ثم أمر النبي ﷺ أن تؤخذ بَضْعةٌ من كل بدنة فتجعل في قدر، فأكلا من لحمها وحسيا من مرقها[1].

واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع، هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئًا؟ مثل: دم التمتع والقِرَان والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد؟

فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئًا، وبه قال الشافعي، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر، وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر، ويأكل مما سوى ذلك، وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلاَّ من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور، وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتع والقِرَان ولا يأكل من واجب سواهما.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ يعني: الزَّمِن الفقير الذي لا شيء له، و«البائس»: الذي اشتد بؤسه، والبؤس: شدة الفقر.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ التفث: الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظافر والشَّعَث، ليقضوا تفثهم، أي: ليزيلوا أدرانهم، والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وقلم الأظفار ولبس الثياب، قال ابن عمر وابن عباس: «قضاء التفث»: مناسك الحج كلها. ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال مجاهد: أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج، أي: ليتموها بقضائها. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

(١) قطعة من حديث جابر، أخرجه مسلم برقم١٢١٨ : (٢/ ٨٩٣).

أراد به: الطواف الواجب عليه، وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة: سمي عتيقًا؛ لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبارٌ قط. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، يعني: ما ذكر من أعمال الحج ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: معاصي الله وما نهى عنه، وتعظيمها: ترك ملابستها، قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها، وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات هاهنا: المناسك، بدلالة ما يتصل بها من الآيات، وقال ابن زيد: الحرمات هاهنا: البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام والإحرام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي: تعظيم الحرمات، خير له عند الله في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ أن تأكلوها إذا ذبحتموها، وهي الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه، وهو قوله في سورة المائدة: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...» الآية [المائدة: ٣] ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: عبادتها، يقول: كونوا على جانب منها فإنها رجس، أي: سبب الرجس، وهو العذاب، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني: الكذب والبهتان، وقال ابن مسعود: شهادة الزور، وروي أن النبي ﷺ قام خطيبًا فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله»، ثم قرأ هذه الآية[1]، وقيل: هو قول المشركين في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك لبيك إلاَّ شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ قال قتادة: كانوا في الشرك يحجون، ويحرِّمون البنات والأمهات والأخوات، وكانوا يُسمون حنفاء، فنزلت: «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ»، أي: حجاجًا لله مسلمين موحدين، يعني: مَنْ أشرك لا يكون حنيفًا. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تستلبه الطير وتذهب به، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تميل وتذهب به ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، معناه: أنَّ بُعْدَ من أشرك من الحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير، أو هَوَتْ به الريح، فلا يصل إليه بحال، وقيل: شبَّه حال المشرك بحال الهاوي من السماء، في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تُسقطه الريح، فهو هالك لا محالة، إما باستلاب الطير لحمه، وإما بسقوطه إلى المكان السحيق.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا

---

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢١٧)، والترمذي: (٦/ ٥٨٥)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد ـ يعني: حديث خريم بن فاتك ـ وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعًا من النبي ﷺ)، وابن ماجه برقم ٢٣٧٢: (٢/ ٧٩٤)، والإمام أحمد: (٤/ ١٧٨).

رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ قال ابن عباس: «شعائر الله» البُدْن والهدي، وأصلها من الإشعار، وهو إعلامها ليعرف أنها هدي، وتعظيمها: استسمانها واستحسانها، وقيل: «شعائر الله» أعلام دينه، «فإنها من تقوى القلوب»، أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: في البُدْنِ قبل تسميتها للهدي ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو أن يسميها ويوجبها هديًا، فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها.

وقيل: معناه: لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديًا، بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة «إلى أجل مسمى»، يعني: إلى أن تنحروها، وهو قول عطاء بن أبي رباح.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: منحرها ﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي: منحرها عند البيت العتيق، يريد: أرض الحرم كلها.

وروي عن جابر في قصة حجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال: «نحرتُ هاهنا ومِنَى كلها منحر، فانحروا في رحالكم»[(١)].

ومن قال: «الشعائر» المناسك، قال: معنى قوله: «ثم محلها إلى البيت العتيق»، أي: محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر.

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ﴾ أي: جماعة مؤمنة، سلفت قبلكم ﴿جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ أي: إراقة الدماء وذبح القرابين ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ عند نحرها وذبحها، وسماها بهيمة؛ لأنها لا تتكلم، وقال: «بهيمة الأنعام» وقيدها بالنَّعم؛ لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير، لا يجوز ذبحها في القرابين.

قال الله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: سموا على الذبائح اسم الله وحده، فإن إلهكم إله واحد ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ انقادوا وأطيعوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: المتواضعين، وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ من البلاء والمصائب ﴿وَٱلۡمُقِيمِي

(١) أخرجه مسلم برقم١٢١٨: (٢/ ٨٩٣).

﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: المقيمين للصلاة في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنةٍ، سميت بدنة؛ لعظمها وضخامتها، يريد: الإبل العظام الصحاح الأجسام، قال عطاء والسدي: البُدْن: الإبل والبقر، أما الغنم فلا تسمى بدنة ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام دينه، سُميت شعائر؛ لأنها تُشعَر، وهو أن تُطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ النفع في الدنيا، والأجر في العقبى ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند نحرها ﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قيامًا على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها، ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك. وعن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخَ بَدَنةً ينحرها، قال: ابعثها قيامًا مقيدةً سنةَ محمد ﷺ(١). ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمر إباحة ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ اختلفوا في معناها:

فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة: «القانع»: الجالس في بيته، المتعفف يقنع بما يُعطى ولا يسأل، و«المعتر»: الذي يسأل. وروى العوفي عن ابن عباس: «القانع»: الذي لا يتعرض ولا يسأل، و«المعتر»: الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفنا من نحرها قيامًا ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ نعمة منا لتتمكنوا من نحرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله، فأنزل الله هذه الآية: «لن ينال الله لحومُها ولا دماؤُها»، قال مقاتل: لن يُرفع إلى الله لحومُها ولا دماؤُها ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن تُرفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى والإخلاص وما أريد به وجه الله ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ يعني: البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، وهو أن يقول: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: الموحدين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يريد: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين، ويمنعهم

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/٥٥٣)، ومسلم برقم١٣٢٠: (٢/٩٥٦).

عن المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي: خوان في أمانة الله، كفور لنعمته، قال ابن عباس: خانوا الله فجعلوا معه شريكًا وكفروا نعمه.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قوله عزَّ وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾. قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى النبي ﷺ فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية، وهي أول آية أذِنَ الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية بالمدينة. ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي: بسبب ما ظُلِموا، واعتدوا عليهم بالإيذاء ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بدل عن «الذين» الأولى ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: لم يخرجوا من ديارهم إلاَّ لقولهم ربنا الله وحده. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ قال مجاهد والضحاك: يعني: صوامع الرهبان، وقال قتادة: صوامع الصابئين ﴿وَبِيَعٌ﴾ بِيَع النصارى، جمع: «بيعة»، وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ يعني: كنائس اليهود، ويسمونها بالعبرانية صلوتا ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يعني: مساجد المسلمين من أمة محمد ﷺ.

ومعنى الآية: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البِيَع والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه ونبيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال الزَّجَّاج: هذا من صفة ناصريه، ومعنى «مكناهم في الأرض»: نصرناهم على عدوهم حتى يتمكنوا من البلاد، قال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال الحسن: هم هذه الأمة ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه، يعني: يبطل كل ملك سوى ملكه، فتصير الأمور إليه بلا منازع ولا مدَّع.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعزِّي نبيه ﷺ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتهم وأخَّرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتُهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوف به من يُخالِفُ النبيَّ ﷺ ويكذبه.

﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وأهلها ظالمون ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: وكم من بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل: رفيع طويل، من قولهم: شاد بناءه إذا رفعه، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: مجصَّص، من الشيد، وهو الجص.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: كفارَ مكة، فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأُمم الخالية ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا﴾ الهاء عماد ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ذَكر «التي في الصدور» تأكيدًا كقوله: «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» [الأنعام: ٣٨]، معناه: أن العمى الضار هو عمى القلب، فأمَّا عمى البصر فليس بضار في أمر الدين.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى

ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ فأُنجز ذلك يوم بدر ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. قال ابن عباس: يعني: يومًا من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وقال مجاهد وعكرمة: يومًا من أيام الآخرة، والدليل عليه: ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمسمائة سنة»[1].

قال ابن زيد: «وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون» هذه أيام الآخرة، وقوله: «كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون» يوم القيامة، والمعنى على هذا: أنهم يستعجلون بالعذاب، وإن يومًا من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أمهلتها ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ الرزق الكريم: الذي لا ينقطع أبدًا، وقيل: هو الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: عملوا في إبطال آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قال قتادة: معناه: ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، ومعنى يعجزوننا، أي: يفوتوننا فلا نقدر عليهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا ﴿وَلَا نَبِىٍّ﴾ وهو الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، وكل رسولٍ نبي، وليس كل نبيٍّ رسولاً ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال بعضهم: أي: أحب شيئًا واشتهاه وحدَّث به نفسه ما لم يؤمر به ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: مراده.

وعن ابن عباس قال: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلاً، وما من نبي إلاَّ تمنى أن يؤمن به قومه، ولم يتمنَّ ذلك نبي إلاَّ ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه، فينسخ الله ما يلقي الشيطان. وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: «تَمَنَّىٰٓ»، أي: تلا وقرأ كتاب الله تعالى، «أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ»، أي: في تلاوته.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٦)، قال المنذري: (في إسناده المعلى بن زياد، وفيه مقال) ثم ساق شاهدًا من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي وابن ماجه، والإمام أحمد: (٣/ ٦٣).

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يُبطله ويذهبه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيثبتها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: محنة وبلية، شك ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ﴾ يعني: الجافية ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عن قبول الحق وهم المشركون، وذلك أنهم افتتنوا لما سمعوا ذلك، ثم نُسخ ورفع فازدادوا عُتوًّا، وظنوا أن محمدًا يقوله من تلقاء نفسه ثم يندم فيبطل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في خلاف شديد.

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ التوحيد والقرآن، وقال السدي: التصديق بنسخ الله تعالى ﴿أَنَّهُ﴾ يعني: أن الذي أحكم الله من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يعتقدوا أنه من الله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فتسكن إليه قلوبهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق قويم هو الإسلام.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ يقولون: ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها، وقال ابن جريج: «منه»، أي: من القرآن، وقيل: من الدين، وهو الصراط المستقيم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يعني: القيامة، وقيل: الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال الضحاك وعكرمة: عذاب يوم لا ليلة له، وهو يوم القيامة.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده من غير منازع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ثم بيَّن الحكم، فقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ وهم كذلك، ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ والرزق الحسن: الذي لا ينقطع أبدًا هو رزق الجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قيل: هو قوله: «بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» [آل عمران: ١٦٩].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عنهم.

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ جازى الظالم بمثل ما ظلمه، قال الحسن: يعني: قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظُلم بإخراجه من منزله، يعني: ما أتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم، نزلت في قوم من المشركين أتوا قومًا من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم، وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام، فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنُصروا عليهم، قال الله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ والعقاب الأول بمعنى الجزاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عفا عن مساوىء المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على ما يشاء، فمن قدرته أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ العالي على كل شيء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الذي كل شيء دونه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بأرزاق عباده، واستخراج النبات من الأرض ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوب العباد، واستخراج النبات من الأرض إذا تأخر المطر عنهم ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا ومُلْكًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عباده ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في أفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخر لكم الفلك ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وقيل: «ما في الأرض»: الدوابُّ تركب في البر، و«الفلك» تركب في البحر ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن

تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: لكيلا تسقط على الأرض ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: أنشأكم ولم تكونوا شيئًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ﴾ يوم البعث للثواب والعقاب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ﴾ قال ابن عباس: يعني: شريعة هم عاملون بها، وروي عنه أنه قال: عيدًا. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِۚ﴾ يعني: في أمر الذبائح، نزلت في بُدَيْل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس، قالوا لأصحاب النبي ﷺ: ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم، ولا تأكلون مما قتله الله. قال الزجاج: معنى قوله: «فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ»، أي: لا تنازعهم أنت. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ إلى الإيمان بربك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فتعرفون حينئذ الحق من الباطل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿فِى كِتَٰبٍۚ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: علمه لجميع ذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ﴾ يعني: أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل لا عن علم ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للمشركين ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ مانع، يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَۖ﴾ يعني: الإنكار، يتبين ذلك في وجوههم من الكراهية والعبوس ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبسطون إليهم أيديهم بالسوء، وقيل: يبطشون ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ أي: بمحمد وأصحابه، من شدة الغيظ. ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۗ﴾ أي: بشرٍّ لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تستمعون ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هي النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ معنى ضُرب: جُعِل، ومعنى الآية: جُعِلَ لي شَبَه، وشُبِّه بيَ الأوثان، أي: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها، ومعنى ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: فاستمعوا حالها وصفتها، ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ واحدًا في صغره وقلته؛ لأنها لا تقدر عليه، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: لخلقه ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: وإن يسلب الذبابُ الأصنامَ شيئًا مما عليها لا يقدرون أن يستنقذوه منه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس: «الطالب»: الذباب يطلب ما يسلب من الطيب من الصنم، و«المطلوب»: الصنم يطلب الذباب منه السلب.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عظَّموه حقَّ عظمتِهِ وما عرفوه حقَّ معرفتِهِ، ولا وصفوه حقَّ صفتِهِ إنْ أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يعني: يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يختار من الناس رسلاً، مثل: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء، نزلت حين قال المشركون: «أأُنزلَ عليه الذكر من بيننا»، فأخبر أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لقولهم، بصير بمن يختارُهُ لرسالته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: ما قدَّموا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما خلَّفوا، وقال الحسن: «ما بين أيديهم»: ما عملوا، «وما خلفهم» ما هم به عاملون من بعد، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي: صلُّوا؛ لأن الصلاةَ لا تكونُ إلاَّ بالركوع

والسجود ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وحِّدوه ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس: صلة الرحم ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة، واختلف أهلُ العلم في سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية: فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وذهب قوم إلى أنه لا يسجد هاهنا، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، قيل: جاهدوا في سبيل الله أعداءَ الله، «حقَّ جهاده» هو استفراغ الطاقة فيه، قاله ابن عباس، وعنه أيضًا أنه قال: لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، كما قال تعالى: «يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ» [المائدة: ٥٤].

وقال أكثر المفسرين: «حق الجهاد»: أن تكون نيتُه خالصةً صادقةً لله عزَّ وجلَّ، وقال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: اختاركم لدينه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، معناه: أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلاَّ جعل الله له منه مخرجًا، بعضها بالتوبة، وبعضها برد المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفارات، فليس في دين الإسلام ذنب لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب فيه. ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: كمِلَّة أبيكم، أي: اتَّبِعوا مِلَّة أبيكم إبراهيم، وإنما أمرنا باتباع ملة إبراهيم؛ لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ.

فإن قيل: فما وجه قوله: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ» وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟

قيل: خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم، وقيل: خاطب به جميع المسلمين، وإبراهيم أبٌ لهم، على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه، كما يجب احترام الأب، وهو كقوله تعالى: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» [الأحزاب: ٦]، وقال النبي ﷺ: «إنَّما أنا لكم مثل الوالد لولده»(١).

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾ يعني: أن الله تعالى سماكم ﴿الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في هذا الكتاب، هذا قول أكثر المفسرين، ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة: أن قد بلَّغكم ﴿وَتَكُونُوا﴾ أنتم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أن رسلَهم قد بلَّغتْهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: ثقوا بالله وتوكلوا عليه، قال الحسن: تمسَّكوا بدينِ الله، وروي عن ابن عباس قال: سلوا ربكم أن يعصمَكم من كل ما يكره، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ وليكم وناصركم وحافظكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الناصر لكم.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أبو داود: (١/ ١٨)، والنسائي: (١/ ٣٨)، وابن ماجه: (١/ ١١٤، برقم٣١٣).

سورة المؤمنون

مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ «قد» حرف تأكيد، وقال المحققون: «قد» تقرب الماضي من الحال، يدل على أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل، و«الفلاح»: النجاة والبقاء، قال ابن عباس: قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ اختلفوا في معنى الخشوع، فقال ابن عباس: مخبتون أذلاء، وقال الحسن وقتادة: خائفون. والخشوع قريب من الخضوع إلاَّ أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبدن والبصر والصوت. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: هو أن لا يلتفت يمينًا وشمالاً، وقال سعيد بن جبير: هو أن لا يعرف مَنْ على يمينه ولا مَنْ على يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله عزَّ وجلَّ.

عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطان من صلاة العبد»[1].

وقال عطاء: هو أن لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة. وعن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدُكم إلى الصلاةِ فلا يمسحِ الحصى فإنَّ الرحمةَ تواجهُهُ»[2].

وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة، والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ قال عطاء عن ابن عباس: عن الشرك، وقال الحسن: عن المعاصي، وقال الزجاج: عن كل باطل ولهو وما لا يحل من القول والفعل.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: للزكاة الواجبة مؤدُّون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ الفرج: اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج: التعفف عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: من أزواجهم، و«على» بمعنى «مِنْ» ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ «ما» في محل الخفض، يعني: أو مما ملكت أيمانهم، والآية في الرجال خاصة بدليل

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ٤٤٣)، والترمذي: (٢/ ٣٨٢)، والنسائي: (٣/ ٦).

قوله: «أو ما ملكت أيمانهم»، والمرأة لا يجوز أن تستمتعَ بفرج مملوكها ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ يعني: يحفظُ فرجه إلاَّ من امرأته أو أمته فإنه لا يلام على ذلك، وإنما لا يلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتى، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور وهو على فعله ملوم.

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام، وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء، قال ابن جريج: سألت عطاء عنه فقال: مكروه، سمعت أنَّ قومًا يحشرون وأيديهم حُبالى فأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير قال: عذب الله أُمَّةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ حافظون، أي: يحفظون ما ائتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها، والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العبد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، وتكون بين العبيد كالودائع والصنائع، فعلى العبد الوفاء بجميعها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها، كرر ذكرَ الصلاةِ ليبينَ أنَّ المحافظةَ عليها واجبةٌ كما أن الخشوع فيها واجبٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يرثون منازلَ أهلِ النار من الجنة. وروي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلاَّ وله منزلان منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإن مات ودخل النار ورثَ أهلُ الجنةِ منزلَه»[1] وذلك قوله تعالى: «أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ وهو أعلى الجنة، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون ولا يُخرجون.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (٢/١٤٥٣، برقم٤٣٤١)، وقال في «الزوائد»: (هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: ولد آدم، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء. ﴿مِّن طِينٍ﴾ يعني: طين آدم، والسلالة تولدت من طين خُلق آدم منه.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ يعني: الذي هو الإنسان جعلناه نطفة ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ حريز، وهو الرَّحِمُ مُكّن، أي: قد هيىء لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها.

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: ألبسنا ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية: هو نفخ الروح فيه، وقال قتادة: نبات الأسنان والشعر.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المصورين والمقدرين.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي: سبع سموات، سميت طرائق لتطارقها، وهو أن بعضها فوق بعض، ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ يعلمه الله، قال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: ما يبقى في الغدران والمستنقعات، ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر، وقيل: فأسكناه في الأرض، ثم أخرجنا منها ينابيع، فماء الأرض كله من السماء ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ حتى تهلكوا عطشًا، وتهلك مواشيكم، وتخرب أراضيكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ شتاءً وصيفًا، وخصَّ النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنها أكثر فواكه العرب.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ

تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

﴿وَشَجَرَةً﴾ أي: وأنشأنا لكم شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهي الزيتون، واختلفوا في معناه وفي «سينين» في قوله تعالى: «وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾» [التين: ٢]، قال مجاهد: معناه البركة، أي: من جبل مبارك، وقال قتادة: معناه: الحسن، أي: من الجبل الحسن، قال ابن زيد: هو الجبل الذي نُودي منه موسى بين مصر وأيلة، وقال مجاهد: سينا اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده، وقال عكرمة: هم اسم المكان الذي فيه هذا الجبل.

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ الصبغ والصباغ: الإدام الذي يلون الخبز إذا غمس فيه وينصبغ، والإدام كل ما يؤكل مع الخبز، سواء ينصبغ به الخبز أو لا ينصبغ، قال مقاتل: جعل الله في هذه الشجرة أدمًا ودُهنًا، فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت، وقال: خُصَّ الطور بالزيتون؛ لأن أول الزيتون نبت بها، ويقال: إن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ﴾ أي: آية تعتبرون بها ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: على الإبل في البر، وعلى الفلك في البحر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ﴾ معبود سواه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعًا، وأنتم له تبع ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يعبد سواه ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ يعني: بإبلاغ الوحي ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعونا إليه نوح ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقيل: «ما سمعنا بهذا»، أي: بإرسال بشر رسولاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن يموت فتستريحوا منه.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا

مُبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أعنّي بإهلاكهم لتكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أدخل فيها، ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ﴾ أي: من سبق عليه الحكم بالهلاك ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ اعتدلت ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: إنزالاً، فالبركة في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرت من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لدلالات على قدرته ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ وقد كنّا.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: هودًا وقومه، وقيل: صالحًا وقومه، والأول أظهر ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: المصير إلى الآخرة ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ نعّمناهم ووسّعنا عليهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: مما تشربون منه ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ لمغبونون.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ من قبوركم أحياءً، وأعاد «أنكم» لما طال الكلام، ومعنى الكلام: أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا مخرجون؟ وكذلك هو في

قراءة عبد الله.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ قال ابن عباس: هي كلمة بعد، أي: بعيد ما توعدون.

﴿إِنْ هِيَ﴾ يعنون: الدنيا ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت، وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء، وقيل: يموت قوم ويحيا قوم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بمنشرين بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنون: الرسول ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين بالبعث بعد الموت.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل، ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَادِمِينَ﴾ على كفرهم وتكذيبهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ قيل: أراد بالصيحة: الهلاك، وقيل: صاح بهم جبريل صيحة فتصدعت قلوبهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ وهو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، معناه: صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أقوامًا آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تسبق أمةٌ أجلَها، أي: وقت هلاكها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ وما يتأخرون عن وقت هلاكهم.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: مترادفين، يتبع بعضهم بعضًا غير متواصلين.

﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالهلاك، أي: أهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: سَمَرًا وقصصًا، يتحدث مَنْ بعدَهم بأمرهم وشأنهم، ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: بحجة بينة، من اليد والعصا وغيرهما. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ تعظَّموا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين،

قاهرين غيرهم بالظلم. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ يعني: فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعني: موسى وهارون ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ مطيعون متذللون. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بالغرق.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي يهتدي به قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ دلالة على قدرتنا، ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض، واختلفت الأقوال فيها، فقال عبد الله بن سلام: هي دمشق، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ فالمعين: الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي وجماعة: أراد به محمدًا ﷺ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة، وقال بعضهم: أراد به عيسى، وقيل: أراد به جميع الرسل ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلالات ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الصلاح هو: الاستقامة على ما توجبه الشريعة ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ملة واحدة، وهي الإسلام ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اتقوني لهذا، وقيل: معناه: أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم، فأمركم واحد، «وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ»: فاحذرون.

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾ دينهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرقوا فصاروا فِرَقًا: يهودًا ونصارى ومجوسًا ﴿زُبُرًا﴾ أي: فرقًا وقطعًا مختلفة، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ معجبون ومسرورون.

﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ قال ابن عباس: في كفرهم وضلالتهم، وقيل: عمايتهم، وقيل: غفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يموتوا.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ما نعطيهم ونجعله مددًا لهم من المال والبنين في الدنيا.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ أي: نعجل لهم في الخيرات، ونقدمها ثوابًا لأعمالهم لمرضاتنا عنهم ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ ذلك استدراج لهم، ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ أي: خائفون، والمعنى: أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه، قال الحسن البصري: المؤمن من جمع إحسانًا وخشية، والمنافق من جمع إساءة وأمنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ يُصدِّقون ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أي: يعطون ما أعطَوْا من الزكاة والصدقات، وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ «والذين يأتون ما أتوا»، أي: يعملون ما عملوا من أعمال البر ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وأن أعمالهم لا تُقبل منهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ لأنهم يوقنون أنهم يرجعون إلى الله عزَّ وجلَّ، قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله، «وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يُقبل منه»[١].

أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى الأعمال الصالحات ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: إليها سابقون.

قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ أي: طاقتها، فمن لم يستطع القيام فليصلِّ قاعدًا، ومن لم يستطع الصوم فليفطر ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾ وهو اللوح المحفوظ «يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ»: يبين بالصدق، ومعنى الآية: لا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها إلاَّ ما أطاقت من العمل وقد أثبتنا عمله في اللوح المحفوظ، فهو ينطق به ويبينه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، ثم ذكر الكفار، فقال:

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ١٩ - ٢٠)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٠٤)، والإمام أحمد: (٦/ ١٥٩، ٢٠٦).

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في غفلة وجهالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: من القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: للكفار أعمال خبيثة من المعاصي والخطايا محكومة عليهم من دون ذلك، يعني: من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في قوله: «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون» ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ لابد لهم من أن يعملوها، فيدخلوا بها النار، لما سبق لهم من الشقاوة، هذا قول أكثر المفسرين.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: أخذنا أغنياءهم ورؤساءهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس: هو السيف يوم بدر، وقال الضحاك: يعني: الجوع، حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وَطْأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنّي يوسف»[1]، فابتلاهم الله عزَّ وجلَّ بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يضجون ويجزعون ويستغيثون.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: لا تضجوا ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعون منا، ولا ينفعكم تضرعكم.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى تتأخرون عن الإيمان.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ اختلفوا في هذه الكناية، فأظهر الأقاويل: أنها تعود إلى البيت الحرام، كناية عن غير مذكور، أي: مستكبرين متعظمين بالبيت الحرام، وتعظُّمهم به أنهم كانوا يقولون: نحن أهل حرم الله وجيران بيته، فلا يظهر علينا أحد، ولا نخاف أحدًا، فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف، هذا قول ابن عباس ومجاهد وجماعة، ﴿سَامِرًا﴾ نصب على الحال، أي: أنهم يسمرون بالليل في مجالسهم حول البيت، ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي: تعرضون عن النبي ﷺ وعن الإيمان والقرآن، وترفضونها.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ أي: يتدبروا ﴿الْقَوْلَ﴾ يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/١٩٣ - ١٩٤)، ومسلم برقم٦٧٥: (١/٤٦٦ - ٤٦٧).

من الدلالات على صدق محمد ﷺ ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروا، يريد: إنا قد بعثنا من قبلهم رسلاً إلى قومهم كذلك بعثنا محمدًا ﷺ إليهم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمدًا ﷺ ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمدًا ﷺ صغيرًا وكبيرًا، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود، وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون، وليس كذلك ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالصدق والقول الذي لا تخفى صحتُه وحسنُه على عاقل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة: «الحق» هو الله، أي: لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل، «لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»، وقال الفرَّاء والزَّجَّاج: والمراد بالحق القرآن، أي: لو نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدونه ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وهو كقوله تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» [الأنبياء: ٢٢].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بما يذكرهم، قال ابن عباس: أي: بما فيه فخرُهم وشرفُهم، يعني: القرآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم﴾ يعني: عن شرفهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على ما جئتهم به ﴿خَرْجًا﴾ أجرًا وجُعْلاً ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ وهو الإسلام ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ أي: عن دين الحق ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ لعادلون مائلون ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ قحط وجدوبة ﴿لَّلَجُّوا﴾ تمادَوْا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولم ينزعوا عنه.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وذلك أن النبي ﷺ دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وقال: أنشُدُك الله والرحم، ألستَ تزعُمُ أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى»، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادعُ الله

أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكُشِفَ عنهم، فأنزل الله هذه الآية[1] ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم، وأصله: طلب السكون ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضَوْا على تمردهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: القتل يوم بدر، وهو قول مجاهد، وقيل: هو الموت، وقيل: هو قيام الساعة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: أنشأ لكم الأسماع ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: لم تشكروا هذه النعم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تبعثون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ترون من صنعه فتعتبرون.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: كذبوا كما كذب الأولون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لمحشورون، قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ الوعد ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد آباءَنا قومٌ ذكروا أنهم رسلُ الله فلم نَرَ له حقيقةً ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب الأولين.

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾

﴿قُل﴾ يا محمد مجيبًا لهم، يعني أهل مكة: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من الخلق ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولابدَّ لهم من ذلك؛ لأنهم يقرون أنها مخلوقة ﴿قُلْ﴾ لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومَن فيها ابتداءً يقدر على إحيائهم بعد الموت.

---

(١) انظر: الطبري: (١٨/ ٤٥)، والنسائي في «التفسير»: (٢/ ٩٩)، والواحدي في «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٦٢ - ٣٦٣.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تحذرون.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الملكوت: الملك، والتاء فيه للمبالغة ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يُؤَمِّنُ مَنْ يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يُؤَمِّنُ مَنْ أخافه الله، أو يَمنعُ هو من السوء من يشاء، ولا يُمنعُ منه مَن أراده بسوء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قيل: معناه: أجيبوا إن كنتم تعلمون.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته، والمعنى: كيف يُخيَّلُ لكم الحقُّ باطلاً؟

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يدَّعون من الشريك والولد.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾ أي: من شريك ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: تفرَّدَ بما خلقه فلم يرضَ أن يُضافَ خلقُهُ وإنعامُه إلى غيره، ومَنَعَ الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: طلب بعضهم مغالبةَ بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ثم نزَّه نفسَهُ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظَّم عما يشركون، ومعناه: أنه أعظمُ من أن يُوصفَ بهذا الوصف.

قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أي: إن أريتني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: ما أوعدتهم من العذاب.

﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تهلكني بهلاكهم.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب لهم ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع بالخُلَّةِ التي هي أحسن، هي الصفح والإعراض والصبر ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يعني: أذاهم، أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة، نسختها آية السيف ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يكذبون ويقولون من الشرك.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أمتنعُ وأعتصمُ بك ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال ابن عباس:

نزعاتهم، وقال الحسن: وساوسهم، وقال مجاهد: نفخهم ونفثهم.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ في شيء من أموري، وإنما ذكر الحضور؛ لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه، ثم أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾ ولم يقل: ارجعني، وهو يسأل الله وحده الرجعة، على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ أي: ضيَّعتُ أن أقولَ لا إله إلاَّ الله، وقيل: أعمل بطاعة الله، قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرءًا عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب.

﴿كَلَّآۚ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: سؤاله الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ ولا ينالها ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: أمامهم وبين أيديهم حاجز ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ والبرزخ الحاجز بين الشيئين، واختلفوا في معناه هاهنا، فقال مجاهد: حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وقال قتادة: بقية الدنيا، وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث، وقيل: هو القبر، وهم فيه إلى يوم يبعثون.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ اختلفوا في هذه النفخة، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها النفخة الأولى «وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ» [الزمر: ٦٨] ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ» [الزمر: ٦٨]، «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧» [الصافات: ٢٧].

وعن ابن مسعود: أنها النفخة الثانية، قال يؤخذ بيد العبدِ والأَمةِ يوم القيامة فيُنصبُ على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان، فمن كان له قِبَله حق فليأت إلى حقه، فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده وولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود: «فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ».

وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها الثانية، «فلا أنساب بينهم»، أي: لا يتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا، ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا: مَنْ أنت ومن أي قبيلة أنت؟ ولم يرد أن الأنساب تنقطع.

فإن قيل: أليس قد جاء في الحديث: «كل سبب ونسب ينقطع إلاَّ نسبي وسببي»[(١)].

قيل: معناه: لا يبقى يوم القيامة سبب ولا نسب إلاَّ نسبه وسببه، وهو الإيمان والقرآن.

فإن قيل: قد قال هاهنا «وَلَا يَتَسَآءَلُونَ»، وقال في موضع آخر: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾» [الصافات: ٢٧]؟

الجواب: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن للقيامة أحوالاً ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عِظمُ الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقةً فيتساءلون.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تسفع، وقيل: تحرق ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ عابسون.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ»، قال: «تشويه النار، فتقلِصُ شفتُه العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السفلى حتى تضربَ سرته»[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن، تخوَّفون بها ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلبت علينا شقوتنا التي كتبت علينا فلم نهتد ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الهدى.

رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ﴾ أبعدوا ﴿فِيهَا﴾ كما يقال للكلب إذا طُرِد: اخسأ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب، فإني لا أرفعه عنكم، فعند ذلك أيس المساكين من الفرج، قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلاَّ الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يَفْهمون ولا يُفْهمون، روي عن عبد الله بن عمرو: «أن أهل جهنم يدعون مالكًا خازن النار أربعين عامًا[(٣)]: «يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» [الزخرف: ٧٧]، فلا يجيبهم، ثم يقول: «إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ» [الزخرف: ٧٧]، ثم ينادون ربهم: «رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾»، فيدعهم مثل عمر

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٣/ ١٤٢)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: (منقطع).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٠)، وقال: (هذا حديث حسن غريب صحيح)، والإمام أحمد: (٣/ ٨٨)، والحاكم: (٢/ ٣٩٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٩٥)، وصححه ووافقه الذهبي، بلفظ: «يومًا» بدل «عام».

الدنيا مرتين ثم يرد عليهم: «ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»، فلا ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلاَّ الزفير والشهيق. وقال القرطبي: إذا قيل لهم: «ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض، وأطبقت عليهم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء في «إنه» عماد، وتسمى أيضًا المجهولة ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ أي: أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم ﴿ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ قال مقاتل: نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وسلمان والفقراء من الصحابة، كان كفار قريش يستهزئون بهم.

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على أذاكم واستهزائكم في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة.

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: قال الله عزَّ وجلَّ للكفار يوم البعث: كم لبثتم؟ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في الدنيا وفي القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نسوا مدة لبثهم في الدنيا؛ لعظم ما هم بصدده من العذاب ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ سماه قليلاً؛ لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فإنه يكون قليلاً في جنب ما يلبث في الآخرة؛ لأن لبثه في الدنيا وفي القبر متناهٍ ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قدر لبثكم في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ لعبًا وباطلاً لا لحكمة، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء.

ثم نزَّه الله نفسَه عمَّا يصفه به المشركون، فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ يعني: السرير الحسن، وقيل: المرتفع.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حجة له به ولا بينة؛ لأنه لا حجة في دعوى الشرك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ جزاؤه ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ يجازيه بعمله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لا يسعد من جحد وكذب.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

سورة النور

مدنية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾

﴿سُورَةٌ﴾ أي: هذه سورة ﴿أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها، ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ أراد: إذا كانا حرين بالغين عاقلين بكرين غير محصنين، «فَٱجۡلِدُواْ»: فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة، وذكر بلفظ الجلد؛ لئلا يبرّح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم، وقد وردت السنة أنه يجلد مائة ويغرب عامًا، وهو قول أكثر أهل العلم، وإن كان الزاني محصنًا فعليه الرجم. ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ رحمة ورقَّة، والرأفة: معنى في القلب، لا ينهى عنه؛ لأنه لا يكون باختيار الإنسان. روي أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت، فقال للجلاد: اضرب ظهرها ورجليها، فقال له ابنه: لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، فقال: يا بنيّ، إن الله عزَّ وجلَّ لم يأمرني بقتلها وقد ضُربت فأوجعت.

واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: لا تأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي، وقال جماعة: معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضربًا، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن، قال الزهري: يجتهد في حد الزنا والفرية ويخفف في حد الشرب، وقال قتادة: يجتهد في حد الزنا ويخفف في الشرب والفرية. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ معناه: أن المؤمن لا تأخذه الرأفةُ إذا جاء أمر الله تعالى. ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ﴾ وليحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ حدَّهما إذا أقيم عليهما ﴿طَآئِفَةٞ﴾ نفر ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال مجاهد والنخعي: أقله رجل واحد فما فوقه، وقال عكرمة وعطاء: رجلان فصاعدًا، وقال الزهري وقتادة: ثلاثة فصاعدًا، وقال مالك وابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنا.

ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ اختلف العلماء في معنى الآية وحكمها، فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن، وهنَّ يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية «وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ»، أن يتزوجوا تلك البغايا؛ لأنهنَّ كن مشركات، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري والشعبي، ورواية العوفي عن ابن عباس.

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت بمكة بغي يقال لها عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرَّم الزنا، فقالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد شيئًا، فنزلت: «وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ» فدعاني فقرأها عليَّ وقال لي: لا تنكحها[1].

فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصًا في حق أولئك دون سائر الناس.

وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، ومعناه: الزاني لا يزني إلاَّ بزانية أو مشركة، والزانية لا تزني إلاَّ بزان أو مشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم، ورواية الوالبي عن ابن عباس، قال يزيد بن هارون: إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك، وإن جامعها وهو مُحرِّم فهو زان، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبدًا، وقال الحسن: الزاني المجلود لا ينكح إلاَّ زانية مجلودة، والزانية المجلودة لا ينكحها إلاَّ زان مجلود، قال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، فكان نكاح الزانية حرامًا بهذه الآية فنسخها قوله تعالى: «وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ» فدخلت الزانية في أيامى المسلمين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أراد بالرمي: القذف بالزنا، وكلُّ من رمى محصنًا أو محصنة بالزنا، فقال له: زنيت أو يا زاني فيجب عليه جلد ثمانين جلدة، إن كان حرًّا، وإن كان عبدًا فيجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن، فعلى القاذف التعزير.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: يقذفون بالزنا المحصنات، يعني: المسلمات الحرائر العفائف ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون على زناهنَّ ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أي: اضربوهم ثمانين جلدة ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/٦)، والترمذي: (٩/ ٢١ - ٢٣)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه)، والنسائي: (٦/ ٦٦ - ٦٧)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٦٦) وأقره الذهبي.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة، وفي حكم هذا الاستثناء: فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف، وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته قُبلت شهادته، سواء تاب بعد إقامة الحدِّ عليه أو قبله؛ لقوله تعالى: «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ»، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى الشهادة وإلى الفسق، فبعد التوبة تقبل شهادته، ويزول عنه اسم الفسق، يروى ذلك عن ابن عباس وعمر، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري، وبه قال مالك والشافعي.

وذهب قوم إلى أن شهادة المحدود في القذف لا تقبل أبدًا وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: «وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ»، وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأي، وقالوا: بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحدّ.

قال الشافعي: وهو قبل أن يُحَدَّ شرب منه حين يحد؛ لأن الحدود كفارات، فكيف يردونها في أحسن حاليه ويقبلونها في شر حاليه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: يقذفون نساءهم ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون على صحة ما قالوا ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: غير أنفسهم ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فشهادة أحدهم التي تدرأ الحد أربع شهادات.

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ وسبب نزول هذه الآية ما أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي، أخبره أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم، أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ سل لي عن ذلك يا عاصمُ رسولَ الله ﷺ، قال: فسأل عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ، فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال له: يا عاصم، ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال عاصم لعويمر، لم تأتني بخير، قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي سألته عنها، فقال عويمر: والله، لا أنتهي حتى أسأله عنها، فجاء عويمر ورسول الله ﷺ وسط الناس فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أُنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأْتِ بها»، فقال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله

ﷺ، فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، فطلقَّها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

قال مالك: قال ابن شهاب: فكانت تلك بَعْدُ سُنة المتلاعنين[1].

وقال محمد بن إسماعيل: أخبرنا إسحاق، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا الأوزاعي، أخبرنا الزهري بهذا الإسناد بمثل معناه وزاد: ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الإليتين خدلج الساقين، فلا أحسب عويمرًا إلاَّ قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وجوه فلا أحسب عويمرًا إلاَّ قد كذب عليها» فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر[2]، فكان بعد ينسب إلى أُمه.

عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينةُ أو حدٌّ في ظهرك»، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلاَّ حدٌّ في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحدّ، فنزل جبريل وأنزل عليه: «وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ»، فقرأ حتى بلغ «إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ»، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحد كما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[3].

والكلام في حكم الآية: أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحدِّ عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن لم تكن محصنة، غير أن المخرج منهما مختلف، فإذا قذف أجنبيًا يقام الحدُّ عليه، إلاَّ أن يقيم أربعة من الشهود على زناه، أو يقرَّ به المقذوف فيسقط عنه حد القذف، وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاعَنَ يسقط عنه الحد، فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة؛ لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلاً ربما لا يمكنه إقامة البينة عليه، ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه، فقال تعالى: «فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ»، وإذا أقام الزوج البينة على زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحد واللعان، إلاَّ أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٤٤٦)، ومسلم برقم١٤٩٢: (٢/ ١١٢٩ - ١١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٤٥٢ - ٤٥٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٤٩).

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾ يدفع ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٩﴾ وأراد بالعذاب: الحدَّ، ومعنى الآية: أن الزوج إذا لاعَنَ وجب على المرأة حد الزنا، وإذا وجب عليها حدُّ الزنا بلعانه فأرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن، فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة: عليَّ غضبُ الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به.

ولا يتعلق بلعانها إلاَّ حكم واحد وهو سقوط الحد عنها، ولو أقام الزوج بينة على زناها فلا يسقط الحد عنها باللعان.

وعند أصحاب الرأي: لا حدّ على من قذف زوجته، بل موجبه اللعان، فإن لم يلاعن يحبس حتى يلاعن، فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة عن اللعان حبست حتى تلاعن.

وعند الآخرين: اللعان حجة على صدقه، والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة على صدقه لا يحبس، بل يحد كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة.

وعند أبي حنيفة: موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلاَّ بلعان الزوجين جميعًا، وقضاء القاضي.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ جواب «لولا» محذوف، يعني: لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحدَّ باللعان، وإن الله تواب يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرض من الحدود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية ما أخبرنا عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفةً من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبتَ له اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديثَ الذي حدثني عن عائشة، وبعضُ حديثهم يُصدِّق بعضًا.

قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه وأيهنَّ خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزل الحجاب، فكنت أُحمل في هودج وأُنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ

رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت، فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يرحلون بي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يَهْبُلْنَ ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلَمي ثم الذَّكْواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطيء على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول.

قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، قال عروة: أُخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه.

وقال عروة أيضًا: لم يسم من أهل الإفك أيضًا إلاَّ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى: «وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ»، قال: عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإنَّ أَبي ووالدَتِي وعِرضي ... لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أُم مِسطح قِبَل المناصع وكان متبرزنا، وكنَّا لا نخرج إلاَّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمْرُنا أمر العرب الأول في التبرُّز قبل الغائط، وكنَّا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

قالت: فانطلقت، أنا وأم مِسطح - وهي ابنة أبي رهم بن عباد بن المطلب بن عبد مناف وأُمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأُم مِسطح قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أُمُّ مِسطح في مِرْطها، فقالت: تعسَ مسطح،

فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ فقالت: أي هَنْتاه، أَوَلم تسمعي ما قال؟ قالت: فقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت: فأذِنَ لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أُمَّتَاه، ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوِّني عليك فوالله لقلَّ ما كانت امرأة قط رَضِيَّة عند رجل يحبها لها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله أوَ لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلاَّ خيرًا، وأما علي فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسلِ الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَرِيْرَةَ، فقال: أيْ بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمضُه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلاَّ خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاَّ خيرًا، وما يدخل على أهلي إلاَّ معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أُم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبتَ لعَمْر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنَّه، فإنَّك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيَّان الأوسُ والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا ورسولُ الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي

منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يُوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته فاض دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأُمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، فقالت أُمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنِّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلاَّ قول أبي يوسف حين قال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» [يوسف: ١٨]، ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا أعلم والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أما والله فقد برأك الله، قالت: فقالت لي أُمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلاَّ الله، قالت: وأنزل الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ» العشر الآيات، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: «وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ» إلى قوله: «غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، قال أبو بكر الصديق: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجَّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاَّ خيرًا، قالت عائشة، وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك[1].

أما تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ بالكذب، والإفكُ: أسوأ الكذب، ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٣١ - ٤٣٥)، وفي تفسير سورة النور: (٨/ ٤٥٢ - ٤٥٥)، ومسلم برقم ٢٧٧٠: (٤/ ٢١٢٩ - ٢١٣٦)..

أي: جماعة، منهم: عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيد الله، وغيرهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يا عائشة ويا صفوان، وقيل: هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبي ﷺ ولصفوان، يعني: لا تحسبوا الإفك شرًّا لكم ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ يعني: من العصبة الكاذبة ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه، قال الضحاك: قام بإشاعة الحديث، وهو عبد الله بن أُبي بن سلول.

وروى الزهري عن عروة عن عائشة «وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ»، قالت: عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والعذاب الأليم هو النار في الآخرة.

لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّوْلَا﴾ هلاَّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ بإخوانهم ﴿خَيْرًا﴾ قال الحسن: بأهل دينهم؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب بيِّن ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: على ما زعموا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

فإن قيل: كيف يصيرون عند الله كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء، ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت؟

قيل: «عِندَ اللَّهِ»، أي: في حكم الله، وقيل: معناه: كذِّبوهم بأمر الله، وقيل: هذا في حق عائشة، ومعناه: أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال ابن عباس، أي: عذاب لا انقطاع له، يعني: في الآخرة؛ لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل، فقال تعالى: «وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، وقد أصابه، فإنه جُلد وحُدَّ، وروت عمرة عن عائشة أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية حدّ أربعة نفر: عبد الله بن أبي، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تقولونه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد ومقاتل: يرويه بعضكم عن بعض، وقال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: بلغني كذا وكذا، يتلقونه تلقِّيًا،

وقال الزَّجَّاج: يلقيه بعضكم إلى بعض، وقرأت عائشة «تَلِقُونه» بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ تظنون أنه سهل لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر.

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾ هذا اللفظ هاهنا معناه التعجب ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمته، وفي بعض الأخبار أن أُم أيوب قالت لأبي أيوب الأنصاري: أما بلغك ما يقول الناس في عائشة؟ فقال أبو أيوب: سبحانك هذا بهتان عظيم، فنزلت الآية على وفق قوله.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يحرِّم الله عليكم، وقال مجاهد: ينهاكم الله ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ في الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمر عائشة وصفوان ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم ببراءتهما.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ يعني: تظهر، ويذيع الزنا ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني: عبد الله بن أُبي وأصحابه المنافقين، والعذاب في الدنيا: الحدُّ، وفي الآخرة: النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كذبهم، وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ جواب «وَلَوْلَا» محذوف، أي: لعاجلكم بالعقوبة، قال ابن عباس: يريد مسطحًا وحسان وحمنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بالقبائح من الأفعال ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما يكرهه الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾ قال مقاتل: ما صلح، وقال ابن قتيبة: ما طهر ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ ما طهر من هذا

الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: ما قبل توبة أحد منكم ﴿أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي﴾ يُطَهِّرُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من الذنب بالرحمة والمغفرة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: ولا يحلف، ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ يعني: أبا بكر الصديق ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: مسطحًا، وكان مسكينًا مهاجرًا بدريًّا ابن خالة أبي بكر، حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ عنهم خوضهم في أمر عائشة ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يخاطب أبا بكر ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر قال: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائف ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفواحش ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والغافلة عن الفاحشة، أي: لا يقع في قلبها فعل الفاحشة، وكانت عائشة كذلك، قوله تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ عذبوا بالحدود، وفي الآخرة بالنار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال مقاتل: هذا في عبد الله بن أُبيٍّ المنافق.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وهذا قبل أن يختم على أفواههم ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ يروى أنه تختم الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءهم الواجب، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا، قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وذلك أن عبد الله بن أُبي كان يشك في الدين، فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ قال أكثر المفسرين: الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ من القول والكلام ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من القول ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ من القول، والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلاَّ بالخبيث من الناس، والطيب لا يليق إلاَّ بالطيب من الناس، فعائشة لا يليق بها

الخبيثات من القول؛ لأنها طيبة ـ رضي الله عنها ـ فيضاف إليها طيبات الكلام من الثناء الحسن وما يليق بها.

قال ابن زيد: معناه: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، يريد: عائشة طيبها الله لرسوله الطيب ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يعني: عائشة وصفوان، ﴿مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فالمغفرة: هي العفو عن الذنوب، والرزق الكريم: الجنة.

وروي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها، منها أن جبريل أتى بصورتها في سَرَقَةٍ من حرير، وقال: هذه زوجتك. وأن النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها، ودُفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله ﷺ وصديقه، وخلقت طيبة، ووُعدت مغفرة ورزقًا كريمًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قيل: معنى قوله: «حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ»، أي: تستأذنوا.

وقال الخليل: الاستئناس الاستبصار، من قوله: آنست نارًا، أي: أبصرت. وجملة حكم الآية: أنه لا يدخل بيت الغير إلاَّ بعد السلام والاستئذان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت أحدًا يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ﴾ يعني: إذا كان في البيت قوم فقالوا: ارجع، فليرجع ولا يقف على الباب ملازمًا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ يعني: الرجوع أطهر وأصلح لكم، قال قتادة: إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب فإن للناس حاجات، وإذا حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرًا جاز.

وكان ابن عباس يأتي باب الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج، ولا يستأذن، فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عم رسول الله، لو أخبرتني، فيقول: هكذا أُمرنا أن نطلب العلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ من الدخول بالإذن وغير الإذن. ولما نزلت آية الاستئذان

قالوا: كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام وعلى ظهر الطريق، ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، أي: بغير استئذان ﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ﴾ يعني: منفعة لكم، واختلفوا في هذه البيوت، فقال قتادة: هي الخانات والبيوت والمنازل المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤووا أمتعتهم إليها، جاز دخولها بغير استئذان، والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد. وقال ابن زيد: هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهي المنفعة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ عمَّا لا يحل، قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلاَّ في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غض البصر وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: خير لهم وأطهر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ عليم بما يفعلون، روي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تُتبعِ النظرةَ النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة»[1].

وروي عن جرير بن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فقال: «اصرف بصرك»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/ ٧٠)، والترمذي: (٨/ ٦١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث شريك)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٩٤) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: (٥/ ٣٥٣، ٣٥٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢١٥٩: (٣/ ١٦٩٩).

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظرُ الرجلُ إلى عورةِ الرجلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفْضِي الرجلُ إلى الرجلِ في ثوبٍ واحد، ولا تفضي المرأةُ إلى المرأةِ في ثوبٍ واحد»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ عمَّا لا يحل ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عمَّن لا يحل، وقيل أيضًا: «يحفظن فروجهن» يعني: يسترنها حتى لا يراها أحد. وروي عن أُم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة إذ أقبل ابن أُم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعدما أُمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه»، فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمَى لا يُبْصِرُنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أفعَمْيَاوَان أنتما، ألستما تبصرانه»[(٢)]؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يظهرن زينتهن لغير محرم، وأراد بها الزينة الخفية، وهما زينتان: خفية وظاهرة، فالخفية: مثل الخلخال، والخضاب في الرجل، والسوار في المعصم، والقرط والقلائد، فلا يجوز لها إظهارها، ولا للأجنبي النظر إليها، والمراد من الزينة موضع الزينة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أراد به: الزينة الظاهرة. واختلف أهل العلم في هذه الزينة الظاهرة التي استثناها الله تعالى، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: هو الوجه والكفان، وقال ابن مسعود: هي الثياب بدليل قوله تعالى: «خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» [الأعراف: ٣١]، وأراد بها الثياب، وقال الحسن: الوجه والثياب، وقال ابن عباس: الكحل والخاتم والخضاب في الكف. فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئًا منها غض البصر، وإنما رُخص في هذا القدر أن تبديه المرأة من بدنها؛ لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة، وسائر بدنها عورة يلزمها ستره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ أي: ليلقين بمقانعهنَّ ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وصدورهنَّ ليسترن بذلك شعورهنَّ وصدورهنَّ وأعناقهن وأقراطهن، قالت عائشة: رحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» شققن مروطهنَّ فاختمرن بها[(٣)].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الزينة الخفية التي لم يبح لهنَّ كشفها في الصلاة ولا للأجانب، وهو ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: يعني: لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلاَّ لبعولتهن، أي: إلاَّ لأزواجهن ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة، ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة، ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٣٣٨: (١/ ٢٦٦).
(٢) أخرجه أبو داود: (٦/ ٦٠ - ٦١)، والترمذي: (٨/ ٦١ - ٦٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).
(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلاَّ ما بين السرة والركبة كالرجل المحرم، هذا إذا كانت المرأة مسلمة، فإن كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها؟

اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم: يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة؛ لأنها من جملة النساء، وقال بعضهم: لا يجوز؛ لأن الله تعالى قال: «أو نسائهن» والكافرة ليست من نسائنا؛ لأنها أجنبية في الدين، فكانت أبعد من الرجل الأجنبي، كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ اختلفوا فيها، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفًا، وأن ينظر إلى بدن مولاته إلاَّ ما بين السرة والركبة، كالمحارم وهو ظاهر القرآن. وروي ذلك عن عائشة وأُم سلمة، وروى ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه أتى فاطمةَ بعبدٍ قد وهبه لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قَنَّعَتْ به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ ما تَلْقى قال: «إنه ليسَ عليكِ بأسٌ إنما هو أبوكِ وغلامُكِ»[1].

وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو قول سعيد بن المسيب، وقال: المراد من الآية الإماء دون العبيد، وعن ابن جريج أنه قال: أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أنه لا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة إلاَّ أن تكون تلك المرأة المشركة أَمَةً لها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ معناه: يبدين زينتهن للتابعين إلاَّ ذا الإربة منهم فإنهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة. والإربة والأرب: الحاجة. والمراد بـ «التابعين غير أُولي الإربة» هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم إلاَّ ذلك، ولا حاجة لهم في النساء.

عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنَّث، وكانوا يعدونه من غير أُولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا لا يدخلَنَّ عليكن هذا» فحجبوه[2].

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع

---

(١) أخرجه أبو داود: (٦/ ٥٩)، قال المنذري: (في إسناده أبو جُميع، سالم بن دينار الهُجَيْمي البصري، قال ابن معين: ثقة، وقال أبو زرعة الرازي: مصري ليِّن الحديث، وهو سالم بن أبي راشد)، وصححه الألباني في «الإرواء»: (٦/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ٣٣٣)، ومسلم برقم٢١٨١: (٤/ ١٧١٦).

صوت خلخالها أو يتبين خلخالها، فنهيت عن ذلك.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ من التقصير الواقع في أمره ونهيه، ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

عن أبي بردة أنه سمع الأغر يحدث عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة»(١).

وجملة الكلام في بيان العورات: أنه لا يجوز للناظر أن ينظر إلى عورة الرجل، وعورته ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المرأة مع المرأة، ولا بأس بالنظر إلى سائر البدن إذا لم يكن خوف فتنة.

وقال مالك وابن أبي ذئب: الفخذ ليس بعورة لما رُوي عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: أجرى نبي الله ﷺ فرسًا في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني لأنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ(٢).

وأكثر أهل العلم على أن الفخذ عورة، لما روى محمد بن جحش، قال: مرَّ رسول الله ﷺ على مَعْمَرٍ وفخذاه مكشوفتان، قال: «يا مَعْمَرُ غطِّ فَخِذَيْك، فإن الفخذين عورة»(٣)، وروي عن ابن عباسٍ وجَرْهَد بن خويلد، كان من أصحاب الصفة، أن النبي ﷺ قال: إن الفخذ عورة»(٤).

أما المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبيةً حرةً: فجميعُ بدنها في حق الأجنبي عورة، ولا يجوز النظر إلى شيء منها إلاَّ الوجه والكفين، وإن كانت أمة: فعورتُها مثل عورة الرجل، ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المحارم بعضهم مع بعض. والمرأة في النظر إلى الرجل الأجنبي كهو معها. ويجوز للرجل أن ينظر إلى جميع بدن امرأته وأمته التي تحل له، وكذلك هي منه إلاَّ نفس الفرج فإنه يكره النظر إليه.

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ «الأيامى»: جمع أيم، وهو من لا زوج له، ومعنى

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٠٧٢: (٤/ ٢٠٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٤٧٩ - ٤٨٠)، ومسلم برقم١٣٦٥: (٤/ ١٤٢٦ - ١٤٢٧).

(٣) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ٢٨٥)، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ١٨٠)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٩٠)، وعلَّقه البخاري: (١/ ٤٧٩).

(٤) أخرجه الترمذي: (٨/ ٧٨ - ٧٩)، وقال: (هذا حديث حسن، ما أرى إسناده بمتصل).

الآية: زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وهذا الأمر أمر ندب واستحباب.

يستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم، لما أخبرنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).

أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة له أفضل من النكاح عند الشافعي ﷺ، وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قيل: الغنى هاهنا: القناعة، وقيل: اجتماع الرزقين، رزق الزوج ورزق الزوجة، وقال عمر: عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عزَّ وجلَّ يقول: «إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون مالاً ينكحون به للصداق والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يوسع عليهم من رزقه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية ما رُوي أن غلامًا لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا فأدَّاها، وقتل يوم حنين في الحرب(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ اختلفوا في معنى الخير، فقال ابن عمر: قوة على الكسب، وهو قول مالك والثوري.

وقال الشافعي: وأظهر معاني الخير في العبد: الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي، يجب على المولى أن يحط عن مكاتبه من مال كتابته شيئًا، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي.

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٠٦)، ومسلم برقم١٤٠٠: (٢/ ١٠١٨ - ١٠١٩).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٧٥، «الدر المنثور»: (٦/ ١٨٩)، «تفسير القرطبي»: (١٢/ ١٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي: (٥/ ٢٩٦)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي: (٦/ ٦١)، وابن ماجه: (٢/ ٨٤١ - ٨٤٢)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٦٠).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الآية، نزلت في عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول المنافق، كانت له جاريتان: معاذة ومسيكة، وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية، يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين، فإن يك خيرًا فقد استكثرنا منه، وإن يك شرًّا فقد آن لنا أن نَدَعه، فأنزل الله هذه الآية[1]: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي: الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: إذا أردن، وليس معناه الشرط؛ لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا وإن لم يردن تحصنًا. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتطلبوا من أموال الدنيا، يريد: من كسبهن وبيع أولادهنَّ ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: للمكرهات، والوزر على المُكْرِه.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ من الحلال والحرام ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: شبهًا من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: هادي أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من الضلالة ينجون. وقال الضحاك: منوِّر السموات والأرض، يقال: نوَّر السماء بالملائكة، ونوَّر الأرض بالأنبياء.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدي به، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الكوة التي لا منفذ لها، فإن كان لها منفذ فهي كوة، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: سراج، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ يعني: القنديل، قال الزجاج: إنما ذكر الزجاجة؛ لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوؤه يزيد في الزجاج، ثم وصف الزجاجة فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾. أي: شديد الإنارة، نُسِبَ إلى الدُّرِّ في صفائه وحسنه، وإن كان الكوكب أكثر ضوءًا من الدر لكنه يَفْضُل الكواكبَ بضيائه، كما يفضل الدرُّ سائرَ الحب. ﴿يُوقَدُ﴾ يعني: المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ

(١) عزاه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٧٧ للمفسرين، وساق روايات أن الآية نزلت في عبد الله بن أبي كان يقول لجاريةٍ له: اذهبي فابغينا شيئًا ... وهو في «صحيح مسلم».

زَيْتُونَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة مباركة، وأراد بالشجرة المباركة: الزيتونة وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة؛ لأن الزيت يسرج منه، وهو أضوأ وأصفى الأدهان، وهو إدام وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجه إلى إعصار بل كل أحد يستخرجه، وهي شجرة تورق من أعلاها إلى أسفلها.

قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار، تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ دهنها ﴿يُضِيٓءُ﴾ من صفائه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: قبل أن تصيبه النار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: نور المصباح على نور الزجاجة. قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءًا على ضوئه، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على هدى ونورًا على نور.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لدين الإسلام وهو نور البصيرة، وقيل: القرآن ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يبين الله الأشياء للناس تقريبًا للأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ أي: ذلك المصباح في بيوت، والبيوت: هي المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض». ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ قال مجاهد: أن تبنى، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يتلى فيها كتابه ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: يصلي له ﴿فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: بالغداة والعشي.

قال أهل التفسير: أراد به الصلوات المفروضات، فالتي تؤدى بالغداة صلاة الصبح، والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين؛ لأن اسم الأصيل يجمعهما، وقيل: أراد به: صلاة الصبح والعصر.

﴿رِجَالٌ﴾ قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد؛ لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في

المسجد ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ قيل: خص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عن حضور المساجد لإقامة الصلاة ﴿وَإِقَامِ﴾ أي: لإقامة ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حذف الهاء، وأراد: أداءها في وقتها؛ لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس؛ لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت. ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها، وقيل: هي الأعمال الصالحة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قيل: تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتنفتح الأبصار من الأغطية، وقيل: تتقلب القلوب من الخوف والرجاء تخشى الهلاك وتطمع في النجاة.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ يريد: أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، أي: بأحسن ما عملوا، يريد: يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوىء أعمالهم لا يجزيهم بها ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثم ضرب لأعمال الكفار مثلاً، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ «السراب»: الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري، يشبه الماء الجاري على الأرض، يظنه من رآه ماء، فإذا قرب منه انفشّ فلم يَرَ شيئًا، و«القيعة»: جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض، وفيه يكون السراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ أي: يتوهمه العطشان ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء ما قد رأى أنه ماء، وقيل: جاء موضع السراب ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ على ما قدره وحسبه، كذلك الكافر يحسب أن عمله نافعه، فإذا أتاه مَلَك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى منه شيئًا ولا نفعه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله، أي: وجد الله بالمرصاد، وقيل: قدم على الله ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: جزاء عمله ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار، يقول: مثل أعمالهم من فسادها وجهالتهم فيها كظلمات، ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وهو العميق الكثير الماء، ولُجّة البحر: معظمه ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يعلوه ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ متراكم ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمة

السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر، بعضها فوق بعض، أي: ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج فوق الموج، وظلمة السحاب على ظلمة الموج، وأراد بالظلمات: أعمال الكافر، وبالبحر اللجي: قلبه، وبالموج: ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب: الختم والطبع على قلبه.

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ﴾ يعني: الناظر ﴿يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ يعني: لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ قال ابن عباس: مَن لم يجعل الله له دينًا وإيمانًا فلا دين له.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ باسطات أجنحتهن بالهواء، قيل: خص الطير بالذكر من جملة الحيوان؛ لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم مَن في السماء والأرض ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ قال مجاهد: الصلاة لبني آدم، والتسبيح لسائر الخلق، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي﴾ يعني: يسوق بأمره ﴿سَحَابٗا﴾ إلى حيث يريد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ أي: يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ متراكمًا بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ يعني: المطر ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ وسطه، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ يعني: ينزل البرد، ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ يعني: بالبرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيهلك زروعه وأمواله ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن﴾ فلا يضره ﴿يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا﴾ يعني: ضوء برق السحاب ﴿بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ من شدة ضوئه وبريقه.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما، يأتي بالليل ويذهب بالنهار، ويأتي بالنهار ويذهب بالليل. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني: في ذلك الذي ذكرت من الأشياء ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يعني:

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٧٤)، ومسلم برقم٢٢٤٦: (٤/ ١٧٦٢).

دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ يعني: من نطفة، وأراد به: كل حيوان يشاهد في الدنيا، ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن؛ لأنَّا لا نشاهدهم، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والحيتان والديدان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ مثل: بني آدم والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع، ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض؛ لأنها في الصورة كالتي يمشي على الأربع، ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ إليك ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يعني: المنافقين يقولونه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض عن طاعة الله ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: آمنَّا، ويدعو إلى غير حكم الله، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نزلت هذه الآية في بِشْرٍ المنافق، كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد ﷺ، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإن محمدًا يحيف علينا، فأنزل الله هذه الآية[1].

وقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسولُ بحكم الله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الحكم، وقيل: عن الإجابة. ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ مطيعين منقادين لحكمه، أي: إذا كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه؛ لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضًا بالحق.

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ أي: شكوا، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: بظلم ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى كتاب الله ورسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا ليس على طريق الخبر لكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغي أن يكونوا، ﴿أَن يَقُولُوا۟

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٧٨، «البحر المحيط»: (٦/ ٤٦٧)، القرطبي: (١٢/ ٢٩٣).

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: فيما ساءه وسره ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما عمل من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بعد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الناجون.

۞وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جهد اليمين أن يحلف بالله، ولا حلف فوق الحلف بالله ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت نكن معك، لئن خرجتَ خرجنا، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾ لا تحلفوا، وقد تم الكلام، ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة، أي: أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد - رضي الله عنه -، وقيل: معناه: طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل، وقال مقاتل بن سليمان: لتكن منكم طاعة معروفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تولوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يعني: على الرسول ما كُلِّف وأُمر به من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الإجابة والطاعة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ البيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال أبو العالية في هذه الآية: مكث النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه، وأُمروا بالصبر على أذى الكفار، وكانوا يُصْبِحُونَ ويُمْسُون خائفين، فقال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فأنزل الله هذه الآية[1]: «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ» يعني: والله ليستخلفنَّهم، أي: ليورثنَّهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال قتادة: كما استخلف داود وسليمان وغيره من الأنبياء، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: اختار، قال ابن

(١) أخرجه الطبري: (١٨/١٥٩ - ١٦٠).

عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها، ويظهر دينهم على سائر الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قال بعضهم: التبديل تغيير حال إلى حال، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي﴾ آمنين ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ فأنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه، وأبدلهم بعد الخوف أمنًا وبسطًا في الأرض.

عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة»؟ قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة فَلَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلاَّ الله»، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، لئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه»، وليَلْقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم، فليقولنَّ له: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلاَّ جهنَّم، وينظر عن يساره فلا يرى إلاَّ جهنَّم»، قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاَّ الله، وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أراد به كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ العاصون لله.

قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلما قتلوه غيَّر الله ما بهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانًا.

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: افعلوها على رجاء الرحمة ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّـٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّـٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٦١٠ - ٦١١).

لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وجَّه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالةٍ كره عمر رؤيته ذلك، فأنزل الله هذه الآية. ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ يعني: العبيد والإماء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ من الأحرار، ليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل الذي عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا. ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ﴾ أي: ليستأذنوا في ثلاث أوقات ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ يريد: المَقِيل ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ﴾ وإنما خص هذه الأوقات؛ لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، أمر العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات، وأما غيرهم فَلْيستأذنوا في جميع الأوقات ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ جناح ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على العبيد والخدم والصبيان ﴿جُنَاحٌۢ﴾ في الدخول عليكم من غير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ ۚ﴾ أي: بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: العبيد والخدم يطوفون عليكم فيترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالهم بغير إذن ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: يطوف بعضكم على بعض ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: إن ناسًا يقولون نسخت، والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: الاحتلام، يريد: الأحرار الذين بلغوا ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ أي: يستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار الكبار، وقيل: يعني: الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ دلالاته، وقيل: أحكامه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دَبَّر لهم. قال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه، فإنما أُنزلت هذه الآية في ذلك، وسئل حذيفة: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم يفعل رأى منها ما يكره.

وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكِبَر، لا يلدن ولا يحضن، ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يردن الرجال لكبرهن، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ عند الرجال، يعني: يضعن بعض ثيابهن، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار، فأما الخمار فلا يجوز وضعه، ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهنَّ، والتبرُّج: هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تتنزه عنه ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ فلا يلقين الجلباب والرداء ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا أنزل الله عزَّ وجلَّ قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ» [النساء: ٢٩]، تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزَّمنى والعُمي والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهانا اللهُ عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي الطعام، فأنزل الله هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غُيَّب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم.

وقيل: لما نزل قوله: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ» [النساء: ٢٩]، قالوا: لا يحل لأحدٍ منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾، أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، قيل: أراد من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج، وقال ابن قتيبة: أراد من بيوت أولادكم، نَسَبَ بيوتَ الأولادِ إلى الآباء، كما جاء في الحديث: «أنت ومالك لأبيك»[1]، ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٩١: (٢/ ٧٦٩)، قال في «الزوائد»: (وإسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري).

﴿مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عنى بذلك وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته، ولا يحمل ولا يدخر، وقال الضحاك: يعني: في بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزائن. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديق الذي صدقك في المودة. قال ابن عباس: نزلت في الحارث بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ خرج غازيًا مع رسول الله ﷺ وخلَّف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودًا فسأله عن حاله، فقال: تحرجت أن آكل طعامك بغير إذنك، فأنزل الله هذه الآية[(١)].

والمعنى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا»، من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا، من غير أن تتزودوا وتحملوا.

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من بني كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفًا يأكل معه، فربما قعد الرجل والطعامُ بين يديه من الصباح إلى الرَّواح، وربما كانت معه الإبل الحُفَّلُ فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحدًا أكل، هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج.

وقال عكرمة وأبو صالح: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلاَّ مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا، جميعًا أو أشتاتًا متفرقين.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: يسلم بعضكم على بعض، هذا في دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومَنْ في بيته، وهو قول جابر وطاووس والزهري وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار.

وقال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلِّمْ على أهلك فهو أحق مَن سلَّمْتَ عليه، وإذا دخلت بيتًا لا أحد فيه فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. حُدِّثنا أن الملائكة ترد عليه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: «فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ»، قال: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[(٢)].

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: تحيون أنفسكم تحية ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وقال

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٢٢٥) من رواية الثعلبي عن ابن عباس.

(٢) قال الطبري (١٨/ ١٧٥): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوت المسلمين فليسلِّم بعضكم على بعض . . . ؛ لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ ولم يخصص من ذلك بيتًا دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: بعضكم على بعض، فكان معلومًا إذْ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معنيٌّ به جميعها، مساجدها وغير مساجدها.

ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حسنة جميلة، وقيل: ذكر البركة والطيبة هاهنا لما فيه من الثواب والأجر ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: مع رسول الله ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يجمعهم من حربٍ حضرت، أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمرٍ نزل ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ لم يتفرقوا عنه، لم ينصرفوا عمَّا اجتمعوا له من الأمر ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد، لحاجةٍ أو عذر، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام يستأذن، فيأذن لمن شاء منهم، قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده.

قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلاَّ بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة، أو يجنب رجل، أو يعرض له مرض، فلا يحتاج إلى الاستئذان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: أمرهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ في الانصراف، معناه: إن شئت فأْذن، وإن شئت فلا تأْذن ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقول: احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه، فإن دعاءه موجب لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره.

وقال مجاهد وقتادة: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا: يا محمد، يا عبد الله، ولكن فَخِّمُوه وشرِّفوه، فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله، في لِيْنٍ وتواضع.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي: يخرجون ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يستر بعضهم بعضًا، ويروغ في خيفة فيذهب، و«اللِّواذ» مصدر لاوَذَ يُلاوِذُ مُلاوَذَةً ولواذًا. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لواذًا»، أي: يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار. ومعنى قوله: «قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ»: للتهديد بالمجازاة.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: أمره، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: لئلا تصيبهم فتنة، قال مجاهد: بلاء في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع في الآخرة. ثم عظَّم نفسه فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وعبيدًا ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الإيمان والنفاق، أي: يعلم، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني: يوم البعث ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الخير والشر ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

سورة الفرقان

مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾

﴿تَبَارَكَ﴾ عن ابن عباس: معناه: جاء بكل بركة، وقال الضحاك: تعظَّم ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: للجن والإنس.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما يطلق عليه صفة المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فسوَّاه وهيأه لما يصلح له، لا خلل فيه ولا تفاوت.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: دفع ضر ولا جلب نفع ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ أي: إماتة وإحياءً ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أي: بعثًا بعد الموت.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني: النضر بن الحارث وأصحابه: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾

كذب ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ قال مجاهد: يعني: اليهود، وقال الحسن: هو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن، وقيل: جبر، ويسار، وعداس بن عبيد، كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمدًا يأخذ منهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ يعني: قائلي هذه المقالة ﴿ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ يعني: جاؤوا شركًا وكذبًا بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ يعني: النضر بن الحارث كان يقول: إنَّ هذا القرآن ليس من الله، وإنما هو مما سطَّره الأولون، مثل: حديث رستم واسفنديار، «ٱكۡتَتَبَهَا»: انتسخها محمد من جبر ويسار وعدَّاس، ومعنى «اكتتب» يعني: طلب أن يكتب له؛ لأنه كان لا يكتب ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ يعني: تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ غدوة وعشيًّا، قال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم:

قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ يعني: الغيب ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل نحن ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ يلتمس المعاش كما نمشي، فلا يجوز أن يمتاز عنَّا بالنبوة، وما قالوه فاسد؛ لأن أكله الطعام لكونه آدميًّا، ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له، وشيءٌ من ذلك لا ينافي النبوة ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ فيصدقه ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ داعيًا.

﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ أي: ينزل عليه كنز من السماء ينفقه، فلا يحتاج إلى التردد والتصرف في طلب المعاش ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ بستان ﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ مخدوعًا، وقيل: مصروفًا عن الحق.

﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ يعني: الأشباه، فقالوا: مسحور، محتاج، وغيره ﴿فَضَلُّواْ﴾ عن الحق ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ إلى الهدى، ومخرجًا عن الضلالة.

تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن

مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي قالوا، أو أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا، فقال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ بيوتًا مشيدة، والعرب تسمي كل بيت مشيّد قصرًا. عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب، جاءني مَلَكٌ إن حُجْزَتَهُ لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئتَ نبيًّا عبدًا، وإن شئت نبيًّا مَلِكًا، فنظرت إلى جبريل فأشار إليَّ أنْ ضَعْ نفسك، فقلت: نبيًّا عبدًا» قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ نارًا مستعرة.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال الكلبيُّ والسديُّ: من مسيرة عام، وقيل: إذا رأتهم زبانيتها ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾. غليانًا، كالغضبان إذا غَلَى صدره من الغضب ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتًا.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قال ابن عباس: تضيق عليهم كما يضيق الزجُّ في الرمح ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مصفَّدين، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ قال ابن عباس: ويلاً. وقال الضحاك: هلاكًا.

﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ قيل: أي: هلاكهم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، فادعوا أدعية كثيرة.

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ يعني: الذي ذكرته من صفة النار وأهلها ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ ثوابًا ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعًا.

---

(١) قال الهيثمي (٩/ ١٩): (رواه أبو يعلى وإسناده حسن)، وعبد الرزاق: (١٠/ ٤١٧).

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ مطلوبًا، وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا: «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ» [آل عمران: ١٩٤].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: من الملائكة والجن والإنس وعيسى وعزير، وقال عكرمة والضحاك والكلبي: يعني: الأصنام، ثم يخاطبهم ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ أخطأوا الطريق.

﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ﴾ نزَّهوا الله من أن يكون معه إله ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك، بل أنت ولينا من دونهم.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ في الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة ﴿حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ﴾ تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن، ﴿وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾ يعني: هلكى، غلب عليهم الشقاء والخذلان.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ هذا خطاب مع المشركين، أي: كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: الآلهة ﴿صَرْفًا﴾ يعني: صرف العذاب عن أنفسهم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يعني: ولا نصر أنفسهم، وقيل: ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم، ﴿وَمَن يَظْلِم﴾ يشرك ﴿مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، أنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية، يعني: ما أنا إلاَّ رسول، وما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وهم كانوا بشرًا يأكلون الطعام ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وقيل: معناه: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاَّ قيل لهم مثل هذا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله؟ والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ يعني: على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن صبر وبمن جزع، عن أبي هريرة يبلغ به النبي

ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فُضِّل عليه في المال والجسم فلينظرْ إلى مَنْ دونه في المال والجسم»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون البعث، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتخبرنا أن محمدًا صادق ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: تعظموا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بهذه المقالة ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قال مجاهد: «عتوا» طغوا في القول، وعتوُّهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ عند الموت، وقيل: في القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين، وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة، ويقولون للكفار: لا بشرى لكم، هكذا قال عطية، وقال بعضهم: معناه: أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين، أي: لا بشارة لهم بالجنة، كما يُبشَّرُ المؤمنون ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال عطاء عن ابن عباس: تقول الملائكة حرامًا محرَّمًا أن يدخل الجنة، إلاَّ من قال لا إله إلاَّ الله.

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ وعمدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: باطلاً لا ثواب له، فهم لم يعملوه لله عزَّ وجلَّ. و«الهباء المنثور»: ما يرى في الكوة، و«الهباء المنبث»: هو ما تطيره الرياح من سنابك الخيل.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: من هؤلاء المشركين المتكبرين ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ موضع قائلة، يعني: أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلاَّ قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة. قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقرأ «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» هكذا كان يقرأ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: عن الغمام، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلاَّ لبني إسرائيل في تيههم ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾، قال ابن عباس: تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تشقق السماء الثانية

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٢٢)، ومسلم برقم٢٩٦٣: (٤/ ٢٢٧٥).

فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: الملك الذي هو الملك الحق حقًّا ملك الرحمن يوم القيامة، قال ابن عباس: يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضي غيره ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدًا، فهذا الخطاب يدل على أنه لا يكون على المؤمنين عسيرًا.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أراد بالظالم: عقبةَ بن أبي معيط، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلاَّ صنع طعامًا فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله»، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله، فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقًا لأُبَيِّ بن خلف، فلما أخبر أُبَيّ بن خلف قال له: يا عقبة صبأتَ؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يأكل طعامي إلاَّ أن أشهد له، فاستحييتُ أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا إلاَّ أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال ﷺ: «لا ألقاك خارجًا من مكة إلاَّ علوتُ رأسك بالسيف» فقتل عقبة يوم بدر صبرًا، وأما أُبيّ بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أُحد بيده[1]. ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ليتني اتبعت محمدًا ﷺ، واتخذت معه سبيلاً إلى الهدى.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني: أُبيّ بن خلف.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن الإيمان والقرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ يعني: الذكر مع الرسول ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو كل متمرد عاتٍ من الإنس والجن، وكل من صدَّ عن سبيل الله فهو شيطان ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: تاركًا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب، وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله. عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الجليسِ الصالح والسوءِ، كحامل المِسْك ونافخ الكِيْر، فحاملُ المسك إمَّا أن يُحْذِيَك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيبة، ونافخُ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا تجد منه ريحًا خبيثة»[2]. وعن أبي سعيد ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تصاحب إلاَّ مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلاَّ تقي»[3].

---

(١) أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. «الدر المنثور»: (٦/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٦٦٠)، ومسلم برقم٢٦٢٨: (٤/ ٢٠٢٦).

(٣) أخرجه أبو داود: (٧/ ١٨٥)، وسكت عليه أبو داود والمنذري، والترمذي: (٧/ ٧٦)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه)، والدارمي في الأطعمة: (٢/ ١٠٣)، وصححه الحاكم: (٤/ ١٢٨).

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني: ويقول الرسول في ذلك اليوم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي: متروكًا، فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه.

فعزَّاه الله تعالى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا﴾ يعني: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ يعني: المشركين، قال مقاتل: يقول: لا يَكْبُرَنَّ عليك، فإن الأنبياء قبلك قد لَقِيَتْ هذا من قومهم، فاصبرْ لأمري كما صبروا، فإني ناصرك وهاديك ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فَعَلْتُ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ أي: أنزلناه متفرقًا ليقوى به قلبك فتعيه وتحفظه، فإن الكتب أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل الله القرآن على نبي أُمي لا يكتب ولا يقرأ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أُمور ففرقناه؛ ليكون أوعى لرسول الله ﷺ، وأيسر على العامل به ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ قال ابن عباس: بيَّنَّاه بيانًا.

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ﴾ يا محمد، يعني: هؤلاء المشركين ﴿بِمَثَلٍ﴾ يضربونه في إبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني: بما ترد به ما جاؤوا به من المثل وتبطله، فسمى ما يوردون من الشبه مثلاً، وسَمَّى ما يدفع به الشبه حقًّا ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ أي: بيانًا وتفصيلاً، ثم ذكرَ مآل هؤلاء المشركين فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ فيساقون ويجرون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: مكانة ومنزلة، ويقال: منزلاً ومصيرًا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أخطأُ طريقًا.

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ

ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿٣٩﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ مُعِينًا وظهيرًا.

﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: القبط ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ فيه إضمار، أي: فكذبوهما فدمرناهم ﴿تَدۡمِيرٗا﴾ أهلكناهم إهلاكًا.

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: الرسول، ومن كذب رسولاً واحدًا فقد كذب جميع الرسل، فلذلك ذكر بلفظ الجمع ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾ يعني: لمن بعدهم عبرة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ سوى ما حلَّ به من عاجل العذاب ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ أي: وأهلكنا عادًا وثمود ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ اختلفوا فيهم، قال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر قعودًا عليها، وأصحابَ مواشي، يعبدون الأصنام، فوجَّه الله إليهم شعيبًا يدعوهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم، وفي أذى شعيب ﷺ، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر، فخسف بهم وبديارهم ورباعهم، فهلكوا جميعًا، و«الرسُّ»: البئر، وكل ركية لم تُطْوَ بالحجارة والآجر فهو رسٌّ. وقال قتادة والكلبي: «الرس» بئر بفَلْج اليمامة، قتلوا نبيَّهم فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ أي: وأهلكنا قرونًا كثيرًا بين عاد وأصحاب الرس.

﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ أي: الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلاَّ بعد الإنذار ﴿وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا.

وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ يعني: الحجارة، وهي قريات قوم لوط، وكانت خمس قرى، فأهلك الله أربعًا منها، ونجت واحدة، وهي أصغرها، وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ إذا مروا بهم في أسفارهم فيعتبروا ويتذكروا؛ لأنَّ مدائن قوم لوط كانت على طريقهم عند ممرهم إلى الشام ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ﴾ لا يخافون ﴿نُشُورٗا﴾ بعثًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ يعني: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: مهزوءًا به،

نزلت في أبي جهل، كان إذا مرَّ بأصحابه على رسول الله ﷺ قال مستهزئًا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟!

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: قد قارب أن يضلنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من أخطأُ طريقًا.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى حجرًا أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخر فعبده، وقال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة الله وخالقه ثم هوى حجرًا فعبده ما حاله عندي؟ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا، يقول: أفأنت عليه كفيل تحفظه من اتباع هواه وعبادة ما يهوى من دون الله؟ أي: لست كذلك.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ما تقول، سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من الحجج والإعلام ﴿إِنْ هُمْ﴾ ما هم ﴿إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق، ولا يطيعون ربَّهم الذي خلقهم ورزقهم؛ ولأن الأنعام تسجد وتسبح لله وهؤلاء الكفار لا يفعلون.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ معناه: ألم ترَ إلى مَدِّ ربِّك الظلَّ، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدودًا؛ لأنه ظل لا شمس معه، إذ لم يكن معه شمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ دائمًا ثابتًا لا يزول ولا تذهبه الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: على الظل، ومعنى دلالتها عليه: أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ يعني: الظل ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ بالشمس التي تأتي عليه، و«القبض»: جمع المنبسط من الشيء، معناه: أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظلَّ جزءًا فجزءًا «قبضًا يسيرًا»، أي: خفيًّا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: سترًا تستترون به، ويريد: أن ظلمته تغشى كل شيء كاللباس الذي يشتمل على لابسه ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً لأبدانكم وقطعًا لعملكم، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: يقظة وزمانًا تنتشرون فيه لابتغاء الرزق، وتنتشرون لأشغالكم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ يعني: المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾

وهو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، والدليل عليه ما روينا أن النبي ﷺ قال في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[١]، وأراد به المطهِّر، فالماء مطهر؛ لأنه يطهر الإنسان من الحَدَث والنجاسة.

وذهب أصحاب الرأي إلى أن «الطهور» هو الطاهر، حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة، مثل الخل وماء الورد والمرق ونحوها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ولم يقل: «ميتة»؛ لأنه رجع به إلى الموضع والمكان ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: نسقي من ذلك الماء أنعامًا ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: بشرًا كثيرًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: المطر، مرة ببلدة ومرة ببلد آخر، قال ابن عباس: ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض، وقرأ هذه الآية[٢]. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا، وكفرانهم: هو أنهم إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا.

عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمَّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأمَّا من قال: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ رسولاً ينذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها، وحملناك ثقل النذارة جميعها، لتستوجب بصبرك عليه ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ٢٢)، وأبو داود: (١/ ٨٠)، والترمذي: (١/ ٢٢٤ - ٢٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي: (١/ ٥٠، ١٧٦)، وابن ماجه: (١/ ١٣٦، ١٣٧)، وصححه الحاكم: (١/ ١٤٠).

(٢) صححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٢٢)، ومسلم برقم٧١: (١/ ٨٣ - ٨٤).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ شديدًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلطهما، وأفاض أحدهما في الآخر، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، و«الفرات»: أعذب المياه ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا بقدرته؛ لئلا يختلط العذب بالملح، ولا الملح بالعذب ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: سترًا ممنوعًا، فلا يبغيان، ولا يفسد الملحُ العَذْبَ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ من النطفة ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: جعله ذا نسب وصهر، وقيل ـ وهو الصحيح ـ: النسب: من القرابة، والصهر: الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرم للنكاح، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: هؤلاء المشركين ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: معينًا للشيطان على ربه بالمعاصي، قال الزَّجاج: أي: يعاون الشيطان على معصية الله؛ لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: منذرًا.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الوحي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولوا: إنما يطلب محمدٌ أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتبعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجرًا، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: صلِّ له شكرًا على نعمه، وقيل: قل سبحان الله، والحمد لله ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ عالمًا، فيجازيهم بها.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ بالرحمن، قال الكلبي: يقول: فاسألِ الخبير بذلك، يعني: بما ذكرت من خلق السموات

والأرض والاستواء على العرش.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ما نعرف الرحمن إلاَّ رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب، كانوا يسمونه رحمن اليمامة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ يعني: زادهم قول القائل لهم: «اسجدوا للرحمن» ﴿نُفُورًا﴾ عن الدين والإيمان.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة: «البروج»: هي النجوم الكبار، سميت بروجًا لظهورها، وقال عطية العوفي: «بروجًا»، أي: قصورًا فيها الحرس، كما قال: «﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾» [النساء: ٧٨]. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمس، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ والقمر قد دخل في «السُّرج» على قراءة من قرأ بالجمع، غير أنه خصه بالذِّكر لنوع فضيلة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ اختلفوا فيها، قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني: خلفًا وعوضًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر. وقال ابن زيد وغيره: يعني: يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان في الضياء والظلمة والزيادة والنقصان. ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكر ويتعظ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ قال مجاهد: أي: شكر نعمة ربِّه عليه فيهما.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: أفاضل العباد، ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بالسكينة والوقار متواضعين غير أَشِرين ولا مرحين، وإن سُفه عليهم حلموا. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ يعني: السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ قال مجاهد: سدادًا من القول، وقال مقاتل بن حيان: قولاً يسلمون فيه من الإثم، وقال الحسن: إن جهل عليهم جاهل حلموا ولم يجهلوا، وليس المراد منه السلام المعروف.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ يبيتون لربهم بالليل في الصلاة ﴿سُجَّدًا﴾ على وجوههم ﴿وَقِيَٰمًا﴾ على أقدامهم، قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا. وعن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما

قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: مُلِحًّا دائمًا لازمًا غير مفارقٍ من عذب به من الكفار.

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: بئس موضع قرار وإقامة.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ واختلفوا في معنى الإسراف والإقتار، فقال بعضهم: «الإسراف»: النفقة في معصية الله وإن قلَّتْ، و«الإقتار»: منع حق الله تعالى، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج، وقال الحسن في هذه الآية: لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله. وقال قوم: «الإسراف»: مجاوزة الحد في الإنفاق، حتى يدخل في حد التبذير، و«الإقتار»: التقصير عمَّا لا بدَّ منه، وهذا معنى قول إبراهيم: لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ قصدًا وسطًا بين الإسراف والإقتار، حسنة بين السيئتين.

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، عن ابن عباس أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ»[٢].

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونزل: «﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾» [الزمر: ٥٣]. عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ لله نِدًّا وهو خلقك»، قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾»[٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: شيئًا من هذه الأفعال ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ قال ابن عباس

---

(١) أخرجه مسلم برقم٦٥٦: (١/ ٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٩٤)، ومسلم برقم١٢٢: (١/ ١١٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٩٢).

ـ رضي الله عنهما ـ: إنما يريد جزاء الإثم، وقال أبو عبيدة: «الأثام»: العقوبة.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ قال قتادة: إلاَّ من تاب من ذنبه، وآمن بربه، وعمل عملاً صالحًا فيما بينه وبين ربه. عن ابن عباسٍ قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنتين: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...» الآية، ثم نزلت: «إِلَّا مَن تَابَ»، فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط كفرحه بها، وفرحه بـ: «إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١ - ٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدي والضحاك: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا. وقال قوم: يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسناتٍ يوم القيامة، وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول، يدل عليه حديث أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: ربِّ إنَّ لي ذنوبًا ما أراها هاهنا»، قال أبو ذر: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذه[1].

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ قال بعض أهل العلم: هذا في التوبة عن غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا، يعني: من تاب من الشرك وعمل صالحًا، أي: أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يَزْنِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يعود إليه بعد الموت ﴿مَتَابٗا﴾ حسنًا يفضل به على غيره ممن قتل وزنى، فالتوبة الأولى وهو قوله: «وَمَن تَابَ» رجوعٌ عن الشرك،

(١) أخرجه مسلم برقم١٩٠: (١/ ١٧٧).

والثاني رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال الضحاك وأكثر المفسرين: يعني: الشرك، وقال علي بن طلحة: يعني: شهادة الزور، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، ويطوف به في السوق. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا. قال الحسن والكلبي: «اللغو»: المعاصي كلها، يعني: إذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كرامًا مسرعين معرضين.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ﴾ لم يقعوا ولم يسقطوا ﴿عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ كأنهم صم عمي، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ أي: أولادًا أبرارًا أتقياء، يقولون: اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك، قال القرظي: ليس شيء أقرَّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزَّ وجلَّ، وقاله الحسن. ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أئمة يقتدون في الخير بنا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ﴾ أي: يثابون ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ أي: الدرجة الرفيعة في الجنة، ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على أمر الله تعالى وطاعته، وقيل: على أذى المشركين، وقيل: عن الشهوات ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ﴾ أي: مُلْكًا، وقيل: بقاءً دائمًا ﴿وَسَلَٰمًا﴾ أي: يسلم بعضهم على بعض.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ أي: موضع قرار وإقامة.

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ قال مجاهد وابن زيد: أي: ما يصنع وما يفعل بكم، ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ إيَّاه، وقيل: لولا إيمانكم، وقيل: لولا عبادتكم.

وقيل: «﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾»، يقول: ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلاَّ أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم. ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ أيها الكافرون، يخاطب أهل مكة، يعني: إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوه ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ هذا تهديده لهم، أي: يكون تكذيبكم لزامًا، قال ابن عباس: موتًا، وقال أبو عبيدة: هلاكًا.

واختلفوا فيه، فقال قوم: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وهو قول عبد الله بن مسعود وأُبيِّ بن كعب ومجاهد ومقاتل، يعني: أنهم قتلوا يوم بدر، واتصل بهم عذاب الآخرة لازمًا لهم. وعن مسروق قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدُّخَان، والقمر، والرُّوم والبَطْشَةُ، واللِّزام»[1]، «فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا». وقيل: اللزام هو عذاب الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٩٦)، ومسلم برقم٢٧٩٨: (٤/ ٢١٥٧).

سورة الشعراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ عن ابن عباس قال: «طسم» عجزت العلماء عن تفسيرها، وروى علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أنه قَسَمٌ، وهو من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد: اسم للسورة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن لم يؤمنوا، وذلك حين كذبه أهل مكة فشقَّ عليه ذلك، وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ قال قتادة: لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها، فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله، وقال ابن جريج: معناه: لو شاء الله لأراهم أمرًا من أمره، لا يعمل أحد منهم بعده معصية.

وقوله عزَّ وجلَّ: «﴿خَٰضِعِينَ﴾»، ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق، وفيه أقاويل: أحدها: أراد أصحاب الأعناق، فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم؛ لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، فجعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال.

وقيل: أراد: فظلوا خاضعين فعبَّر بالعنق عن جميع البدن.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ وعظ وتذكير ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ أي: محدث إنزاله، فهو محدث في التنزيل، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: عن الإيمان به.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي: فسوف يأتيهم ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ أخبار وعواقب ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف وضرب ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ

فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَآيَةً﴾ دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدِّقين، أي: سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ العزيز بالنقمة من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة بأوليائه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ واذكر يا محمد، إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

﴿قَالَ﴾ يعني: موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إيَّاي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ قال: هذا للعقدة التي كانت على لسانه، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ ليؤازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ أي: دعوى ذنب، وهو قتله القبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: يقتلونني به.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لن يقتلوك ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ سامعون ما يقولون.

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ولم يقل: رسولا رب العالمين؛ لأنه أراد الرسالة، أي: أنا ذُو رسالة رب العالمين.

﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ أي: بأن أُرسلْ ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفًا، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك.

وفي القصة: أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصا، والمِكْتَلُ معلَّق في رأس العصا، وفيه زاده، فدخل دار نفسه وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون، وأرسلني إليك حتى تدعوَ فرعون إلى الله، فخرجتْ أُمهما وصاحت وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك، فلو ذهبتما إليه قتلكما، فلم يمتنع موسى لقولها، وذهبا إلى باب فرعون ليلاً، ودقَّا الباب، ففزع البوَّابون

وقالوا: مَن بالباب؟

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ صبيًا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وهو ثلاثون سنة.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الحسن والسدي: يعني: وأنت من الكافرين بإلهك وكنت على ديننا هذا الذي تعيبه.

وقال أكثر المفسرين: معنى قوله: «وأنت من الكافرين»، أي: من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي، يقول: ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منَّا نَفْسًا، وكفرت بنعمتنا، وهذا رواية العوفي عن ابن عباس، وقال: إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: فعلت ما فعلت حينئذ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الجاهلين، أي: لم يأتني من الله شيء، وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ إلى مدين ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ يعني: النبوة، وقال مقاتل: يعني: العلم والفهم ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ اختلفوا في تأويلها، فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار.

فمن قال هو إقرار، قال عدَّها موسى نعمة منه عليه حيث ربَّاه، ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل.

ومن قال: هو إنكار، قال قوله: «وتلك نعمة» هو على طريق الاستفهام، أي: أوَتلك نعمة؟ حذف ألف الاستفهام، كقوله: «فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ» [الأنبياء: ٣٤]؟

أي: أتتركني، يقول: تَمُنُّ عليَّ أن ربَّيتني، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟

أو يريد: كيف تمنّ عليَّ بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه ذُلّ، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إليَّ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إليَّ؟ يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه بـ «ما»، وهو سؤال عن جنس الشيء، والله منزَّه عن الجنسية، فأجابه موسى عليه السلام بذكر أفعاله التي يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أنه خالقهما، قال أهل المعاني: أي: كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها فأيقنوا أنَّ إله الخلق هو الله عزَّ وجلَّ، فلما قال موسى ذلك، تحير فرعون في جواب موسى.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه، قال ابن عباس: كانوا خمس مائة رجل عليهم الأسورة، قال لهم فرعون استبعادًا لقول موسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم، فزادهم موسى في البيان ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قَالَ﴾ يعني: فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعون - حين لزمته الحجة وانقطع عن الجواب - تكبرًا عن الحق: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ من المحبوسين، قال الكلبي: كان سجنه أشد من القتل؛ لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فردًا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئًا، يهوي به في الأرض.

﴿قَالَ﴾ له موسى حين توعده بالسجن: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أي: وإن جئتك ﴿بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ بآية مبينة، ومعنى الآية: أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بينة؟ وإنما قال ذلك موسى؛ لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

﴿قَالَ﴾ له فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ فإنا لن نسجنك حينئذ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ فقال: وهل غيرها؟ ﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﴿يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ وهو يوم الزينة، وروي عن ابن عباس قال: وافق ذلك اليوم يوم السبت، في أول يوم من السنة، وهو يوم النيروز.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة؟

﴿لَعَلَّنَا﴾ لكي ﴿نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ من أهل زماننا.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يتبعكم فرعون وقومه؛ ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يحشرون الناس، يعني: الشُّرَط ليجمعوا السحرة، وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ عصابة ﴿قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها

شراذم، قال أهل التفسير: كانت الشرذمة الذين قلّلهم فرعون ستمائة ألف. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ يقول: أغضبونا بمخالفتهم ديننا وقتلهم أبكارن وذهابهم بأموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منَّا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾. قال أهل التفسير: حاذرون، أي: مُؤْدُون ومقوون، أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾ وفي القصة: البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية. ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني: الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: مجلس حسن.

قال المفسرون: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما وصفنا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ بهلاكهم ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك أن الله تعالى ردَّ بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لحقوهم في وقت إشراق الشمس.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم.

﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بوعد الله إيَّاه: ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ يدلني على طريق النجاة.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فضربه «فانفلق» فانشقَّ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ قطعة من الماء ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ يعني: وقرَّبنا ﴿ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ يعني: قوم فرعون، يقول: قدمناهم إلى البحر، وقربناهم إلى الهلاك، وقال أبو عبيدة: «وأزلفنا»: جمعنا، ومنه ليلة المزدلفة، أي: ليلة الجَمْع، وفي القصة أن جبريل كان بين بني إسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بني إسرائيل، ويقولون: ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فرعون وقومه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: من أهل مصر. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ العزيز في الانتقام من أعدائه، الريم بالمؤمنين حين أنجاهم.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أيَّ شيءٍ تعبدن؟ ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي: نقيم على عبادتها، قال بعض أهل العلم: إنما قال: «فنظل»؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، يقال: ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال ابن عباس: يسمعون لكم.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ قيل: بالرزق ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها.

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ معناه: إنها لا تسمع قولاً، ولا تجلب نفعًا، ولا تدفع ضرًّا، لكن اقتدينا بآبائنا، فيه إبطال التقليد في الدين.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ الأولون.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ أي: أعداء لي. وقيل: «فإنهم عدو لي» على معنى: إني لا أتولاهم ولا ألب من جهتهم نفعًا، كما لا يُتَوَلَّى العدو، ولا يُطْلب من جهته النفع. ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اختلفوا في هذا الاستثناء، قيل: هو استثناء منقطع، كأنه قال: فإنهم عدو لي لكن رب العالمين وليبي، وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم: كل ما تعبدون أعدائي إلاَّ ربَّ العالمين، ثم وصف معبوده فقال:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: يرشدني إلى طريق النجاة. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي: يرزقني ويغذوني بالطعام والشراب، فهو رازقي ومِنْ عنده رزقي. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله من الله، استعمالاً لحسن الأدب ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: يبرئني من المرض.

وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ أدخل «ثم» هاهنا للتراخي، أي: يميتني في الدنيا ويحييني في

الآخرة. ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ أي: أرجو ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: خطاياي يوم الحساب، قال مجاهد: هو قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقوله لسارة: «هذه أُختي»، وزاد الحسن وقوله للكواكب: «هذا ربي».

عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله: ابنُ جدعان، كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين»[1].

وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، وإخبار أنه لا يصلح للإلهية من لا يفعل هذه الأفعال.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه، وقال مقاتل: الفهم والعلم، وقال الكلبي: النبوة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ بمن قبلي من النبيين في المنزلة والدرجة.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ثناء حسنًا، وذكرًا جميلاً، وقبولاً عامًّا في الأُمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولَّونه ويثنون عليه.

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: ممن تعطيه جنة النعيم ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ وقال هذا قبل أنه يتبين له أنه عدو لله، كما سبق ذكره في سورة التوبة.

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ لا تفضحني ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: خالص من الشرك والشك، فأمَّا الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسرين، قال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قربت ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت ﴿الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال ابن عباس: جمعوا، وقال مجاهد: دُهوِرُوا، وقال مقاتل: قذفوا. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس، ويقال: ذريته.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢١٤: (١/ ١٩٦).

﴿قَالُوا﴾ أي: قال الغاوون للشياطين والمعبودين ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضًا ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نعدلكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنعبدكم.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ أي: ما دعانا إلى الضلال ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ قال مقاتل: يعني: الشياطين، وقال الكلبي: إلاَّ أوّلونا الذين اقتدينا بهم، وقال أبو العالية وعكرمة: يعني: إبليس وابن آدم الأول، وهو قابيل؛ لأنه أول من سنَّ القتل، وأنواع المعاصي ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: من يشفع لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: قريب يشفع لنا، يقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، والصديق: هو الصادق في المودة بشرط الدين. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ العزيز الذي لا يغالب، فالله عزيزٌ، وهو في وصف عزته رحيم.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أرأيت قوله: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ»، و«كذبت عاد المرسلين»، و«كذبت ثمود المرسلين»، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إن الآخر جاء بما جاء الأول، فإذا كذبوا واحدًا فقد كذبوا الرسل أجمعين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ على الوحي. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ عن ابن عباس قال: الصاغة، وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة. ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله، ولي منهم ظاهرُ أمرهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ ما حسابهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ قال مقاتلوالكلبي: من المقتولين بالحجارة، وقال الضحاك: من المشتومين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ﴾ فاحكم ﴿بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ حكمًا ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: أغرقنا بعد إنجاء نوح وأهله من بقي من قومه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ يعني: في النسب لا في الدين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ على الرسالة، قال الكلبي: أمين فيكم قبل الرسالة، فكيف تتهموني اليوم؟

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ قال الوالبي عن ابن عباس: أي: بكل شرف، وقال الضحاك ومقاتل والكلبي: بكل طريق، ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بمَن مرَّ بالطريق، والمعنى: أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قال ابن عاس: أبنية، وقال مجاهد: قصورًا مشيدة، وعن الكلبي: أنها الحصون، وقال قتادة: مآخذ الماء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كأنكم تبقون فيها خالدين، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم وسطوتم ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلاً بالسيف وضربًا بالسوط.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: أعطاكم من الخير ما تعلون، ثم ذكر ما أعطاهم فقال:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: بساتين وأنهار.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: إن عصيتموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ أي: مُسْتَوٍ عندنا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد، قال الكلبي: نهيتنا أم لم تكن من النَّاهين لنا.

﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الأولين من قبلنا، وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ﴾ أي: في الدنيا ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العذاب.

﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها، يريد: ما يطلع منها من الثمر ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف، ومنه: هضيم الكشح، إذا كان لطيفًا، وروى عطية عنه: يانع نضيج، وقال عكرمة: هو اللَّيِّن. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ فارهين، أي: حاذقين بنحتها، من قولهم: فره الرجل فراهة فهو فاره.

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ قال ابن عباس: المشركين، وقال مقاتل: هم التسعة الذين عقروا الناقة. ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ لا يطيعون الله فيما أمرهم به.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قال مجاهد وقتادة: من المسحورين المخدوعين، أي: ممن سُحِر مرة بعد مرة، بل: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ على صحة ما تقول ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك رسول الله إلينا. ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾ حظ ونصيب من الماء ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بعقرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ على عقرها حين رأوا العذاب.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ قال مقاتل: يعني: جماع الرجال ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: من بني آدم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ قال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ معتدون، مجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ من قريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ المبغضين، ثم دعا فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ من العمل الخبيث.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ وهي امرأة لوط، بقِيَتْ في

العذاب والهلاك. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: أهلكناهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ قال وهب ب منبه: الكبريت والنار.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: الغيضة من الشجر الملتف. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين، قال أخاهم شعيبًا؛ لأنه كان منهم، وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم - فيما حكى الله عنهم - على صيغة واحدة؛ لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخليقة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الأمم المتقدمين.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إليَّ وما عليَّ إلاَّ الدعوة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وذلك أنه أخذهم حرٌّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حرًّا فخرجوا، فأظلَّتهم سحابة، وهي الظلة، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: نزل جبريل بالقرآن. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، حتى وعيته ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ المخوِّفين. ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ قال ابن عباس: بلسان قريش ليفهموا ما فيه. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: ذِكْرُ إنزال القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ أولم يكن لهؤلاء المنكرين علم بني إسرائيل آية، أي: علامة ودلالة على نبوة محمد ﷺ؛ لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل، كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه، قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا نجد في التوراة نعتَه وصفته، فكان ذلك آية على صدقه.

قوله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ يعني: يعلم محمدًا ﷺ ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال عطية: كانوا خمسة: عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع الأعجمي، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية، وإن كان عربيًّا في النسب، والعجمي: منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحًا، ومعنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان. ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ بغير لغة العرب ﴿مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وقالوا: ما نفقه قولك.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أدخلنا الشرك والتكذيب ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يعني: عند الموت. ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ يعني: العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به في الدنيا.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: لنؤمن ونصدق، يتمنون الرجعة والنَّظِرَة، قال مقاتل: لما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب، قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب؟ متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ كثيرة في الدنيا، يعني: كفار مكة، ولم نهلكهم. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ يعني: بالعذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ به في تلك السنين، والمعنى: أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا، فإذا أتاهم العذاب لم يُغنِ عنهم طول التمتع شيئًا، ويكون كأنَّهم لم يكونوا في نعيم قط.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ رسل ينذرونهم. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ محلها نصب، أي: ينذرونهم تذكرة ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم، حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ وذلك أن المشركين كانوا يقولون: إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد ﷺ، فقال جلَّ ذكره: «وما تنزلت به»، أي: بالقرآن الشياطين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أن ينزلوا بالقرآن ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ أي: عن استراق السمع من السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: محجوبون بالشهب، مرجومون.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ قال اب عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يحذِّر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليَّ، ولو اتخذت إلهًا غيري لعذبتك.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزلت: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ» خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتُكم إنْ أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج من صفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلاَّ لهذا، ثم قام، فنزلت: «تبتْ يا أبي لهب وقد تبّ» هكذا قرأ الأعمش يومئذ[1].

عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قام

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣٧)، وأخرجه مسلم برقم٢٠٨: (١/ ١٩٣ - ١٩٤).

رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: «﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾»، فقال: «يا معشر قريش، أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر وعبادة غير الله. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليكفيك كيد الأعداء. ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى صلاتك، عن أكثر المفسرين، وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت. ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك، يراك حين تقوم وحدك للصلاة، ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة.

وقال مجاهد: يرى تقلب بصرك في المصلين، فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي هاهنا، فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري»(٢).

وقال الحسن: «﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾»، أي: تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ هذا جواب قولهم: تنزل عليه شيطان، ثم بيَّن فقال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ أي: تتنزل ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر، قال قتادة: هم الكَهَنَةُ، يسترق الجنُّ السمعَ ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس، وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: يستمعون من الملائكة مسترقين، فيلقون لى الكهنة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ لأنهم يخلطون به كذبًا كثيرًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾ قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وذكر مقاتل أسماءهم، فقال: منهم عبد الله بن الزبعري السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومشافع بن عبد مناف، وأبو عزة بن عبد الله الجمحي، وأُمية بن أبي

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٠١ - ٥٠٢)، ومسلم: (١/ ١٩٢ - ١٩٣).
(٢) أخرجه البخاري: (١/ ٥١٤)، ومسلم برقم٤٢٤: (١/ ٣١٩).

الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب وبالباطل، وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد، وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه، ويروون عنهم ذلك.

قوله: «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾»، هم الرواة الذين يروون هجاء النبي ﷺ والمسلمين، وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام ﴿يَهِيمُونَ﴾ جائرون، وعن طريق الحق حائدون.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية: في كل لغو يخوضون، وقال مجاهد: في كل فنٍّ يفتنون، وقال قتادة: يمدحون بالباطل.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يكذبون في شعرهم، يقولون: فعلنا وفعلنا، وهم كذبة. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لأن يمتلىءَ جوفُ أحدِكم قَيْحًا، خيرٌ له من أن يمتلىءَ شعرًا»(١).

ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيبون شعراء الجاهلية، ويهجون شعراء الكفار، وينافِحُون عن النبي ﷺ وأصحابه، منهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل! فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّما ترمونهم به نَضْحَ النَّبل»(٢).

عن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بَنِي الكفَّارِ عن سَبيلِه ... اليومَ نضربُكم على تَنْزِيلِه

ضربًا يُزيل الهَامَ عن مَقِيْلِه ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِه

فقال له عمر: يا ابنَ رواحةَ بين يديْ رسول الله ﷺ وفي حَرَم الله تقول الشعر؟ فقال النبي ﷺ: «خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نَضْحِ النَّبْلِ»(٣).

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لحسان: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك»(٤).

قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ: الشعر كلام، فمنه حسنٌ، ومنه قبيحٌ، فخذ الحسنَ ودع القبيح.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٥٤٨)، ومسلم برقم٢٢٥٧: (٤/ ١٧٦٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق: (١١/ ٢٦٣)، وصححه ابن حبان: ص٤٩٤ من «موارد الظمآن».

(٣) أخرجه الترمذي: (٨/ ١٣٨ - ١٤٠)، وقال: (هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه، وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث أيضًا عن معمر عن الزهري في غير هذا الحديث أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث؛ لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك).

(٤) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٠٤)، ومسلم برقم٢٤٨٦: (٤/ ١٩٣٣).

﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال مقاتل: انتصروا من المشركين؛ لأنهم بدؤوا بالهجاء.

ثم أوعد شعراء المشركين فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي: مرجعٍ يرجعون بعد الموت، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إلى جهنم والسعير. والله أعلم.

سورة النمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾

﴿طسٓ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: هذه آيات القرآن ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وآيات كتاب مبين.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ يعني: هو هدى من الضلالة، وبشرى للمؤمنين المصدِّقين به بالجنة. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة حتى رأوها حسنة ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترددون فيها متحيرين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ شدة العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ببدر ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: تُؤتى القرآن وتلقن ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: وحيًا من عند الله الحكيم العليم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال موسى لأهله في مسيره من مدين إلى مصر: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت نارًا ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: امكثوا مكانكم، سآتيكم بخبر عن الطريق، وكان قد ترك الطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وهو العود الذي في أحد طرفيه نار، وليس في الطرف الآخر نار، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون من البرد، وكان ذلك في شدة الشتاء.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بورك على من في النار أو في مَنْ في النار، «وَمَنْ حَوْلَهَا» وهم الملائكة الذين حول النار، ومعناه: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله عزَّ وجلَّ لموسى بالبركة، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور، ذكر بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارًا. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن في قوله: «بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ»، يعني: قُدس من في النار، وهو الله، عنى به نفسه، على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها، كما روي: أنه مكتوب في التوراة: «جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران»، فمجيئه من سيناء: بعثة موسى منها، ومن ساعير بعثة المسيح منها، ومن جبال فاران بعثة المصطفى منها، وفاران مكة.

قيل: كان ذلك نوره عزَّ وجلَّ، قال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها، والنار إحدى حجب الله تعالى، كما جاء في الحديث: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]، ثم نزَّه الله نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم تعرف إلى موسى بصفاته، فقال:

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي: المعبود أنا، ثم أرى موسى آية على قدرته فقال:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هرب من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، وقال قتادة: ولم يلتفت، فقال الله عزَّ وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يريد: إذا آمنتهم لا يخافون، أما الخوف الذي هو شرط الإيمان فلا يفارقهم، قال النبي ﷺ: «أنا أخشاكم لله»[2].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ قال ابن جريج: قال الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٩: (١/ ١٦١).

(٢) رواه البخاري: (٩/ ١٠٤)، ومسلم برقم١١٠٨: (٢/ ٧٧٩).

لموسى: إنما أخفتُك لقتلِك النفس، وقال: معنى الآية: لا يخيف الله الأنبياء إلاَّ بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحًا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله: «إِلَّا مَن ظَلَمَ»، ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الناس كافة، وفي الآية متروك استُغني عن ذكره بدلالة الكلام عليه، تقديره: فمن ظَلَمَ ثم بدَّل حسنًا بعد سوء فإني غفور رحيم.

ثم أراه الله آية أخرى فقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ والجيب حيث جيب من القميص، أي: قطع، قال أهل التفسير: كانت عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تبرق مثل البرق، فذلك قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ﴾ من غير بَرَصٍ ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ يقول هذه آية من تسع آيات أنت مرسل بهنَّ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ بيِّنة واضحة يبصر بها ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي: أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: علموا أنها من عند الله، قوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ أي: شركًا وتكبرًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ﴾ أي: علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابنًا، وأُعطي سليمان ما أُعطي داود من الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكًا من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدًا من سليمان، وكان سليمان شاكرًا لنعم الله تعالى. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ سمَّى صوت الطير منطقًا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس.

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ﴾ يُوتى الأنبياء والملوك، قال ابن عباس: من أمر الدنيا والآخرة، وقال مقاتل: يعني: النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الزيادة الظاهرة على ما أُعطي غيرنا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ في مسير له ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فهم يكفون، قال قتادة: كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولاها على أخراها؛ لئلا يتقدموا في المسير، والوازع الحابس.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ قال قتادة ومقاتل: هو أرض بالشام، وقيل: واد كان يسكنه الجن، وأولئك النمل مراكبهم، وقال الشعبي: كانت تلك النملة ذات جناحين، وقيل: كانت نملة عرجاء فنادت: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ ولم تقل: ادخلن؛ لأنه لما جعل لهم قولاً كالآدميين خوطبوا بخطاب الآدميين ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسرنَّكم ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ والحطم: الكسر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فسمع سليمان قولها، وكان لا يتكلم خلق إلاَّ حملت الريح ذلك فألقته في مسامع سليمان.

ومعنى الآية: أنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم ولم يشعروا بكم. ويروى أن سليمان لما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخل النمل بيوتهم.

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقوله: «ضَاحِكًا»، أي: متبسمًا، قيل: كان أوله التبسم وآخره الضحك.

عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا قط ضاحكًا حتى أرى منه لَهَوَاتِه، إنما كان يتبسم(١). وعن عبد الله بن المغيرة، عن عبد الله بن الحارث بن جَزْء قال: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ(٢).

قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبًا؛ لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك، ثم حمد سليمان ربَّه على ما أنعم عليه. ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم، قال ابن عباس: يريد:

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/٥٧٨)، ومسلم برقم٨٩٩: (٢/٦١٦ - ٦١٧).
(٢) أخرجه الترمذي: (١٠/ ١٢٤)، وقال: (هذا حديث غريب).

مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ أي: طلبها وبحث عنها، ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ أي: ما للهدهد لا أراه؟ وروي عن ابن عباس: أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض، كما يرى في الزجاجة، ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء. فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا، فتفقد الهدهد ليدل على الماء، فقال: ما لي لا أرى الهدهد، على تقدير أنه مع جنوده، وهو لا يراه، ثم أدركه الشك في غيبته، فقال: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ يعني: أكان من الغائبين؟ ثم أوعده على غيبته، فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ واختلفوا في العذاب الذي أوعده به، ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ لأقطعن حلقه ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ بحجة بينة في غيبته، وعذر ظاهر.

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أي: غير طويل ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، يقول: علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ﴾ بخبر ﴿يَقِينٍ﴾ فقال سليمان: وما ذاك؟ قال:

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل، من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملكًا عظيم الشأن.

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ سرير ضخم كان مضروبًا من الذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ﴾ بمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم؛ لئلا يسجدوا ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾

أي: الخفي المخبَّأ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما خبأت. قال أكثر المفسرين: خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾ أي: هو المستحقُّ للعبادة والسجود لا غيره، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيمًا فهو صغير حقير في جنب عرشه عزَّ وجلَّ، تم هاهنا كلام الهدد، فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؟ فدلَّهم الهدهد على الماء، فاحتفروا الركايا، وروي الناس والدواب، ثم كتب سليمان كتابًا: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وأْتوني مسلمين، قال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه، وقال قتادة: وكذلك الأنبياء كانت تكتب جُمَلاً لا يطيلون ولا يكثرون، فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، فقال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تَنَحَّ عنهم فكنْ قريبًا منهم ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يردُّون من الجواب، فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس، وكانت بأرض يقال لها «مَأْرِب» من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها في قصرها وقد غلَّقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلَّقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة.

﴿قَالَتْ﴾ لهم بلقيس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال عطاء والضحاك: سمته كريمًا؛ لأنه كان مختومًا، ورُوي عن ابن عباس: «كريم»، أي: شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمته كريمًا؛ لأنه كان مصدرًا ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بينت ممَّن الكتاب فقالت:

إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ (٣٥)

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ وبينت المكتوب فقالت: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ قال ابن عباس: أي: لا تتكبروا عليَّ، معناه: لا تمتنعوا من الإجابة، فإنَّ ترك الإجابة من العلو والتكبر ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين طائعين.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أشيروا عليَّ فيما عرض لي، وأجيبوني فيما أشاوركم فيه ﴿مَا

كُنتُ قَاطِعَةً﴾ قاضيةً وفاصلةً ﴿أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: تحضرون.

﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عند الحرب، قال مقاتل: أرادوا بالقوة كثْرَة العدد، وبالبأس الشديد الشجاعةَ، وهذا تعريض منهم بالقتال إنْ أمرتهم بذلك، ثم قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أيتها الملكة في القتال وتركه ﴿فَانظُرِي﴾ من الرأي ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ تجدينا لأمرك مطيعين.

﴿قَالَتْ﴾ بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خرَّبوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها، كي يستقيم لهم الأمر، تحذِّرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وتناهى الخبر عنها هاهنا، فصدَّق الله قولها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: كما قالت هي: يفعلون.

ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ والهدية هي: العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلة إليهم ـ أي: إلى سليمان وقومه ـ بهدية أُصانِعُه بها عن ملكي وأختبره بها أملِكٌ هو أم نبي؟ فإن يكن ملكًا قَبِل الهدية وانصرف، وإن كان نبيًّا لم يقبل الهدية، ولم يُرْضِه منَّا إلاَّ أن نتبعه على دينه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ أعطاني الله من النبوة والدين والحكمة والملك ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل ﴿مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها، تفرحون بإهداء بعضكم لبعض فأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي؛ لأن الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحدًا، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بالهدية ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾ لا طاقة لهم ﴿بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أي: من أرضهم وبلادهم: وهي سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ذليلون إن لم يأتوني مسلمين.

قال وهب وغيره من أهل الكتب: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت: قد

عرفت - والله - ما هذا بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك.

قال ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مهيبًا لا يُبْتَدَأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يومًا فجلس على سرير ملكه، فرأى رهجًا قريبًا منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان، وكان على مسيرة فرسخ من سليمان. ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مؤمنين، وقال ابن عباس: طائعين.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهو المارد القوي، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تقضي فيه، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر، فقال سليمان: أريد أسرع من هذا.

فـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واختلفوا فيه فقال بعضهم: هو جبريل، وقيل: هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام.

وقال أكثر المفسرين: هو آصف بن برخيا، وكان صدِّيقًا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى. قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله علمًا وفهمًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال سليمان: هات، قال: أنت النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك، فإن دعوتَ الله وطلبت إليه كان عندك، فقال: صدقت، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت.

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى، وهو أن يصل إليك من كان منك على مدِّ بصرك، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ يعني: رأى سليمان العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ محمولاً إليه من مأرب إلى الشام في قدرِ ارْتدادِ الطرف ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ نعمته ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فلا أشكرها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: يعود نفع شكره إليه، وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها؛ لأن الشكر قَيْدُ النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضال على من يكفر نعمه.

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ يقول: غيِّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قال قتادة ومقاتل: هو أن يزاد فيه وينقص، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى عرشها فتعرفه ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ﴾ الجاهلين

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ قال مقاتل: عرفته لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر.

فقال ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدية والرسل ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ من قبل الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين طائعين لأمر سليمان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: منعها ما كانت تعبد من دون الله، وهو الشمس، أن تعبد الله، أي: صدتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ هذا استئناف، أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلاَّ عبادة الشمس.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ﴾ الآية، وذلك أن سليمان أراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها، لَمَّا قالت الشياطين: إن رجليها كحافر الحمار، وهي شَعْراء الساقين، أمر الشياطين فبنوا له صرحًا، أي: قصرًا من زجاج، وقيل: بيتًا من زجاج كأنه الماء بياضًا. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ وهي معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ لتخوضه إلى سليمان، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدمًا وساقًا إلاَّ أنَّها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنه وناداها، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس مستو ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ وليس بماء، ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام، وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت و﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بالكفر، وقال مقاتل: لما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من الله فقالت: ربِّ إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلصت له التوحيد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ في الدين، قال مقاتل: واختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف: «قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ

﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾»، إلى قوله: «﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾» [الأعراف: ٧٥ - ٧٧].

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ العافية والرحمة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة من كفركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾ أي: تشاءمنا، ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ قيل: إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم، وقيل: لأنه أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا، فقالوا: أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره، وهو مكتوب عليكم. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال ابن عباس: تختبرون بالخير والشر.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: مدينة ثمود، وهي الحِجْر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ من أبناء أشرافهم ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة، وهم غواة قوم صالح، ورأسهم قدار بن سالف، وهو الذي تولى عقرها، كانوا يعملون بالمعاصي.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ تحالفوا، يقول بعضهم لبعض، أي: احلفوا بالله أيها القوم، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: لنقتلنَّه بيَاتًا، أي: ليلاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: وقومه الذين أسلموا معه، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي؛ إهلاكهم، ولا ندري مَنْ قتله، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في قولنا: ما شهدنا ذلك.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ غدروا غدرًا حين قصدوا تبييت صالح والفتك به ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ جزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ أي: أهلكناهم التسعة. واختلفوا في كيفية هلاكهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون

الحجارة ولا يرون الملائكة، فقتلهم. ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكهم الله بالصيحة.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ نصب على الحال، أي: خالية ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: بظلمهم وكفرهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ لعبرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يقال: كان الناجون منهم أربعة آلاف.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي الفعلة القبيحة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: تعلمون أنها فاحشة. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ من أدبار الرجال.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾ وهو الحجارة ﴿فَسَآءَ﴾ فبئس ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية، وقيل: على جميع نعمه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ﴾ قال مقاتل: هم الأنبياء والمرسلون.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: آلله خير لمن عبده، أم الأصنام لمن عبدها؟ والمعنى: أن الله نجّى مَنْ عَبَدَهُ مِنَ الهلاك، والأصنام لم تُغْنِ شيئًا عن عابديها عند نزول العذاب.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معناه: آلهتكم خيرٌ أم الذي خلق السموات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ بساتين جمع حديقة، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن، والبهجة: الحُسن يبتهج به من يراه ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾ أي: ما ينبغي لكم؛ لأنكم لا تقدرون عليها ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ استفهام على طريق الإنكار، أي: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه؟ بل ليس معه إله ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾ يعني: كفار مكة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يشركون.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ لا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ تطرد بالمياه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ مانعًا؛ لئلا يختلط أحدهما بالآخر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد ربهم وسلطانه.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المكروب المجهود ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الضر ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ سكانها، يهلك قرنًا وينشىء آخر، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: قدام المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من السماء المطر، ومن الأرض النبات ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على قولكم أنَّ مع الله إلهًا آخر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نزلت في المشركين حيث سألوا النبي ﷺ عن وقت قيام الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ قال مجاهد: يدرك علمهم ﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ يعني: هم اليوم في شك من الساعة.

وجملة القول فيه: أن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بل هم اليوم في الدنيا في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ جمع عم، وهو الأعمى القلب، قال الكلبي: يقول: هم جهلة بها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني: مشركي مكة ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من قبورنا أحياء. ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: هذا البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل محمد، وليس

ذلك بشيء ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم إياك، وإعراضهم عنك ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ﴾ أي: دنا وقرب ﴿لَكُم﴾ وقيل: تَبعَ لكم، والمعنى: ردفكم، ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب فحلَّ بهم ذلك يوم بدر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال مقاتل: على أهل مكة، حيث لم يعجل عليهم العذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ ما تخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ أي: جملة غائبة من: مكتوم سرٍّ، وخفيِّ أمرٍ، وشيءٍ غائب ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يبيِّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى﴾ يفصل ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين المختلفين في الدين يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ الحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع، فلا يرد له أمر ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ البيِّن.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن

﴿كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: الكفار ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ معرضين. فإن قيل: ما معنى قوله: «وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ»، وإذا كانوا صمًّا لا يسمعون سواء ولَّوا أو لم يولوا؟ قيل: ذكره على سبيل التأكيد والمبالغة. ومعنى الآية: أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصم الذي لا يسمع.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ ما تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلاَّ من يصدق بالقرآن أنه من الله ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وجب العذاب عليهم، وقال قتادة: إذا غضب الله عليهم ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحدٍ: هذا مؤمن، وتقول لآخر: هذا كافر.

وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادرُوا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، وخاصة أحدكم، وأمر العامة»[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: من كل قرن جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وليس «من» هاهنا للتبعيض؛ لأن جميع المكذبين يحشرون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقوا إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ الله لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ ولم تعرفوها حق معرفتها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين لم تفكروا فيها، ومعنى الآية: أكذبتم بآياتي غير عالمين بها، ولم تفكروا في صحتها بل كذبتم بها جاهلين؟ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب العذاب ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بما أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجة لهم، نظيره قوله تعالى: «هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦» [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وقيل: لا ينطقون؛ لأن أفواههم مختومة.

(١) أخرجه مسلم برقم٢٩٤٧: (٤/ ٢٢٦٧).

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا يبصر فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون فيعتبرون.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فصعق، أي: ماتوا، والمعنى: أنهم يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا. وقيل: ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين.

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سأل جبريل عن قوله: «إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ»، قال: هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينفخ في الصور فيصعق مَن في السموات ومَن في الأرض إلاَّ من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يرفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله عزَّ وجلَّ أم رفع رأسه قبلي؟ ومن قال: أنا خير من يونس بن مَتَّى فقد كذب»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: الذين أحيوا بعد الموت ﴿أَتَوْهُ﴾ أي: جاؤوا، ﴿دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ قائمة واقفة ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوي بها، وذلك أن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبُعْدِ ما بين أطرافه فهو في حسبان الناظر واقف وهو سائر، كذلك سير الجبال لا

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٣٧٣: (٤/ ١٨٤٣ - ١٨٤٤).

يرى يوم القيامة لعظمتها، كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه وهو سائر ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكم ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ بكلمة الإخلاص: وهي شهادة أن لا إله إلاَّ الله ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: فمنها يصل الخير إليه، يعني: له من تلك الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب والأمن من العذاب، أما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا؛ لأنه ليس شيء خيرًا من قوله لا إله إلاَّ الله. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعني: ألقوا على وجوههم، وتقول لهم خزنة جهنم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ يقول الله لرسوله ﷺ قل: إنما أمرت ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: مكة ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ جعلها الله حرمًا آمنًا، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيدها، ولا يختلى خلاها ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلقًا ومُلكًا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني: أُمرت أن أتلو القرآن ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: نفع اهتدائه يرجع إليه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ من المخوِّفين، فليس عليَّ إلاَّ البلاغ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: يوم بدر، من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ يعني: تعرفون الآيات والدلالات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعدهم بالجزاء على أعمالهم.

سورة القصص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدقون بالقرآن.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا﴾ استكبر وتجبَّر وتعظَّم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ فِرَقًا وأصنافًا في الخدمة والتسخير ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ أراد بالطائفة: بني إسرائيل، ثم فسَّر الاستضعاف فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ سمَّى هذا استضعافًا؛ لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ قادة في الخير يقتدى بهم، ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ يعني: أملاك فرعون وقومه يخلفونه في مساكنهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نوطِّن لهم في أرض مصر والشام، ونجعلها لهم مكانًا يستقرون فيه ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ والحذر هو التوقي من الضرر، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل فكانوا على وَجَلٍ منه، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وهو وحي إلهام لا وحي نبوة، قال قتادة: قذفنا في قلبها، وأم موسى يوخابذ بنت لاوى بن يعقوب ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾، كانت ترضعه في حجرها، وهو لا يبكي ولا يتحرك ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ يعني: من الذبح ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ واليم: البحر، وأراد هاهنا: النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ قيل: لا تخافي عليه من الغرق، وقيل: من الضيعة ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ على فراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها جميعَ الناس، فلم يطَّلع على حَبَلها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمنَّ به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن ففتشن النساء تفتيشًا لم يفتشن قبل ذلك مثله، وحملت أُم موسى بموسى فلم ينتأ بطنها، ولم يتغير لونها، ولم يظهر لبنها، وكانت القوابل لا تتعرض لها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة، ولم يطلع عليها أحد إلاَّ أُخته مريم، فأوحى الله إليها «أن أرضعيه، فإذا خفت عليه ...» الآية، فكتمته أُمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها، لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه عملت تابوتًا له مطبقًا ثم ألقته في البحر ليلاً.

فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ

مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ عاصين آثمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ قال وهب: لما وضع التابوت بين يدي فرعون فتحوه فوجد فيه موسى، فلما نظر إليه قال عبراني من الأعداء فغاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلامَ الذبحُ؟ وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وكانت أُمًّا للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم، قالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة، وإنما أمرت أن يذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكون قرة عين لي وذلك ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن هلاكهم على يديه، فاستحياه فرعون، وألقى الله عليه محبته وقال لامرأته: عسى أن ينفعك، فأما أنا فلا أريد نفعه، قال وهب: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله، ولكنه أبى، للشقاء الذي كتبه الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي: خاليًا من كل شيء إلاَّ من ذكر موسى وهمه، وهذا قول أكثر المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ قيل: الهاء في «به» راجعة إلى موسى، أي: كادت لتبدي به أنه ابنها من شدة وجدها، وقال عكرمة عن ابن عباس: كادت تقول: وابناه. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالعصمة والصبر والتثبيت ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين لوعد الله حين قال لها: «إِنَّا رادُّوه إليك».

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أي: لمريم أُخت موسى: ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره؛ حتى تعلمي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بعد، وفي القصة أنها كانت تمشي جانبًا وتنظر اختلاسًا تُري أنها لا تنظره ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أُخته وأنها ترقبه، قال ابن عباس: إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة، فكلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ والمراد من التحريم: المنع، والمراضع: جمع المرضع ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أُم موسى، فلما رأت أُختُ موسى التي أرسلتها أُمه في طلبه ذلك قالت لهم: هل أدلكم؟ وفي القصة أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثديًا ويصيح، وهم في طلب مرضعة له.

﴿فَقَالَتْ﴾ يعني: أُخت موسى ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ أي: يضمنونه ﴿لَكُمْ﴾ ويرضعونه، وهي امرأة قد قتل ولدها، فأحبُّ شيءٍ إليها أن تجد صغيرًا ترضعه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ والنصح ضد الغش، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد، قالوا: نعم فَأْتِينا بها.

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بردِّ موسى إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: ولئلا تحزن ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ برده إليها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله وعدها ردَّه إليها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الكلبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: بلغ أربعين سنة، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: الفقه والعقل والعلم في الدين، فعلم موسى وحكم قبل أن يُبعث نبيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يعني: دخل موسى المدينة، ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ يختصمان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من القبط. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، والاستغاثة: طلب الغوث، فغضب موسى واشتد غضبه، وكان موسى قد أُوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وهو الضرب بجمع الكف، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله وفرغ من أمره، فندم موسى عليه السلام، ولم يكن قصدُه القتل، فدفنه في الرمل ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن الضلالة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل القبطي من غير أمر ﴿فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ

﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عونًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: للكافرين، وهذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرًا، وهو قول مقاتل، قال قتادة: لن أُعين بعدها على خطيئة، قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في المدينة التي قتل فيها القبطي ﴿خَآئِفًا﴾ من قتله القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ينتظر سوءًا، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه ويصيح به من بُعْدٍ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الغواية، قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وذلك أن موسى أدركته الرقة بالإسرائيلي فمدَّ يده ليبطش بالفرعوني، فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضبه وسمع قوله: إنك لغوي مبين ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل ظلمًا ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى.

قال ابن عباس: فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ من شيعة موسى ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: من آخرها، ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع في مشيه، فأخذ طريقًا قريبًا حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقًا آخر ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يعني: أشراف قوم فرعون يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال الزجاج: يأمر بعضهم بعضًا بقتلك ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في الأمر لك بالخروج.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ موسى ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قصد نحوها ماضيًا إليها، وكان موسى قد خرج خائفًا بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: قصد الطريق إلى مدين. قال ابن عباس: وهو أول ابتلاء من الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ يعني: سوى الجماعة ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ يعني: تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر، ﴿قَالَ﴾ يعني: موسى للمرأتين: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء.

ومعنى الآية: لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء؛ لأنا امرأتان لا نطيق أن نسقي، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر أن يسقي مواشيه، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم. فلما سمع موسى قولهما رحمهما، فاقتلع صخرة من رأس بئر أُخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلاَّ جماعة من الناس. ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل الشجرة، فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ طعام ﴿فَقِيرٌ﴾ يقول: إني لما أنزلت إليَّ من خير، أي: طعام، فقير محتاج، كان يطلب الطعام لجوعه.

قالوا: فلما رجعتا إلى أبيهما سريعًا قبل الناس وأغنامُهما حُفَّل بطان، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي.

قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ليست بسَلْفَع من النساء خَرَّاجة ولاجة، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كُمَّ درعها على وجهها استحياءً ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قال أبو حازم سلمة بن دينار: لما سمع ذلك موسى أراد أن لا يذهب، ولكن كان جائعًا فلم يجد بُدًّا من الذهاب.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ يعني: أمره أجمع، مِنْ قتلِه القبطي وقَصْدِ فرعون قتله ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: فرعون وقومه، وإنما قال هذا؛ لأنه لم يكن لفرعون سلطان على مدين.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ

ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيرًا؛ ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ يعني: خير من استعملت مَن قَوِيَ على العمل وأدى الأمانة، فقال لها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: أمَّا قوته: فإنه رفع حجرًا من رأس البئر لا يرفعه إلاَّ عشرة، وقيل: إلاَّ أربعون رجلاً، وأمَّا أمانته: فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك.

﴿قَالَ﴾ شعيب عند ذلك ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾، وذهب أكثرهم إلى أنه زوَّجه الصغرى منهما واسمها «صفورة»، وهي التي ذهبت لطلب موسى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ يعني: أن تكون أجيرًا لي ثمان سنين، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: إن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع، ليس بواجب عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي: ألزمك تمام العشر إلاَّ أن تتبرع ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال عمر: يعني: في حسن الصحبة، والوفاء بما قلت.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ يعني: هذا الشرط بيني وبينك، فما شرطت عليَّ فلك وما شرطتَ من تزويج إحداهما فلي، والأمر بيننا، تم الكلام، ثم قال:

﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني: أي الأجلين أتممت وفرغت منه، الثمان أو العشر ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ لا ظلم عليَّ بأن أُطالَب بأكثر منهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: شهيد فيما بيني وبينك، وقيل: حفيظ.

عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس قال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل[1].

وروي عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما، وإذا سئلت: فأي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت: يا أبتِ استأجره، فتزوج أصغرهما وقضى أوفاهما[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ يعني: أتمه وفرغ منه ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾ يعني: أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ وكان في البرية في ليلة مظلمة، شديدة البرد وأخذَ امرأته الطلقُ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق؛ لأنه كان قد أخطأ الطريق ﴿أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٥/٢٨٩ - ٢٩٠).
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٢/١٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٢/١٢٨).

جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يعني: قطعة وشعلة من النار، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ من جانب الوادي الذي عن يمين موسى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لموسى، جعلها مباركة؛ لأن الله كلَّم موسى هناك وبعثه نبيًّا، ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ من ناحية الشجرة ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هاربًا منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ لم يرجع، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

﴿ٱسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص، فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ﴾ الخوف.

ومعنى الْآية: إذا هَالَكَ أمرُ يدك وما ترى من شعاعها فأدخِلْها في جيبك تعدْ إلى حالتها الأولى. و«الجناح»: اليد كلها.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ يعني: العصا، واليد البيضاء ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ آيتان ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ عونًا، ﴿يُصَدِّقُنِىٓ ۖ﴾، قال مقاتل: لكي يصدقني فرعون ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ يعني: فرعون وقومه.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نقويك بأخيك، وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حجّةً وبرهانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي: لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا، ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أي: لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ مختلق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالذي تدعونا إليه ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ بالمحقّ من المبطل ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ العقبى المحمودة في الدار الآخرة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الكافرون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ فاطبخ لي الآجر، وقيل: إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا، وقيل: منارة، ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أنظر إليه، وأقف على حاله ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ يعني: موسى ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في زعمه أن للأرض والخلق إلهًا غيري، وأنه رسوله.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ فألقيناهم ﴿فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ورؤساء ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ لا يمنعون من العذاب. ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خزيًا وعذابًا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ من المبعدين الملعونين، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بما فيه من المواعظ والبصائر.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ يعني: بجانب الجبل الغربي، حيث ناجى موسى ربَّه ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ يعني: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ خلقنا أممًا بعد موسى عليه السلام ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وتركوا أمره، وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهودًا في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تذكرهم بالوعد والوعيد، قال مقاتل: يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك رسولاً وأنزلنا عليك كتابًا فيه هذه الأخبار، فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بناحية الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ قيل: إذْ نادَيْنا موسى: خذِ الكتابَ بقوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن رحمناك رحمة بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعصية ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلاَّ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب «لولا» محذوف، أي: لعاجلناهم بالعقوبة، يعني: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿قَالُوا۟﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ هلاَّ ﴿أُوتِىَ﴾ محمدٌ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الآيات كاليد البيضاء والعصا، وقيل: مثل ما أُوتي موسى كتابًا جملة واحدة.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي: التوراة والقرآن، «تظاهرا» يعني: كل سحر يقوي الآخر، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ يعني: التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي: لم يأتوا بما طلبت ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بيَّنَّا، قال الفرَّاء: أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضًا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل محمد ﷺ، ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب: أربعون من نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من الشام، ثم وصفهم الله فقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ وذلك أن ذكر النبي ﷺ كان مكتوبًا عندهم في

التوراة والإنجيل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي حق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على دينهم.

عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدَّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبدٌ أحسن عبادةَ الله ونصحَ سيِّده»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يدفعون بشهادة أن لا إله إلاَّ الله الشركَ، قال مقاتل: يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في الطاعة.

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ القبيح من القول ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يسبُّون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبًّا لكم تركتم دينكم، فيعرضون عنهم ولا يردُّون عليهم ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ليس المراد منه سلام التحية، ولكنه سلام المتاركة، معناه: سلمتمُ منَّا لا نُعارضكم بالشتم والقبيح من القول ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: دين الجاهلين، يعني: لا نحب دينكم الذي أنتم عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: أحببت هدايته، وقيل: أحببته لقرابته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد ومقاتل: لمن قُدِّر له الهدى، نزلت في أبي طالب قال له النبي ﷺ: قل لا إله إلاَّ الله، أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ مكة، نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكنَّا إن اتبعناك على دينك

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٩٠)، ومسلم برقم٩٧: (١/ ١٣٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٤: (١/ ٥٥).

خفنا أن تُخْرِجنا العرب من أرضنا مكة، وهو معنى قوله: «نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ»، والاختطاف: الانتزاع بسرعة.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تُغير بعضُهم على بعض، ويقتل بعضُهم بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا؛ لحرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ أي: يجلب ويجمع ﴿إِلَيْهِ﴾ يقال: جبيت الماء في الحوض، أي: جمعته، قال مقاتل: يحمل إلى الحرم ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما يقوله حق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: في معيشتها، أي: أشرت وطغت، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يسكنها إلاَّ المسافرون ومارُّ الطريق، يومًا أو ساعة، معناه: لم تسكن من بعدهم إلاَّ سكونًا قليلاً، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: القرى الكافرة أهلها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ يعني: في أكبرها وأعظمها رسولاً ينذرهم، وخص الأعظم ببعثة الرسول فيها؛ لأن الرسول يبعث إلى الأشراف، والأشراف يسكنون المدائن، والمواضع التي هي أُمُّ ما حولها ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ قال مقاتل: يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ مشركون، يريد: أهلكتهم بظلمهم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنة ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مصيبه ومدركه وصائر إليه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ النار، قال قتادة: يعني: المؤمن والكافر.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ في الدنيا أنهم شركائي.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب عليهم العذاب، وهم رؤوس الضلالة ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغي، وهم الأتباع ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أضللناهم كما ضللنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ برىء بعضهم من بعض وصاروا أعداء.

﴿وَقِيلَ﴾ للكفار: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: الأصنام؛ لتخلصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف على تقدير: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: يسأل الله الكفار ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَعَمِيَتْ﴾ خفيت واشتبهت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي: الأخبار والأعذار، قال مجاهد: الحجج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فلا يكون لهم عذر ولا حجة ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يجيبون. ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ من السعداء الناجين.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ نزلت هذه الآية جوابًا للمشركين حين قالوا: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»، يعني: الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود الثقفي، أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يظهرون.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة في الجنة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ فصل القضاء بين الخلق، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني يا أهل مكة ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا نهارَ معه ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ بنهار تطلبون فيه المعيشة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماعَ فهم وقَبول.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا ليل فيه ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالنهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ كرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: رسولهم الذي أُرسل إليهم، كما قال: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ» [النساء: ٤١] ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم بأن معي شريكًا ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ التوحيد ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا.

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابن عمه؛ لأن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وموسى بن عمران بن قاهث، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم ويظلمهم، وقال قتادة: بغى عليهم بكثرة المال، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ هي جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب، هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: لَتُثْقِلُهم، وتميل بهم إذا حملوها لثقلها.

واختلفوا في عدد العصبة، قال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ قال لقارون قومه من بني إسرائيل: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة والجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله تعالى ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال مجاهد وابن زيد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة، وقال السدي: بالصدقة وصلة الرحم.

وقال علي: لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة.

وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(١).

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلُّ من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿قَالَ﴾ يعني: قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على فضل وخير علِمَه الله عندي

---

(١) أخرجه مرسلاً أبو نعيم في «حلية الأولياء»: (٤/ ١٤٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٣/ ٢٢٣)، ووصله الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي: (٤/ ٣٠٦).

فرآني أهلاً لذلك، ففضَّلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره.

وقيل: «على علم عندي» بالتصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكافرة ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للأموال ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقال الحسن: لا يُسألون سؤال استعلام، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ قال إبراهيم النخعي: خرج هو وقومه في ثياب حمر وصفر، قال ابن زيد: في سبعين ألفًا عليهم المعصفرات، قال مجاهد: على براذين بيض عليها سرج الأرجوان، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من المال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: الأحبار من بني إسرائيل، وقال مقاتل: أُوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة، قالوا للذين تمنوا مثل ما أُوتي قارون في الدنيا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني: ما عند الله من الثواب والجزاء خير ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ صدق بتوحيد الله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما أُوتي قارون في الدنيا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قال مقاتل: لا يؤتاها، يعني: الأعمال الصالحة. وقال الكلبي: لا يعطاها في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال قتادة: خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة.

قال: وأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون؛ ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله تعالى موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من المال والزينة يتندمون على ذلك التمني، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ اختلفوا في معنى هذه اللفظة، قال مجاهد: ألم تعلم، وقال قتادة: ألم ترَ.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع ويضيق ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً

مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الكلبي ومقاتل: استكبارًا عن الإيمان، وقال عطاء: «علوًّا» استطالةً على الناس وتهاونًا بهم، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ قال الكلبي: هو الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة: أخذ أموال الناس بغير حق، وقال ابن جريج ومقاتل: العمل بالمعاصي.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب معاصيه، وقال قتادة: الجنة للمتقين.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أنزل عليك القرآن على قول أكثر المفسرين، ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مكة، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: يعلم من جاء بالهدى، وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، فقال الله عزَّ وجلَّ: قل لهم ربي أعلم من جاء بالهدى، يعني: نفسه ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: المشركين، ومعناه: أعلم بالفريقين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: يوحى إليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ معناه: لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مُعِينًا لهم على دينهم، قال مقاتل: وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فذكَّره الله نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى معرفته وتوحيده ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلاَّ هـو، ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: فصل القضاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

سورة العنكبوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أظنَّ الناسُ ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ أي: بأن يقولوا ﴿ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا لنختبرنهم ليبيَّن المخلص من المنافق والصادق من الكاذب.

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال الشعبي: نزلت في أُناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ: أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله هاتين الآيتين.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأنبياء والمؤمنين، فمنهم من نُشر بالمنشار، ومنهم من قتل، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في قولهم: آمنَّا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: فليظهرنَّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يُوجِدَ معلومَه.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: الشرك ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ يُعْجزونا ويفوتونا، فلا نقدر على الانتقام منهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما حكموا حين ظنوا ذلك.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ومقاتل: من كان يخشى البعث والحساب، والرجاء بمعنى الخوف، وقال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: من كان يطمع في ثواب الله ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ يعني: ما وعد الله من الثواب والعقاب، وقال مقاتل: يعني: يوم القيامة لكائن.

ومعنى الآية: أن من يخشى الله أو يأمله فليستعدّ له، وليعمل لذلك اليوم، كما قال: «فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا» [الكهف: ١١٠] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ له ثوابه، و«الجهاد»: هو الصبر على الشدة، ويكون ذلك في الحرب، وقد يكون على مخالفة النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن أعمالهم وعبادتهم.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لنبطلنَّها، يعني: حتى تصير بمنزلة ما لم يُعمل، والتكفير: إذهاب السيئة بالحسنة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعة، وقيل: نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن، كما قال: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» [الأنعام: ١٦٠].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: برًّا بهما وعطفًا عليهما، معناه: ووصَّينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن.

نزلت هذه الآية، والتي في سورة لقمان (الآية ١٥)، والأحقاف (الآية ١٥)، في سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه: وهو سعد بن مالك أبو إسحاق الزهري، وأُمه حمنة بنت أبي سفيان بن أُمية بن عبد شمس ـ لما أسلم، وكان من السابقين الأولين، وكان بارًّا بأمه، قالت له أُمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتُعَيَّر بذلك أبد الدهر، ويقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يومًا وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أُماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

وجاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[1].

ثم أوعد بالمصير إليه فقال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٥/ ٦٦)، وصححه الحاكم: (٣/ ٤٤٣).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾ في زمرة الصالحين، وهم الأنبياء والأولياء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أصابه بلاء من الناس افتتن ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة، أي: جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه، هذا قول السدي وابن زيد، قالا: هو المنافق إذا أُوذي في الله رجع عن الدين وكفر.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فتح ودولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على عدوكم، وكنَّا مسلمين، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا، فكذَّبهم الله وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإيمان والنفاق.

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ١٣ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٥ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بترك الإسلام عند نزول البلاء. واختلفوا في نزول هذه الآية، قال مجاهد: نزلت في أُناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الناس أو مصيبةٌ في أنفسهم افتتنوا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ قال مجاهد: هذا من قول كفار مكة لمن آمن منهم، وقال الكلبي ومقاتل: قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش «ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا»: ديننا وملة آبائنا، ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم، فذلك قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أوزاركم، ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوا من حمل خطاياهم.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: أوزار مَن أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزارهم، ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ سؤال توبيخ وتقريع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ فغرقوا ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: مشركون.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ يعني: من الغرق ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعني: السفينة ﴿ءَايَةً﴾ أي: عبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بعث نوح لأربعين سنة، وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشَوا، وكان عمره ألفًا وخمسين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وأرسلنا إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أطيعوا الله وخافوه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصنامًا ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تقولون كذبًا، قال مجاهد: تصنعون أصنامًا بأيديكم فتسمونها آلهة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ مثل: عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ كيف يخلقهم ابتداء: نطفة، ثم علقمة، ثم مضغة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ في الآخرة عند البعث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت، فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءًا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ تردون.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يعجزه أهل الأرض في الأرض، ولا أهل السماء في السماء، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: من وليٍّ يمنعكم مني، ولا نصير ينصركم من عذابي.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالقرآن وبالبعث ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ جنتي ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات في تذكير أهل مكة وتحذيرهم، وهي معترضة في قصة إبراهيم، فقال جلَّ ذكره: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وجعلها عليه بردًا وسلامًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون.

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عابديها، وتتبرأ القادة من الأتباع، وتلعن الأتباع القادة ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ جميعًا العابدون والمعبودون ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ يعني: صدقه، وهو أول من صدَّق إبراهيم وكان ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبراهيم: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ فهاجر من كوثى، وهو من سواد الكوفة، إلى حران ثم إلى الشام، ومعه لوط وامرأته سارة، وهو أول من هاجر﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يقال: إن الله لم يبعث نبيًّا بعد إبراهيم إلاَّ من نسله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وهو الثناء، فكل أهل الأديان يتولَّونه، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى

﴿ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة الصالحين، قال ابن عباس: مثل آدم ونوح.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي إتيان الرجال ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فترك الناس الممر بهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي والندى والمنتدى: مجلس القوم ومتحدثهم.

عن أُمّ هانىء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: «وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ» قلت: ما المنكر الذي كانوا يأتون؟ قال: «كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم»[1].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ له استهزاءً ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا.

فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بتحقيق قولي في العذاب.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ من الله بإسحاق ويعقوب ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني: قوم لوط، والقرية: سدوم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم للرسل: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟﴾ يعني: قالت الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ظن أنهم من الإنس ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ﴾ بمجيئهم ﴿ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ من قومك علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بإهلاكنا إيَّاهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ٤٩ - ٥٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ٤٠٩)، ووافقه الذهبي.

﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال مقاتل: الخسف والحصب ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ من قريات لوط ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ عبرة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول، قال ابن عباس: الآية البينة: آثار منازلهم الخربة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: واخشوا ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ أي: وأهلكنا عادًا وثمودًا ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ منازلهم بالحِجْر واليمن ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال مقاتل والكلبي وقتادة: كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم، يحسبون أنهم على هدى، وهم على الباطل.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ أي: وأهلكنا هؤلاء ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدِّلالات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: فائتين من عذابنا.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط، و«الحاصب»: الريح التي تحمل الحصباء، وهي الحصا الصغار ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني: ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني: قارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني: قوم نوح، وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام، يرجون نصرها ونفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها تأوي إليه، وإن بيتها في غاية الضعف والوهاء، لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا، وكذلك الأوثان لا تملك لعابديها نفعًا ولا ضرًّا ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ الأشباه، والمَثَلُ: كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول، يريد: أمثال القرآن التي شبه بها أحوال كفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم المتقدمة ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾ قال مقاتل: لكفار مكة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: ما يعقل الأمثال إلاَّ العلماء الذين يعقلون عن الله.

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للحق، وإظهارًا للحق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في خلقها ﴿لَءَايَةً﴾ لدلالة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قدرته وتوحيده.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الفحشاء: ما قبح من الأعمال، والمنكر: ما لا يعرف في الشرع. قال ابن مسعود وابن عباس: في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلاَّ بعدًا. وفي رواية قيل: يا رسول الله، إن فلانًا يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذكر الله أفضل الطاعات.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وأن تَلْقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٢/ ٤٤٧).
(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٣١٧ - ٣١٨).

وقال قوم: معنى قوله: «ولذكر الله أكبر»، أي: ذكر الله إيَّاكم أفضل من ذكركم إيَّاه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ قال عطاء: يريد لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لا تخاصموهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه، وأراد: مَنْ قَبِلَ الجزية منهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب، فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يريد: إذا أخبركم واحد منهم ممن قبل الجزية بشيء مما في كتبهم فلا تجادلوهم عليه، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم»(١).

أخبرنا ابن أبي نملة الأنصاري أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره: أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ومرَّ بجنازة، فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم»، فقال اليهودي: إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوه وإن حقًّا لم تكذبوه»(٢).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنزلنا إليهم الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب: عبدَ الله بن سلام وأصحابه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني:

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٥١٦).

(٢) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٤٥)، وصححه ابن حبان: ص. ٥٨.

أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وهم مؤمنو أهل مكة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وذلك أن اليهود عرفوا أن محمدًا نبيٌّ، والقرآنَ حقٌّ، فجحدوا، قال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا تكتبه، أي: لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يعني: لو كنت تكتب أو تقرأ الكتب قبل الوحي لشك المبطلون المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها، قاله قتادة، وقال مقاتل: «المبطلون» هم اليهود، ومعناه: إذًا لشكوا فيك واتهموك، وقالوا: إن الذي نجد نعته في التوراة أُمي لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ قال الحسن: يعني: القرآن آيات بينات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: المؤمنين الذين حملوا القرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما أنزل على الأنبياء من قبل، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو القادر على إرسالها إذا شاء أرسلها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذر أهل المعصية بالنار، وليس إنزال الآيات بيدي.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ هذا الجواب لقوله: «لولا أُنزل عليه آيات من ربه» ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أولم يكفهم من الآيات القرآن يتلى عليهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في إنزال القرآن ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: تذكيرًا وعظة لمن آمن وعمل به.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أني رسول الله وهذا القرآن كتابه ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال ابن عباس: بغير الله، ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ

لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس: ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ يعني: العذاب، وقيل: الأجل ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أعاده تأكيدًا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جامعة لهم، لا يبقى أحدٌ إلاَّ دخلها.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم، ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء ما كنتم تعملون.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة، إن أرضي - يعني: المدينة - واسعة آمنة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ خوَّفهم بالموت ليُهَوِّن عليهم الهجرة، أي: كل واحد ميت أينما كان، فلا تقيموا بدار الشرك خوفًا من الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجزيكم بأعمالكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لننزلنَّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علالي ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الشدائد، ولم يتركوا دينهم لشدةٍ لحقتهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون: «هاجِروا إلى المدينة»، فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا؟ فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ ذات حاجة إلى غذاء ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا ترفع رزقها معها، ولا تدخر شيئًا لغد مثل البهائم والطير ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ حيث كنتم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوالكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة، العليم بما في قلوبكم.

عن أنس أن النبي ﷺ: «كان لا يدخر شيئًا لغد»[1].

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكله لزرقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: كفار مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/٢٦)، وصححه ابن حبان برقم٢١٣٩: ص٥٢٥ .
(٢) أخرجه الترمذي: (٧/٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله، وقيل: قل الحمد لله على إقرارهم لزوم الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه الخالق لهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ اللهو هو: الاستمتاع بلذات الدنيا، واللَّعِب: العبث، سميت بهما؛ لأنها فانية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الباقية، و«الحيوان» بمعنى: الحياة، أي: فيها الحياة الدائمة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فناء الدنيا وبقاء الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وتركوا الأصنام ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ هذا إخبار عن عنادهم، وأنهم عند الشدائد يقرُّون أن القادر على كشفها هو الله عزَّ وجلَّ وحده، فإذا زالت عادوا إلى كفرهم، قال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا: يا رب يا رب.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هذا لام الأمر، ومعناه: التهديد والوعيد، كقوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» [فصلت: ٤٠]، أي: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إيَّاهم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى: لا فائدة في الإشراك إلاَّ الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني: العرب، يسبي بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ بالأصنام والشيطان ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ بمحمد والإسلام ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن لله شريكًا، وأنه أمر بالفواحش ﴿أَوْ كَذَّبَ

بِٱلْحَقِّ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، معناه: أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنثبتنهم على ما قاتلوا عليه.

وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينَّهم سُبل العمل به، وقال سهل بن عبد الله: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينَّهم سبل الجنة، ورُوي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبل ثوابنا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، وبالثواب والمغفرة في عُقْباهم.

سورة الروم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ سبب نزول هذه الآية ـ على ما ذكره المفسرون ـ: أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودُّون أن تغلب فارس الروم؛ لأن أهل فارس كانوا مجوسًا أُميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشًا إلى الروم واستعمل عليه رجلاً يقال له: شهريراز، وبعث قيصر جيشًا إلى فارس واستعمل عليهم رجلاً يدعى يحفّس، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارسٌ الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة، فشقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أُميُّون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا فوالله ليظهرنَّ على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أُبيُّ بن خلف الجمحي فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلاً أُناحِبُك عليه ـ والمناحبة: المراهنة ـ على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ، ففعلوا، وجعل الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، وذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي ﷺ: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايِدْه في الخطر ومادَّه في الأجل، فخرج أبو بكر ولقي أُبيًّا، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا، فتعال

أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل: إلى سبع سنين، قال: قد فعلت، فلما خشي أُبيُّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه، وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقِمْ لي كفيلاً، فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر، فلما أراد أُبيُّ بن خلف أن يخرج إلى أُحد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، فقال: لا والله، لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً، فأعطاه كفيلاً، ثم خرج إلى أُحد ثم رجع أُبيُّ بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم، وقيل: كان يوم بدر.

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، قال عكرمة: هي أذرعات وكسكر، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: الروم من بعد غلبة فارس إياهم، ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارسًا.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى السبع، وقيل: ما بين الثلاثة إلى التسع، وقيل: ما دون العشرة.

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها، فأي الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله وقضائه وقدره ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الرومَ على فارس، قال السدي: فرح النبي ﷺ والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر، وظهورِ أهل الكتاب على أهل الشرك ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ نصب على المصدر، أي: وعد الله وعدًا بظهور الروم على فارس ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: أمر معاشهم، كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون

ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطىء وهو لا يحسن يصلي. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ساهون عنها جاهلون بها، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للحق، وقيل: لإقامة الحق ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ أي: لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت، وهو القيامة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ أولم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: أكثر مما عمرها أهل مكة، قيل: قال ذلك لأنه لم يكن لأهل مكة حرث ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ﴾ فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بنقص حقوقهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ببخس حقوقهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ أي: أساؤوا العمل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ يعني: الخلة التي تسوؤهم وهي النار، ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ أي: لأن كذبوا. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْآخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يخلقهم ابتداءً ثم يعيدهم بعد الموت أحياءً، ولم يقل: يعيدهم، ردَّه إلى الخلق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ قال قتادة والكلبي: ييأس المشركون من كل خير.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ جاحدين متبرئين، يتبرؤون منها، وتتبرأ منهم.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يتميز أهل الجنة من أهل النار، وقال مقاتل:

يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار، فلا يجتمعون أبدًا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ وهي البستان الذي في غاية النضارة ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون، وقال أبو عبيدة: يسرون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: البعث يوم القيامة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: سبّحوا الله، ومعناه: صلُّوا لله ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ أي: تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح.

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال ابن عباس: يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له ﴿وَعَشِيّٗا﴾ أي: صلُّوا لله عشيًّا، يعني: صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وهو صلاة الظهر. قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت الآية الصلوات الخمس ومواقيتها.

قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي: خلق أصلكم، يعني: آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ تنبسطون في الأرض.

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ قيل: من جنسكم من بني آدم، ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادّان ويتراحمان، وما شيء

أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ أبيض وأسود وأحمر، وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، أي: تصرفكم في طلب المعيشة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ للمسافر من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم في المطر ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ﴾ يعني: بالمطر ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يبسها وجدوبتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قال ابن مسعود: قامتا على غير عمد بأمره، وقيل: يدوم قيامهما بأمره ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: من القبور ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ منها، وأكثر العلماء على أن معنى الآية: ثم إذا دعاكم دعوة إذا أنتم تخرجون من الأرض.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ مطيعون.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يخلقهم أولاً، ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال الربيع بن خثيم والحسن وقتادة والكلبي: أي: هو هين عليه، وما شيء عليه بعزيز، وهو رواية العوفي عن ابن عباس.

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العليا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: هي أنه ليس كمثله شيء، وقال قتادة: هي أنه لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: بيَّن لكم شبهًا بحالكم، وذلك المثل من أنفسكم، ثم بيَّن المثل فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: عبيدكم وإماؤكم ﴿مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من المال ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحرّ شريكه الحرّ في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمر دونه، وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث، وهو يحب أن ينفرد به.

قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا، فإذا كنتم تخافون هذا من مماليككم، ولم ترضوا ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي؟

ومعنى قوله: «أَنفُسَكُمْ»، أي: أمثالكم من الأحرار.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أشركوا بالله ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جهلاً بما يجب عليهم ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: أضلّه الله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مانعين، يمنعونهم من عذاب الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أخلص دينك لله، قاله سعيد بن جبير، وإقامة الوجه: إقامة الدين، وقال غيره: سدد عملك، والوجه ما يتوجه إليه الإنسان، ودينه وعمله ما يتوجه إليه لتسديده ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً مستقيمًا عليه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ دين الله، ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: خلق الناس عليها، وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين أن المراد بالفطرة: الدين، وهو الإسلام. وذهب قوم إلى أن الآية خاصة في المؤمنين، وهم الذين فطرهم الله على الإسلام:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يُولد يُولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه كما تَنْتِجُونَ البهيمة، هل تجدون فيها من جَدْعَاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها»؟ قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[(١)].

ورواه الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة من غير ذكر من يموت وهو صغير، وزاد: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: «فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا»[(٢)].

قوله: «مَن يُولد يُولد على الفطرة» يعني: على العهد الذي أخذ الله عليهم بقول: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ» [الأعراف: ١٧٢]، وكل مولود في العالم على ذلك الإقرار، وهو الحنيفية التي وقعت الخِلْقة عليها وإنْ عبد غيره، قال تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ» [الزخرف: ٨٧]، وقالوا: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ» [الزمر: ٣]، ولكن لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى أنه يقول: «فأبواه يهوّدانه» فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكومٌ له بحكم أبويه الكافرين، وهذا معنى قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٩٣)، ومسلم برقم٢٦٥٨: (٤/ ٢٠٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٢١٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم٢٨٦٥: (٤/ ٢١٩٧).

وحكي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: معنى الحديث: إن كل مولود يولد على فطرته، أي: على خلقته التي جُبل عليها في علم الله تعالى من السعادة أو الشقاوة، فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليها، وعاملٌ في الدنيا بالعمل المُشاكِل لها، فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين، فيحملانه ـ لشقائه ـ على اعتقاد دينهما.

قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فمن حمل الفطرة على الدين قال: معناه: لا تبديل لدين الله، وهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا دين الله، قال مجاهد وإبراهيم: معنى الآية: الزموا فطرة الله، أي: دين الله، واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: لا تبديل لخلق الله، أي: ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لا يتبدل، فلا يصير السعيد شقيًّا ولا الشقي سعيدًا.

۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: فأقم وجهك أنت وأُمتك منيبين إليه ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: صاروا فرقًا مختلفة وهم: اليهود والنصارى، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: راضون بما عندهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ قحط وشدة ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مقبلين إليه بالدعاء ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خصبًا ونعمة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حالكم في الآخرة.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حجة وعذرًا، وقال قتادة: كتابًا

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ ينطق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي: ينطق بشركهم ويأمرهم به.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: الخصب وكثرة المطر ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ يعني: فرح البطر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: الجدب وقلة المطر، ويقال: الخوف والبلاء ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من السيئات ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمن، فإنه يشكر الله عند النعمة، ويرجو ربه عند الشدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البر والصلة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ وحقه: أن يتصدق عليه ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ يعني: المسافر، وقيل: هو الضيف ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ﴾ يطلبون ثواب الله بما يعملون ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ في أموال الناس، أي: في اختطاف أموال الناس واجتذابها.

واختلفوا في معنى الآية، فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاووس وقتادة والضحاك وأكثر المفسرين: هو الرجل يعطي غيره العطية؛ ليثيب أكثر منها فهذا جائز حلال، ولكن لا يثاب عليه في القيامة، وهو معنى قوله عزَّ وجلَّ: «فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ»، وكان هذا حرامًا على النبي ﷺ خاصة لقوله تعالى: «وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾» [المدثر: ٦]، أي: لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت.

وقال النخعي: هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه؛ ليكثر ماله ولا يريد به وجه الله.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أعطيتم من صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني: قحط المطر وقلة النبات، وأراد بالبر البوادي والمفاوز، وبالبحر المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية، ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بشؤم ذنوبهم، وقال عطية وغيره: «البر» ظهر الأرض من الأمصار وغيرها، و«البحر» هو

البحر المعروف، وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلو أجواف الأصداف؛ لأن الصدف إذا جاء المطر يرتفع إلى وجه البحر ويفتح فاه فما يقع في فيه من المطر صار لؤلؤًا.

قال قتادة: هذا قبل مبعث النبي ﷺ، امتلأت الأرض ظلمًا وضلالة، فلما بعث الله محمدًا ﷺ رجع راجعون من الناس بما كسبت أيدي الناس من المعاصي، يعني: كفار مكة.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: عقوبة بعض الذي عملوا من الذنوب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر وأعمالهم الخبيثة.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: كانوا مشركين، فأهلكوا بكفرهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المستقيم: وهو دين الإسلام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ يعني: يوم القيامة، لا يقدر أحد على رده من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ أي: وبال كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ تبشر بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ نعمة المطر، وهي: الخصب ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بهذه الرياح ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا من رزقه

بالتجارة في البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربَّ هذه النعم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات على صدقهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ﴾ عذَّبنا الذين كذبوهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنجاؤهم من العذاب، ففي هذا تبشير للنبي ﷺ بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء، قال الحسن: أنجاهم مع الرسل من عذاب الأُمم.

عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردّ عن عِرض أخيه إلاَّ كان حقًّا على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة»، ثم تلا هذه الآية: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ»[1].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: ينشره ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ مسيرة يوم أو يومين وأكثر على من يشاء ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعًا متفرقة ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وسطه ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: بالودق ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بالمطر.

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ وقد كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: آيسين، وقيل: «وإن كانوا»، أي: وما كانوا إلاَّ مبلسين، وأعاد قوله: «من قبله» تأكيدًا.

وقيل: الأولى ترجع إلى إنزال المطر، والثانية إلى إنشاء السحاب.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أراد برحمة الله: المطر، ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: أن ذلك الذي يحيي الأرض لمحيي الموتى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ باردة مضرة فأفسدت الزرع ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: رأوا النبت والزرع مصفرًّا بعد الخضرة ﴿لَّظَلُّوا۟﴾ لصاروا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد إصفرار الزرع ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون ما سلف من النعمة، يعني: أنهم يفرحون عند الخصب، ولو أرسلت عذابًا على زرعهم جحدوا سالف نعمتي.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ٥٨)، وقال: (هذا حديث حسن).

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ من بعد ضعف الطفولية شبابًا، وهو وقت القوة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ هرمًا ﴿وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على ما يشاء.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ﴾ إلاَّ ساعة، استقلُّوا أجل الدنيا لمَّا عاينوا الآخرة، وقال مقاتل والكلبي: ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ» [الأحقاف: ٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا. ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما كتب الله لكم في سابق علمه من اللبث في القبور، أي: قالوا للمنكرين: لقد لبثتم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه في الدنيا، فلا ينفعكم العلم به الآن، بدليل قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يعني: عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العُتبى والرجوع في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ما أنتم إلاَّ على باطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ توحيد الله.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ في نصرتك وإظهارك على عدوك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يستجهلنَّك، معناه: لا يحملنَّك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي، وقيل: لا يستخفن رأيك وحلمك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب.

سورة لقمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتَّجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدث بها قريشًا، ويقول: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملِحُون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية.

وقال مجاهد: يعني: شراء القيان والمغنيين، ووجه الكلام على هذا التأويل: من يشتري ذات لَهْوٍ أو ذَا لَهْوِ الحديث.

عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام»، وفي مثل هذا أُنزلت هذه الآية: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ»، وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلاَّ بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالانِ يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت[١].

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: «نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا: «لهو الحديث» هو الغناء، والآية نزلت فيه.

ومعنى قوله: ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن.

وقال إبراهيم النخعي: الغناء ينبت النفاق في القلب، وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف، وقيل: الغناء رُقيةُ الزنا. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يفعله عن جهل، قال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم٢١٦٨): (٢/ ٧٣٣)، والإمام أحمد: (٥/ ٢٥٢).
(٢) أخرجه البيهقي: (٦/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: يتخذ آيات الله هزوًا. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ حسن.

﴿هَٰذَا﴾ يعني: الذي ذكرت مما تعاينون ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من آلهتكم التي تعبدونها ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأُمور.

واتفق العلماء على أنه كان حكيمًا، ولم يكن نبيًّا، إلاَّ عكرمة فإنه قال: كان لقمان نبيًّا، وتفرَّد بهذا القول.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ واسمه «أنعم»، ويقال: مشكم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى

صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال ابن عباس: شدة بعد شدة، وقال الضحاك: ضعفًا على ضعف ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامه ﴿فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: بالمعروف، وهو البر والصلة والعشرة الجميلة ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: دين من أقبل إلى طاعتي، وهو النبي ﷺ وأصحابه.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ الكناية في قوله: «إنها» راجعة إلى الخطيئة، وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قال قتادة: تكن في جبل، وقال ابن عباس: في صخرة تحت الأرضين السبع.

﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بمكانها، قال الحسن: معنى الآية: هي الإحاطة بالأشياء، صغيرها وكبيرها.

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يعني: من الأذى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يريد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما، من الأمور الواجبة التي أمر الله بها، أو من الأُمور التي يُعْزم عليها لوجوبها.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: يقول: لا تتكبر فتحقِّر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ خيلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس.

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: ليكن مشيك قصدًا لا تخيلاً ولا إسراعًا، وقال عطاء: امشِ بالوقار

والسكينة، ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ انقص من صوتك، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أقبح الأصوات ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أوله زفير وآخره شهيق، وهما صوت أهل النار.

قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة، أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أتم وأكمل ﴿نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: النعمة الظاهرة: الإسلام والقرآن، والباطنة: ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وأُبيّ بن خلف وأُمية بن خلف وأشباههم، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، يعني: يتبعون الشيطان، وإن كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: لله، أي: يخلص دينه لله، ويفوض أمره إلى الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلاً إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ ثم نلجئهم ونردهم في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية.

قال قتادة: إن المشركين قالوا: إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾، أي: بريت أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من خلفه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية اختصار تقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذه الآية على قول عطاء بن يسار مدنية، وعلى قول غيره مكية، وقالوا: إنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعدُ بمكة، والله أعلم.

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ﴾ يعني: كخلق نفس واحدة وبعثها، لا يتعذر عليه شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرت؛ لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يريد: أن ذلك من نعمة الله عليكم ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ عجائبه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على أمر الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال، وقال الكلبي: كالسحاب، والظل جمع الظلة، شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها، وجعل الموج. وهو واحد. كالظلل وهي جمع؛ لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: عدل موفٍ في البر بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له، يعني: ثبت على إيمانه.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجاني الله من هذا لأرجعن إلى محمد ﷺ ولأضعن يدي في يده، فسكنت الريح، فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه.

وقال مجاهد: فمنهم مقتصد في القول مضمر للكفر، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ والختر: أسوأ الغدر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ لا يقضي ولا يغني ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ مُغْنٍ ﴿عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ قال ابن عباس: كل امرىء يهمه نفسه ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان، قال سعيد بن جبير: هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية نزلت في الوارث بن عمرو بن حارثة، من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركتُ امرأتي حبلى، فمتى تلد؟ وقد عملتُ أين ولدتُ فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٢٤).

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ قال مقاتل: لا شك فيه أنه تنزيل من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ثم قال: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ أي: لم يأتهم ﴿مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة: كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ، وقال ابن عباس ومقاتل: ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يحكم الأمر، وينزل القضاء والقدر ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ جبريل بالأمر ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: في يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة ألف سنة، خمسمائة نزوله، وخمسمائة صعوده؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، يقول: لو سار فيه أحد من بني آدم لم يقطعه إلاَّ في ألف سنة، والملائكة يقطعونه في يوم واحد، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء، وأما قوله: «تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾» [المعارج: ٤]، أراد مدة المسافة بين الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل، يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا، هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك، وقوله: «إليه»، أي: إلى الله.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني: ذلك الذي صنع ما ذكره من خلق السموات والأرض عالم مَا غاب عن الخلق وما حضر ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال ابن عباس: أتقنه وأحكمه، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني: آدم. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ يعني: ذريته ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ نطفة، سميت سلالة؛ لأنها تسل من الإنسان ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف، وهو نطفة الرجل. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ ثم سوى خلقه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ ثم عاد إلى ذريته، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ بعد أن كنتم نطفًا ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يعني: لا تشكرون ربَّ هذه النعم فتوحِّدونه.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يعني: منكري البعث ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ هلكنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وصرنا ترابًا، وأصله من قولهم: ضلَّ الماء في اللبن إذا ذهب ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ استفهام إنكار، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبض أرواحكم ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وكل بقبض أرواحكم وهو عزرائيل، والتوفي استيفاء العدد، معناه: أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ مطأطئو رؤوسهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حياءً وندمًا ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: ربنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما كنَّا به مكذبين ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق ما أتتنا به رسلك، وقيل: أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ فارددنا إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وجواب «لو» مضمر، مجازه: لرأيت العجب.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ رشدها وتوفيقها للإيمان ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ﴾ وجب ﴿ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهو قوله لإبليس: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾» [ص: ٨٥].

ثم يقال لأهل النار: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم الإيمان به في الدنيا ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ وعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ سقطوا على وجوههم ساجدين ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: صلُّوا بأمر ربهم، وقيل: قالوا سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والسجود له.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع وتنبو ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ جمع مضجع، وهو: الموضع الذي يضطجع عليه، يعني: الفرش، وهم المتهجدون بالليل، الذين يقومون للصلاة. واختلفوا في المراد بهذه الآية، قال أنس: نزلت فينا معشر الأنصار، كنَّا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ.

وعن أنس أيضًا قال: نزلت في أُناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر، وقالا: هي صلاة الأوابين.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة»[١].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلاَّ أن يستهِمُوا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا»[٢].

وأشهر الأقاويل أن المراد منه: صلاة الليل، وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال ابن عباس: خوفًا من النار، وطمعًا في الجنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قيل: أراد به الصدقة المفروضة، وقيل: عامٌّ في الواجب والتطوع.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تقرُّ به أعينهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بَلْهَ ما اطلعتم عليه»، ثم قرأ: «فَلَا تَعْلَمُ

---

(١) أخرجه مسلم برقم٦٥٦: (١/ ٤٥٤).
(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ١٣٩)، ومسلم برقم٤٣٧: (١/ ٣٢٥).

نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي مُعيط أخي عثمان لأمه، وذلك أنه كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، فأنزل الله تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾»، ولم يقل: لا يستويان؛ لأنه لم يرد مؤمنًا واحدًا وفاسقًا واحدًا، بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين.

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ التي يأوي إليها المؤمنون ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي: سوى العذاب الأكبر، قال أُبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم: «العذاب الأدنى» مصائب الدنيا وأسقامها، وهو رواية الوالبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقال عكرمة: الحدود، «دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ» يعني: عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان، يعني: من بقي منهم بعد بدر وبعد القحط.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني: فلا تكن في شك من لقاء موسى ليلة المعراج، قاله ابن عباس وغيره.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسري بي إلى السماء رأيت موسى يصلي في قبره»[٢].

﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾ يعني: الكتاب، وهو التوراة، وقال قتادة: موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣١٨)، ومسلم برقم٢٨٢٤: (٤/ ٢١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٣٧٥: (٤/ ١٨٤٥).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ يعني: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير، يقتدى بهم، يعني: الأنبياء الذين كانوا فيهم، وقال قتادة: أتباع الأنبياء ﴿يَهْدُونَ﴾ يدعون ﴿بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي: حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لم يتبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، قال ابن عباس: هي أرض اليمن، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من العشب والتبن ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الحبوب والأقوات ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قيل: أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم بين العباد.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يوم القيامة ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ ومن حمل الفتح على فتح مكة أو القتل يوم بدر قال: معناه: لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقُتلوا ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون؛ ليتوبوا ويعتذروا.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ قيل: انتظر موعدي لك بالنصر، إنهم منتظرون بك حوادث الزمان.

عن أبي هريرة أنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة «الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ»، و«هل أتى على الإنسان»(١).

عن جابر قال: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: تبارك والٓمٓ تنزيل»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٧٧)، ومسلم برقم٨٨٠: (٢/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي: (٨/ ٢٠١ - ٢٠٢)، والدارمي: (٢/ ٤٥٥)، والإمام أحمد: (٣/ ٣٤٠)، والحاكم: (٢/ ٤١٢).

سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور بن سفيان السُّلَمي، وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أُبي بعد قتال أُحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ ـ وعنده عمر بن الخطاب ـ: ارفض ذكر آلهتنا: اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشقَّ على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لنا في قتلهم، فقال: إني قد أعطيتُهم الأمان، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أي: دُمْ على التقوى، كالرجل يقول لغيره وهو قائم: قم هاهنا، أي: اثبت قائمًا، وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الأمة، وقال الضحاك: معناه: اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة، يعني: أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ﴾ من أهل المدينة: عبد الله بن أُبي وعبد الله بن سعد وطعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه، قبل أن خلقهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لهم.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ثِقْ بالله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا لك.

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾ نزلت في أبي معمر جميل بن مَعْمَر الفهري، وكان رجلاً لبيبًا حافظًا لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلاَّ وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله

المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم، فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما لك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلاَّ أنهما في رجلي، فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

وقال الزهري ومقاتل: هذا مَثَلٌ ضربه الله عزَّ وجلَّ للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره، يقول: فكما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة للمظاهر أمّه حتى تكون أُمَّان، ولا يكون له ولد واحد ابن رجلين.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾. وصورة الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمّي، يقول الله تعالى: ما جعل نساءكم اللائي تقولون لهنَّ هذا في التحريم كأمهاتكم، ولكنه منكر وزور، وفيه كفارة نذكرها إن شاء الله تعال في سورة المجادلة.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ يعني: من تبنيتموه ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ فيه نسخ التبني، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود له، يدعوه الناس إليه، ويرث ميراثه، وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وتبناه قبل الوحي، وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة، قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية ونسخ التبني ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ لا حقيقة له، يعني قولهم: زيد بن محمد ﷺ، وادعاء نسب لا حقيقة له ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: قوله الحق ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: يرشد إلى سبيل الحق.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عن عبد الله بن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلاَّ زيد بن محمد حتى نزل القرآن «ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ»[١].

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن كانوا محررين وليسوا بِبَنِيْكُم، أي: سمُّوهم بأسماء إخوانكم في الدين، وقيل: «مواليكم»، أي: أولياؤكم في الدين ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ قبل النهي فنسبتموه إلى غير أبيه ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهي.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ عن عاصم قال: سمعت أبا عثمان قال: سمعت سعدًا ـ وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ـ وأبا بكرة ـ وكان قد تسور حصن الطائف في أناس ـ فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا: سمعنا النبي ﷺ يقول: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥١٧)، ومسلم برقم٢٤٢٥: (٤/ ١٨٨٤).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٤٥)، ومسلم برقم٦٣: (١/ ٨٠).

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته عليهم، وقال ابن عباس وعطاء: يعني: إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعتهم أنفسهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهن أمهات المؤمنين في تعظيم حقهنَّ وتحريم نكاحهنَّ على التأبيد، لا في النظر إليهنَّ والخلوة بهن، فإنه حرام في حقِّهن كما في حق الأجانب، قال الله تعالى: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ» [الأحزاب: ٥٣]، ولا يقال لبناتهن هنَّ أخوات المؤمنين، ولا لإخوانهنَّ وأخواتهنَّ هم أخوال المؤمنين وخالاتهم.

واختلفوا في أنهنَّ هل كنَّ أمهات النساء المؤمنات؟ قيل: كنَّ أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعًا.

وقيل: كنَّ أمهات المؤمنين دون النساء، روى الشعبي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا أُمَّه! فقالت: لست لك بأُمّ إنما أنا أم رجالكم، فبان بهذا أن معنى هذه الأمومة تحريم نكاحهنَّ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يعني: في الميراث، قال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، قال الكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين الناس، فكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته، حتى نزلت هذه الآية: «وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ» ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يعني: ذوي القرابات، بعضهم أولى بميراث بعض مِن أن يرث بالإيمان والهجرة، فنسخت هذه الآيةُ الموارثةَ بالمؤاخاة والهجرة وصارت بالقرابة.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أراد بالمعروف الوصية للذين يتولونه من المعاقدين، وذلك أن الله لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلثه.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: كان الذي ذكرت من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في اللوح المحفوظ مسطورًا مكتوبًا، وقال القرظي: في التوراة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ على الوفاء بما حملوا، وأن يُصدِّق بعضهم بعضًا، ويبشِّر بعضهم ببعض، قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، ويصدِّق بعضهم بعضًا، وينصحوا لقومهم ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصَّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين؛ لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأُولوا العزم من الرسل، وقدَّم النبي ﷺ بالذكر لِمَا روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كنتُ أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث».

قال قتادة: وذلك قول الله عزَّ وجلَّ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ»، فبدأ به ﷺ قبلهم. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا شديدًا على الوفاء بما حُمِّلوا. ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يقول: أخذنا ميثاقهم لكي نسأل الصادقين عن صدقهم، يعني: النبيين عن تبليغهم الرسالةَ، والحكمةُ في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون: تبكيتُ من أرسلوا إليهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك حين حُوصر المسلمون مع رسول الله ﷺ أيام الخندق ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب، وهم: قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي الصَّبَا. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[1].

قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ، فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحًا باردةً فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيِّدُ كلِّ حيٍّ يقول: يا بني فلان هلم إليَّ، فإذا اجتمعوا عنده قال: النجاءَ النجاءَ، لِما بعث الله عليهم من الرعب فانهزموا من غير قتال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٢)، ومسلم برقم ٩٠٠: (٢/ ٦١٧).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي من قِبَلِ المشرق، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني: من بطن الوادي من قِبَلِ المغرب. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت وشخصت من الرعب، وقيل: مالت عن كل شيء فلم تنظر إلاَّ إلى عدوها ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ فزالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: اختلفت الظنون، فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ﴾ أي: عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال، ليتبين المخلص من المنافق ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ حُرِّكوا حركة شديدة.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ معتِّب بن قشير، وقيل: عبد الله بن أُبي وأصحابه ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، وضعف اعتقاد: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قول أهل النفاق: يَعِدُنا محمد فتح قصور الشام وفارس، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوزَ رحله! هذا والله الغرور.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين، ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: المدينة، قال أبو عبيدة: «يثرب»: اسم أرضٍ، ومدينةُ الرسول ﷺ في ناحيةٍ منها. وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال: «هي طابة»، كأنه كره هذه اللفظة.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾، أي: لا إقامة لكم ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم عن اتِّباع محمد ﷺ، وقيل: عن القتال إلى مساكنكم ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ وهم: بنو حارثة وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: خالية ضائعة، وهو مما يلي العدو، ونخشى عليها السُّرَّاق، فكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: ما يريدون إلاَّ الفرار.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أي: لو دَخَلَتْ عليهم المدينة، يعني: هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم، وهم الأحزاب ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ جوانبها ونواحيها، جمع قطر ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الشرك ﴿لَءَاتَوْهَا﴾ لأعطوها، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي: ما احتبسوا عن الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ولأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيِّبةً به أنفسُهم، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الحسن والفراء: وما أقاموا

بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلاَّ قليلاً حتى يهلكوا.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل غزوة الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ من عدوهم، أي: لا ينهزمون، قال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة، همُّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها. وقال قتادة: هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة، قالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنَّ، فَسَاقَ الله إليهم ذلك.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ عنه. ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ الذي كتب عليكم؛ لأن من حضر أجله مات أو قتل ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا تمتعون بعد الفرار إلاَّ مدة آجالكم وهي قليل.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم من عذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ نصرة ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: قريبًا ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ناصرًا يمنعهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا إلينا ودَعُوا محمدًا، فلا تشهدوا معه الحرب، فإنا نخاف عليكم الهلاك. قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين، كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ، ويقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلاَّ أكلة رأس، ولو كان لحمًا لالتهمهم، أي: ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه، دَعُوا الرجلَ فإنه هالك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة من غير احتساب، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرًا.

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء بالنفقة في سبيل الله والنصرة، وقال قتادة: بخلاء عند الغنيمة، وصفهم الله بالبخل والجبن فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في الرؤوس من الخوف

والجبن ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: كدوران الذي يُغشى عليه من الموت، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ آذوكم ورموكم في حالة الأمن ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربة، جمع حديد، أي: عضدوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة، ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: عند الغنيمة يشاحون المؤمنين ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال مقاتل: أبطل الله جهادهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿يَحْسَبُونَ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿الْأَحْزَابَ﴾ يعني: قريشًا وغطفان واليهود ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ لم ينصرفوا عن قتالهم جبنًا وفرقًا، وقد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي: يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ أي: يتمنوا لو كانوا في بادية الأعراب من الخوف والجبن، ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أخباركم، وما آل إليه أمركم، ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ تعذيرًا، أي: يقاتلون قليلاً يقيمون به عذرهم، فيقولون قد قاتلنا، قال الكلبي: إلاَّ قليلا، أي: رميًا بالحجارة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: به اقتداء حسن إن تنصروا دين الله وتؤازروا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم، كما فعل هو: إذْ كُسِرَتْ رباعيتُه، وجُرح وجهه، وقُتل عمُّه، وأوذي بضروب الأذى، فَوَاسَاكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضًا واستنُّوا بسنَّته ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يعني: أن الأسوة برسول الله ﷺ لمن كان يرجو الله، قال ابن عباس: يرجو ثواب الله، وقال مقاتل: يخشى الله ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: يخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في جميع المواطن على السراء والضراء.

ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال:

وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا﴾ تسليمًا لأمر الله وتصديقًا لوعده: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وعد الله إيَّاهم ما ذكر في سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم»، إلى قوله: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤]، فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء، فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي: تصديقًا لله، وتسليمًا لأمر الله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: قاموا بما عاهدوا الله عليه

ووفوا به ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: فرغ من نذره، ووفَّى بعهده، فصبر على الجهاد حتى استشهد، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة. وقال محمد بن إسحاق: «فمنهم من قضى نحبه» من استشهد يوم بدر وأُحد، «ومنهم من ينتظر»، يعني: مَن بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين: إمَّا الشهادة أو النصر ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾.

عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليَرَيَنَّ الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني: أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني: المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلاَّ أُخته ببنانه، قال أنس: كنا نظن أو نُرَى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: «مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ» إلى آخر الآية[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: جزاءَ صدقِهم، وصدقُهم هو الوفاءُ بالعهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيهديهم إلى الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قريش وغطفان ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ لم يشفِ صدورَهم بنيلِ ما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ ظفرًا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالملائكة والريح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قويًّا في ملكه، عزيزًا في انتقامه.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ والمسلمين وهم بنو قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم ومعاقلهم، وذلك أن رسول الله ﷺ لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب راجعين إلى بلادهم وانصرف النبي ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فلما كان الظهر أتى جبريل رسولَ الله معتجرًا بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة وعليها قطيفة من ديباج، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه، فقال: قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: عفا الله عنك، ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة، وما رجعت الآن إلاَّ من طلب القوم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٢١)، ومسلم برقم١٩٠٣: (٣/ ١٥١٢).

فأمر النبي ﷺ مناديًا فأذن: «أن مَن كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلاَّ في بني قريظة»، وقدَّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ برايته إليهم، وابتدرها الناس فسار علي ـ رضي الله عنه ـ حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخباث، قال: «لِمَ، أظنك سمعت لي منهم أذًى»؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «لو قد رأَوْني لم يقولوا من ذلك شيئًا».

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة والخنازير، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته»؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وكان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده.

فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود، إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثًا فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هنَّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد رجالاً مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئًا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتخذنَّ النساء والأبناء، فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير في العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنُوا فيها فانْزِلُوا لعلَّنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه مَن كان قبلنا؟ أما من قد علمت فأصابهم من المسخ ما لم يخف عليك؟ فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أُمه ليلة واحدة في الدهر حازمًا؟ قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقَّ لهم، فقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، قالوا: ماذا يفعل بنا إذا نزلنا؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابه على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله لا يطأ بني قريظة أبدًا، ولا يراني الله في بلد خنت الله

ورسوله فيه أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه، قال: أما لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، ثم إن الله تعالى أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يضحك، فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله، أضحك الله سنك؟ قال: «تيب على أبي لبابة»، فقلت: ألا أبشره بذلك يا رسول الله؟ فقال: «بلى إن شئت»، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا، والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه فسألهم إيَّاه عبد الله بن أُبي بن سلول، فوهبهم له، فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم»؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده، وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَن كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة؛ حتى أعوده من قريب، فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فاحتملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيمًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنَّما ولاَّك ذلك؛ لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض مَن كان معه من قومه إلى دار بني الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاَّك مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنَّ الحكم فيها ما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث امرأة مِن بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خندقًا ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق.

وروى عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لم يقتل من نساء بني قريظة إلاَّ امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي وتضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة، قالت: أنا والله، قلت: ويلك مالك؟ قالت: أُقتل، قلت: ولِمَ؟ قالت: حدثٌ أحدثتُه؟ قالت: فانطلق بها فضُرب عنقُها، وكانت عائشة تقول: ما أنس عجبًا منها طيب نفس وكثرة ضحك، وقد عرفت أنها تقتل.

أخبرنا إسرائيل سمعت أبا إسحاق يقول: سمعت سليمان بن صرد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»[1].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلاَّ الله وحده، أعزَّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[2].

قال الله تعالى في قصة قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال، يقال: كانوا ستمائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراري، يقال: كانوا سبعمائة وخمسين، ويقال: تسعمائة.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بعد، قال ابن زيد ومقاتل: يعني: خيبر، قال قتادة: كنا نحدث أنها مكة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي ﷺ سألنه شيئًا من عَرَض الدنيا، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهنَّ على بعض، فهجرهنَّ رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهنَّ شهرًا ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا: ما شأنه؟ وكانوا يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر: لأعلمنَّ لكم شأنه، قال:

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٠٦)، ومسلم برقم ٢٧٢٤: (٤/ ٢٠٨٩).

فدخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أطلقتهنَّ؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهنَّ؟ قال: «نعم، إن شئت»، فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، فنزلت هذه الآية: «يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ» [النساء: ٨٣]، فكنت أنا استنبطت ذاك الأمر، وأنزل الله آية التخيير، وكانت تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر، وأُم حبيبة بنت أبي سفيان، وأُم سلمة بنت أبي أُمية، وسودة بنت زمعة، وغير القرشيات: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيَّة -رضوان الله عليهنَّ- فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، وكانت أحبهنَّ إليه فخيَّرها وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعنها على ذلك(١).

واختلف العلماء في هذا الخيار أنه هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهنَّ حتى يقع بنفس الاختيار أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم: إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق، وإنما خيرهنَّ على أنهنَّ إذا اخترن الدنيا فارقهنَّ، لقوله تعالى: «فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا»، بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور، فإنه قال لعائشة: «لا تعجلي حتى تستشيري أبويك»، وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور.

وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بمعصية ظاهرة، قيل: هو كقوله عزَّ وجلَّ: «﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾» [الزمر: ٦٥]، لا أن منهنَّ من أتت بفاحشة.

وقال ابن عباس: المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ﴾ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ قال مقاتل: كان عذابها على الله هينًا، وتضعيف عقوبتهنَّ على المعصية لشرفهنَّ كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة، وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهنَّ، وفيه إشارة إلى أنهنَّ أشرف نساء العالمين.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥١٩)، مسلم برقم١٤٧٥: (٢/ ١١٠٥ - ١١٠٨).

لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ يطع ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مثلي أجر غيرها. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ حسنًا، يعني: الجنة.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال ابن عباس: يريد ليس قَدْرُكنَّ عندي مثل قدر غيركنَّ من النساء الصالحات، أنتن أكرم عليَّ، وثوابُكنَّ أعظمُ لديَّ.

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله فأطعتنَّه ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ لا تَلِنَّ بالقول للرجال، ولا ترققن الكلام ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: فجور وشهوة، وقيل: نفاق، والمعنى: لا تقلن قولاً يجد منافق أو فاجر به سبيلاً إلى الطمع فِيْكُنّ. والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ لوجه الدين والإسلام، بتصريح وبيان من غير خضوع. ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ اقررن، أي: الزمن بيوتَكُن. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ قال مجاهد وقتادة: التبرج هو التكسر والتغنج، وقال ابن أبي نجيح: هو التبختر، ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ اختلفوا في الجاهلية الأولى، قال الشعبي: هي ما بين عيسى ومحمد ﷺ.

وقال أبو العالية: هي في زمن داود وسليمان عليهما السلام، كانت المرأة تلبس قميصًا من الدر غير مخيط من الجانبين فيُرى خلقها فيه.

وقال قتادة: هي ما قبل الإسلام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أراد بالرجس: الإثم الذي نهى الله النساء عنه.

وأراد بأهل البيت: نساء النبي ﷺ لأنهنَّ في بيته، وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وتلا قوله: «وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ»، وهو قول عكرمة ومقاتل.

وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين، منهم: مجاهد وقتادة وغيرهما: إلى أنهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين.

عن عائشة أم المؤمنين قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء عليٌّ فأدخله فيه، ثم جاء حسن فأدخله فيه، ثم جاء حسين فأدخله فيه، ثم قال: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»[١].

عن أم سلمة قالت: في بيتي أنزلت: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ»،

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٤٢٤: (٤/١٨٨٣).

قالت: فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين، فقال: «هؤلاء أهل بيتي»، قالت: فقلت: يا رسول الله، أمَا أنا من أهل البيت؟ قال: «بلى، إن شاء الله»[١].

قال زيد بن أرقم: أهل بيته مَنْ حَرُمَ الصدقةُ عليه بعده: آلُ علي وآلُ عقيل وآلُ جعفر وآلُ عباس.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال قتادة: يعني: السنة، وقال مقاتل: أحكام القرآن ومواعظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: لطيفًا بأوليائه، خبيرًا بجميع خلقه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية، وذلك أن أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله، ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير، فما فينا خير نُذكر به، إنا نخاف أن لا يقبل منَّا طاعةً، فأنزل الله هذه الآية.

وروي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لَفِي خيبة وخسار، قال: ومِمَّ ذاك؟ قالت: لأنهنَّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المطيعين ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في إيمانهم، وفيما ساءهم وسرهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على ما أمر الله به ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين، وقيل: أراد به الخشوع في الصلاة، ومن الخشوع: أن لا يلتفت ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ ممَّا رزقهم الله ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عمَّا لا يحل ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «قد سبق المفرِّدون»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال:

---

(١) أخرجه الحاكم: (٣/ ١٤٦).

«الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[١].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ نزلت الآية في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، خطب رسول الله لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيدًا في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت، وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت، وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني: عبد الله بن جحش ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: أخته زينب ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا أراد الله ورسوله أمرًا: وهو نكاح زينب لزيد ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الاختيار.

والمعنى: أن يريد غير ما أراد الله، أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أخطأ خطأ ظاهرًا، فلما سمعا ذلك رضيا بذلك وسلَّما، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيدًا، فدخل بها وساق رسولُ الله ﷺ إليها عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخمارًا، ودرعًا وإزارًا، وملحفة، وخمسين مدًّا من طعام، وثلاثين صاعًا من تمر.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق، وهو زيد بن حارثة: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيها ولا تفارقها ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تسرّ في نفسك ما الله مظهره، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس والحسن: تستحييهم.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية.

وروي عن مسروق قال: قالت عائشة: لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أُوحي إليه لكتم هذه الآية: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٧٦: (٤/ ٢٠٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٧١ - ٧٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين زين العابدين: ما يقول الحسن في قوله: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ»؟ قلت: يقول: لما جاء زيد إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إني أُريد أن أُطلق زينب فأعجبه ذلك، فقال: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، فقال علي بن الحسين: ليس كذلك، كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدًا سيطلقها، فلما جاء زيد وقال: إني أُريد أن أُطلقها قال له: «أمسك عليك زوجك»، فعاتبه الله وقال: لِمَ قلتَ: أمسِكْ عليك زوجك وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك[1]؟

وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة؛ لأن الله علم أنه يبدي ويظهر ما أخافه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال: «زوجناكها»، فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدل على أنه إنَّما عُوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له، وإنما أخفاه استحياءً أن يقول لزيد: التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي، وهذا قول حسن مُرْضٍ، وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الأنبياء؛ لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه في مثل هذه الأشياء ما لم يقصد فيه المأثم؛ لأن الود وميل النفس من طبع البشر.

وقوله: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله» أمر بالمعروف، وهو خشيةٌ لا إثم فيه.

وقوله تعالى: «والله أحق أن تخشاه» لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه ﷺ قد قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له»، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجة من نكاحها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنى تحلُّ بعد الدخول بها. ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قال أنس: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجَكُنَّ أهاليكُنَّ وزوجني الله من فوق سبع سموات[2].

وقال الشعبي: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهنَّ: جدي وجدك واحد، إني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام[3].

عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ»، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمِّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر

---

(١) انظر: ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ٤٩٢).
(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٠٣ - ٤٠٤).
(٣) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٤).

إليها؛ لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتُها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك.

قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أُؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

قال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم، حتى امتد النهار، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ فاتبعته فجعل يتتبع حُجَرَ نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني.

قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب(١).

عن أنس قال: ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، أَوْلَمَ بشاة(٢).

عن أنس قال: أَوْلَمَ رسولُ الله ﷺ حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزًا ولحمًا(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ إثم ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ يقول: زوجناك زينب، وهي امرأة زيد الذي تبنَّيته، ليعلم أن زوجة المتبنَّى حلال للمتبنِّي وإن كان قد دخل بها المُتَبَنَّى، بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كان قضاء الله ماضيًا وحكمه نافذًا، وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ أي: فيما أحل الله له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: كسنَّة الله، ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ أي: في الأنبياء الماضين، أن لا يؤاخذهم بما أحل لهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ قضاءً مقضيًا كائنًا ماضيًا.

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٤٢٨: (٢/ ١٠٤٨).
(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٢٣٢)، ومسلم برقم١٤٢٨: (٢/ ١٠٤٩).
(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٢٨).

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ حافظًا لأعمال خلقه ومحاسبهم.

ثم إن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب قال الناس: إن محمدًا تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، يعني: زيد بن حارثة، أي: ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إيَّاها. ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ختم الله به النبوة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

عن أبي سلمة قال: كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمَثَلِ قصر أُحسن بنيانُه، تُرِكَ منه موضع لَبِنَةٍ فطاف به النُّظَّارُ يتعجبون من حسنِ بنيانِه إلاَّ موضع تلك اللَّبنةِ لا يعيبون سواها فكنت أنا سددتُ موضع تلك اللبنة، خُتم بي البنيانُ وخُتم بي الرسلُ»[(١)].

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي»[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ قال ابن عباس: لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلاَّ جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإنه لم يجعل له حدًّا يُنتهَى إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلاَّ مغلوبًا على عقله، وأمرهم به في كل الأحوال، فقال: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ» [النساء: ١٠٣]، وقال: «اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا»، أي: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي الصحة والسقم، في السر والعلانية، وقال مجاهد: الذكر الكثير أن لا تنساه أبدًا. ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي: صَلُّوا له ﴿بُكْرَةً﴾ يعني: صلاة الصبح ﴿وَأَصِيلًا﴾ يعني: صلاة العصر. وقال مجاهد: يعني: قولوا سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فعبَّر بالتسبيح عن أخواته.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فالصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار للمؤمنين. قال أنس: لما نزلت: «إن الله وملائكته يصلونَ على النبي»، قال أبو بكر: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلاَّ وقد أُشركنا فيه، فأنزل الله هذه الآية.

قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، يعني: أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

---

(١) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٠١).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٥٤).

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: تحية المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يرون الله ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: يسلم الله عليهم، ويسلمهم من جميع الآفات. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: شاهدًا للرسل بالتبليغ، ومبشرًا لمن آمن بالجنة، ونذيرًا لمن كذب بآياتنا بالنار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سماه سراجًا؛ لأنه يهتدى به كالسراج يستضاء به في الظلمة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ذكرنا تفسيره في أول السورة ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: اصبر على أذاهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع؛ لأن الله تعالى رتَّب الطلاق على النكاح، حتى لو قال لامرأة أجنبية: إذا نكحتك فأنت طالق، وقال: كل امرأة أنكِحُها فهي طالق، فنكح، لا يقع الطلاق، وهو قول علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاووس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم ـ رضي الله عنهم ـ، وبه قال الشافعي.

وروي عن ابن مسعود: أنه يقع الطلاق، وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي.

وقال ربيعة ومالك والأوزاعي: إن عيَّن امرأة يقع، وإن عمَّ فلا يقع.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كذبوا على ابن مسعود، إن كان قالها فزلة من عالم، في الرجل يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، يقول الله تعالى: «إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ»، ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهنَّ[1].

عن جابر قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح»[2].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٢٣٢ - ٢٣٦).
(٢) أخرجه الحاكم: (٢/ ٤٢٠).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهنَّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ تحصونها بالأقراء والأشهر ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهنَّ ما يستمتعن به، قال ابن عباس: هذا إذا لم يكن سمى لها صداقًا فلها المتعة، فإن كان قد فرض لها صداقًا فلها نصف الصداق ولا متعة لها، وقال قتادة: هذه الآية منسوخة بقوله: «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» [البقرة: ٢٣٧]، وقيل: هذا أمر ندب، فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر.

وذهب بعضهم إلى أنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ خلوا سبيلهنَّ بالمعروف من غير ضرار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ردَّ عليك من الكفار بأن تسبي فتملك مثل: صفية وجويرية، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له إبراهيم ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ يعني: نساء قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ يعني: نساء بني زهرة ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إلى المدينة، فمن لم تهاجر منهنَّ معه لم يجز له نكاحها.

وروى أبو صالح عن أم هانىء أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل(١).

﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق، فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أوجبنا على المؤمنين ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ من الأحكام أن لا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلاَّ بولي وشهود ومهر ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا يرجع إلى أول الآية، أي: أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لك لكي لا يكون عليك حرج وضيق.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ٧٤ - ٧٦)، وقال: (هذا حديث حسن).

۞﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿تُرْجِي﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ﴾ أي: تضم ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ﴾.

اختلف المفسرون في معنى الآية: فأشهر الأقاويل أنه في القسم بينهن، وذلك أن التسوية بينهن في القسم كان واجبًا عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهنَّ.

وقال مجاهد: «ترجي من تشاء منهنَّ»، يعني: تعزل من تشاء منهنَّ بغير طلاق، وترد إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد.

وقال ابن عباس: تطلق من تشاء منهنَّ وتمسك من تشاء.

وقال: كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: طلبت وأردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن القسم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ﴾ لا إثم عليك، فأباح الله له ترك القسم لهنَّ حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن في نوبتها ويطأ من يشاء منهنَّ في غير نوبتها، ويرد إلى فراشه من عزلها تفضيلاً له على سائر الرجال ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أي: التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أقرب إلى رضاهنَّ وأطيب لأنفسهنَّ وأقل لحزنهنَّ إذا علمن ذلك من الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ أعطيتهن ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾ من تقرير وإرجاء وعزل وإيواء ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾ من أمر النساء، والميل إلى بعضهنَّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ «من بعد»، يعني: من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن فاخترنك، وذلك أن النبي ﷺ لما خيرهنَّ فاخترن الله ورسوله شكر الله لهنَّ وحرم عليه النساء سواهنَّ، ونهاه عن تطليقهنَّ وعن الاستبدال بهن، هذا قول ابن عباس وقتادة. واختلفوا في أنه هل أبيح له النساء من بعد؟

قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له النساءُ سواهن. وقال أنس: مات على التحريم.

وقال عكرمة والضحاك: معنى الآية: لا يحل لك النساء إلاَّ اللاتي أحللنا لك وهو قوله: «إنا أحللنا لك أزواجك ...» الآية، ثم قال: «لا يحل لك النساء من بعد» إلاَّ التي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يعني: ليس لك أن تطلق أحدًا من نسائك، وتنكح بدلها أُخرى ولو أعجبك جمالها.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ملك بعد هؤلاء مارية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظًا.

وفي الآية دليل على جواز النظر إلى مَن يريد نكاحها من النساء، روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدُكم المرأةَ فإن استطاعَ أن ينظرَ إلى ما يدعوه إلى نكاحِها فلْيفعل»[١].

عن المغيرة بن شعبة قال: خطبتُ امرأةً، فقال لي النبي ﷺ: «هل نظرتَ إليها»؟ قلت: لا، قال: «فانظرْ إليها فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما»[٢].

عن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «انظرْ إليها فإن في أعينِ نساءِ الأنصار شيئًا»[٣] قال الحميدي: يعني: الصغر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية، قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ.

عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين مَقدَم رسولِ الله ﷺ المدينة، قال: وكانت أُم هانىء تواظبني على خدمة النبي ﷺ، فخدمته عشر سنين، وتوفي النبي ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل، فكان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبي ﷺ بها عروسًا فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجتُ معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت حتى جاء حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣/ ٢٥ - ٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي: (٤/ ٢٠٦)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي: (٦/ ٦٩ - ٧٠)، وابن ماجه: (١/ ٦٠٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم١٤٢٤: (٢/ ١٠٤٠).

معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يخرجوا، فرجع النبي ﷺ ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة، وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر، وأنزل الحجاب[1].

وقال أبو عثمان ـ واسمه: الجعد ـ عن أنس قال: فدخل ـ يعني: رسول الله ﷺ ـ البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة، وهو يقول: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾»، إلى قوله: «﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾»[2].

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يُدرَك ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم، فنزلت[3]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يقول: إلاَّ أن تُدعَوْا ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فيؤذن لكم فتأكلونه ﴿غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ غير منتظرين إدراكه ووقت نضجه.

﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ أكلتم الطعام ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ تفرقوا واخرجوا من منزله ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولا طالبين الأُنس للحديث، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون طويلاً، فنُهوا عن ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياءً.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: من وراء ستر، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الريب.

وقد صح في سبب نزول آية الحجاب ما أخبرنا عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ كنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع، وهو صعيد أفيح، وكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة ـ حرصًا على أن ينزل الحجاب ـ، فأنزل الله تعالى آية الحجاب[4].

عن أنس قال: قال عمر: وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»، وقلت: يا رسول الله، إنه يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرت أُمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٢٣٠).
(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٢٢٦ - ٢٢٧).
(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٤١).
(٤) أخرجه البخاري: (١/ ٢٤٨).

بعض ما آذى به رسولَ الله ﷺ نساؤه، قال: فدخلت عليهنَّ استقربهنَّ واحدة واحدة، قلت: والله لتنتهُنَّ أو ليبدلنَّه الله أزواجًا خيرًا منكنَّ، حتى أتيت على زينب فقالت: يا عمر، ما كان في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهنَّ أنت، قال: فخرجت فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾» [التحريم: ٥] إلى آخر الآية[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا.

إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله ﷺ.

ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضًا نكلمهنَّ من وراء حجاب؟ فأنزل الله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ أي: لا إثم عليهن في ترك الاحتجاب من هؤلاء ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قيل: أراد به النساءَ المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول عليهن، وقيل: هو عام في المسلمات والكتابيات، وإنما قال: «ولا نسائهنَّ» لأنَّهنَّ من أجناسهنَّ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

واختلفوا في أن عبد المرأة هل يكون محرمًا لها أم لا؟

فقال قوم: يكون محرمًا لقوله عزَّ وجلَّ: «ولا ما ملكت أيمانهنَّ». وقال قوم: هو كالأجانب، والمراد من الآية الإماء دون العبيد.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أن يراكن غير هؤلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أعمال العباد ﴿شَهِيدًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قال ابن عباس: أراد: إن الله يرحم النبي، والملائكة يدعون له، وعن ابن عباس أيضًا: «يصلون» يتبركون. وقيل: الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ ادعوا له بالرحمة ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: حيّوه بتحية الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ١٦٨)، ومسلم برقم٢٣٩٩: (٤/ ١٨٦٥).

وقال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء.

حدثني عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سمع عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ فقلت: بلى فاهدها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

عن عمرو بن سليمان الزرقي أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما بارت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(٢).

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرُهم عليَّ صلاةً»(٣).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن صلى عليَّ واحدةً صلى الله عليه عشرًا»(٤).

عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه جاء ذات يوم والبشرى في وجهه، فقال: إنه جاءني جبريل فقال: إن ربك يقول: أما يرضيك يا محمد أن لا يُصَلِّي عليك أحدٌ من أُمتك إلاَّ صلَّيتُ عليه عشرًا ولا يسلم عليك أحد من أُمتك إلاَّ سلمت عليه عشرًا»(٥).

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكةً سيَّاحين في الأرضِ يبلغوني عن أُمَّتي السلام»(٦).

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ١٦٩)، ومسلم برقم٤٠٧: (١/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه الترمذي: (٢/ ٦٠٧ - ٦٠٨)، وقال: (هذا حديث حسن غريب).

(٤) أخرجه مسلم برقم٤٠٨: (١/ ٣٠٦).

(٥) أخرجه النسائي: (٣/ ٥٠)، والإمام أحمد: (٤/ ٢٩ - ٣٠)، والحاكم: (٢/ ٤٢٠).

(٦) أخرجه النسائي: (٣/ ٤٣)، والدارمي: (٢/ ٢٢٥)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢١)، ووافقه الذهبي.

قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى والمشركون، فأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، ويد الله مغلولة، وقالوا: إن الله فقير، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وأما المشركون فقالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «يقول الله سبحانه وتعالى: شتمني عبدي، يقول: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد»(١).

وروينا عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يؤذيني ابنُ آدم يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر، بيدي الأمرُ أُقلِّبُ الليلَ والنهار»(٢).

وقيل: معنى «يؤذون الله» يلحدون في أسمائه وصفاته، وقال عكرمة: هم أصحاب التصاوير.

عن أبي زرعة سمع أبا هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبَّة أو شعيرة»(٣).

وقال بعضهم: «يؤذون الله»، أي: يؤذون أولياء الله، كقوله تعالى: «﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾» [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

وروينا عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وقال: من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم، وقال مجاهد: يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء، فقال جلَّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ جمع الجلباب، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار. وقال ابن عباس وأبو عبيدة: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهنَّ ووجوههن بالجلابيب إلاَّ عينًا واحدة ليعلم أنهنَّ حرائر.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهنَّ حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فلا يتعرض لهنَّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة، وقال: يا لكاع أتتشبهين بالحرائر، ألقي القناع.

۞ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فجور، يعني:

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٣٩).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٧٤)، ومسلم برقم٢٢٤٦: (٤/ ١٧٦٢).
(٣) أخرجه البخاري: (١٣/ ٥٢٨)، ومسلم برقم٢١١١: (٣/ ١٦٧١).
(٤) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٤٠ - ٣٤١).

الزناة ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بالكذب، وذلك أن ناسًا منهم كانوا إذا خرجتْ سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس أنهم قتلوا وهزموا، ويقولون: قد أتاكم العدو، ونحوها. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنحرشنَّك بهم، ولنسلطنَّك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ لا يساكنونك في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حتى يخرجوا منها، وقيل: لنسلطنَّك عليهم حتى تقتلهم وتخلي منهم المدينة.

مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ مطرودين، نصب على الحال ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ أي: الحكم فيهم هذا على وجه الأمر به ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: كسنة الله ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ﴾ من المنافقين، والذين فعلوا مثل فعل هؤلاء ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيُّ شيء يعلمك أمر الساعة، ومتى يكون قيامها؟ أي: أنت لا تعرفه ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ ظهر لبطن حين يسحبون عليها ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ في الدنيا.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: ضعفي عذاب غيرهم ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ فطهَّره الله مما قالوا: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ كريمًا ذا جاهٍ. قال ابن عباس: كان حظيًّا عند الله لا يسأل شيئًا إلاَّ أعطاه، وقال الحسن: كان مستجاب الدعوة.

واختلفوا فيما أُوذي به موسى:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء؛ استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلاَّ من عيب

بجلده، إمَّا برص أو أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجرَ عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا»[١]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾».

وقال أبو العالية: هو أن قارون استأجر مومسة؛ لتقذف موسى بنفسها على رأس الملإ، فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك، وأهلك قارون.

عن الأعمش قال: سمعت أبا وائل قال: سمعت عبد الله قال: قَسَمَ النبي ﷺ قَسْمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»[٢].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ قال ابن عباس: صوابًا، وقال قتادة: عدلاً، وقال الحسن صدقًا، وقيل: مستقيمًا، وقال عكرمة هو: قول لا إله إلاَّ الله.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم، وقال مقاتل: يزكِّ أعمالكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: ظفر بالخير كله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ الآية، أراد بالأمانة: الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده، عرضها على السموات والأرض والجبال على أنهم إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، وهذا قول ابن عباس.

وقال ابن مسعود: أداء الصلوات، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وصدق الحديث، وقضاء الدين، والعدل في المكيال والميزان، وأشد من هذا كله الودائع.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه البخاري: (١٠/ ٥١١)، ومسلم برقم١٠٦٢: (٢/ ٧٣٩).

وقال مجاهد: الأمانة: الفراض، وحدود الدِّين. وقال أبو العالية: ما أمروا به ونهوا عنه. وقال زيد بن أسلم: هو الصوم، والغسل من الجنابة، وما يخفى من الشرائع.

وقال بعض أهل العلم: المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهل السموات والأرض، وعرضها على مَن فيها من الملائكة.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهنَّ العقاب ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ يعني: آدم عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قال ابن عباس: ظلومًا لنفسه، جهولاً بأمر الله وما احتمل من الأمانة.

وذكر الزجاج وغيره من أهل المعاني في قوله: «﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾» قولان، فقالوا: إن الله ائتمن آدم وأولاده على شيء، وائتمن السموات والأرض والجبال على شيء، فالأمانة في حق بني آدم ما ذكرنا في الطاعة والقيام بالفرائض، والأمانة في حق السموات والأرض والجبال هي الخضوع والطاعة لما خلقهن له.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ قال مقاتل: ليعذبهم بما خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يهديهم ويرحمهم بما أدَّوْا من الأمانة.

وقال ابن قتيبة: أي: عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه، أي: يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات.

سورة سبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وخَلقًا ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ لأن النعم في الدارين كلها منه. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يدخل فيها من الماء والأموات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأموات إذا حشروا ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: وربي عالم الغيب، ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرَّة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذَّرَّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: الذين آمنوا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن، يعني: في الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ يحسبون أنهم يفوتوننا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: أنه من عند الله ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منكرين للبعث، متعجبين منه: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم، يعنون: محمدًا ﷺ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ قُطّعتم كل تقطيع، وفُرِّقْتُم كل تفريق، وصرتم ترابًا ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول لكم: إنكم لفي خلق جديد.

﴿أَفْتَرَىٰ﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ولذلك نصبت ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقولون: أزعم كذبًا أم به جنون؟

قال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها، وأنا القادر عليهم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ

ٱلْأَرْضَ﴾ ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ترون من السماء والأرض ﴿لَءَايَةً﴾ تدل على قدرتنا على البعث ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ تائب راجع إلى الله بقلبه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ يعني: النبوة والكتاب، وقيل: الملك، وقيل: جميع ما أُوتي من حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خُصَّ به ﴿يَٰجِبَالُ﴾ أي: وقلنا: يا جبال ﴿أَوِّبِى﴾ أي: سبحي ﴿مَعَهُۥ﴾ إذا سبح. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معناه: وسخرنا وأمرنا الطير أن تسبح معه. وقيل: كان داود ﷺ إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطًا له. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروعًا كوامل واسعات طوالاً تسحب في الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ والسرد: نسج الدروع، «وقدر في السرد»: اجعله على القصدِ وقدرِ الحاجة ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ يريد: داودَ وآله ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: سير غُدوِّ تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر، وسير رواحها مسيرة شهر، وكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: أذبنا له عين النحاس، و«القِطْرُ»: النحاس. قال أهل التفسير: أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء، وكان بأرض اليمن، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمر ربه، قال ابن عباس: سخر الله الجنَّ لسليمان، وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أي: يعدل ﴿مِنْهُمْ﴾ من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وقال بعضهم: في الدنيا، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ وكّل بهم ملكًا بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا

دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ﴾ أي: مساجد، والأبنية المرتفعة، وكان مما عملوا له بيت المقدس، ابتدأه داود ورفعه قدر قامة رجل، فأوحى الله إليه: إني لم أقض ذلك على يدك، ولكن ابنٌ لك أملّكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده، فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بناء بيت المقدس، فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال فخصَّ كل طائفة منهم بعمل يستخلصها له.

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثًا فأعطاه اثنين، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة، سأل حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه إيَّاه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأعطاه إيَّاه، وسأله أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلاَّ خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَـٰثِيلَ﴾ أي: كانوا يعملون له تماثيل، أي: صورًا من نحاس وصُفْر وشَبَهٍ وزجاج ورخام.

﴿وَجِفَانٍ﴾ أي: قصاع، واحدتها: جفنة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحياض التي يجبى فيها الماء، أي: يجمع، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثابتات، لها قوائم لا يحركن عن أماكنها لعظمهنَّ، ولا ينزلن ولا يعطّلن، وكان يصعد عليها بالسلالم، وكانت باليمن. ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا: اعملوا آل داود شكرًا. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: العامل بطاعتي شكرًا لنعمتي.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان. قال أهل العلم: كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي مات فيها، وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يومًا إلاَّ نبتت في محراب بيت المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع، فإن كانت نبتت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كتب، حتى نبتت الخروبة، فقال لها: ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: لأي شيء نَبَتِّ؟ قالت: لخراب مسجدك، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس! وغرسها في حائط له، ثم قال: اللهم عمِّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ويعلمون ما في غد، ثم دخل

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (١/ ٤٥٢).

المحراب فقام يصلي متكئًا على عصاه فمات قائمًا وكان للمحراب كُوًى بين يديه وخلفه، فكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياته، وينظرون إليه يحسبون أنه حي، ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرَضَةُ عصا سليمان، فخرَّ ميتًا فعلموا بموته. فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأرَضَة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ يعني: عصاه. ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: علمت الجنُّ وأيقنت ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: في التعب والشقاء مسخَّرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيًا، أراد الله بذلك أن يُعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، لغلبة الجهل.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك العُطيفي، قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ، كان رجلاً أو امرأة أو أرضًا؟ قال: «كان رجلاً من العرب وله عشرة من الولد، تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فكندة، والأشعريون، وأزد، ومذحج، وأنمار، وحمير»، فقال رجل: وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا: فعاملة وجذام، ولخم، وغسان، وسبأ هو: ابن يشجب بن يعرب بن قحطان»[1].

﴿فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ثم فسر الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: هي جنتان بستانان ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: عن يمين الوادي وشماله، وقيل: عن يمين من أتاهم وشماله، وكان لهم وادٍ، قيل: أحاطت الجنتان بذلك الوادي ﴿كُلُوا۟﴾ أي: وقيل لهم: كلوا ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني: من ثمار الجنتين، قال السديُّ ومقاتل: كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلىء مكتلها من أنواع الفواكه من غير أن تمس شيئًا بيدها ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: على ما رزقكم من النعمة، والمعنى: اعملوا بطاعته ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: أرض سبأ بلدة طيبة ليست بسبخة، قال ابن زيد: لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وكان الرجل يمرُّ ببلدهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل كله من طيب الهواء، فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: طيبة الهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال مقاتل: وربُّكم إنْ شكرتموه فيما

(١) أخرجه أبو داود: (٦/٨)، والترمذي: (٩/ ٨٨ - ٨٩)، وقال: (هذا حديث غريب حسن)، والحاكم: (٢/ ٤٢٣).

رزقكم ربٌّ غفور للذنوب. ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ قال وهب: فأرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيًّا، فدعوهم إلى الله وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله عزَّ وجلَّ علينا نعمة، فقولوا لربِّكم: فليحبس هذه النعم عنَّا إن استطاع، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ و«العرم»: جمع عرمة، وهي السِّكر الذي يحبس به الماء.

وقال ابن الأعرابي: «العرم» السيل الذي لا يطاق.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأُكُلُ: الثمر، والخمط: الأراك، وثمره يقال له: البرير، هذا قول أكثر المفسرين. وقال المبرد والزجاج: كل نبت قد أخذ طعمًا من المرارة حتى لا يمكن أكله فهو خمط. ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فالأثل هو: الطرفاء، وقيل: هو شجر يشبه الطرفاء، إلاَّ أنه أعظم منه، والسِّدر: شجر معروف، وهو شجر النبق ينتفع بورقه؛ لغسل الرأس، ويغرس في البساتين، ولم يكن هذا من ذلك، بل كان سدرًا بريًّا لا ينتفع به، ولا يصلح ورقه لشيء.

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي: ذلك الذي فعلنا بهم جزيناهم بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾. قال مقاتل: هل يكافأ بعمله السيء إلاَّ الكفور لله في نعمه. وقال الفراء: المؤمن يُجزى ولا يجازى، أي: يجزى للثواب بعمله ولا يكافأ بسيئاته.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر، هي قرى الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها، وكان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى، وكانوا لا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ﴾ أي: قدرنا سيرهم بين هذه القرى، وكان مسيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم. وقال قتادة: كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها، وعلى رأسها مكتلها، فتمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلىء مكتلها من الثمار، وكان ما بين اليمن والشام كذلك.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، فكانوا يسيرون فيها ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: بالليالي والأيام، أيّ وقت شئتم ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدوًّا ولا جوعًا ولا عطشًا، فبطروا وطغوا ولم يصبروا على العافية، وقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز؛ لنركب فيها الرواحل

ونتزوَّد الأزواد، فعجل الله لهم الإجابة، وقال مجاهد: بطروا النعمة وسئموا الراحة.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالبطر والطغيان ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، قال الشعبي: لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة، ومرَّ آل خزيمة إلى العراق، والأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر، وهو جدُّ الأوس والخزرج.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ لعبرًا ودلالات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن معاصي الله ﴿شَكُورٍ﴾ لأنعمه، قال مقاتل: يعني: المؤمن من هذه الأمة صبورٌ على البلاء شاكرٌ للنعماء، قال مطرف: هو المؤمن إذا أُعطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ قرأ أهل الكوفة: «صدَّق» بالتشديد، أي: ظن فيهم ظنًّا فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال السدي عن ابن عباس: يعني: المؤمنين كلهم؛ لأن المؤمنين لم يتبعوه في أصل الدين، وقد قال الله تعالى: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾» [الحجر: ٤٢]، يعني: المؤمنين، وقيل: هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه.

قال ابن قتيبة: إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره الله، قال: لأُغوينَّهم ولأُضلنَّهم، لم يكن مستيقنًا وقتِ هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم، وإنما قاله ظنًّا، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان تسليطنا إياه عليهم ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: إلاَّ لنعلم: لنرى ونميز المؤمن من الكافر، وأراد علم الوقوع والظهور، وقد كان معلومًا عنده بالغيب ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب.

﴿قُلِ﴾ يا محمد، لكفار مكة ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية حذف،

أي: ادعوهم؛ ليكشفوا الضرَّ الذي نزل بكم في سني الجوع، ثم وصفها فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خيرٍ وشرٍّ ونفعٍ وضرٍّ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: للآلهة ﴿فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ شركة ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: وما لله ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ عون.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الله في الشفاعة، قاله تكذيبًا لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم.

واختلفوا في الموصوفين بهذه الصفة، فقال قوم: هم الملائكة، ثم اختلفوا في ذلك السبب فقال بعضهم: إنما يفزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عزَّ وجلَّ، وروينا عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»[1].

وقال الحسن وابن زيد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار.

۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالرزق من السموات: المطر، ومن الأرض: النبات ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: إن لم يقولوا: رازقنا الله، فقل أنت: إن رازقكم هو الله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال، فالنبي ﷺ ومن اتبعه على الهدى، ومن خالفه في ضلال، فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٣٨٠).

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أعلموني الذين ألحقتموهم به، أي: بالله، شركاء في العبادة معه، هل يخلقون وهل يرزقون ﴿كَلَّا﴾ لا يخلقون ولا يرزقون ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه، فأنَّى يكون له شريك في ملكه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: للناس عامة: أحمرهم وأسودهم ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشرًا ومنذرًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وروينا عن جابر أن النبي ﷺ قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعثت إلى الناس عامة»[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ يعني: القيامة.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ أي: لا تتقدمون عليه، يعني: يوم القيامة، وقال الضحاك: يوم الموت لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون، بأن يزاد في أجلكم أو ينقص منه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٣ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يرد بعضهم إلى بعض القول في الجدال ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ استحقروا: وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم القادة والأشراف ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٤٣٥ - ٤٣٦)، ومسلم برقم ٥٢١: (١/ ٣٧٠ - ٣٧١).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أجابهم المتبوعون في الكفر ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ بترك الإيمان.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكركم بنا في الليل والنهار، والعرب تضيف الفعل إلى الليل والنهار على توسع الكلام، كما قال الشاعر:

ونِمْتُ وما لَيْلُ المَطِيِّ بنائم

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟﴾ أظهروا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ وقيل: أخفوا، وهو من الأضداد ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في النار، الأتباع والمتبوعين جميعًا ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ رؤساؤها وأغنياؤها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: قال المترفون للفقراء الذين آمنوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ ولو لم يكن الله راضيًا بما نحن عليه من الدين والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: إن الله أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يعني: أن الله يبسط الرزق ويقدر ابتلاءً وامتحانًا، لا يدل البسط على رضا الله عنه ولا التضييق على سخطه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: قربى، ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ يعني: لكن من آمن ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: يريد: إيمانه وعمله يقربه مني ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشرًا إلى سبعمائة، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ يعملون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطال حجتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ معاندين، يحسبون أنهم

يُعجزوننا ويفوتوننا ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: يعطي خَلَفَه، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ خير من يعطي ويرزق.

وروينا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك»[1].

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلاَّ عزًّا، وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه الله»[2].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: هؤلاء الكفار ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا، فتتبرأ منهم الملائكة.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعني: الشياطين، فإن قيل لهم: كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله: «يَعْبُدُونَ الْجِنَّ»، قيل: أراد الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة، فقوله: «يَعْبُدُونَ»، أي: يطيعون الجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني: مصدقون للشياطين.

ثم يقول الله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ بالشفاعة ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بالعذاب، يريد: أنهم عاجزون، لا نفع عندهم ولا ضر ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ يعنون: محمدًا ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون: القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٤٦٤)، ومسلم برقم٩٩٣: (٢/ ٦٩٠ - ٦٩١).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٥٨٨: (٤/ ٢٠٠١).

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ يعني: هؤلاء المشركين ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يقرؤونها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: لم يأت العرب قبلك نبي، ولا نزل عليهم كتاب.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلنا، وهم: عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم ﴿وَمَا بَلَغُوا۟﴾ يعني: هؤلاء المشركين ﴿مِعْشَارَ﴾ أي: عُشر ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري وتغييري عليهم، يُحذِّر كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ آمركم وأُوصيكم ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: بخصلة واحدة، ثم بيَّن تلك الخصلة فقال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ لأجل الله ﴿مَثْنَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: واحدًا واحدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ جميعًا، أي: تجتمعون فتنظرون وتتحاورون وتنفردون، فتفكرون في حال محمد ﷺ، فتعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون، وليس المراد من القيام القيامَ الذي هو ضد الجلوس، وإنما هو قيام بالأمر الذي هو في طلب الحق، كقوله: «وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ» [النساء: ١٢٧] ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال مقاتل: تم الكلام عند قوله: «ثم تتفكروا»، أي: في خلق السموات والأرض فتعلموا أن خالقها واحد لا شريك له، ثم ابتدأ فقال: «ما بصاحبكم من جنة».

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرٍ﴾ جُعل ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يقول: قل: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا فتتهموني، ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: يأتي بالحق وبالوحي ينزله من السماء فيقذفه إلى الأنبياء ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن والإسلام ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: ذهب الباطل وزهق، فلم يبق منه بقية يبدىء شيئًا أو يعيد.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أي: إثم ضلالتي على نفسي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ مِنَ القرآن والحكمة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ قال قتادة: عند البعث حين يخرجون من قبورهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا يفوتونني، ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال الكلبي: من تحت أقدامهم، وقيل: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها، وحيثما كانوا فهم من الله قريب، لا يفوتونه.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ حين عاينوا العذاب، ﴿وَأَنَّىٰ﴾ من أين ﴿لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ التناول، أي: كيف لهم تناول ما بَعُدَ عنهم، وهو الإيمان والتوبة، وقد كان قريبًا في الدنيا فضيعوه. ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة إلى الدنيا.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يرمون محمدًا بالظن لا باليقين، وهو قولهم: ساحر وشاعر وكاهن، ومعنى الغيب: هو الظن؛ لأنه غاب علمه عنهم، والمكان البعيد: بعدهم عن علم ما يقولون.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أي: بنظرائهم، ومَنْ كان على مثلِ حالهم من الكفار ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت اليأس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ موقع لهم الريبة والتهمة.

سورة فاطر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقها ومبدعها على غير مثال سبق ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ ذوي أجنحة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ قال قتادة ومقاتل: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة أجنحة، ويزيد فيها ما يشاء وهو قوله ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

وقال ابن شهاب في قوله: «يزيد في الخلق ما يشاء»، قال: حسن الصوت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ قيل: من مطر ورزق ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ لا يستطيع أحد على حبسها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فيما أمسك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أرسل.

عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ هل خالق غير الله؛ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من السماء: المطر، ومن الأرض: النبات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يُعزي نبيه ﷺ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: وعد يوم القيامة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: عادوه بطاعة الله، ولا تطيعوه ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي: أشياعه وأولياءه ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ليكونوا في السعير، ثم بيَّن حال موافقيه ومخالفيه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٢٥)، ومسلم برقم٥٩٣: (١/ ٤١٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة. وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾ شُبِّه ومُوِّه عليه وحُسِّنَ ﴿لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: قبيح عمله ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ زيَّن له الشيطان ذلك بالوسواس. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وقيل: جوابه تحت قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فيكون معناه: أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة، أي: تتحسر عليه فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قال الفراء: معنى الآية: مَن كان يريد أن يعلم لِمَن العزة، فلله العزَّة جميعًا. ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو قوله: لا إله إلاَّ الله، وقيل: هو قول الرجل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر.

عن ابن مسعود قال: إذا حدثتكم حديثًا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ: «ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وتبارك الله، إلاَّ أخذهنَّ ملك فجعلهنَّ تحت جناحه ثم صعد بهنَّ فلا يمر بهنَّ على جمع من الملائكة إلاَّ استغفروا لقائلهنَّ حتى يحيي بها وجه رب العالمين، ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾»(1).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يرفع العمل الصالح الكلم الطيب، فالهاء في قوله: «يرفعه» راجعة إلى الكلم الطيب، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسرين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال الكلبي: أي: الذين يعملون السيئات، وقال مقاتل: يعني:

---

(1) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٢٠)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٥) ووافقه الذهبي.

الشرك. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبطل ويهلك في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: نسله ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكرانًا وإناثًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لا يطول عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ يعني: من عمر آخر، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وقيل: قوله: «ولا ينقص من عمره» منصرف إلى الأول، قال سعيد بن جبير: مكتوب في أُم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره.

وقال كعب الأحبار حين حضر عمر ـ رضي الله عنه ـ الوفاة: والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر، فقيل له: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» [الأعراف: ٣٤]، فقال: هذا إذا حضر الأجل، فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص، وقرأ الآية ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابة الآجال والأعمال على الله هيِّن.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ يعني: العذب والمالح، ثم ذكرهما فقال: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ طيب ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي: جائز في الحلق هنيء ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، وقال الضحاك: هو المر ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: الحيتان من العذب والمالح جميعًا ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ أي: من المالح دون العذب ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ، وقيل: نسب اللؤلؤ إليهما؛ لأنه يكون في البحر الأجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من بين ذلك ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ جواري مقبلة ومدبرة بريح واحد ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهو لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ يعني: إن تدعوا الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾

ما أجابوا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها، يقولون: ما كنتم إيانًا تعبدون ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يعني: نفسه، أي: لا ينبئك أحد مثلي خبير عالم بالأشياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى فضل الله، والفقير: المحتاج ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغني عن خلقه، المحمود في إحسانه إليهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ شديد.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بذنوبها غيرها ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: حمل ما عليه من الذنوب ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي: ولو كان المدعو ذا قرابة له ابنه أو أباه أو أمه أو أخاه، قال ابن عباس: يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع حسبي ما عليَّ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ ولم يروه، وقال الأخفش: تأويله أي: إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم بالغيب ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ صلح وعمل خيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لها ثوابه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ يعني: الجاهل والعالم.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ يعني: الكفر والإيمان ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ يعني: الجنة والنار.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ يعني: المؤمنين والكفار، وقيل: العلماء والجهال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ حتى يتعظ ويجيب ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يعني: الكفار، شبههم بالأموات في القبور حين لم يجيبوا ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ما أنت إلاَّ منذرٌ تخوِّفهم بالنار.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ ما من أُمة فيما مضى ﴿إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نبي منذر.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ الواضح كرر ذلك الكتاب بعد ذكر الزُّبُر على طريق التأكيد.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ طرق وخطط، ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ يعني: سود غرابيب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ مجازه: ومن الناس والدواب والأنعام ما هو مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: كما اختلف ألوان الثمار والجبال، وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال ابن عباس: يريد: إنما يخافني من خلقي من عَلِمَ جبروتي وعزتي وسلطاني.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع رسول الله ﷺ شيئًا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[1].

وقال النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي: عزيز في ملكه، غفور لذنوب عباده.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣/٢٧٦)، ومسلم برقم٢٣٥٦: (٤/١٨٢٩).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٢٨٠)، ومسلم برقم٢٣٥٩: (٤/١٨٢٣).

لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني: قرأوا القرآن ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ لن تفسد ولن تهلك، والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم بالثواب ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: يعني: سوى الثواب مما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال ابن عباس: يغفر العظيم من ذنوبهم، ويشكر اليسير من أعمالهم.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: الكتاب الذي أنزلناه إليك الذي ذكر في الآية الأولى: وهو القرآن، جعلناه ينتهي إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال ابن عباس: يريد: أمة محمد ﷺ، ثم قسمهم ورتبهم فقال:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ روي عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب قرأ على المنبر «ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . . .» الآية، فقال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»، قال أبو قلابة: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عزَّ وجلَّ: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . . .» الآية، فقالت: يا بني، كلهم في الجنة، أمَّا السابق بالخيرات فمَن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وأمَّا المقتصد فمَن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأمَّا الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا[1].

وقيل: المراد منه: المنافق، فعلى هذا لا يدخل الظالم في قوله: «جناتُ عدنٍ يدخلونها»، والأول هو المشهور أن المراد من جميعهم المؤمنون، وعليه عامة أهل العلم.

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: سابق إلى الجنة، أو إلى رحمة الله بالخيرات، أي: بالأعمال الصالحات ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: أمر الله وإرادته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني: إيراثهم الكتاب.

ثم أخبر بثوابهم فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني: الأصناف الثلاثة، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

(١) أخرجه الطيالسي في «المسند»: ص٢٠٩، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٦) وتعقبه الذهبي.

أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي: ويقولون إذا دخلوا الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ والحَزَنُ واحد كالبَخل والبُخل، قال ابن عباس: حزن النار، وقال قتادة: حزن الموت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ أنزلنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبنا فيها عناء ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يهلكون فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب النار ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ كافر.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون ويصيحون، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ من النار ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا من الشرك والسيئات، فيقول الله لهم توبيخًا:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قيل: هو البلوغ، وقال عطاء وقتادة والكلبي: ثمان عشرة سنة، وقال الحسن: أربعون سنة، وقال ابن عباس: ستون سنة، يروي ذلك عن علي، وهو العمر الذي أعذر الله تعالى إلى ابن آدم.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله تعالى إلى امرىء أخر أجله حتى بلَّغه ستين سنة»(١).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أُمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»(٢).

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، هذا قول أكثر المفسرين، ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ٦)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٧).

مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضًا، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: عليه وبال كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ غضبًا ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: جعلتموهم شركائي بزعمكم، يعني: الأصنام ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ قال مقاتل: هل أعطينا كفار مكة كتابًا ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ يعني: دلائل واضحة منه مما في ذلك الكتاب من ضروب البيان. ﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾ أي: ما يَعِدُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ والغرور ما يغر الإنسان مما لا أصل له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: كيلا تزولا ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: ما يمسكهما أحد من بعده، أي: أحد سواه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني: كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، وأقسموا بالله وقالوا: لو أتانا رسول لنكوننَّ أهدى دينًا منهم، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بُعث محمدٌ كذبوه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يعني: من اليهود والنصارى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيئه إلاَّ تباعدًا عن الهدى.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ يعني: العمل القبيح.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: لا يحل ولا يحيط المكر السيىء ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فقتلوا يوم بدر، وقال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحل إلاَّ بمن أشرك، والمعنى: وبال مكرهم راجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلاَّ أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ يعني: ليفوت عنه ﴿مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الجرائم ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ يعني: على ظهر الأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ كما كان في زمان نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض إلاَّ مَن كان في سفينة نوح ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: أهل طاعته وأهل معصيته.

سورة يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ اختلفوا في تأويل «يسٓ» حسب اختلافهم في حروف التهجي، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو قسمٌ، ويروى عنه أن معناه: يا إنسان، بلغة طيء، يعني: محمدًا ﷺ، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وجماعة، وقال أبو العالية: يا رجل، وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ أقسم بالقرآن أن محمدًا ﷺ من المرسلين، وهو ردٌّ على الكفار حيث قالوا: «لَسْتَ مُرْسَلًا» [الرعد: ٤٣].

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وهو خبر بعد خبر، أي: أنه من المرسلين وأنه على صراط مستقيم.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قيل: «ما» للنفي، أي: لم ينذر آباؤهم؛ لأن قريش لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ، وقيل: «ما» بمعنى: «الذي»، أي: لتنذر قومًا بالذي أُنذر آباؤهم ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عن الإيمان والرشد.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب العذاب ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا كقوله: «وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ» [الزمر: ٧١].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدًا يصلي ليرضخنَّ رأسه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه، فلما رفعه أُثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه فأخبرهم بما رأى سقط الحجر، فقال رجل من بني مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر، فأعمى الله تعالى بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: ما رأيته، ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر بذنبه، لو دنوت منه لأكلني، فأنزل الله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا»[1].

قال أهل المعاني: هذا على طريق المثل، ولم يكن هناك غل، أراد: مَنَعْناهم عن الإيمان بموانع، فجعل الأغلال مثلاً لذلك.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ معناه: إنا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ والمقمح: الذي رفع رأسه وغض بصره.

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ فأعميناهم، من التغشية وهي التغطية ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ سبيل الهدى.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: إنما ينفع إنذارك مَن اتَّبع الذكر، يعني: القرآن، فعمل

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٥٢).

بما فيه ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن، وهو الجنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عند البعث ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ من الأعمال من خيرٍ وشرٍّ ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: ما سنُّوا من سُنة حسنة أو سيئة.

قال النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً يعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر مَن عمل بها مِن بعده، مِن غير أن ينقص من أُجورهم شيئًا، ومن سَنَّ في الإسلام سنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»(١).

رُوي عن أبي سعيد الخدري قال: شكت بنو سلمة بُعْدَ منازلهم من المسجد فأنزل الله تعالى: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ»(٢).

حدثنا حميد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أرادت بنو سَلَمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة، فقال: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم»؟ فأقاموا(٣).

وعن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: «أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدُهم فأبعدُهم ممشًى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يصلي ثم ينام»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ حفظناه وعددناه وبيَّنّاه ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني: اذكر لهم شبهًا مثل حالهم من قصة أصحاب القرية وهي أنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال العلماء بأخبار الأنبياء: بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى أهل مدينة أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخًا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار، صاحب يسٓ فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن،

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٠١٧: (٢/ ٧٠٤ - ٧٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٩٤ - ٩٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب).

(٣) أخرجه البخاري: (٤/ ٩٩).

(٤) أخرجه البخاري: (٢/ ١٣٧)، ومسلم برقم٦٦٢: (١/ ٤٦٠).

فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم نحن نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ: إن لي ابنًا مريضًا منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نطلع على حاله، فأتى بهما إلى منزله، فمسحا ابنه، فقام في الوقت ـ بإذن الله ـ صحيحًا، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيرًا من المرضى، وكان لهم ملك ـ قال وهب: اسمه انطيخس ـ وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام، قالوا: فانتهى الخبر إليه فدعاهما، فقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، قال: وفيمَ جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، فقال: ولكما إله دون آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك، قال: قومَا حتى أنظر في أمركما، فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب: بل كفر الملكُ، وأجمع هو وقومُهُ على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبًا، وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم يُذَكِّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ قال وهب: اسمهما يوحنا وبولس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ يعني: فقوّينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ برسول ثالث وهو شمعون. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ جميعًا لأهل أنطاكية: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ما أنتم إلاَّ كاذبون فيما تزعمون.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أن المطر حبس عنهم، فقالوا: أصابنا هذا بشؤمكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلنكم، وقال قتادة: بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ يعني: شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبهم، يعني: أصابكم الشؤم من قبلكم، وقال ابن عباس والضحاك: حظكم من الخير والشر ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ يعني: وعظتم بالله، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مشركون مجاوزون الحد.

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وهو حبيب النجار، وقال السدي: كان قصَّارًا، وقال وهب: كان رجلاً يعمل الحرير، وكان سقيمًا قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان مؤمنًا ذا صدقة، يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين، فيطعم

نصفًا لعياله ويتصدق بنصف، فلما بلغه أن قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ قال قتادة: كان حبيب في غار يعبد ربه، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم فأظهر دينه، فلما انتهى حبيب إلى الرسل قال لهم: تسألون على هذا أجرًا؟ قالوا: لا، فأقبل على قومه فقال: «قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ»، فلما قال ذلك قالوا له: وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم؟ فقال:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قيل: أضاف الفطرةَ إلى نفسه والرجوعَ إليهم؛ لأن الفطرة أثر النعمة، وكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر وكان بهم أليق.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي: لا أتخذ من دونه آلهة ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ بسوء ومكروه ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾ لا تدفع عني ﴿شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا شفاعة لها أصلاً فتغني ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من ذلك المكروه. ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ خطأ ظاهر.

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: فاسمعوا مني، فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه. فأدخله الله الجنة، وهو حي فيها يرزق، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلما أفضى إلى الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ يعني: بغفران ربي لي ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه، ليرغبوا في دين الرسل.

فلما قُتِلَ حبيبٌ غضب اللهُ له وعجل لهم النِّقمة، فأمر جبريل عليه السلام فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما كنا نفعل هذا، بل الأمر في إهلاكهم كان أيسر مما يظنون.

ثم بيَّن عقوبتهم فقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

قال المفسرون: أخذ جبريل بعَضادَتَي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحةً واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميتون. ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ قال عكرمة: يعني: يا حسرتهم على أنفسهم. حقيقة المعنى: أن هذا زمان الحسرة والتعجب، ثم بيَّن الحسرة والندامة، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يخبروا، يعني: أهل مكة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ والقرن: أهل كل عصر، سموا بذلك؛ لاقترانهم في الوجود ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يعودون إلى الدنيا، فلا يعتبرون بهم. ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ وما كل إلاَّ جميعٌ، ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ يعني: الحنطة والشعير وما أشبههما ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: من الحب. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: من الثمر الحاصل بالماء ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ أي: يأكلون من الذي عملته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من الزرع والغرس. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الثمار والحبوب ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما خلق من الأشياء من دواب البر والبحر.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ تدل على قدرتنا ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ ننزع ونكشط ﴿مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلمة، ومعناه: نذهب بالنهار ونجيء بالليل، وذلك أن الأصل هي الظلمة، والنهار داخل عليها، فإذا غربت الشمس سُلِخَ النهارُ من الليل، فتظهر الظلمة.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: إلى مستقر لها، أي: إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة، وقيل: إنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها، ثم ترجع فذلك مستقرها؛ لأنها لا تجاوزه، وقيل: مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مستقرها تحت العرش».

عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا»، قال: «مستقرها تحت العرش»[(١)].

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس، «أتدري أين تذهب»؟ قلت:

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٤١)، ومسلم برقم٢٥١: (١/ ١٣٩).

الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيُقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: «وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾»[1].

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدرنا له منازل، فإذا صار القمر إلى آخر المنازل دقَّ، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ والعرجون: عود العذق الذي عليه الشماريخ، فإذا قدم وعتق يبس وتقوس واصفرَّ، فشبّه القمر في دقته وصفرته في آخر المنازل به.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي: لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه، وهو قول تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يجرون.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ والمراد بالذرية: الآباء والأجداد، واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوء، وأراد سفينة نوح عليه السلام، وهؤلاء من نسل من حُمل مع نوح، وكانوا في أصلابهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قيل: أراد به: السفن الصغار التي عملت بعد سفينة نوح على هيئتها، وروي عن ابن عباس أنه قال: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون»، يعني: الإبل، فالإبل في البر كالسفن في البحر.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ﴾ أي: لا مغيث ﴿لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ينجون من الغرق، وقال ابن عباس: ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى انقضاء آجالهم، يعني: إلاَّ أن يرحمهم ويمتعهم إلى آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال ابن عباس: «ما بين أيديكم»، يعني:

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٩٧)، ومسلم برقم ٢٥١: (١/ ١٣٩).

الآخرة، فاعملوا لها، «وما خلفكم» يعني: الدنيا، فاحذروها، ولا تغتروا بها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والجواب محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا عنه، دليله ما بعده:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: دلالة على صدق محمد ﷺ ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أعطاكم الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ﴾ أنرزق ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله، وهو ما جعلوا لله من حروثهم وأنعامهم، قالوا: أنطعم، أنرزق من لو يشاء الله رزقه، ثم لم يرزقه مع قدرته عليه، فنحن نوافق مشيئة الله فلا نُطْعِمُ مَن لم يُطعمه الله، وهذا مما يتمسك به البخلاء، يقولون: لا نعطي من حرمه الله، وهذا الذي يزعمون باطل؛ لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاءً، فمنع الدنيا من الفقير لا بُخلاً، وأمر الغنيَّ بالإنفاق لا حاجةً إلى ماله، ولكن ليبلوَ الغنيَّ بالفقير فيما فرض له في مال الغني، ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول الكفار للمؤمنين: ما أنتم إلاَّ في خطأ بيِّن في اتِّباعكم محمدًا ﷺ وترك ما نحن عليه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: القيامة والبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال ابن عباس: يريد: النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يعني: يختصمون في أمر الدنيا من البيع والشراء، ويتكلمون في المجالس والأسواق.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد رفع الرجل أُكْلَتَهُ إلى فيه فلا يَطْعَمُها»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يقدرون على الإيصاء، قال مقاتل: عجلوا عن الوصية فماتوا ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينقلبون، والمعنى: أن الساعة لا تمهلهم لشيء.

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن

(١) أخرجه البخاري: (١٣/ ٨١ - ٨٢).

مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهي النفخة الأخيرة نفخة البعث، وبين النفختين أربعون سنة ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ يعني: القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يخرجون من القبور أحياء.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ قال أُبَيُّ بن كعب وابن عباس وقتادة: إنما يقولون هذا؛ لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين، فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل. ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار.

﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانت ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: النفخة الآخرة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾. واختلفوا في معنى الشغل، قال ابن عباس: في افتضاض الأبكار، وقال وكيع بن الجراح: في السماع. وقال الحسن: شُغلوا بما في الجنة من النعيم عمَّا فيه أهل النار من العذاب. ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: ناعمون

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ أي: حلائلهم ﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني: السرر في الحِجَال، واحدتها: أريكة، ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ ذَوُو اتكاء.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يتمنون ويشتهون. ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يسلم الله عليهم قولاً، أي: يقول الله لهم قولاً.

قال مقاتل: تدخل الملائكة على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم. وقيل: يعطيهم السلامة، يقول: اسلموا السلامة الأبدية.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال مقاتل: اعتزلوا اليوم من الصالحين، قال أبو العالية: تميزوا.

۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ

نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ألم آمركم يا بني آدم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تطيعوا الشيطان في معصية الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ أطيعوني ووحدوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس، ويقال لهم لمَّا دنوا من النار:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بها في الدنيا ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها ﴿ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ هذا حين ينكر الكفار كفرهم وتكذيبهم الرسل، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم.

عن أبي هريرة قال: سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحاب»؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة»؟ قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم كما لا تضارون في رؤية أحدهما»، قال: «فيلقى العبد فيقول: أي عبدي ألم أكرمك؟ ألم أسوِّدْك، ألم أزوجك، ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك تترأس وتتربع؟ قال: بلى يا رب، قال: فظننت أنك ملاقيّ؟ قال: لا، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني»، قال: «فيلقى الثاني فيقول: ألم أكرمك، ألم أسوِّدْك، ألم أزوجك، ألم أسخر لك الخيل والإبل وأتركك تترأس وتتربع»؟ ـ وقال غيره عن سفيان: «ترأس وتربع»، في الموضعين ـ قال: «فيقول: بلى يا رب، فيقول: ظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا يا رب، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنتُ بك وبنبيك وبكتابك وصليتُ وصمتُ وتصدقتُ ويثني بخير ما استطاع، قال: فيقال له: ألم نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيتفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ، فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، قال: فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذي سَخِطَ الله عليه»[1].

عن أنس بن مالك قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك»؟ قال: قلنا اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: فيقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلاَّ شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه:

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٩٦٨: (٤/ ٢٢٧٩ - ٢٢٨٠).

انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كنتُ أُناضل»[1].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق، وهو معنى الطمس، ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فتبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يبصرون الطريق حينئذ؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يعني: مكانهم، يريد: لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير في منازلهم، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما كانوا عليه، وقيل: لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نضعف جوارحه بعد قوتها ونردها إلى نقصانها بعد زيادتها ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فيعتبروا ويعلموا أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان يقدر على البعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ قال الكلبي: إن كفار مكة قالوا: إن محمدًا شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيبًا لهم: «وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ»، أي: ما يتسهل له ذلك، وما كان يتزن له بيت من شعر، حتى إذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسرًا.

قال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سئلت: هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان الشعر أبغض الحديث إليه، قالت: ولم يتمثل بشيء من الشعر إلاَّ ببيت أخي بن قيس، طرفة:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فجعل يقول: «ويأتيك مَن لم تزود بالأخبار» فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إني لستُ بشاعر ولا ينبغي لي».

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ فيه الفرائض والحدود والأحكام.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: لينذر القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ يعني: مؤمنًا حي القلب؛ لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ ويجب حجة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٩٦٩: (٤/ ٢٢٨٠ - ٢٢٨١).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ تولينا خلقه بإبداعنا من غير إعانة أحد ﴿أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون، أي: لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها، بل هي مسخرة لهم.

وهي قوله: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ سخرناها لهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: ما يركبون وهي الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من لحمانها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونسلها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعم.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يعني: لتمنعهم من عذاب الله، ولا يكون ذلك قط.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: لا تقدر الأصنام على نصرهم ومنعهم من العذاب ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: الكفار جندٌ للأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيرًا، ولا تستطيع لهم نصرًا.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: قول كفار مكة في تكذيبك ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من التكذيب ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عبادة الأصنام أو ما يعلنون بألسنتهم من الأذى.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ جدل بالباطل ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الخصومة، يعني: إنه مخلوق من نطفة ثم يخاصم، فكيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع الخصومة.

نزلت في أُبي بن خلف الجمحي خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد بَلِيَ ففتته بيده، وقال: أترى يُحيي اللهُ هذا بعد ما رمَّ؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك النار»، فأنزل الله هذه الآيات[١].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ بَدْءَ أمره، ثم ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بالية.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ﴾ خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قال ابن عباس: هما شجرتان يقال لأحدهما: المَرْخ، وللأخرى: العَفَار، فمن أراد منهم النار قطع منها غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فيخرج منهما النار بإذن الله عزَّ وجل.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: تقدحون وتوقدون النار من ذلك الشجر، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ﴾ أي: قل: بلى، هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ يخلق خلقًا بعد خلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع ما خلق.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

سورة الصافات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة.

عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم»؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يتمون الصفوف المقدمة ويتراصون في الصف»[٢].

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٢٣ .

(٢) أخرجه مسلم برقم٤٣٠: (١/ ٣٢٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ يعني: الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبائح.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ هم الملائكة يتلون ذكر الله عزَّ وجلَّ، وموضع القسم قوله:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ أي: مطالع الشمس. قيل: أما قوله: «رب المشرق والمغرب»، أراد به الجهة، فالمشرق جهة، والمغرب جهة.

وقوله: «ربُّ المشرقين ورب المغربين»، أراد: مشرق الشتاء ومشرق الصيف، وأراد بالمغربين: مغرب الشتاء ومغرب الصيف.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ بزينة بالكواكب، أي: زيناها بالكواكب.

﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: وحفظناها حفظًا ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ متمرد، يرمون بها.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ لا يتسمعون، ﴿إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: إلى الكتبة من الملائكة. و«الملأ الأعلى» هم الملائكة؛ لأنهم في السماء، ومعناه: أنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾ يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ من آفاق السماء بالشهب. ﴿دُحُورٗاۖ﴾ يبعدونهم عن مجالس الملائكة، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ دائم. ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾ لحقه ﴿شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ كوكب مضيء قوي لا يخطئه، يقتله أو يحرقه أو يُخبله.

فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ۝١٩

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي: سلهم، يعني: أهل مكة ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ يعني: من السموات والأرض والجبال. ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ يعني: جيد حُرٌّ لاصق يعلق باليد.

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾. والعجب من الله عزَّ وجلَّ ليس كالتعجب من الآدميين، فالعجب من الآدميين: إنكاره وتعظيمه، والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار والذم، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا. ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ من تعجبك. قال قتادة: عجب النبي ﷺ من هذا القرآن حين أُنزل وضلال بني آدم، وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به، فعجب من ذلك النبي ﷺ، فقال تعالى: «بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ۝١٢».

﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣﴾ أي: إذا وُعِظوا بالقرآن لا يتعظون. ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ﴾ قال ابن عباس

ومقاتل: يعني: انشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يسخرون ويستهزئون، وقيل: يستدعي بعضهم عن بعض السخرية. ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ يعني: سحر بيِّن.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: وآباؤنا الأولون. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي: قصة البعث أو القيامة ﴿زَجْرَةٌ﴾ أي: صيحة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أحياء.

وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يوم الحساب ويوم الجزاء.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القضاء، ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: أشركوا، اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أشباههم وأتباعهم وأمثالهم. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا، يعني: الأوثان والطواغيت، وقال مقاتل: يعني: إبليس وجنوده، واحتج بقوله: «أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ» [يس: ٦٠].

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس: دلوهم إلى طريق النار. ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم. قال المفسرون: لما سيقوا إلى النار حُبِسُوا عند الصراط؛ لأن السؤال عند الصراط، فقيل: وَقِفُوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قال ابن عباس: عن جميع أقوالهم وأفعالهم. ورُوي عنه: عن لا إله إلاَّ الله.

وفي الخبر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربعة أشياء: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»(١).

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا تتناصرون، يقال لهم توبيخًا: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا.

فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قال ابن عباس: خاضعون، والمعنى: هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الأتباع

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ١٠١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: من قبل الدين فتضلوننا عنه، وتُرونا أن الدين ما تضلوننا به، قاله الضحاك، وقال مجاهد: عن الصراط الحق.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: الرؤساء للأتباع ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ لم تكونوا على الحق فنضلكم عنه، أي: إنما الكفر من قِبَلِكم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ من قوة وقدرة فنقهركم على متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ ضالين.

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جميعًا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ يعني: كلمة العذاب، وهي قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١٣] ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب، أي: أن الضالَّ والمُضِل جميعًا في النار. ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ضالين.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الرؤساء والأتباع.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عباس: الذين جعلوا لله شركاء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يتكبرون عن كلمة التوحيد، ويمتنعون منها. ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون: النبي ﷺ.

قال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ﴾ محمد ﴿بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله. ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ في الدنيا من الشرك.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الموحدين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ يعني: بكرة وعشيًّا. ﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع الفاكهة، وهي الثمار كلها رطبها ويابسها، وهي كل طعام يؤكل للتلذذ لا للقوت ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لا يرى بعضهم قَفَا بعض ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ إناء فيه شراب، ﴿مِّن مَّعِينٍۭ﴾ خمر جارية في الأنهار، ظاهرة تراها العيون.

﴿بَيْضَآءَ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن ﴿لَذَّةٍ﴾ أي: لذيذة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ لَا فِيهَا

﴿غَوْلٌ﴾ قال الشعبي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. وقال أهل المعاني: «الغَوْل» فساد يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية، وخمرة الدنيا يحصل منها أنواع من الفساد، منها السُّكر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول، ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ لا يغلبهم على عقولهم ولا يسكرون.

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حابسات الأعين غاضات الجفون، قصرن أعينهن على أزواجهنَّ لا ينظرن إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ أي: حسان الأعين. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ جمع البيضة ﴿مَّكْنُونٌ﴾ مصون مستور.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يعني: أهل الجنة في الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن حاله في الدنيا. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: من أهل الجنة: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ في الدنيا، ينكر البعث. قال مجاهد: كان شيطانًا، وقال الآخرون: كان من الإنس. ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ بالبعث. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مجزيون ومحاسبون.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى النار، وقيل: يقول المؤمن لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف منزلة أخي، فيقول أهل الجنة: أنت أعرف به منا. ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ قال ابن عباس: إن في الجنة كُوّى ينظر أهلها منها إلى النار، فاطلع هذا المؤمن ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فرأى قرينه في وسط النار.

﴿قَالَ﴾ له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ والله، لقد كدت أن تهلكني. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ رحمته وإنعامه عليَّ بالإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قال بعضهم: يقول هذا أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت: أفما نحن بميتين؟ فتقول لهم الملائكة: لا.

فيقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ وقيل: إنما يقولونه على جهة الحديث بنعمة الله عليهم في أنهم لا يموتون ولا يعذبون.

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً

لِلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾

قال الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لمثل هذا المنزل، ولمثل هذا النعيم الذي ذكره من قوله: «أولئك لهم رزق معلوم» إلى «فليعمل العاملون».

﴿أَذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي ذكر لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ التي هي نزل أهل النار، والزقوم: ثمرة شجرة خبيثة مُرَّة كريهة الطعم، يُكره أهلُ النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ومنه قولهم: تزقّم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ الكافرين، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وقال ابن الزبعري لصناديد قريش: إنَّ محمدًا يخوِّفنا بالزقوم، والزقوم بلسان بربر: الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال: يا جارية زقّمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: تزقّموا فهذا ما يوعدكم به محمد.

فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ قعر النار. ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها، ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الشياطين بأعيانهم شبه بها لقبحها؛ لأن الناس إذا وصفوا شيئًا بغاية القبح، قالوا: كأنه شيطان، وإن كانت الشياطين لا ترى؛ لأن قبح صورتها متصور في النفس.

﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ والملء: حشو الوعاء لا يحتمل الزيادة عليه. ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا﴾ خلطًا ومزاجًا ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء حار شديد الحرارة. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد شرب الحميم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الحميم.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟﴾ وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ يسرعون، قال الكلبي: يعملون مثل أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ من الأمم الخالية.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الكافرين، أي: كان عاقبتهم العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الموحدين، نجوا من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ دعا ربه على قومه ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحن، يعني: أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ الغم العظيم الذي لحق قومه وهو الغرق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وأراد: أن الناس كلهم من نسل نوح.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: أبقينا له ثناء حسنًا وذكرًا جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: سلام عليه منّا في العالمين.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني: الكفار. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: أهل دينه وسنته ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ مخلص من الشرك والشك.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ يعني: أتأفكون إفكًا: وهو أسوأ الكذب، وتعبدون آلهة سوى الله. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره، أنه يصنع بكم.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس: كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم؛ ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لهم القرابين، ويصنعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم ـ زعموا ـ للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج غدًا معنا إلى عيدنا؟ فنظر إلى النجوم فقال: إني سقيم، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرون من الطاعون فرارًا عظيمًا.

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم، فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها، كما قال الله تعالى:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ مال إليها ميلة في خفية، ﴿فَقَالَ﴾ استهزاءً بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: الطعام الذي بين أيديكم. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ مال عليهم ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: كان يضربهم بيده اليمنى؛ لأنها أقوى على العمل من الشمال.

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ يعني: إلى إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرعون. ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم - على وجه الحجاج -: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يعني: ما تنحتون بأيديكم. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بأيديكم من الأصنام، وفيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ معظم النار. ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ شرًّا، وهو أن يحرقوه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: المقهورين، حيث سلَّم الله تعالى إبراهيم وردَّ كيدهم.

وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبراهيم ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أي: مهاجر إلى ربي، والمعنى: أهجر دار الكفر وأذهب إلى مرضاة ربي، قاله بعد الخروج من النار، ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى حيث أمرني بالمصير إليه، وهو الشام.

قال مقاتل: فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يعني: هب لي ولدًا صالحًا من الصالحين.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ قيل: غلام في صغره، حليم في كبره، ففيه بشارة أنه ابن، وأنه يعيش فينتهي في السن حتى يوصف بالحلم. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني: المشي معه إلى الجبل، وقال مجاهد عن ابن عباس: لمَّا شبَّ حتى بلغ سعيُه سعى إبراهيم.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أُمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق، وإليه ذهب من الصحابة: عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي، وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وقالوا: كانت هذه القصة بالشام.

وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي، وهي رواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل.

وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، ومن ذهب إلى أن الذبيح إسحاق احتج من القرآن

بقوله: «﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾» [الصافات: ١٠١ - ١٠٢]، أمره بذبح من بَشَّره به، وليس في القرآن أنه بُشِّر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود: «﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾» [هود: ٧١].

ومن ذهب إلى أنه إسماعيل احتج بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: «﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾» [الصافات: ١١٢]، دلَّ على أن المذبوح غيره، وأيضًا قال الله تعالى في سورة هود: «﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾» [هود: ٧١]، فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه.

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا صميع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

قال ابن إسحاق وغيره: فلما أُمِرَ إبراهيم بذلك، قال لابنه: يا بني خذِ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثَبِيْر أخبره بما أُمِر ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على الأرض.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أن إبراهيم لما أُمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عَرَضَ له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله عزَّ وجلَّ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: أوحينا إليه، فنودي من الجبل ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ تمَّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: إنا كما عفونا إبراهيم عن ذبح ولده نجزي من أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ الاختبار الظاهر. ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه

كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبَّر جبريل، وكبَّر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: تركنا له في الآخرين ثناءً حسنًا.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فمن جعل الذبيح إسماعيل قال: بشره بعد هذه القصة بإسحاق نبيًّا جزاءً لطاعته، ومن جعل الذبيح إسحاق قال: بُشِّرَ إبراهيم بنبوة إسحاق، رواه عكرمة عن ابن عباس، قال: بشر به مرتين حين ولد وحين نبيء.

وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بكون أكثر الأنبياء من نسله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ أي: مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: كافر ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الغم العظيم، وهو الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إيَّاهم، وقيل: من الغرق. ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ يعني: موسى وهارون وقومهما ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على القبط. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: المستنير وهو التوراة. ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ روي عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه، ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فلا تعبدونه.

ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ من قومه، فإنهم نجَوْا من العذاب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾. وقال الفراء: هو جمع أراد: إلياس وأتباعه من المؤمنين، فيكون بمنزلة الأشعرين والأعجمين بالتخفيف. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: الباقين في العذاب. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ والتدمير: الإهلاك. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على آثارهم ومنازلهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح.

﴿وَبِٱلَّيْلِ ۗ﴾ يريد: تمرون بالنهار والليل عليهم إذا ذهبتم إلى أسفاركم ورجعتم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعتبرون بهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ من جملة رسل الله. ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ يعني: هرب. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ووهب: كان يونس وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمَشُور منهم، فقصد البحر فركب السفينة، فاحتبست السفينة فقال الملاحون: هاهنا عبد آبق من سيده، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فاقترعوا ثلاثًا فوقعت على يونس، فقال يونس: أنا الآبق، وزجَّ نفسه في الماء.

فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المقروعين. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه. ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ من الذاكرين لله قبل ذلك. وقيل: «فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾» في بطن الحوت.

لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى

ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لصار بطن الحوت له قبرًا إلى يوم القيامة ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ طرحناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ يعني: على وجه الأرض، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل، كالفرخ الممعَّط.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: له، وقيل: عنده ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ يعني: القرع، على قول جميع المفسرين. قال الحسن ومقاتل: كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء، نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ﴾ قال قتادة: أُرسِل إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه، وقوله: «وأرسلناه»، أي: وقد أرسلناه ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: ويزيدون. ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ يعني: الذين أرسل إليهم يونس بعد معاينة العذاب ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاسأل يا محمد أهل مكة، وهو سؤال توبيخ ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله، يقول: جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين. ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ معناه: أخلقنا الملائكة إناثًا ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ حاضرون خَلْقَنا إيَّاهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ لله بالبنات، ولكم بالبنين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أفلا تتعظون. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ برهان بيِّن على أن لله ولدًا.

فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي لكم فيه حجة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال ابن عباس: حي من الملائكة يقال لهم: الجن، ومنهم إبليس، قالوا: هم بنات الله. وقال الحسن: معنى النسب أنهم أشركوا الشياطين في عبادة الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ يعني: قائلي هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار، ثم نزه نفسه عمَّا قالوا فقال:

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ هذا استثناء من المحضرين، أي: أنهم لا يحضرون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يقول لأهل مكة: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما تعبدون ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلين أحدًا. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ إلاَّ من قدَّر الله أنه سيدخل النار، أي: سبق له في علم الله الشقاوة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ يقول جبرائيل للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة إلاَّ له مقام معلوم، أي: ما منَّا ملك إلاَّ له مقام معلوم في السموات يعبد الله فيه.

وروينا عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «أطّت السماءُ، وحقَّ لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجدًا لله»(١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: المصلُّون المنزهون الله عن السوء، ثم أعاد الكلام إلى الإخبار عن المشركين فقال: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ وقد كانوا، يعني: أهل مكة ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ غ = ٤ ٣ ٢ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: كتابًا مثل كتاب الأولين. ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: فلما أتاهم ذلك الكتاب كفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد لهم.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ وهي قوله: «كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ» [المجادلة: ٢١]. ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة في العاقبة. ﴿فَتَوَلَّ﴾ أعرض ﴿عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: الموت. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ إذا نزل بهم العذاب ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ذلك، فقالوا: متى هذا العذاب؟

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ﴾ يعني: العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ قال مقاتل: بحضرتهم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فبئس صباح الكافرين الذين أُنذروا بالعذاب.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ٦٠١ - ٦٠٣)، وقال: (حسن غريب)، وابن ماجه برقم ٤١٩٠: (٢/ ١٤٠٢)، والإمام أحمد: (٥/ ١٧٣)، وصححه الحاكم: (٢/ ٥١٠).

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر، أتاها ليلاً، وكان إذا جاء قومًا بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد، والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1].

ثم كرر ما ذكرنا تأكيدًا لوعيد العذاب فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الغلبة والقوة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الصاحبة والأولاد.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء عليهم السلام.

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * صٓ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

﴿صٓ﴾ قيل: هو قسم، وقيل: اسم السورة. ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذي البيان، وهو قسم. وقيل: جواب القسم محذوف، تقديره: والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار، ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: بل الذي كفروا ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ والقرآن ذي الذكر. وقال القتيبي: بل لتدارك كلام ونفي آخر، ومجاز الآية: إن الله أقسم بـ «صٓ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾» أن الذين كفروا من أهل مكة في عزة حمية جاهلية وتكبر عن الحق وشقاق وخلاف وعداوة لمحمد ﷺ. وقال مجاهد: «فِي عِزَّةٍ» معازِّين.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني: من الأمم الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قوة ولا فرار.

﴿وَعَجِبُوا﴾ يعني: الكفار الذين ذكرهم الله عزَّ وجلَّ في قوله: «بل الذين كفروا» ﴿أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: رسولاً من أنفسهم ينذرهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ وذلك أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أسلم، فشقَّ ذلك على قريش، وفرح به المؤمنون، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش، وهم الصناديد والأشراف،

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٨٩ - ٩٠)، ومسلم برقم١٣٦٥ : (٣/ ١٤٢٦ - ١٤٢٧).

وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سنًّا الوليد بن المغيرة، قال لهم: امشوا إلى أبي طالب، فأتَوْا أبا طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنَّا قد أتيناك؛ لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فدعاه، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كلَّ الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «وماذا يسألوني»؟ قالوا: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهكَ، فقال النبي ﷺ: «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»؟ فقال أبو جهل: لله أبوكَ لَنُعْطِيَكَها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلاَّ الله»، فنفروا من ذلك وقاموا، وقالوا: أجعل الْآلهة إلهًا واحدًا؟ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد[1] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب.

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: لأمر يراد بنا، وذلك أن عمر لما أسلم وحصل للمسلمين قوة بمكانه، قالوا: إنَّ هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد ﷺ لشيء يراد بنا.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والكلبي ومقاتل: يعنون النصرانية. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ كذب وافتعال.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وليس بأكبرنا ولا أشرفنا، يقوله أهل مكة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: وحيي، وما أنزلتُ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول.

﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ أعندهم ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: نعمة ربك، يعني: مفاتيح النبوة يعطونها مَن شاءوا، ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ العزيز في ملكه، الوهاب وهب النبوة لمحمد ﷺ.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ليس لهم ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: إن ادعوا شيئًا من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، وليأتوا منها بالوحي إلى مَن يختارون.

---

(١) رواه الترمذي: (٩/ ٩٩ - ١٠١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في «التفسير»: (٢/ ٢١٦ - ٢١٧).

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ أي: هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند هنالك، ﴿مَهْزُومٌ﴾ مغلوب ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من جملة الأجناد، يعني: قريشًا. قال قتادة: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ وهو بمكة أنه سيهزِمُ جندَ المشركين، فقال: «﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾» [القمر: ٤٥]، فجاء تأويلها يوم بدر، ثم قال معزِّيًا لنبيه ﷺ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب: ذو البناء المحكم. وقال الضحاك: ذو القوة والبطش. وقال السدي: كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء، فأعلم أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب. ﴿إِن كُلٌّ﴾ ما كل ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وجب عليهم ونزل بهم عذابي.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ ينتظر ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة الصور ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾. قال ابن عباس وقتادة: من رجوع، أي: ما يرد ذلك الصوت فيكون له رجوع.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني: كتابنا، و«القِطّ» الصحيفة التي أحصت كل شيء. وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: يعني: عقوبتنا ونصيبنا من العذاب.

قال الله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقوله الكفار من تكذيبك ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ قال ابن عباس: أي: القوة في العبادة.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود، وأحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه»(١).

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالتوبة عن كل ما يكره، قال ابن عباس: مطيع.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٦)، ومسلم برقم١١٥٩: (٢/ ٨١٦).

ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ كما قال: «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ» [الأنبياء: ٧٩] ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ قال الكلبي: غدوة وعشية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا له الطير ﴿مَحْشُورَةً ۖ﴾ مجموعة إليه تسبح معه ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مطيع رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قويناه بالحرس والجنود، قال ابن عباس: كان أشد ملوك الأرض سلطانًا، كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: النبوة، والإصابة في الأُمور ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال ابن عباس: بيان الكلام. وقال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل: علم الحكم، والتبصر في القضاء. وقال علي بن أبي طالب: هو أن البينة على المدعي واليمين على مَن أنكر؛ لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾، هذه الآية من قصة امتحان داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ خبر الخصم ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ صعدوا وعلوا.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ﴾ خاف منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، فقال: ما أدخلكما عليَّ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ أي: نحن خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جئناك لتقضي بيننا.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجُر، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أرشدنا إلى طريق الصواب والعدل، فقال داود لهما: تكلَّما.

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي: على ديني وطريقتي ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ يعني: امرأة ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: امرأة واحدة، والعرب تكني بالنعجة عن المرأة، قال الحسين بن الفضل: هذا تعريض للتنبيه والتفهيم. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ قالن ابن عباس: أعطنيها، قال مجاهد: انزل لي عنها.

﴿وَعَزَّنِى﴾ غلبني ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: في القول، وقيل: قهرني لقوة ملكه.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ

وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي: بسؤاله نعجتك؛ ليضمها إلى نعاجه. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يظلم بعضهم بعضًا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدًا ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: قليلٌ هم.

قالوا: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعد إلى السماء، فعلم داود أن الله تعالى قد ابتلاه، وذلك قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أيقن وعلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ إنما ابتليناه.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدًا، عبَّر بالركوع عن السجود؛ لأن كل واحد فيه انحناء.

﴿وَأَنَابَ﴾ أي: رجع وتاب. ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ذلك الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ بعد المغفرة ﴿عِندَنَا﴾ يوم القيامة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة ومكانة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حسن مرجع ومنقلب.

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تدبر أُمور العباد بأمرنا ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بأن تركوا الإيمان بيوم الحساب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ قال ابن عباس: لا لثواب ولا لعقاب ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: أهل مكة هم الذين ظنوا أنهم خلقوا خلقًا لغير شيء، وأنه لا بعث ولا حساب ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نُعْطَى في الآخرةِ من الخير ما يُعْطَوْنَ، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: المؤمنين كالكفار، وقيل: أراد بالمتقين أصحاب محمد ﷺ، أي: لا نجعل ذلك.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا الكتاب أنزلناه إليك ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ كثير خيره ونفعه ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ أي: ليتدبروا ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وليتفكروا فيها، قال الحسن: تدبر آياته: اتباعه ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ليتعظ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾. قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين، فأصاب منهم ألف فرس. فصلى

سليمان الصلاة الأولى، وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه، فعرضت عليه تسعمائة، فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت، وفاتته الصلاة، ولم يعلم بذلك، فاغتم لذلك هيبةً لله، فقال: ردُّوها عليَّ، فردوها عليه، فأقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف تقربًا إلى الله عزَّ وجلَّ وطلبًا لمرضاته، حيث اشتغل بها عن طاعته، وكان ذلك مباحًا له وإن كان حرامًا علينا، كما أبيح لنا ذبح بهيمة الأنعام، وبقي منها مائة فرس، فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل يقال من نسل تلك المائة.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾ و«الصافنات»: هي الخيل القائمة على ثلاث قوائم وأقامت واحدة على طرف الحافر من يدٍ أو رجلٍ.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: آثرت حب الخير، وأراد بالخير الخيلَ، وسميت الخيل خيرًا؛ لأنه معقود بنواصيها الخير: الأجر والمغنم، قال مقاتل: حب الخير، يعني: المال، فهي الخيل التي عرضت عليه ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني: عن الصلاة، وهي صلاة العصر ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: توارت الشمس بالحجاب: استترت بما يحجبها عن الأبصار.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: ردوا الخيل عليَّ، فردُّوها ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ قال أبو عبيدة: طفق يفعل، مثل: مازال يفعل، والمراد بالمسح: القطع، فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسرين، وكان ذلك مباحًا له؛ لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه. ورُوي عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام؟ فلم تنظر في أمور عبادي؟ فابتلاه الله عزَّ وجلَّ، فذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه.

وقيل: قال سليمان يومًا لأطوفنَّ الليلة على نسائي كلهن، فتأتي كل واحدة بابن يجاهد في سبيل الله، ولم يستثن، فجامعهنَّ فما خرج له منهن إلاَّ شق مولود، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه، فذلك قوله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سُليمان: لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف

عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلاَّ امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الله الذي نفس محمد بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسَانًا أجمعون»[١].

وأشهر الأقاويل أن الجسد الذي أُلقي على كرسيه هو صخر الجني، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ»، أي: رجع إلى ملكه بعد أربعين يومًا، فلما رجع ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ قال مقاتل وابن كيسان: لا يكون لأحدٍ من بعدي. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ قيل: سأل ذلك ليكون آية لنبوته، ودلالة على رسالته، ومعجزةً.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ لينة ليست بعاصفة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيث أراد.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبنون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يستخرجون له اللآلىء من البحر، وهو أول مَن استخرج اللؤلؤ من البحر.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ مشدودين في القيود.

هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ المنُّ: هو الإحسان إلى مَن لا يستثنيه، معناه: أعطِ من شئت وأمسك عمن شئت «بِغَيْرِ حِسَابٍ» لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ بمشقة وضر. قال قتادة ومقاتل: بنصب في الجسد، وعذاب في المال.

فلما انقضت مدة بلائه قيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب برجلك الأرض، ففعل فنبعت عين ماء ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ فأمره الله أن يغتسل منها، ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة، فركض الأرض برجله الأخرى، فنبعت عين أُخرى، ماء عذب بارد، فشرب منه، فذهب كل داء كان بباطنه، فقوله: «هذا مُغْتَسَلٌ بارد»، يعني: الذي اغتسل منه ﴿وَشَرَابٌ﴾ أراد: الذي شرب منه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٢٤)، ومسلم برقم١٦٥٤ : (٣/ ١٢٧٦).

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو ملء الكف من الشجر أو الحشيش ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ ضغثًا يشتمل على مائة عود صغار، ويضربها به ضربة واحدة ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ قال ابن عباس: أُولي القوة في طاعة الله تعالى ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ في المعرفة بالله، أي: البصائر في الدين.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾ اصطفيناهم ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ قال مالك بن دينار: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأَخْلَصْنَاهم بحب الآخرة وذكرها.

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا الذي يتلى عليكم ذكر، أي: شرف، وذكر جميل تُذكرون به ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أبوابها مفتحة لهم. ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ مستويات الأسنان، بنات ثلاث وثلاثين سنة.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: في يوم الحساب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ فناء وانقطاع. ﴿هَٰذَا﴾ أي: الأمر هذا ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ للكافرين ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ مرجع. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا العذاب ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ قال الفراء: أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه.

واختلفوا في معنى الغساق، قال ابن عباس: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرِّها. وقال مقاتل ومجاهد: هو الذي انتهى برده، وقيل: هو المنتن بلغة الترك.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مثله، أي: مثل الحميم والغساق ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أصناف أُخر من العذاب.

هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس: «هذا» هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة: هذا، يعني: الأتباع، فوج: جماعة، مقتحم معكم النار، أي: داخلوها كما أنتم دخلتموها، والفوج: القطيع من الناس وجمعه أفواج، والاقتحام الدخول في الشيء رميًا بنفسه فيه، ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ يعني: بالأتباع ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: داخلوها كما صلينا.

﴿قَالُوا﴾ فقال الأتباع للقادة: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ والمرحب والرحب: السعة، ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتم بالكفر قبلنا، وشرعتم وسننتموه لنا، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: فبئس دار القرار جهنم.

﴿قَالُوا﴾ يعني: الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: شرعه وسنَّه لنا ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أي: ضعِّف عليه العذاب في النار.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: صناديد قريش وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعنون: فقراء المؤمنون: عمارًا وخبابًا وصهيبًا وبلالاً وسلمان - رضي الله عنهم - ثم ذكروا أنهم كانوا يسخرون من هؤلاء، فقالوا: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ قال الفراء: هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب، «أم زاغت»، أي: مالت «عنهم الأبصار»، ومجاز الآية: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخريًا لم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا، فلم نرهم حين دخلوها.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَحَقٌّ﴾ ثم بيَّن فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ مخوف ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾.

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ يعني: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: في شأن آدم عليه السلام، حين قال الله تعالى: «إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا» [البقرة: ٣٠].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ يعني: آدم عليه السلام. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المتكبرين، استفهام توبيخ وإنكار، يقول: أستكبرت بنفسك حتى أبيت السجود؟ أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود؛ لكونك منهم؟

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وهو النفخة الأولى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتقوّلين القرآن من تلقاء نفسي، وكل من قال شيئًا من تلقاء نفسه فقد تكلّف له.

عن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه:

«﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾»(١).

قوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو، يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ للخلق أجمعين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أنتم يا كفار مكة ﴿نَبَأَهُۥ﴾ خبر صدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: بعد الموت.

سورة الزمر

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب من الله، ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال مقاتل: لم ننزله باطلاً لغير شيء ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الطاعة ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ قال قتادة: شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وقيل: لا يستحق الدين الخالق إلاَّ الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: قالوا: ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. قال قتادة: وذلك أنهم إذا قيل لهم: مَنْ ربكم، ومَنْ خلقكم، ومَنْ خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ﴾ من أمر الدين ﴿يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ لا يرشد لدينه من كذب.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ لاختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: الملائكة، ثم نزَّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له عن ذلك، وعمَّا لا يليق بطهارته ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٤٧)، ومسلم برقم٢٧٩٨: (٤/ ٢١٥٦ - ٢١٥٧).

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال قتادة: يغشي هذا هذا، وقيل: يدخل أحدهما على الآخر. وقال الحسن والكلبي: ينقص من الليل فيزيد في النهار، وينقص من النهار فيزيد في الليل، فما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل، وأصل التكوير اللَّف والجمع، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ معنى الإنزال هاهنا: الإحداث والإنشاء. وقيل: إنه أنزل الماء الذي هو سبب نبات القطن الذي يكون منه اللباس، وسبب النبات الذي تبقى به الأنعام. ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أصناف، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة، كما قال تعالى: «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾» [نوح: ١٤] ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قال ابن عباس: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن طريق الحق بعد هذا البيان.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ قال ابن عباس والسدي: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، فيكون عامًّا في اللفظ خاصًّا في المعنى، يريد: بعض العباد، وأجراه قوم على العموم، وقال: لا يرضى لأحد من عباده الكفر. ومعنى الآية: لا يرضى لعباده أن يكفروا به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ تؤمنوا بربكم وتطيعوه ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فيثيبكم عليه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعًا إليه مستغيثًا به ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةٗ مِّنْهُ﴾ أعطاه نعمة منه ﴿نَسِيَ﴾ ترك ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسيَ الضُّرَّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ يعني: الأوثان ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ليزل عن دين الله.

﴿قُلْ﴾ لهذا الكافر: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا إلى أجلك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ عام في كل كافر.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ يعني: أَمَنْ هو قانتٌ كمَنْ هو غيرُ قانتٍ؟ والوجه الآخر الذي جعل لله أندادًا خيرٌ أمَّن هو قانت؟ وقيل: قلْ تمتعْ بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار، يا مَنْ هو قانتٌ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ إنك من أهل الجنة.

والقانت: المقيم على الطاعة، قال ابن عمر: «القنوت»: قراءة القرآن وطول القيام، و«آناء الليل»: ساعاته ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ يعني: في الصلاة ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يخاف الآخرة ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: كمن لا يفعل شيئًا من ذلك ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ بطاعته واجتناب معصيته ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: آمنوا وأحسنوا العمل ﴿حَسَنَةٞۗ﴾ يعني: الجنة، ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ قال ابن عباس: يعني: ارتحلوا من مكة، وفيه حثٌّ على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ وقال سعيد بن جبير: من أُمِر بالمعاصي فليهرب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى. حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ مخلصًا له التوحيد لا أشرك به شيئًا.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾ من هذه الأُمة.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وعبدت غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا حين دعي إلى دين آبائه.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمر توبيخ وتهديد، كقوله: «ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ» [فصلت: ٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ أزواجهم وخدمهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة وأهلاً، فمن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له، ومن عمل بمعصية الله دخل النار، وكان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بطاعة الله، وقيل: خُسران النفس بدخول النار، وخُسران الأهل بأن يفرق بينه وبين أهله ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أطباق سرادقات من النار ودخانها ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فراش ومهاد من نار إلى أن ينتهي إلى القعر.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الأوثان ﴿أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رجعوا إلى عبادة الله ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الدنيا، والجنة في العقبى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ القرآن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال السدي: أحسن ما يؤمرون فيعملون به، وقيل: هو أن الله تعالى ذكر في القرآن الانتصار من الظالم وذكر العفو، والعفو أحسنُ الأمرين، وقيل: ذكر العزائم والرخص فيتبعون الأحسن وهو العزائم، وقيل: يستمعون القرآن وغير القرآن فيتبعون القرآن. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. والأحسن: قولُ لا إله إلاَّ الله.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢١ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مَن سبق في علم الله أنه من أهل النار، وقيل: كلمة العذاب قوله: «لأملأنَّ جهنَّم»، وقيل: قوله: «هؤلاء في النار ولا أُبالي» ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: لا تقدر عليه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي: منازل في الجنة رفيعة، وفوقها منازل

أرفع منها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعدًا لا يخلفه.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ﴾ أدخل ذلك الماء ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ عيونًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أحمر وأصفر وأخضر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ﴾ فتاتًا متكسرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وسَّعه لقبول الحق ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ ليس كمن أقسى الله قلبه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال مالك بن دينار: ما ضُرِبَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عزَّ وجلَّ على قومٍ إلاَّ نَزَعَ منهم الرحمة.

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يشبه بعضه بعضًا في الحسن، ويصدق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف ﴿مَّثَانِىَ﴾ يُثنّى فيه ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والأخبار والأحكام ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتشمئز ﴿مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ والاقشعرار تغير في جلد الإنسان عند الوجل والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لذكر الله، أي: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم، كما قال الله تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ» [الرعد: ٢٨]. وحقيقة المعنى: أن قلوبهم تقشعر عند الخوف، وتلين عند الرجاء.

عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعرَ جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبُه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقُها».

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٢٠)، ومسلم برقم٢٨٣١: (٤/ ٢١٧٧).

قال قتادة: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان.

عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بن أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قُرىء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عزَّ وجلَّ تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قال: فقلت لها: إنَّ ناسًا اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خرَّ أحدهم مغشيًّا عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومرَّ ابن عمر برجل من أهل العراق ساقطًا فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرىء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنَّا لنخشى الله وما نسقط!

وقال ابن عمر: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ.

وذُكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطًا رجليه ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: أحسن الحديث ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: شدته ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال مجاهد: يُجر على وجهه في النار. ومجاز الآية: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب؟

﴿وَقِيلَ﴾ يعني: تقول الخزنة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وباله.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة كذبوا الرسل ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: وهم آمنون غافلون من العذاب.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ العذاب والهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يتعظون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ قال ابن عباس: غير مختلف، قال مجاهد: غير ذي لَبْس، قال السدي: غير مخلوق، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والتكذيب به.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازِعون مختلفون سيئة أخلاقهم، يقال: رجل شَكِسٌ شَرِسٌ، إذا كان سيءَ الخُلُق، مخالفًا للناس، لا يرضى بالإنصاف ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: مسلم لا منازع لك فيه ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ للكافر الذي يعبد آلهة شتى، والمؤمن الذي لا يعبد إلاَّ الله الواحد، وهذا استفهام إنكاري، أي: لا يستويان، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: لله الحمد كله دون غير من المعبودين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي: سيموتون. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: المحق والمبطل، والظالم والمظلوم.

عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾»، قال الزبير: أي رسول الله! أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه»، قال الزبير: والله، إن الأمر لشديد[1].

وقال ابن عمر: عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتابين «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾»، قلنا: كيف نختصم وديننا وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا.

وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم، هو هذا.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَن كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له أخذ من سيئاته فجعلت عليه»[2].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون مَن المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أُمَّتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، وكان قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقضى هذا من حسناته وهذا من حسناته، قال: فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرِحتْ عليه ثم طرح في النار»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٩/ ١١٠ - ١١١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).
(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١١).
(٣) أخرجه مسلم برقم٢٥٨١: (٤/ ١٩٩٧).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أن له ولدًا وشريكًا ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بالقرآن ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزلٌ ومقام ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ استفهام بمعنى التقرير.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: «والذي جاء بالصدق»، يعني: رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلاَّ الله، «وصدَّق به» الرسول أيضًا بلَّغه إلى الخلق، وقال السدي: «والذي جاء بالصدق» جبريل جاء بالقرآن، «وصدق به» محمد ﷺ تلقاه بالقبول، وقال الكلبي وأبو العالية: «والذي جاء بالصدق» رسول الله ﷺ، «وصدق به» أبو بكر رضي الله عنه، وقال قتادة ومقاتل: «والذي جاء بالصدق» رسول الله ﷺ، «وصدق به» هم المؤمنون، لقوله عزَّ وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يسترها عليهم بالمغفرة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ يعني: محمدًا ﷺ، وقيل: الأنبياء عليهم السلام، قصدهم قومهم بالسوء كما قال: «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ» [غافر: ٥]، فكفاهم الله شرَّ من عاداهم ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلك أنهم خوَّفوا النبي ﷺ معرَّة الأوثان، وقالوا: لتَكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منهم خبل أو جنون ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ منيع في ملكه، منتقم من أعدائه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ بنعمة وبركة ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ عن ذلك فسكتوا، فقال الله تعالى لرسول ﷺ: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ﴾ ثقتي به واعتمادي عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يثق به الواثقون.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: ينزل عليه عذاب دائم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ وبال ضلالته عليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ ورقيب لم توكل بهم ولا تؤاخذ بهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي: الأرواح ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ فيقبضها عند فناء أكلها وانقضاء أجلها، وقوله: «حِينَ مَوْتِهَا»، يريد: موت أجسادها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ يريد: يتوفى الأنفس التي لم تمت ﴿فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ والتي تتوفى عند النوم هي النفس التي يكون بها العقل والتمييز، ولكل إنسان نفسان: إحداهما: نفس الحياة وهي التي تفارقه عند الموت فتزول بزوال النفس، والأخرى: نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام، وهو بعد النوم يتنفس ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ فلا يردها إلى الجسد.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ويرد الأخرى، وهي التي لم يقضِ عليها الموت إلى الجسد ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ إلى أن يأتي وقت موته.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لدلالات على قدرته حيث لم يغلط في إمساك ما يمسك

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ١٢٥ - ١٢٦)، ومسلم برقم٢٧١٤: (٤/ ٢٠٨٤).

من الأرواح، وإرسال ما يرسل منها.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ﴾ وإن كانوا، يعني: الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم، وجواب هذا محذوف تقديره: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ قال مجاهد: لا يشفع أحد إلاَّ بإذنه ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت، وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: انقبضت عن التوحيد، وقال قتادة: استكبرت، وأصل الاشمئزاز: النفور والاستكبار ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني: الأصنام ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ عن أبي سلمة قال: سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بِمَ كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة من الليل؟ قالت: كان يقول: «اللهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قال مقاتل: ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة، قال السدي: ظنوا أنها حسنات فبدت لهم سيئات، والمعنى: أنهم كانوا يتقربون إلى الله بعبادة الأصنام، فلما عُوقبوا عليها بدَا لهم من الله ما لم يحتسبوا.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٧٧٠: (١/ ٥٣٤).

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: مساوىء أعمالهم من الشرك والظلم بأولياء الله ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي: على علم من الله أني له أهل، وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي، ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: تلك النعمة فتنة استدراج من الله تعالى وامتحان وبلية، وقيل: بل كلمته التي قالها فتنة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج وامتحان.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال مقاتل: يعني: قارون، فإنه قال: «إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ» [القصص: ٧٨] ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فما أغنى عنهم الكفر من العذاب شيئًا.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: جزاؤها، يعني: العذاب، ثم أوعد كفار مكة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين؛ لأن مرجعهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقتر على من يشاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا النبي ﷺ وقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت هذه الآية[1].

وقال عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٤٩).

يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثامًا، يضاعف له العذاب، وأنا قد فعلت ذلك كله، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا» [مريم: ٦٠]، فقال وحشي: هذا شرط شديد لعلِّي لا أقدر عليه، فهل غير ذلك؟ فأنزل الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ» [النساء: ٤٨، ١١٦]، فقال وحشي: أراني بعد في شبهة، فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فأنزل الله تعالى: «قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ»، فقال وحشي: نعم هذا، فجاء وأسلم، فقال المسلمون: هذا له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال: «بل للمسلمين عامة».

وروي عن ابن مسعود أنه دخل المسجد فإذا قاص يقص وهو يذكر النار والأغلال، فقام على رأسه فقال: يا مُذَكِّر، لِمَ تُقَنِّطُ الناسَ؟ ثم قرأ: «يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ».

عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا» ولا يبالي»[(١)].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعةً وتسعين إنسانًا، ثم خرج يسأل فأتى راهبًا فسأله، فقال: هل لي من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به المائة، فقال له رجل: ائتِ قريةَ كذا وكذا، فأدركه الموت فَنأَى بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربي، وأوحى إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوُجِدَ إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»[(٢)].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل ـ لم يعمل خيرًا قط ـ لأهله إذا مات فحرِّقوه، ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، قال: فلما مات فعلوا ما أمرهم به، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت أعلم، فغفر له»[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: «إِلَّا ٱللَّمَمَ» [النجم: ٣٢]، قال رسول الله ﷺ:

«إنْ تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمًّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمَّا»[(٤)]

---

(١) أخرجه الترمذي (٩/ ١١١ - ١١٢)، وقال: (هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلاَّ من حديث ثابت عن شهر بن حوشب).

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٥١٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٦٦)، ومسلم برقم٢٧٥٦: (٤/ ٢١٠٩ - ٢١١٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٩/ ١٧٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلاَّ من حديث زكريا بن إسحاق).

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أقبلوا وارجعوا إليه بالطاعة ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أخلصوا له التوحيد ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ يعني: القرآن، فإن القرآن ذكر القبيح لتجتنبه، وذكر الأدون لئلا ترغب فيه، وذكر الأحسن لتؤثره، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يعني: لئلا تقول نفس، ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ يا ندامتا، والتحسر الاغتمام على ما فات، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: قصرت في طاعة الله، وقيل: معناه: قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضاء الله، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين بدين الله وكتابه ورسوله والمؤمنين.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ عيانًا ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين.

ثم يقال لهذا القائل: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ يعني: القرآن ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وقلت: إنها ليست من الله ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ تكبرت عن الإيمان بها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعموا أن له ولدًا وشريكًا ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان.

وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ أي: بالطرق التي تؤديهم إلى الفوز والنجاة، وقيل: ينجيهم بفوزهم من النار بأعمالهم الحسنة، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ لا يصيبهم المكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾﴾ أي: الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مفاتيح خزائن السموات والأرض، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟ قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه. ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الذي عملته قبل الشرك، وهذا خطاب مع الرسول ﷺ، والمراد منه غيره، وقيل: هذا أدب من الله عزَّ وجلَّ لنبيه وتهديد لغيره؛ لأن الله تعالى عصمه من الشرك ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ لإنعامه عليك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ ما عظَّموه حق عظمته حين أشركوا به غيره، ثم أخبر عن عظمته فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾»[١].

عن سالم بن عبد الله، أخبرني عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي اللهُ السمواتِ يوم القيامة ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهنَّ بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[٢].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥٠ - ٥٥١).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٧٨٨: (٤/ ٢١٤٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٥٥١)، ومسلم برقم٢٧٨٧: (٤/ ٢١٤٨).

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ماتوا من الفزع، وهي النفخة الأولى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، قال الحسن: إلاَّ مَن شاء الله، يعني: الله وحده ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي: في الصور ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: مرة أخرى ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ من قبورهم ينتظرون أمر الله فيهم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: أربعون يومًا؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت»، قال: «ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلاَّ يبلى إلاَّ عظم واحد، وهو عجب الذنب ومنه يتركب الخلق يوم القيامة»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور خالقها، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال ابن عباس: يعني: الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة، وهم أُمة محمد ﷺ، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: ثواب ما عملت ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال عطاء: يريد: أني عالم بأفعالهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقًا عنيفًا ﴿زُمَرًا﴾ أفواجًا، بعضها على إثر بعض، كل أمة على حدة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ السبعة، وكانت مغلقة قبل ذلك، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخًا وتقريعًا لهم ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من أنفسكم ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ﴾ وجبت ﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهو قوله عزَّ وجلَّ: «لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ» [هود: ١١٩].

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ يريد أن خزنة الجنة يسلمون عليهم ويقولون: طبتم، «سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ».

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أرض الجنة، وهو قوله عزَّ وجلَّ: «وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾» [الأنبياء: ١٠٥] ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ ننزل ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ثواب المطيعين.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: محدقين محيطين بالعرش، مطيفين بحوافيه أي: بجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ قيل: هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد؛ لأن التكليف يزول في ذلك اليوم ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: قضي بين أهل الجنة والنار بالعدل ﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقول أهل الجنة: شكرًا لله، حين تم وعدُ الله لهم.

سورة غافر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساتر الذنب ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يعني: التوبة، قال ابن عباس: غافر الذنب لمن قال: لا إله إلاَّ الله، وقابل التوب ممن قال: لا إله إلاَّ الله ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن لا يقول: لا إله إلاَّ الله ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ذي الغنى

عمن لا يقول: لا إله إلاَّ الله، قال مجاهد: «ذي الطول»: ذي السعة والغنى، وقال الحسن: ذو الفضل، وقال قتادة: ذو النعم، وقيل: ذو القدرة، وأصل الطَّول: الإنعام، الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في دفع آيات الله بالتكذيب والإنكار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: «مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»، و«وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ» [البقرة: ١٧٦].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ جدالاً في القرآن كفر»[١]. وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قومًا يتمارون في القرآن، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله عزَّ وجلَّ بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضُه بعضًا، فلا تكذِّبوا بعضَه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه»[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ تصرفهم في البلاد للتجارات وسلامتهم فيها مع كفرهم، فإن عاقبة أمرهم العذاب.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ وهم الكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ قال ابن عباس: ليقتلوه ويهلكوه، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ﴾ ليبطلوا ﴿بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ الذي جاء به الرسل، ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني: كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة، حقت ﴿عَلَى

---

(١) أخرجه الطيالسي في «المسند»: ص٣٠٢، والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالاً فيه كفر».

(٢) أخرجه الإمام أحمد: (٢/ ١٩٥)، وابن ماجه بمعناه برقم ٨٥ .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من قومك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ حملة العرش والطائفون به. عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذن لي أن أحدِّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أُذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يصدِّقون بأنه واحد لا شريك له. عن شهر بن حوشب قال: حملة العرش ثمانية، فأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، قال: وكأنهم ينظرون ذنوب بني آدم[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا﴾ يعني: يقولون: ربنا ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ دينك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال مطرِّف: أنصح عباد الله للمؤمنين هم الملائكة، وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ العقوبات ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: ومن تقه السيئات، يعني: العقوبات، وقيل: جزاء السيئات ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة وهم في النار، وقد مَقَتُوا أنفسَهم حين عُرضت عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يعني: لمقت الله إيَّاكم في الدنيا إذْ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم عند حلول العذاب بكم.

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم

---

(١) أخرجه أبو داود (٧/ ١٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: (٢/ ١٤٢) بسند صحيح.
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره»: (٤/ ٧٣).

بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموت التي لا بدَّ منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما موتتان وحياتان، وهذا كقوله تعالى: «كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ» [البقرة: ٢٨]، ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: من خروج من النار إلى الدنيا، فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك، نظيره: «هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ» [الشورى: ٤٤].

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ فيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأُجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعي الله وحده كفرتم، إذا قيل: لا إله إلاَّ الله كفرتم، وقلتم: «أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ» [ص: ٥] ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ﴾ غيره ﴿تُؤۡمِنُواْۚ﴾ تصدقوا ذلك الشرك ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ الذي لا أعلى منه ولا أكبر.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ يعني: المطر الذي هو سبب الأرزاق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ وما يتعظ بهذه الآيات ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع إلى الله تعالى في جميع أُموره.

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الطاعة والعبادة ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ ينزل الوحي، سماه روحًا؛ لأنه تحيا به القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ قال ابن عباس: من قضائه، وقيل: من قوله، وقال مقاتل: بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ﴾ أي: لينذر النبيُّ بالوحي ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: لتنذر أنت يا محمد يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، وقيل بتلاقي العباد.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ﴾ من أعمالهم وأحوالهم ﴿شَيۡءٞۚ﴾ يقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فلا أحد يجيبه، فيجيب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ الذي قهر الخلق بالموت.

ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي

ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ يعني: يوم القيامة، سميت بذلك؛ لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، ﴿كَٰظِمِينَ﴾ مكروبين ممتلئين خوفًا وحزنًا، والكظم: تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيشفع فيهم.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي: خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنها لا تعلم شيئًا ولا تقدر على شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلم ينفعهم ذلك ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يدفع عنهم العذاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا﴾ يعني: فرعون وقومه: ﴿ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ قال قتادة: هذا غير القتل الأول؛

لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث موسى ﷺ أعاد القتل عليهم، فمعناه: أعيدوا عليهم القتل ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهرته ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: يذهب كيدهم باطلاً، ويحيق بهم ما يريده الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وإنما قال هذا؛ لأنه كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتله خوفًا من الهلاك ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منَّا ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ﴾ يُغيِّر ﴿دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما توعده فرعون بالقتل ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ لأنه يقول ربي الله ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بما يدل على صدقه ﴿...وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لا يضركم ذلك ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ فكذبتموه ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن قتلتموه وهو صادق أصابكم ما يتوعدكم به من العذاب، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى دينه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿كَذَّابٌ﴾ على الله.

عن عُروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه به خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربِّيَ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[(١)].

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ غالبين في الأرض ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ﴾ من يمنعنا من عذاب الله ﴿إِن جَاءَنَا﴾ والمعنى: لكم الملك اليوم فلا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي، فإنه لا مانع من عذاب الله إن حل بكم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ﴾ من الرأي والنصيحة

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥٣ - ٥٥٤).

﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ لنفسي، وقال الضحاك: ما أعلمكم إلاَّ ما أعلم ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ ما أدعوكم إلاَّ إلى طريق الهدى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ أي: مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب حتى أتاهم العذاب ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: لا يهلكهم قبل اتخاذ الحجة عليهم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ يوم القيامة يُدعى كل أناس بإمامهم، ويُنادي بعضُهم بعضًا، فينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار، وأصحابُ النار أصحابَ الجنة، وينادى أصحابُ الأعراف، ويُنادى بالسعادة والشقاوة، ألا إن فلان ابن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وفلان ابن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا، وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار، وقال مجاهد: فارين غير معجزين ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ﴾ يعني: يوسف بن يعقوب، «مِن قَبۡلُ»، أي: من قبل موسى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يعني قوله: «ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ» [يوسف: ٣٩] ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ قال ابن عباس: من عبادة الله وحده لا شريك الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ مات ﴿قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ أي: أقمتم على كفركم، وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ مشرك ﴿مُّرۡتَابٌ﴾ شاكّ.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ حجة ﴿أَتَىٰهُمۡۖ﴾ من الله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ أي: كبر ذلك الجدال مقتًا ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ والصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بَعُد، ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ يعني: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ فيما يقول: أن له ربًّا غيري ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ يعني: وما كيده في إبطال آيات موسى إلاَّ في خسار وهلاك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ طريق الهدى.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ متعة، تنتفعون بها مدة ثم تنقطع ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي لا تزول.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة في الخير.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ يعني: ما لكم، كما تقول: ما لي أراك حزينًا؟ أي: مالك؟ يقول: أخبروني عنكم؟ كيف هذه الحال، أدعوكم إلى النجاة من النار بالإيمان بالله ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى الشرك الذي يوجب النار؟ ثم فسر فقال:

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ في انتقامه ممن كفر ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ لذنوب أهل التوحيد.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ﴾ أي: إلى الوثن ﴿لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: ليست له استجابة دعوة، وقيل: ليست له دعوة إلى عبادته في الدنيا؛ لأن الأوثان لا تَدَّعِي الربوبية، ولا تدعو إلى عبادتها، وفي الآخرة تتبرأ من عابديها ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مرجعنا إلى الله، فيجازي كلاً بما يستحقه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ

فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ﴾ إذا عاينتم العذاب، حين لا ينفعكم الذكر ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ وذلك أنهم توعدوه لمخالفته دينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم المحق من المبطل، ثم خرج المؤمن من بينهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه.

وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ﴾ ما أرادوا به من الشر، ﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق في الدنيا، والنار في الآخرة.

وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ﴾ صباحًا ومساءً.

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيُقالُ له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[1].

ثم أخبر الله تعالى عن مستقرهم يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ﴾ يقال للملائكة: ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ألوان العذاب، غير الذي كانوا يعذبون به منذ أُغرقوا.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: اذكر يا محمد لقومك إذ يختصمون، يعني: أهل النار في النار ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ والتبع يكون واحدًا وجمعًا في قول أهل البصرة، وواحده: تابع، وقال أهل الكوفة: هو جمع لا واحد له، وجمعه: أتباع.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: خزنة جهنم لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ﴾ أنتم إذًا ربكم، إنا لا ندعو لكم؛ لأنهم علموا أنه لا يخفف عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: يبطل ويضل ولا ينفعهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٤٣)، ومسلم برقم ٢٨٦٦ .

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: بالغلبة والقهر، وقال الضحاك: بالحجة، وفي الآخرة بالعذر، وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر على من ناوأهم وإهلاك أعدائهم، ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قتل، قتل به سبعون ألفًا، فهم منصورون بأحد هذه الوجوه ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ يعني: يوم القيامة يقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ إن اعتذروا عن كفرهم لم يقبل منهم، وإن تابوا لم ينفعهم ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ يعني: جهنم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ الهدى من الضلالة، يعني: التوراة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ في إظهار دينك، وإهلاك أعدائك ﴿حَقٌّ﴾ قال ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا تعبد من الله ليزيده به درجة، وليصير سنة لمن بعده ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ صلِّ شاكرًا لربِّك ﴿بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ﴾ قال الحسن: يعني: صلاة العصر، وصلاة الفجر، وقال ابن عباس: الصلوات الخمس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ﴾ ما في قلوبهم، ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال ابن عباس: ما يحملهم على تكذيبك إلاَّ ما في صدورهم من الكبر والعظمة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ قال مجاهد: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر؛ لأن الله عزَّ وجلَّ مذلهم.

قال أهل التفسير: نزلت في اليهود، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن صاحبنا المسيح بن داود - يعني: الدجال - يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه في البر والبحر، ويرد الملك إلينا، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من فتنة الدجال ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع عظمهما ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم في الصدور ﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من إعادتهم بعد الموت ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها، وقال قوم: «أَكْبَرُ»، أي: أعظم من خلق الدجال «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، يعني: اليهود الذين يخاصمون في أمر الدجال.

وروي عن هشام بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر من خلق الدجال»[١].

عن ابن عمر قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلاَّ أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وإن الله ليس بأعور»[٢].

عن عبد الله قال: ذُكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينيه، وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني دون غيري أجِبْكم وأثِبْكم وأغفرْ لكم، فلما عبَّر عن العبادة بالدعاء جعل الإجابة استجابةً.

عن النعمان بن بشير قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول على المنبر: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: «ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٩٤٦ .
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٧٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٨٩).
(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ١٤١)، والترمذي (٩/ ١٢١ - ١٢٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي (٢/ ٢٥٣)، وابن ماجه برقم ٣٨٢٨ .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يدعُ اللهَ غضبَ اللهُ عليه»(١).

وقيل: الدعاء: هو الذكر والسؤال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: كما أفكتم عن الحق من قيام الدلائل كذلك ﴿يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ فراشًا ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفًا كالقبة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ خلقكم فأحسن خلقكم، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ عن ابن عباس قال: مَن قال لا إله إلاَّ الله فليقل على إثرها الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وذلك حين دعي إلى الكفر.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى

---

(١) أخرجه الترمذي (٩/ ٣١٣)، وابن ماجه برقم ٣٨٢٧ .

وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يصير شيخًا، ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ جميعًا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وقتًا معلومًا محدودًا لا تجاوزونه، يريد: أجل الحياة إلى الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن، يقولون: ليس من عند الله ﴿...أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كيف يصرفون عن دين الحق.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ يجرون.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ توقد بهم النار، فيصيرون وقودًا للنار.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ يعني: الأصنام ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ فقدناهم فلا نراهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ قيل: أنكروا، وقيل: معناه: بل لم نكن ندعو من قبل شيئًا ينفع ويضر، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أضل هؤلاء ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تبطرون وتأشرون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تفرحون وتختالون.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرك ﴿حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يحل ذلك بهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم في القرآن ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ بأمر الله وإرادته ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قضاؤه بين الأنبياء والأمم ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟﴾ بعضها ﴿مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد، ولتبلغوا عليها حاجاتكم ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الإبل في البر، وعلى السفن في البحر. ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل قدرته ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: مصانعهم وقصورهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ لم ينفعهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وقيل: هو بمعنى الاستفهام، مجازه: أيُّ شيء أغنى عنهم كسبهم؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟﴾ رضوا ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ قال مجاهد: هو قولهم: نحن أعلم، لن نُبعث ولن نُعذب، سمي ذلك علمًا على ما يدعونه ويزعمونه، وهو في الحقيقة جهل ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: تبرأنا مما كنَّا نعدل بالله.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ﴾ عذابنا ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ أي: كسنة الله، أو احذروا سنة الله ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ وتلك السنة: أنهم إذا عاينوا عذاب الله آمنوا، ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بذهاب الدارين، قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ بينت آياته ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللسان العربي، ولو كان بغير لسانهم ما علموه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعتان للقرآن، أي: بشيرًا لأولياء الله، ونذيرًا لأعدائه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يصغون إليه تكبرًا.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ في أغطية ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ فلا نفقه ما تقول ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم فلا نسمع ما تقول، والمعنى: إنا في ترك القبول عندك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ خلاف في الدين، وحاجز في الملة، فلا نوافقك على ما تقول ﴿فَاعْمَلْ﴾ أنت على دينك ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعني: كواحدٍ، ولولا الوحي ما دعوتكم، وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال الحسن: علَّمه الله التواضع ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ توجهوا إليه بالطاعة، ولا تميلوا عن سبيله ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من ذنوبكم ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال الحسن وقتادة: لا يقرون بالزكاة، ولا يرون إيتاءها واجبًا، وكان يقال: الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك، ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع، وقال مقاتل: غير منقوص، ومنه «المنون»؛ لأنه ينقص مُنَّة الإنسان وقوته، وقيل: غير ممنون عليهم به، وقال مجاهد: غير محسوب. وقال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى، إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبدَ إذا كان على طريقة حسنة من العبادة، ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقًا حتى أطلقه أو أكفِتَهُ إليَّ»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يوم الأحد والاثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ من فوق الأرض ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، بما خلق فيها من البحار والأنهار والأشجار والثمار ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال الحسن ومقاتل: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم، وقال عكرمة والضحاك: قدَّر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرَى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يريد: خلق ما في الأرض، وقدر الأقوات في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع الأحد والاثنين أربعة أيام، رد الآخر على الأول في الذكر، كما تقول: تزوجت أمس امرأة واليوم ثنتين، وإحداهما هي التي تزوجتها بالأمس ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال قتادة والسدي: مَن سأل عنه فهكذا الأمر سواء لا زيادة ولا نقصان جوابًا لمن سأل: في كم خلقت الأرض والأقوات؟

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عمد إلى خلق السماء ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وكان ذلك الدخان بخار الماء ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: ائتيا ما آمركما، أي: افعلاه، كما يقال: ائت ما هو الأحسن، أي: افعله. وقال طاووس عن ابن عباس: ائتيا: أعطيا، يعني: أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد. قال ابن عباس: قال الله عزَّ وجلَّ: أمَّا أنتِ يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك، وقال لهما: افعلا ما آمركما طوعًا وإلاَّ ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهًا، فأجابتا بالطوع و﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولم يقل: طائعتين؛ لأنه ذهب به إلى السموات والأرض ومَن فيهنَّ، مجازه: أتينا بما فينا طائعين، فلما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل.

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ

(١) أخرجه عبد الرزاق: (١١/ ١٩٦)، والإمام أحمد: (٢/ ٢٠٣)، وله شاهد عند البخاري.

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: أتمهن وفرغ من خلقهنَّ ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال عطاء عن ابن عباس: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البَرَدَ وما لا يعلمه إلاَّ الله.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ كواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ لها، أي: حفظناها بالكواكب حفظًا من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من صنعه ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخفظه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ يعني: هؤلاء المشركين عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوَّفتكم ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: هلاكًا مثل هلاكهم، والصاعقة المهلكة من كل شيء.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ﴾ يعني: عادًا وثمودًا ﴿ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أراد بقوله: «مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»: الرسل الذين أُرسلوا إلى آبائهم من قبلهم «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» يعني: ومن بعد الرسل الذين أُرسلوا إلى آبائهم الذين أُرسلوا إليهم: هودٌ صالح، فالكناية في قوله «من بين أيديهم» راجعة إلى عاد وثمود، وفي قوله: «ومن خلفهم» راجعة إلى الرسل ﴿أَلَّا﴾ بأن لا ﴿تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ﴾ بدل هؤلاء الرسل ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو شاء ربنا دعوة الخلق لأنزل ملائكة ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

عن جابر بن عبد الله قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالمًا بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلَّمه، ثم أتانا ببيانٍ من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله، لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علمًا، وما يخفى عليَّ إن كان كذلك أو لا، فأتاه فلما خرج إليه قال: يا محمد، أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أُم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا؟ وتُضلل آباءنا؟ فإن كنتَ تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رأسًا ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوَّجناك عشرة نسوة تختار من أي بنات قريش؟ وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني أنت وعقبك من بعدك؟ ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ، قرأ رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، «حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾»، إلى قوله: «فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾...» الآية، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش فاحتبس عنهم فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلاَّ قد صبأ إلى دين محمد، وقد أعجبه طعامه، وما ذاك إلاَّ من حاجة

أصابته، فانطلِقوا بنا إليه، فانطلَقوا إليه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة، ما حبسك عنَّا إلاَّ أنك صبوت إلى دين محمد وأعجبك طعامه، قال: فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمدًا أبدًا، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾...» الآية، فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وذلك أن هودًا عليه السلام هددهم بالعذاب، فقالوا: مَن أشد منَّا قوة؟ نحن نقدر على دفع العذاب عنَّا بفضل قوتنا، وكانوا ذوي أجسام طوال، قال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة شديدة الصوت، من الصِّرة وهي الصيحة، وقيل: هي الباردة من الصِّر وهو البرد ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: نكدات مشؤومات ذات نحوس، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي: عذاب الهون والذل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أشد إهانة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ دعوناهم، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: بيَّنَّا لهم سبيل الهدى، وقيل: دللناهم على الخير والشر، كقوله: «هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ» [الإنسان: ٣] ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ أي: هلكة العذاب ﴿الْهُونِ﴾ أي: ذي الهون، أي: الهوان، وهو الذي يهينهم ويخزيهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ أي: يجمع إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يساقون ويدفعون إلى النار، وقال قتادة والسدي: يُحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ جاؤوا النار ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ أي: بشراتهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: الكفار، الذين يحشرون إلى النار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ تمّ الكلام هاهنا، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وليس هذا من جواب الجلود ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: تستخفون عند أكثر أهل العلم، وقال مجاهد: تتقون، وقال قتادة: تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

عن عبد الله بن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثقفيَّان وقرشي، أو قرشيَّان وثقفي كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أهلككم، أي: ظنّكم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون أرداكم، قال ابن عباس: طرحكم في النار ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ثم أخبر عن حالهم فقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مسكن لهم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يسترضوا ويطلبوا العتبى ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المُرضين، والمعتَب: الذي قُبِل عتابُه، وأُجيب إلى ما سأل، يقال: أعتبني فلان، أي: أرضاني بعد إسخاطه إيَّاي، واستعتبته: طلبت منه أن يعتب، أي: يرضى.

۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٦٢)، ومسلم برقم٢٧٧٥: (٤/ ٢١٤١).

تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: بعثنا ووكّلنا، وقال مقاتل: هيَّأنا، وقال الزجاج: سبَّبْنا لهم ﴿قُرَنَآءَ﴾ نُظراء من الشياطين حتى أضلوهم ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مشركي قريش ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ قال ابن عباس: يعني: الغطوا فيه، وكان بعضُهم يُوصي إلى بعضٍ إذا رأيتم محمدًا يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو، قال مجاهد: والغوا فيه بالمُكاء والصفير، وقال الضحاك: أكثروا الكلام فيختلط عليه ما يقول، وقال السدي: صيحوا في وجهه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمدًا على قراءته.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى﴾ يعني: بأسوأ الذي، أي: بأقبح الذي ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهو الشرك بالله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من العذاب الشديد ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ ثم بيَّن ذلك الجزاء فقال: ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ دار الإقامة، لا انتقال منها ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في النار يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون: إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه؛ لأنهما سنَّا المعصية ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ليكونا في الدرك الأسفل من النار، قال ابن عباس: ليكونا أشد عذابًا منَّا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ سئل أبو بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئًا، وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ:

«الاستقامة»: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب، وقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: أخلصوا العمل لله، وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: أدّوْا الفرائض، وقال ابن عباس: استقاموا على أداء الفرائض.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن عباس: عند الموت، وقال قتادة ومقاتل: إذا قاموا من قبورهم، قال وكيع بن الجراح: البشرى تكون في ثلاث مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ من الموت، وقال مجاهد: لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلفتم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله، وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ تقول لهم الملائكة الذين تنزل عليهم بالبشارة: نحن أولياؤكم أنصاركم وأحباؤكم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقال السدي: تقول الملائكة: نحن الحفظة الذين كنَّا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة، يقولون: لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من الكرامات واللذات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنون.

﴿نُزُلًا﴾ رزقًا ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى طاعته ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال ابن سيرين والسدي وابن عباس: هو رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وقال الحسن: هو المؤمن الذي أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، وقالت عائشة: أرى هذه الآية نزلت في المؤذِّنين.

عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة» ثلاث مرات، ثمَّ قال في الثالثة: «لمن شاء»[(١)].

وعن أنس بن مالك ـ قال سفيان: لا أعلمه إلاَّ وقد رفعه إلى النبي ﷺ ـ قال: «لا يردّ الدعاءُ بين الأذان والإقامة»[(٢)].

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ١١٠)، ومسلم برقم٨٣٨: (١/ ٥٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ٢٨٣)، والترمذي: (١/ ٦٢٤ - ٦٢٥)، قال أبو عيسى: (حديث أنس حديث صحيح)، والإمام أحمد: (٣/ ١١٩).

ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ معناه: ولا تستوي الحسنة والسيئة، يعني: الصبر والغضب، والحلم والجهل، والعفو والإساءة ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ قال ابن عباس: أمر بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾ يعني: إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك، وصار الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ كالصديق والقريب، قال مقاتل بن حيان: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وذلك أنه لان للمسلمين بعد شدة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليًّا بالإسلام، حميمًا بالقرابة.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ ما يلقى هذه الخصلة وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كظم الغيظ واحتمال المكروه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ في الخير والثواب، وقال قتادة: «الحظ العظيم»: الجنة، أي: ما يلقاها إلاَّ من وجبت له الجنة.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك وأقوالك ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأحوالك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن السجود ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ لا يملون ولا يفترون.

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائل قدرته ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ يابسة غبراء لا نبات فيها ﴿خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا

﴿ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يميلون عن الحق في أدلتنا، قال مجاهد: يلحدون في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط، قال قتادة: يكذبون في آياتنا، قال السدي: يعاندون ويشاقون.

﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو أبو جهل ومن على شاكلته ﴿خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ أمر تهديد ووعيد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالم، فيجازيكم به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ بالقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ قال قتادة: أعزه الله عزَّ وجلَّ عزًّا فلا يجد الباطل إليه سبيلاً.

وهو قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ قال قتادة والسدي: الباطل: هو الشيطان، لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه. قال الزجاج: معناه: أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، وعلى هذا معنى «الباطل»: الزيادة والنقصان. وقال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجي من بعده كتاب فيبطله. ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾.

ثم عزَّى نبيه ﷺ على تكذيبهم فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ من الأذى ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ يقول: إنه قد قيل للأنبياء والرسل قبلك: ساحر كما يقال لك، وكُذِّبوا كما كُذِّبتَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ لمن تاب وآمن بك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ لمن أصر على التكذيب.

وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: جعلنا هذا الكتاب الذي تقرؤه على الناس ﴿قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ بغير لغة العرب ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ هلاَّ بيِّنت آياته بالعربية حتى نفهمها ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ يعني: أكتاب أعجمي ورسول عربي؟ وهذا استفهام على وجه الإنكار، أي: أنهم كانوا يقولون: المنزَّل عليه عربي والمنزَل أعجمي.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى﴾ هدى من الضلالة ﴿وَشِفَآءٞۚ﴾

وشفاء لما في الصدور، وقيل: شفاء من الأوجاع.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ قال قتادة: عَمُوا عن القرآن وصمُّوا عنه فلا ينتفعون به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دُعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم، وهذا مَثَلٌ لقلة انتفاعهم بما يوعظون به، كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فمصدق ومكذب، كما اختلف قومك في كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لفرغ من عذابهم وعُجّل إهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من صدقك ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع لهم الريبة.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علمها إذا سئل عنها مردود إليه لا يعلمه غيره ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها، واحدها: كِمٌّ، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلاَّ بإذنه، يقول: يرد إليه علم الساعة كما يرد إليه علم الثمار والنتاج ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم آلهة ﴿قَالُوٓا﴾ يعني: المشركون: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: مِن شاهدٍ بأن لك شريكًا لمَّا عاينوا العذاب تبرأوا من الأصنام.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ الْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ الْإِنسَٰنُ﴾ لا يمل الكافر ﴿مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يزال يسأل ربَّه الخير، يعني: المال والغنى والصحة ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ الشدة والفقر ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ آتيناه خيرًا وعافية وغنى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ من بعد شدة وبلاء

أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي: بعملي، وأنا محقوق بهذا ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يقول هذا الكافر: لست على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك وَرُدِدْتُ إلى ربي إن لي عنده للحسنى، أي: الجنة، كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لنقفنَّهم على مساوىء أعمالهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة، فيقال: أطال فلان الكلام والدعاء وأعرض، أي: أكثر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ خلاف للحق بعيد عنه، أي: فلا أحد أضل منكم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: منازل الأمم الخالية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلاء والأمراض. وقال قتادة: «في الآفاق»، يعني: وقائع الله في الأمم، «وفي أنفسهم» يوم بدر.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: دين الإسلام، وقيل: القرآن، يتبين لهم أنه من عند الله، وقيل: محمد ﷺ، يتبين لهم أنه مؤيد من قبل الله تعالى.

وقال عطاء وابن زيد: «في الآفاق»، يعني: أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار، «وفي أنفسهم» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، حتى يتبين لهم أنه الحق.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قال مقاتل: أوَ لَمْ يكفِ بربِّك شاهدًا أن القرآن من الله تعالى، قال الزجاج: معنى الكفاية هاهنا: أن الله عزَّ وجلَّ قد بيَّن من الدلائل ما فيه كفاية، يعني: أو لم يكف بربك ـ لأنه على كل شيءٍ شهيد ـ شاهد لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في شكٍّ من البعث ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا.

سورة الشورى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ

أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قال عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد: أخبار الغيب.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾ أي: كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: «اتَّخذ الله ولدًا»، نظيره في سورة مريم: «وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ» [مريم: ٨٨ - ٩٠] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ من المؤمنين ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحفظ أعمالهم ويحصيها عليهم ليجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لم يوكلك الله بهم حتى تؤخذ بهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ما ذكرنا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة، يعني: أهلها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: قرى الأرض كلِّها ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: تنذرهم بيوم الجمع: وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين، وأهل السموات وأهل الأرضين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ لا شك في الجمع أنه كائن، ثم بعد الجمع يتفرقون ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابضًا على كفيه ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟ قلنا: لا يا رسول الله، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفًا في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفًا في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم، إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة، ثم قال للذي في يساره: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم، قبل أن يستقروا نطفًا في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفًا في الأرحام إذْ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا بناقص منهم، إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة»، فقال عبد الله بن عمرو: ففيم العمل إذًا يا رسول الله؟ فقال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيَّ عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإنْ عمل أيّ عمل»، ثم قال: «فريقٌ في الجنة» فضل من الله، «وفريق في السعير» عدل من الله عزَّ وجلَّ»[1].

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ٣٥٠ - ٣٥٢)، والنسائي: (٢/ ٢٦٥)، والإمام أحمد: (٢/ ١٦٧).

﴿وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: على دين واحد، وقال مقاتل: على ملة الإسلام كقوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ» [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في دين الإسلام ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعهم من النار.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ بل اتخذوا، أي: الكافرون ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: وليُّك يا محمد، وولي مَن اتَّبعك ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من أمر الدين ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقضي فيه ويحكم يوم القيامة بالفصل الذي يزيل الريب ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي يحكم بين المختلفين هو ﴿رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ من مثل خلقكم خلائل، قيل: إنما قال «من أنفسكم»؛ لأنه خلق حواء من ضلع آدم ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا: ذكورًا وإناثًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يخلقكم ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرحم، وقيل: في البطن، وقيل: على هذا الوجه من الخلقة، قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس له نظير ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مفاتيح الرزق في السموات والأرض، قال الكلبي: المطر

والنبات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ لأنَّ مفاتيح الرزق بيده ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ بيَّن وسنَّ لكم ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وهو أول أنبياء الشريعة، قال مجاهد: أوصيناك وإياه يا محمد دينًا واحدًا ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن وشرائع الإسلام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ واختلفوا في وجه الآية، فقال قتادة: تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقال الحكم: تحريم الأمهات والبنات والأخوات.

وقال مجاهد: لم يبعث الله نبيًّا إلاَّ وَصَّاه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة له، فذلك دينه الذي شرع لهم.

وقيل: هو التوحيد والبراءة من الشرك، وقيل: هو ما ذكر من بَعْدُ، وهو قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان، ثم قال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يصطفي إليه من عباده من يشاء ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يُقبل إلى طاعته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ يعني: أهل الأديان المختلفة، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بأن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ﴾ أي: للبغي، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بين مَن آمن وكفر، يعني: أنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد أنبيائهم، وقيل: من بعد الأمم الخالية، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: من محمد ﷺ.

فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ﴾ أي: فإلى ذلك، وذلك إشارة إلى ما وصَّى به الأنبياء من التوحيد ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ﴾ اثبت على الدين الذي أُمرت به ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾ أي: آمنت بكتب الله كلِّها ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾ أن أعدل بينكم، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أُمرتُ أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام،

وقيل: لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ يعني: إلهنا واحد، وإن اختلفت أعمالنا، فكلٌّ يُجازَى بعمله ﴿لَا حُجَّةَ﴾ لا خصومة ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ نسختها آية القتال، فإذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة لم يكن بينه وبين مَن لا يجيب خصومة ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ في المعاد، لفصل القضاء ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يخاصمون في دين الله تعالى نبيَّه ﷺ، وقال قتادة: هم اليهود قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيكم، فنحن خير منكم، فهذه خصومتهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: استجاب له الناسُ فأسلموا ودخلوا في دينه؛ لظهور معجزته ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ خصومتهم باطلة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ قال قتادة ومجاهد ومقاتل: سُمي العدل ميزانًا؛ لأنَّ الميزان آلة الإنصاف والتسوية، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البَخْس ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ قال مقاتل: ذكر النبي ﷺ الساعة وعنده قوم من المشركين، قالوا تكذيبًا: متى تكون الساعة؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ ظنًّا منهم أنها غير آتية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ﴾ أي: خائفون ﴿مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ أنها آتية لا ريب فيها ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ يخاصمون، وقيل: تدخلهم المرية والشك ﴿فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾.

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ حفيٌّ بهم. لطيف بالبَرِّ والفاجر، حيث لم يهلكهم جوعًا بمعاصيهم، وكل من رزقه الله من مؤمنٍ وكافرٍ وذي روحٍ فهو ممن يشاء الله أن يرزقه، ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الحرث في اللغة: الكسب، يعني: من كان يريد بعمله الآخرة ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ بالتضعيف بالواحد عشرة إلى ما شاء الله من الزيادة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يريد بعمله الدنيا ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ قال قتادة: أي: نؤته بقدر ما قَسَم الله له، ﴿وَمَا لَهُۥ فِي

﴿ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه لم يعمل للآخرة.

عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني: كفار مكة، يقول: أم لهم آلهة سنُّوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: شرعوا لهم دينًا غير دين الإسلام.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ لولا أن الله حكم في كلمة الفصل بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لفُرغ من عذاب الذين يكذبونك في الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ جزاء كسبهم واقع بهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾ ذكرت من نعيم الجنة ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم أهل ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سئل عن قوله: «ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ»، قال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عجلتَ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلاَّ كان له فيهم قرابة، فقال: إلاَّ أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة(٢).

وكذلك روى الشعبي وطاووس عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ»، يعني: أن تحفظوا قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي.

وروى ابن أبي عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية: إلاَّ أن تودُّوا الله وتتقربوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن، قال: هو القربى إلى الله، يقول: إلاَّ التقرب إلى الله، والتودد إليه بالطاعة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٥/ ١٣٤)، وصححه الحاكم: (٤/ ٣١١).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٦٤).

والعمل الصالح.

واختلفوا في قرابته، قيل: هي فاطمة وعلي وأبناؤهما، وفيهم نزل: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ» [الأحزاب: ٣٣].

وروينا عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي»، قيل لزيد بن أرقم: مَنْ أهل بيته؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس[١].

عن واقد قال: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر، عن أبي بكر قال: ارقبُوا محمدًا في أهل بيته[٢].

وقيل: هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه، ويقسم فيهم الخمس، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، الذين لم يتفرقوا في جاهلية ولا في إسلام[٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: من يزد طاعةً نزد له فيها حسنًا بالتضعيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل حتى يضاعفها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، يعني: كفار مكة ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أخبر أن ما يقولونه باطل يمحوه الله ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: الإسلام بما أنزل من كتابه، وقد فعل الله ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الإسلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد: أولياءه وأهل طاعته، قيل: التوبة: ترك المعاصي نيةً وفعلاً، والإقبال على الطاعة نيةً وفعلاً، قال سهل بن عبد الله: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إذا تابوا.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (١/ ٢٦٨)، والحاكم: (٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي.

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم٢٤٠٨: (٤/ ١٨٧٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٧/ ٧٨).

فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذْ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[١].

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيمحوها إذا تابوا ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾أي: ويجيب الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ إذا دعوه، وقال عطاء عن ابن عباس: ويثيب الذين آمنوا ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ سوى ثواب أعمالهم تفضلاً منه، ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ قال خباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنَّا نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فتمنَّيناها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: «وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ» وسع الله الرزق ﴿لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾ لطغوا وعتوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال ابن عباس: بغيُهم: طلبهم منزلةً بعد منزلة، ومركبًا بعد مركب، وملبسًا بعد ملبس.

﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ﴾ أرزاقهم ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ كما يشاء، نظرًا منه لعباده ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يعني: من بعد ما يئس الناس منه، وذلك أدعى لهم إلى الشكر، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ يبسط مطره، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ لأهل طاعته ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ عند خلقه.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ يعني: يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلاَّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٧٤٧: (٤/ ٢١٠٤).

(٢) أخرجه هناد مرسلاً في الزهد: (١/ ٥١٩)، وله شواهد عند الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري.

قال علي بن أبي طالب: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ حدثنا بها رسول الله ﷺ؟ «﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾»، قال: «وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يُثنِّي عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنكم في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه»(١).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بفائتين ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هربًا، يعني: لا تعجزوني حيث ما كنتم، ولا تسبقونني ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ يعني: السفن، واحدتها جارية وهي السائرة ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي: الجبال.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجريها ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ يعني: الجواري ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ على ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أي: لكل مؤمن؛ لأن صفة المؤمن: الصبر في الشدة، والشكر في الرخاء.

أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ يهلكهنَّ ويغرقهنَّ ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: بما كسبت ركبانها من الذنوب ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ من ذنوبهم.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي: يعلم الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من عذاب الله.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ من رياش الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ليس من زاد المعاد ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع قليل لهما يتمتعان بها، فإذا صاروا إلى الآخرة كان ما عند الله خيرٌ للمؤمن.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ قال السدي: يعني: الزنا، وقال مجاهد ومقاتل:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (١/ ٨٥)، والحاكم: (٤/ ٣٨٨).

ما يوجب الحدّ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يحلمون ويكظمون الغيظ ويتجاوزون.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يتشاورون فيما يبدون لهم ولا يعجلون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ الظلم والعدوان ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتقمون من ظالميهم من غير أن يعتدوا.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سمى الجزاء سيئة وإن لم تكن سيئة؛ لتشابههما في الصورة، قال مقاتل: يعني: القصاص في الجراحات والدماء. الجارح إذا جرح يُقتص منه، وليس هو أن يشتمك فتشتمه.

ثم ذكر العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عمن ظلمه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالعفو بينه وبين ظالمه ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: مَن كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلاَّ من عفا، ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: الذين يبدؤون بالظلم.

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: بعد ظلم الظالم إياه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بعقوبة ومؤاخذة.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبدؤون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يعملون فيها بالمعاصي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ فلم ينتصر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ حقها وجزمها.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فما له من أحدٍ يلي هدايته بعد إضلال الله إيَّاه، ويمنعه من عذاب الله ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يسألون الرجعة في الدنيا.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَٰشِعِينَ﴾ خاضعين متواضعين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ

مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ﴾ خفيِّ النظر، لما عليهم من الذل، يسارقون النظر إلى النار خوفًا منها وذلةً في أنفسهم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۗ﴾ قيل: خسروا أنفسهم بأن صاروا إلى النار، وأهليهم بأن صاروا لغيرهم في الجنة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ طريق إلى الصواب، وإلى الوصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى، قد انسدَّ عليهم طريق الخير.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أجيبوا داعي الله، يعني: محمدًا ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا يقدر أحد على دفعه: وهو يوم القيامة ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ تلجأون إليه ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ من منكرٍ، يُغير ما بكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن الإجابة ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ﴾ ما عليك ﴿إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ قال ابن عباس: يعني: الغنى والصحة ﴿فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ قحط ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: لما تقدم من نعمة الله عليه، ينسى ويجحد بأول شدة جميع ما سلف من النعم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما بما يريد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا﴾ فلا يكون له ولد ذكر، قيل: من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر؛ لأن الله تعالى بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فلا يكون له أُنثى.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًاۖ﴾ يجمع له بينهما، فيولد له الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ

﴿عَقِيمًاۚ﴾ فلا يلد ولا يولد له، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تُكلم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال: «لم ينظر موسى إلى الله عزَّ وجلَّ»، فأنزل الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» يوحى إليه في المنام أو بالإلهام ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يُسمعه كلامه ولا يراه، كما كلمه موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: يوحي ذلك الرسولُ إلى المرسَل إليه بإذن الله ما يشاء. ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى سائر رسلنا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ قال ابن عباس: نبوة، وقال السدي ومقاتل: وحيًا، وقال مالك بن دينار: يعني: القرآن ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ يعني: شرائع الإيمان ومعالمه.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ قال ابن عباس: يعني: الإيمان، وقال السدي: يعني: القرآن ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾ نرشد به ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي: لتدعو ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: الإسلام.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ أي: أُمور الخلائق كلها في الآخرة.

سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أقسم بالكتاب الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمة من الشريعة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ قوله: «جعلناه» أي: صيَّرنا قراءة هذا الكتاب عربيًّا.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ، ﴿لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ قال قتادة: يخبر عنه منزلته وشرفه، أي: إن كذبتم بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا لعليٌّ رفيعٌ شريفٌ محكم من الباطل.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يقال: ضربت عنه وأضربت عنه إذا تركته وأمسكت عنه، ومعناه: أفنترك عنه الوحي ونمسك عن إنزال القرآن فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم

في كفركم وتركتم الإيمان؟ استفهام بمعنى الإنكار، أي: لا نفعل ذلك، وهذا قول.

وقيل: معناه: أفنضرب عنكم بتذكيرنا إيَّاكم صافحين معرضين. قال الكسائي: أفنطوي عنكم الذكر طيًّا فلا تُدْعَوْن ولا توعَظون.

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي: وما كان يأتيهم ﴿مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك، يعزِّي نبيه ﷺ.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: أقوى من قومك، يعني: الأولين الذين أُهلكوا بتكذيب الرسل ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: صفتهم وسنَّتهم وعقوبتهم، فعاقبة هؤلاء كذلك في الإهلاك.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: سألت قومك ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أقروا بأن الله خالقها، وأقروا بعزِّه وعلمه ثم عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم، إلى هاهنا تم الإخبار عنهم، ثم ابتدأ دالاً على نفسه بصنعه فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ إلى مقاصدكم في أسفاركم.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر حاجتكم إليه، ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أحيينا هذه البلدة الميتة بالمطر، كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أي: الأصناف ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بتسخير المراكب في البر والبحر ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ذلل لنا هذا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين، وقيل: ضابطين ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ لمنصرفون في المعاد.

عن أبي إسحاق، أخبرني علي بن ربيعة أنه شهد عليًّا ـ رضي الله عنه ـ حين ركب فلما وضع

رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنَّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقبلون، ثم حمد ثلاثًا وكبر ثلاثًا، ثم قال: لا إله إلاَّ الله ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، ثم ضحك، فقال: ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل ما فعلت، وقال مثل ما قلت، ثم ضحك، فقلنا: ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: «العبد»، أو قال: «عجبت للعبد إذا قال: لا إله إلاَّ الله ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلاَّ هو»[1].

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أن: نصيبًا وبعضًا، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ يعني: الكافر ﴿لَكَفُورٌ﴾ جحود لنعم الله ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفران.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ هذا استفهام توبيخ وإنكار، يقول: اتَّخذ ربُّكم لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بما جعل لله شبهًا، يعني: إذا بُشِّر أحدهم بالبنات كما ذكر في سورة النحل: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾» [النحل: ٥٨] من الحزن والغيظ.

﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ﴾ أي: يُربَّى، ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ في الزينة، يعني: النساء ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ في المخاصمة غير مبين للحجة من ضعفهنَّ وسفههنَّ، قال قتادة في هذه الآية: قلَّما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلاَّ تكلمت بالحجة عليها.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ على الملائكة

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٤١٠)، والترمذي (٩/ ٤٠٨ - ٤٠٩)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٣٤٩، والإمام أحمد: (١/ ١١٥).

أنهم بنات الله ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعني: الملائكة، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فيما يقولون ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ما هم إلاَّ كاذبون في قولهم: إن الله تعالى رضي منَّا بعبادتها، وقيل: إن هم إلاَّ يخرصون في قولهم: إن الملائكة إناث وإنهم بنات الله.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين وملة، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ جعلوا أنفسهم باتباع آبائهم مهتدين ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أغنياؤها ورؤساؤها ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ بهم.

۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا﴾ بدين أصوب ﴿وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ أي: بريء، ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلقني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ يرشدني لدينه.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعني: هذه الكلمة ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ قال مجاهد وقتادة: يعني: كلمة التوحيد، وهي «لا إله إلاَّ الله» كلمة باقية في عقبه في ذريته، قال قتادة: لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده، وقال القرظي: يعني: وجعل وصية إبراهيم التي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته، وهو قوله عزَّ وجلَّ: «وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ» [البقرة: ١٣٢]، وقال ابن زيد: يعني قوله: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» [البقرة: ١٣١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّ أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم، وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ يعني: المشركين في الدنيا، ولم أعاجلهم بالعقوبة على الكفر ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يبين لهم الأحكام، وهو محمد ﷺ، وكان من حق هذا الإنعام أن يطيعوه، فلم يفعلوا، وعصوا وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: القرآن

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ يعني: النبوة، قال مقاتل: يقول: بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ ثم قال:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ فجعلنا هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وهذا ملكًا وهذا مملوكًا، فكما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق كما شئنا، كذلك اصطفينا بالرسالة من شئنا.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ بالغنى والمال ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ ليستخدم بعضُهم بعضًا فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش، هذا بماله، وهذا بأعماله، فيلتئم قِوامُ أمر العالم.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ للمؤمنين ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمع الكفار من الأموال.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لولا أن يصيروا كلهم كفارًا فيجتمعون على الكفر ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ مصاعد ودرجًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلون ويرتقون، يقال: ظهرت على السطح إذا علوته.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ من فضة ﴿وَسُرُرًا﴾ أي: وجعلنا لهم سررًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿وَزُخْرُفًا ۚ﴾ أي: وجعلنا مع ذلك لهم زخرفًا وهو الذهب، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ إن هذا كله متاع الحياة الدنيا يزول ويذهب ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة، يعني: الجنة.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة ماء»[1].

عن المستورد بن شداد أخي بني فهر قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها»؟ قالوا: مِن هوانها ألقوها، قال رسول الله ﷺ: «فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٦/ ٦١١)، وقال: (هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه)، وابن ماجه برقم ٤١١٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٦/ ٦١١ - ٦١٢)، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجه برقم ٤١١١: (٢/ ١٣٧٧)، والإمام أحمد: (٤/ ٢٢٩).

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يعرض عن ذكر الرحمن فلم يخف عقابه، ولم يرجُ ثوابه، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ نسبب له شيطانًا ونضمه إليه ونسلطه عليه ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ لا يفارقه، يزين له العمى، ويخيل إليه أنه على الهدى.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ليمنعونهم عن الهدى، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ويحسب كفار بني آدم أنهم على الهدى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ﴾ الكافر لقرينه الشيطان: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعد ما بين المشرق والمغرب، وقيل: أراد بالمشرقين: مشرق الصيف ومشرق الشتاء. والأول أصح ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ قال أبو سعيد الخدري: إذا بعث الكافر زُوِّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير إلى النار ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الآخرة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أشركتم في الدنيا ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: لا ينفعكم الاشتراك في العذاب، ولا يخفف الاشتراك عنكم شيئًا من العذاب؛ لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ يعني: الكافرين الذين حقَّت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بأن نميتك قبل أن نعذبهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بالقتل بعدك.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون، متى شئنا عذبناهم، وأراد به: مشركي مكة، انتقم منهم يوم بدر.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ

فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف ذلك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ من قريش، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن حقِّه وأداء شكره. عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان»[(١)].

وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحدٌ إلاَّ كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين»[(٢)].

وقال مجاهد: القوم هم العرب، فالقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم، ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص من العرب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ استهزاءً.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها وصاحبتها التي كانت قبلها ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ بالسنين والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والطمس، فكانت هذه دلالاتٍ لموسى وعذابًا لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

﴿وَقَالُوا۟﴾ لموسى لَمَّا عاينوا العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يا أيها العالم الكامل الحاذق، وإنما قالوا هذا توقيرًا وتعظيمًا له؛ لأن السحر عندهم كان علمًا عظيمًا وصفةً ممدوحة، وقيل: معناه: يا أيها الذي غلبنا بسحره، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أخبرتنا من عهده إليك إن آمنَّا كشف عنا العذاب فاسأله يكشف عنَّا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون، فدعا موسى فكشف عنهم فلم يؤمنوا، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٣٣)، ومسلم برقم١٨٢٠ : (٣/ ١٤٥٢).

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦/ ٥٣٣).

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أنهار النيل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ من تحت قصوري، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وشدة ملكي.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ بل أنا خير، ﴿مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير، يعني: موسى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يفصح بكلامه للثغته التي في لسانه.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقًا ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالة لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى ربُّ موسى عليه أسورة من ذهب إن كان سيِّدًا تجب علينا طاعته ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين، يقارن بعضُهم بعضًا، يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ أي: استخف فرعون قومه القبط، أي: وجدهم جهالاً، يقال: استخفه عن رأيه، إذا حمله على الجهل وأزاله عن الصواب ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ على تكذيب موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ وهما جميعًا الماضُون المتقدمون من الأمم، يقال: سلُف يسلُف إذا تقدم، والسلف: مَن تقدم من الآباء، فجعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ﴿وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ عبرة وعظة لمَن بقي بعدهم، وقيل: سلفًا لكفار هذه الأُمة إلى النار، ومثلاً لمن يجيء بعدهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعري مع النبي ﷺ في شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله عزَّ وجلَّ: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» [الأنبياء: ٩٨]، ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يعرضون.

وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة: «أم هو» يعنون: محمدًا، فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا،

وقال السدي وابن زيد: «أم هو» يعني: عيسى، قالوا: يزعم محمدٌ أن كلَّ ما عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار، وقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ يعني: هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدًى كانوا عليه إلاَّ أُوتوا الجَدَل»، ثم قرأ: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»(١).

ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو، يعني: عيسى عليه السلام ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ آية وعبرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله عزَّ وجلَّ على ما يشاء، حيث خلقه من غير أب.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾ أي: ولو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يكونون خلفًا منكم يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني، وقيل: يخلف بعضُهم بعضًا.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يعني: نزوله من أشراط الساعة يُعلم به قربها.

ورُوينا عن النبي ﷺ: «لَيُوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عادلاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وتهلك في زمانه الملل كلها إلاَّ الإسلام»(٢).

عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم»(٣)؟

وقال الحسن وجماعة: «وَإِنَّهُ» يعني: وإن القرآن «لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» يعلمكم قيامها، ويخبركم بأحوالها وأهوالها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكنَّ فيها، قال ابن عباس: لا تكذبوا بها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ على التوحيد ﴿هَذَا﴾ الذي أنا عليه ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ لا يصرفنكم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ عن دين الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

---

(١) أخرجه الترمذي (٩/ ١٣٠ - ١٣١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم٤٨، والإمام أحمد: (٥/ ٢٥٢ - ٢٥٦)، والحاكم: (٢/ ٤٤٨) وقال: (حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٩٠ - ٤٩١)، ومسلم برقم١٥٥: (١/ ١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٤٩١)، ومسلم برقم١٥٥: (١/ ١٣٦).

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالنبوة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ﴾ من أحكام التوراة، قال قتادة: يعني: اختلاف الفرق الذين تحزبوا على أمر عيسى، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني: أنها تأتيهم لا محالة، فكأنهم ينتظرونها ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ على المعصية في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلاَّ المتحابين في الله عزَّ وجلَّ على طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿يَٰعِبَادِ﴾ أي: فيقال لهم: يا عبادي ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فييأس الناسُ منها غير المسلمين، فيقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تسرون وتنعمون.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ جمع صحفة: وهي القصعة الواسعة ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ﴾ جمع كوب: وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عرى لها ﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

عن عبد الرحمن بن سابط قال: قال رجل: يا رسول الله، أفي الجنة خيل؟ فإني أحب الخيل، فقال: «إن يدخلك اللهُ الجنة لا تشاء أن تركب فرسًا من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت، إلاَّ فعلتَ»، فقال أعرابي: يا رسول الله، أفي الجنة إبل؟ فقال: «يا أعرابي، إن يدخلك اللهُ الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك»(١).

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ

(١) أخرجه الترمذي (٧/ ٢٥٠ - ٢٥٢)، والإمام أحمد: (٥/ ٣٥٢).

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ يدعون خازن النار: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا ربك فنستريح، فيجيبهم ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال النبي ﷺ: «إنَّ أهل النار يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عامًا، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون»، قال: «هانت ـ والله ـ دعوتهم على مالك وعلى رب مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنَّا قومًا ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنَّا ظالمون»، قال: «فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون»، قال: «فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة، وما هو إلاَّ الزفير والشهيق في نار جهنم، فشبه أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق»(١).

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: أرسلنا إليكم يا معشر قريش رسولنا بالحق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ أم أحكموا ﴿أَمْرًا﴾ في المكر برسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون أمرًا في مجازاتهم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ ما يسرونه من غيرهم، ويتناجون به بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ونعلم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أيضًا من الملائكة، يعني: الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني: إن كان للرحمن ولد في قولكم وعلى

---

(١) أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣٩٦) ثم قال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

زعمكم، فأنا أول من عبده، فإنه واحد لا شريك له ولا ولد.

وقال السدي: معناه: لو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده بذلك، ولكن لا ولد له.

ويقال: معناه: أنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد، يقال: عبد يعبد إذا أنف وغضب.

ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عما يقولون من الكذب.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ قال قتادة: يُعبد في السماء وفي الأرض لا إله إلاَّ هو ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهم عيسى وعزير والملائكة فإنهم عُبدوا من دون الله، ولهم الشفاعة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ يصرفون عن عبادته.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ يعني: قول محمد ﷺ شاكيًا إلى ربه: يا رب ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ معناه: المتاركة، كقوله تعالى: «سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ» [القصص: ٥٥] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

سورة الدخان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قال قتادة وابن زيد: هي ليلة القدر، أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أُم الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عن النبي ﷺ منجمًا في عشرين سنة. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

﴿فِيهَا﴾ أي: في الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ﴾ يفصل ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ محكم. ﴿أَمْرًا﴾ أي: أنزلنا

أمرًا ﴿مِّنْ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمدًا ﷺ ومَن قبله من الأنبياء.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ قال ابن عباس: رأفة مني بخلقي ونعمتي عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أن الله رب السموات والأرض.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ من هذا القرآن ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يهزؤون به، لاهُونَ عنه.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في كندة، فقال: يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ففزعنا فأتيت ابن مسعود وكان متكئًا فغضب فجلس، فقال: من علم فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن لا يقول لما لا يعلم: لا أعلم، فإن الله قال لنبيه ﷺ: «قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦» [ص: ٨٦]، وإنَّ قريشًا أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد، جئتَ تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكُوا فادعُ الله لهم، فقرأ: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠» إلى: «إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ»، أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء؟ ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله: «يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ»: يوم بدر و«لزامًا» يوم بدر، «الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢»، إلى «سَيَغْلِبُونَ» [الروم: ١ - ٣]، والروم قد مضى[1].

عن مسروق، عن عبد الله قال: خمس قد مضين «اللِّزامُ والرومُ والبطشةُ والقمرُ والدخانُ»[2].

يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ من أين لهم التذكرة والاتعاظ؟ يقول: كيف يتذكرون ويتعظون؟ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١١).
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٩٦).

رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الصدق، يعني: محمدًا ﷺ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أعرضوا عنه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾ أي: يعلمه بشر ﴿مَّجْنُونٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ أي: عذاب الجوع ﴿قَلِيلًا﴾ أي: زمانًا يسيرًا، قال مقاتل: إلى يوم بدر ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى كفركم. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ وهو يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وهذا قول ابن مسعود وأكثر العلماء، وقال الحسن: يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ بلونا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله، وهو موسى بن عمران. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ يعني: بني إسرائيل، أطلقهم ولا تعذبهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على الوحي. ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تتجبروا عليه بترك طاعته ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ببرهان بيِّن على صدق قولي، فلما قال ذلك توعدوه بالقتل، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: تَقْتُلوني، وقال ابن عباس: تشتموني، وتقولوا: هو ساحر. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ فاتركوني، لا معي ولا عليَّ.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مشركون، فأجابه الله وأمره أن يسري، فقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أي: ببني إسرائيل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه. ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ إذا قطعته أنت وأصحابك ﴿رَهْوًا﴾ ساكنًا على حالته وهيئته، بعد أن ضربته ودخلته، معناه: لا تأمره أن يرجع، اتركه حتى يدخله آل فرعون، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى أنه يغرقهم ليطمئن قلبه في تركه البحر كما جاوزه، ثم ذكر ما تركوا بمصر.

فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ يعني: بعد الغرق ﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ مجلس شريف.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ ومتعة وعيش لين ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ ناعمين، وفكهين: أشرين بطرين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي: كذلك أفعل بمن عصاني ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يعني: بني إسرائيل.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده، ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليه. قال عطاء: بكاء السماء حمرة أطرافها.

﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ لم يُنظروا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ قتل الأبناء واستحياء النساء والتعب في العمل.

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني: مؤمني بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ قال قتادة: نعمة بيِّنة من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، والنعم التي أنعمها عليهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا موتة إلاَّ هذه التي نموتها في الدنيا، ثم لا بعث بعدها، وهو قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين بعد موتتنا.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الذين ماتوا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّا نُبعث أحياءً بعد الموت، ثم خوَّفهم مثل عذاب الأُمم الخالية فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أي: ليسوا خيرًا منهم، يعني: أقوى وأشد وأكثر من قوم تبع. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري تبع نبيًّا كان أو غير نبي»(١) ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأُمم الكافرة ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قيل: يعني: للحق،

---

(١) أخرجه الحاكم: (١/ ٣٦)، والبيهقي في «السنن»: (٨/ ٣٢٩)، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٥/ ٢٥١ - ٢٥٣).

وهو الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم يفصل الرحمن بين العباد ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يوافي يوم القيامة الأولون والآخرون ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ لا ينفع قريب قريبه، ولا يدفع عنه شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لا يُمنعون من عذاب الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ يريد: المؤمنين، فإنه يشفع بعضُهم لبعض ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ذي الإثم، وهو أبو جهل.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ هو درديُّ الزيت الأسود ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أي: بطون الكفار ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ كالماء الحار إذا اشتدَّ غليانه.

عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اتقوا الله حقَّ تقاته، فلو أن قطرة من الزَّقوم قطرت على الأرض لأمرَّتْ على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن تكون طعامه وليس لهم طعام غيره»(١).

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوه، يعني: الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: ادفعوه وسوقوه، يقال: عتلَه يعتِله عَتْلاً، إذا ساقه بالعنف والدفع والجذب ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه. ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ قال مقاتل: إن خازن النار يضربه على رأسه فينقب رأسه عن دماغه، ثم يصب فيه ماءً حميمًا قد انتهى حره. ثم يقال له: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ عند قومك بزعمك، وذلك أن أبا جهل كان يقول: أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم، فيقول له هذا خزنةُ النار، على طريق الاستحقار والتوبيخ. ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكُّون فيه ولا تؤمنون به، ثم ذكر مستقر المتقين، فقال:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: في إقامة، في مجلس أمين، أمنوا فيه من الغير، أي: من الموت ومن الخروج منه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٧/ ٣٠٧ - ٣٠٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه في الزهد، برقم٤٣٢٥: (٢/ ١٤٤٦)، والإمام أحمد: (١/ ٣٠١).

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ أي: كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنات والعيون واللباس، كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم ﴿بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي: قرناهم بهنَّ، ليس من عقد التزويج؛ لأنه لا يقال: زوجته بامرأة، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا لهنَّ كما يزوَّج البعل بالبعل، أي: جعلناهم اثنين اثنين، و«الحور»: هنَّ النساء النقيات البياض، قال مجاهد: يحار فيهن الطرف من بياضهن وصفاء لونهن، وقال أبو عبيدة: «الحور»: هُنَّ شديدات بياض الأعين الشديدات سوادها، واحدها أحور، والمرأة حوراء، و«العِيْن»: جمع العيناء، وهي عظيمة العينين.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ اشتهوها ﴿ءَامِنِينَ﴾ من نفادها ومن مضرتها، وقال قتادة: آمنين من الموت والأوصاب والشياطين. ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا، وقيل: إنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا من موتٍ في الجنة؛ لأنَّ السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله إلى أسباب الجنة، يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم في الجنة، فكان موتهم في الدنيا كأنهم في الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إيَّاها ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي: فعل ذلك بهم فضلاً منه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ﴾ سهلنا القرآن، كناية عن غير مذكور ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: على لسانك ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ فانتظر النصر من ربك، وقيل: فانتظر لهم العذاب ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ منتظرون قهرك بزعمهم.

سورة الجاثية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ﴾ ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أنه لا إله غيره. ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

رِزْقٍ﴾ يعني: الغيث الذي هو سبب أرزاق العباد ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يريد: هذا الذي قصصنا عليك من آيات الله نقصها عليك بالحق ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ بعد كتاب الله ﴿وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ كذاب صاحب إثم. ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا﴾ قال مقاتل: من القرآن ﴿شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿مِّن وَرَائِهِمْ﴾ أمامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ يعني: أنهم في الدنيا ممتعون بأموالهم، ولهم في الآخرة النار يدخلونها ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ولا ما عبدوا من دون الله من الآلهة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿هَٰذَا﴾ يعني: هذا القرآن ﴿هُدًى﴾ بيان من الضلالة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومعنى تسخيرها: أنه خلقها لمنافعنا، فهو مسخر لنا من حيث إنا ننتفع به ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ قال ابن عباس: «جميعًا منه» كل ذلك رحمة منه، قال الزجاج: كل ذلك تفضل منه وإحسان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: لا يخافون وقائع الله ولا يبالون نقمته، قال ابن عباس ومقاتل: نزلت في عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وذلك أن رجلاً من بني غفار شتمه بمكة فهمَّ عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يعفو عنه. وقال القرظي والسدي: نزلت في أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين، من قبل أن يؤمروا بالقتال، فشكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم

بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الحلالات، يعني: المنَّ والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم، قال ابن عباس: لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ يعني: العلم بمبعث محمد ﷺ، وما بيّن لهم من أمره ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ سنة وطريقة بعد موسى ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ من الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: مراد الكافرين، وذلك أنهم كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك، فقال جلَّ ذِكْرُه:

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئًا إن اتبعت أهواءهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿هَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ معالم للناس في الحدود والأحكام يبصرون بها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ بل حسب ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ نزلت في نفر من مشركي مكة، قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقًّا لنفضلن عليكم في الآخرة كما فُضِّلنا عليكم في الدنيا ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ﴾ أي: نجعلهم سواء، يعني: أحسبوا أن حياة الكافرين ﴿وَمَمَاتُهُمْ ۚ﴾ كحياة المؤمنين وموتهم سواءً كلا، وقيل محياهم ومماتهم

سواء، فالضمير فيهما يرجع إلى المؤمنين والكافرين جميعًا، معناه: المؤمن مؤمن محياه ومماته، أي: في الدنيا والآخرة، والكافر كافر في الدنيا والآخرة ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما يقضون، «أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...» الآية.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئًا إلاَّ ركبه؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه، ولا يحرم ما حرم الله، وقال آخرون: معناه: اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما تهواه نفسه. قال سعيد بن جبير: كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئًا أحسن من الأول رموه أو كسروه، وعبدوا الآخر. قال الشعبي: إنما سُمِّي الهوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منه بعاقبة أمره، وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ﴿وَخَتَمَ﴾ طبع ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلم يسمع الهدى ﴿وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ﴾ فلم يعقل الهدى ﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ ظلمة فهو لا يبصر الهدى ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: فمن يهديه بعد أن أضله الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني: منكري البعث: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة إلاَّ حياتنا الدنيا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت الآباء ويحيى الأبناء، وقال الزجاج: يعني: نموت ونحيا، فالواو للاجتماع ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: وما يفنينا إلاَّ مرُّ الزمان وطول العمر واختلاف الليل والنهار ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ الذي قالوه ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لم يقولوه عن علم علموه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما»[1].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسب أحدُكم الدهر فإن الله هو الدهرُ،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٦٤)، ومسلم برقم٢٢٤٧: (٤/ ١٧٦٣).

ولا يقولن للعنب: الكرم، فإن الكرم هو الرجل المسلم»[1].

ومعنى الحديث: أن العرب كان من شأنهم ذم الدهر، وسبُّه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، كما أخبر الله تعالى عنهم: «وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ»، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبهم إلى الله عزَّ وجلَّ، إذْ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر، فنُهوا عن سبِّ الدهر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ليوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني: الكافرين الذين هم أصحاب الأباطيل، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم بأن يصيروا إلى النار.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ باركة على الركب، وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الذي فيه أعمالها، ويقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ يعني: ديوان الحفظة ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يشهد عليكم ببيان شاف، فكأنه ينطق، وقيل: المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أي: بكتبها وإثباتها عليكم.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ الظفر الظاهر. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ متكبرين كافرين.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما نعلم

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٢٤٧: (٤/ ١٧٦٣).

ذلك إلاَّ حدسًا وتوهمًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها كائنة. ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا، أي: جزاؤها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نتركـكم في النار ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى قلتم: لا بعث ولا حساب ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله؛ لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذرًا ولا توبةً.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما أدخلته النار»[1].

سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: يوم القيامة، وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض، وهو إشارة إلى فنائهما ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا﴾ خُوِّفوا به في القرآن من البعث والحساب ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: بكتاب جاءكم من الله قبل القرآن فيه بيان ما تقولون ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال الكلبي: أي: بقية من علم يؤثر عن الأولين، أي: يسند إليهم، قال مجاهد وعكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء، وأصل الكلمة من الأثر: وهو الرواية، يقال: أثرت الحديث أثرًا وأثارة، ومنه قيل للخبر: أثر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٦٢٠: (٤/ ٢٠٢٣) بلفظ: «العز إزاره، الكبرياء رداؤه ...»، وفي الكلام محذوف تقديره يقول الله: ... .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ يعني: الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أبدًا ما دامت الدنيا ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنها جماد لا تسمع ولا تفهم.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ جاحدين، بيانه قوله: «تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ» [القصص: ٦٣].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ يسمون القرآن سحرًا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ محمد من قِبَل نفسه، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لا تقدرون أن تردوا عني عذابه إن عذَّبني على افترائي، فكيف أفتري على الله من أجلكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه: إنه سحر ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أن القرآن جاء من عنده ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ في تأخير العذاب عنكم، قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، معناه: إن الله عزَّ وجلَّ غفور لمن تاب منكم رحيم به.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بديعًا، لستُ بأول مرسل، قد بُعث قبلي كثير من الأنبياء، فكيف تنكرون نبوتي ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية: فقال بعضهم: معناه: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة.

عن خارجة بن زيد قال: كانت أُم العلاء الأنصارية تقول: لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكنتهم، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فمرَّضناه، ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي قد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: «وما يُدْريك أن الله قد أكرمه»؟ فقلت: لا والله لا أدري، فقال النبي ﷺ: «أما هو فقد أتاه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي ولا بكم»، قالت: فوالله لا أُزكي بعده أحدًا أبدًا، قالت: ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عينًا تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ، فقال: «ذاك عمله»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٤١٠).

وقال جماعة: قوله: «وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم» في الدنيا، أمَّا في الآخرة فقد علم أنه في الجنة، وأن من كذبه فهو في النار.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع إلاَّ القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ معناه: أخبروني ماذا تقولون ﴿إِن كَانَ﴾ يعني: القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أيها المشركون ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ المثل: صلة، يعني: عليه، أي: على أنه من عند الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾ يعني: الشاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. نزلت في عبد الله بن سلام، شهد على نبوة المصطفى ﷺ وآمن به، واستكبر اليهود فلم يؤمنوا.

عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلاَّ نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أُمِّه؟ قال: «أخبرني بهنَّ جبريلُ آنفًا»، قال: جبريل؟ قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: «﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾» [البقرة: ٩٧]، فأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نَزَعَتْ»، قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهودَ قومٌ بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال: «أي رجل عبد الله فيكم»؟ قالوا: خَيْرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فقالوا: شَرُّنا وابن شرِّنا، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من اليهود ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ﴾ دين محمد ﷺ ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ يعني: عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ يعني: بالقرآن، كما اهتدى به أهل الإيمان ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كما قالوا: أساطير الأولين.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٦٥).

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله لمن آمن به. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ أي: القرآن مصدق للكتب التي قبله ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يعني: مشركي مكة، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا كتاب مصدق وبشرى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد: شدة الطلق، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ فطامه، ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يريد: أقل مدة الحمل، وهي ستة أشهر، وأكثر مدة الرضاع أربعة وعشرون شهرًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ نهاية قوته، وغاية شبابه واستوائه، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين سنة، فذلك قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

قال علي بن أبي طالب: الآية نزلت في أبي بكر، أسلم أبواه جميعًا، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره، أوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده.

وكان أبو بكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، في تجارة إلى الشام، فلما بلغ أربعين سنة ونُبِّىء النبي ﷺ آمن به ودعا ربه فـ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ بالهداية والإيمان ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قال ابن عباس: وأجابه الله عزَّ وجلَّ، فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد شيئًا من الخير إلاَّ أعانه الله عليه، ودعا أيضًا فقال: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ فأجابه الله، فلم يكن له ولد إلاَّ آمنوا جميعًا، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعًا، فأدرك أبو قحافة النبي ﷺ، وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق، كلهم أدركوا النبي ﷺ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة، قوله: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يعني: أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلها حسن، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ فلا نعاقبهم عليها، ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ مع أصحاب الجنة ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ وهو قوله عزَّ وجلَّ: «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ» [التوبة: ٧٢].

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ إذْ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ وهي كلمة كراهية ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ من قبري حيًّا ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ فلم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يستصرخان ويستغيثان الله عليه، ويقولان له: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ ما هذا الذي تدعواني إليه ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. نزلت في كافر عاق لوالديه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: وجب عليهم العذاب ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ مع أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد من سبق إلى الإسلام، فهو أفضل ممن تخلَّف عنه ولو بساعة، وقال مقاتل: ولكل فضائل أعمالهم فيوفيهم الله جزاء أعمالهم.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فيقال لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ يقول: أذهبتم طيباتكم، يعني: اللذات وتمتعتم بها ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: العذاب الذي فيه ذل وخزي ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ تتكبرون ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ فلما وبَّخ الله الكافرين بالتمتع بالطيبات في الدنيا آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة.

وروينا عن عمر قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير قد أثر

الرِّمَالُ بجنبه، فقلت: يا رسول الله، ادعُ اللهَ فيوسع على أُمَّتك، فإن فارس والروم قد وسّع عليهم وهم لا يعبدون الله، فقال: «أولئك قومٌ عجّلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»(١).

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُخفت في الله وما يُخاف أحد، ولقد أُوذيت في الله وما يُؤذى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين ليلة ويوم وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلاَّ شيء يواريه إبط بلال»(٢).

۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني: هودًا عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ قال ابن عباس: «الأحقاف»: وادٍ بين عُمان ومَهْرَة. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ مضت الرسل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من قَبْل هُود ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ إلى قومهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا.

﴿قَالَ﴾ هود: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو يعلم متى يأتيكم العذاب ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ من الوحي ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: ما يُوعَدُون به من العذاب ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا يعرض، أي: يبدو في ناحية من السماء ثم يطبق السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فخرجت عليهم سحابة سوداء من وادٍ لهم يقال له: «المغيث» وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فجعلت الريح تحمل الفسطاط، وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة. ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ مرت به من رجال عاد وأموالها ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فأول

---

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٩/ ٢٧٨ - ٢٧٩)، وكذلك عند مسلم برقم١٤٧٩: (٢/ ١١٠٥-١١٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي: (٧/ ١٧٠ - ١٧١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه برقم١٥١، والإمام أحمد: (٣/ ١٢٠).

ما عرفوا أنها عذاب رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاء الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام، لهم أنينٌ، ثم أمر الله الريح فكشف عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم البحر.

عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه بياض لهواته، وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله، إن النَّاس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وإذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية، فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: «هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...» الآية[1].

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ يعني: هل ترى أنت يا محمد إلاَّ مساكنهم؛ لأن السكان والأنعام بادت بالريح، فلم يبق إلاَّ هود ومَن آمن معه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ يعني: فيما لم نمكنكم فيه من قوة الأبدان، وطول العمر وكثرة المال. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجر ثمود وأرض سدوم ونحوهما ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ الحجج والبيِّنات ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكناهم، يخوِّف مشركي مكة.

﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ يعني: الأوثان، اتخذوها آلهة يتقربون بها إلى الله عزَّ وجلَّ، «القربان»: كل ما يتقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ، وجمعه: «قرابين»، كالرهبان والرهابين. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ قال مقاتل: بل ضلَّت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم الذي كانوا يقولون: إنها تقربهم إلى الله عزَّ وجلَّ وتشفع

---

(١) أخرجه مسلم برقم٨٩٩: (٢/٦١٦-٦١٧).

لهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون أنها آلهة.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لما انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمرَّ به نفر من جنِّ أهل نصيبين اليمن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا فقص الله خبرهم عليه، فقال: «وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ».

عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدينَ إلى سوق عكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، فأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاَّ شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا، «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾» [الجن: ١ - ٢]، فأنزل الله على نبيه: «قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ» [الجن: ١]، وإنما أوحي إليه قول الجن[1].

عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألتُ ابن مسعود فقلتُ: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن قال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتْنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأتُ عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. قال: وسألوه الزاد، فقال: «لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٥٣)، والتفسير: (٨/ ٦٦٩).

علف لدوابكم»، فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن»[١].

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ قالوا: صه. قال بعضُهم لبعض: أنصتوا واسكتوا لنستمع إلى قراءته، فلا يحول بيننا وبين الاستماع شيء، فأنصتوا واستمعوا القرآن حتى كاد يقع بعضهم على بعض من شدة حرصهم.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ فرغ من تلاوته ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ انصرفوا إليهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوِّفين داعين بأمر رسـول الله ﷺ. ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ قال عطاء: كان دينهم اليهودية، لذلك قالوا: إنا سمعنا كتابًا أُنزل من بعد موسى.

﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: فاستجاب لهم من قومهم نحو من سبعين رجلاً من الجن، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن والإنس جميعًا.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يعجز الله فيفوته ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أنصار يمنعونه من الله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ لم يعجز عن إبداعهنَّ ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ﴾ أي: فيقال لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قال ابن عباس: ذوو الحزم، وقال الضحاك: ذوو الجد والصبر، واختلفوا فيهم، فقال ابن زيد: كل الرسل كانوا أُولي عزم، لم يبعث الله نبيًّا إلاَّ كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال عقل، وقال قوم: هم نُجباء الرسل المذكورون في سورة

---

(١) أخرجه مسلم برقم٤٥٠: (١/ ٢٣٢).

الأنعام، وهم ثمانية عشر، لقوله تعالى بعد ذكرهم: «أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ» [الأنعام: ٩٠].

وقال مقاتل: هم ستة: «نوح» صبر على أذى قومه، و«إبراهيم» صبر على النار، و«إسحاق» صبر على الذبح، و«يعقوب» صبر على فقد ولده وذهاب بصره، و«يوسف» صبر على البئر والسجن، و«أيوب» صبر على الضر.

وقال ابن عباس وقتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع، فهم مع محمد ﷺ خمسة.

قلت: ذكرهم الله على التخصيص في قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ» [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا» [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: ولا تستعجل العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة، كأنه ضجر بعض الضجر فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأُمر بالصبر وترك الاستعجال.

ثم أخبر عن قرب العذاب فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي: إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار؛ لأن ما مضى وإن كان طويلاً كأن لم يكن.

ثم قال: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعذاب إذا نزل ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون من أمر الله.

قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلاَّ القوم الفاسقون، ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آيةٌ أقوى من هذه الآية.

سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ أبطلها، فلم يقبلها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ قال سفيان الثوري: يعني: لم يخالفوه في

شيء ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «الذين كفروا وصدوا»: مشركو مكة، «والذين آمنوا وعملوا الصالحات»: الأنصار ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ حالهم، قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: عصمهم أيام حياتهم، يعني: أن هذا الإصلاح يعود إلى إصلاح أعمالهم حتى لا يعصوا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ الشيطان ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أشكالهم، قال الزَّجَّاج: كذلك يبين الله أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: فاضربوا رقابهم، يعني: أعناقهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ بالغتم في القتل وقهرتموهم ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ يعني: في الأسر، حتى لا يفلتوا منكم، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل، ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يعني: بعد أن تأسروهم، فإمَّا أن تمنّوا عليهم منًّا بإطلاقهم من غير عوض، وإما أن تفادوهم فداء.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عزَّ وجلَّ في الأُسارى «فإمَّا منًّا بعد وإمَّا فداء».

وهذا هو الأصح والاختيار؛ لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده:

عن أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذَا دمٍ، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، حتى كان الغد، فقال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تُنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال سل تعط فتركه، حتى كان بعد الغد، فقال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: «أطلقوا ثمامة»، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أَصَبَوْتَ؟ فقال: لا، ولكن أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[1].

عن عمران بن حصين قال: أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل فأوثقوه، وكانت

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٨٧)، ومسلم برقم١٧٦٤: (٣/ ١٣٨٦).

ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ، ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أثقالها وأحمالها، يعني: حتى يضع أهل الحرب السلاح، فيمسكوا عن الحرب. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت وبينت من حكم الكفار ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ فأهلكهم، وكفاكم أمرهم بغير قتال ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب، ومن قتل من الكافرين إلى العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الشهداء، ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد، وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الدرجات ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يرضي خصماءَهم، ويقبل أعمالهم. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي: بيَّن لهم منازلهم في الجنة حتى يهتدوا إلى مساكنهم لا يخطئون ولا يستدلون عليها أحدًا كأنهم سكانها منذ خلقوا، فيكون المؤمن أهدى إلى درجته وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا، هذا قول أكثر المفسرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: دينه ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ عند القتال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: بُعْدًا لهم، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لأنها كانت في طاعة الشيطان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

ثم خوَّف الكفار فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ إن لم يؤمنوا، يتوعد مشركي مكة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وليهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لا ناصر لهم، ثم ذكر مآل الفريقين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٦٤١: (٣/ ١٢٦٢ - ١٢٦٣).

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ءَامَنُوا۟ءَامَنُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ ليس لهم همة إلاَّ بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عمَّا في غد، قيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجك أهلها، قال ابن عباس: كم رجال هم أشد من أهل مكة؟ يدل عليه قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ولمْ يقل: أهلكناها ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحبّ بلاد الله إلى الله وأحبّ بلاد الله إليَّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» فأنزل الله هذه الآية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يقين من دينه، محمدٌ والمؤمنون ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ يعني: عبادة الأوثان، وهم أبو جهل والمشركون.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ آجن متغير منتن، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ لذيذة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لم تدنسها الأرجل ولم تدنسها الأيدي ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: مَن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ شديد الحر، تسعر عليهم جهنم منذ خلقت إذا أُدني منهم شوى وجوههم ووقعت فروة رؤوسهم فإذا شربوه ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ فخرجت من أدبارهم.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

﴿وَمِنْهُم﴾ يعني: من هؤلاء الكفار ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهم المنافقون، يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه، تهاونًا به وتغافلاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يعني: فإذا خرجوا من عندك ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ محمد ﴿ءَانِفًا﴾؟ يعني: الآن.

قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله ابن مسعود استهزاءً: ماذا قال رسول الله ﷺ؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الكفر والنفاق. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ يعني: المؤمنين ﴿زَادَهُمْ﴾ ما قال الرسول ﷺ ﴿هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ وفقهم للعمل بما أمرهم به، وهو التقوى، قال سعيد بن جبير: وآتاهم ثواب تقواهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلاَّ غنًى مطغيًا، أو فقرًا مُنسيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمرُّ»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أماراتها وعلاماتها، واحدها: شرط، وكان النبي ﷺ من أشراط الساعة.

عن سهل بن سعد قال: رأيتُ النبي ﷺ قال بأصبعه هكذا، بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين»(٢).

عن أنس قال: لأحدثنَّكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثنكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقلّ الرجال ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»(٣).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم إذْ جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة»(٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة؟.

فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ

---

(١) أخرجه الحاكم: (٤/ ٣٢٠ - ٣٢١).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٩١)، ومسلم برقم٢٩٥٠: (٤/ ٢٢٦٨).

(٣) أخرجه البخاري: (١/ ١٧٨)، ومسلم برقم٢٦٧١: (٤/ ٢٠٥٦).

(٤) أخرجه البخاري: (١/ ١٤١ - ١٤٢).

لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾

قوله عزَّ وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به غيره، وقيل: معناه: فاثبتْ عليه، وقال الحسين بن الفضل: فازددْ علمًا على علمك، وقال أبو العالية وابن عيينة: هو متصل بما قبله، معناه: إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها إلاَّ إلى الله، وقيل: فاعْلَمْ أنه لا إله إلاَّ الله، أن الممالك تبطل عند قيامها، فلا ملك ولا حكم لأحد إلاَّ الله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أمر بالاستغفار مع أنه مغفور له لتستنَّ به أُمَّته.

عن الأغر المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأُمة حيث أمر نبيَّهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ قال ابن عباس والضحاك: «متقلبكم» متصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا، و«مثواكم» مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار.

وقال عكرمة: «متقلبكم» من أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمهات، «ومثواكم» مقامكم في الأرض. والمعنى: أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حرصًا منهم على الجهاد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ قال قتادة: كل سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شزرًا بتحديق شديد، كراهية منهم للجهاد وجبنًا عن لقاء العدو ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد وتهديد.

ثم قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفًا كان أمثل وأحسن. وقول معروف بالإجابة، أي: لو أطاعوا كانت الطاعة والإجابة أولى بهم.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جدَّ الأمر، ولزم فرض القتال، وصار الأمر معزومًا ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ

(١) أخرجه مسلم برقم٢٧٠٢: (٤/ ٢٠٧٥).

لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فلعلكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، فتفسدوا في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدماء، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ عن الحق.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ فلا تفهم مواعظ القرآن وأحكامه. عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»، فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها، فما زال الشابُّ في نَفْسِ عُمَرَ حتى وُلِّي فاستعان به[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ رجعوا كفارًا ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في كتابهم. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون.

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين لهم القبيح ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: وأملى الشيطان لهم، مدَّ لهم في الأمل.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني: المنافقين أو اليهود ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في التعاون على عداوة محمد ﷺ والقعود عن الجهاد، وكانوا يقولونه سرًّا فأخبر الله تعالى عنهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ﴾ الضرب ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ كرهوا ما فيه رضوان الله، وهو الطاعة والإيمان ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: المنافقين ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ لن يظهر

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٦/٥٧).

أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرفوا نفاقهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لأعلمناكهم وعرَّفناكهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم، قال الزجاج: المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة تعرفهم بها. قال أنس: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ في معناه ومقصده. والمعنى: إنك تعرفهم فيما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلاَّ عرفه بقوله، ويستدل بفحوى كلامه على فساد دخيلته.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنعاملنكم معاملة المختبر بأن نأمركم بالجهاد والقتال ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: علم الوجود، يريد: حتى يتبين المجاهد والصابر على دينه من غيره ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرها ونكشفها بإباء من يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ إنما يضرون أنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلا يرون لها ثوابًا في الآخرة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ قال عطاء: بالشك والنفاق، وقال الكلبي: بالرياء والسمعة، وقال الحسن: بالمعاصي والكبائر. وقال مقاتل: لا تمنوا على رسول الله ﷺ فتبطلوا أعمالكم، نزلت في بني أسد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ قيل: هم أصحاب القليب، وحكمها عام.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ لا تضعفوا ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: لا تدعوا إلى الصلح ابتداء، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الغالبون، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصرة ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ لن ينقصكم شيئًا من ثواب

أعمالكم، ثم حضَّ على طلب الآخرة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ الفواحش ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جزاء أعمالكم في الآخرة ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾ ربكم ﴿أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لإيتاء الأجر، بل يأمركم بالإيمان والطاعة ليثيبكم عليها الجنة، وقيل: لا يسألكم محمدٌ أموالكم.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يجهدكم ويلحف عليكم بمسألةِ جميعها. ﴿تَبْخَلُوا﴾ بها، فلا تعطوها ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ بغضكم وعداوتكم. قال قتادة: علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: إخراج ما فرض الله عليكم ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بما فرض عليه من الزكاة ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن صدقاتكم وطاعتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليه، وإلى ما عنده من الخير ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ بل يكونوا أمثل منكم وأطوع لله منكم.

سورة الفتح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يسير مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أُمُّك يا عمر نزَّرتَ رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما لبثت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمس»، ثم قرأ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾»[1].

عن أنس قال: نزلت على النبي ﷺ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾» إلى آخر الآية، مَرْجعَه من الحديبية وأصحابه مخالطهم الحزن والكآبة، فقال: «نزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعًا»، فلما تلاها نبي الله ﷺ قال رجل من القوم: هنيئًا مريئًا قد بيَّن الله لك ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٥٢)، ومعنى «نزَّرت»: ألحَحْت.

الآية التي بعدها «لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ»، حتى ختم الآية[١].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ اختلفوا في هذا الفتح، عن أنس: أنه فتح مكة، والأكثرون على أنه صلح الحديبية. ومعنى الفتح: فتح المنغلق، والصلح مع المشركين بالحديبية كان متعذرًا حتى فتحه الله عزَّ وجلَّ. عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية كنَّا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبَّه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①»، أي: قضينا لك قضاءً بيِّنًا، وقال الضحاك: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا بغير قتال، وكان الصلح من الفتح.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ معناه: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة والحكمة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يثبتك عليه، والمعنى: ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام، وقيل: «ويهديك»، أي: يهدي بك. ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾ غالبًا، وقيل: معزًّا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والوقار ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾. قال ابن عباس: بعث الله رسوله بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، فلما صدَّقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الجهاد، حتى أكمل لهم دينهم، فكلما أُمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقًا إلى تصديقهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٥٠ - ٤٥١)، ومسلم برقم١٧٨٦ : (٣/ ١٤١٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٤١).

عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ وقد ذكرنا عن أنس أن الصحابة قالوا لما نزل «ليغفر لك الله»: هنيئًا مريئًا فما يفعل بنا فنزل: «لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ...» الآية. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ أهل النفاق بالمدينة وأهل الشرك بمكة ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ أن لن ينصر محمدًا والمؤمنين ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ بالعذاب والهلاك ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ ﴿٩﴾﴾ أي: تعينوه وتنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه وتفخموه، هذه الكنايات راجعة إلى النبي ﷺ، وهاهنا وقف ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الله، يريد: تصلوا له ﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ بالغداة والعشي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة. عن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت[(١)].

عن معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر[(٢)].

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما - يد الله بالوفاء بما وعدهم من الخير فوق أيديهم. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم في المبايعة.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ عليه وباله ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ ثبت على البيعة ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني: أعراب غفار ومزينة وجهينة

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم١٨٥٦ : (٣/ ١٤٨٣).

وأشجع وأسلم، وذلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر مَن حول المدينة مِن الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وتخلفوا واعتلوا بالشغل، فأنزل الله تعالى فيهم: «سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ»، يعني: الذين خلَّفهم الله عزَّ وجلَّ عن صحبتك إذا انصرفت إليهم، فعاتبهم الله على التخلف.

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يعني: النساء والذراري، أي: لم يكن لنا من يخلفنا فيهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ تخلُّفنا عنك، فكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ في اعتذارهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من أمر الاستغفار، فإنهم لا يبالون أستغفر لهم النبي ﷺ أو لا.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ سوءًا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: ظننتم أن العدو يستأصلهم فلا يرجعون ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زيَّن الشيطان ذلك الظنَّ في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وذلك أنهم قالوا: إن محمدًا وأصحابه أكَلة رأس، فلا يرجعون، فأين تذهبون معه، انتظروا ما يكون من أمرهم ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكى لا تصلحون لخير.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني: هؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ سرتم وذهبتم أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني: غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر لنشهد معكم قتال أهلها، وذلك أنهم لما انصرفوا من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر، وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة، عوضًا عن غنائم أهل مكة إذ انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئًا.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يريدون: أن يغيروا مواعيد الله تعالى لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة. وقال مقاتل: يعني: أمر الله نبيه ﷺ أن لا يسير منهم أحد. وقال ابن زيد: هو قول الله عزَّ وجلَّ: «فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا» [التوبة: ٨٣]، والأول أصوب، وعليه عامة أهل التأويل.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل مرجعنا إليكم: أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: يمنعكم الحسد من أن نصيب معكم الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون عن الله ما لهم وما عليهم من الدين ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهو من صدَّق الله والرسول.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء: هم أهل فارس، وقال كعب: هم الروم، وقال الحسن: فارس والروم، وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف، وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين، وقال الزهري ومقاتل وجماعة: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب.

قال رافع بن خديج: كنَّا نقرأ هذه الآية ولا نعلم مَنْ هم حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم.

﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يعني: الجنة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ تعرضوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عام الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو النار، فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟

فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ يعني: في التخلف عن الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية على أن يناجزوا قريشًا ولا يفروا ﴿تَحْتَ

﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾. قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»، وكنَّا ألفًا وأربع مائة، ولو كنت أُبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة[١].

عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرًا يُسأل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنَّا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره[٢].

وكان سبب هذه البيعة ـ على ما ذكره محمد بن إسحاق عن أهل العلم ـ أن رسول الله ﷺ دعا خراش ابن أبي أُمية الخزاعي حين نزل الحديبية، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على جمل له، يقال له: «الثعلب» ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش، فخلَّوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريشُ عداوتي إيَّاها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزّ بها منِّي: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لِحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فنزل عن دابته وحمله بين يديه ثم أردفه، وأجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فقال عظماء قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إنْ شئتَ أنْ تطوفَ بالبيت فطفْ به، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتل، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، قال بكر بن الأشج: بايعوه على الموت، فقال رسول الله ﷺ: بل على ما استطعتم.

وقال جابر بن عبد الله ومعقل بن يسار: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أنْ لا نفر، فكان أول من بايع بيعة الرضوان من بني أسد يقال له: أبو سنان بن وهب، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلاَّ جد بن قيس أخو بني سلمة، قال جابر: لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته مستترًا بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل[٣].

عن جابر، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٤٤٣)، ومسلم برقم١٨٥٦ : (٣/ ١٤٨٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم١٨٥٦ : (٣/ ١٤٨٣).

(٣) أخرجه ابن إسحاق: (٢/ ٣١٤ - ٣١٦)، وانظر: تعليق الألباني على «فقه السيرة» للغزالي: ص٣٤٢.

(٤) أخرجه مسلم برقم٢٤٩٦ : (٤/ ١٩٤٢).

قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والرضا ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني: فتح خيبر.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من أموال يهود خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال، فاقتسمها رسول الله ﷺ بينهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي الفتوح التي تفتح لهم إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما قصد خيبر وحاصر أهلها هَمَّتْ قبائل من أسد وغطفان أن يُغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة، فكفَّ اللهُ أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقيل: كفَّ أيديَ الناس عنكم، يعني: أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ كفهم وسلامتكم ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك، ويعلموا أن الله هو المتولي حياطَتَهم وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يثبتكم على الإسلام، ويزيدكم بصيرة ويقينًا بصلح الحديبية وفتح خيبر، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم سنة سبع إلى خيبر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: وعدكم الله فتح بلدة أُخرى لم تقدروا عليها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ حتى يفتحها لكم، كأنه حفظها لكم ومنعها من غيركم حتى تأخذوها، قال ابن عباس: علم الله أنه يفتحها لكم. واختلفوا فيها، فقال ابن عباس والحسن ومقاتل: هي فارس والروم، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا خولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام.

وقال الضحاك وابن زيد: هي خيبر، وَعَدَها الله نبيه ﷺ قبل أن يصيبها، ولم يكونوا يرجونها. وقال قتادة: هي مكة، وقال عكرمة: حنين، وقال مجاهد: ما فتحوا حتى اليوم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: أسد وغطفان وأهل خيبر ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: كسنة الله في نصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة، هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غدر النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: «وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ»(١).

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا به ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ أي: وصدوا الهدي، وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ، وكانت سبعين بدنة ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوسًا، ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ منحره، وحيث يحل نحره، يعني: الحرم ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ يعني: المستضعفين بمكة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتل، وتوقعوا بهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال ابن زيد: معرة إثم، وقال ابن إسحاق: غرم الدية.

وقيل: الكفارة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية، فقال: «فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ» [النساء: ٩٢].

وقيل: هو أن المشركين يعيبونكم ويقولون: قتلوا أهل دينهم، والمعرة: المشقة، يقول: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لا تعلموهم فيلزمكم بهم كفارة أو يلحقكم سبة، لأذن لكم في دخولها، ولكنه حال بينكم وبين ذلك.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوها ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ لو تميزوا، يعني: المؤمنين من الكفار ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالسبي والقتل بأيديكم.

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

---

(١) خرجه مسلم برقم١٨٠٨: (٣/ ١٤٤٢).

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا محمدًا رسول الله ﷺ، والحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية إذا كان ذا غضب وأنفة.

قال مقاتل: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي دخلت قلوبهم.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى لم يدخلهم ما دخلهم من الحمية فيعصوا الله في قتالهم ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمة التقوى «لا إله إلاَّ الله».

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ من كفار مكة ﴿وَكَانَ﴾ أي: وكانوا أهلها في علم الله؛ لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير ﴿ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وذلك أنَّ النبي ﷺ أُري في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلقون رؤوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقَّ عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

ورُوي عن مجمع بن جارية الأنصاري: قال شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر، فقال بعضهم: ما بال الناس؟ فقالوا: أُوحي إلى رسول الله ﷺ، قال: فخرجنا نوجب، فوجدنا النبي ﷺ واقفًا على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع إليه الناس قرأ: «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا»، فقال عمر: أوَ فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده»[1].

ففيه دليل على أن المراد بالفتح صلح الحديبية، وتحقُّق الرؤيا كان في العام المقبل، فقال جلَّ ذكره: «لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ»، أخبر أن الرؤية التي أراها إياها في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدقٌ وحقٌّ.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ كلها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بأخذ بعض شعورها ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أن

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٥٢ - ٥٣)، والإمام أحمد: (٣/ ٤٢٠)، والحاكم: (٢/ ١٣١)، وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي.

الصلاح كان في الصلح وتأخير الدخول، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من قبل دخولكم المسجد الحرام ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو صلح الحديبية عند الأكثرين، وقيل: فتح خيبر.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أنك نبي صادق فيما تخبر.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: والذين معه من المؤمنين ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ غلاظ عليهم، كالأسد على فريسته، لا تأخذهم فيهم رأفة ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون متوادون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أخبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أن يدخلهم الجنة ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أن يرضى عنهم ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ نورٌ وبياض في وجوههم يوم القيامة يُعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا.

وقال آخرون: هو السمت الحسن والخشوع والتواضع، والمعنى: أن السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذي يُعرفون به.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أراد: أفراخه، يقال: أشطأ الزرع فهو مشطىء إذا أفرخ.

قوله: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾ أي: قواه وأعانه وشدَّ أزره ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ غلظ ذلك الزرع ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: تمّ وتلاحق نباته وقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أعجب ذلك زراعه.

هذا مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل (أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون. قال قتادة: مثل أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قول عمر لأهل مكة بعدما أسلم: لا تعبدوا الله سرًّا بعد اليوم:

عن عبد الرحمن بن عوف: أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة،

وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»(١).

عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «أرحم أُمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم أُبي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أُمة أمين، وأمين هذه الأُمة أبو عبيدة بن الجراح»(٢).

عن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلتُ: أي: الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها»، قلت: ثمَّ مَنْ؟ قال: «عمر بن الخطاب» فعدَّ رجالاً فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم(٣).

عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتدوا باللذين من بعد من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود»(٤).

عن سهل بن سعد أنَّ أُحدًا ارتجَّ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعثمان، فقال النبي ﷺ: «اثبتْ أُحد ما عليك إلاَّ نبي أو صديق أو شهيد»(٥).

عن علي قال: «عهد إليَّ النبي ﷺ أنه لا يُحبُّك إلاَّ مؤمن، ولا يبغضك إلاَّ منافق»(٦).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: إنما كثرهم وقواهم؛ ليكونوا غيظًا للكافرين.

قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

عن عبد الله بن مغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»(٧).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(٨).

---

(١) أخرجه الترمذي: (١٠/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم١٥٤: (١/ ٥٥)، والإمام أحمد: (٣/ ١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري: (٧/ ١٨)، ومسلم برقم٢٣٨٤: (١٨٥٦).

(٤) أخرجه الترمذي: (١٠/ ٣٠٨)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٨٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد: (٥/ ٣٣١).

(٦) أخرجه مسلم برقم٧٨: (١/ ٨٦).

(٧) أخرجه الترمذي (١٠/ ٣٦٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه)، والإمام أحمد: (٤/ ٨٧)، وفي فضائل الصحابة: (١/ ٤٨، ٤٩)، وابن حبان برقم٢٢٨٤ .

(٨) أخرجه البخاري: (٧/ ٢١)، ومسلم برقم٢٥٤٠ .

قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ قال ابن جريج: يعني: من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة، ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة.

سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي: لا تعجل بالأمر والنهي دونه، والمعنى: بين اليدين الأمام والقدام، أي: لا تقدموا بين يدي أمرهما ونهيهما.

عن ابن أبي مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبرهم أنه قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع معبد بن زرارة، قال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردتَ إلاَّ خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ يَٰٓأَيُّهَا» حتى انقضت[1].

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تضييع حقه ومخالفة أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أمرهم أن يبجلوه ويفخموه ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا ينادوه كما ينادي بعضُهم بعضًا ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لئلا تحبط حسناتكم، وقيل: مخافة أن تحبط حسناتكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ...» الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت أشتكى»؟ فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٩٢).

هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»[1].

قال أبو هريرة وابن عباس: لما نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلاَّ كأخي السرار.

وقال ابن الزبير: لما نزلت هذه الآية ما حدَّث عمر النبي ﷺ بعد ذلك فيسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ يخفضون ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إجلالاً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ اختبرها وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ جمع الحُجَر، والحُجَرُ جمع الحُجْرَةِ فهي جمع الجمع.

قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ سريةً إلى بني العنبر وأمَّرَ عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة بن حصن وقدم بهم على رسول الله ﷺ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة، ووافقوا رسول الله ﷺ قائلاً في أهله، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة، فعجَّلوا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد، اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، فادِنَا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ: أترضون أن يكون بيني وبينكم سَبرة بن عمرو، وهو على دينكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: نعم، فقال سبرة: أنا لا أحكم بينهم إلاَّ وعمي شاهد، وهو الأعور بن بشامة، فرضوا به، فقال الأعور: أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد رضيت» ففادى نصفهم وأعتق نصفهم، فأنزل الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾» وصفهم بالجهل وقلة العقل.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٩٠).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قال مقاتل: لكان خيرًا لهم؛ لأنك كنت تعتقهم جميعًا وتطلقهم بلا فداء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال قتادة: نزلت في ناس من أعراب بني تميم جاؤوا إلى النبي ﷺ فنادوا على الباب.

وقال زيد بن أرقم: جاء ناس من العرب إلى النبي ﷺ فقال بعضُهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكًا نعش في جنابه، فجاؤوا فجعلوا ينادونه: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ بخبر ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟﴾ كي لا تصيبوا بالقتل والقتال ﴿قَوْمًۢا﴾ برآء ﴿بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ من إصابتكم بالخطأ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذبوه، فإن الله يخبره ويعرفه أحوالكم فتفتضحوا ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ أي: الرسول ﴿فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ مما تخبرونه به، فيحكم برأيكم ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لأثمتم وهلكتم، والعَنَتُ: الإثم والهلاك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فجعله أحب الأديان إليكم ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ حسنه ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى اخترتموه، وتطيعون رسول الله ﷺ ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ قال ابن عباس: يريد: الكذب، ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ جميع معاصي الله، ثم عاد من الخطاب إلى الخبر، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ المهتدون. ﴿فَضْلًا﴾ أي: كان هذا فضلاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ الآية.

عن معتمر قال: سمعت أبي يقول: إن أنسًا قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه فتشاتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت: «وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا»[1].

ويروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ، فاصطلحوا وكفَّ بعضهم عن بعض.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥/ ٢٩٧)، ومسلم برقم١٧٩٩: (٣/ ١٤٢٤).

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ تعدت إحداهما ﴿عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ في كتابه ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ رجعت إلى الحق ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بحملهما على الإنصاف والرضا بحكم الله ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ اعدلوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ في الدين والولاية ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ إذا اختلفا واقتتلا، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تعصوه، ولا تخالفوا أمره ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

عن سالم، عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يشتمه، مَنْ كان في حاجة أخيه كان اللهُ في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كُرْبَةً فرَّج اللهُ بها عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[١].

وفي هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين، يدل عليه ما روي عن الحارث الأعور أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ سُئل ـ وهو القدوة في قتال أهل البغي ـ عن أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ فقال: لا، مِنَ الشرك فرُّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بَغَوْا علينا[٢].

والباغي في الشرع: هو الخارج على الإمام العدل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنه كان في أُذنه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه، فيسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم، فضن كلُّ رجل بمجلسه، فلا يكاد يُوسِّع أحدٌ لأحدٍ، فكان الرجلُ إذا جاء فلم يجد مجلسًا يجلس فيه قام قائمًا كما هو، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس، ويقول: تفسحوا تفسحوا، فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وبينه وبينه رجل، فقال له: تفسح، فقال الرجل: قد أصبتَ مجلسًا فاجلس، فجلس ثابت خلفه مغضبًا، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل، فقال: مَن هذا؟ قال: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة، وذكر أُمًّا له كان يعير بها في

---

(١) أخرجه البخاري: (٥/ ٩٧)، ومسلم برقم٢٥٨٠: (٤/ ١٩٩٦).

(٢) أخرج محمد بن نصر المروزي في كتابه «تعظيم قدر الصلاة»: (٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤).

الجاهلية، فنكَّسَ الرجل رأسه واستحيا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين ذكرناهم، كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب النبي ﷺ مثل: عمار وخبَّاب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة، لما رأوا من رثاثة حالهم، فأنزل الله تعالى في الذين آمنوا منهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ أي: رجال من رجال، و«القوم»: اسم يجمع الرجال والنساء، وقد يختص بجمع الرجال ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾.

روي عن أنس أنها نزلت في نساء رسول الله ﷺ حين عيَّرْنَ أُم سلمة بالقصر.

وعن عكرمة عن ابن عباس: أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب، قال لها النساء: يهودية بنت يهوديين ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لا يعب بعضُكم بعضًا، ولا يطعن بعضُكم على بعض ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ التنابز: التفاعل من النبز، وهو اللقب، وهو أن يدعى الإنسان بغير ما سُمِّي به.

قال عكرمة: هو قول الرجلِ للرجل: يا فاسق، يا منافق، يا كافر. وقال الحسن: كان اليهودي والنصراني يُسْلِم، فيقال له بعد إسلامه: يا يهودي، يا نصراني، فنُهوا عن ذلك.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي: بئس الاسم أن يقول: يا يهودي أو يا فاسق بعد ما آمن وتاب، وقيل: معناه: إن مَن فعل ما نُهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ من ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ قيل: نزلت الآية في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضمَّ الرجلَ المحتاجَ إلى رجلين موسرين يخدمهما، ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيىء لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضمَّ سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام فلم يهيىء لهما شيئًا، فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئًا؟ قال: لا، غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعامًا، فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعامًا، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق إلى أسامة بن زيد، وقلْ له: إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك» وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله، فأتاه فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة طعامٌ ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فلما رجع قالا: لو بعثناك إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان، هل عند أسامة ما أمر لهما به

رسول الله ﷺ؟ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما»، قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحمًا، قال: «بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، وأراد: أن يُظَنَّ بأهل الخير سوءًا ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ قال سفيان الثوري: الظَّنُّ ظنَّان، أحدهما: إثم، وهو أن تظن وتتكلم به، والآخر: ليس بإثم، وهو أن تظن ولا تتكلم.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ التجسس: هو البحث عن عيوب الناس، نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من أُمور الناس وتتبع عوراتهم حتى لا يظهر على ما ستره الله منها.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[(١)].

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ أن النبي ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورات المسلمين يتتبع الله عورته، ومن يتتبع اللهُ عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

قال: ونظر ابن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك[(٢)].

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ يقول: لا يتناول بعضكم بعضًا بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرُكَ أخاكَ بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقدِ اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[(٣)].

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً فقالوا: لا يأكل حتى يُطعم، ولا يرحل حتى يُرحَّل، فقال النبي ﷺ: «اغتبتموه»، فقالوا: إنما حدثنا بما فيه، قال: «حسبك إذا ذكرتَ أخاك بما فيه»[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ قال مجاهد: لما قيل لهم: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا» قالوا: لا، قيل: «فكرهتموه»، أي: فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبًا.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٨٤)، ومسلم برقم٢٥٦٣: (٤/ ١٩٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ١٨٠ - ١٨١).

(٣) أخرجه مسلم برقم٢٥٨٩: (٤/ ٢٠٠١).

(٤) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٠٦): (رواه الأصبهاني بإسناد حسن).

قال الزجاج: تأويله: إنَّ ذِكْرَكَ من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحم أخيك، وهو ميت لا يحس بذلك.

عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ولحومهم، فقلتُ: مَن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس، وقوله للرجل الذي لم يفسح له: ابن فلانة، يعيِّره بأُمِّه، قال النبي ﷺ: «مَنْ الذاكر فلانة»؟ فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: «ما رأيتَ يا ثابت»؟ قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «فإنك لا تفضلهم إلاَّ في الدين والتقوى»، فنزلت في ثابت هذه الآية، وفي الذي لم يتفسح: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا» [المجادلة: ١١].

وقال مقاتل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسولُ الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذن، فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم يرَ هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذنًا، وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئًا يغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئًا أخاف أن يخبرَ به ربُّ السماء، فأتى جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمَّا قالوا فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزراء بالفقراء فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني: آدم وحواء، أي: إنكم متساوون في النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ جمع شَعْب بفتح الشين، وهي رؤوس القبائل، ﴿وَقَبَائِلَ﴾ وهي دون الشعوب، واحدتها قبيلة. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضًا في قرب النسب وبعده، لا ليتفاخروا، ثم أخبر أن أرفعهم منزلة عند الله أتقاهم فقال:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قال قتادة في هذه الآية: إن أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور.

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسبُ المال، والكرم التقوى»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود: (٧/ ٢١٣)، والإمام أحمد: (٣/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ١٥٦ - ١٥٧)، وابن ماجه برقم٤٢١٩، والإمام أحمد: (٥/ ١٠).

وقال ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى.

عن أبي هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ، أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»(١).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ الآية، نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة، فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السّر، فأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العربُ بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون على النبي ﷺ ويريدون الصدقة، ويقولون: أعطِنا، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقال السدي: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح، وهم أعراب جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا يقولون: آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى الحديبية تخلَّفوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ» صدقنا.

﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ انقدنا واستسلمنا مخافة القتل والسبي ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٨٧)، ومسلم برقم٢٣٧٨: (٤/ ١٨٤٦ - ١٨٤٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٥٦٤: (٤/ ١٩٨٦ - ١٩٨٧).

﴿قُلُوبِكُمْ﴾ فأخبر أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيمانًا دون التصديق بالقلب والإخلاص.

عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رهطًا وأنا جالس فيهم، قال: فترك رسول الله ﷺ فيهم رجلاً لم يعطه وهو أعجبهم إليَّ، فقمت إلى رسول الله ﷺ فساررته، فقلت: ما لك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمنًا، قال: «أو مسلمًا»، قال: فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا؟ قال: «أو مسلمًا»، قال: «إني لأعطي الرجلَ وغيرُه أحب إليَّ منه خشية أن يُكَبُّ في النار على وجهه»[(١)].

فالإسلام هو: الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة في الحقيقة باللسان والأبدان والجنان، كقوله عزَّ وجلَّ لإبراهيم عليه السلام: «أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» [البقرة: ١٣١]، ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله: «وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ».

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ظاهرًا وباطنًا سرًّا وعلانية، قال ابن عباس: تخلصوا الإيمان ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقص من ثواب أعمالكم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم بين حقيقة الإيمان، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ لم يشكوا في دينهم ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم.

فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون، وعرف الله غير ذلك منهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ والتعليم هاهنا بمعنى: الإعلام، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يحتاج إلى إخباركم.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ﴾ أي: بإسلامكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنكم مؤمنون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾.

سورة ق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٤٠)، وفي الإيمان: (١/ ٧٩)، ومسلم برقم١٥٠: (١/ ١٣٢).

ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾

﴿قٓ﴾ قال ابن عباس: هو قسم، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ الشريف الكريم على الله، الكثير الخير. واختلفوا في جواب القسم، فقال أهل الكوفة: جوابه: «بل عجبوا»، وقيل: جوابه محذوف، مجازه: والقرآن المجيد لتبعثُنَّ، وقيل: جوابه قوله: «ما يلفظ من قول»، وقيل: «قد علمنا»، ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ مخوّف ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ غريب ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نبعث، ترك ذكر البعث؛ لدلالة الكلام عليه ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ﴾ أي: ردٌّ إلى الحياة ﴿بَعِيدٌ﴾ وغير كائن، أي: يبعد أن نُبعث بعد الموت.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم ودمائهم وعظامهم، لا يعزب عن علمه شيء، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ محفوظ من الشياطين، ومن أن يدرس ويتغير وهو اللوح المحفوظ، وقيل: حفيظ، أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مختلط، قال الحسن: ما ترك قومٌ الحقَّ إلاّ مرج أمر.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بغير عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ شقوق وفتوق وصدوع.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها على وجه الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ حسن كريم يُبْهَجُ به، أي: يسر. ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي: جعلنا ذلك تبصرة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: تبصيرًا وتذكيرًا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ليبصر ويذكر به.

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير الخير، وفيه حياة كل شيء، وهو المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ يعني: البرَّ والشعير وسائر الحبوب التي تحصد، فأضاف الحب إلى الحصيد.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة: طوالاً، ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ ثمر وحمل، سُمي بذلك؛

لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشق ﴿نَّضِيدٌ﴾ متراكب متراكم منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: جعلناها رزقًا للعباد ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أنبتنا فيها الكلأ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كلٌّ من هؤلاء المذكورين كذَّب الرسلَ ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وجب لهم عذابي، ثم أنزل جوابًا لقولهم «ذلك رجع بعيد»: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ يعني: أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعيا بالإعادة، وهذا تقرير لهم؛ لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ أي: في شكٍّ ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو البعث.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ يحدث به قلبه ولا يخفى علينا سرائره وضمائره ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أعلم به ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضًا، ولا يحجب علمَ الله شيءٌ، و«حبل الوريد»: عرق العنق، وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين، يتفرق في البدن.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذين عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات ﴿قَعِيدٌ﴾ أي: قاعد، وقيل: أراد بالقعيد: الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم، وقال مجاهد: القعيد: الرصيد.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يتكلم من كلام فيلفظه، أي: يرميه من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر أينما كان.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعَيان، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تميل، قال الحسن: تهرب، وقال ابن عباس: تكره.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: ذلك اليوم يوم الوعيد الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه.

﴿وَجَآءَتْ﴾ ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقها إلى المحشر ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بما عملت.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم في الدنيا ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ تبصر ما كنت تنكر في الدنيا.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ المَلَك الموكل به ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ مُعَدّ محضر، يقول: هذا الذي وكَّلتني به من ابن آدم حاضر عندي قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله، فيقول الله عزَّ وجلَّ لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ هو خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ عاصٍ معرض عن الحق، قال عكرمة ومجاهد: مجانب للحق معاند لله. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: للزكاة المفروضة، وكلِّ حقٍّ وجب في ماله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم، لا يقر بتوحيد الله ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٍّ في التوحيد، ومعناه: داخل في الرَّيب. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ وهو النار.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: الشيطان الذي قُيِّض لهذا الكافر: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ ما أضللته وما أغويته ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فيتبرأ عنه الشيطان.

﴿قَالَ﴾ فيقول الله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ في القرآن، وأنذرتكم وحذرتكم على لسان الرسول، وقضيت عليكم ما أنا قاضٍ.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ لا تبديل لقولي، وهو قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١٣]. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأُعاقبهم بغير جرم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وذلك لِمَا سبق لها مِنْ وَعْدِه إيَّاها أنه يملؤها من الجنة والناس، وهذا السؤال من الله عزَّ وجلَّ لتصديق خبره وتحقيق وعده ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قيل: معناه: قد امتلأتُ ولم يبقَ فيَّ موضع لم يمتلىء، فهو استفهام إنكار، ورُوي عن ابن عباس: أن الله تعالى سبقت كلمته «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١٣]، فلما سيق أعداء الله إليها لا يُلقى فيها فوج إلاَّ ذهب فيها ولا يملؤها شيء، فتقول: ألستَ قد أقسمت لتملأنّي؟ فيضع قدمه عليها، ثم يقول: هل امتلأتِ؟ فتقول: قطْ قطْ قد امتلأت فليس فيَّ مزيد.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنَّم تقول: هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزَّةِ فيها قدمه، فتقول: قطْ قطْ وعزَّتك، ويُزوى بعضُها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل

حتى يُنشيء الله خلقًا فيسكنه فضول الجنة»[١].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قُرِّبت وأُدْنيت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ينظرون إليها قبل أن يدخلوها.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى الطاعة عن المعاصي، قال سعيد بن المسيب: هو الذي يُذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب، ﴿حَفِيظٍ﴾ قال ابن عباس: الحافظ لأمر الله.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ معنى الآية: مَنْ خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره، ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلص مقبل إلى طاعة الله.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يُقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها، أي: ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ بسلامة من العذاب والهموم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطَوْنَ ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم، وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ضربوا وساروا وتقلبوا وطافوا، وأصله من النقب: وهو الطريق، كأنهم سلكوا كل طريق ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ فلم يجدوا محيصًا من أمر الله، وقيل: «هل من محيص» مفرّ من الموت؟.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكرت من العبر وإهلاك القرى ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ قال ابن عباس: أي: عقل، وقيل: له قلب حاضر مع الله ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ استمع القرآن، واستمع ما يقال له، لا يحدث نفسه بغيره، تقول العرب: ألقِ إليّ سمعكَ، أي: استمعْ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر القلب ليس بغافل ولا ساه.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٤٥)، ومسلم برقم٢٨٤٨: (٤/ ٢١٨٧).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ إعياء وتعب.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من كذبهم، فإن الله لهم بالمرصاد، وهذا قبل الأمر بقتالهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ حمدًا لله ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ يعني: صلاة العصر، ورُوي عن ابن عباس قال: «قبل الغروب»: الظهر والعصر.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء، وقال مجاهد: «ومن الليل»، أي: صلاة الليل أيّ وقتٍ صلَّى ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾. قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب: «أدبار السجود»: الركعتان بعد صلاة المغرب، وأدبار النجوم: الركعتان قبل صلاة الفجر.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما كان رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ مُعاهدةً منه على الركعتين أمام الصبح[١].

وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٢].

قال مجاهد: «وأدبار السجود»: هو التسبيحُ باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ في دُبرِ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثًا وثلاثين، وحَمِدَ الله ثلاثًا وثلاثين، فذلك تسعة وتسعون، ثم قال تمام المائة: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفرت خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبد البحر»[٣].

عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم، قال: «كيف ذاك»؟ قالوا: صلَّوا كما صلينا، وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا من فضول أموالهم وليستْ لنا أموال، قال: «أفلا أُخبركم بأمر تدركون من كان قبلكم وتسبقون مَن جاء بعدكم، ولا يأتي أحدٌ بمثل ما جئتم به إلاَّ مَن جاء بمثله: تسبحون في دبرِ كلِّ صلاةٍ عشرًا، وتحمدون

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٤٥)، ومسلم برقم٧٢٤: (١/ ٥٠١).
(٢) أخرجه مسلم برقم٧٢٥ .
(٣) أخرجه مسلم برقم٥٩٧ : (١/ ٤١٨).

عشرًا، وتكبرون عشرًا»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ أي: واستمع يا محمد صيحة القيامة والنشور يوم ينادي المنادي، ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾.

﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ وهي الصيحة الأخيرة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ من القبور.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ﴿٤٤﴾﴾ جمع: سريع، أي: يخرجون سراعًا ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا﴾ جمع علينا ﴿يَسِيرٞ﴾.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ يعني: كفار مكة في تكذيبك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ بمسلط، تجبرهم على الإسلام، إنما بعثت مُذَكِّرًا ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أوعدتُ مَنْ عصاني من العذاب.

قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت: «فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ».

سورة الذاريات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾﴾ يعني: الرياح التي تذرو التراب ذروًا. ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾﴾ يعني: السحاب تحمل ثقلاً من الماء. ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾﴾ هي السفن تجري في الماء جريًا سهلاً. ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾﴾ هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أُمروا به، أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته.

ثم ذكر المقسَم عليه فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الحساب والجزاء ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ لكائن، ثم ابتدأ قَسَمًا آخر فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذات الخلق الحسن المستوي، قال سعيد بن جبير: ذات الزينة، قال الحسن: حبكت بالنجوم، وجواب القسم قوله:

﴿إِنَّكُمۡ﴾ أي: يا أهل مكة ﴿لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ في القرآن وفي محمد ﷺ، تقولون في القرآن: سحر

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ١٣٢ - ١٣٣).

وكهانة وأساطير الأولين، وفي محمد ﷺ: ساحر وشاعر ومجنون، وقيل: «لفي قول مختلف»، أي: مُصدِّق ومُكذِّب.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ يصرف عن الإيمان به من صرف حتى يكذبه، يعني: مَن حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾ لُعِنَ الكذَّابون. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ غفلة وعمًى وجهالة ﴿سَاهُونَ﴾ لاهُون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء، وهو ذهاب القلب عنه. ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾ يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء، يعني: يوم القيامة تكذيبًا واستهزاءً.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾ أي: هذا الجزاء في يوم هم ﴿عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذَّبون ويحرقون بها.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ عذابكم ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا تكذيبًا به.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ ۝١٦﴾ أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ من الخير والكرامة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ قبل دخولهم الجنة ﴿مُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ والهجوع: النوم بالليل دون النهار، «وما» صلة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل، أي: يصلون أكثر الليل.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ قال الحسن: لا ينامون من الليل إلاَّ أقله، وربما نشطوا فمدوا إلى السحر، ثم أخذوا بالأسحار في الاستغفار.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل، فيقول: أنا المَلِك، أنا المَلِك، مَن الذي يدعوني فأستجيبَ له؟ مَن الذي يسألني فأعطيَه، مَن الذي يستغفرني فأغفرَ له»[١].

عن طاووس سمع ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: «اللهم لك الحمد أنتَ قيِّمُ السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمد أنتَ نور السموات والأرض ومن فيهنَّ، وذلك الحمد أنتَ ملك السمواتِ والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنتَ الحقُّ ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنَّبيُّون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصمتُ،

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٩)، ومسلم برقم٧٥٨: (١/ ٥٢١).

وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلاَّ أنت ولا إله غيرك»، قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أُمية: «ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله»(١).

عن عبادة، عن النبي ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استُجيب له، فإن توضأ وصلَّى قُبِلَتْ صلاتُه»(٢).

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ السائل: الذي يسأل الناس، والمحروم: الذي ليس له في الغنائم سهم، ولا يجري عليه من الفيء شيء.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ عِبَر ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ إذا سَارُوا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آياتٌ، إذْ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظمًا إلى أن نفخ فيها الروح. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني: المطر الذي هو سبب الأرزاق ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال عطاء: من الثواب والعقاب، وقال مجاهد: من الخير والشر. ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: ما ذكرت من أمر الرزق لحقٌّ ﴿مِّثْلَ﴾ ﴿مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فتقولون: لا إله إلاَّ الله، وقيل: شبَّه تحقق ما أخبر عنه بتحقق نطق الآدمي، والمعنى: إنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة، قال بعض الحكماء: يعني: كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره فكذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له، ولا يقدر أن يأكل رزق غيره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قيل: سماهم مكرمين؛ لأنهم كانوا

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٣)، ومسلم برقم٧٦٩: (١/ ٥٣٢ - ٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٩).

ملائكة كرامًا عند الله، وقد قال الله تعالى في وصفهم: «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» [الأنبياء: ٢٦]، وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وكان إبراهيم أكرم الخليقة، وضيف الكرام مكرمون. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: غرباء لا نعرفكم.

﴿فَرَاغَ﴾ فعدل ومال ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي. ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا، فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: صيحة، أي: أخذت تُوَلْوِلُ كما قال: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ» [هود: ٧٢] ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال ابن عباس: لطمت وجهها، وقال الآخرون: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجبًا، كعادة النساء إذا أنكرن شيئًا، وأصل الصَّكِّ: ضرب الشيء بالشيء العريض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ مجازه: أتلدُ عجوز عقيم؟ وكانت سارة لم تلد قبل ذلك.

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: كما قلنا لك، قال ربك: إنك ستلدين غلامًا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يعني: إبراهيم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعني: قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ معلَّمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ قال ابن عباس: للمشركين، والشرك: أسرف الذنوب وأعظمها.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قرى قوم لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهل بيت ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: لوطًا وابنتيه، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعًا؛ لأنه ما من مؤمن إلاَّ وهو مسلم.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في مدينة قوم لوط ﴿آيَةً﴾ عبرة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: علامة للخائفين تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.

﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أي: وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فأعرض وأدبر عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: بجمعه وجنوده الذين كان

يتقوى بهم، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أغرقناهم فيه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسول.

﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: في إهلاك عاد أيضًا آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجرًا ولا تحمل مطرًا ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس ودِيس.

وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ يعني: وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا ثلاثة أيام. ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس، قال مقاتل: يعني: العذاب، و«الصاعقة»: كل عذاب مهلك، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يرون ذلك عيانًا. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض، قال قتادة: لم ينهضوا من تلك الصرعة ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين منَّا، قال قتادة: ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من الله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وفي قوم نوح، ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء، وهم عاد وثمود وقوم فرعون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: قادرون، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ بسطناها ومهدناها لكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ الباسطون نحن، قال ابن عباس: نعم ما وطَّأتُ لعبادي.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل الجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج فرد.

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه، بالإيمان والطاعة، ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما كذبك قومُك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذلك ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من قبل كفار مكة ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي: أوصى أولُهم آخرَهم وبعضُهم بعضًا بالتكذيب، وتواطؤوا عليه؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ قال ابن عباس: حملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسَّعتُ عليهم على تكذيبك ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لا لوم عليك، فقد أديَّتَ الرسالة، وما قصرت فيما أُمرت به.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ واشتدَّ ذلك على أصحابه، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر إذْ أُمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فطابت أنفسهم. قال مقاتل: معناه: عِظْ بالقرآن كفار مكة، فإن الذكرى تنفع من سبق في علم الله أن يؤمن منهم، وقال الكلبي: عِظْ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ قال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين.

وقيل: معناه إلاَّ ليخضعوا إليَّ ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة: التذلل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجًا عمَّا خُلق عليه. وقيل: «إلاَّ ليعبدون» إلاَّ ليوحدون.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: أن يرزقوا أحدًا من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: يطعموا أحدًا من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه؛ لأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه، كما جاء في الحديث يقول الله تعالى: «استطعمتُك فلم تُطعمني»، أي: لم تطعم عبدي، ثم بيَّن أن الرازق هو لا غيره فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ يعني: لجميع خلقه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ وهو القوي المقتدر المبالغ في القوة والقدرة.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا من أهل مكة ﴿ذَنُوبًا﴾ نصيبًا من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثل

نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالعذاب، يعني: أنهم أُخِّروا إلى يوم القيامة.

يدل عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني: يوم القيامة.

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾﴾ أراد به الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة، أقسم الله تعالى به. ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ مكتوب. ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ و«الرَّقّ»: ما يُكتب فيه، وهو أديم الصحف، و«المنشور»: المبسوط، واختلفوا في هذا الكتاب، قال الكلبي: هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: دواوين الحفظة تخرج إليهم يوم القيامة منشورة، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله، دليله: قوله عزَّ وجلَّ: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا» [الإسراء: ١٣]. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ بكثرة الغاشية والأهل، وهو بيت في السماء حذاء العرش بحيال الكعبة يقال له: الضُّرَاح، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبدًا. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ يعني: السماء. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ قال محمد بن كعب القرظي والضحاك: يعني: الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور، وهو قول ابن عباس، وذلك ما رُوي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارًا فيزاد بها في نار جهنم، كما قال الله تعالى: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾» [التكوير: ٦]، أقسم الله بهذه الأشياء. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ نازل كائن. ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ مانع، قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأكلِّم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب، وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ «والطور» إلى قوله: «إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع» فكأنما صدع قلبي حين سمعته، ولم يكن أسلم يومئذ، قال: فأسلمت خوفًا من نزول العذاب، وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب[1].

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٠٣).

تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

ثم بيَّن أنه متى يقع فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ أي: تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤَ السفينة. ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ فتزول عن أماكنها وتصير هباءً منثورًا. ﴿فَوَيْلٌ﴾ فشدة عذاب ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ يخوضون في الباطل يلعبون غافلين لاهين.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يدفعون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ دفعًا بعنف وجفوة، وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون بهم إلى النار دفعًا على وجوههم، وزجًّا في أقفيتهم حتى يَرِدُوا النار، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمدًا ﷺ إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فوُبِّخوا به، وقيل لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟

﴿ٱصْلَوْهَا﴾ قاسوا شدتها ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ الصبر والجزع ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ﴾ معجبين بذلك ناعمين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ مأمون العاقبة من التخمة والسقم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ﴾ موضوعة بعضها إلى جنب بعض ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾. واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: معناها: والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان، يعني: أولادهم الصغار والكبار، فالكبار بإيمانهم بأنفسهم، والصغار بإيمان آبائهم، فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعًا لأحد الأبوين ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المؤمنين في الجنة بدرجاتهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمةً لآبائهم لتقرَّ بذلك أعينهم.

وقال آخرون: معناه: والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم البالغون بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم، من غير أن ينقص الآباء من أعمالهم شيئًا، فذلك قوله:

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ أي: ما نقصناهم، يعني: الآباء ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾. عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ بهم عينه»، ثم قرأ: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ» إلى آخر الآية.

عن علي - رضي الله عنه - قال: سألتْ خديجةُ - رضي الله تعالى عنها - النبي ﷺ: عن ولدين ماتَا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار»، فلما رأى الكراهة في وجهها، قال: «لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما»، قالت: يا رسول الله، فولدي منك؟ قال: «في الجنة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ»[1].

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قال مقاتل: كل امرىء كافر بما عمل من الشرك مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهنًا، لقوله عزَّ وجلَّ: «كل نفس بما كسبت رهينة * إلاَّ أصحاب اليمين»، ثم ذكر ما يزيدهم من الخير والنعمة فقال:

وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ زيادة على ما كان لهم ﴿وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ من أنواع اللحمان. ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ يتعاطون ويتناولون ﴿فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ وهو الباطل، لا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أي: لا يكون منهم ما يؤثمهم، قال الزَّجَّاج: لا يجري بينهم ما يلغي ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لشربة الخمر وقيل: لا يأثمون في شربها. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالخدمة ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ﴾ في الحُسن والبياض والصفاء ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مخزون مصون لم تمسه الأيدي. قال عبد الله بن عمر: وما من أحدٍ من أهل الجنة إلاَّ يسعى عليه ألف غلام، وكل غلام على عملٍ ما عليه صاحبه. وروي عن الحسن أنه لما تلا هذه الآية قال: قالوا: يا رسول الله، الخادم كاللؤلؤ المكنون، فكيف المخدوم؟ وعن قتادة - أيضًا - قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال: «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[2].

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يسأل بعضهم بعضًا في الجنة. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد المسند»: (١/ ١٣٤، ١٣٥)، وابن أبي عاصم في «السنة»: (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير»: (٢/ ٢٤٨)، والطبري: (٢٧/ ٢٩).

﴿أَهْلِنَا﴾ في الدنيا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من العذاب. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ قال الكلبي: عذاب النار، وقال الحسن: «السَّموم» اسم من أسماء جهنم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نخلص له العبادة ﴿إِنَّهُۥ﴾ ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ قال ابن عباس: اللطيف، وقال الضحاك: الصادق فيما وعد ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد بالقرآن أهل مكة ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمته وعصمته ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول، وتخبر بما في غد من غير وحي ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ نزلت في الذين اقتسموا عِقَابَ مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، يعني: هؤلاء المقتسمين الخراصين ﴿شَاعِرٌ﴾ أي: هو شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك مَنْ قبله من الشعراء، ويتفرق أصحابه وإن أباه مات شابًّا ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه، و«المنون» يكون بمعنى الدهر، ويكون بمعنى الموت، سُمِّيَا بذلك؛ لأنهما يقطعان الأجل.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾ انتظروا بي الموت ﴿فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فيكم، فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ وذلك أن عظماء قريش كانوا يُوصَفُون بالأحلام والعقول، فأزرَى الله بعقولهم حين لم تتميز لهم معرفة الحق من الباطل ﴿أَمْ هُمْ﴾ بل هم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: يخلق القرآن من تلقاء نفسه، ليس الأمر كما زعموا ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن استكبارًا، ثم ألزمهم الحجة فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي: مثل القرآن ونظمه وحسن بيانه ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ محمدًا يقوله من قِبَل نفسه.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ قال ابن عباس: من غير ربٍّ، ومعناه: أخلقوا من غير شيءٍ خَلَقَهم، فوُجِدُوا بلا خالق؟ وذلك مما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم؟ وذلك في البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا فلْيُؤمنوا به.

وقال الزَّجَّاج: معناه: أَخُلِقُوا باطلاً لا يحاسبون ولا يُؤمرون؟

أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فيكونوا هم الخالقين، ليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ قال عكرمة: يعني: النبوة، قال الكلبي: خزائن المطر والرزق ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسلطون الجبارون، قال عطاء: أرباب قاهرون، فلا يكونوا تحت أمرٍ ولا نهي، يفعلون ما شاؤوا.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرقًى ومصعد إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: يستمعون عليه الوحي، معناه: ألهم سُلَّم يرتقون به إلى السماء، فيستمعون الوحي ويعلمون أن ما هم عليه حق بالوحي، فهم مستمسكون به كذلك؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ إن ادعوا ذلك ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجّة بيِّنة.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ هذا إنكار عليهم حين جعلوا لله ما يكرهون، كقوله: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾» [الصافات: ١٤٩].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ جُعْلاً على ما جئتهم به ودعوتهم إليه من الدين ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أثقلهم ذلك المغرم الذي تسألهم، فمنعهم من ذلك عن الإسلام.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: علم ما غاب عنهم، حتى علموا أن ما يخبرهم الرسول من أمر القيامة والبعث باطل. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يحكمون، والكتاب: الحكم، قال النبي ﷺ للرجلين اللذين تخاصما إليه: «أقضي بينكما بكتاب الله»[1]، أي: بحكم الله. وقال ابن عباس: معناه: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ مكرًا بك ليهلكوك؟ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم المجزيون بكيدهم، يريد: أن ضرر ذلك يعود عليهم، ويحيق مكرهم بهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يرزقهم وينصرهم؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (٥/ ٣٠١)، ومسلم برقم١٦٩٧ - ١٦٩٨: (٣/ ١٣٢٤ - ١٣٢٥).

حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا﴾ قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ هذا جواب لقولهم: «فأسقط علينا كِسفًا من السماء»، يقول: لو عذبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ﴿يَقُولُواْ﴾ ـ لمعاندتهم ـ: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ بعضه على بعض يسقينا. ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ يُعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: يموتون، حتى يعاينوا الموت. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم يوم الموت، ولا يمنعهم من العذاب مانع.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: عذابًا في الدنيا قبل عذاب الآخرة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن العذاب نازل بهم.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منّا، قال ابن عباس: نرى ما يُعْمَلُ بك، وقال الزَّجَّاج: إنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إلى مكروهك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء: أي: قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك، فإن كان المجلس خيرًا ازددت فيه إحسانًا، وإن كان غير ذلك كان كفارة له.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلسًا وكثر فيه لَغَطُهُ، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاَّ كان كفارةً لما بينهما»(١).

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: صلِّ له، قال مقاتل: يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني: الركعتين قبل صلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم، أي: تغيب بضوء الصبح.

سورة النجم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ يعني: الثريا إذا سقطت وغابت، وهُوِيُّهُ مَغِيبه، والعرب تسمي الثريا: نجمًا. «الهُوِيُّ»: النزول من أعلى إلى أسفل.

وجواب القسم: قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ما ضل عن طريق الهدى ﴿وَمَا غَوَىٰ

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ٣٩٢ - ٣٩٤)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث سهيل إلاَّ من هذا الوجه)، وصححه ابن حبان برقم٢٣٦٦، والحاكم: (١/ ٥٣٦ - ٥٣٧).

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ أي: بالهوى، يريد: لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمدًا ﷺ يقول القرآن من تلقاء نفسه.

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما نطقه في الدين، وقيل: القرآن ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ أي: وحيٌ من الله يُوحى إليه.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ وهو جبريلُ، والقُوى: جمع القوة. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوة وشدة في خلقه، يعني: جبريل، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني: جبريل. ﴿وَهُوَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، ومعنى الآية: استوى جبريل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج «بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ» وهو أقصى الدنيا عند مطلع الشمس، وقيل: «فاستوى» يعني: جبريل، وهو كناية عن جبريل أيضًا، أي: قام في صورته التي خلقه الله، وهو بالأفق الأعلى، وذلك أن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على الصورة التي جُبل عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، والمراد بالأعلى: جانب المشرق، وذلك أن محمدًا ﷺ كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسدَّ الأُفق إلى المغرب، فخر رسول الله ﷺ مغشيًّا عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، وهو قوله: «ثم دنا فتدلى»، وأما في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلاَّ نبيّنا محمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ اختلفوا في معناه: عن مسروق قال: قلت لعائشة: فأين قوله: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩»؟ قالت: «ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسدَّ الأُفق»[(١)].

عن الشيباني قال: سألت زِرًّا عن قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩»، قال: أخبرنا عبد الله ـ يعني: ابن مسعود ـ أن محمدًا ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

فمعنى الآية: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل بعد استوائه بالأُفق الأعلى من الأرض ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فنزل إلى محمد ﷺ ﴿فَكَانَ﴾ منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بل أدنى، وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة، قيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ثم تدلى فدنا؛ لأنَّ التدلي سبب الدنو.

وقال آخرون: ثم دنا الربُّ عزَّ وجلَّ من محمد ﷺ فتدلى، فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ورُوينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس: ودنا الجبار ربُّ العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى[(٢)]، وهذا رواية ابن سلمة عن ابن عباس، و«التدلي»: هو النزول إلى الشيء حتى يقرب منه.

ومعنى قوله: «قاب قوسين»، أي: قدر قوسين. وقال عبد الله بن مسعود: «قاب قوسين»،

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣١٣).

(٢) لمعرفة ما قاله أهل العلم في رواية شريك بن عبد الله وأوهامه في ألفاظ حديث المعراج. انظر: «فتح الباري»، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾: (١٣/ ٤٧٨ - ٤٨٠)، ابن كثير: (٤/ ٢٥٠)، «الأسماء والصفات» للبيهقي: (٢/ ١٨٧).

أي: قدر ذراعين، «أو أدنى»: بل أقرب.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي: أوحى الله ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ أي: ما كذَّب قلبُ محمدٍ ﷺ ما رأى بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه، وقيل: ما كَذَبَ فؤاد محمد ﷺ الذي رأى، بل صدقه، واختلفوا في الذي رآه، فقال قوم: رأى جبريل، وهو قول ابن مسعود وعائشة.

عن عبد الله قال: «مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١»، قال: رأى جبريل له ستمائة جناح[1].

وقال آخرون: هو الله عزَّ وجلَّ، ثم اختلفوا في معنى الرؤية، فقال بعضهم: جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده، وهو قول ابن عباس.

عن ابن عباس: «مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١»، «وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣»، قال: رآه بفؤاده مرتين[2].

وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه.

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: لم يَرَ رسول الله ﷺ ربَّه، وتحمل الآية على رؤيته جبريل عليه السلام.

عن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أُمَّاه، هلْ رأى محمدٌ ﷺ ربَّه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: مَن حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: «لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣» [الأنعام: ١٠٣]، «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ» [الشورى: ٥١]، ومَنْ حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا» [لقمان: ٣٤]، ومَنْ حدثك أنه كتم شيئًا فقد كذب، ثم قرأت: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...» [المائدة: ٦٧] الآية، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين[3].

عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنَّى أراه»[4].

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ أي: أفتجحدونه، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا:

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦١٠)، ومسلم برقم١٧٤ : (١/ ١٥٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم١٧٦ : (١/ ١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٦).

(٤) أخرجه مسلم برقم ١٧٨ (١/ ١٦١).

صف لنا بيت المقدس، وأخبِرْنا عن عيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ يعني: رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلاً من السماء نزلة أُخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء. ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، رُوينا عن عبد الله بن مسعود قال: لمَّا أُسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، قال تعالى: «عندها جنة المأوى إذ يغشى السدة ما يغشى»، قال: فراش من ذهب[1].

وروينا في حديث المعراج: «ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام فسلمتُ عليه، ثم رُفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة»[2].

«والسدرة»: شجر النبق، وقيل لها: سدرة المنتهى؛ لأنه إليها ينتهي علم الخلق، قال هلال بن يساف: سأل ابنُ عباس كعبًا عن سدرة المنتهى وأنا حاضر، فقال كعب: إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيب لا يعلمه إلاَّ الله.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ قال عطاء عن ابن عباس: جنة يأوي إليها جبريل والملائكة. ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال ابن مسعود: فراش من ذهب.

ورُوينا في حديث المعراج عن أنس عن رسول الله ﷺ: «ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشَّى من أمره الله ما غشَّى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، وأوحى إلي ما أوحى ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»[3].

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: ما مال بصر النبي ﷺ يمينًا ولا شمالاً وما طغى، أي: ما جاوز ما رأى، وقيل: ما جاوز ما أمر به، وهذا وصف أدبه في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانبًا.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ يعني: الآيات العظام، وقيل: أراد ما رأى تلك الليلة في

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٣: (١/ ١٥٧).

(٢) قطعة من حديث مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ في المعراج، أخرجه البخاري: (٦/ ٣٠٢ - ٣٠٣)، ومسلم برقم١٦٢: (١/ ١٤٥ - ١٤٧).

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم١٦٢: (١٤٥ - ١٤٦).

مسيره وعوده، دليله قوله: «لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ» [الإسراء: ١]، وقيل: معناه: لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى. عن عبد الله قال: لقد رأى من آيات ربِّه الكبرى قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[1].

عن عبد الله: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى»؟ قال: رأى رفرفًا أخضر سَدَّ أُفُقَ السماء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، اشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فقالوا من الله: اللات، ومن العزيز: العزى، وقيل: العزى: تأنيث الأعز.

«اللاَّتّ»: قالوا: كان رجلاً يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه[2]. وأمَّا «العزّى»، قال مجاهد: هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾ قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الأنصار: كانوا يهلون لمناة، وكانت حذو قديد، وقال بعضهم: اللات والعزى ومناة: أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها.

وأما قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فالثالثة نعت لمناة، أي: الثالثة للصنمين في الذكر، وأما الأُخرى فإن العرب لا تقول الثالثة الأُخرى، إنما الأُخرى هاهنا نعت الثالثة، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: أفرأيتم اللات والعزى الأُخرى ومناة الثالثة.

ومعنى الآية: «أفرأيتم»: أخبرونا يا أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله، فقال الله تعالى منكرًا عليهم:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة: أي: قسمة جائرة، حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم. ﴿إِنْ هِىَ﴾ ما هذه الأصنام ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة بما تقولون: إنها آلهة، ثم رجع إلى الخبر بعد المخاطبة فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في قولهم: إنها آلهة ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما زيّن لهم الشيطان ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة، فإن العبادة لا تصلح إلاَّ لله الواحد القهار.

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٧٤: (١/ ١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦١١)، المقطع الأول «كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج».

يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام؟

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ ليس كما ظن الكافر وتمنَّى، بل لله الآخرة والأُولى، لا يملك أحدٌ فيهما شيئًا إلاَّ بإذنه.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ممن يعبدهم هؤلاء الكفار، ويرجون شفاعتهم عند الله ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ أي: من أهل التوحيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أي: بتسمية الأُنثى حين قالوا: إنهم بنات الله.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ قال مقاتل: معناه ما يستيقنون أنهم بنات الله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ «والحق» بمعنى العلم، أي: لا يقوم الظن مقام العلم.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني: القرآن، وقيل: الإيمان ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

ثم صغَّر رأيهم فقال: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم صغَّر رأيهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ﴾ أي: ذلك نهاية علمهم وقدر عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: هو عالم بالفريقين فيجازيهم.

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الشرك ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ وحَّدوا ربهم ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ بالجنة.

ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾ ومعنى الآية: إلاَّ أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب، ويقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمم ما دون الشرك. وقال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله تعالى: «إلاَّ اللَّمم»، فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم.

ورُوينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله: «إلاَّ اللمم»، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنْ تغفرِ

اللهمَّ تغفرْ جمًّا، وأيُّ عبدٍ لك لا ألمَّا»(١).

وقال آخرون: لكن اللمم، ولم يجعلوا اللَّمم من الكبائر والفواحش.

وقال بعضهم: هو صغار الذنوب. عن ابن عباس قال: ما رأيتُ أشبه باللَّمم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه»(٢).

وقال سعيد بن المسيَّب: هو ما لَمَّ على القلب، أي: خطر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال ابن عباس: لمن فعل ذلك وتاب، تم الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق أباكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين، سُمِّي جنينًا لاجتنانه في البطن ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال ابن عباس: لا تمدحوها، قال الحسن: علم الله من كلِّ نفسٍ ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، لا تبرئوها عن الآثام، ولا تمدحوها بحسن أعمالها. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: بَرَّ وأطاع وأخلص العمل لله تعالى.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه فعيَّره بعض المشركين وقال له: أتركت دين الأشياخ وضلَّلتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن الذي عاتبه إن هو وافقه أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيَّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أدبر عن الإيمان ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ صاحبه ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ بخل بالباقي.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ ما غاب عنه، ويعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ لم يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يعني: أسفار التوراة.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ في صحف إبراهيم عليه السلام ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ تَمَّم وأكمل ما أُمر به.

قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة: عمل بما أُمر به، وبلغ رسالات ربه إلى خلقه. وقال الربيع: وفَّى رؤياه وقام بذبح ابنه. ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة حملَ

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ١٧٢)، والحاكم: (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٢٦)، ومسلم برقم٢٦٥٧: (٤/ ٢٠٤٦).

أُخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها، وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة بأنه يحمل عنه الإثم.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، كان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده، حتى كان إبراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك، وبلَّغهم عن الله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: عمل، وهذا أيضًا في صحف إبراهيم وموسى.

وقال عكرمة: كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى، فأما هذه الأُمة فلهم ما سَعَوْا وما سعى لهم غيرُهم، لِمَا روي أن امرأة رفعت صبيًّا لها فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر»[١].

وقال رجل للنبي ﷺ: إن أُمي افتلتت نفسها، فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال: «نعم»[٢].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ في ميزانه يوم القيامة. ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ الأكمل والأتم، أي: يجزى الإنسان بسعيه. «ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ» أي: منتهى الخلق ومصيرهم إليه، وهو مجازيهم بأعمالهم، وقيل: منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال.

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ فهذا يدل على أن كل ما يعمله الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء. عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنتَ تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم، وكان أصحابه يجلسون ويتناشدون الشعر، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسَّم معهم إذا ضحكوا[٣]. يعني: النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٣٣٦: (٢/ ٩٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ٢٥٤)، ومسلم برقم١٠٠٤: (٢/ ٦٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي: (٨/ ١٤٢ - ١٤٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والإمام أحمد: (٥/ ٩١).
وأخرجه مسلم برقم٢٣٢٢: (٤/ ١٨١٠) بلفظ: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيرًا كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ.

وقال معمر عن قتادة: سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل[١].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ أي: أمات في الدنيا وأحيا للبعث، وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من كل حيوان. ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي: تصبُّ في الرحم. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي: الخلق الثاني للبعث يوم القيامة. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ قال أبو صالح: أغنى الناس بالأموال وأقنى، أي: أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء. ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر، فكان لهم عقب، فكانوا عادًا الأُخرى. ﴿وَثَمُودَا۟﴾ وهم قوم صالح، أهلكهم الله بالصيحة ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحد. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ لطول دعوة نوح إيَّاهم، وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قُرى قوم لوط ﴿أَهْوَىٰ﴾ أسقط، أي: أهواها جبريل بعدما رفعها إلى السماء.

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ ألبسه الله ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ يعني: الحجارة المنضود المسومة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ نِعَم ربِّك أيها الإنسان، وقيل: أراد الوليد بن المغيرة ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تشك وتجادل.

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: رسول من الرسل أُرسل إليكم كما أُرسلوا إلى أقوامهم.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ دنت القيامة واقتربت الساعة. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: مظهرة مقيمة كقوله تعالى: «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ» [الأعراف: ١٨٧]، والمعنى: ليس لها من دون الله كاشف، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه: ليس لها رادّ، يعني: إذا غشيت الخلقَ أهوالُها وشدائدُها لم يكشفها ولم يردّه عنهم أحد.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ﴾ يعني: استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ مما فيه من الوعيد. ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ لاهون غافلون، وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة أهل اليمن، وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا. ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أي: واعبدوه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ٤٥١).

عن ابن عباس أن النبي ﷺ: سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[١].

عن عبد الله قال: أول سورة أُنزلت فيها سجدةٌ: النجم، قال فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَنْ خلفه إلاَّ رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف[٢].

سورة القمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ دنت القيامة ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾. عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما[٣]. وعن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[٤].

وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: سحركم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّفَّار، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: اقتربتِ الساعة وانشقَّ القمر».

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ أي: ذاهب وسوف يذهب ويبطل. ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: كذبوا النبيَّ ﷺ وما عاينوا من قدرة الله عزَّ وجلَّ، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال الكلبي: لكل أمر حقيقة، ما كان منه في الدنيا فسيظهر، وما كان منه في الآخرة فسيعرف.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ يعني: أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ من أخبار الأُمم المكذبة في القرآن ﴿مَا فِيهِ

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٥٣)، (٨/ ٦١٤).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦١٤) واللفظ له، ومسلم برقم٥٧٦: (١/ ٤٠٥).
(٣) أخرجه البخاري: (٧/ ١٨٧).
(٤) أخرجه البخاري: (٨/ ٦١٧)، ومسلم برقم٢٨٠٠: (٤/ ٢١٥٨).

مُزْدَجَرٌ﴾ متناهي مصدر بمعنى الازدجار، أي: نهي وعظة. ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ يعني: القرآن حكمة تامَّة قد بلغت الغاية ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فليست تغني النذر، أو فأي شيءٍ تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم؟.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ أي: إلى يوم الداعي، ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ منكر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظامًا. ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب. ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ مُنْبَثٌ حيارى، يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم يقصدها، كالجراد لا جهة لها، تكون مختلطة بعضها في بعض.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين مقبلين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ إلى صوت إسرافيل ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يوم صعب شديد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحًا ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أي: زجروه عن دعوته ومقالته بالشتم والوعيد. ﴿فَدَعَا﴾ نوح ﴿رَبَّهُ﴾ وقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ مقهور ﴿فَانْتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ مُنْصَبٌّ انصبابًا شديدًا، لم ينقطع أربعين يومًا. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ يعني: ماء السماء وماء الأرض، ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قضي عليهم في أُم الكتاب. ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ يعني: نوحًا ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي: سفينة ذات ألواح، و«دُسُر» أي: المسامير التي تشد بها الألواح جانباها، والدسر أصلها وطرفاها. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منَّا، وقال مقاتل بن حيان: بحفظنا، ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ قال مقاتل بن حيان يعني: فعلنا به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثوابًا لمن كان كُفِر به وجُحِد أمره، وهو نوح عليه السلام، وقيل: «مَنْ» بمعنى «ما»، أي: جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم، أو جزاء لِمَا صنع بنوح وأصحابه، وقرأ مجاهد: «جزاء لمن كان كَفَر» بفتح الكاف والفاء، يعني: كان الغرق جزاء لمن كان كفر بالله وكذب رسوله.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ يعني: الفعلة التي فعلنا ﴿آيَةً﴾ يُعْتَبَر بها، وقيل: أراد السفينة، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، أي: متذكر متعظ معتبر خائف مثل عقوبتهم. عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً سأل الأسود عن قوله: «فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ» أو مذكر؟ قال: سمعت عبد الله يقرؤها «فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ»، وقال:

سمعت النبي ﷺ يقرؤها «فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ» دالاً[1]. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي: إنذاري.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ سهّلنا ﴿الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ ليتذكر ويعتبر به، وقال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهرًا إلاَّ القرآن ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ بمواعظه.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴿١٩﴾﴾ شديدة الهبوب ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ شديد دائم الشؤم، استمر عليهم بنحو سنة فلم يُبْقِ منهم أحدًا إلاَّ أهلكه.

﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ قال ابن عباس: أصولها، وقال الضحاك: أوراك نخل ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ منقطع من مكانه، ساقط على الأرض.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ بالإنذار الذي جاءهم به صالح.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا﴾ آدميًا ﴿مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ ونحن جماعة كثيرة وهو واحد ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ﴾ خطأ وذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ قال ابن عباس: عذاب، وقال الحسن: شدة عذاب.

﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ أأُنزل الذكر: الوحي ﴿مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بطر متكبر، يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة، و«الأَشَر»: المرح والتجبُّر.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين ينزل بهم العذاب، وقال الكلبي: يعني: يوم القيامة، ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦١٧).

كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا، وذلك أنهم تعنتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرةٍ ناقةً حمراء عُشَراء، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ محنةً واختبارًا لهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظر ما هم صانعون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ واصبر على ارتقابهم، وقيل: على ما يصيبك من الأذى. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ وبين الناقة، يوم لها ويوم لهم، ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ نصيب من الماء ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره من كانت نوبته، فإذا كان يومها حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ وهو قدار بن سالف ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فتناول الناقة بسيفه ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: فعقرها. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ ثم بيَّن عذابهم فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال عطاء: يريد: صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ هو الشجر البالي الذي تهشم حتى ذرته الريح.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴿٣٤﴾﴾ ريحًا ترميهم بالحصباء: وهي الحصى، فقال: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: لوطًا وابنتيه ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾ من العذاب ﴿بِسَحَرٍ﴾.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: جعلناه نعمة منَّا عليهم حيث أنجيناهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أنعمنا على آل لوط ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ قال مقاتل: مَنْ وحَّد الله لم يعذبه مع المشركين.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذنا إيَّاهم بالعقوبة ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ شكُّوا بالإنذار، وكذبوا ولم يصدقوا.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ طلبوا أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: صيَّرناها كسائر الوجه لا يُرى لها شق، وقيل طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فلم يروهم فرجعوا ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: ما أنذركم به لوط من العذاب.

وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ جاءهم وقت الصبح ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ دائم، استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة.

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾

يعني: موسى وهارون عليهما السلام، وقيل: هي الآيات التي أنذرهم بها موسى.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب في انتقامه ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ قادر على إهلاكهم، لا يعجزه ما أراد، ثم خوَّف أهل مكة فقال:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ أشدُّ وأقوى من الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون؟ أي: ليسوا بأقوى منهم ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾ من العذاب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ في الكتب، أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: كفار مكة ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ قال الكلبي: نحن جميع أمرنا منتصر من أعدائنا، المعنى: نحن يَدٌ واحدة على من خالفنا، منتصر ممن عادانا.

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يعني: كفار مكة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يعني: الأدبار، أخبر الله أنهم يولون أدبارهم منهزمين، فصدق الله وعده وهزمهم يوم بدر.

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ وهو في قبته يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعْبَدْ بَعْدَ اليوم»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك - وهو في الدرع - فخرج وهو يقول: «سيُهزم الجمعُ ويولون الدُّبُرَ»[١].

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦)﴾ قال سعيد بن المسيَّب: سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: لما نزلت: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في درعه ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم» جميعًا «والساعة أدهى وأمر»[٢]، أعظم داهية وأشدُّ مرارةً من الأسر والقتل يوم بدر.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ قيل: «في ضلال» بُعْد عن الحق، و«سُعُر»: نارٌ مسعَّرة. ثم بيَّن عذابهم فقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ يُجرُّون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ أي: ما خلقناه فمقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ،

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٩٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق: (٢/ ٢٥٩)، والطبري: (٢٧/ ١٠٨)، والإمام أحمد: (١/ ٣٢٩).

قال الحسن: قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له.

عن أبي هريرة قال: جاءت مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية: «إن المجرمين في ضلال وسُعُر» إلى قوله: «إنا كل شيء خلقناه بقدر»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء»[٢].

وعن طاووس اليماني قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كل شيء بقدر الله»، قال: وسمعت عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقَدَرٍ حتى العَجْز والكيسِ، أو الكيسِ والعجزِ»[٣].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر ـ زاد عبيد الله خيره وشره»[٤].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ قوله: «واحدةٌ» يرجع إلى المعنى دون اللفظ، أي: وما أمرنا إلاَّ مرة واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ، يعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ يعني: فعله الأشياع من خير وشر ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ في كتاب الحفظة، وقيل: في اللوح المحفوظ. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الخلق وأعمالهم وآجالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مكتوب.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار. ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مجلس حق، لا لغو فيه ولا تأثيم ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ ملك قادر، لا يعجزه شيء.

سورة الرحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا

(١) أخرجه مسلم في القدر، برقم٢٦٥٦: (٤/٢٠٤٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٦٥٣: (٤/٢٠٤٤).
(٣) أخرجه مسلم برقم٢٦٥٥: (٤/٢٠٤٥).
(٤) أخرجه الترمذي: (٦/٣٥٨).

تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾﴾ قيل: نزلت حين قالوا: وما الرحمن؟ وقيل: هو جواب لأهل مكة حين قالوا: إنَّما يعلِّمه بشر. ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾﴾ قال الكلبي: علم القرآن محمدًا، وقيل: «علم القرآن» يسره للذكر. ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ يعني: آدم عليه السلام، قاله ابن عباس وقتادة ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ أسماء كل شيء، وقيل: علمه اللغات كلها. وقال الآخرون: «الإنسان» اسم جنس، وأراد به: جميع الناس، «علمه البيان» النطق والكتابة والفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾﴾ أي: يجريان بحساب ومنازل لا يعدونها، قاله ابن عباس وقتادة، وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني: بهما تحسب الأوقات والآجال، لولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئًا. ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ النجم: ما ليس له ساق من النبات، والشجر: ما له ساق يبقى في الشتاء، قال مجاهد: النجم: هو الكوكب وسجوده طلوعه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ فوق الأرض ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ قال مجاهد: أراد بالميزان: العدل، المعنى: أنه أمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ أي: لا تجاوزوا العدل.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل، قال أبو الدرداء وعطاء: معناه: أقيموا لسان الميزان بالعدل، قال ابن عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾ ولا تنقصوا ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ ولا تطففوا في الكيل والوزن.

وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ للخلق الذين بثهم فيها. ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ يعني: أنواع الفواكه ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ الأوعية التي يكون فيها الثمر؛ لأن ثمر النخل يكون في غلافٍ ما لم ينشق.

﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أراد بالحَبِّ: جميع الحبوب التي تحرث في الأرض، قال مجاهد: هو ورق الزرع، قال ابن كيسان: «العصف» ورق كل شيء يخرج منه الحب، يبدو أولاً ورقًا وهو العصف ثم يكون سوقًا، ثم يحدث الله فيه أكمامًا، ثم يحدث في الأكمام الحب. ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ هو الرزق في قول الأكثرين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ أيها الثقلان، يريد: من هذه الأشياء المذكورة، وكرَّر هذه الآية في هذه السورة تقريرًا للنّعمة وتأكيدًا في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدِّد على الخلق آلاءه، ويفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها، كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملاً؟ فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حسنٌ تقريرًا.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ وهو أبو الجن، وقال الضحاك: هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ۝١٧﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مغرب الصيف ومغرب الشتاء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، أرسلهما وخلاَّهما ﴿يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يختلطان ولا يتغيران ولا يبغي أحدهما على صاحبه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من المالح دون العذب، وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئان ثم يخص أحدهما بفعل، كما قال عزَّ وجلَّ: «يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» [الأنعام: ١٣٠]، وكانت الرسل من الإنس دون الجن، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الكبار ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي: المنشئات للسير، وقيل: المرفوعات، وهي التي رُفع خشبها بعضها على بعض، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض من حيوان فإنه هالك ﴿فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ ذو العظمة والكبرياء ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ مكرم أنبيائه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من ملك وإنس وجن. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾. قال المفسرون: من شأنه أن يحيي ويميت، ويرزق، ويعز قومًا، ويذل قومًا، ويشفي مريضًا، ويفك عانيًا، ويفرج مكروبًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبًا إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء.

عن ابن عباس قال: إنَّ ممَّا خلق الله عزَّ وجلَّ لوحًا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابُه نور، ينظر الله عزَّ وجلَّ فيه كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة، يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعزّ ويذل ويفعل الله ما يشاء، فذلك قوله: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ».

قال الحسين بن الفضل: هو سَوْق المقادير إلى المواقيت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ وليس المراد منه الفراغ عن شغل؛ لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، ولكنه وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة، كقول القائل: لأتفرغنَّ لك، وما به شغل.

وقال بعضهم: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم، فنحاسبكم وننجز لكم ما وعدناكم، فيتمَّ ذلك ويفرغ منه. ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: الجن والإنس. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ﴾ أي: تجوزوا وتخرجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من جوانبهما وأطرافهما ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ معناه: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض، فاهربوا واخرجوا منها، والمعنى: حيثما كنتم أدرككم الموت، كما قال جلَّ ذكره: «أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ» [النساء: ٧٨]، وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة: إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتُعْجِزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بملك، وقيل: بحجة، والسلطان: القوة التي يتسلط بها على الأمر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ وفي الخبر: يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار، ثم ينادون: «يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ...» الآية، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وهو اللهيب الذي لا دخان فيه، هذا قول أكثر المفسرين، ﴿وَنُحَاسٌ﴾. «النحاس»: الدخان. قال مجاهد وقتادة: النحاس هو الصُّفْر المذاب يصب على رؤوسهم. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا تمتنعان من الله، ولا يكون لكم ناصر منه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ

﴿بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ﴾ انفرجت ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ فصارت أبوابًا لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة والصفرة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ قال الحسن وقتادة: لا يُسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم؛ لأن الله عزَّ وجلَّ علمها منهم، وكتبت الملائكة عليهم، وقيل: لا تسأل الملائكة المجرمين؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وهو سواد الوجوه وزرقة العيون، كما قال جلَّ ذِكْرُه: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» [آل عمران: ١٠٦] ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ويُلقون في النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم يقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ المشركون ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ قد انتهى حرُّه. والمعنى: أنهم يسعون بين الجحيم والحميم، فإذا استغاثوا من حرِّ النار جعل عذابهم الحميم الآني الذي صار كالمهل، وهو قوله: «وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ» [الكهف: ٢٩].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ وكل ما ذكر الله تعالى من قوله: «كل مَن عليها فان» إلى هاهنا مواعظ وزواجر وتخويف، وكل ذلك نعمة من الله تعالى؛ لأنها تزجر عن المعاصي، ولذلك ختم كل آية بقوله: «فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾»، ثم ذكر ما أعده لمن اتقاه وخافه فقال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية والشهوة، ﴿جَنَّتَانِ﴾ قال مقاتل: جنة عدن وجنة نعيم.

قال الضحاك: هذا لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عمل من خير أفضى به إلى الله، لا يحب أن يطلع عليه أحد.

وعن هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(١).

وعن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»، فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ الثالثة: «ولمن خاف

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/١٤٦-١٤٧)، قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلاَّ من حديث أبي النضر). وصححه الحاكم: (٤/٣٠٧-٣٠٨) ووافقه الذهبي.

مقام ربه جنتان»، فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء»[١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ ثم وصف الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ أغصان، واحدها فَنَن، وهو الغصن المستقيم طولاً، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ قال ابن عباس: بالكرامة والزيادة على أهل الجنة، قال الحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما: التسنيم، والأخرى: السلسبيل، وقال عطية: إحداهما: من ماء غير آسن، والأخرى: من خمر لذة للشاربين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ صنفان ونوعان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ جمع فراش ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة، وهي التي تحت الظِّهارة، وقال الزَّجَّاج: وهي مما يلي الأرض ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ﴾ وهو ما غلظ من الديباج، قال ابن مسعود وأبو هريرة: هذه البطائن، فما ظنكم بالظواهر؟.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى: ما يجتنى من الثمار، يريد: ثمرها دانٍ قريب يناله القائم والقاعد والنائم، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ غاضَّات الأعين، قصرن طرفهن على أزواجهنَّ لا ينظرن إلى غيرهم ولا يردن غيرهم، قال ابن زيد: تقول لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يجامعهن، وأصله من الطمث: وهو الدم، ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي: (٢/ ٣٧٤-٣٧٥)، والإمام أحمد: (٢/ ٣٥٧)، وابن أبي عاصم في «السنة»: (٢/ ٤٧٢)، والطبري: (٢٧/ ١٤٦)، وابن خزيمة في التوحيد: ص٢٢٣.

قال مقاتل في قوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ» لأنهنَّ خلقن في الجنة، فعلى قوله: هؤلاء من حور الجنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ قال قتادة: صفاء الياقوت في بياض المرجان.

ورُوينا عن أبي سعيد في صفة أهل الجنة عن رسول الله ﷺ: «لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقهن دون لحمهما ودمائهما وجلدهما»(١).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثرهم كأشد كوكبٍ إضاءةً، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرىءٍ منهم زوجتان، كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحُسْن، يسبحون الله بُكرة وعشيًّا، لا يسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة، ورشحهم المسك»(٢). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلاَّ أن يحسن إليه في الآخرة، وقال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلاَّ الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلاَّ الجنة؟

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ أي: من دون الجنتين الأُوليين جنتان أُخريان.

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاَّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(٣).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ ناعمتان سوداوان من ريهما وشدة خضرتهما.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي: (٧/ ٢٣٩. ٢٤٠)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والإمام أحمد: (٣/ ١٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٣١٨)، ومسلم برقم٢٨٣٤: (٤/ ٢١٧٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٢٣. ٦٢٤)، ومسلم برقم١٨٠: (١/ ١٦٣).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان، «والنضخ»: فوران الماء من العين، قال ابن عباس: تنضخان بالخير والبركة على أهل الجنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ قال بعضُهم: ليس النخل والرمان من الفاكهة، والعامة على أنها من الفاكهة.

عن ابن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وورقها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة فيها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال أو الدلاء أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزُّبْد ليس له عجم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ ﴿٧٠﴾﴾ يعني: في الجنات الأربع ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ روى الحسن عن أبيه عن أُم سلمة قالت: قلت لرسول الله ﷺ: أخبرني عن قوله: «خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ» قال: «خيرات الأخلاق، حسان الوجوه».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ ﴿٧٢﴾﴾ محبوسات مستورات في الحجال، يقال: امرأة مقصورة وقصيرة إذا كانت مخدرة مستورة لا تخرج، ورُوينا عن النبي ﷺ قال: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض، ولملأت ما بينهما ريحًا، ولَنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[(١)]. ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ جمع خيمة، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن»[(٢)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴿٧٦﴾﴾ قال سعيد بن جبير: «الرفرف»: رياض الجنة، «خضر»: مخضبة.

﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ هي الزرابي والطنافس والثخان، وهي جَمْعٌ، واحدتها عبقرية. قال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب: عبقريٌّ، ومنه قول النبي ﷺ في عمر ـ رضي الله عنه ـ: «فلم أر عبقريًا يفري فريه»[(٣)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من الصلاة لم يقعد إلاَّ مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[(٤)].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (٦/ ١٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٢٤)، ومسلم برقم٢٨٣٨: (٤/ ٢١٨٢).

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (٧/ ٤١)، ومسلم برقم٢٣٩٣: (٤/ ١٨٦٢).

(٤) أخرجه مسلم برقم٥٩٢: (١/ ٤١٤).

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ۞ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾

﴿۞ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ إذا قامت القيامة. ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ لمجيئها ﴿كَاذِبَةٌ﴾ كذب. ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ تخفض أقوامًا إلى النار وترفع آخرين إلى الجنة، وقال عطاء عن ابن عباس: تخفض أقوامًا كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع أقوامًا كانوا في الدنيا مستضعفين.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ حركت وزلزلت زلزالاً. ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ فُتَّتْ فَتًّا، فصارت كالدقيق المبسوس: وهو المبلول. ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾﴾ غبارًا متفرقًا كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا ﴿ثَلَاثَةً﴾ ثم فسرها فقال:

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ثم عجَّب نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾ يعني: أصحاب الشمال، وهم الذين يُؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ قال ابن عباس: السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة، وقال عكرمة: السابقون إلى الإسلام. ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ من الله ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: من الأُمم الماضية من لدن آدم عليه السلام إلى زمان نبينا ﷺ، والثلة: جماعة غير محصورة العدد. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ يعني: من هذه الأمة، قال الزجاج: الذين عاينوا جميع النبيين من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - وصدقوهم، أكثر مما عاين النبي ﷺ. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ منسوجة كما توضن حلق الدرع فيدخل بعضها في بعض. ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا

سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ غلمان ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون. ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ فالأكواب: جمع كوب، وهي الأقداح المستديرة الأفواه، لا آذان لها ولا عُرَى، والأباريق وهي: ذوات الخراطيم، سميت أباريق؛ لبريق لونها من الصفاء ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ خمر جارية ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ لا تصدع رؤوسهم من شربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يسكرون. ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ يختارون ما يشتهون، يقال: «تخيرت الشيء» إذا أخذت خيره. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ قال ابن عباس: يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، ويقال: إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير فيذهب. ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ بيض ضِخَام العيون. ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولاً: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: يسمعون قيلاً: سلامًا سلامًا، قال عطاء: يحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، ثم ذكر أصحاب اليمين وعجَّب من شأنهم فقال جل ذكره:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا شوك فيه، كأنه خُضِد شوكه، أي: قُطع ونُزع منه، هو الذي لا أذى فيه، قال: وليس شيء من ثمر الجنة في غلف كما يكون في الدنيا من الباقلاء وغيره بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ أي: موز، واحدتها طلحة، عن أكثر المفسرين، وقال الحسن: ليس هو بالموز، ولكنه شجر له ظل بارد طيب. «المنضود»: المتراكم الذي قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره، ليست له سوق بارزة. ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ دائم لا تنسخه الشمس، والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع: ممدود.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[1]. ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ مصبوب يجري دائمًا في غير أخدود لا ينقطع. ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جنيت، ولا تمتنع من أحدٍ أراد أخذها.

وجاء في الحديث: «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلاَّ أبدل الله مكانها ضعفين».

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣١٩ - ٣٢٠)، ومسلم برقم٢٨٢٦: (٤/ ٢١٧٥).

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال علي: «وفرش مرفوعة» على الأسرة، وقال جماعة من المفسرين: بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية.

إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ خلقناهنَّ خلقًا جديدًا، قال ابن عباس: يعني: الآدميات العجز الشمط، يقول: خلقناهنَّ بعد الهرم خلقًا آخر. ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ عذارى.

عن الحسن قال: أتت عجوزٌ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يُدخلني الجنة، فقال: «يا أُم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز»، قال: فولَّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: «إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾»[(١)].

عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: «إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾»، قال: «عجائز، كنَّ في الدنيا عمشًا رمصًا، فجعلهنَّ أبكارًا»[(٢)]. ﴿عُرُبًا﴾ أي: عواشق متحببات إلى أزواجهنَّ. ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السنِّ، على سنّ واحد.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، على خَلق آدم طوله ستون ذراعًا في سبعة أذرع»[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يريد: أنشأناهنَّ لأصحاب اليمين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ من المؤمنين الذين كانوا قبل هذه الأمة ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ من مؤمني هذه الأُمة.

عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: «عُرضت عليَّ الأُمم فجعل يمر النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأُفق فرجوت أن يكونوا أُمتي، فقيل: هذا موسى في قومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأُفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأُفق، فقيل: هؤلاء أُمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب»، فتفرق الناس ولم يبين لهم، فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أمَّا نحن فولدنا في الشرك، ولكنَّا آمنَّا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: «هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكَّاشة بن محصن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقام آخر

---

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية»: مرسلاً ص(١٤١).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ١٨٣)، وقال: (هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلاَّ من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث)، والطبري: (٢٧/ ١٨٥)، وعزاه ابن كثير: (٤/ ٢٩٢) أيضًا لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (٢/ ٢٩٥، ٣٤٣، ٤١٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: برقم٨٠٧٢ .

فقال: أمنهم أنا؟ قال ﷺ: «قد سبقك بها عكاشة»[(١)].

عن عبد الله قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في قبة فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة»؟ قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة»؟ قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمدٍ بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلاَّ نفس مسلمة، وما أنتم من أهل الشرك إلاَّ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»[(٢)].

وذهب جماعة إلى أن الثُّلَّتين جميعًا من هذه الأمة، وهو قول أبي العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك، قالوا: «ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾» من سابقي هذه الأمة، «وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾» من آخر هذه الأمة في آخر الزمان.

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ﴾ ريح حارة ﴿وَحَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ دخان شديد السواد، تقول العرب: أسود يحموم إذا كان شديد السواد. ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ قال قتادة: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعَّمين. ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ يقيمون ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على الذنب الكبير وهو الشرك، وقال الشعبي: «ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ»: اليمين الغموس، ومعنى هذا: أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون، وكذبوا في ذلك. ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ و«الهيم» الإبل العطاش، قال عكرمة وقتادة: الهيام: داء يصيب الإبل لا تَرْوَى معه، ولا تزال تشرب حتى تهلك.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠/ ١٥٥)، ومسلم برقم٢٢٠: (١٠/ ١٥٥).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٢١: (١/ ٢٠٠ - ٢٠١).

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ يعني: ما ذكر من الزقوم والحميم، أي: رزقهم وغذاؤهم وما أُعدَّ لهم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم يجازون بأعمالهم، ثم احتج عليهم في البعث بقوله:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ قال مقاتل: خلقناكم ولم تكونوا شيئًا، وأنتم تعلمون ذلك ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاَّ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعث.

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ تصبون في الأرحام من النُّطف. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ يعني: أأنتم تخلقون ما تمنون بشرًا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴿٦٠﴾ بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قال مقاتل: فمنكم مَن يبلغ الهرم، ومنكم مَن يموت صبيًّا وشابًّا. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين، عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ يعني: نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ نخلقكم ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الخلقة الأُولى، ولم تكونوا شيئًا ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أني قادر على إعادتكم، كما قدرت على إبدائكم.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يعني: تثيرون من الأرض، وتلقون فيها من البذر. ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون. ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ قال عطاء: تبنًا لا قمح فيه، وقيل: هشيمًا لا ينتفع به في مطعم وغذاء ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وأصلُه: فظللتم، حذفت إحدى اللامين تخفيفًا ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون بما نزل بكم في زرعكم. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ومجاز الآية: فظلتم تفكهون وتقولون: إنا لمغرمون، وقال ابن عباس وقتادة: معذبون، والغرام العذاب، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ محدودون ممنوعون، أي: حُرمنا ما كنَّا نطلبه من الرَّيع في الزرع.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ

جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴿٧٠﴾﴾ قال ابن عباس: شديد الملوحة، قال الحسن: مُرًّا ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ تقدحون وتستخرجون من زَنْدكم. ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي تقدح منها النار، وهي المرخ والعفار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴿٧٣﴾﴾ يعني: نار الدنيا، تذكرة للنار الكبرى إذا رآها الرائي ذكر جهنم.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا»[1]. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ بُلْغة ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ المسافرين، و«المقوي»: النازل في الأرض. يعني: للمستمتعين بها من الناس أجمعين: المسافرين والحاضرين. ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ قال أكثر المفسرين: معناه: أقسم، و«لا» صلة، وقيل: قوله «فلا» رد لما قاله الكفار في القرآن: إنه سحر وشعر وكهانة، معناه: ليس الأمر كما يقولون، ثم استأنف القسم فقال: «أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ»، قال ابن عباس: أراد نجوم القرآن، فإنه كان ينزل على رسول الله ﷺ متفرقًا نجومًا، وقال جماعة من المفسرين: أراد مغارب النجوم ومساقطها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ﴾ يعني: هذا الكتاب، وهو موضع القسم ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ عزيز مكرم؛ لأنه كلام الله. ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ مصون عند الله في اللوح المحفوظ، محفوظ من الشياطين.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: ذلك الكتاب المكنون ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة.

وقال قوم: معناه: لا يمسه إلاَّ المطهرون من الأحداث والجنابات، وظاهر الآية نفيٌ ومعناها نهي، قالوا: لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا المحدث حمل المصحف ولا مسُّه.

عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن لا يمس القرآن إلاَّ طاهر[2].

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٣٠)، ومسلم برقم٢٨٤٣: (٤/ ٢١٨٤).

(٢) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ١٩٩)، وقال ابن عبد البر: (لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، وقد روي مسندًا من وجه صالح، ورواه أبو داود في «المراسيل»: ص١٣١ .

﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: القرآن منزلٌ من عند رب العالمين.

﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنتُم﴾ يا أهل مكة ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: مكذبون، وقال مقاتل بن حيان: كافرون. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ حظَّكم ونصيبكم من القرآن ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال الحسن في هذه الآية: خسر عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلاَّ التكذيب به.

وقال جماعة من المفسرين: معناه: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. عن زيد بن خالد الجهني قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب»[1].

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلاَّ أصبح فريقٌ من الناس بها كافرين، ينزل الله تعالى الغيث فيقولون: مطرنا بكوكب كذا وكذا»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاَّ ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أي: بلغت النفس الحلقوم عند الموت. ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يريد: وأنتم يا أهل الميت تنظرون إليه متى تخرج نفسه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والرؤية، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ الذين حضروه. ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاَّ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مملوكين، وقال أكثرهم: محاسبين ومجزيين ﴿تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم، فأجاب عن قوله: «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»، وعن قوله: «فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾» بجواب واحد، معناه: إن كان الأمر كما تقولون ـ أنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي ـ فهلاَّ تردون نفس مَن يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عزَّ وجلَّ فآمنوا به، ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وهم السابقون ﴿فَرَوْحٌ﴾ معناه: تخرج روحه في الريحان، وقال قتادة: الروح: الرحمة، أي: له الرحمة. ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ استراحة. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ قال أبو بكر الوراق: «الرَّوح» النجاة من النار، و«الريحان» دخول دار القرار.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي: سلامة لك يا محمد منهم، فلا تهتم لهم، فإنهم سلموا من عذاب الله أو أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى، وهم أصحاب المشأمة ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٣٣)، ومسلم برقم٧١: (١/ ٨٣ - ٨٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم٧٢: (١/ ٨٤).

حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ فالذي يُعَدُّ لهم حميم جهنم ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ وإدخال نار عظيمة.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني: ما ذكر من قصة المحتضرين ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الحق اليقين، أضافه إلى نفسه. ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ قيل: فصلِّ بذكر ربك وأمْرِه، وقيل: «الباء» زائدة، أي: فسبح اسم ربك العظيم.

عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: «فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾»، قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: «سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾»، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[(١)].

وعن حذيفة: «أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى، وما أتى على آية رحمة إلاَّ وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلاَّ وقف وتعوذ»[(٢)].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[(٣)].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»[(٤)].

سورة الحديد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم٨٨٧، وصححه ابن حبان: ص١٣٥ - ١٣٦، وصححه الحاكم: (١/ ٢٢٥) و(٢/ ٤٧٧) ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم مطولاً برقم٧٧٢: (١/ ٥٣٦ - ٥٣٧).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٦٦)، ومسلم برقم٢٦٩٤: (٤/ ٢٠٧٢).

(٤) أخرجه الترمذي: (٩/ ٤٣٣)، وقال: (هذا حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلاَّ من حديث أبي الزبير عن جابر)، وصححه ابن حبان برقم٢٣٣٥، وصححه الحاكم: (١/ ٥٠١ - ٥٠٢) ووافقه الذهبي.

وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ ﴿٣﴾﴾ يعني: هو «الأول» قبل كلِّ شيءٍ بلا ابتداء، كان هو ولم يكن شيء موجودًا، و«الآخر» بعد فناء كلِّ شيءٍ بلا انتهاء، تفنى الأشياء ويبقى هو، و«الظاهر» الغالب العالي على كلِّ شيءٍ، و«الباطن» العالم بكل شيءٍ، هذا معنى قول ابن عباس.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء، فالق الحبِّ والنَّوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شرِّ كلِّ ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين وأغنني من الفقر»، وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ[(١)].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يخاطب كفار مكة ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ مملَّكين فيه، يعني: المال الذي كان بيد غيرهم فأهلكهم وأعطاه قريشًا، فكانوا في ذلك المال خلفاء عمن مضوا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: أخذ الله ميثاقكم

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٧١٣: (٤/ ٢٠٨٤).

حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه. وقيل: أخذ ميثاقكم بإقامة الحجج والدلائل التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يومًا، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله بالقرآن ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة من الظلمات إلى النور، أي: من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: أي شيءٍ لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله وأنتم ميتون تاركون أموالكم، ثم بيَّن فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهاد فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ يعني: فتح مكة، في قول أكثر المفسرين، وقال الشعبي: هو صلح الحديبية ﴿وَقَاتَلَ﴾ يقول: لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع من أنفق وقاتل بعده ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ قيل أن هذه الآية نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فإنه أوَّل من أسلم، وأوَّل من أنفق مالَه في سبيل الله.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: كِلا الفريقين وعدهم الله الجنة، قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴿١٢﴾﴾ يعني: على الصراط ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ يعني: عن أيمانهم، قال بعضهم: أراد: جميع جوانبهم، فعبَّر بالبعض عن الكل، وذلك دليلهم إلى الجنة. وقال قتادة: ذُكر لنا أن النبي ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نورُه من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه»(١).

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نورًا مَنْ نوره أعلى إبهامه فيطفأ مرة ويَقِدُ مرة(٢).

وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾

---

(١) أخرجه عبد الرزاق: (٢/ ٢٧٥)، والطبري: (٢٧/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٧/ ٢٢٣)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٧٨).

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نستضيء من نوركم، وذلك أن الله تعالى يعطي المؤمنين نورًا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط.

﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يقول لهم المؤمنون، وقال قتادة: تقول لهم الملائكة: ارجعوا وراءكم من حيث جئتم ﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ فاطلبوا هناك لأنفسكم نورًا فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئًا فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين، وهو قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ أي: سور، وهو حائط بين الجنة والنار ﴿لَّهُۥ﴾ أي: لذلك السور ﴿بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ أي: خارج ذلك السور ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ أي: مِن قِبَل ذلك الظاهر ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ وهو النار.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ رُوي عن عبد الله بن عمرو قال: إن السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن: «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ»: هو سور بيت المقدس الشرقي، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب: وادي جهنم.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، نصلي ونصوم؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالإيمان والتوبة، قال مقاتل: وتربصتم بمحمدٍ الموت، وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في نبوته، وفيما أوعدكم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الأباطيل، وما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان، قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار.

فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ بدل وعوض بأن تفدُوا أنفسكم من العذاب ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: المشركين ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ صاحبكم وأولى بكم؛ لِما أسلفتم من الذنوب ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عن التوراة،

فإن فيها العجائب، فنزلت: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» [يوسف: ٣]، فأخبرهم أن القرآن أحسن قصصًا من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله، ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك، فنزل: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا» [الزمر: ٢٣]، فكفوا عن سؤاله ما شاء الله، ثم عادوا فقالوا: حدثنا عن التوراة، فإن فيها العجائب، فنزلت هذه الآية.

فعلى هذا التأويل، قوله: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ»، يعني: في العلانية وباللسان.

وقال الآخرون: نزلت في المؤمنين، قال عبد الله بن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ»، إلا أربع سنين.

«يأن» أي: يَحِنْ للذين آمنوا أن تخشع: تَرِقَّ وتلين وتخضع قلوبُهم لذكر الله ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو القرآن ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ الزمان بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، والمعنى: أن الله عزَّ وجلَّ ينهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر.

رُوي أن أبا موسى الأشعري بعث إلى قرَّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال لهم: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴿١٨﴾﴾ أي: المتصدقين والمتصدقات أُدغمت التاء في الصاد ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله عزَّ وجلَّ ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ ذلك القرض ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ثواب حسن: وهو الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾ والصدِّيق: الكثير الصدق، قال مجاهد: كلُّ مَن آمن بالله ورسوله فهو صدِّيق، وتلا هذه الآية. ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأراد بالشهداء: المؤمنين المخلصين. وقال مجاهد: كل مؤمن صديق شهيد، وتلا هذه الآية. وقيل: هم الذين استشهدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ بما عملوا من العمل الصالح ﴿وَنُورُهُمْ ۖ﴾ على الصراط ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أن الحياة الدنيا، ﴿لَعِبٌ﴾ باطل لا حاصل له ﴿وَلَهْوٌ﴾ فرح ثم ينقضي ﴿وَزِينَةٌ﴾ منظر تتزينون به ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ يَفْخر به بعضُكم على بعض ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ﴾ أي: مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، ثم ضرب لها مثلاً فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: الزراع ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ ما نبت من ذلك الغيث ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ﴾ يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ قال مقاتل: لأعداء الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ﴾ لأوليائه وأهل طاعته.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه.

﴿سَابِقُوٓا۟﴾ سارعوا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لو وُصل بعضها ببعض ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فبيَّن أن أحدًا لا يدخل الجنة إلا بفضل الله.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: الأمراض وفقد الأولاد ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ من قبل أن نخلق الأرض والأنفس، قال ابن عباس: من قبل أن نبرأ المصيبة، وقال أبو العالية: يعني: النَّسَمَة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي: إثبات ذلك على كثرته هيِّن على الله عزَّ وجلَّ. ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾ تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من الدنيا ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي: أعطاكم، قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ متكبر بما أُوتي من الدنيا ﴿فَخُورٍ﴾ يفخر به على الناس. ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ قيل: هو في محل الخفض على نعت المختال، وقيل: هو رفع بالابتداء وخبره فيما بعده ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات والحجج ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ ليتعاملوا بينهم بالعدل. ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾: أنشأنا وأحدثنا، أي: أخرج لهم الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. وقال قطرب: هذا من النُّزُل، كما يقال: أنزل الأمير على فلان نُزُلاً حسنًا، فمعنى الآية: أنه جعل ذلك نزلاً لهم، ومثله قوله: «وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ» [الزمر: ٦].

﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ قوة شديدة، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ مما ينتفعون به في مصالحهم، إذْ هو آلة لكل صنعة ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحق والعدل؛ وليعلمَ اللهُ وليرى اللهُ ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: دينه ﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ أي: قام بنصرة الدين ولم يرَ الله ولا الآخرة، وإنما يحمد ويثاب من أطاع الله بالغيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ قوي في أمره، عزيز في ملكه.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴿٢٧﴾﴾ على دينه ﴿رَأۡفَةٗ﴾ وهي أشد الرقة ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ كانوا متوادين بعضهم لبعض، كما قال الله تعالى في وصف أصحاب النبي ﷺ: «رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ» [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ أي: جاؤوا بها من قِبَل أنفسهم ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا﴾ أي: ما فرضناها ﴿عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يعني: ولكنهم

ابتغوا رضوان الله بتلك الرهبانية، وتلك الرهبانيةُ ما حملوا أنفسهم من المشاقّ في الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الجبال ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى، فتهودوا وتنصروا، ودخلوا في دين ملوكهم، وتركوا الترهُّب، وأقام منهم أُناس على دين عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى أدركوا محمدًا ﷺ فآمنوا به، وذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين ثبتوا عليها، وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام.

روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا ابن أُم عبد، هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بالمعاصي، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهُزِم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو له فقالوا: تعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام ـ يعنون: محمدًا ﷺ ـ فتفرقوا في غِيرانِ الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر، ثم تلا هذه الآية: «وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا...» الآية، «فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ» يعني: من ثبتوا عليها «أَجْرَهُمْ»، ثم قال النبي ﷺ: «يا ابن أُم عبد، أتدري ما رهبانية أُمتي»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع».

ورُوي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن لكل أُمة رهبانية، ورهبانية هذه الأُمة الجهاد في سبيل الله»[1].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى، يقول: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني: يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والإنجيل، وبمحمد ﷺ والقرآن.

وروينا عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «المسند» عن أنس: (٤/ ١٨٤)، وابن أبي شيبة: (٥/ ٢٩٦)، وأخرجه الإمام أحمد: (٣/ ٢٦٦) بلفظ: «لكل نبي رهبانية ...».

جارية فأدَّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده»(١).

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: يعني: على الصراط، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال قتادة: حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم، فأنزل الله تعالى: «لئلا يعلم أهل الكتاب».

قال مجاهد: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منَّا نبي يقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليعلم، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ﴾ أي: ليعلم الذين لم يؤمنوا أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم في فضل الله ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، ألاَ لكم الأجر مرتين، فغضب اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء؟ قال الله تعالى: «هل ظلمتكم من حقكم شيئًا»؟ قالوا: لا، قال: «فإنه فضلي أعطيه من شئت»(٢).

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملناه باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر قومًا آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا، فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٩٠)، ومسلم برقم١٥٤: (١/ ١٣٤ - ١٣٥).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٤٩٥ - ٤٩٦).
(٣) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٨).

سورة المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية، نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، وكانت حسنة الجسم، وكان به لمم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليَّ كظهر أُمِّي، ثم ندم على ما قال، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلاَّ قد حرمت عليَّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق، وأتت رسول الله ﷺ ـ وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه ـ فقالت: يا رسول الله، إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإيَّاه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: «حرمتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب، ما ذكر طلاقًا وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «حرمتِ عليه»، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلاَّ قد حرمت عليه، ولم أومر في شأنك بشيء»، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حرمتِ عليه» هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي، وإن لي صِبْيَةً إن ضَممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيِّك، وكان هذا أولَ ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبي الله، فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ ـ وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السبات ـ فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك، فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ: «قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ...» الآيات[(١)].

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليَّ بعضه إذْ أنزل الله: «قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ...» الآيات[(٢)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير»: (٢/ ٢٧٧)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٨١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند»: ص٤٣٨، والنسائي: (٦/ ١٨٦)، والحاكم: (٢/ ٤٨١). وأخرجه الإمام أحمد: (٦/ ٤٦) بلفظ: «الحمد لله الذي ...»، والبخاري تعليقًا في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: (١٣/ ٣٧٢).

ومعنى قوله: ﴿قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ تخاصمك وتحاورك وتراجعك في زوجها ﴿فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ مراجعتكما الكلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ سميع لما تناجيه وتتضرع إليه، بصير بمن يشكو إليه، ثم ذم الظهار فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي: ما اللواتي يجعلونهنَّ من زوجاتهم كالأمهات بأُمهات، والمعنى: ليس هنَّ بأُمهاتهم ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: ما أُمهاتهم ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لا يعرف في شرع ﴿وَزُورًا﴾ كذبًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عفا عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم.

وصورة الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أُمي، أو أنت مني أو معي أو عندي كظهر أُمي.

وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ثم حُكْمُ الظهارِ: أنه يحرم على الزوج وطؤها بعد الظهار ما لم يكفِّر، والكفارة تجب بالعَوْدِ بعد الظهار؛ لقوله تعالى: «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ».

قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ والمراد بـ «التَّماس»: المجامعة، فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر منها ما لم يكفِّر، «فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا».

وكفارة الظهار مرتبة، يجب عليه عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن أفطر يومًا متعمدًا أو نسي النية يجب عليه استئناف الشهرين، فإن عجز عن الصوم يجب عليه أن يطعم ستين مسكينًا. ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ تؤمرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني: الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يعني: المظاهر إذا لم يستطع الصوم لمرضٍ أو كِبَرٍ أو فرط شهوة لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستين مسكينًا.

عن عطاء بن يسار أن خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، فظاهر منها وكان به لمم، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أوسًا ظاهر مني، وذكرت أن به لممًا فقالت: والذي بعثك بالحق ما جئتك إلاَّ رحمة له، إنَّ له فيَّ منافع، فأنزل الله القرآن فيهما، فقال رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فليعتِقْ رقبة»، قالت: والذي بعثك بالحق ما عنده رقبة ولا ثمنها، قال: «مريه فليصم

شهرين متتابعين»، فقالت: والذي بعثك بالحق، لو كلفته ثلاثة أيام ما استطاع، قال: «مريه فليطعم ستين مسكينًا»، قالت: والذي بعثك بالحق ما يقدر عليه، قال: «مريه فليذهب إلى فلان ابن فلان فقد أخبرني أن عنده شطر تمرٍ صدقةً، فلْيأخذه صدقة عليه ثم لْيتصدق به على ستين مسكينًا»(١).

وروى سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر قال: كنت امرأ أصيب من النساء ما لم يصب غيري، فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئًا فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان، فبينما هي تحدثني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلم ألبث أن وقعت عليها، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «أنتَ بذاك»، فقلت: أنا بذاك ـ قاله ثلاثًا ـ قلت: أنا بذاك وها أنا ذَا فأمضِ فيَّ حكم الله، فإني صابر لذلك، قال: «فأَعْتِقْ رقبةً»، فضربتُ صفحةَ عنقي بيدي، فقلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أملك غيرها، قال: «فصم شهرين متتابعين»، فقلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلاَّ من الصيام؟ قال: «فأطعم ستين مسكينًا»، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشين، ما لنا عشاء، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقًا ستين مسكينًا، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك»، قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، قال: فدفعوها إليه(٢).

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لتصدقوا ما أتى به الرسول ﷺ من الله عزَّ وجلَّ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يعني: ما وصف من الكفارات في الظهار ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لمن جحده وكذب به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن»: (٧/ ٣٨٩)، وله شاهد عند الإمام أحمد: (٦/ ٤١٠).

(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ١٣٧ - ١٣٩)، والترمذي: (٩/ ١٨٨ - ١٩١)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه برقم٢٠٦٢، والإمام أحمد: (٥/ ٤٣٦)، وصححه الحاكم: (٢/ ٢٠٣) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما ﴿كُبِتُوا۟﴾ أُذِلوا وأُخزوا وأُهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ حفظ الله أعمالهم ﴿وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: من سرار ثلاثة، يعني: من المسارَّة، أي: ما من شيء يناجي به الرجل صاحبه ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بالعلم، وقيل: معناه: ما يكون من متناجين ثلاثة يسارُّ بعضُهم بعضًا إلاَّ هو رابعهم بالعلم يعلم نجواهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسؤوهم، فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم إلاَّ وقد بلغهم عن إخواننا الذين خرجوا في السرايا قَتْلٌ أو موت أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك عليهم وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: المناجاة ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ ﴿وَيَقُولُونَ﴾: السام عليك، و«السام»: الموت، وهم يوهمونه أنهم يقولون: السلام عليك، وكان النبي ﷺ يرد عليهم فيقول: عليكم، فإذا خرجوا قالوا: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ يريدون: لو كان نبيًا حقًّا لعذبنا الله بما نقول، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

عن عائشة: أن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا: السام عليك، قال: «وعليكم»، فقالت عائشة: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»، قالت: أوَ لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أوَ لم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ١٩٩ - ٢٠٠).

ثم إن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: كفعل المنافقين واليهود. قال عطاء: يريد: الذين آمنوا بزعمهم، قال لهم: لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: من تزيين الشيطان ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إنما يزين لهم ذلك ليحزن المؤمنين ﴿وَلَيۡسَ﴾ التناجي ﴿بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾ وقيل: ليس الشيطان بضارهم شيئًا ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلاَّ بإذنه، فإن ذلك يحزنه»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾ الآية، قال مقاتل بن حيان: كان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ منهم يومًا وقد سُبِقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ وسلموا عليه، فردَّ عليهم، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله: «قم يا فلان وأنت يا فلان»، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على مَن أُقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم، فأنزل الله هذه الآية.

وقال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض.

وقيل: كان ذلك يوم الجمعة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ أي: توسَّعوا في المجلس، ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ أوْسِعُوا، ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ يوسع الله لكم الجنة، والمجالس فيها.

عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقيمنَّ أحدُكم الرجل من

(١) أخرجه مسلم برقم٢١٨٤: (٤/١٧١٨).

مجلسه ثم يخلفه فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»(١).

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا يقيمنَّ أحدُكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا»(٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي: ارتفعوا، قيل: ارتفعوا عن مواضعكم حتى تُوسِّعُوا لإخوانكم. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ بطاعتهم لرسوله ﷺ وقيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم، ﴿دَرَجَٰتٍۚ﴾ فأخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن رسوله ﷺ مصيب فيما أمر، وأن أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا، وأن النفر من أهل بدر مستحقون لِما عُوملوا من الإكرام. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال: يا أبا الدرداء، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: ما كانت لك حاجة غيره؟ قال: لا، قال: ولا جئتَ لتجارة؟ قال: لا، قال: ولا جئتَ إلاَّ رغبة فيه؟ قال: نعم، قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًى لطالب العلم، وإن السموات والأرض والحوت في الماء لتدعو له، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمَن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»(٣).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ﴾ أمام مناجاتكم، قال ابن عباس: وذلك أن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف على نبيه ويثبطهم ويردعهم عن ذلك، فأمرهم أن يقدموا صدقةً على المناجاة مع الرسول ﷺ. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: تقديم الصدقة على المناجاة ﴿وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: الفقراء

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٦٢)، ومسلم برقم٢١٧٧: (٤/ ١٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢١٧٨: (٤/ ١٧١٥).

(٣) أخرجه أبو داود: (٥/ ٢٤٣)، والترمذي: (٧/ ٤٥٠ - ٤٥٣)، وابن ماجه برقم٢٢٣، والإمام أحمد: (٥/ ١٩٦).

الذين لا يجدون ما يتصدقون به معفو عنهم.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا﴾ قال ابن عباس: أبخلتم؟ والمعنى: أخفتم العيلة والفاقة إن قدَّمتم ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أُمرتم به ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ تجاوز عنكم، ولم يعاقبكم بترك الصدقة، وقيل: فإن لم تفعلوا تاب الله عليكم ونسخ الصدقة، قال مقاتل بن حيان: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ، وقال الكلبي: ما كانت إلاَّ ساعة من نهار ﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ نزلت في المنافقين تولَّوا اليهود وناصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم، وأراد بقوله: «غضب الله عليهم» اليهود ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يعني: المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاء، ولا من اليهود والكافرين.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حُجَره إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين، فقال النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟ فحلف بالله ما فعل، وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيات، فقال: «وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أنهم كَذَبَة.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ يستجنُّون

بها من القتل، ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ كاذبين ما كانوا مشركين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من أيمانهم الكاذبة ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

﴿اسْتَحْوَذَ﴾ غلب واستولى ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ الأسفلين، أي: هم في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة.

﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ قضى الله قضاءً ثابتًا ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قال الزجاج: غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية، أخبر أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين وأن مَن كان مؤمنًا لا يوالي من كفر، وإن كان من عشيرته.

قيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة.

وروى مقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال: «وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ»، يعني: أبا عبيدة بن الجراح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، «أَوْ أَبْنَاءَهُمْ»، يعني: أبا بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وقال: يا رسول الله، دعني أكن في الرحلة الأُولى، فقال له رسول الله ﷺ: «مَتِّعنا بنفسك يا أبا بكر»، «أَوْ إِخْوَانَهُمْ»، يعني: مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أُحد، «أَوْ عَشِيرَتَهُمْ»، يعني: عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعليًا وحمزة وعبيدة قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أثبت التصديق في قلوبهم، فهي موقنة مخلصة، وقيل: حكم لهم بالإيمان، فذكر القلوب؛ لأنها موضعه ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ قواهم بنصر منه، قال الحسن: سمى نصره إياهم روحًا؛ لأن أمرهم يحيا به، وقال السدي: يعني: بالإيمان، وقال الربيع: يعني: بالقرآن وحجته، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

سورة الحشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ قال المفسرون: نزلت هذه السورة في بني النضير، وذلك أن النبي ﷺ دخل المدينة فصالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه، ولا يقاتلوا معه، فقَبِل رسولُ الله ﷺ منهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله، إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية، فلما غزا أُحد وهُزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا من اليهود إلى مكة فأتوا قريشًا فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ، ودخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود المسجدَ الحرام، وأخذ بعضهم على بعض الميثاقَ بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، فأمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة ـ ذكرناه في سورة آل عمران.

وكان النبي ﷺ اطلع منهم على خيانة حين أتاهم في دية المسلمَين اللذين قتلهما عمرو بن أُمية الضمري في مُنْصَرَفِه من بئر معونة، فهمُّوا بطرح حجر عليه من فوق الحصن، فعصمه الله وأخبره بذلك ـ ذكرناه في سورة المائدة.

فلما قُتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها: «زهرة»، فلما سار إليهم النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد، واعية على أثر واعية على أثر باكية؟ قال: «نعم»، قالوا: ذرنا نبكي شجونًا ثم ائتَمِر أمرك، فقال النبي ﷺ: اخرجوا من المدينة، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك، فتنادوا بالحرب وآذنوا بالقتال، ودس المنافقون ـ عبدُ الله بن أُبي وأصحابُه ـ إليهم: أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم فلنخرجنَّ معكم، فدرِّبوا على الأزقة وحصِّنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه: أن اخرجْ في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منّا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك، فيستمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبرًا من اليهود، حتى إذا كانوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسِلوا إليه: كيف نفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيستمعوا

منك، فإن آمنوا بك آمنَّا كلنا بك وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة من أصحابه، وخرج ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك النبي ﷺ، فسارّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان الغد غَدَا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأبى عليهم إلاَّ أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبي ﷺ، فقبلوا ذلك، فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم إلاَّ الحلقة وهي السلاح، وعلى أن يخلّوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني: بني النضير ﴿مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ التي كانت بيثرب، قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني النضير بعد مرجع النبي ﷺ من أُحد، وفتح قريظة عند مرجعه من الأحزاب، وبينهما سنتان ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾.

قال ابن عباس: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية، فكان هذا أول حشر إلى الشام، قال لهم النبي ﷺ: «اخرجوا»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر، ثم يحشر الخلق يوم القيامة، إلى الشام».

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ﴾ من المدينة؛ لعزمتهم ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخيل كثيرة ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أَمْرُ الله وعذابه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ﴾ وهو أنه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنون ذلك ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ﴾ بقتل سيدهم كعب بن الأشرف. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لما

---

(١) أخرج بعضه أبو داود: (٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥).
وأخرجه مطولاً عبد الرزاق في «المصنف»: (٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠).

صالحهم على أن لهم ما أقلَّت الإبل كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون منها ما يستحسنونه فيحملونه على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها.

قال ابن زيد: كانوا يقلعون العُمُد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران، ويقلعون الخشب حتى الأوتاد؛ يخربونها يسكنها المؤمنون حسدًا منهم وبغضًا.

قال قتادة: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها، ويخربها اليهود من داخلها.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم في أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصنون فيها ويكسرون ما يليهم، ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾ فاتعظوا وانظروا فيما نزل بهم ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يا ذوي العقول والبصائر.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من الوطن ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ﴾ الذي لحقهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما نزل ببني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا: يا محمد، زعمت أنك تريد الصلاح! أفمِنَ الصلاح عقر الشجر وقطع النخيل؟ فهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم، وخشوا أن يكون ذلك فسادًا، واختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا، وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فأنزل الله هذه الآية بتصديق مَن نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم.

عن ابن عمر قال: حرَّق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع البُويرة، فنزلت[1]: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أخبر الله في هذه الآية أن ما قطعوه وما تركوه

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٢٩)، ومسلم برقم١٧٤٦: (٣/ ١٣٦٥ - ١٣٦٦).

فبإذن الله ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

واختلفوا في «اللِّينَةِ»، فقال قوم: النخل كلها لينة ما خلا العجوة.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: رده على رسوله، ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من يهود بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ أوضعتم ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجيفًا وهو سرعة السير، وأراد بالركاب: الإبل التي تحمل القوم، وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبيَّن الله تعالى في هذه الآية أنها فيء لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركابًا ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة ولم يلقوا حربًا، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فجعل أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلاَّ ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: من أموال كفار أهل القرى، قال ابن عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إن مال الفيء كان لرسول الله ﷺ في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ أي: لكي لا يكون الفيء دولة، «والدُّوْلة»: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يعني: بين الرؤساء والأقوياء، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي منها بعد المرباع ما شاء، فجعله الله لرسول ﷺ يقسمه فيما أمر به، ثم قال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ أعطاكم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ من الفيء والغنيمة ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ من الغلول وغيره ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه.

عن عبد الله قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أُم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه قد بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن مَن لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أمَا قرأتِ: «وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟» [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه[1].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ثم بيَّن من له الحق في الفيء فقال:

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٣٠)، ومسلم برقم٢١٢٥: (٣/ ١٦٧٨).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ رزقًا ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: خرجوا إلى دار الهجرة طلبًا لرضا الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ وهم الأنصار تبوؤا الدار: توطنوا الدار، أي: المدينة، اتخذوها دار الهجرة والإيمان ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أسلموا في ديارهم، وآثروا الإيمان، وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين. ونظم الآية: والذين تبوؤا الدار من قبلهم، أي: من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا؛ لأن الإيمان ليس بمكان تبوء. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ حزازة وغيظًا وحسدًا ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: مما أعطي المهاجرين دونهم من الفيء، وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط منها الأنصار، فطابت أنفس الأنصار بذلك ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يؤثرون على إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم:

عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستضافه، فبعث إلى نسائه: «هل عندكنَّ من شيء»؟ فقلن: ما معنا إلاَّ الماء، فقال رسول الله ﷺ: «من يضم أو يضيف هذا»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلاَّ قوت الصبيان، فقال: هيئ طعامك وأصبحي سراجك ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»[1].

عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[2].

---

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ١١٩)، ومسلم برقم٢٠٥٤: (٣/ ١٦٢٤).
(٢) أخرجه البخاري: (٥/ ٣٢٢).

وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة»، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ».

«والشح» في كلام العرب: البخل ومنع الفضل، وفرَّق العلماء بين الشح والبخل، رُوي أن رجلاً قال لعبد الله بن مسعود: إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال عبد الله: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله عزَّ وجلَّ في القرآن، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلمًا ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل.

وقال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك مَن كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[١].

عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبدٍ أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا»[٢].

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: التابعين، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، ثم ذكر أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان والمغفرة، فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ غشًا وحسدًا

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٥٧٨: (٤/ ١٩٩٦).

(٢) أخرجه النسائي: (٦/ ١٣ - ١٤)، والإمام أحمد: (٢/ ٢٥٦، ٣٤٢، ٤٤١)، والحاكم: (٢/ ٧٢).

وبغضًا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فكل من كان في قلبه غِلٌّ على أحدٍ من الصحابة ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية؛ لأن الله تعالى رتَّب المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين والأنصار والتابعين الموصوفين بما ذكر الله، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجًا من أقسام المؤمنين.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أُمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم، سمعت نبيّكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأُمة حتى يلعن آخرها أولها»(١).

وقال مالك بن مغول: قال عامر بن شراحيل الشعبي: يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: مَنْ خير أهل ملتكم؟ فقالت: أصحاب موسى عليه السلام، وسئلت النصارى: مَنْ خير أهل ملتكم؟ فقالوا: حواريّ عيسى عليه السلام، وسئلت الرافضة: مَنْ شر أهل ملتكم؟ فقال: أصحاب محمد ﷺ، أُمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا يثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجتهم، أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة(٢).

قال مالك بن أنس: من يبغض أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا: «مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ»، حتى أتى على هذه الآية: «لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ...» «وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ...» «وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ»، إلى قوله: «رَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أي: أظهروا خلاف ما أضمروا، يعني: عبد الله ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود من بني قريظة والنضير، جعل المنافقين إخوانهم في الدين؛ لأنهم كفار مثلهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا﴾ يسألنا خذلانكم وخلافكم ﴿أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فإنهم أخرجوا من ديارهم فلم يخرج المنافقون معهم، وقُوتلوا فلم ينصروهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: لو قدر وجود نصرهم، قال الزَّجَّاج: معناه: لو قصدوا نصر اليهود لولَّوا الأدبار منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ يعني: بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٥/ ١٢٥).

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (٨/ ١٤٦١ - ١٤٦٢).

﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشر المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الخوف منكم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ عظمة الله.

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: لا يبرزون لقتالكم، إنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى والجدران، وهو قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضهم فظٌّ على بعض، وعداوة بعضهم بعضًا شديدة، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة مختلفة، قال قتادة: أهل الباطل مختلفةٌ أهواؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم ﴿قَرِيبًا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يعني: القتل ببدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم، يعني: بني قينقاع، وقيل: مثل قريظة كمثل بني النضير، وكان بينهما سنتان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم ضرب مثلاً للمنافقين واليهود جميعًا في تخاذلهم فقال:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: مثل المنافقين في غرورهم بني النضير وخذلانهم كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول الله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ يعني: الشيطان وذلك الإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ أمر نبيَّه ﷺ بإجلاء بني النضير عن المدينة فدسَّ المنافقون إليهم، وقالوا: لا تجيبوا محمدًا إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلكم فإنا معكم، وإن أخرجكم خرجنا معكم، فأجابوهم فدربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين، حتى جاءهم النبي ﷺ فناصبوه الحرب يرجون نصر المنافقين، فخذلوهم وتبرؤوا منهم، فكان عاقبة الفريقين النار.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: ليوم القيامة،

أي: لينظر أحدُكم أي شيء قدم لنفسه: عملاً صالحًا ينجيه، أم سيئًا يوبقه؟ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تركوا أمر الله ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: حظوظ أنفسهم، حتى لم يقدموا لها خيرًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: لو جعل في الجبل تمييز وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صلابته ورزانته، حذرًا مِن أن لا يؤدي حقَّ الله عزَّ وجلَّ في تعظيم القرآن، والكافر يعرض عمَّا فيه من العبر كأن لم يسمعها، يصفه بقساوة القلب ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ «الغيب»: ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه، و«الشهادة»: ما شاهدوه وما علموه ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ الطاهرُ من كلِّ عيب، المنزَّه عمَّا لا يليق به ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي سلم من النقائص ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ قال ابن عباس: هو الذي أمن الناس من ظلمه، وأمن من آمن به من عذابه. ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الشهيد على عباده بأعمالهم. ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس: «الجبار» هو العظيم، وجبروت الله عظمته، وهو على هذا القول صفة ذات الله.

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ الذي تكبر عن كل سوء، وقيل: المتعظم عما لا يليق به، وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع، وقيل: ذو الكبرياء، وهو الملك ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ المقدِّر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره، ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ المنشيء للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض، ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

سورة الممتحنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية.

عن عبد الله بن أبي رافع قال: سمعت عليًّا ـ رضي الله عنه ـ يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لتلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: يا حاطب، ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقًا في قريش ـ يقول: كنت حليفًا ولم أكن من أنفسها ـ وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت ـ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ـ أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله تعالى هذه السورة: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ»، إلى قوله: «سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ»[1].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ قيل: أي: المودة، وقال الزَّجَّاج: معناه: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وسِرَّه بالمودة التي بينكم وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟﴾ أي: وحالهم أنهم كفروا ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآن ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: لأن آمنتم، كأنه قال: يفعلون ذلك لإيمانكم ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ هذا شرط جوابه متقدم وهو قوله: «لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ» ﴿...جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ قال مقاتل: بالنصيحة ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ١٤٣)، ومسلم برقم٢٤٩٤: (٤/ ١٩٤١ - ١٩٤٢).

﴿أَخْفَيْتُمْ﴾ من المودة للكفار ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أظهرتم بألسنتكم ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الهدى.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم ويروكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب والقتل ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالشتم ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كما كفروا، يقول: لا تناصحوهم، فإنهم لا يناصحونكم ولا يوادُّونكم.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ معناه: لا يَدْعُوَنَّكم ولا يحملنَّكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة الرسول ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالاة أعدائهم فلن تنفعكم أرحامكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين عصيتم الله لأجلهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوة ﴿حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من أهل الإيمان ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ من المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ جمع بريء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ جحدنا وأنكرنا دينكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ يأمر حاطبًا والمؤمنين بالاقتداء بإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين معه من المؤمنين في التبرؤ من المشركين ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يعني: لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأُموره إلاَّ في استغفاره لأبيه المشرك، فإن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد قال لأبيه: لأستغفرنَّ لك، ثم تبرأ منه ـ على ما ذكرناه في سورة التوبة ـ ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ يقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ما أُغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيتَه وأشركتَ به ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ يقوله إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال الزَّجَّاج: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيفتنوا، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيم ومن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يُعْرِض عن الإيمان ويوالِ الكفار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ إلى أوليائه وأهل طاعته.

قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين، وأظهروا لهم العداوة والبراءة، ويعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك، فأنزل الله:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: من كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾ ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وإخوانًا، وخالطوهم وناكحوهم ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم رخص الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن برِّ الذين لم يقاتلوكم ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ تعدلوا فيهم بالإحسان والبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، كانوا قد صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحدًا، فرخَّص الله في برِّهم.

عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قدمت عليَّ أُمِّي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ومدتهم مع أبيها فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت عليَّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: صليها[1].

ثم ذكر الذين نهاهم عن صلتهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم مشركو مكة ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ

(١) أخرجه البخاري: (٥/ ٢٣٣)، ومسلم برقم١٠٠٣: (٢/ ٦٩٦).

عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية.

عن مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قالا: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ، كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منَّا أحدٌ - وإن كان على دينك - إلاَّ رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وأبىٰ سُهيل إلاَّ ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد النبي ﷺ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحدٌ من الرجال إلاَّ رده في تلك المدة وإن كان مسلمًا، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهنَّ: «إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ» إلى «وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

قال عروة: فأخبرتني عائشة - رضي الله تعالى عنها -: أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهنَّ بهذه الآية: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات»، إلى قوله: «غفور رحيم».

قال عروة: قالت عائشة - رضي الله عنها -: فمن أقرت بهذا الشرط منهنَّ قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلامًا يكلمها به، والله ما مست يدُه يد امرأة قط في المبايعة، ما بايعهنَّ إلاَّ بقوله[1].

قال ابن عباس: أقبل رسول الله ﷺ معتمرًا حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن مَن أتاه مِن أهل مكة رده إليهم، ومَن أتى أهل مكة مِن أصحاب رسول الله ﷺ لم يردوه إليه، وكتبوا بذلك كتابًا وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مُسْلِمةً بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم - وقال مقاتل هو: صيفي بن الراهب - في طلبها، وكان كافرًا، فقال: يا محمد ردّ علي امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منَّا، وهذه طية الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ» من دار الكفر إلى دار الإسلام «فَٱمْتَحِنُوهُنَّ».

قال ابن عباس: امتحانها: أن تستحلف ما خرجت لبغض زوجها ولا عشقًا لرجل من المسلمين، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا لحدثٍ أحدثته ولا لالتماس دنيا، وما خرجت إلاَّ رغبة في الإسلام وحبًّا لله ولرسوله.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي: هذا الامتحان لكم، والله أعلم بهنَّ ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى

---

(١) أخرجه البخاري: (٥/ ٣١٢)، (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٢)، ومسلم برقم١٨٦٦ : (٣/ ٤٨٩).

ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ما أحل الله مؤمنةً لكافر ﴿وَءَاتُوهُم﴾ يعني: أزواجهنَّ الكفار ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ عليهنَّ، يعني: المهر الذي دفعوا إليهنَّ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ، أباح الله نكاحهنَّ للمسلمين، وإن كان لهنَّ أزواج في دار الكفر؛ لأن الإسلام فرق بينهنَّ وبين أزواجهنَّ الكفار ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ و«العِصَم»: جمع العصمة، وهي ما يعتصم به من العقد والنسب، و«الكوافر»: جمع الكافرة.

نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، يقول: مَن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما.

قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبي ﷺ، وأقام أبو العاص بمكة مشركًا، ثم أتى المدينة فأسلم، فردَّها عليه رسول الله ﷺ.

﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فاسألوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾ يعني: المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من المهر ممن تزوجها منكم ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الزهري: لولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يردّ الصداق، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد.

فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله عزَّ وجلَّ، وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمروا به من أداء نفقات المسلمين على نسائهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلحقن بهم مرتدات ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قال المفسرون: معناه: غنمتم، أي: غزوتم فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ إلى الكفار منكم ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ عليهن من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين والمهاجرين ست نسوة: أُم الحكم بنت أبي سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أُمية بن المغيرة أُخت أُم سلمة، كانت تحت عمر بن الخطاب، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، وبروع بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان، وعزة بن عبد العزى بن نضلة، وزوجها عمرو بن عبد وِدّ، وهند بنت أبي جهل بن هشام، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وأُم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب، فكلهنَّ رَجَعْنَ عن الإسلام، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهنَّ مهور نسائهم من الغنيمة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، وذلك يوم فتح مكة، لما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال، وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه، وهو يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهنَّ عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكن «عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا»، فرفعت هند رأسها وقالت: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيناك أخذته على الرجال، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبي ﷺ: «وَلَا يَسْرِقْنَ»، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال: «وَلَا يَزْنِينَ»، فقالت هند: أَوَ تزني الحرة؟ فقال: «وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ»، فقالت هند: ربيناهم صغارًا وقتلتموهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر ـ رضي الله عنه ـ حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ، فقال: «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ» ـ وهي أن تقذف ولدًا على زوجها ليس منه ـ قالت هند: والله، إن البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلاَّ بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ»، قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، فأقرَّ النسوة بما أخذ عليهنَّ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أراد: وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ليس المراد منه نهيهنَّ عن الزنا؛ لأن النهي عن الزنا قد تقدم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولوداً وتقول لزوجها هذا ولدي منك، فهو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهنَّ؛ لأن الولد إذا وضعته الأُم سقط بين يديها ورجليها.

قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي: في كلِّ أمر وافق طاعة الله.

عن أُم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: «أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا»، ونهانا عن

النياحة، فقبضتِ امرأةٌ يدها فقالت: أسعدَتْني فلانة أريد أن أجزيها، فما قال لها النبي ﷺ شيئًا، فانطلقت ورجعت وبايعها[١].

عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أُمَّتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنَّ: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»[٢].

عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «ليس منَّا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[٣].

قوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ يعني: إذا بايعنك فبايعهنَّ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: «لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا»، قالت: وما مستْ يَدُ رسول الله ﷺ يَدَ امرأة إلاَّ امرأة يملكها[٤].

عن محمد بن المنكدر سمع أُميمة بنت رقيقة تقول: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال لنا: «فيما استطعتن وأطقتن»، فقلت: رسول الله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا، قلت: يا رسول الله بايعنا، قال سفيان: يعني: صافِحْنا، فقال: «إني لا أُصافح النساء، إنَّما قولي لامرأةٍ كقولي لمائة امرأة»[٥].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، وذلك أن أُناسًا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتوصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم، فنهاهم الله عن ذلك ﴿قَدْ يَئِسُوا۟﴾ يعني: هؤلاء اليهود ﴿مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بأن يكون لهم فيها ثواب وخير ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم حظ وثواب في الآخرة، وقيل: كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٣٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم٩٣٤: (٢/ ٦٤٤).
(٣) أخرجه البخاري: (٣/ ١٦٦)، ومسلم برقم١٠٣: (١/ ٩٩).
(٤) أخرجه البخاري: (١٣/ ٢٠٣)، ومسلم برقم١٨٦٦: (٣/ ١٤٨٩).
(٥) أخرجه الترمذي: (٥/ ٢٢٠)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي: (٧/ ١٤٩)، وابن ماجه برقم٢٨٧٤، والإمام أحمد: (٦/ ٣٥٧).

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ لعملناه، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا»، فابتلوا بذلك يوم أُحد فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: «لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ»؟

وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعده قتالاً لنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنا، ففروا يوم أُحد فعيَّرهم الله بهذه الآية.

وقال قتادة والضحاك: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، فنزلت هذه الآية.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا﴾ أي: عَظُمَ ذلك في المَقْت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضًا شديدًا أن تقولوا ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أن تعِدوا من أنفسكم شيئًا، ثم لم توفوا به.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي: يصفُّون أنفسهم عند القتال صفًّا ولا يزولون عن أماكنهم ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قد رُصَّ بعضُه ببعض.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ من بني إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ وذلك حين رموه بالأدرة

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول يعظم ويكرم ويحترم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عدلوا عن الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أمالها عن الحق، يعني: أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نزل هذا حين قالوا: لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله عزَّ وجلَّ لعملناه، وجعل ذلك بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون بها رضا الله ونيل جنته والنجاة من النار، ثم بيَّن تلك التجارة فقال:

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: ولكم خصلة أُخرى في العاجل مع ثواب الآخرة تحبونها، وتلك الخصلة: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ قال الكلبي: هو النصر على قريش، وفتح مكة، وقال عطاء: يريد: فتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يا محمد، بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة، ثم حضَّهم على نصر الدين وجهاد المخالفين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ أي: انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي: من ينصرني مع الله؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: في زمن عيسى عليه السلام، وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه الله إليه، وفرقة قالوا:

كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه وهم المؤمنون، واتبع كلَّ فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين، حتى بعث الله محمدًا ﷺ، فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ عالين غالبين.

سورة الجمعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴿٢﴾﴾ يعني: العرب كانت أُمَّة أُمِّيَّة لا تكتب ولا تقرأ ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ما كانوا قبل بعثة الرسول إلاَّ في ضلال مبين يعبدون الأوثان.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ اختلف العلماء فيهم، فقال قوم: هم العجم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنَّا جلوسًا عند النبي ﷺ إذْ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: «وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ»، قال رجلٌ: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرتين أو ثلاثًا، قال: وفينا سلمان الفارسي، قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»[(١)].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب إليه رجل»، أو قال: «رجالٌ من أبناء فارس حتى يتناولوه»[(٢)].

وقال عكرمة ومقاتل: هم التابعون، وقال ابن زيد: هم جميع مَن دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي: لم يدركوهم، ولكنهم يكونون بعدهم، وقيل: «لما يلحقوا بهم»، أي: في الفضل والسابقة؛ لأن التابعين لا يدركون شأو الصحابة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٤١)، ومسلم برقم٢٥٤٦: (٤/ ١٩٦٣ - ١٩٧٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٥٤٦: (٤/ ١٩٧٢).

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: الإسلام والهداية ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: كُلِّفوا القيام بها، والعمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بما فيها، ولم يؤدُّوا حقها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أي: كُتُبًا من العلم، واحدها: سفر، يعني: كما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها، كذلك اليهود يقرؤون التوراة ولا ينتفعون بها؛ لأنهم خالفوا ما فيها ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء ﷺ، يعني: مَن سبق في علمه أنه لا يؤمن لا يهديهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ من دون محمد ﷺ وأصحابه ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ فادعُوا بالموت على أنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم أبناء الله وأحباؤه، فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: في يوم الجمعة، وأراد بهذا النداء: الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة.

عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزَّوراء(١).

واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعةً، منهم من قال: لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه السلام، وقيل: لأن الله تعالى فرغ فيه من خلق الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات، وقيل: لاجتماع

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٩٣).

الجماعات فيه، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة.

وروي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب: أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟ قال: لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في بقيع يقال له: بقيع الخضمات، قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون[1]، وأما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه على ما ذكر أهل السِّيَر: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجرًا نزل قباء على بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى، فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس، وأَسَّسَ مسجدهم، ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامدًا المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، وقد اتخذ اليوم في ذلك الموضع مسجدًا، فجمَّع هناك وخطب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فامضوا إليه واعملوا له، وليس المراد من السعي الإسراع، إنما المراد منها العمل والفعل.

وقال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلاَّ وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»[2].

قوله: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى الصلاة، وقال سعيد بن المسيب: «فاسعوا إلى ذكر الله» قال: هو موعظة الإمام ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ يعني: البيع والشراء؛ لأن اسم البيع يتناولهما جميعًا، وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني، وقال الزهري: عند خروج الإمام، وقال الضحاك: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من المبايعة ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ مصالح أنفسكم.

واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان، فتجب على كل من جمع: العقل، والبلوغ، والحرية، والذكورة، والإقامة، إذا لم يكن له عذر، ومن تركها استحق الوعيد.

عن محمد بن كعب أنه سمع رجلاً من بني وائل يقول: قال النبي ﷺ: «تجب الجمعة على كل مسلم إلاَّ امرأة أو صبيًا أو مملوكًا»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ١٠)، وابن ماجه برقم١٠٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٩٠)، ومسلم برقم٦٠٢: (١/ ٤٢٠ - ٤٢١).

(٣) أخرجه الشافعي في «مسنده»: (١/ ١٣٠)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ١٨٣).

قال ابن عباس لمؤذنه في يوم مطير: إذا قلت: أشهد أن محمدًا رسول الله، فلا تقل: حي على الصلاة، قل: صلُّوا في بيوتكم، فكأن الناس استنكروا، فقال: فَعَلَهُ مَنْ هو خير مني، إن الجمعة عزمة، وإني كرهت أن أخرجكم فتمشوا في الطين والدحض[١].

عن الحكم بن مينا أن ابن عمر حدثه وأبا هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ وهو على أعواد المنبر: «لينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِم الجمعات أو ليختمنَّ الله على قلوبهم ثم ليكونُنَّ من الغافلين»[٢].

عن أبي الجعد يعني: الضميري، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونًا بها طبع الله على قلبه»[٣].

عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجُوَاثَى من البحرين[٤].

وروي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سمع رجلاً عليه هيئة السفر يقول: لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت، فقال عمر: اخرجْ فإن الجمعة لا تحبس عن سفر[٥].

وقد ورد أخبار في سنن يوم الجمعة وفضله منها:

عن أبي هريرة أنه قال: خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار، فجلست معه فحدثني عن التوراة، وحدثته عن رسول الله ﷺ، فكان فيما حدثته أن قلت له: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلاَّ وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقًا من الساعة إلاَّ الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبدٌ مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئًا إلاَّ أعطاه إيَّاه»، قال كعب: ذلك في كل سنة يوم، فقلت: بل في كل جمعة، قال: فقرأ كعب التوراة فقال: صدق رسول الله ﷺ، قال أبو هريرة: ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار، وما حدثته في يوم الجمعة، فقال عبد الله بن سلام: قد علمت أية ساعة هي، هي آخر ساعة في يوم الجمعة، قال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة! وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي»، وتلك ساعة لا يصلى فيها؟ فقال عبد الله بن سلام: ألم

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ١٥٧)، ومسلم برقم٦٩٩: (١/ ٤٨٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم٨٦٥: (٢/ ٥٩١).

(٣) أخرجه الترمذي: (٣/ ١٣)، قال أبو عيسى: (حديث أبي الجعد حديث حسن)، وأبو داود: (٢/ ٥ - ٦)، والنسائي: (٣/ ٨٨ - ٨٩)، وابن ماجه برقم١١٢٥ .

(٤) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٧٩).

(٥) أخرجه الشافعي في «مسنده»: (١/ ١٥٠)، وعبد الرزاق في «المصنف»: (٣/ ٢٥٠)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ١٨٧).

يقل رسول الله ﷺ: «من جلس مجلسًا ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصليها»؟ قال أبو هريرة: بلى، قال: فهو ذاك[1].

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»[2].

عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدَّهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرِّق بين اثنين، ثم يصلي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلاَّ غفر الله له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»[3].

عن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن غسَّل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع، ولم يلْغُ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها»[4].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على منازلهم الأول فالأول، فإذا خرج الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة، والمهجِّر إلى الصلاة كالمهدي بدنةً، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة، ثم الذي يليه كالمهدي شاة، ثم الذي يليه كالمهدي كبشًا، حتى ذكر الدجاجة والبيضة»[5].

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إذا فرغ من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الرزق، وهذا أمر إباحة، كقوله: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ» [المائدة: ٢]، قال ابن عباس: إن شئت فاخرج، وإن شئت فاقعد، وإن شئت فصلِّ إلى العصر، وقيل: «فانتشروا في الأرض» ليس لطلب الدنيا، ولكن لعيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله.

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول: «وابتغوا من فضل الله» هو طلب العلم.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ١٠٨ - ١٠٩)، وأبو داود: (٢/ ٣)، والترمذي: (٢/ ٦١٨ - ٦١٩)، وقال: (هذا حديث صحيح)، والنسائي: (٣/ ١١٣ - ١١٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٥٦)، ومسلم برقم٨٤٤: (٢/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٧٠).

(٤) أخرجه أبو داود: (١/ ٢١٣)، والترمذي: (٣/ ٣ - ٤)، والنسائي: (٣/ ٩٧)، برقم١٠٨٧ .

(٥) أخرجه البخاري: (٢/ ٤٠٧)، ومسلم برقم٥٨٠: (٢/ ٥٨٧).

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ الآية، عن جابر بن عبد الله قال: أقبلت عِيرٌ يوم الجمعة ونحن مع النبي ﷺ فثار الناس إلاَّ اثني عشر رجلاً، فأنزل الله: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا»[1].

عن جابر بن عبد الله: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائمًا يفصل بينهم بجلوس[2].

عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكِّر الناس[3].

عن جابر بن سمرة قال: كنت أُصلي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا[4].

عن عبيد الله بن أبي رافع أن مروان استخلف أبا هريرة على المدينة، فصلَّى بهم أبو هريرة الجمعة فقرأ سورة الجمعة في الركعة الأُولى وفي الثانية: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» [المنافقون: ١]، فقال عبيد الله: فلما انصرفنا مشيت إلى جنبه فقلت له: لقد قرأتَ بسورتين سمعتُ علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الصلاة؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقرأ بهما[5].

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير ماذا كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الجمعة على أثر سورة الجمعة؟ فقال: كان يقرأ بـ «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝»[6].

عن النعمان بن بشير قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝»، و«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝»، وربما اجتمعا في يوم واحد فيقرأ بهما[7].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ خير من اللهو ومن التجارة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه موجد الأرزاق، فإيَّاه اسألوا، ومنه فاطلبوا.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٤٣)، ومسلم برقم٨٦٣: (٢/ ٥٩٠).

(٢) أخرجه الشافعي: (١/ ١٤٤)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ١٨١).

(٣) أخرجه مسلم برقم٨٦٢: (٢/ ٥٨٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم٨٦٦: (٢/ ٥٩١).

(٥) أخرجه مسلم برقم٨٧٧: (٢/ ٥٩٧ - ٥٩٨).

(٦) أخرجه مسلم برقم٨٧٨: (٢/ ٥٩٨).

(٧) أخرجه مسلم برقم٨٧٨: (٢/ ٥٩٨).

سورة المنافقون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يعني: عبدَ الله بن أُبي بن سلول وأصحابه ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنهم أضمروا خلاف ما اظهروا.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ سترة ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أقرُّوا باللسان إذا رأوا المؤمنين ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ إذا خلوا إلى المشركين ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإيمان.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني: أن لهم أجسامًا ومناظر ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ فتحسب أنه صدق، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ ممالة إلى جدار، وأراد: أنها ليست بأشجار تثمر، ولكنها خشب مسندة إلى حائط ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يسمعون صوتًا في العسكر بأن نادى منادٍ أو انفلتت دابة وأنشدت ضالة، إلاَّ ظنوا ـ من جبنهم وسوء ظنهم ـ أنهم يُرادون بذلك، وظنوا أنهم قد أُتوا، لما في قلوبهم من الرعب. وقيل: ذلك لكونهم على وجل من أن ينزل اللهُ فيهم أمرًا يهتك أستارهم ويبيح دماءهم، ثم قال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ وهذا ابتداء وخبره: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ ولا تأمنهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: عطفوا وأعرضُوا بوجوههم رغبةً عن الاستغفار.

﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرضون عمَّا دُعُوا إليه ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يتفرقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يعطي أحدٌ أحدًا شيئًا إلاَّ بإذنه، ولا يمنعه إلاَّ بمشيئته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعزة الله: قهره من دونه، وعزة رسوله: إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة نصر الله إيَّاهم على أعدائهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ولو علموا ما قالوا هذه المقالة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسرون: يعني: الصلوات الخمس، نظيره قوله: «لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ» [النور: ٣٧] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: مَن شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ قال ابن عباس: يريد: زكاة الأموال ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فيسأل الرجعة ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ هلا أخرتني أمهلتني، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدق وأزكي مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

والمراد بالصلاح هنا: الحج، وروى الضحاك وعطية عن ابن عباس قال: ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤدِّ زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلاَّ سأل الرجعة عند الموت، وقرأ هذه الآية[1].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٢٠ - ٢٢١)، والطبري: (٢٨/ ١١٨).

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا.

وروينا عن ابن عباس عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام طبع كافرًا»(١).

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «وكَّل الله بالرحم مَلَكًا فيقول: أيْ ربِّ نطفة، أيْ ربِّ علقة، أيْ ربِّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أَذَكَرٌ أم أُنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أُمه»(٢).

وقال جماعة: معنى الآية: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا؛ لأن الله تعالى ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم، فقال: «فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ».

روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «فمنكم كافر» في حياته مؤمن في العاقبة، «ومنكم مؤمن» في حياته كافر في العاقبة.

وجملة القول فيه: أن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته، فالمؤمن بعد خلق الله إيَّاه يختار الإيمان؛ لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدَّره عليه وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله تعالى إيَّاه يختار الكفر؛ لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدَّره عليه وعلمه منه، وهذا طريق أهل السنة والجماعة مَنْ سلكه أصاب الحق وسلم من الجبر والقدر.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٦١: (٤/ ٢٠٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٧٧)، ومسلم برقم٢٦٤٦: (٤/ ٢٠٣٨).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يخاطب كفار مكة ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني: الأمم الخالية ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يعني: ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ معناها: ينكرون ويقولون آدمي مثلنا يهدينا! ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ﴾ عن إيمانهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ في أفعاله، ثم أخبر عن إنكارهم البعث فقال جلَّ ذِكْرُه:

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴿٨﴾﴾ وهو القرآن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ يعني: يوم القيامة، يجمع فيه أهل السموات والأرض ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ وهو تفاعل من الغبن، وهو فوت الحظ، والمراد بالمغبون من غُبِنَ في أهله ومنازله في الجنة، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادته وقضائه ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فيصدِّق أنه لا يصيبه مصيبة إلاَّ بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلِّم لقضائه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ﴾ قال ابن عباس: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا إلى المدينة، فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: صبرنا على إسلامكم فلا نصبر على فراقكم، فأطاعوهم وتركوا الهجرة[1]، فقال تعالى: «فَٱحْذَرُوهُمْۚ» أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة.

﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر، فإذا هاجر رأى الذين سبقوه بالهجرة قد فقهوا في الدين هَمَّ أن يعاقبَ زوجه وولده الذين ثبطوا عن الهجرة، وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم ولم يصبهم بخير، فأمر الله تعالى بالعفو عنهم والصفح.

وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى مَنْ تَدعُنا؟ فيرقّ لهم ويقيم، فأنزل الله «إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ» بحملهم إيَّاكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم، «وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ» فلا تعاقبوهم على خلافهم إيَّاكم «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه «من» للتبعيض، فقال: «إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ»؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر «مِنْ» في قوله: «إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ»؛ لأنها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب.

عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبا بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن

---

(١) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٢٢ - ٢٢٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والطبري: (٢٨/ ١٢٤)، والحاكم: (٢/ ٤٩٠)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

والحسين، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله: «إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ»، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»(١).

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أطقتم، ﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ الله ورسوله ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أنفقوا من أموالكم خيرًا لأنفسكم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى يعطي حق الله من ماله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

سورة الطلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ نادى النبيَّ ﷺ، ثم خاطب أُمَّته؛ لأنه السيد المقدَّم، فخاطب الجميع معه. وقيل: مجازه: يا أيها النبي قل لأُمَّتك «إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ»: إذا أردتم تطليقهنَّ. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لطهرهنَّ بالذي يحصينه من عدتهنَّ، نزلت هذه الآية في عبد الله بن عمر كان قد طلق امرأته في حال الحيض.

عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمرُ بن الخطاب رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال: «مُرْهُ فَلْيراجِعْها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بَعْدُ، وإن شاء طلَّق قبل أن يمسَّ، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء»(٢).

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة، وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه، لقول النبي ﷺ: «وإن شاء طلق قبل أن يمسّ».

والطلاق السني: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، وهذا في حق امرأة تلزمها العدة بالأقراء.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٢٠)، والترمذي: (١٠/ ٢٧٨ - ٢٧٩)، وقال: (هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد)، والنسائي: (٣/ ١٠٨)، وابن ماجه برقم ٣٦٠٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٣٤٥ - ٣٤٦)، ومسلم برقم ١٤٧١: (٢/ ١٠٩٣).

فأما إذا طلَّق غيرَ المدخولِ بها في حال الحيض، أو طلق الصغيرة التي لم تحض قط، أو الآيسة بعد ما جامعها، أو طلق الحامل بعد ما جامعها، أو في حال رؤية الدم، فلا يكون بدعيًّا، ولا سنة ولا بدعة في طلاق هؤلاء؛ لأن النبي ﷺ قال: «ثم ليطلقها طاهرًا أو حاملاً».

ولو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصدًا يعصي الله تعالى، ولكن يقع الطلاق؛ لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر بالمراجعة، فلولا وقع الطلاق لكان لا يأمر بالمراجعة، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلقها في الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس.

وما رواه نافع عن ابن عمر: «ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر» فاستحبابٌ، استحب تأخير الطهر الثاني؛ حتى لا يكون مراجعته إيَّاها للطلاق، كما يكره النكاح للطلاق.

ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث، عند بعض أهل العلم، حتى لو طلق امرأته في حال الطهر ثلاثًا لا يكون بدعيًّا، وهو قول الشافعي وأحمد، وذهب بعضهم إلى أنه بدعة، وهو قول مالك وأصحاب الرأي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: عدد أقرائها، احفظوها، قيل: أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثًا، وقيل: للعلم ببقاء زمان الرجعة، ومراعاة أمر النفقة والسكنى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أراد به: إذا كان المسكن الذي طلقها فيه للزوج لا يجوز له أن يخرجها منه ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أو حاجة أَثِمَتْ، فإن وقعت ضرورة ـ وإن خافت هدمًا أو غرقًا ـ لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كان لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهارًا ولا يجوز ليلاً، فإنَّ رجالاً استُشْهِدوا بأحد فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا، فأذن لهنَّ النبي ﷺ أن يتحدثن عند إحداهنَّ، فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها[١]، وأذن النبي ﷺ لخالة جابر طلقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها[٢].

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قال ابن عباس: «الفاحشة المبينة»: أن تبذو على أهل زوجها، فيحلّ إخراجها. وقال جماعة: أراد بالفاحشة: أن تزني، فتخرج لإقامة الحد عليها، ثم ترد إلى منزلها، يروى ذلك عن ابن مسعود.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يعني: ما ذكر من سنة الطلاق وما بعدها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ يوقع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة

(١) أخرجه الشافعي في «الأم»: (٥/ ٢١٧)، والبيهقي في «السنن»: (٧/ ٤٣٦) عن مجاهد مرسلاً، ورجال إسناده ثقات.

(٢) أخرجه مسلم برقم١٤٨٣: (٣/ ١١٢١).

والطلقتين، وهذا يدل على أن المستحب أن يفرق الطلقات، ولا يوقع الثلاث دفعة واحدة، حتى إذا ندم أمكنه المراجعة.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قربن من انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: راجعوهنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهن فتبين منكم ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعة والفراق، أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود ﴿لِلَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ قال عكرمة والشعبي والضحاك: ومَن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجًا إلى الرجعة.

وأكثر المفسرين قالوا: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر المشركون ابنًا له يسمى مالكًا فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أسر العدو ابني، وشكا أيضًا إليه الفاقة، فقال له النبي ﷺ: «اتَّقِ الله واصبرْ، وأكْثِرْ من قول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله»، ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه.

قال ابن مسعود: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا»: هو أن يعلم أنه مِنْ قِبَلِ الله، وأن الله رازقه.

وقال الربيع بن خثيم: «يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا» من كل شيء ضاق على الناس.

وقال الحسن: «مَخْرَجًا» عما نهاه عنه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[(١)].

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: منفذ أمره، مُمْضٍ في خلقه قضاءه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: جعل لكل شيءٍ من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه)، وابن ماجه برقم٤١٦٤، والإمام أحمد: (١/ ٣٠).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ فلا ترجون أن يحضن ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: شككتم فلم تدروا ما عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يعني: الصغار اللائي لم يحضن فعدتهنَّ أيضًا ثلاثة أشهر.

أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممن تحيض أو لا تحيض.

أما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء طلقها زوجها أو مات عنها، لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾. عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبيه: أن سُبَيْعَةَ بنت الحارث وضعتْ بعد وفاة زوجها بليالٍ فمرَّ بها أبو السَّنابِل بن بَعْكَكٍ فقال: قد تَصَنَّعْتِ للأزواج، إنها أربعة أشهر وعشر، فذكرتْ ذلك سبيعةُ لرسول الله ﷺ فقال: «كذب أبو السنابل ـ أَوْ: ليس كما قال أبو السنابل ـ قد حَلَلْتِ فتزوَّجي»[1].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة.

ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما ذكر من الأحكام ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾ يعني: مطلقات نسائكم ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ «مِنْ» صلة، أي: أسكنوهنَّ حيث سكنتم ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ يعني: سعتكم وطاقتكم، يعني: إن كان موسرًا يوسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرًا فعلى قدر الطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ لا تؤذوهنَّ ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ مساكنهنَّ فيخرجن ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فيخرجن من عدتهن.

اعلم أن المعتدة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدة.

فأما المعتدة البائنة بالخلع أو الطلقات الثلاث أو باللعان، فلها السكنى، حاملاً كانت أو حائلاً، عند أكثر أهل العلم.

وظاهر القرآن يدل على أنها لا تستحق إلاَّ أن تكون حاملاً؛ لأن الله تعالى قال: «وإن كن أُولات حمل فأنفقوا عليهن».

والدليل عليه من جهة السنة ماروت: فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلَّقها الْبَتَّةَ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم١٤٨٤: (٢/١١٢٢).

وهو غائب بالشام، فأرسل إليها وكيله بشعير فَسَخِطَتْهُ، فقال: واللهِ، مالك علينا من شيءٍ، فجاءت رسولَ الله ﷺ فذكرتْ ذلك له، فقال لها: «ليس لك عليه نفقة»، وأمرها أن تعتدَّ في بيت أُم شَرِيكٍ، ثم قال: «تلك امرأةٌ يغشاها أصحابي فاعتدِّي عند ابن أُم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك، فإذا حللتِ فآذِنِيني»، قالت: فلما حَلَلْتُ ذكرتُ له أنَّ معاويةَ بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصُعْلُوكٌ لا مال له، انكحي أسامة بن زيد»، قالت: فَكَرِهْتُه، ثم قال: «انكحي أسامة»، فنكحتُه، فجعلَ الله فيه خيرًا واغتبطتُ به[1].

واحتج مَن لم يجعل لها السكنى بحديث فاطمة بنت قيس: أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت عبد الله بن أُم مكتوم.

ولا حجة فيه، لما روي عن عائشة أنها قالت: كانت فاطمة في مكانٍ وَحْشٍ، فخيف على ناحيتها[2].

وقال سعيد بن المسيب: إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها، وكانت للسانها ذرابة[3].

والمعتدة عن وفاة الزوج لا نفقة لها حاملاً كانت أو حائلاً، عند أكثر أهل العلم، وروي عن علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن لها النفقة، إن كانت حاملاً، من التركة حتى تضع.

واختلفوا في سكناها، وللشافعي ـ رضي الله عنه ـ فيه قولان، أحدهما: لا سكنى لها، بل تعتد حيث تشاء، وهو قول علي وابن عباس وعائشة، وبه قال عطاء والحسن، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه.

والثاني: لها السكنى، وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر، وبه قال مالك وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق.

واحتج مَن أوجب لها السكنى بما روت: زينب بنت كعب: أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أُخت أبي سعيد الخدري أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم فقتلوه، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي، فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه ولا نفقة؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ: «نعم»، فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني أو أمر بي رسول الله ﷺ فدعيت له، فقال رسول الله ﷺ: «كيف قلت»؟ قالت: فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، قالت: فاعتددت فيه

(١) أخرجه مسلم برقم١٤٨٠: (٢/ ١١٤).
(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ١٩٥ - ١٩٦)، وابن ماجه: (١/ ٦٥٥)، وأخرجه البخاري تعليقًا: (٩/ ٤٧٩).
(٣) أخرجه أبو داود: (٣/ ١٩٦).

أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان أرسل إليَّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به[١].

فمن قال بهذا القول قال: إذْنُهُ لفريعة أولاً بالرجوع إلى أهلها صار منسوخًا بقوله آخرًا: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله». «ومَن لم يوجب السكنى قال: أمرها بالمكث في بيتها آخرًا استحبابًا لا وجوبًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: أرضعن أولادكم ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على إرضاعهن ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ في الرضاع والأجرة، فأبى الزوج أن يعطي المرأة رضاها، وأبت الأم أن ترضعه، فليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبي مرضعًا غير أمه، وذلك قوله: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾.

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ على قدر غناه ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ في النفقة ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ أعطاها من المال ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بعد ضيق وشدة غنًى وسعة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ عصت وطغت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: وأمر رسله ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالمناقشة والاستقصاء، قال مقاتل: حاسبها بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ منكرًا فظيعًا، وهو عذاب النار، لفظهما ماضٍ ومعناهما الاستقبال.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»: (٢/ ٥٩١)، وأبو داود: (٣/ ١٩٨ - ١٩٩)، والترمذي: (٤/ ٣٩٠ - ٣٩١)، والنسائي: (٦/ ١٩٩)، وابن ماجه برقم ٢٠٣١ .

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ جزاء أمرها، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ خسرانًا في الدنيا والآخرة.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ يعني: القرآن.

﴿رَّسُولًا﴾ بدل من الذكر، وقيل: أنزل إليكم قرآنًا وأرسل رسولاً، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ يعني: الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ في العدد ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى.

قال أهل المعاني: هو ما يدبر فيهنَّ من عجيب تدبيره، فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاتها، وينقلها من حال إلى حال.

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ فلا يخفى عليه شيء.

سورة التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ وسبب نزولها ما روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء ويحب العسل، وكان إذا صلى العصر جاز على نسائه فيدنو منهنَّ، فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألتُ عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله ﷺ منها شربة، فقلت: أما والله لنحتالنَّ له، فذكرتُ ذلك لسودة، وقلتُ: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له: يا رسول الله، أكلتَ مغافير؟ فإنه سيقول: «لا»، فقولي له: ما هذه الريح، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح، فإنه سيقول: «سقتني حفصة شربة عسل»، فقولي له: جرست نحلُه العرفط، وسأقول ذلك وقوليه أنت يا صفية، فلما دخل على سودة، تقول سودة: والله الذي لا إله إلاَّ هو لقد كدت أن أُباديه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب، فرقًا منك، فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا»، قلت: فما بال هذه الريح! قال: سقتني حفصة شربة عسل»، قالت: جرست نحله العرفط، فلما دخل عليَّ قلت له

مثل ذلك، ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك، فلما دخل على حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه، قال: «لا حاجة لي به»، قالت: تقول سودة: سبحان الله لقد حرمناه، قالت: قلت لها: اسكتي(١).

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبيُّ ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، قال: «لا بأس، شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له»، فنزلت: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ» إلى قوله: «إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ» لعائشة وحفصة، «وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثًا» لقوله: «بل شربت عسلاً»(٢).

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ أي: بيَّن وأوجب أن تكفروها إذا حنثتم، وهي ما ذكر في سورة المائدة ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ وليكم وناصركم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ وهو تحريم فتاته على نفسه، وقوله لحفصة: «لا تخبري بذلك أحدًا». ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أخبرت به حفصة عائشة ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي: أطلع الله تعالى نبيَّه على أنها أنبأت به ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ أي: عرَّف حفصة بعد ذلك الحديث، أي: أخبرها ببعض القول الذي كان منها. ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ يعني: لم يعرفها إياه، ولم يخبرها به، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ﴿قَالَتۡ﴾ حفصة: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ أي: مَن أخبرك بأني أفشيت السِّرَّ؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء، يخاطب عائشة وحفصة ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أي: زاغت ومالت عن الحق، واستوجبتما التوبة.

قوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي: تتظاهرا وتتعاونا على أذى النبي ﷺ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٣٧٤ - ٣٧٥)، ومسلم برقم١٤٧٤: (٢/ ١١٠١ - ١١٠٢).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٥٦)، ومسلم برقم١٤٧٤: (٢/ ١١٠٠).

أي: وليه وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ روي عن ابن مسعود وأُبي بن كعب «وصالح المؤمنين» أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ قال مقاتل: بعد الله وجبريل «وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير»، أي: أعوان للنبي ﷺ، وهذا من الواحد الذي يؤدي عن الجمع، كقوله: «وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا» [النساء: ٦٩].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ أي: واجبٌ من الله إن طلقكنَّ رسوله ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ خاضعات لله بالطاعة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات بتوحيد الله ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ طائعات، وقيل: داعيات، وقيل: مصليات ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، وقال زيد بن أسلم: مهاجرات، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: أي: بالانتهاء عما نهاكم اللهُ تعالى عنه، والعمل بطاعته ﴿وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يعني: مروهم بالخير، وانهوهم عن الشر، وعلِّموهم وأدِّبوهم، تَقُوهم بذلك نارًا ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يعني: خزنة النار ﴿غِلَاظٌ﴾ فظاظ على أهل النار ﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء، يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفًا في النار، وهم الزبانية، لم يخلق الله فيهم الرحمة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٨﴾﴾ أي: توبة ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: لا يعذبهم الله بدخول النار ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ على الصراط ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طفىء نور المنافقين: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

ثم ضرب الله مثلاً للصالحين والصالحات من النساء فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما: أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وإذا آمن به أحدٌ أخبرت به الجبابرة، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومه على أضيافه، إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه نزل به ضيف.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لم يدفعا عنهما مع نبوتهما عذاب الله ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ قطع الله بهذه الآية طمع كل مَن يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعًا فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي: آسية بنت مزاحم.

قال المفسرون: لما غلب موسى السحرةَ آمنت امرأة فرعون، ولما تبين لفرعون إسلامها أَوْتَدَ يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته. ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ قال مقاتل: «وعمله»، يعني: الشرك، ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي: في جيب درعها، ولذلك ذكر الكناية ﴿مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ يعني: الشرائع التي شرعها الله للعباد بكلماته المنزلة ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وأراد بكتبه التي أُنزلت على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم السلام ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من القوم القانتين المطيعين لربها، ولذلك لم يقل من القانتات.

وروينا عن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي: (١٠/٣٨٩ - ٣٩٠)، وقال: (هذا حديث صحيح).

سورة الملك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴿٢﴾﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يريد: الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة. وقال قتادة: أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا، جعل الله الدنيا دار حياة وفناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ فيما بين الحياة إلى الموت ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ رُوي عن ابن عمر مرفوعًا: «أحسن عملاً»: أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. وقال فضيل بن عياض: «أحسن عملاً»: أخلصه وأصوبه، وقال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، الخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصاه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب إليه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ طبقًا على طبق، بعضُها فوق بعض ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ ومعناه: ما ترى يا ابن آدم في خلق الرحمن من اعوجاج واختلاف وتناقض، بل هي مستقيمة مستوية، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ كرر النظر، معناه: انظر ثم ارجع ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ شقوق وصدوع.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ قال ابن عباس: مرة بعد مرة ﴿يَنقَلِبْ﴾ ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ صاغرًا ذليلاً مبعدًا لم يرَ ما يهوى ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل منقطع، لم يدرك ما طلب.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أراد: الأدنى من الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: الكواكب، واحدها: مصباح، وهو السراج، سُمّي الكوكب مصباحًا؛ لإضاءته ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ مرامي ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار الموقدة.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا ﴿٧﴾﴾ وهو أول نهيق الحمار، وذلك أقبح الأصوات ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم كغلي المِرْجل.

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تنقطع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِۖ﴾ من تغيظها عليهم، قال ابن قتيبة: تكاد تنشق غيظًا على الكفار ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة منهم ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ سؤال توبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول ينذركم.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾ للرسل ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ من الرسل ما جاءونا به ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ منهم، وقال ابن عباس: لو كنَّا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال الزَّجَّاج: لو كنا نسمع سمع مَن يعي ويتفكر، أو نعقل عقل مَن يميز وينظر، ما كنَّا في أهل النار.

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا﴾ بُعدًا ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضُهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد.

فقال الله جلَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم ما في الصدور مَنْ خلقها ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لطيفٌ علمه في القلوب، الخبير بما فيها من الخير والشر والوسوسة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ سهلاً، لا يمتنع المشي فيها بالحزونة ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ قال ابن عباس وقتادة: في جبالها، وقال مجاهد: في طرقها وفجاجها، ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ مما خلقه رزقًا لكم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه تبعثون من قبوركم، ثم خوَّف الكفار فقال:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس: أي: عذاب مَنْ في السماء إن عصيتموه ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ والمعنى: أن الله تعالى يحرِّك الأرض عند الخسف بهم حتى تلقيَهم إلى أسفل، تعلو عليهم وتمر فوقهم، يقال: مَارَ يَمُورُ، أي: جاء وذهب.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ ريحًا ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ في الآخرة، وعند الموت ﴿كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري إذا عاينتم العذاب.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني: كفار الأُمم الماضية ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بالعذاب.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ تصف أجنحتها في الهواء ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ أجنحتها بعد البسط ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في حال القبض والبسط أن يسقطن ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ استفهام إنكار، قال ابن عباس: أي: منعة لكم ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ يمنعكم من عذابه، ويدفع عنكم ما أراد بكم ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي: في غرور من الشيطان، يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ أي: من الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ﴾ تمادٍ في الضلال ﴿وَنُفُورٍ﴾ تباعد من الحق، ، ثم ضرب مثلاً فقال:

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ راكبًا رأسه في الضلالة والجهالة، أعمى القلب والعين، لا يبصر يمينًا ولا شمالاً، وهو الكافر، ﴿أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا﴾ معتدلاً، يبصر الطريق، وهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو المؤمن، قال قتادة: يمشي يوم القيامة سويًّا.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قال مقاتل: يعني: أنهم لا يشكرون رب هذه النعم.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴿٢٧﴾﴾ يعني: العذاب في الآخرة ﴿زُلْفَةً﴾ أي: قريبًا، ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسودت وعليها كآبة، والمعنى: قبحت وجوههم بالسواد، ﴿وَقِيلَ﴾ لها، أي: قال الخزنة: ﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء تدعون وتتمنون أنه يعجّل لكم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأبقانا وأخّر آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فإنه واقع بهم لا محالة.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ الذي نعبده ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ستعلمون عند معاينة العذاب من الضال منَّا، نحن أم أنتم؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا ذاهبًا في الأرض، لا تناله الأيدي والدلاء، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ ظاهر، تراه العيون، وتناله الأيدي والدلاء.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلاَّ ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة، وهي سورة تبارك»[1].

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾

﴿ن﴾ اختلفوا فيه، فقال ابن عباس: هو الحوت الذي على ظهره الأرض. وقيل: هو قسم أقسم الله به، وقيل: فاتحة السورة. ﴿وَالْقَلَمِ﴾ أول ما خلق الله القلم ونظر إليه فانشق بنصفين، ثم قال: اجرِ بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون، أي: ما تكتب الملائكة الحفظة من أعمال بني آدم.

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ هو جواب لقولهم: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾» [الحجر: ٦]، فأقسم الله بالنون والقلم وما يكتب من الأعمال فقال: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ بنبوة ربك ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ أي: إنك لا تكون مجنونًا وقد أنعم الله عليك بالنبوّة والحكمة.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ١١٦)، والترمذي: (٨/ ٢٠٠ - ٢٠١)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي: (٢/ ٤٥٤)، وابن ماجه برقم٣٧٨٦ .

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③﴾ أي: منقوص ولا مقطوع بصبرك على افترائهم عليك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ قال ابن عباس ومجاهد: دين عظيم لا دين أحب إليَّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام، وقال الحسن: هو آداب القرآن. سُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خُلقُهُ القرآن[١]. وعن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خَلْقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير[٢].

وعن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أُفٍّ قطُّ، وما قال لشيء صنعتُه: لِمَ صنعتَه؟ ولا لشيءٍ تركتُه: لِمَ تركتَه؟ وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلقًا، ولا مسست خَزًّا قط ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ[٣].

وعن عبد الله بن عمر قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فحاشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «خياركم أحسنكم أخلاقًا»[٤].

وعن أنس أن امرأة عرضت لرسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أُم فلان، اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك»، قال: ففعلت فقعد إليها رسول الله ﷺ، حتى قضى حاجتها[٥].

وعن أنس بن مالك قال: إنْ كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[٦].

وعن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادمًا ولا امرأة[٧].

وعن أنس قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء[٨].

وعن أُم الدرداء تحدث عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيءٍ يوضع في ميزان

---

(١) أخرج مسلم برقم٧٤٦: (١/ ٥١٣).
(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ٥٦٤)، ومسلم برقم٢٤٤٧: (٤/ ١٨٢٤ - ١٨٢٥).
(٣) أخرجه مسلم برقم٢٣٠٩: (٤/ ١٨٠٤).
(٤) أخرجه البخاري: (٧/ ١٠٢)، وفي الأنبياء، وفي الأدب، ومسلم برقم٢٣٢١: (٤/ ١٨١٠).
(٥) أخرجه مسلم برقم٢٣٢٦: (٤/ ١٨١٢ - ١٨١٣).
(٦) أخرجه البخاري: (١٠/ ٤٨٩).
(٧) أخرجه مسلم برقم٢٣٢٨: (٤/ ١٨١٤).
(٨) أخرجه البخاري: (١٠/ ٢٧٥)، ومسلم برقم١٠٥٧: (٢/ ٧٣٠ - ٧٣١).

المؤمن يوم القيامة خلق حسن، وإن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أكثر ما يُدخل الناس الأجوفان: الفرج والفم»، «أتدرون ما أكثر ما يُدخل الناس الجنة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أكثر ما يُدخل الناس الجنة: تقوى الله وحسن الخُلق»[٢].

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار»[٣].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ فسترى يا محمد ويرون ـ يعني: أهل مكة ـ إذا نزل بهم العذاب ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾ قيل: معناه: بأيكم المجنون.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ يعني: مشركي مكة، فإنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه، فنهاه أن يطيعهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ قال الضحاك: لو تكفر فيكفرون، قال الكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك، قال الحسن: لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف بالباطل، ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف حقير، قيل: هو فعيل من المهانة: وهي قلة الرأي والتمييز. ﴿هَمَّازٍ﴾ مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والغيبة، قال الحسن: هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ قتّات يسعى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بخيل بالمال، ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظلوم يتعدى الحق ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر. ﴿عُتُلٍّ﴾ العتل: الغليظ الجافي، وقال الحسن: هو الفاحش الخَلْق السيىء الخُلُق، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مع ذلك، يريد: ما وصفناه به ﴿زَنِيمٍ﴾ وهو الدَّعِي الملصق بالقوم، وليس منهم.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٦/ ١٤٠ - ١٤١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأبو داود: (٧/ ١٧٢).
(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ١٤٢) وقال: (هذا حديث صحيح غريب).
(٣) أخرجه أبو داود: (٧/ ١٧٢).

قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحدًا ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عارًا لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوَّاظ مستكبر»(١).

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: جعل مجازاة النعم التي خولها من البنين والمال الكفر بآياتنا، وقيل: معناه ألأنْ كان ذا مال وبنين تطيعه.

ثم أوعده فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ و«الخرطوم»: الأنف، قال أبو العالية ومجاهد: أي: نسود وجهه، فنجعل له علمًا في الآخرة يُعرف به، وهو سواد الوجه.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعني: اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ ابتلينا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليَجُذُّنّها وليقطعن ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يعلم المساكين ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون: إن شاء الله. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ عذاب ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ليلاً، ولا يكون الطائف إلاَّ بالليل، وكان ذلك الطائف نارًا نزلت من السماء فأحرقتها ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ كالليل المظلم الأسود، قال الحسن: أي: صرم منها الخير، فليس فيها شيء.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ نادى بعضهم بعضًا لما أصبحوا: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يعني: الثمار والزروع والأعناب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ قاطعين للنخل.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾ مشوا إليها ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتسارون، يقول بعضهم لبعض سرًّا: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ «الحرد» في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب. وقال القرظي ومجاهد وعكرمة: على أمر مجتمع عليه قد أسسوه بينهم. وعن ابن عباس قال: على قدرة ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عند أنفسهم على جنتهم وثمارها، لا يحول بينها وبينهم أحد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لما رأوا الجنة محترقة قالوا: إنا لمخطئون الطريق، أضللنا مكان جنتنا، ليست هذه بجنتنا، فقال بعضهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ حرمنا خيرها ونفعها بمنعنا

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٦٢)، وفي الأدب، ومسلم برقم٢٨٥٣: (٤/ ٢١٩٠).

المساكين وتركنا الاستثناء.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هلا تستثنون، أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم: «ليصرمُنَّها مصبحين».

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ نزَّهوه عن أن يكون ظالمًا فيما فعل، وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بمنعنا المساكين.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يلوم بعضُهم بعضًا في منع المساكين حقوقهم، ونادوا على أنفسهم بالويل: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾ في منعنا حق الفقراء، وقال ابن كيسان: طغينا نِعَمَ الله فلم نشكرها ولم نصنع ما صنع آباؤنا من قبل. ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ثم أخبر بما عنده للمتقين فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ فقال المشركون: إنا نعطى في الآخرة أفضل مما تعطون، فقال الله تكذيبًا لهم: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نزل من عند الله ﴿فِيهِ﴾ في هذا الكتاب ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرؤون. ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ في ذلك الكتاب ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ تختارون وتشتهون.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود ومواثيق ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ مؤكدة، عاهدناكم عليها، فاستوثقتم بها منَّا، فلا ينقطع عهدكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ﴾ في ذلك العهد ﴿لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله، ثم قال لنبيه ﷺ:

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ كفيل لهم: بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: عندهم شركاء الله أرباب تفعل هذا، وقيل: شهداء يشهدون لهم بصدق ما يدعونه ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾. عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن أُناسًا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، هل تُضارُّون في رؤيةِ الشمس بالظهيرة صَحْوًا ليس معها سحاب؟ وهل تُضارُّون في رؤيةِ القمرِ ليلة البدر صَحْوًا ليس فيها سحاب»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تُضارُّون في رؤيةِ اللهِ يومِ القيامةِ إلاَّ كما تُضارُّون في رؤية أحدِهما، إذا كان يوم القيامة أَذَّن مُؤَذِّنٌ لِتَتْبَعْ كلُّ أُمَّةٍ ما كانت تعبدُ، فلا يبقى أحد كان يعبدُ اللهَ من بَرٍّ وفاجرٍ وغُبَّرِ أهلِ الكتابِ، فتُدعى اليهودُ فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد عزيرَ ابنَ الله، فيقال: كذبتم، ما اتَّخَذَ اللهُ من صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تَبْغونَ؟ فقالوا: عطشنا يا ربَّنا فاسقِنا، فيُشارُ إليهم: ألاَ تَرِدُون؟ فيُحشرون إلى النار كأنها سرابٌ يَحْطِمُ بعضُها بعضًا، فيتساقطون في النار، ثم تدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد المسيحَ ابنَ الله، فيقال لهم: ما اتَّخَذَ اللهُ من صاحبةٍ ولا ولدٍ، فيقال لهم: ماذا تَبْغونَ؟ فيقولون: عطشنا يا ربَّنا فاسقِنا، فيُشارُ إليهم: ألاَ تَرِدُون؟ فيُحشرون إلى جهنم كأنها سرابٌ يَحْطِمُ بعضُها بعضًا، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبقَ إلاَّ مَن كان يعبدُ الله من بَرٍّ وفاجرٍ، أتاهم ربُّ العالمين في أدنى صورة من التي رأوْه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ لِتَتْبَعْ كلُّ أُمَّةٍ ما كانت تعبدُ، قالوا: يا ربَّنا فارَقْنا الناسَ في الدنيا أفقرَ ما كنَّا إليهم ولم نصاحبْهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نُشْرِكُ بالله شيئًا، مرتين أو ثلاثًا، حتى إن بعضَهم لَيكادُ أن ينقلب فيقول: هل بينكم وبينه آيةٌ تعرفونه بها، فيقولون: نعم، فيكشفُ عن ساقٍ، فلا يبقى مَنْ كان يسجد لله من تلقاء نفسِه إلاَّ أَذِنَ اللهُ له بالسجود، فلا يبقى مَنْ كان يسجد نِفاقًا ورياءً إلاَّ جعل اللهُ ظَهْرَهُ طبقةً واحدةً كلَّما أرادَ أن يسجدَ خرَّ على قفاه ثم يرفعون رءوسَهم وقد تحوَّل في الصورة التي رأوه فيها أولَ مرة فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ثم يُضْرَبُ الجسرُ على جهنم وتحلُّ الشفاعة، ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم»، قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دحضٌ مُزِلَّةٌ فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكةٌ يكون بنجد فيها شويكةٌ يقال لها السَّعْدان، فيمر المؤمنون كطَرْفِ العين وكالبرقِ وكالريحِ وكالطيرِ وكأجاويدِ الخيل والركابِ، فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومخدوشٌ مُرْسَل، ومكردسٌ في نارِ جهنم، حتى إذا خَلَصَ المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدَّ مناشدة للهِ في استيفاءِ الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربَّنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرِجُوا من عرفتم، فتُحرَّمُ صورُهم على النار فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذتِ النارُ إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربَّنا ما بقي فيها أحد مِمَّنْ أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه،

فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربَّنا لم نذر فيها أحدًا مِمَّنْ أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ نصف دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربَّنا لم نذرْ فيها مِمَّنْ أمرتنا به أحدًا، ثم يقول: فارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرةٍ من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربَّنا لم نذر فيها أحدًا فيه خير ممن أمرتنا به»، وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾» [النساء: ٤٠]، «فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلاَّ أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّة في حَمِيْل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون منها إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟ قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله من النار الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضلُ من هذا، فيقولون: يا ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[١].

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: الكفار والمنافقين تصير أصلابهم كصياصي البقر، فلا يستطيعون السجود.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رءوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضًا من الثلج، وتسود وجوه الكافرين والمنافقين ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم ذل الندامة والحسرة ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ قال إبراهيم التيمي: يعني: إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة، وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حي على الفلاح فلا يجيبون ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أصحاء فلا يأتونه.

فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ

(١) أخرجه مسلم برقم١٨٣: (١/ ١٦٧ - ١٦٨)، وأخرج بعضه البخاري: (٨/ ٢٤٩ - ٢٥٠).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٦٣ - ٦٦٤).

بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: فدعني والمكذبين بالقرآن، وخلِّ بيني وبينهم. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنأخذهم بالعذاب ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعذبوا يوم بدر. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿٤٨﴾﴾ اصبر على أذاهم لقضاء ربك ﴿وَلَا تَكُن﴾ في الضجر والعجلة ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ربه في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غمًّا.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾ أدركته ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حين رحمه وتاب عليه ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ لطرح بالفضاء من بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يذم ويلام بالذنب يذنبه.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وذلك أن الكفار أرادوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين، فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثًا، ثم يرفع جانب خبائه فتمر بها الإبل فيقول: لم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه، فما تذهب إلاَّ قليلاً حتى تسقط منها طائفة وعدة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيه وأنزل: «وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ».

قال ابن قتيبة: ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرًا شديدًا بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك.

وقال الزَّجَّاج: يعني: من شدة عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية فيحدون إليه النظر بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس: موعظة للمؤمنين، قال الحسن: دواءُ إصابةِ العين أن يقرأ الإنسانُ هذه الآية.

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العين حق»، ونهى عن الوشم[1].

عن عبيد بن رفاعة الزرقي أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الطب: (١٠/ ٢٠٣).
(٢) أخرجه الترمذي: (٦/ ٢١٩ - ٢٢٠)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه: (٢/ ١١٦٠).

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

﴿الْحَاقَّةُ ۝١﴾ يعني: القيامة. ﴿مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما يقال: زيدٌ ما زيدٌ، على التعظيم لشأنه. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ أي: أنك لا تعلمها؛ إذْ لم تعاينها، ولم ترَ ما فيها من الأهوال.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾ قال ابن عباس وقتادة: بالقيامة سميت قارعة؛ لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ أي: بطغيانهم وكفرهم.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ عتت على خُزّانها فلم تطعهم، ولم يكن لهم عليها سبيل، وجاوزت المقدار فلم يعرفوا كم خرج منها. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أرسلها عليهم، وقال مقاتل: سلطها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ قال وهب: هي الأيام التي تسميها العرب أيام العجوز، ذات برد ورياح شديدة، ﴿حُسُومًا﴾ قال مجاهد وقتادة: متتابعة ليس لها فترة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾ هلكي جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة، وقيل: خالية الأجواف. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ أي: من نفس باقية، يعني: لم يبق منهم أحد.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧﴾

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ أي: ومن معه من جنوده وأتباعه، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ أي: قرى قوم لوط، يريد: أهل المؤتفكات، ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالخطيئة والمعصية، وهي الشرك.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: لوطًا وموسى ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ نامية، قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: شديدة.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ أي: عتا وجاوز حدّه حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه، ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾ أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ في السفينة التي تجري في الماء. ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ أي: لنجعل تلك الفعلة التي فعلنا، مِنْ إغْراق قوم نوح، ونجاة من حملنا معه ﴿لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ عبرةً وموعظةً ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي: تحفظها ﴿أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ أي: حافظة لما جاء من عند الله.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾ وهي النفخة الأولى ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا﴾ كسرتا ﴿دَكَّةٗ﴾ كسرة ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ فصارتا هباءً منثورًا.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ قامت القيامة. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾﴾ ضعيفة. ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ يعني: الملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ نواحيها وأقطارها ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: فوق رؤوسهم، يعني: الحملة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ أي: ثمانية أملاك.

يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخۡفَىٰ﴾ ﴿مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي: فِعْلة خافية. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾﴾ تعالوا اقرؤوا كتابيه. ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ علمت وأيقنت ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ أي: أني أحاسَب في الآخرة. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ﴾ حالة من العيش ﴿رَّاضِيَةٖ﴾ مرضية، يريد: يرضاها، بأن لقي الثواب وأمن العقاب. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾﴾ رفيعة. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ ثمارها قريبة لمن يتناولها. ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ قدمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ الماضية، يريد: أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ قال ابن السائب: تُلْوَى يده اليسرى من صدره خلف ظهره ثم يعطى كتابه، وقيل: تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ يتمنّى أنه لم يؤت كتابه؛ لما يرى فيه من قبائح أعماله. ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ يقول: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية الفارغة من كل ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أحيَ بعدها. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾﴾ لم يدفع عني من عذاب الله شيئًا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ ضلت عني حجتي، عن أكثر المفسرين، وقال ابن زيد: زال عني ملكي

وقوتي، ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ اجمعوا يده إلى عنقه ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ أي: أدخِلوه الجحيم ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ فأدخلوه فيها.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة مثل هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمة ـ أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أُرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها»[1].

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢﴾

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ لا يطعم المسكين في الدنيا، ولا يأمر أهله بذلك. ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ قريب، ينفعه ويشفع له. ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ وهو صديد أهل النار، مأخوذ من الغسل، كأنه غُسالة جروحهم وقروحهم. ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧﴾ أي: الكافرون.

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ «لا» ردٌّ لكلام المشركين، كأنه قال: ليس كما يقول المشركون أقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ أي: بما ترون، وبما لا ترون، قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها، فيدخل فيه جميع المخلوقات والموجودات، وقال: أقسم بالدنيا والآخرة، وقيل: «ما تبصرون»: ما على وجه الأرض، و«ما لا تبصرون»: ما في بطنها، وقيل: «ما تبصرون»: من الأجسام، و«ما لا تبصرون»: من الأرواح، وقيل: «ما تبصرون»: الإنس، و«ما لا تبصرون»: الملائكة والجن، وقيل: النعم الظاهرة والباطنة، وقيل: «ما تبصرون»: ما أظهر الله للملائكة واللوح والقلم، «وما لا تبصرون»: ما استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحدًا.

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: تلاوة رسول كريم، يعني: محمدًا ﷺ. ﴿وَمَا هُوَ

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣١٣ - ٣١٤)، وقال: (هذا حديث إسناده حسن صحيح)، والإمام أحمد: (٢/ ١٩٧).

بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ تخرَّص واختلق ﴿عَلَيْنَا﴾ محمد ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ وأتى بشيء من عند نفسه.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ لأخذناه وانتقمنا منه باليمين، أي: بالحق.

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تلقَّاها عُرَابَةُ باليَمِينِ

أي: بالقوة، عبر عن القوة باليمين؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه.

وقيل: معناه: لأخذناه بيده اليمنى، وهو مثلٌ معناه: لأذللناه وأهنَّاه، كالسلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من يريد، يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قال ابن عباس: أي: نياط القلب.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ مانعين، يحجزوننا عن عقوبته، والمعنى: أن محمدًا لا يتكلف الكذب لأجلكم مع علمه بأنه لو تكلفه لعاقبناه ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لعظة لمن اتقى عقاب الله.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ يوم القيامة، يندمون على ترك الإيمان به. ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ﴾ ومعنى الآية: سأل سائل عن عذاب ﴿وَاقِعٍ﴾ نازل كائن على مَن ينزل؟ ولمن ذلك العذاب؟ فقال الله مبيِّنًا مجيبًا لذلك السائل: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبيُّ ﷺ بالعذاب، قال بعضهم لبعض: مَنْ أهل هذا العذاب؟ ولمن هو؟ سلوا عنه محمدًا، فسألوه فأنزل الله: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ»، أي: هو للكافرين، ﴿لَيْسَ لَهُ﴾ أي: للعذاب ﴿دَافِعٌ﴾ مانع.

﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ قال ابن عباس: أي: ذي السموات، سماها معارج؛ لأن الملائكة تعرج فيها.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ يعني: جبريل عليه السلام ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا لو صعد غير المَلك، وذلك أنها تصعد منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة.

وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، يعني به:

مقدار طوله هذا دون غيره؛ لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر؛ لأنه يوم ممدود، ولو كان له آخر لكان منقطعًا.

وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله ﷺ «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، فما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[1].

فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ يا محمد على تكذيبهم، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾ يعني: العذاب ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ لأن ما هو آت قريب. ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ كعكر الزيت، وقال الحسن: كالفضة إذا أُذيبت. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ كالصوف المصبوغ، ولا يقال: «عهن» إلاَّ للمصبوغ. ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ أي: لا يسأل قريب قريبًا لشغله بشأن نفسه. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يرونهم، وليس في القيامة مخلوق إلاَّ وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس، فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسأله، ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه.

وقيل: «يبصرونهم»: يُعَرَّفونهم، أي: يُعَرَّفُ الحميم حميمه حتى يعرفه، ومع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يتمنى المشرك ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾. ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ عشيرته التي فصل منهم، وقال مجاهد: قبيلته، ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: التي تضمه ويأوي إليها. ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ ذلك الفداء من عذاب ربك.

﴿كَلَّآ﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ وهي اسم من أسماء جهنم، سميت بذلك؛ لأنها تتلظى، أي: تتلهب. ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: هي نزاعة للشوى، وهي الأطراف: اليدان والرجلان، وسائر الأطراف. ﴿تَدْعُوا۟﴾ أي: النار إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الحق، فتقول: إليَّ يا مشرك، إليَّ يا منافق، إليَّ إليَّ. ﴿وَجَمَعَ﴾ أي: جمع المال ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أمسكه في الوعاء، ولم يُؤدِ حق الله منه.

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٩/ ٧٢)، والإمام أحمد: (٣/ ٧٥)، وابن حبان في «موارد الظمآن»: ص٦٣٨).

۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ «الهلوع»: الحريص على ما لا يحل له، وقال سعيد بن جبير: شحيحًا، وقال عكرمة: ضجورًا. ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ أي: إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أصاب المال لم ينفق، ثم استثنى فقال:

﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ استثنى الجمع من الوحدان؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله: «إن الإنسان لفي خسر إلاَّ الذين آمنوا» ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يقيمونها في أوقاتها، يعني: الفرائض. ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ «قَآئِمُونَ»، أي: يقومون فيها بالحق، أو لا يكتمونها ولا يغيرونها. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فما بال الذي كفروا، ﴿قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين مقبلين إليك مادّي أعناقهم ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك.

نزلت في جماعة من الكفار، كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهزئون به

ويكذبونه، فقال الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يستمعون.
﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ حلقًا وفرقًا، و«العِزِين»: جماعات في تفرقة، واحدتها عِزَة.
﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ قال ابن عباس: معناه: أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها وقد كذَّب نبيي؟

﴿كَلَّآ﴾ لا يدخلونها، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، نبَّه الناس على أنهم خُلقوا من أصل واحد، وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ يعني: مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴿٤١﴾﴾ على أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله ورسوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ نسختها آية القتال.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ إلى إجابة الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ إلى شيء منصوب، يقال: فلان نُصْبَ عيني، ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون.

﴿خَٰشِعَةً﴾ ذليلة خاضعة ﴿أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المعنى: إنا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ أنذركم، وأبيِّن لكم رسالة الله بلغة تعرفونها.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴿٤﴾﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم، وقيل: يعني: ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان، وذلك بعض ذنوبهم ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ أي: يعافيكم إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يقول: آمنوا قبل الموت، تسلموا من العذاب، فإن أجل الموت إذا جاء لا يؤخر ولا يمكنكم الإيمان.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦)﴾ نفارًا وإدبارًا عن الإيمان والحق.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان بك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا دعوتي ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ غطوا بها وجوههم؛ لئلا يروني ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على كفرهم ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بك ﴿اسْتِكْبَارًا﴾.

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨)﴾ معلنًا بالدعاء، قال ابن عباس: بأعلى صوتي.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ كررت الدعاء مُعلنًا ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ قال ابن عباس: يريد: الرجل بعد الرجل، أكلمه سرًّا بيني وبينه، أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١)﴾ وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زمانًا طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت أموالهم ومواشيهم، فقال لهم نوح: استغفروا ربكم من الشرك، أي: استدعوا المغفرة بالتوحيد، يرسل السماء عليكم مدرارًا. ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ قال عطاء: يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة، وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته. ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حقَّ عظمته. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾ تارات، حالاً بعد حال، نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى تمام الخلق.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا (١٦)﴾.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مصباحًا مضيئًا.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧)﴾ أراد: مبدأ خلق آدم، خلقه من الأرض، والناس ولده.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها يوم البعث أحياء ﴿إِخْرَاجًا﴾.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ

ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ فرشها وبسطها لكم ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ طرقًا واسعة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ لم يجيبوا دعوتي ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني: اتبع السفلةُ والفقراءُ القادةَ والرؤساءَ الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلاَّ ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: كبيرًا عظيمًا. ﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه أسماء آلهتهم.

عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح تعبد في العرب بعده، أمَّا «وَدّ» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سُواع» فكانت لهذيل، وأما «يَغُوث» فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجرف عند سبأ، وأما «يَعُوق» فكانت لهمدان، وأمَّا «نَسْر» فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي: ضل بسبب الأصنام كثير من الناس ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ هذا دعاء عليهم بعدما أعلم الله نوحًا أنهم لا يؤمنون، وهو قوله: «أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ» [هود: ٣٦].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ أي: من خطيئاتهم، ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ لم يجدوا أحدًا يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أحدًا يدور في الأرض فيذهب ويجيء.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وكانا مؤمنين، ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ داري ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا عام في كل من آمن بالله وصدَّق الرسل ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ هلاكًا ودمارًا، فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم.

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وكانوا تسعة من جن نصيبين، وقيل: سبعة، استمعوا قراءة النبي ﷺ، ﴿فَقَالُوا﴾ لما رجعوا إلى قومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ قال ابن عباس: بليغًا.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ جلال ربنا وعظمته. ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ قيل: تعالى جل جلاله وعظمته عن أن يتخذ صاحبةً أو ولدًا.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، قال مجاهد وقتادة: هو إبليس ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ كذبًا وعدوانًا، وهو وصفه بالشريك والولد ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ حسبنا ﴿أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: كنَّا نظنهم صادقين في قولهم: إن لله صاحبةً وولدًا حتى سمعنا القرآن.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسي في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح. ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يعني: زاد الإنس الجنَ باستعاذتهم بقادتهم رهقاً. أي: إثماً.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ يقول الله تعالى: إن الجن ظنوا ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا معشر الكفار من الإنس ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته.

﴿وَأَنَّا﴾ تقول الجن: ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ من الملائكة ﴿وَشُهُبًا﴾ من النجوم.

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا

طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء ﴿مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: كنَّا نستمع ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أرصد له ليرمىٰ به.

قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ، ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدة الحراسة، وكانوا يسترقون السمع في بعض الأحوال، فلما بعث النبي ﷺ منعوا من ذلك أصلاً، ثم قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ برمي الشهب ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون الصالحين ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: جماعات متفرقين وأصنافًا مختلفة. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ علمنا وأيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لن نفوته إن أراد بنا أمرًا ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ إن طلبنا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ القرآن وما أتى به محمد ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ نقصانًا من عمله وثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾: مكروهًا يغشاه.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله ندًا، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: قصدوا طريق الحق وتوخَّوه.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الذين كفروا ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ كانوا وقود النار يوم القيامة.

ثم رجع إلى كفار مكة فقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ اختلفوا في تأويلها، فقال قوم: لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى فكانوا مؤمنين مطيعين ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيرًا، قال مقاتل: وذلك بعدما رُفع عنهم المطر سبع سنين، وقالوا: معناه: لو آمنوا لَوسَّعنا عليهم في الدنيا وأعطيناهم مالاً كثيرًا، وعيشًا رغدًا. ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم كيف شكرهم فيما خُوِّلوا.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ﴾، أي: ندخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ قال ابن عباس: شاقًّا، والمعنى: ذا صعد، أي: ذا مشقة.

وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا

﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾

﴿وَأَنَّ الْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني: المواضع التي بنيت للصلاة وذِكْرِ الله ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد، وأراد بها المساجد كلها.

وقال الحسن: أراد بها البقاع كلها؛ لأن الأرض جعلت كلها مسجدًا للنبي ﷺ.

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعضاء: الجبهة ـ وأشار بيده إليها ـ واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، ولا أكف الثوب ولا الشعر»[1].

فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة، فواحدها: «مسجِد» بكسر الجيم، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها: «مسجَد» بفتح الجيم.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ يعني: النبي ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعني: يعبده ويقرأ القرآن، ذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن ﴿كَادُوا۟﴾ يعني: الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: يركب بعضهم بعضًا، ويزدحمون حرصًا على استماع القرآن.

وقال سعيد بن جبير: هذا مِن قول النَّفرِ الذين رجعوا إلى قومهم من الجن، أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ واقتدائهم به في الصلاة.

وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني: لمَّا قام عبد الله بالدعوة تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاءهم به، ويطفئوا نور الله، فأبى الله إلاَّ أن يتم نوره، ويتم هذا الأمر، وينصره على من ناوأه.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: لقد جئت بأمر عظيم، فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم: إنما أدعو ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًّا ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ أي: لا أسوق إليكم رشدًا، أي: خيرًا.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ لن يمنعني من أحد إن عصيته ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ أميل إليه. ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ ففيه الجوار والأمن والنجاة. وقيل: لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا، لكن أبلغ بلاغًا من الله، فإنما أنا مرسل لا أملك إلاَّ ما ملكت ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ولم يؤمن ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٢٩٧)، ومسلم برقم ٢٣٠: (١/ ٣٥٤).

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ يعني: العذاب يوم القيامة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند نزول العذاب ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: العذاب، وقيل: القيامة ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أجلاً وغاية تطول مدتها، يعني: أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلاَّ الله.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ﴾ لا يُطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلاَّ من يصطفيه لرسالته، فيظهره على ما يشاء من الغيب ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ ذكر بعض الجهات دلالة على جميعها، «رصدًا»، أي: يجعل بين يديه وخلفه حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع، ومن الجن أن يستمعوا الوحي فيلقوا إلى الكهنة. ﴿لِّيَعْلَمَ أَن﴾ الرسل ﴿قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: علم الله ما عند الرسل فلم يخفَ عليه شيء ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ قال ابن عباس: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفُتْهُ علمُ شيءٍ حتى مثاقيل الذر والخردل.

سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ أي: المتلفف بثوبه. قال العلماء: كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة، ثم خوطب بعد بالنبي والرسول. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي: للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكان قيام الليل فريضة في الابتداء، وبيَّن قَدْرَه فقال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾ إلى الثلث. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف إلى الثلثين، خيَّره بين هذه المنازل، وكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى نصف الليل ومتى الثلثان، فكان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدرَ الواجب، واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله تعالى وخفف عنهم ونسخها بقوله: «فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم الله أن سيكون منكم مرضى...» الآية، فكان بين أول السورة وآخرها سنة.

عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقلت: يا أُم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلق نبي الله ﷺ كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أُم المؤمنين؟ قالت: ألستَ تقرأ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾»، قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا بعد الفريضة(١).

قال مقاتل وابن كيسان: كان هذا بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قال ابن عباس: بَيِّنْهُ بيانًا، وقال الحسن: اقرأهُ قراءة بيِّنة، وقال مجاهد: تَرَسَّلْ فيه ترسلاً.

عن قتادة قال: سئل أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال: كانت مدًّا مدًّا، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم(٢).

وعن عبد الله ـ يعني: ابن مسعود ـ قال: لا تنثروه نثرَ الدقل، ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدِكم آخر السورة(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأخيار وفيكم الأحمر والأسود، اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرؤونه، يقيمون حروفه كما يقام السهم لا يجاوز تراقيهم، يتعجلون آخره ولا يتأجلونه»(٤).

وعن أبي ذر قال: قام النبي ﷺ ليلة حتى أصبح بآية من القرآن، والآية: «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾» [المائدة: ١١٨](٥).

إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

(١) تقدم تخريجه في سورة القلم.

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٩١).

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل»: ص١١٦.

(٤) أخرجه أبو داود: (١/ ٣٩٥)، والإمام أحمد: (٥/ ٣٣٨).

(٥) أخرجه النسائي: (٢/ ١٧٧)، وابن ماجه برقم١٣٥٠: (١/ ٤٢٩)، وصححه الحاكم: (١/ ٢٤١) ووافقه الذهبي.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾. عن عائشة زوج النبي ﷺ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشاتي الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعاته كلها، وكل ساعة منه ناشئة. وقالت عائشة: الناشئة القيام بعد النوم، وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل، وقال عكرمة: هي القيام من أول الليل. وقال الحسن: كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة من الليل. ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم والراحة. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأصوب قراءة، وأصح قولاً؛ لهدأة الناس وسكون الأصوات.

وفي الجملة: عبادةُ الليل أشدُّ نشاطًا، وأتم إخلاصًا، وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب من عبادة النهار.

﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾ أي: تصرفًا وتقلبًا وإقبالاً وإدبارًا في حوائجك وأشغالك.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بالتوحيد والتعظيم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ قال ابن عباس وغيره: أخلص إليه إخلاصًا، وقال الحسن: اجتهد، وقال ابن زيد: تفرغ لعبادته، قال سفيان: توكل عليه توكُّلاً.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ قيّمًا بأمورك ففوضها إليه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ عندنا في الآخرة ﴿أَنكَالًا﴾ قيودًا عظامًا لا تنفك أبدًا، ﴿وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ غير سائغة، تأخذ بالحلق لا ينزل ولا يخرج، وهو الزقوم والضريع ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تتزلزل وتتحرك ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ رملاً سائلاً.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ شديدًا ثقيلاً، يعني: عاقبناه عقوبة غليظة. يخوف كفار مكة.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٨)، ومسلم برقم٢٣٣٣: (٤/ ١٨١٦ - ١٨١٧).

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كيف لكم بالتقوى يوم القيامة إذ كفرتم في الدنيا؟ يعني: لا سبيل لكم إلى التقوى إذا وافيتم يوم القيامة، ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ شمطًا من هوله وشدته.

ثم وصف هول ذلك اليوم فقال: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ متشقق لنزول الملائكة به، أي: بذلك المكان، ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ كائنًا.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ أي: آيات القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تذكير وموعظة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بالإيمان والطاعة.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أقل ﴿مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ يعني: المؤمنين، وكانوا يقومون معه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ قال عطاء: يريد: لا يفوته علم ما تفعلون، أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومون من الليل ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ قال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فنزل: «علم أن لن تحصوه» لن تطيقوا معرفة ذلك، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فعاد عليكم بالعفو والتخفيف ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يعني: في الصلاة، قال الحسن: يعني: في صلاة المغرب والعشاء.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر»، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: «فاقرأه في كل عشرين ليلة»، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: «فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني: المسافرين للتجارة يطلبون من رزق الله ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يطيقون قيام الليل.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: ما تيسر عليكم من القرآن، قال أهل التفسير: كان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بالصلوات الخمس وذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتم ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الذي أخرتم ولم تقدموه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٩٥)، ومسلم برقم١١٥٩: (٢/ ٨١٢).

عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه»؟ قالوا: يا رسول الله، ما منَّا من أحدٍ إلاَّ ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون»، قالوا: لا نعلم إلاَّ ذلك يا رسول الله، قال: «ما منكم رجل إلاَّ مال وارثه أحب إليه من ماله»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر»[(١)].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لذنوبكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

سورة المدثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾»، قلت: يقولون: «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾» [العلق: ١]؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، فقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلاَّ بما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا عليَّ ماء باردًا»، قال: «فدثروني وصبوا عليَّ ماء باردًا»، قال: «فنزلت: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾»[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري قِبَل السماء فإذا الملك الذي جاءني بِحِرَاء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت حتى هويت على الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني فزملوني، فأنزل الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾» إلى قوله: «فَٱهْجُرْ»، قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان، ثم حمي الوحي وتتابع[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ أي: أنذر كفار مكة. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ عظِّمه عمَّا يقوله عبدة الأوثان. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر عن الذنب، فكنى عن النفس بالثوب.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٧٦ - ٦٧٧)، ومسلم برقم١٦١: (١/ ١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٧٨ - ٦٧٩)، ومسلم برقم١٦١: (١/ ١٤٣).

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: إنه طاهر الثياب، وتقول لمن غدر: إنه لدنس الثياب. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها، وذلك أن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ المراد بالرجز: الأوثان، قال: فاهجرها ولا تقربها.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أي: لا تعطِ مالكَ مصانعةً لتُعطى أكثر منه. (﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ قيل: فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله.

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨﴾ أي: نفخ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، يعني: النفخة الثانية. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ يعني: النفخ في الصور ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ شديد.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعسر فيه الأمر عليهم ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ غير هين.

قوله عزَّ وجلَّ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ أي: خلقته في بطن أُمه وحيدًا فريدًا، لا مال له ولا ولد، نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، كان يسمى الوحيد في قومه. ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي: كثيرًا، قيل: هو ما يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة. ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ حضورًا بمكة، لا يغيبون عنه، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة. ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾ أي: بسطت له في العيش وطول العمر بسطًا. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ يرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: أن أزيده مالاً وولدًا وتمهيدًا.

﴿كَلَّا﴾ لا أفعل ولا أزيده، قالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ معاندًا. ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧﴾ سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها. وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «الصعود جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفًا، ثم يهوي»(١).

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾ الآيات، وذلك أن الله تعالى لما أنزل على النبي ﷺ «﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢﴾» إلى قوله: «﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾» [غافر: ١-٣]، قام النبي ﷺ في المسجد

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٢٩٧ - ٢٩٨)، والإمام أحمد: (٣/ ٧٥)، والطبري: (٢٩/ ١٥٥)، والحاكم: (٢/ ٥٠٧)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته القرآن أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: سحره محمد، صبأ والله الوليد، والله لتصبون قريش كلهم، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يابن أخي؟ قال: وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك النفقة يعينونك على كبر سنِّك، ويزعمون أنك زيَّنت كلام محمد وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة، لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد، فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولدًا، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل من الطعام؟! ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ قالوا: لا ـ وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة، من صِدقه ـ فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر ثم عبس، فقال: ما هو إلاَّ ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه وولده؟ فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في محمد والقرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن. ﴿فَقُتِلَ﴾ لُعن، وقال الزهري: عُذِّب ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ كرره للتأكيد، وقيل: معناه: لُعن على أي حال قدر من الكلام.

ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ويرده. ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ كلح وقطب وجهه، ونظر بكراهية شديدة كالمهتم المتفكر في شيء.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تكبر حين دعي إليه. ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا﴾ ما هذا الذي يقرؤه محمد ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروى ويحكى عن السحرة ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: يسارًا وجبرًا، فهو يأثره عنهما، وقيل: يرويه عن مسيلمة صاحب اليمامة.

قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ سأدخله ﴿سَقَرَ﴾ وسقر: اسم من أسماء جهنم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا تبقي ولا تذر فيها شيئًا إلاَّ أكلته وأهلكته. ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ مغيِّرة للجلد حتى تجعله أسود، يقال: لاحه السقم والحزن إذا غيَّره. ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: على النار تسعة عشر من الملائكة، وهم خزنتها.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لا رجالاً آدميين، فمَن ذا يغلب الملائكة؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي: عددهم في القلَّة ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ضلالة لهم، حتى قالوا ما قالوا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لأنه مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ يعني: مَن آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقًا بمحمد ﷺ إذا وجدوا ما قاله موافقًا لما في كتبهم ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ ولا يشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي شيء أراد بهذا الحديث؟ وأراد بالمثل الحديث نفسه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة، وهدى من صدق، كذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ﴾ يعني: سقر ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إلاَّ تذكرة وموعظة للناس.

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ هذا قسم، يقول: حقًّا. ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ يقال: دبر الليل وأدبر، إذا ولَّى ذاهبًا. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أضاء وتبين. ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ يعني: أن سقر لإحدى الأُمور العظام. ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ يعني: النار نذيرًا للبشر، قال الحسن: والله ما أنذر الله بشيءٍ أدهى منها. ﴿لِمَن شَاءَ﴾ بدل من قوله: «للبشر» ﴿مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ في الخير والطاعة ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنها

في الشر والمعصية، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل واحدٍ ممن آمن أو كفر.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ مرتهنة في النار بكسبها، مأخوذة بعملها. ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم في النار، ولكن يغفرها الله لهم، قال قتادة: علق الناس كلهم إلاَّ أصحاب اليمين. هم الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم. وقال الحسن: هم المسلمون المخلصون.

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ المشركين. ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أدخلكم ﴿فِى سَقَرَ﴾ فأجابوا. ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ لله. ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ في الباطل ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ وهو الموت.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين، فلا يبقى في النار إلاَّ أربعة، ثم تلا: «قالوا لم نكُ من المصلين» إلى قوله: «بيومِ الدين»، قال عمران بن الحصين: الشفاعة نافعة لكل واحد دون هؤلاء الذين تسمعون.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ مواعظ القرآن، «معرضين». ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ جمع: حمار ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ منفرة مذعورة. ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ قال مجاهد وقتادة والضحاك: «القسورة»: الرماة.

وقال أبو هريرة: هي الأسد، وذلك أن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منَّا كتاب منشور من الله أنك لرسوله، نؤمر فيه باتباعك.

فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لا يؤتون الصحف، وقيل: حقًّا، وكلٌّ ما ورد عليك منه فهذا وجهه ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: لا يخافون عذاب الآخرة، والمعنى: أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة.

﴿كَلَّآ﴾ حقًّا ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ اتعظ به.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال مقاتل: إلاَّ أن يشاء الله لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: أهل أن تتقى محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه.

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾. أي: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، هو تأكيد للقسم.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر، ولا تصبر على السراء والضراء.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾﴾ نزلت في عدي بن ربيعة، حليف بني زهرة، ختن الأخنس بن شريق الثقفي، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم اكفني جارَي السوء»، يعني: عديًّا والأخنس، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد، حدثني عن القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أُؤمن بك أَوَيَجْمَعُ الله العظام؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ»، يعني: الكافر «أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ» بعد التفرق والبلى فنحييه. ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾ أي: نقدر. مجاز الآية: بلى نقدر على جمع عظامه وعلى ما هو أعظم من ذلك، وهو ﴿عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ أنامله.

وقال الزَّجَّاج وابن قتيبة: معناه: ظن الكافر أنا لا نقدر على جمع عظامه، بل نقدر على أن نعيد السلاميات على صغرها، فنؤلف بينها حتى نسوي البنان، فمن قدر على جمع صغار العظام فهو على جمع كبارها أقدر.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾﴾ يقول: لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على جمع عظامه لكنه يريد أن يفجر أمامه، أي: يمضي قدمًا على معاصي الله ما عاش راكبًا رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب. وسمي الفاسق والكافر: فاجرًا؛ لميله عن الحق. ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾ أي: متى يكون ذلك، تكذيبًا به.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾.

قال قتادة ومقاتل: شخص البصر فلا يطوف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا، قيل: ذلك عند الموت. ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ أظلم وذهب نوره وضوءه. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران. ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ أي: الكافر المكذب ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي: المهرب.

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ لا حصن ولا حرز ولا ملجأ. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي: مستقر الخلق.

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ بما قدم من طاعة الله، وأخَّر من حق الله فضيَّعه.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ معناه: بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله، وهو سمعه وبصره وجوارحه. وقال أبو العالية وعطاء: بل الإنسان على نفسه شاهد. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ يعني: يشهد عليه الشاهد، ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه، كما قال تعالى: «يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ» [غافر: ٥٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله عزَّ وجلَّ: «لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾»، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي كان ربما يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية التي في لا أقسم بيوم القيامة: «لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾»[1].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ فإذا أنزلناه فاستمع. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عزَّ وجلَّ.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يختارون الدنيا على العقبى، ويعملون لها.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: حسنة، وقال مجاهد: مسرورة، يقال: نضر الله وجهه ينضر نضرًا، ونضَّره الله وأنْضره ونضُر وجهُه ينضرُ نُضْرةً ونَضارة، قال الله تعالى: «تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾» [المطففين: ٢٤] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس: وأكثر الناس تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب، قال الحسن: تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٨٢)، ومسلم برقم٤٤٨: (١/ ٣٣٠).

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ عابسة كالحة مغبرة مسودة. ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ تستيقن أن يعمل بها عظيمة من العذاب، والفاقرة: الداهية العظيمة.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ يعني: النفس، ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ فحشرج بها عند الموت، و«التراقي»: جمع الترقوة، وهي العظام بين ثغر النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت. ﴿وَقِيلَ﴾ أي: قال من حضره الموت: هل ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ هل من طبيب يرقيه ويداويه فيشفيه برقيته أو دوائه. ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن الذي بلغت روحه التراقي ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ من الدنيا. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ قال قتادة: الشدة بالشدة، وقال عطاء: شدة الموت بشدة الآخرة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مرجع العباد يومئذ إلى الله يساقون إليه.

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ يعني: أبا جهل، لم يصدِّق بالقرآن ولا صلى لله. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عن الإيمان. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ رجع إليهم ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر ويختال في مشيته.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ هذا وعيد على وعيد من الله عزَّ وجلَّ لأبي جهل وأمثاله، وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ هملاً، لا يُؤمر ولا يُنهى. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ تُصَبُّ في الرحم. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ فجعل فيه الروح فسوى خلقه. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ خلق من مائه أولادًا ذكورًا وإناثًا.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل هذا ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ: «أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾»، قال: سبحانك بلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ[1].

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ٤٢٢) وهو مرسل.

سورة الإنسان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به، يريد: كان شيئًا ولم يكن مذكورًا، وذلك من حين خلقه من طين إلى أن ينفخ فيه الروح.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: ولد آدم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: مَنْي الرجل ومني المرأة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط.

قال ابن عباس والحسن ومجاهد والربيع: يعني: ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد، فماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا صاحبه كان الشبه له. وقال الحسن: نطفة مشجت بدم، وهو دم الحيضة، فإذا حبلت ارتفع الحيض. وقال قتادة: هي أطوار الخلق نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظمًا، ثم يكسوه لحمًا، ثم ينشئه خلقًا آخر.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالأمر والنهي ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنَّا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرَّفناه طريق الخير والشر ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إما مؤمنًا سعيدًا وإما كافرًا شقيًا، وقيل: معنى الكلام الجزاء، يعني: بيَّنَّا له الطريق إن شكر أو كفر.

ثم بيَّن ما للفريقين فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ يعني: في جهنم، قوله: ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ يعني: في أيديهم، تغل إلى أعناقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ وقودًا شديدًا.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ يعني: المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم، ﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿مِن كَأْسٍ﴾ فيها شراب ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ قال قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك، قال

عكرمة: «مزاجها»: طعمها.

﴿عَيْنًا﴾ نصب تبعًا للكافور، ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: أولياء الله ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يقودونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ هذا من صفاتهم في الدنيا، أي: كانوا في الدنيا كذلك. قال قتادة: أراد: يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة، وغيرها من الواجبات، ومعنى النذر: الإيجاب. وقال مجاهد وعكرمة: إذا نذروا في طاعة الله وفوا به.

عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه، ومَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[1] ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فاشيًا ممتدًا.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه، وقيل: على حب الله عزَّ وجلَّ ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرًا لا مال له ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيرًا لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ هو المسجون من أهل القبلة، وقال قتادة: أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ والشُّكور مصدر كالعُقود والدُّخول والخروج، قال مجاهد وسعيد بن جبير: إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم، فأثنى عليهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ قال قتادة ومجاهد ومقاتل: «القمطرير»: الذي يقبض الوجوه والجباه بالتعبيس.

فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ الذي يخافون ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ حُسْنًا في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم. ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على طاعة الله واجتناب معصيته، وقال الضحاك: على الفقر، وقال عطاء: على الجوع ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ قال الحسن: أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الحال ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السُّرُر في الحِجال، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: صيفًا ولا شتاء. ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أي: قريبة منهم ظلال أشجارها، ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سُخِّرت وقُرِّبت ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ يأكلون من ثمارها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، ويتناولونها كيف شاؤوا

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (٢/ ٤٧٦) وهو قطعة من حديث أخرجه البخاري: (١١/ ٥٨١).

على أي حال كانوا.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴿١٦﴾﴾ قال المفسرون: أراد بياض الفضة في صفاء القوارير، فهي من فضة في صفاء الزجاج، يرى ما في داخلها من خارجها.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قدروا الكأس على قدر ريِّهم لا يزيد ولا ينقص، أي: قدرها لهم السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم يقدرونها ثم يسقون.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ يشوّق ويطرب، والزنجبيل: مما كانت العرب تستطيبه جدًّا، فوعدهم الله تعالى أنهم يسقون في الجنة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنة، قال مقاتل: لا يشبه زنجبيل الدنيا، قال ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن مما في الجنة وسماه ليس له في الدنيا مثل.

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ قال قتادة: سلسة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، قال الزَّجَّاج: سميت سلسبيلاً؛ لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ قال عطاء: يريد: في بياض اللؤلؤ وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط، كان أحسن منه منظومًا، وقال أهل المعاني: إنما شُبِّهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة، فلو كانوا صفًّا لشبهوا بالمنظوم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: إذا رأيت ببصرك ونظرت به ثَمَّ، يعني: في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ لا يوصف ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ وهو أن أدناهم منزلة ينظر إلى ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قيل: طاهرًا من الأقذار والأقذاء، لم تدنسه الأيدي والأرجل كخمر الدنيا.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: ما وصل من نعيم الجنة كان لكم جزاء بأعمالكم، «وكان سعيكم» عملكم في الدنيا بطاعة الله «مشكورًا».

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس: متفرقًا آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ يعني: من مشركي مكة ﴿آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾. قال قتادة: أراد بالآثم الكفور: أبا جهل، وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها، وقال: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن عنقه.

وقال مقاتل: أراد بـ «الآثم»: عتبة بن ربيعة، وبـ «الكفور» الوليد بن المغيرة، قالا للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر، قال عتبة: فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أُعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله هذه الآية.

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ ﴿٢٦﴾﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني: التطوع بعد المكتوبة.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفار مكة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدار العاجلة، وهي الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ يعني: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديدًا، وهو يوم القيامة، أي: يتركونه فلا يؤمنون به، ولا يعملون له.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ﴾ قوَّينا وأحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ أي: خلقهم، يقال: رجل حسن الأسر، أي: الخلق. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: هذه السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تذكير وعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ وسيلة بالطاعة.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لستم تشاؤون إلاَّ بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الأمر إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: المشركين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾.

سورة المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ

أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ يعني: الرياح، أُرسلت متتابعة كعرف الفرس. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾ يعني: الرياح الشديدة الهبوب. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ يعني: الرياح اللينة، وقال الحسن: هي الرياح التي يرسلها الله بشرًا بين يدي رحمته، وقيل: هي الرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر. ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، وروى مجاهد قال: هي الرياح تفرق السحاب وتبدِّده. ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ يعني: الملائكة، تلقي الذكر إلى الأنبياء، نظيرها: «رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ» [غافر: ١٥]. ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ أي: للإعذار والإنذار، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من أمر الساعة والبعث ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لكائن ثم ذكر متى يقع.

فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ محي نورها. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ شقت. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ قلعت من أماكنها. ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ ومعناهما: جمعت لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة، ليشهدوا على الأمم. ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ أي: أُخِّرت، وضرب الأجل لجمعهم فعجَّب العباد من ذلك اليوم، ثم بيَّن فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يوم يفصل الرحمن عزَّ وجلَّ بين الخلائق.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ يعني: الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم.

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب، يعني: كفار مكة بتكذيبهم محمدًا ﷺ. ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ يعني: النطفة. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ يعني: الرحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ وهو وقت الولادة.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ أي: المقدِّرون.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ وعاءً، ومعنى الكَفْت: الضم والجمع. ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴿٢٧﴾﴾ جبالاً ﴿شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذبًا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث، ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا. ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ يعني: دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق.

ثم وصف ذلك الظل فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ لا يظل من الحر ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ قال الكلبي: لا يرد لهب جهنم عنكم، والمعنى: أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لم يدفع عنهم حر اللهب.

﴿إِنَّهَا﴾ يعني: جهنم ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ وهو ما تطاير من النار، واحدها: شررة ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ وهو البناء العظيم. ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ جمع الأصفر، يعني: لون النار، والعرب تسمي سود الإبل صفرًا؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وفي القيامة مواقف، ففي بعضها: يختصمون ويتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم فلا ينطقون. ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لا عذر لمن أعرض عن مُنْعِمِه، وكفر بأياديه ونِعَمِه.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين أهل الجنة والنار ﴿جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: مكذبي هذه الأُمة والأولين الذين كذبوا بأنبيائهم.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ قال مقاتل: إن كانت لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ جمع ظل، أي: في ظلال الشجر ﴿وَعُيُونٍ﴾ الماء. ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ في الدنيا بطاعتي. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم قال لكفار مكة ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ مشركون بالله عزَّ وجلَّ مستحقون للعذاب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ صلُّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يصلُّون، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إنما يقال لهم هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به.

سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

﴿عَمَّ﴾ أصلُه: «عن ما» فأُدغمت النون في الميم وحذفت ألف «ما»، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: عن أي شيءٍ يتساءل هؤلاء المشركون؟ وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون: ماذا جاء به محمد؟.

ثم ذكر أن تساؤلهم عماذا فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ قال مجاهد والأكثرون: هو القرآن، دليله: قوله: «﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾» [ص: ٦٧]، وقال قتادة: هو البعث. ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ فمصدِّق ومكذِّب ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ «كلا» نفيٌ لقولهم، «سيعلمون» عاقبة تكذيبهم حين تنكشف الأُمور. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ وعيد لهم على أثر وعيد، ثم ذكر صنائعه ليعلموا توحيده، فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ فراشًا. ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ للأرض، حتى لا تميد. ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ أصنافًا: ذكورًا، وإناثًا. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ أي: راحة لأبدانكم. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ غطاء وغشاء يستر كل شيء بظلمته. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ المعاش: العيش، وكل ما يعاش فيه فهو معاش، أي: جعلنا النهار سببًا للمعاش والتصرف في المصالح. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ يريد: سبع سموات. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾ يعني: الشمس ﴿وَهَّاجًا﴾ مضيئًا منيرًا. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ يعني: الرياح التي تعصر السحاب. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: صبَّابًا، وقال مجاهد: مدرارًا. ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ وهو ما يأكله الناس ﴿وَنَبَاتًا﴾ ما تنبته

الأرض مما تأكله الأنعام. ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾ ملتفة بالشجر.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القضاء بين الخلق ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ لما وعد الله تعالى من الثواب والعقاب.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾ زمرًا زمرًا من كل مكان للحساب.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: شُقَّت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: ذات الأبواب، وقيل: تنحلُّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق. ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: هباءً منبثًّا، لعين الناظر كالسراب.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١﴾ طريقًا وممرًا، فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار. ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ للكافرين ﴿مَـَٔابًا﴾ مرجعًا يرجعون إليه. ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ جمع حُقب، والحُقب الواحد: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم ألف سنة.

قال الحسن: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: «لابثين فيها أحقابًا»، فوالله ما هو إلاَّ إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلاَّ الخلود.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾ رُوي عن ابن عباس: أن البرد النوم، تقول العرب: منع البردُ البردَ، أي: أذهب البرد النوم، وقال مقاتل: «لا يذوقون فيها بردًا» ينفعهم من حر، «ولا شرابًا» ينفعهم من عطش. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٢٥﴾ قال ابن عباس: «الغساق»: الزمهرير يحرقهم ببرده، وقيل: صديد أهل النار. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾، أي: جزيناهم جزاء وافق أعمالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾ لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم محاسبون. ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بما جاءت به الأنبياء ﴿كِذَّابًا﴾ تكذيبًا. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ٢٩﴾ أي: وكل شيء من الأعمال بيَّنّاه في اللوح المحفوظ.

﴿فَذُوقُوا۟﴾ أي: يقال لهم: فذوقوا ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ٤٠

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ فوزًا ونجاةً من النار. ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ يريد: أشجار الجنة وثمارها. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جواري نواهد قد تكعبت ثُدِيُّهُنَّ، ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ مترعة مملوءة، صافية. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ باطلاً من الكلام ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ تكذيبًا، لا يكذب بعضهم بعضًا. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: جازاهم جزاء وأعطاهم عطاء، «حسابًا»، أي: كافيًا وافيًا. ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلاَّ بإذنه، وقال الكلبي: لا يملكون شفاعة إلاَّ بإذنه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ واختلفوا في هذا الروح، قال الشعبي والضحاك: هو جبريل. وقال عطاء عن ابن عباس: «الروح» ملك من الملائكة، ما خلق الله مخلوقًا أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفًّا وقامت الملائكة كلهم صفًّا واحدًا، فيكون عظم خلقه مثلهم.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ في الدنيا، أي: حقًّا، وقيل: قال: لا إله إلاَّ الله.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الكائن الواقع، يعني: يوم القيامة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ مرجعًا وسبيلاً بطاعته، أي: فمن شاء رجع إلى الله بطاعته.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: كل امرىء يرى في ذلك اليوم ما قدم من العمل مثبتًا في صحيفته ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾ يعني: الملائكة تنزع أرواح الكفار من أجسادهم، و«الغَرْق» اسم أقيم مقام الإغراق، أي: والنازعات إغراقًا، والمراد بالإغراق المبالغة في المد. ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي: تحل حلاً رفيقًا فتقبضها. وعن ابن عباس: هي نفس المؤمن تنشط للخروج عند الموت، لما يرى من الكرامة؛ لأنه تعرض عليه الجنة قبل أن يموت. ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾ هم الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقًا، ثم يدعونها حتى تستريح، كالسابح بالشيء في الماء يرفق به. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾ قال مجاهد: هي الملائكة تسبق ابن آدم بالخير

والعمل الصالح. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ قال ابن عباس: هم الملائكة وُكِّلوا بأمور عرَّفهم الله عزَّ وجلَّ العمل بها.

وجواب هذه الأقسام محذوف، على تقدير: لتبعثنَّ ولتحاسبن.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ وهي النفخة الأولى، يتزلزل ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها جميع الخلائق. ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ وهي النفخة الثانية ردفت الأولى، وبينهما أربعون سنة.

وقال عطاء: «الراجفة» القيامة، و«الرادفة» البعث، وأصل الرجفة: الصوت والحركة.

عن أُبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام، وقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»(١).

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ خائفة قلقة مضطربة. ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ ذليلة، كقوله: «خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ...» الآية [الشورى: ٤٥]. ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: المنكرين للبعث إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنصير أحياءً بعد الموت كما كنَّا؟. ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟﴾ يعني: المنكرين: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة خائبة، يعني: إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ يعني: النفخة الأخيرة ﴿زَجْرَةٌ﴾ صيحة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ يسمعونها. ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ يعني: وجه الأرض، أي: صاروا على وجه الأرض بعد ما كانوا في جوفها.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ يقول: قد جاءك يا محمد حديث موسى. ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ فقال يا موسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ علا وتكبَّر وكفر بالله.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ١٥٢ - ١٥٣)، وقال: (هذا حديث حسن)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢١) ووافقه الذهبي.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: تتزكى وتتطهر من الشرك. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ أي: أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده فتخشى عقابه.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ وهي العصا واليد البيضاء ﴿فَكَذَّبَ﴾ بأنهما من الله ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولى وأعرض عن الإيمان ﴿يَسْعَىٰ﴾ يعمل بالفساد في الأرض. ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع قومه وجنوده ﴿فَنَادَىٰ﴾ لما اجتمعوا. ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فلا رب فوقي.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ قال الحسن وقتادة: عاقبه الله فجعله نكال الآخرة والأولى، أي: في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ الله عزَّ وجلَّ.

ثم خاطب منكري البعث فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يعني: أَخَلْقُكم بعد الموت أشدُّ عندكم وفي تقديركم أَمِ السماءُ؟ وهما في قدرة الله واحد، ثم وصف خلق السماء فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ سقفها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بلا شطور ولا شقوق ولا فطور. ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ والغطش والغبش: الظلمة ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أبرز وأظهر نهارها ونورها.

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد خلق السماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بسطها، والدَّحو: البسط. ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ يعني: النفخة الثانية التي فيها البعث، وقامت القيامة. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ ما عمل في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ في كفره ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ على الآخرة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ عن المحارم التي تشتهيها، قال مقاتل: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ متى ظهورها وثبوتها ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ لست في شيء من علمها وذكرها، أي: لا تعلمها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أي: منتهى علمها عند الله.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ أي: إنما ينفع إنذارك من يخافها.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ يعني: كفار قريش ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعاينون يوم القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا وقيل: في قبورهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ آخر يوم أو أوله. نظيره: قوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ» [الأحقاف: ٣٥].

سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

﴿عَبَسَ﴾ كلح ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض بوجهه. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي: لأن جاءه الأعمى، وهو ابن أُم مكتوم، وذلك أنه أتى رسولَ الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأُبي بن خلف وأخاه أُمية، يدعوهم إلى الله، يرجو إسلامهم، فقال ابن أُم مكتوم: يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والعبيد والسفلة، فعبس وجهه وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما، قال أنس بن مالك: فرأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ الموعظة.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾﴾ قال ابن عباس: عن الله وعن الإيمان بما له من المال. ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ تتعرض له وتقبل عليه وتصغي إلى كلامه. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾ لا يؤمن ولا يهتدي، إن عليك إلاّ البلاغ. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ يمشي، يعني: ابن أُم مكتوم ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ الله عزَّ وجلَّ.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ تتشاغل وتعرض عنه.

﴿كَلَّآ﴾ زجر، أي: لا تفعل بعدها مثلها ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: هذه الموعظة، ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة وتذكير للخلق. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ من عباد الله ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتعظ به. ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ يعني اللوح المحفوظ. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر عند الله عزَّ وجلَّ، وقيل: مرفوعة، يعني: في السماء السابعة

﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ لا يمسها إلى المطهرون، وهم الملائكة. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد: كَتَبَة، وهم الملائكة الكرام الكاتبون.

ثم أثنى عليهم فقال: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: كرامٍ على الله، بررة مطيعين، جمع: بار.

قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ أي: لُعن الكافر، قال مقاتل: نزلت في عتبة بن أبي لهب ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده، على طريق التعجب، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾﴾ لفظه استفهامٌ ومعناه التقرير.

ثم فسره فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ أطوارًا: نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ أي: طريق خروجه من بطن أُمه، قال السدي ومقاتل والحسن ومجاهد: يعني: طريق الحق والباطل، سهل له العلم به، كما قال: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ» [الإنسان: ٣]، «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾» [البلد: ١٠]، وقيل: يسر على كل أحد ما خلقه وقدَّره عليه. ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ جعل له قبرًا يوارَى فيه. ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ أحياه بعد موته.

﴿كَلَّا﴾ ردًّا عليه، أي: ليس كما يقول ويظن هذا الكافر، وقال الحسن: حقًّا ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي: لم يفعل ما أمره الله به، ولم يؤد ما فرض عليه، ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾﴾ كيف قدره ربُّه ودبره له وجعله سببًا لحياته.

ثم بيَّن فقال: ﴿أَنَّا﴾ ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ يعني: المطر. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بالنبات ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ يعني: الحبوب التي يُتغذى بها. ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ وهو القت الرطب، سُمي بذلك؛ لأنها يقضب في كل الأيام، أي: يقطع، وقال الحسن: القضب: العلف للدواب. ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو ما يعصر منه الزيت ﴿وَنَخْلًا﴾ جمع: نخلة. ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ غلاظ الأشجار، الملتفة الشجر بعضه في بعض. ﴿وَفَاكِهَةً﴾ يريد: ألوان الفواكه ﴿وَأَبًّا﴾ يعني: الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس، مما يأكله الأنعام والدواب. ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ﴾ منفعة لكم، يعني: الفاكهة ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ يعني: العشب.

ثم ذكر القيامة فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ يعني: صيحة القيامة، سميت بذلك: لأنها تصخ الأسماع. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ يشغله عن شأن غيره.

عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناسُ حفاةً عُراة غُرْلاً، قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان»، فقلتُ: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «قد شُغِلَ الناس، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه»(١).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ مشرقة مضيئة. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ بالسرور ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فرحة بما نالت من كرامة الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ سواد وكآبة الهم والحزن. ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ تعلوها وتغشاها ظلمة وكسوف، قال ابن عباس: تغشاها ذلة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يصنع بهم هذا ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ جمع الكافر والفاجر.

سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر في أحوال القيامة فليقرأ «إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أظلمت، وأصل التكوير: جمع بعض الشيء إلى بعض، فمعناه: أن الشمس يجمع بعضُها إلى بعض ثم تلف، فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر يكوَّران يوم القيامة»(٣).

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ أي: تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ قلعت عن وجه الأرض فصارت هباءً منثورًا. ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ وهي

---

(١) أخرجه الحاكم: (٢/ ٥١٤ - ٥١٥)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣)، والإمام أحمد: (٢/ ٣٧)، وصححه الحاكم: (٢/ ٥١٥) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ٢٩٧).

النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر، «عُطِّلت»: تركت مهملة بلا راع، أهملها أهلها، لما جاءهم من أهوال يوم القيامة. ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ يعني: دواب البر ﴿حُشِرَتْ﴾ جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ قال ابن عباس: أوقدت فصارت نارًا تضطرم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾. روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية؟ فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار. وروي عن عكرمة قال: وإذا النفوس زوجت ردت الأرواح في الأجساد.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ وهي الجارية المدفونة حية، سميت بذلك؛ لما يطرح عليها من التراب فيؤدها، أي: يثقلها حتى تموت، وكانت العرب تدفن البنات حية مخافة العار والحاجة.

روى عكرمة عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلامًا حبسته.

﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ ومعناه: تُسأل الموءودة، فيقال لها: بأي ذنب قُتِلْتِ؟ ومعنى سؤالها: توبيخ قاتلها؛ لأنها تقول: قُتلتُ بغير ذنب. ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ يعني: صحائف الأعمال تنتشر للحساب. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ قال الفرَّاء: نزعت فطويت، وقال الزَّجَّاج: قلعت كما يقلع السقف. ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ أي: أوقدت لأعداء الله.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ قُرِّبت لأولياء الله. ﴿عَلِمَتْ﴾ عند ذلك ﴿نَفْسٌ﴾ أي: كل نفس ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من خير أو شر، وهذا جواب لقوله: «إذا الشمس كورت» وما بعدها.

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ «لا» زائدة، معناه: أقسم بالخنس ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار، فتُخفى فلا تُرى. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ قال الحسن: أقبل بظلامه، وقال الآخرون: أدبر، تقول العرب: عسعس الليل، وسعسع: إذا أدبر ولم يبق منه إلاَّ اليسير. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أقبل وبدا أوله، وقيل: امتد ضوؤه وارتفع.

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: جبريل، أي: نزل به جبريل عن الله تعالى.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ في المنزلة. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات تطيعه الملائكة، ومِنْ طاعة الملائكة إياه: أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ، وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله ﴿أَمِينٍ﴾ على وحي الله ورسالته إلى أنبيائه.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ يقول لأهل مكة: وما صاحبكم - يعني: محمدًا ﷺ - بمجنون، وهذا أيضًا من جواب القسم، أقسم على أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمدًا ليس كما يقوله أهل مكة، وذلك أنهم قالوا: إنه مجنون، وما يقول بقوله من عند نفسه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ يعني: رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وهو الأُفق الأعلى من ناحية المشرق. ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الوحي، وخبر السماء، وما اطلع عليه مما كان غائبًا عنه من الأنباء والقصص ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: بمتَّهم، والظنة: التهمة، وتقول العرب: ضننت بالشيء بكسر النون أَضِنُّ به ضِنًّا وضِنانةً فأنا به ضَنينٌ، أي: بخيل.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان؟ قال الزَّجَّاج: أيّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم.

ثم بيَّن فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ موعظة للخلق أجمعين. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يتبع الحق الحق ويقيم عليه. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلاَّ بمشيئة الله، وفيه إعلام أن أحدًا لا يعمل خيرًا إلاَّ بتوفيق الله ولا شرًّا إلاَّ بخذلانه.

سورة الانفطار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ۞ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

﴿۞ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ انشقت. ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطت. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فُجِّر بعضها في بعض، واختلط العذب بالملح، فصارت بحرًا واحدًا. ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ بحثت وقلب ترابها، وبعث ما فيها من الموتى أحياءً. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ قيل: «ما قدمت» من عمل صالح أو سيىء، و«أخرت» من سنة حسنة أو سيئة، وقيل: «ما قدمت» من الصدقات، و«أخرت» من التركات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ ما خدعك وسوّل لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك، والمعنى: ماذا أمنّك من عذابه؟. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ أي: صرفك وأمالك إلى أي صورةٍ شاء حسنًا وقبيحًا وطويلاً وقصيرًا. ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ في أي شبهٍ من أب أو أُم أو خال أو عم.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بالجزاء والحساب. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم. ﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كَٰتِبِينَ﴾ يكتبون أقوالكم وأعمالكم. ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من خيرٍ أو شرٍّ.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ الأبرار الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله عزَّ وجلَّ واجتناب معاصيه.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله فإنك تعلم مالك عند الله، قال: فأين أجد في كتاب الله؟ قال عند قوله: «إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾»، قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: «قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ» [الأعراف: ٥٦].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ يدخلونها يوم القيامة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم عظّم ذلك اليوم فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ ثم كرر تعجبًا لشأنه فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ أي: في يوم، يعني: هذه الأشياء في يوم لا تملك ﴿نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ﴾ قال مقاتل: يعني: لا تملك النفس كافرة شيئًا من المنفعة ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي: لم يُملِّكِ اللهُ في ذلك اليوم أحدًا شيئًا كما ملّكهم في الدنيا.

سورة المطففين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ يعني: الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس.

عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١»، فأحسنوا الكيل[١].

وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية.

فالله تعالى جعل الويل للمطففين، ثم بيَّن أن المطففين مَنْ هم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ المعنى: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل والوزن، وأراد: الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم، أي: للناس.

﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ يستيقن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ يعني: يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ من قبورهم ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لأمره ولجزائه ولحسابه.

عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[٢].

عن المقداد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو اثنين» ـ قال سليم: لا أدري أي الميلين يعني: مسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين؟ ـ قال: «فتصهرهم الشمس فيكون في العَرَق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجامًا»، فرأيت رسول الله ﷺ وهو يشير بيده إلى فيه يقول: «ألجمه إلجامًا»[٣].

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّآ﴾ ردع، أي: ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا، ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ الذي كتبت فيه أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ هي الأرض السابعة السفلى، فيها أرواح الكفار.

---

(١) أخرجه النسائي: (٢/ ٥٠٢)، وابن ماجه برقم٢٢٢٣: (٢/ ٧٤٨)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٣) ووافقه الذهبي، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم١٧٧٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٩٦)، ومسلم برقم٢٨٦٢: (٤: ٢١٩٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم٢٨٦٤: (٤/ ٢١٩٤).

عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «سجين: أسفل سبع أرضين، وعلِّيُّون: في السماء السابعة تحت العرش»[1].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك. ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ ليس هذا تفسير السِّجِّين، بل هو بيان الكتاب المذكور في قوله: «إن كتاب الفجار»، أي: هو كتاب مرقوم، أي: مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

﴿كَلَّا﴾ قال مقاتل: أي: لا يؤمنون، ثم استأنف: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذاك الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾»[2].

وأصل «الرين»: الغلبة، يقال: رانت الخمرُ على عقله تَرِينُ رَيْنًا وريونًا إذا غلبت عليه فسكر، ومعنى الآية، غلبت على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها، قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ عن كرامته ورحمته ممنوعون، وقال قتادة: هو ألا ينظر إليهم ولا يزكيهم، وقال أكثر المفسرين: عن رؤيته. وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب الله أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه.

وقال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ في قوله: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون»: دلالة على أن أولياء الله يرون الله.

ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبين عن الله يدخلون النار فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ لداخلو النار. ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ أي: تقول لهم الخزنة ﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥

---

(١) أخرجه الإمام أحمد مطولاً: (٤/ ٢٨٧ – ٢٨٨)، وأخرجه مختصرًا: أبو داود في الجنائز: (٤/ ٣٣٧)، والنسائي: (٤/ ٧٨)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٧ – ٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٥٣ – ٢٥٤)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي: (٢/ ٥٠٥)، وفي «عمل اليوم والليلة» برقم٤١٨، وابن ماجه برقم٤٢٤٤: (٢/ ١٤١٨)، والإمام أحمد: (٢/ ٢٩٧)، وصححه الحاكم: (٢/ ٥١٧) ووافقه الذهبي، وابن حبان برقم١٧٧١ .

خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿كَلَّآ﴾ قال مقاتل: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه.

ثم بيَّن محل كتاب الأبرار فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ روينا عن البراء مرفوعًا: «إن عليين في السماء السابعة تحت العرش». ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾﴾ ليس بتفسير عليين، أي: مكتوب أعمالهم، كما ذكرنا في كتاب الفجار، وقيل: كتب هناك ما أعدّ الله لهم من الكرامة. ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ يعني: الملائكة الذين هم في عليين، يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب أو ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعمة. ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة مما ترى في وجوههم من النور والحسن والبياض. ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ خمر صافية طيبة، ﴿مَّخۡتُومٍ﴾ ختم ومنع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار. ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾ أي: طينه ﴿مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ شرب ينصبُّ عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم.

وأصل الكلمة من العلو، يقال للشيء المرتفع: سنام، ومنه: سنام البعير، قال الضحاك: هو شراب اسمه تسنيم، وهو أشرف الشراب.

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: منها، وقيل: يشرب بها ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ صرفًا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ أشركوا، ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ وبهم يستهزئون. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ﴾ يعني: من فقراء المؤمنين بالكفار ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾. والغمز الإشارة بالجفن والحاجب، أي: يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً. ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ يعني: الكفار ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ معجبين بما هم فيه، يتفكهون بذكرهم. ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ رأوا أصحاب النبي ﷺ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ يأتون محمدًا ﷺ يرون أنهم على شيء ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ﴾ يعني: المشركين ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ أعمالهم، أي: لم يوكلوا بحفظ أعمالهم. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: في

الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قال أبو صالح: وذلك أنه يفتح للكفار في النار أبوابها، ويقال لهم: اخرجوا، فإذا رأوها مفتوحة أقبلوا إليها ليخرجوا، والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، يفعل ذلك بهم مرارًا والمؤمنون يضحكون. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ من الدر والياقوت ﴿يَنظُرُونَ﴾ إليهم في النار.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ هل جوزي ﴿ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: جزاء استهزائهم بالمؤمنين، ومعنى الاستفهام هاهنا: التقرير، وثوب وأثيب وأصاب بمعنى واحد.

سورة الانشقاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ۞ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

﴿۞ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ انشقاقها من علامات القيامة. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته، من الأَذَنِ وهو الاستماع ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحق لها أن تطيع ربها. ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ سُوِّيت كمدِّ الأديم، فلا يبقى فيها بناء ولا جبل. ﴿وَأَلْقَتْ﴾ أخرجت ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ خلت منها. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: ساع إليه في عملك، والكدح: عمل الإنسان وجهده في الأمر من الخير والشر حتى يكدح ذلك فيه، أي: يؤثر، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: ملاقي جزاء عملك خيرًا كان أو شرًّا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ ديوان أعماله ﴿بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

عن ابن عمر، حدثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلاَّ راجعت فيه حتى تعرفه، قالت: قال النبي ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّب»، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقلت: يا رسول الله، أوليس يقول الله عزَّ وجلَّ: «فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا»؟ قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نُوقش في الحساب هلك»[1].

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٩٦ - ١٩٧)، ومسلم برقم٢٨٧٦: (٤/ ٢٢٠٤).

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ يعني: في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿مَسْرُورًا﴾ بما أوتي من الخير والكرامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ فتغلُّ يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده الشمال وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ ينادي بالويل والهلاك إذا قرأ كتابه فيقول: يا ويلاه يا ثبوراه. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ يعني: في الدنيا، باتباع هواه وركوب شهوته. ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أن لن يرجع إلينا ولن يبعث، ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس كما ظن، بل يحور إلينا ويبعث ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ من يوم خلقه إلى أن بعثه.

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ قال مجاهد: هو النهار كله، وقال عكرمة: ما بقي من النهار، وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأُفق بعد غروب الشمس. ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ اجتمع أي: جمع وضمَّ، والمعنى: والليل وما جمع وضمَّ ما كان بالنهار منتشرًا من الدواب، وذلك أن الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ اجتمع واستوى وتم نوره وهو في الأيام البيض. ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ يعني: لتركبن يا محمد ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال الشعبي ومجاهد: سماء بعد سماء.

عن مجاهد قال: قال ابن عباس: «لتركبن طبقًا عن طبق» حالاً بعد حال، قال هذا نبيكم ﷺ[1].

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لتبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ»[2]؟

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ استفهام إنكار. ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ قال الكلبي ومقاتل: لا يصلُّون.

عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في «اقرأ باسم ربك»، و«إذا السماء انشقت»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣/ ٣٠٠)، ومسلم برقم٢٦٦٩: (٤/ ٢٠٥٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم٥٧٨: (١/ ٤٠٦).

عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ إذا السماء انشقت، فسجد فقلت: ما هذا؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه[1].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بالقرآن والبعث ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ في صدورهم من التكذيب، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ غير مقطوع ولا منقوص.

سورة البروج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾ هو يوم القيامة. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود: يوم القيامة، والمشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة، ما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها خيرًا إلاَّ استجاب الله له، أو يستعيذ به من شرٍّ إلاَّ أعاذه منه»[2]، وهذا قول ابن عباس.

والأكثرون: أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر.

عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا جئت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا جئت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذْ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الراهبُ أفضل أم الساحر؟ فأخذ حجرًا ثم قال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أيْ بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فاصبر فلا تدلَّ عليَّ، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك وكان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، قال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٥٥٩)، ومسلم برقم٥٧٨ : (١/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٥٨).

بصرك؟ قال: ربي عزَّ وجلَّ، قال أوَلَكَ ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرىء به الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، قال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجي بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاَّ فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، فجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور إلى لجة بحر كذا فإن رجع عن دينه وإلاَّ فاطرحوه في البحر، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا فجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد قوسه، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام ثلاثًا، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرُك، قد آمن الناسُ، فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فخدت وأضرم بها النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له اقتحم، قال: ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّاه، اصبري فإنك على الحق»[١].

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ أي: لعن. والخدود: الشقّ المستطيل في الأرض.

---

(١) في كتاب الزهد برقم٣٠٠٥: (٤/٢٢٩٩).

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ قال الربيع بن أنس: نجّى الله المؤمنين الذين أُلقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار، وخرجت النار إلى من على شفير الأُخدود من الكفار فأحرقتهم. ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ أي: عند النار جلوس لتعذيب المؤمنين. ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الملك وأصحابه الذين خدُّوا الأُخدود ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عرضهم على النار، وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم ﴿شُهُودٌ﴾ حضور.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كرهوا منهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ما أنكروا عليهم ذنبًا إلاَّ إيمانهم بالله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أفعالهم ﴿شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ عذّبوا وأحرقوا ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ بما أحرقوا المؤمنين، وقيل: ولهم عذاب الحريق في الدنيا، وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت إليهم من الأخدود.

ثم ذكر ما أعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ قال ابن عباس: إن أخذه بالعذاب إذا أَخذَ الظَّلَمَةَ لشديدٌ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ أي: يخلقهم أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم أحياءً بعد الموت. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحب لهم. ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ «المجيدِ» صفة العرش، ومعناه: الكمال، والعرش: أحسن الأشياء وأكملها. ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧﴾ قد أتاك خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء، ثم بيَّن من هم فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك يا محمد ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ لك وللقرآن، كدأب آل فرعون من قبلهم، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ عالم بهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير والتحريف، قال الله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩» [الحجر: ٩]. ومنه نسخ الكتب، محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان.

سورة الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ وهذا قسم، و«الطارق»: النجم يظهر بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾؟ ثم فسّره فقال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ أي: المضيء المنير. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ جواب القسم ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ما كل نفس إلاَّ عليها حافظ، وتأويل الآية: كل نفس عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكتسب من خير وشر.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ أي: من أي شيءٍ خلقه ربُّه، أي: فلينظر نظر المتفكر.

ثم بيَّن فقال: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ مدفوق، أي: مصبوب في الرحم، وهي المني، وأراد ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الولد مخلوق منهما، وجعله واحدًا؛ لامتزاجهما.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ يعني: صُلب الرجل وترائب المرأة، و«الترائب»: جمع التَّربية، وهي عظام الصدر والنحر، قال ابن عباس: هي موضع القلادة من الصدر. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ قال مجاهد: على رد النطفة في الإحليل، وقال عكرمة: على رد الماء في الصلب الذي خرج منه. ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ وذلك يوم القيامة تبلى السرائر: تظهر الخفايا، قال قتادة ومقاتل: تختبر الأعمال. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: ما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره من الله.

ثم ذكر قَسَمًا آخر فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ أي: ذات المطر؛ لأنه يرجع كل عام ويتكرر، وقال ابن عباس: هو السحاب يرجع بالمطر. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي: تتصدع وتنشقُّ عن النبات والأشجار والأنهار.

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ حق وجدٌّ يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ باللعب والباطل.

ثم أخبر عن مشركي مكة فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ يخافون النبي ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ وكيد الله: استدراجه إياهم من حيث لا يعلمون.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا وعيد من الله عزَّ وجلَّ لهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ قليلاً، ومعنى مهِّل وأمهل: أنظر ولا تعجل، فأخذهم الله يوم بدر، ونسخ الإمهال بآية السيف.

سورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ يعني: قل: سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين. عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ «﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾»، فقال: «سبحان ربي الأعلى»(1). وقال قوم: معناه: نزِّه ربك الأعلى عمَّا يصفه به الملحدون. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ خلق كل ذي روح، فسوَّى اليدين والرجلين والعينين، ومعنى «سوَّى»: عدل قامته. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾. قال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتعها. ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أنبت العشب وما ترعاه النَّعم. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد الخضرة ﴿غُثَآءً﴾ هشيمًا باليًا، كالغثاء الذي تراه فوق السيل ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود بعد الخضرة.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ سنعلمك بقراءة جبريل عليك ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه، وما نسخ الله تلاوته من القرآن، كما قال: «مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا» [البقرة: ١٠٦]، والإنساء نوع من النسخ. وقال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل عليه السلام، لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها؛ مخافة أن ينساها، فأنزل الله تعالى: «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦»، فلم ينس بعد ذلك شيئًا.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ منهما، والمعنى: أنه يعلم السر والعلانية.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ قال مقاتل: نهوِّن عليك عمل أهل الجنة ـ وهو معنى قول ابن عباس ـ ونيسرك لأن تعمل خيرا. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة. ﴿فَذَكِّرْ﴾ عِظْ بالقرآن ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ الموعظة والتذكير، والمعنى: نفعت أو لم تنفع. ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ سيتعظ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: يتجنب الذكرى ويتباعد عنها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الشقي في علم الله. ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ العظيمة والفظيعة؛ لأنها أعظم وأشد حرًّا من نار الدنيا. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة تنفعه.

---

(1) أخرجه أبو داود: (١/ ٤٢٢)، وصححه الحاكم: (١/ ٢٦٣ - ٢٦٤) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٢٣٢).

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ تطهَّر من الشرك وقال: لا إله إلاَّ الله، روي عن أبي سعيد الخدري في قوله: «قد أفلح من تزكى»، قال: أعطى صدقة الفطر. ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

قال الشيخ الإمام محي السنة: يجوز أن يكون النزول سابقًا على الحكم كما قال: «وأنت حل بهذا البلد»، فالسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح حتى قال عليه الصلاة والسلام: «أُحِلَّتْ لي ساعةً من نهار»[1]، وكذلك نزل بمكة: «سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾» [القمر: ٤٥]، قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يَثبُ في الدرع ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر، «وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾»، أي: وذكر ربه فصلى، قيل: الذكر تكبيرات العيد، والصلاة صلاة العيد، وقيل: الصلاة هاهنا الدعاء.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ قال عرفجة الأشجعي: كنَّا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية، فقال لنا: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قلنا: لا، قال: لأن الدنيا أُحضرت، وعجِّل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وأن الآخرة نُعِتت لنا وزويت عنَّا، فأحببنا العاجل وتركنا الآجل.

﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ يعني: ما ذكر من قوله: «قد أفلح من تزكى» إلى تمام أربع آيات ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: في الكتب الأُولى التي أُنزلت قبل القرآن. ثم بيَّن الصحف فقال:

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما بـ«سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾»، و«قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾»، وفي الوتر بـ«قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾»[2].

سورة الغاشية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم١٣٥٤: (٢/ ٩٨٨).

(٢) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار»: (١/ ٢٨٥)، والدارقطني في «السنن»: (١/ ٢٤)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (١/ ٣٠٥) ووافقه الذهبي.

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ يعني: قد أتاك حديث القيامة، تغشى كلَّ شيء بالأهوال. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلة. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يعني: الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام مِنْ عَبَدَةِ الأوثان وكفار أهل الكتاب. وقال عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في الآخرة في النار. ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ قال ابن عباس: قد حميت، فهي تتلظى على أعداء الله. ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ متناهية في الحرارة، قد أوقدت عليها جهنم منذ خلقت. ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾. قال ابن زيد: أما في الدنيا فإن «الضريع»: الشوك اليابس الذي يبس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، وجاء في الحديث عن ابن عباس: «الضريع: شيءٌ في النار شبه الشوك، أمرُّ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حرًّا من النار». ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

ثم وصل أهل الجنة فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ قال مقاتل: في نعمة وكرامة. ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ في الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ لغو وباطل. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها، ثم ترتفع إلى مواضعها. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ عندهم، جمع: كوب، وهو الإبريق الذي لا عروة له. ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ومرافق ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها بجنب بعض. ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ يعني: البسط العريضة، قال ابن عباس: هي الطنافس التي لها خمل، ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة، وقيل: متفرقة في المجالس.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ قال أهل التفسير: لما نعت الله تعالى في هذه السورة ما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه، فذكَّرهم الله تعالى صنعه فقال: «أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ» من بين سائر الحيوانات «كَيْفَ خُلِقَتْ»، وكانت الإبل من عيش العرب، لهم فيها منافع كثيرة، فلما صنع لهم ذلك في الدنيا صنع لأهل الجنة فيها ما صنع. وتكلمت الحكماء في وجه

تخصيص الإبل من بين سائر الحيوانات؛ فقال مقاتل: لأنهم لم يروا بهيمة قط أعظم منها. ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾﴾ عن الأرض حتى لا ينالها شيء بغير عمد. ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾﴾ على وجه الأرض مرساة لا تزول. ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾ بسطت. ﴿فَذَكِّرۡ﴾ أي: عِظْ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ بمسلَّط، فتقتلهم وتكرههم على الإيمان. ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ لكن من تولى وكفر بعد التذكير. ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ وهو أن يدخله النار. ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾ رجوعهم بعد الموت. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ يعني: جزاءهم بعد المرجع إلى الله عزَّ وجلَّ.

سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾﴾ أقسم الله عزَّ وجلَّ بالفجر. ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾﴾ روي عن ابن عباس: أنها العشر الأُوَل من ذي الحجة. ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾﴾ «الشفع»: الخلق، قال الله تعالى: «وخلقناكم أزواجًا»، و«الوَتْر» هو الله عزَّ وجلَّ، رُوي ذلك عن ابن مسعود، وعن أبي سعيد الخدري، وهو قول عطية العوفي. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾﴾ أي: إذا سار وذهب. ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿قَسَمٞ﴾ أي: مقنع ومكتفى في القسم ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ لذي عقل.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ قال الفرَّاء: ألم تُخبَر؟ وقال الزَّجاج: ألم تعلم؟ ومعناه التعجب ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ يخوِّف أهل مكة، يعني: كيف أهلكهم، وهم كانوا أطول أعمارًا وأشد قوة من هؤلاء. ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ وسموا ذات العماد؛ لأنهم كانوا أهل عمد سيارة، وقال بعضهم: سموا ذات العماد لطول قامتهم، وقوله: «لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ»، أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: «من أشدُّ منَّا قوة». ﴿وَثَمُودَ﴾ أي: وبثمود ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾ قطعوا الحجر، واحدتها: صخرة ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ يعني: وادي القُرى، كانوا يقطعون الجبال فيجعلون فيها بيوتًا. ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾﴾ سمي بذلك؛ لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد، كما فعل بامرأة حارثة. ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ يعني: عادًا وثمود وفرعون، عملوا في الأرض بالمعاصي وتجبروا. ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ قال قتادة: يعني: لونًا من

العذاب صبَّه عليهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ قال ابن عباس: يعني: بحيث يرى ويسمع ويبصر. والمعنى: أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد، كما لا يفوت من هو بالمرصاد.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ امتحنه ﴿رَبُّهُۥ﴾ بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالمال ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما وسع عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ بما أعطاني.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضيَّق عليه رزقه، وقيل: «قَدَرَ» بمعنى: قتر وأعطاه قدر ما يكفيه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أذلَّني بالفقر، ﴿كَلَّا﴾ لم أبتَلِهِ بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره، فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ لا تحسنون إليه، وقيل: لا تعطونه حقه. ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ أي: لا تأمرون بإطعامه. ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ شديدًا، وهو أن يأكل نصيبه ونصيب غيره، وذلك أنهم كانوا لا يُورِّثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون نصيبهم. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ أي: كثيرًا، يعني: يتحبون جمع المال وتولعون به.

﴿كَلَّآ﴾ ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ مرة بعد مرة، وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر، فلم يبق على ظهرها شيء. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ مجيئاً يليق به سبحانه وتعالى وعلى مراده ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ قال عطاء: يريد: صفوف الملائكة. ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ قال عبد الله بن مسعود ومقاتل في هذه الآية: جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها، لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم يجاء بجهنم ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يتعظ ويتوب الكافر ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قال الزَّجَّاج: يظهر التوبة ومن أين له التوبة؟ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤﴾ أي: قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ لا يعذب أحدٌ في الدنيا كعذاب الله يومئذ، ولا يوثق كوثاقه أحد يومئذ. قيل: هو رجل بعينه، هو أُمية بن خلف، يعني: لا يعذب كعذاب هذا الكافر أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد.

وقرأ الآخرون بكسر الذال والثاء، أي: لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كوثاقه أحد، يعني: لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب، والوثاق: هو الإسار في السلاسل والأغلال.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ إلى ما وعد الله عزَّ وجلَّ المصدقة بما قال الله، وقال مجاهد: «المطمئنة» التي أيقنت أن الله تعالى ربها وصَبرت جأشًا لأمره وطاعته. وقيل: المطمئنة بذكر الله. ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى الله ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عنك. ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: مع عبادي. وقيل: في جملة عبادي الصالحين المطيعين. ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

سورة البلد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ يعني: أقسم ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني: مكة. ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ أي: حلال ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾. والمعنى: أن الله تعالى لما أقسم بمكة دلَّ ذلك على عظيم قدرها مع حرمتها، فوعد نبيه ﷺ أنه يحلها له حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده، فهذا وعد من الله عزَّ وجلَّ بأن يحلها له. ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ يعني: آدم ﵇ وذريته. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ روى الوالبيُّ عن ابن عباس: في نَصَب، قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال قتادة: في مشقة، فلا تلقاه إلاَّ يكابد أمر الدنيا والآخرة.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: يظن من شدته أن لن يقدر عليه الله تعالى. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ يعني: أنفقت ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيرًا بعضه على بعض، من التلبيد، في عداوة محمد ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ قال أكثر المفسرين: طريق الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلالة.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ يقول: فهلاً أنفق ماله فيما يجوزُ به من فك الرقاب وإطعام السَّغْبَان، فيكون خيرًا له من إنفاقه على عداوة محمد ﷺ. وقيل: «فلا اقتحم العقبة»، أي: لم يقتحمها ولا جاوزها، والاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، وذكْرُ العقبة هاهنا مَثَلٌ ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة، يقول: لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة ولا طعام، وهذا معنى قول قتادة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ ما اقتحام العقبة، قال سفيان بن عيينة: كل شيء قال: «وما أدراك» فإنه أخبر به، وما قال: «وما يدريك» فإنه لم يخبر به. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ وأراد بفك الرقبة: إعتاقها وإطلاقها، ومن أعتق رقبة كانت فداءه من النار. عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار، حتى يعتق فرجه بفرجه».

وقال عكرمة قوله: «فكُّ رقبةٍ» يعني: فك رقبة من الذنوب بالتوبة ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ مجاعة، يقال: سَغَبَ يَسْغُب سَغْبًا إذا جاع. ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ أي: ذا قرابة، يريد: يتيمًا بينك وبينه قرابة. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ قد لصق بالتراب من فقره وضره، وقال مجاهد عن ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء. ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بين أن هذه القُرَب إنما تنفع مع الإيمان، ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أوصى بعضُهم بعضًا ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على فرائض الله وأوامره ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ برحمة الناس. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ مطبقة عليهم أبوابها، لا يدخل فيها رَوْح، ولا يخرج منها غم.

سورة الشمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ضوؤها، والضحى: حين تطلع الشمس، فيصفو ضوؤها. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ تبعها، وذلك في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ يعني: إذا جلَّى الظلمة. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ يعني:

يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ ومن بناها وخلقها. ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ بسطها. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ عدَّل خلقها وسوَّى أعضاءها. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ قال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة: بيَّن لها الخير والشر، وقال في رواية عطية: علَّمها الطاعة والمعصية.

عن الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيْتَ ما يعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم من قَدَرٍ سبق؟ أو فيما يُسْتَقْبَلُونَ به مما آتاهم به نبيُّهم وأُكِّدَت عليهم الحُجَّةُ؟ قلت: بل شيء قد قُضِيَ عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففزعت منه فزعًا شديدًا، وقلت: إنه ليس شيء إلاَّ وهو خَلْقُهُ ومِلْكُ يدِهِ لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون، فقال لي: سدَّدك الله، إنما سألتك لأختبر عقلك إن رجلاً من جهينة أو مزينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟ أو فيما يُسْتَقْبَلُونَ به مما أتاهم نبيُّهم وأُكِّدت به عليهم الحَجة؟ فقال: «لا، بل شيءٌ قد قُضِي عليهم ومضى فيهم»، قال: قلت: ففيم العمل إذًا؟ قال: «مَنْ كان الله خَلَقه لإحدى المنزلتين يهيئه الله لها، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾»[١].

عن جابر قال: جاء سُرَاقةُ بن مالك بن جُعْشُم فقال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، أرأيتَ عمرتنا هذه ألعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «بل للأبد»، قال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأننا خُلقنا الآن فيمَ العملُ اليومَ فيما جفَّتْ به الأقلام وجرت به المقادير؟ أو فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير»، قال: ففيمَ العمل؟ فقال زهير: فقال كلمة خفيت عليَّ، فسألت عنها نسبتي بعدُ فذكر أنه سمعها، فقال: «اعملوا، فإنَّ كُلاًّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»[٢].

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ۝١٥

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ وهذا موضع القسم، أي: فازت وسعدت نفسٌ زكاها الله، أي: أصلحها وطهرها من الذنوب ووفقها للطاعة. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أي: خابت وخسرت نفس أضلها الله فأفسدها. وقال الحسن: معناه: قد أفلح مَن زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزَّ وجلَّ، «وقد خاب من دساها» أهلكها وأضلها وحملها على المعصية، فجعل الفعل للنفس.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٦٥٠: (٢/ ٢٠٤٠ - ٢٠٤١).

(٢) أخرجه مسلم برقم٢٦٤٨: (٤/ ٢٠٤٠ - ٢٠٤١).

عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلاَّ ما قال رسول الله ﷺ لنا: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهمِّ وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليُّها ومولاها، إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ⑪﴾ بطغيانها وعدوانها، أي: الطغيانُ حملهم على التكذيب. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ⑫﴾ أي: قام، والانبعاث: هو الإسراع في الطاعة للباعث، أي: كذَّبوا بالعذاب، وكذبوا صالحًا لما انبعث أشقاها وهو: قُدَارُ بن سالف، وكان أشقر أزرق العينين قصيرًا، قام لعقر الناقة. عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ:

«إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا »، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زَمَعَة»(٢).

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح ﷺ ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله، ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ شربها، أي: ذروا ناقة الله وذروا شربها من الماء، فلا تتعرضوا للماء يوم شربها. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: صالحًا ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: الناقة. ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ قال عطاء ومقاتل: فدمَّر عليهم ربهم فأهلكهم، ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بتكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فسوَّى الدمدمة عليهم جميعًا، وعمهم بها فلم يَفْلِتْ منهم أحد. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ عاقبتها. قال الحسن: معناه: لا يخاف الله من أحد تبعةً في إهلاكهم.

سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ⑩

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾ أي: يغشى النهار بظلمةٍ فيذهب بضوئه. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ②﴾ بان وظهر من بين الظلمة. ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③﴾ يعني: ومَن خلق، أي: وخلق الذكر والأُنثى، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ إن أعمالكم لمختلفة، فساعٍ في فكاك نفسه، وساعٍ في عطبها. روى أبو مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقُها أو مُوبِقُها»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٧٢٢: (٤/ ٢٠٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٠٥)، ومسلم برقم٢٨٥٥: (٤/ ٢١٩١).

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، برقم٢٢٣: (١/ ٢٠٣).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ماله في سبيل الله ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ ربه. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ قال أبو عبد الرحمن والضحاك: وصدَّق بلا إله إلاَّ الله، وقال مجاهد: بالجنة، دليله: قوله تعالى: «للذين أحسنوا الحسنى»، يعني: الجنة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ فسنهيئه في الدنيا ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للخلَّة اليسرى، وهي العمل بما يرضاه الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ بالنفقة في الخير ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن ثواب الله فلم يرغب فيه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ سنهيئه للشرِّ، بأن نجريه على يديه حتى يعمل بما لا يرضي الله، فيستوجب به النار.

وروينا عن علي، عن النبي ﷺ قال: «ما من نفس منفوسة إلاَّ كتب الله مكانها من الجنة أو النار»، فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «لا، ولكن اعملوا فكل ميسرٌ لما خُلق له، أما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة»، ثم تلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾[1].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ الثواب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ يعني: الجنة ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ يعني: الثواب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ يعني: النار.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي بخل به ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ قال مجاهد: إذا مات، وقال قتادة وأبو صالح: هوى في جهنم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ يعني: البيان، قال الزَّجَّاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: تتلظى، يعني: تتوقد وتتوهج. ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ يريد بالأشقى: الشقي، وبالأتقى: التقي. ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يعطي ماله ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يطلب أن يكون عند الله زاكيًا لا رياء ولا سمعة، يعني: أبا بكر الصديق، في قول الجميع.

قال ابن الزبير: كان أبو بكر يبتاع الضعفة فيعتقهم، فقال أبوه: أيْ بنيَّ، لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ قال: مَنْعَ ظهري أُريدُ، فنزل: «وسيجنبها الأتقى»، إلى آخر السورة.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري: (٣/ ٢٢٥)، وفي التفسير، وفي الأدب، وفي القدر، وفي التوحيد، ومسلم برقم٢٦٤٧: (٤/ ٢٠٣٩).

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾، أي: يجازيه ويكافئه عليها ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يعني: لا يفعل ذلك مجازاة لأحد بيدٍ له عنده، ولكنه يفعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب رضاه. ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ بما يعطيه الله عزَّ وجلَّ في الآخرة من الجنة والكرامة جزاء على ما فعل.

سورة الضحى

عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣»[1].

وقال المفسرون: سألت اليهودُ رسولَ الله ﷺ عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح؟ فقال: «سأخبركم غدًا»، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي. فقال المشركون: إن محمدًا ودَّعه ربُّه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل، ما جئت حتى اشتقت إليك»، فقال جبريل: «إني كنت أشدَّ شوقًا إليك، ولكني عبدٌ مأمور»، فأنزل: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ» [مريم: ٦٤][2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾ أقسم بالضحى وأراد به: النهار كله. وقال قتادة ومقاتل: يعني: وقت الضحى، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس، واعتدال النهار في الحر والبرد والصيف والشتاء. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ قال الحسن: أقبل بظلامه.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ هذا جواب القسم، أي: ما تركك منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك. ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧١٠)، ومسلم برقم١٩٩٧: (٣/ ١٤٢٢).

(٢) أخرجه الطبري: (٣٠/ ٢٣١)، وعبد الرزاق في «التفسير»: (٢/ ٣٧٩).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»: (٢/ ٦٣٣)، وابن أبي شيبة: (١٥/ ٢٣٦)، وابن ماجه مطولاً: (٢/ ١٣٦٦)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٤٦٤).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ قال عطاء عن ابن عباس: هو الشفاعة في أُمته حتى يرضى.

وروينا عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللهم أُمَّتي أُمَّتي وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أُمَّتك، ولا نسوؤك فيهم»[١].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألةً وودت أني لم أكن سألته، قلت: يا رب، إنك آتيت سليمان بن داود ملكًا عظيمًا، وآتيت فلانًا كذا، وآتيت فلانًا كذا؟ قال: يا محمد، ألم أجدك يتيمًا فآويتك؟ قلت: بلى، أيْ ربِّ، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتُك؟ قلت: بلى، أيْ ربِّ، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتُك؟ قلت: بلى، أيْ ربِّ»، وزاد غيره عن حماد قال: «ألم أشرح لك صدرك ووضعتُ عنك وزرك؟ قلت: بلى، أيْ ربِّ[٢]».

ومعنى الآية: ألم يجدك يتيمًا صغيرًا فقيرًا حين مات أبواك ولم يخلِّفا لك مالاً ولا مأوًى، فجعلت لك مأوًى تأوي إليه، وضمَّك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ يعني: ضالاً عما أنت عليه ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهداك للتوحيد والنبوة. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أي: فقيرًا فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم. وقال مقاتل: فأرضاك بما أعطاك من الرزق. عن همام بن منبه أنه قال: أخبرنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النفس»[٣].

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه»[٤].

ثم أوصاه باليتامى والفقراء فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ قال مجاهد: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيمًا، وقال الفرَّاء والزَّجَّاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ قال المفسرون: يريد: السائل على الباب، يقول: لا تنهره لا تزجره إذا سألك، فقد كنت فقيرًا، فإما أن تطعمه، وإما أن ترده ردًّا لينًا، يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ قال مجاهد: يعني: النبوة. وقال مقاتل: اشكر لما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من جبر اليتيم والهدى بعد الضلالة والإغناء بعد

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٠٢: (١/ ١٩١).

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٤): رواه الطبراني في «الكبير»، وساقه ابن كثير في «التفسير»: (٤/ ٥٢٥ - ٥٢٦).

(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٢٧١)، ومسلم برقم١٠٥١: (٢/ ٧٢٦).

(٤) أخرجه مسلم برقم١٠٥٤: (٢/ ٧٠٣).

العَيْلة، والتحدث بنعمة الله شكرًا.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «مَن صُنع إليه معروفٌ فليجز به، فإن لم يجد ما يُجزي به فليثنِ عليه، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبين من زور»[1].

عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «مَن لم يشكرِ القليلَ لم يشكرِ الكثيرَ، ومن لم يشكر الناسَ لم يشكر الله تعالى، التحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[2].

سورة الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ ألم نفتح ونوسِّع ونليِّن لك قلبك بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة. ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: وحططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية. ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ أثقل ظهرك فأوهنه حتى سُمِعَ له نقيض، أي: صوت. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية «ورفعنا لك ذكرك»؟ قال: قال الله تعالى: «إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»[3].

وقال عطاء عن ابن عباس: يريد: الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر، ولو أن عبدًا عبد الله وصدَّقه في كل شيء ولم يشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ لم ينتفع بشيء، وكان كافرًا، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلاَّ ينادي: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمد رسول الله.

ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدة، وذلك أنه كان بمكة في شدة، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ أي: مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسرًا ورخاءً بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به، «إن مع العسر يسرًا» كرره لتأكيد الوعد

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»: ص٦٩، وصححه ابن حبان برقم٢٠٧٣: ص٥٠٦، وأخرجه أبو داود: (٧/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٢٧٨)، وابنه عبد الله في «زوائد المسند»: (٤/ ٣٧٥)، قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢١٨): (رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات).

(٣) أخرجه الطبري: (٣٠/ ٢٣٥)، وأبو يعلى في «المسند»: (٢/ ١٣١)، وابن حبان برقم١٧٧٢: ص٤٣٩ من «موارد الظمآن».

وتعظيم الرجاء، وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا، قد جاءكم اليسر، لن يغلب عسرٌ يسرين»، قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل، إنه لن يغلب عسرٌ يسرين.

قال المفسرون: ومعنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين»: أن الله تعالى كرر العُسْرَ بلفظ المعرفة واليُسْرَ بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسمًا معرَّفًا، ثم أعادته كان الثاني هو الأول، وإذا ذكرت نكرة ثم أعادته مثله صار اثنين، وإذا أعادته معرفة فالثاني هو الأول.

وقيل: إن مع العسر يسرًا، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمن يسرًا في الآخرة، فربما اجتمع له اليسران: يسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى، ويسر الآخرة وما ذكره في الآية الثانية، فقوله ﷺ: «لن يغلب عسرٌ يسرين»، أي: يغلب عسرُ الدنيا اليسرَ الذي وعده للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة، وإنما يغلب أحدهما، وهو يسر الدنيا، وأما يسر الآخرة فدائم غير زائل، أي: لا يجمعهما في الغلبة.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي: فاتعب، والنَّصَب: التعب، قال ابن عباس: فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يُعْطِكَ. وقال الحسن وزيد بن أسلم: إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربِّك. وقال منصور عن مجاهد: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربِّك وصلِّ. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ قال عطاء: تضرع إليه راهبًا من النار راغبًا في الجنة، وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك.

سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ قيل: خصَّ التين بالقسم؛ لأنها فاكهة مخلَّصة لا عجم لها، شبيهة بفواكه الجنة، وخص الزيتون لكثرة منافعه؛ لأنه شجرة مباركة جاء بها الحديث، وهو ثمر ودهن يصلح للاصطباغ والاصطباح. ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ يعني: الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام. ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ أي: الآمن، يعني: مكة، يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام، هذه كلها أقسام والمقسَم عليه قوله:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ أي: أعدل قامة وأحسن صورة، وذلك أنه خلق كل حيوان منكبًّا على وجهه إلاَّ الإنسان خلقه مديد القامة. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ يريد: إلى الهرم وأرذل العمر، فينقص عقله ويضعف بدنه، وقال الحسن وقتادة ومجاهد: يعني: ثم رددناه إلى

النار، يعني: إلى أسفل السافلين؛ لأن جهنم بعضها أسفل من بعض.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنهم لا يردون إلى النار، ومن قال بالقول الأول قال: رددناه أسفل سافلين، فزالت عقولهم وانقطعت أعمالهم، فلا يكتب لهم حسنة إلاَّ الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فإنه يكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملون في حال الشباب والصحة.

قال ابن عباس: هم نفرٌ رُدُّوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى عذرهم، وأخبر أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم.

قال عكرمة: لم يضر هذا الشيخ كبره إذ ختم الله له بأحسن ما كان يعمل.

وروى عاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس قال: «إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، قال: «إلاَّ الذين آمنوا» قرؤوا القرآن، وقال: من قرأ القرآن لم يردَّ إلى أرذل العمر ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع؛ لأنه يكتب له كصالح ما كان يعمل.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: أمن يكذبك، وقيل: أي شيء يكذبك؟ أي: يحملك على الكذب، وقيل: على التكذيب أيها الإنسان ﴿بَعْدُ﴾ أي: بعد هذه الحجة والبرهان ﴿بِٱلدِّينِ﴾ بالحساب والجزاء، والمعنى: ألا تتفكر في صورتك وشبابك وهرمك فتعتبر، وتقول: إن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذبك بالمجازاة بعد هذه الحجج؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ بأقضى القاضين.

وروينا أن رسول الله قال: «من قرأ والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: «أليس الله بأحكم الحاكمين» فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»[1].

عن عدي بن ثابت الأنصاري قال: سمعت البراء بن عازب قال: إن النبي ﷺ كان في سفر فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بالتين والزيتون[2].

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ أكثر المفسرين: على أن هذه السورة أول سورة نزلت من القرآن.

---

(١) أخرجه أبو داود مطولاً: (١/ ٤٢٣)، ومن طريقه البيهقي في «السنن»: (٢/ ٣١٠)، والإمام أحمد: (٢/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٧١٣).

عن عائشة أُم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فَلَقِ الصُّبْح، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاَءُ، فكان يخلو بغار حراء، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العَددِ قبل أن يَنْزِع إلى أهله، ويتزوَّدُ لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدُ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدُ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني، فقال: «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾»، فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمِّلُوني زمِّلُوني، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة: ما لِيَ؟ وأخبرها الخبر، وقال: لقد خَشِيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلاَّ، والله ما يُخْزِيك الله أبدًا، إنك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفل بنِ أسدِ بن عبدِ العُزى ـ ابن عمِّ خديجة ـ وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية وكان يكتب الكتابَ العربيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عميَ، فقالت له خديجة: يا ابن عمٍّ، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا النَّاموسُ الذي أَنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذْ يُخْرِجُك قومُك، فقال رسول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجيَّ هم؟ قال: نعم لم يأت أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلاَّ عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك أَنْصُرْكَ نصرًا مؤزَّرًا، ثم لم يمكث ورقةُ أنْ تُوفِّيَ، وفَتَر الوحي[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قال الكلبي: يعني: الخلائق، ثم فسره فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يعني: خلق ابن آدم ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع: علقة.

﴿ٱقْرَأْ﴾ كرره تأكيدًا، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ قال الكلبي: الحليم عن جهل العباد لا يعجل عليهم بالعقوبة. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ يعني: الخط والكتابة. ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ من أنواع الهدى والبيان، وقيل: علم آدم الأسماء كلها.

﴿كَلَّآ﴾ حقًّا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ليتجاوز حده ويستكبر على ربه. ﴿أَن﴾ لأن ﴿رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي: رأى نفسه غنيًّا.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ نزلت في أبي جهل، نهى النبي ﷺ عن الصلاة.

عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعُزَّى لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبته، ولأعفِّرَنَّ وجهه في التراب، قال: فأتى

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٣).

رسول الله ﷺ وهو يصلي، عزم ليطأ على رقبته، فما فَجَأَهُمْ منه إلاَّ وهو ينكُصُ على عقبيه، ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»، قال: فأنزل الله ـ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ـ: «كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾» الآيات(١).

ومعنى «أرأيت» هاهنا: تعجيب للمخاطب، وكرَّر هذه اللفظة للتأكيد:

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ يعني: العبد المنهي، وهو محمد ﷺ. ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ يعني: بالإخلاص والتوحيد. ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ يعني: أبا جهل ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الإيمان. ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ يعني: أبا جهل ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ذلك فيجازيه به.

﴿كَلَّا﴾ لا يعلم ذلك ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عن إيذاء نبيه ﷺ وتكذيبه ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته فلنجرنه إلى النار، كما قال: «يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾» [الرحمن: ٤١]، و«الناصية»: شعر مقدم الرأس.

ثم قال على البدل: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: صاحبها كاذب خاطىء، قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسولُ الله ﷺ، فقال أبو جهل: أتنهرني يا محمد، لقد علمت ما بها أكثر ناديًا مني؟ ثم قال: فوالله لأملأنَّ عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جردًا ورجالاً مردًا.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: قومه وعشيرته، أي: فليستنصر بهم. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ جمع: زِبْنِيّ، مأخوذ من الزَّبْن، وهو الدفع، قال ابن عباس: يريد: زبانية جهنم سموا بها؛ لأنهم يدفعون أهل النار إليها، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر على ما عليه أبو جهل ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في ترك الصلاة ﴿وَٱسْجُدْ﴾ صلِّ لله ﴿وَٱقْتَرِب﴾ من الله.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء فيها»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٧٩٧: (٤/ ٢١٥٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم٤٨٢: (١/ ٣٥٠).

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ يعني: القرآن، أنزله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فوضعه في بيت العزة، ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام نجومًا في عشرين سنة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ سُمِّيتْ ليلة القدر؛ لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام، يقدر الله فيها أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة. واختلفوا في وقتها، فقال بعضهم: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم رفعت، وعامة الصحابة والعلماء على أنها باقية إلى يوم القيامة. والجمهور من أهل العلم على أنها في شهر رمضان.

واختلفوا في تلك الليلة، قال أبو رزين العقيلي: هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: ليلة سبع عشرة، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر.

والصحيح والذي عليه الأكثرون: أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحرَّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»[(١)].

وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها[(٢)].

وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان: شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[(٣)].

واختلفوا في أنها في أي ليلة من العشر؟

عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «تحرَّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»[(٤)].

وعن عيينة بن عبد الرحمن، حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال: ما أنا بطالبها بعد شيء سمعتُه من رسول الله ﷺ إلاَّ في العشر الأواخر، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ٢٥٩)، وأخرج مسلم الجملة الأخيرة: برقم١١٦٩: (٤/ ٨٢٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم١١٧٤: (٢/ ٨٣٢).

(٣) أخرجه البخاري: (٤/ ٢٦٩)، ومسلم برقم١١٧٤: (٢/ ٨٣٢).

(٤) أخرجه البخاري: (٤/ ٢٥٩).

«التمسوها في العشر الأواخر من تسع بَقِينَ أو سبع بقين أو خمس بقين أو ثلاث بقين أو آخر ليلة»[١]، فكان أبو بكرة إذا دخل رمضان يصلي كما يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأخير اجتهد.

وعن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «إني أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمَن كان متحريها فليتحرَّهَا في السبع الأواخر»[٢].

عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان النبي ﷺ يعتكف العشر الوسطى من رمضان، واعتكف عامًا حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج صبحها من اعتكافه، قال: مَنْ كان سيعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد رأيت هذه الليلة ثم أُنسِيتُها، وقد رَأَيْتُني أسجد في صبيحتها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر»[٣].

قال أبو سعيد الخدري: فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش فَوَكَفَ المسجد.

قال أبو سعيد: فأَبْصَرَتْ عيناي رسولَ الله ﷺ انصرف وعلى جبهته وأنفه أَثَرُ الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين.

وقال قوم: هي ليلة سبع وعشرين:

عن زر بن حبيش قال: قلت لأُبيِّ بن كعب: يا أبا المنذر، أَخبِرْنا عن ليلةِ القدرِ، فإن ابنَ أُمِّ عبدٍ يقول: مَن يَقُمِ الحولَ يُصِبْهَا، فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن، أما إنه قد علم أنها في رمضان، ولكن كره أن يُخْبِرَكم فَتَتَّكِلوا هي - والذي أنزل القرآن على محمد ﷺ - ليلةُ سبع وعشرين، فقلنا: يا أبا المنذر أَنَّى علمتَ هذا؟ قال: بالآية التي أخبرنا النبي ﷺ فحفظنا ووعينا، وهي والله لا تنسى، قال: قلنا لزِرٍّ: وما الآية؟ قال: تطلع الشمس كأنَّها طَاسٌ ليس لها شعاع[٤].

ومن علاماتها: ما رُوي عن الحسن رَفَعَهُ: أنها ليلة بَلْجَةٌ سَمْحَةٌ، لا حارَّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها لا شُعاع لها.

وفي الجملة: أبهم الله هذه الليلة على هذه الأُمة ليجتهدوا في العبادة ليالي رمضان طمعًا في

---

(١) أخرجه الترمذي: (٣/ ٥٠٧ - ٥٠٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن حبان: ص٢٣١ من «موارد الظمآن»، وابن خزيمة: (٣/ ٣٢٤)، وصححه الحاكم: (١/ ٤٣٨) ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: (٥/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ٢٥٦)، ومسلم برقم١١٦٥: (٢/ ٨٢٢ - ٨٢٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٤/ ٢٧١)، ومسلم برقم١١٦٧: (٢/ ٨٢٥).

(٤) أخرجه مسلم برقم٧٦٢: (٢/ ٨٢٨).

إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاةَ الوسطى في الصلوات الخمس، واسْمَه الأعظم في الأسماء، ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطَه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيامَ الساعة ليجتهدوا في الطاعة حذرًا من قيامها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

قال المفسرون: «ليلة القدر خير من ألف شهر» معناه: عملٌ صالح في ليلة القدر خيرٌ من عَمَلِ ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

عن عبد الله بن بريدة أن عائشة قالت للنبي ﷺ: إنْ وافيتُ ليلةَ القدر فما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ يعني: جبريل عليه السلام معهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكلِّ أمرٍ من الخير والبركة، كقوله: «يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ» [الرعد: ١١]، أي: بأمر الله.

﴿سَلَٰمٌ﴾ قال عطاء: يريد: سلامٌ على أولياء الله وأهل طاعته. ﴿هِىَ﴾ أي: ليلة القدر سلامٌ وخيرٌ كلُّها، ليس فيها شر. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: إلى مطلع الفجر.

سورة البينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهم عبدة الأوثان

---

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ٢٥٠)، ومسلم برقم٧٦٠: (١/ ٥٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٤٩٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي: (٢/ ٥٣٨)، والإمام أحمد: (٦/ ١٦١، ١٨٢، ١٨٣)، والحاكم: (٢/ ٥٣٠)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ منتهين عن كفرهم وشركهم، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: حتى أتتهم البينة، الحجة الواضحة، يعني: محمدًا ﷺ، أتاهم بالقرآن فبيَّنَ لهم ضلالاتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان، لم ينتهوا عن الكفر حتى أتاهم الرسول فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا فأنقذهم الله من الجهل والضلالة، ثم فسَّر البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا﴾ يقرأ ﴿صُحُفًا﴾ كتبًا، يريد: ما يتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن؛ لأنه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن الكتاب، قوله: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل والكذب والزور.

﴿فِيهَا﴾ أي: في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ يعني: الآيات والأحكام المكتوبة فيها ﴿قَيِّمَةٌ﴾ عادلة مستقيمة غير ذات عوج. ثم ذكر مَنْ لم يؤمن من أهل الكتب فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في أمر محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: البيان في كتبهم أنه نبي مرسل.

قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعثه الله، فلما بُعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم، وكفر آخرون.

ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين معذبين إلاَّ من بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، والأول أصح.

ثم ذكر ما أُمروا به في كتبهم فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني: هؤلاء الكفار ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: إلاَّ أن يعبدوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند محلها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أُمروا به ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: الملة والشريعة المستقيمة. وذلك دين القائمين لله بالتوحيد.

ثم ذكر ما للفريقين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾ وتناهَى عن المعاصي. وقيل: الرضا ينقسم إلى قسمين: رضًا به ورضًا عنه، فالرضا به: ربًّا ومُدَبِّرًا، والرضا عنه: فيما يقضي ويُقدِّر.

عن أنس بن مالك قال النبي ﷺ لأُبَيٍّ: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا»، قال: وسمَّاني؟ قال: «نعم» فبكى[(١)].

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٢٥).

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ حُرِّكت الأرض حركةً شديدةً لقيام الساعة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تحريكها. ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ موتاها وكنوزها فتلقيها على ظهرها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدها أمثال الأُسطُوان[1] من الذهب والفضة، فيجيء القاتلُ فيقولُ: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقولُ: في هذا قَطَعْتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئًا»[2].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ قيل: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فيقول الإنسان: «ما لها»، أي: تخبر الأرض بما عمل عليها.

عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: «﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾»، قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهدَ على كلِّ عبدٍ وأَمَةٍ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل عليَّ يوم كذا وكذا كذا وكذا»، قال: «فهذه أخبارها»[3].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ أي: أمرها بالكلام، وأذِن لها بأن تخبر بما عمل عليها، قال ابن عباس والقرظي: أوحى إليها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ يرجع الناسُ عن موقف الحساب بعد العرض ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة وآخذ ذات الشمال إلى النار.

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قال ابن عباس: ليروا جزاء أعمالهم. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة صغيرة أصغر ما يكون من النمل ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ قال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرًا أو شرًّا في الدنيا إلاَّ أراه الله إياه يوم القيامة، فأما المؤمن فيُرَى حسناته وسيئاته فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فتردُّ حسناته ويعذبه بسيئاته.

قال ابن مسعود: أَحْكَمُ آيةٍ في القرآن: «﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾».

وكان رسول الله ﷺ يسميها الجامعةَ الفاذَّة حين سئل عن زكاة الحمر فقال: «ما أُنزل عليَّ فيها شيءٌ إلاَّ هذه الآية الجامعة الفاذَّة «﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

---

(١) جمع أسطوانة: وهي السارية أو العمود، وشبهه بالأسطوانة لعظمه.

(٢) أخرجه مسلم برقم١٠١٣: (٢/ ٧٠٩١).

(٣) أخرجه الترمذي: (٧/ ١١٦)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، (٩/ ٢٨٦)، والنسائي: (٢/ ٥٤٤)، وصححه الحاكم: (٢/ ٢٥٦) على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وصححه ابن حبان برقم٢٥٨٦ .

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾»[1].

وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة بحبة عنب، وقالا: فيها مثاقيل كثيرة.

وقال الربيع بن خثيم: مرَّ رجلٌ بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهت الموعظة.

سورة العاديات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ هي الخيل العادية في سبيل الله عزَّ وجلَّ تَضْبَحُ، والضَّبْحُ: صوت أجوافها إذا عَدَتْ. وقوله: «ضبحًا» نصب على المصدر، مجازه: والعاديات تضبح ضبحًا. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾ هي الخيل توري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، يعني: والقادحات قدحًا يقدحن بحوافرهنَّ. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾ هي الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصباح. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي: هيَّجن بمكان سيرهنَّ كناية عن غير مذكور؛ لأن المعنى مفهوم ﴿نَقْعًا﴾ غبارًا، والنَّقْع: الغبار. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ أي: دخلن به وسط جمع العدو، وهم الكتيبة، أقسم الله بهذه الأشياء.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ «الكنود»: لكفور جحود لنعم الله تعالى. وقال الفضيل بن عياض: «الكنود»: الذي أنْسَتْه الخصلةُ الواحدة من الإساءة الخصالَ الكثيرة من الإحسان، و«الشكور»: الذي أَنْسَتْه الخصلة الواحدة من الإحسان الخصالَ الكثيرة من الإساءة.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ قال أكثر المفسرين: وإن الله على كونه كنودًا لشاهد، وقال ابن كيسان: الهاء راجعة إلى الإنسان، أي: إنه شاهد على نفسه بما يصنع.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لحب المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: لبخيل، أي: إنه من أجل حب المال لبخيل، يقال للبخيل: شديد ومتشدد.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: أفلا يعلم هذا الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي: أُثِيرَ وأُخْرِج ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ أي: مُيِّز وأبرز ما فيها من خير أو شر.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٢٧)، ومسلم برقم٩٨٧: (٢/ ٦٨٢).

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ عالم، قال الزَّجَّاج: إن الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم.

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ اسم من أسماء القيامة؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع. ﴿مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ تهويل وتعظيم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ هذا الفَراش: الطير الصغار البق، واحدها فراشة، أي: كالطير التي تراها تتهافت في النار، والمبثوث: المتفرق، يموج بعضهم في بعض ويركب بعضهم بعضًا من الهول، كما قال: «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ» [القمر: ٧].
﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ كالصوف المندوف.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾﴾ رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ مَرْضِيَّة في الجنة، قال الزَّجَّاج: ذات رضا، يرضاها صاحبها. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾﴾ رجحت سيئاته على حسناته. ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ مسكنه النار، سمي المسكن أمًّا؛ لأن الأصل في السكون إلى الأمهات، والهاوية اسم من أسماء جهنم، وهو المهواة لا يدرك قعرها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ يعني: الهاوية. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ أي: حارة، قد انتهى حرها.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ شغلتكم المباهاة والمفاخرة والمكاثرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه. ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ حتى متم ودُفنتم في المقابر.

عن مطرف بن عبد الله الشخِّير، عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ أو لَبِسْتَ فأبليتَ أو تصدقت فأمضيت»(١).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتْبَعُ الميتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد، يتبعُه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»(٢).

ثم رد الله عليهم فقال: ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر بالتكاثر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم، ثم كرره تأكيدًا فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ قال الحسن ومقاتل: هو وعيد بعد وعيد، والمعنى: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي: علمًا يقينًا، فأضاف العلم إلى اليقين، كقوله: «لهو حق اليقين»، وجواب «لو» محذوف، أي: لو تعلمون علمًا يقينًا لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر. ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ أي: ترونها بأبصاركم عن بعيد. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ مشاهدة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قال مقاتل: يعني: كفار مكة، كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيُسْألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا ربَّ النعيم حيث عبدوا غيره، ثم يعذبون على ترك الشكر، هذا قول الحسن.

وعن ابن مسعود رفعه قال: «لتسئلن يومئذ عن النعيم»، قال: «الأمن والصحة».

وقال قتادة: إن الله يسأل كل ذي نعمة عما أنعم عليه.

عن الضحاك الأشعري قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل العبدُ يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصحَّ جسمك؟ ونروِّك من الماء البارد»(٣).

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: ما جاء بك يا أبا بكر؟ فقال: خرجتُ لألقى رسولَ الله ﷺ وأنظر إلى وجهه وللتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: ما جاء بك يا عمر؟ قال: الجوعُ يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «وأنا قد وجدتُ بعضَ ذلك»، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيِّهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل والشاء، ولم يكن له خَدَم، فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبُك؟ فقالت: انطلق ليستعذبَ لنا الماء، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبها ماءً فوضعها، ثم جاء يلتزمُ رسول الله ﷺ ويفديه بأبيه وأُمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطًا، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقِنْوٍ فوضعه، فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقَّيْتَ لنا من رُطَبِهِ وبُسْرِه»، فقال: يا رسول الله،

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٩٥٨: (٤/ ٢٢٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٦٢)، ومسلم برقم٢٩٦٠: (٤/ ٢٢٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي: (٩/ ٢٩٠)، وقال: (هذا حديث غريب)، وابن حبان برقم٢٥٨٥، وصححه الحاكم: (٤/ ١٣٨)، ووافقه الذهبي.

إني أردت أن تخيَّروا أو قال: أن تختاروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال النبي ﷺ: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسْألون عنه يوم القيامة: ظلٌّ بارد، ورُطَبٌ طيب، وماء بارد»، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعامًا فقال النبي ﷺ: «لا تذبحَنَّ ذات دَرٍّ»، فذبح لهم عَنَاقًا أو جَدْيًا فأتاهم بها فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم»؟ قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإذا أتانا سبيٌ فَأْتِنَا»، فأُتِيَ النبيُّ ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: «اختر منهما»، فقال: يا نبي الله اخترْ لي، فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن، خذْ هذا، فإني رأيته يصلي، واستوصِ به معروفًا»، فانطلق به أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنت ببالغٍ فيه ما قال رسول الله ﷺ إلاَّ أن تعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلاَّ وله بِطَانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يُوقَ بِطانةَ السوء فقد وُقِي»[(١)].

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصَّحَّةُ والفراغ»[(٢)].

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس: والدهر، قيل: أقسم به؛ لأن فيه عبرة للناظر، وقيل: معناه: ورب العصر.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ أي: خسران ونقصان، قيل: أراد به: الكفار، بدليل أنه استثنى المؤمنين، و«الخسران»: ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم ليسوا في خسر ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أوصى بعضهم بعضًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالقرآن، قاله الحسن وقتادة، وقال مقاتل: بالإيمان والتوحيد ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على أداء الفرائض وإقامة أمر الله.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٧/ ٣٤ - ٣٩)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب)، وصححه الحاكم: (٤/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٢٢٩).

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس: هم المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة. وقال مقاتل: «الهُمَزة» الذي يعيبك في الغيب، و«اللُّمَزَة»: الذي يعيبك في الوجه، وقال أبو العالية والحسن بضده.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: «الهُمَزة»: الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم، و«اللمزة»: الطَّعَّان عليهم. وقال ابن زيد: «الهُمَزة»: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، و«اللمزة»: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوري: ويهمز بلسانه ويلمز بعينه. وأصل الهَمْز: الكسر والعض على الشيء بالعنف.

قال مجاهد: هي عامة في حق كل من هذه صفته، ثم وصفه فقال:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أحصاه، وقال مقاتل: استعده وادخره وجعله عتادًا له، يقال: أعددت الشيء وعددته إذا أمسكته. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ في الدنيا، يظن أنه لا يموت مع يساره.

﴿كَلَّا﴾ ردًا عليه أن لا يخلده ماله ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ليطرحنَّ ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ في جهنم، والحطمة من أسماء النار، سميت «حطمة»؛ لأنها تحطم العظام وتكسرها. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ أي: التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب. ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ مطبقة مغلقة. ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ جمع عمود.

وقيل: هي عمد ممددة على باب جهنم، سدت عليهم بها الأبواب لا يمكنهم الخروج. وقال قتادة: بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار.

وقيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، أي: أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممددة.

قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ثم سُدَّت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمُّها وحرُّها، فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم رَوْح، والممددة من صفة العمد، أي: مطولة، فتكون أرسخ من القصيرة.

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾؟ وكانت قصة أصحاب الفيل:

أن النجاشي ملك الحبشة كان قد بعث «أرياطَ» إلى أرض اليمن فغلب عليها، فقام رجل من الحبشة يقال له: «أبرهة بن الصباح» أبو يكسوم، فساخَطَ أرياطَ في أمر الحبشة، حتى انصدعوا صدعين، وكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة، فتزاحفا فقتل أبرهةُ أرياطَ، واجتمعت الحبشة لأبرهة، وغلب على اليمين وأقرَّه النجاشيُّ على عمله.

ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله، فبنى كنيسة بصنعاء وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يُبْنَ لملِك مثلها، ولست منتهيًا حتى أصرف إليها حج العرب، فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها مستخفيًا فدخلها ليلاً، فقعد فيها وتغوَّط بها، ولطخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: مَن اجترأ عليَّ ولطخ كنيستي بالعذرة؟ فقيل له: صنع ذلك رجلٌ من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلتَ، فحلف أبرهةُ عند ذلك: ليسيرنَّ إلى الكعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له: «محمود»، وكان فيلاً لم ير مثله عِظَمًا وجسمًا وقوة، فبعث به إليه، فخرج أبرهةُ من الحبشة سائرًا إلى مكة، وخرج معه بالفيل، فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقًّا عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن، يقال له: «ذو نفر» بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهةُ وأخذ «ذا نفر»، فقال: أيها الملك لا تقتلني فإنَّ استبقائي خير لك من قتلي، فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة رجلاً حليمًا.

ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خَثْعَم، خرج نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ «نفيلاً»، فقال نفيل: أيها الملك، إني دليل بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه، وخرج معه يدله حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّبٍ في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك، نحن عبيدك، ليس لك عندنا خلاف، وإنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلُّك عليه، فبعثوا معه «أبا رِغَال» مولىً لهم، فخرج حتى إذا كان بالمُغَمَّس مات أبو رِغَال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة من المُغَمَّس رجلاً من الحبشة، يقال له: الأسود بن مسعود، على مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نَعَمِ الناس،

فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير.

ثم إن أبرهة بعث حباطة الحِمْيَرِي إلى أهل مكة، وقال: سلْ عن شريفها ثم أبْلِغْه ما أُرسِلُكَ به إليه، أخبِرْه أني لم آتِ لقتالٍ، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتالٍ إلاَّ أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم.

فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال ولا لنا به يد إلاَّ أن نخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ﷺ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخلِّ بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة.

قال: فانطلِقْ معي إلى الملك، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم المعسكر، وكان «ذو نفر» صديقًا لعبد المطلب فأتاه فقال: ياذا نفر، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشيًّا، ولكن سأبعث إلى «أنيسٍ» سائسِ الفيل، فإنه لي صديق فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى «أنيس» فأتاه فقال له: إن هذا سيد قريش صاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي، أُحِبُّ ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، يستأذن إليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلِّمك، وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له، وكان عبد المطلب رجلاً جسيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على السرير وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردَّ عليَّ مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، وقد زهدت فيك، قال عبد المطلب: لِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها؟ قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، وإن لهذا البيت ربًّا سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، فأمر بإبله فرُدَّت عليه.

فلما رُدَّت الإبل إلى عبد المطلب خرج فأخبر قريشًا الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رءوس الجبال، تخوُّفًا عليهم من معرة الجيش ففعلوا، وأتى عبدُ المطلب الكعبةَ، وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا ربِّ لا أَرْجُو لَهُمْ سِواكَا   يا ربِّ فامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَا

إنَّ عدوَّ البيتِ مَنْ عَادَاكَا امْنَعْهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا قُرَاكَا

وقال أيضًا:

لاَهُمَّ[١] إن العَبْدَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَه فامْنَعْ حِلاَلَكْ[٢]

لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهم غَدْوًا[٣] مِحَالَكْ[٤]

جَرُّوا جُمُوعَ بِلاَدِهِمْ والفِيلَ كي يَسْبُوا عِيَالَكْ

عَمَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلاً وَمَا رَقَبُوا جَلاَلَكْ

إنْ كُنْتَ تارِكَهم وكَعْـ ـبَتَنَا فَأَمْرٌ مَّا بَدَالَكْ

فلم أَسْمَعْ بِأَرْجَسَ مِنْ رِجَالٍ أَرَادُوا الغَزْوَ ينتهكُوا حَرَامَكْ

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح أبرهة بالمُغَمَّس قد تهيأ للدخول وعبَّأ جيشه وهيأ فيله، وكان فيلاً لم يُرَ مثله في العظم والقوة، ويقال: كان معه اثنا عشر فيلاً.

فأقبل «نفيل» إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأُذنه فقال: ابرُكْ «محمود» وارجع راشدًا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل فبعثوه فأبى، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه فنزعوه ليقوم فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم.

وخرج «نفيل» يشتد حتى صعد في الجبل، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، أمثال الحمص والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحدًا إلاَّ هلك، وليس كل القوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه، يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال، فصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل مهلك.

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده فجعل يتساقط أنامله كلما سقطتْ أنملةٌ اتبعتها مِدَّةٌ من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

---

(١) أصلها اللهم، والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفي بما بقي، تقول: لاه أبوك، وهي تريد: لله أبوك.

(٢) جمع حِلَّة، وهي جماعة البيوت، ويريد هنا القول الحلول، والحلال أيضًا: متاع البيوت.

(٣) غَدْوًا: غدًا، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذف لامه، ولم يستعمل تامًّا إلاَّ في الشعر.

(٤) القوة والشدة.

وتاريخ عام الفيل كان في العام الذي وُلِدَ فيه رسول الله ﷺ.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝﴾ «كيدهم» يعني: مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة، وقوله: «في تضليل» عمَّا أرادوا، وأضلَّ كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝﴾ كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضًا، وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة، قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهاهنا.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: صاحت الطير ورمتهم بالحجارة، فبعث الله ريحًا فضربت الحجارة فزادتها شدَّة فما وقع منها حجر على رجل إلاَّ خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾ كزرع وتبن أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرقت أجزاؤه.

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝﴾ عدَّ بعضهم سورة الفيل وهذه السورة واحدة، منهم أُبَيّ بن كعب، لا فصل بينهما في مصحفه، وقالوا: اللام في «لإيلاف» تتعلق بالسورة التي قبلها، وذلك أن الله تعالى ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، وقال: «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝».

وقال الزَّجَّاج: المعنى: جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي: يريد إهلاك أهل الفيل لتبقى قريش، وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. وقال مجاهد: ألفوا ذلك فلا يشق عليهم في الشتاء والصيف.

والعامة على أنهما سورتان.

وقريش هم ولد النضر بن كنانة، وكل من ولده النضر فهو قرشي، ومن لم يلده النضر فليس بقرشي.

عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانةَ قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1].

قوله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بدل من الإيلاف الأول ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي: ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف.

---

(١) أخرجه مسلم برقم٢٢٧٦: (٤/ ١٧٨٢).

كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة، إحداهما في الشتاء إلى اليمن؛ لأنها أدفأ، والأخرى في الصيف إلى الشام.

وكان الحرم واديًا جدبًا لا زرع فيه ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم، وكان لا يتعرض لهم أحد بسوء، كانوا يقولون: قريش سكان حرم الله وولاة بيته، فلولا الرحلتان لم يكن لهم بمكة مقام، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت تَبَالَة وجُرَش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة أهلُ الساحل من البحر على السفن، وأهلُ البر على الإبل والحمير، فألقى أهل الساحل بجدة، وأهل البر بالمحصَّب، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح، فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤنة الرحلتين، وأمرهم بعبادة ربِّ البيت فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ أي: الكعبة. ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: من بعد جوع بحمل الميرة إلى مكة ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ بالحرم، وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم في رحلتهم.

سورة الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عمرو بن عائذ المخزومي، وقيل: في رجل من المنافقين.

ومعنى «يُكذِّب بالدين»، أي: بالجزاء والحساب. ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ يقهره ويدفعه عن حقه، والدعُّ الدفع بالعنف والجفوة. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه؛ لأنه يكذب بالجزاء.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أي: عن مواقيتها غافلون.

عن مصعب بن سعد، عن أبيه أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: «إضاعة الوقت».

قال ابن عباس: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويصلونها في العلانية إذا حضروا، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ وقال في وصف المنافقين: «وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ» [النساء: ١٤٢].

وقال قتادة: ساهٍ عنها لا يبالي صلَّى أم لم يصل. وقيل: لا يرجون لها ثوابًا إن صلَّوا، ولا يخافون عقابًا إن تركوا. وقال مجاهد: غافلون عنها يتهاونون بها. وقال الحسن: هو الذي إن

صلاها صلاَّها رياءً، وإن فاتته لم يندم. وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها وسجودها.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ روي عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: هي الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن وقتاد والضحاك. وقال عبد الله بن مسعود: «الماعون»: الفأس والدلو والقِدْر وأشباه ذلك، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال مجاهد: الماعون: العارية، وقال عكرمة: أعلاها الزكاة المعروفة، وأدناها عارية المتاع.

سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذاتَ يوم بين أَظْهُرِنا إذْ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أُنزلَتْ عليَّ آنفًا سورةٌ»، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم: «إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣»، ثم قال: «أتدرون ما الكوثَرُ»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وَعَدَنِيهِ ربي عزَّ وجلَّ عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أُمتي يومَ القيامة، آنِيَتُهُ عددُ النُّجومِ، فَيُخْتَلَجُ العبدُ منهم، فأقول: ربِّ إنه مني، فيقولُ: ما تدري ما أحدث بعدك»[١].

عن ابن عباس قال: «الكوثر»: الخيرُ الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: إن أُناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة من الخير الذي أعطاهُ الله إياه[٢].

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: دخلتُ الجنةَ فإذا أنا بنهرٍ يجري، بياضُه بياض اللَّبَنِ، وأحلى من العسل، وحافَّتاه خيامُ اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أَذْفَرُ، فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثرُ الذي أعطاكه الله عزَّ وجلَّ»[٣].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافَّتاه الذهبُ، مجراه على الدرِّ والياقوت، تربتُه أطيبُ من المِسْكِ، وأشدُّ بياضًا من الثلج»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم٤٠٠: (١/ ٣٠٠).
(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣١).
(٣) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٦٤).
(٤) أخرجه أبو داود: (٢/ ٣٣٧)، والترمذي: (٩/ ٢٩٤)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٥٠).

وعن عبد الله ابن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهرٍ، ماؤه أبيض من اللَّبَن، وريحه أطيب من المسك، وكِيزانُه كنجوم السماء، من يشرب منها لم يظمأ أبدًا»[١].

وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا عند عُقْرِ حوضي أذودُ الناسَ عنه لأهل اليمن، إني لأضربهم بعصاي حتى يرفضُّوا عنه، وإنه لَيَغُتُّ فيه مِيزَابَانِ من الجنةِ، أحدهما من وَرِق، والآخرُ من ذهب، طوله ما بين بُصرَى وصَنْعَاء، أو ما بين أَيْلَةَ ومكة، أو من مقامي هذا إلى عُمان»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ قال محمد بن كعب: إن أُناسًا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يصلي وينحر لله عزَّ وجلَّ.

وقال عكرمة وعطاء وقتادة: فصلِّ لربِّك صلاة العيد يوم النحر، وانحر النسك. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: فصلِّ الصلوات المفروضة بجَمْع، وانحر البُدْن بمِنًى.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ عدوك ومبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ هو الأقلُّ الأذلُّ المنقَطِعُ دابره.

نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى النبي ﷺ يخرج من باب المسجد، وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم وتحدَّثا، وأُناسٌ من صناديد قريش جلوس في المساجد، فلما دخل العاص قالوا له: مَنِ الذي كنتَ تتحدثُ معه؟ قال: ذلك الأبتر، يعني: النبي ﷺ، وكان قد توفي ابنٌ لرسول الله ﷺ من خديجةَ رضي الله عنها.

وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنه رجل أبتر، لا عَقِبَ له، فإذا هلك انقطع ذِكْرُه، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وقال عكرمة عن ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعةٍ من قريش، وذلك أنه لم قَدِمَ كعبٌ مكة قالت له قريش: نحن أهلُ السِّقَايَةِ والسِّدَانة، وأنت سيِّدُ أهل المدينة، فنحن خيرٌ أم هذا الصنبور المُنْبَتِر من قومه؟ فقال: بل أنتم خيرٌ منه، فنزل: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ۝٥١...» الآية [النساء: ٥١]، ونزل في الذين قالوا إنه أبتر: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣»، أي: المنقطع من كل خير.

سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٦٣)، ومسلم برقم٢٢٩٢: (٤/ ١٧٩٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم٢٣٠١: (٤/ ١٧٩٩).

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة. نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلمَّ فاتبعْ ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كلِّه، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرًا كنَّا قد شركناك فيه وأخذنا حظَّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظِّك منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فقال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾» إلى آخر السورة، فغدًا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رءوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه.

ومعنى الآية: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ في الحال ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في الحال ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ في الاستقبال ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ في الاستقبال.

ووجه التكرار: قال أكثر أهل المعاني: هو أن القرآن نزل بلسان العرب، وعلى مجاز خطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الشرك ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام.

سورة النصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ إذا جاءك نصر الله يا محمد على مَن عاداك وهم قريش ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة. ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ زُمَرًا وأرسالاً، القبيلة بأسرها، والقوم بأجمعهم من غير قتال.

قال الحسن: لما فتح الله عزَّ وجلَّ مكة على رسوله قالت العربُ بعضها لبعض: إذا ظفر محمد بأهل الحرم ـ وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ـ فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجًا بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا، واثنين اثنين.

وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبًا وأرق أفئدة، الإيمان والحكمة يمانية»[١].

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٩٩)، ومسلم برقم٥٢: (١/ ٧١).

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ فإنك حينئذ لاحقٌ به.

عن ابن عباس قال: كان عمر يُدْخِلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تُدْخِل هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال: إنه ممَّن قد علمتم، قال: فدعاهم ذاتَ يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيتُه دعاني يومئذ إلاَّ لِيُرِيَهم مني، فقال: ما تقولون في قوله: «إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١»، حتى ختم السورة؟ فقال بعضُهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقلْ بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، «إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١»: فتح مكة، فذلك علامة أجلك «وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣»، فقال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تعلم[١].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأوَّل القرآن[٢].

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»؟، فقال: «أخْبَرَني ربي أنِّي سأرى علامةً في أُمَّتي، فإذا رأيتَها أكْثرْ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقدْ رأيتُها: «إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ»، فالفتح: فتح مكة، «وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣»[٣].

قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نُعيتْ إليه نفسه[٤].

قال الحسن: أُعلم أنه قد اقترب أجله فأُمرَ بالتسبيح والتوبة، ليختم له بالزيادة في العمل الصالح. وقال قتادة ومقاتل: عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين.

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ عن ابن عباس قال: صَعِد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣٤ - ٧٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣٣)، ومسلم برقم٤٨٤ .

(٣) أخرجه مسلم برقم٤٨٤ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد: (١/ ٢١٧)، وأخرجه النسائي: (٢/ ٥٦٧).

فقال: «يا صباحاه»، قال: فاجتمعتْ إليه قريشٌ، فقالوا له: ما لَكَ؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتُكم أن العدو مصبّحكم أو ممسّيكم أما كنتم تصدِّقوني»؟ قالوا: بلى، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ»، فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا دعوتنا جميعًا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾...» إلى آخرها[1].

قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ أي: خابت وخسرت يدا أبي لهب، أي: هو، أخبر عن يديه، والمراد به نفسه، على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله. وقيل: المراد بها ماله وملكه، يقال: فلان قليل ذات اليد، يعنون به: المال، و«التباب»: الخسار والهلاك.

وأبو لهب: هو ابن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ واسمه عبد العزى، قال مقاتل: كني بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ قال ابن مسعود: لمَّا دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله عزَّ وجلَّ قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإني أفتدي نفسي ومالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ أي: ما يغني، وقيل: أي شيءٍ يغني عنه ماله، أي: ما يدفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، وكان صاحب مواشٍ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قيل: يعني: ولده؛ لأن ولد الإنسان من كسبه كما جاء في الحديث: «أطيبُ ما يأكل أحدُكم من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه»[2].

ثم أوعده بالنار فقال: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ أي: نارًا تلتهب عليه. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أم جميل بنت حرب بن أُمية أُخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل الشوك والعضاة فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتعقرهم.

وقال سعيد بن جبير: حمالة الخطايا، دليله: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ» [الأنعام: ٣١].

﴿فِي جِيدِهَا﴾ في عنقها، وجمعه أجياد ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ واختلفوا فيه، قال ابن عباس وعروة بن الزبير: سلسلة من حديدٍ ذَرْعُها سبعون ذراعًا، تدخل في فيها وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها، وأصله من «المسْد» وهو الفتل، و«المَسَدُ»: ما فُتِل وأحكم من أي شيء كان، يعني: السلسلة التي في عنقها فتلت من الحديد فتلاً محكمًا.

وروى الأعمش عن مجاهد: «من مَسَدٍ»، أي: من حديد، والمسد: الحديدة التي تكون في البَكَرَةِ، يقال لها المحور.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣٧)، ومسلم برقم٢٠٨: (١/ ١٩٣ - ١٩٤).

(٢) حديث صحيح، رُوي من طرق بألفاظ متقاربة، فأخرجه أبو داود: (٥/ ١٨٢)، والترمذي: (٤/ ٥٩٢)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي: (٧/ ٢٤١)، وابن ماجه برقم٢٢٩٠ .

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ عن أُبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُبْ لنا ربَّك، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وعن ابن عباسٍ: أن عامر بن الطفيل وأَرْبَدَ بنَ ربيعةَ أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلامَ تدعونا يا محمد؟ قال: «إلى الله»، قال: صِفْهُ لنا أَمِنْ ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من حديد؟ أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة، فأهلك الله أَرْبَدَ بالصاعقة وعامرَ بن الطفيل بالطاعون.

وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناسٌ من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: صِفْ لنا ربك يا محمد لعلَّنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيءٍ هو؟ وهل يأكل ويشرب؟ ومن يرث منه؟ فأنزل الله هذه السورة.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ أي: واحد، ولا فرق بين الواحد والأحد. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير: «الصمد» الذي لا جوف له. وقال الشعبي: الذي لا يأكل ولا يشرب.

وقيل: تفسيره ما بعده، روى أبو العالية عن أُبي بن كعب قال: «الصمد» الذي لم يلد ولم يولد؛ لأن من يولد سيموت، ومن يرث يورث منه.

قال أبو وائلٍ شقيقُ بن سلمة: هو السيد الذي قد انتهى سُؤْدُده، وعن سعيد بن جبير أيضًا: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وقيل: هو السيد المقصود في الحوائج.

وقال قتادة: «الصمد» الباقي بعد فناء خلقه، وقال عكرمة: «الصمد» الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي، وقال الربيع: الذي لا تعتريه الآفات، قال مقاتل بن حيان: الذي لا عيب فيه.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ ومعناه: المثل، أي: هو أحد.

وقيل: على التقديم والتأخير، مجازه: ولم يكن له أحدًا كفوًا، أي: مثلاً.

قال مقاتل: قال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فأكذبهم الله ونفى عن ذاته الولادة والمثل.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُه إيَّايَ فقولُه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته، وأما شتمُهُ إيَّاي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أُولد ولمن يكن

لي كفوًا أحد»[١].

وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١» ويردّدها، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأنَّ الرجل يتقالُّها، فقال له رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لَتَعْدِل ثُلُثَ القرآن»[٢].

وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدُكم أن يقرأ ثُلثَ القرآن في ليلةٍ»؟ قلت: يا رسول الله، ومن يطيقُ ذلك؟ قال: «اقرؤوا «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١»»[٣].

وعن عبيد بن جبير مولى زيد بن الخطاب أنه قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلتُ مع رسولِ الله فسمع رجلاً يقرأ: «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤»، فقال رسول الله ﷺ: «وجبتْ»، فسألته: ماذا يا رسول الله؟ فقال: «الجنة»، فقال أبو هريرة: فأردتُ أن أذهبَ إلى الرجُلِ فأبشِّره، ثم فرقت أن يفوتني الغداء مع رسول الله ﷺ فآثرت الغداء، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب[٤].

وعن أنس قال: قال رجلٌ لرسول الله ﷺ: إني أُحبُّ هذه السورة «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١»، قال: «حبُّكَ إيَّاها أدخلَكَ الجنَّة»[٥].

سورة الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ قال ابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فذهبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مُشَاطة رأسِ النبي ﷺ وعدَّة أسنانٍ من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولَّى ذلك لَبِيدُ بن الأَعْصَمِ، رجلٌ من يهود،

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٧٣٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٥٨ - ٥٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم٨١١: (١/ ٥٥٦).

(٤) صحيح، أخرجه الإمام مالك: (١/ ٢٠٨)، والترمذي: (٨/ ٢٠٩)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلاَّ من حديث مالك بن أنس، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٥٦٦) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه البخاري تعليقًا: (٢/ ٢٥٥)، ووصله الترمذي: (١٨/ ٢١٢ - ٢١٣)، وقال: (هذا حديث غريب من هذا الوجه).

فنزلت السورتان فيه:

عن عائشة أن النبي ﷺ طُبَّ حتى إنه ليُخَيَّل إليه أنه قد صنع شيئًا وما صنعه، وأنه دعا ربه، ثم قال: أَشَعَرْتِ أن الله تعالى أفْتاني فيما استفتيتُه فيه، فقالت عائشة: وما ذاك يا رسولَ الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رِجْلَيَّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرَّجُل؟ قال الآخر: هو مَطْبُوبٌ، قال: من طَبَّه؟ قال لَبِيدُ بنُ الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاطة وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في ذَرْوَانَ - وذروانُ بئرٌ في بني زُرَيْقٍ - قالت عائشة: فأتاها رسولُ الله ﷺ، ثم رجع إلى عائشة، فقال: والله لكأنَّ ماءها نُقَاعةُ الحِنَّاء، ولكأنَّ نخلَها رؤوسُ الشياطين، قالت: فقلت له: يا رسول الله، هلاَّ أخرجتَه؟ قال: «أما أنا فقد شفاني الله، فكرهت أن أُثير على الناس به شرًّا»[1].

وروي: أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال، فنزلت المعوذتان:

عن أبي سعيد: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيتَ؟ قال: «نعم»، فقال: «بسم الله أرقيك من كل شيءٍ يؤذيك من شرِّ كلِّ نفسٍ أو عينِ حاسدٍ الله يشفيك، بسم الله أرقيك والله يشفيك»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ أراد بالفلق: الصبح. ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شرِّ غاسق إذا وقب، هذا غاسق إذا وقب».

فعلى هذا: المراد به: القمر إذا خسف واسودَّ «وَقَبَ»، أي: دخل في الخسوف وأخذ في الغيبوبة وأظلم.

وقال ابن عباس: «الغاسق»: الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل في كل شيء وأظلم، و«الغسق»: الظلمة، يقال: غسق الليل وأغسق إذا أظلم، وهو قول الحسن ومجاهد، يعني: الليل إذا أقبل ودخل، و«الوقوب»: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس.

قال مقاتل: يعني: ظلمة الليل إذا دخل سوادُه في ضوء النهار، وقيل: سمي الليل غاسقًا؛ لأنه أبرد من النهار، والغَسَق: البَرْد.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني: السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ يعني: اليهود، فإنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ. والآية عامة في كل حاسدٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٣٤)، ومسلم برقم٢١٨٩: (٤/ ١٧١٩ - ١٧٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩/ ٣٠٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم٣٠٥، والإمام أحمد: (٦/ ٦١، ٢١٥).

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ يعني: الشيطان.

قال الزَّجَّاج: يعني: الشيطان ذا الوسواس «الخنَّاس»: الرجاع، وهو الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

وقال قتادة: الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس، ويقال: رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يُمَنِّيهِ ويحدِّثه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكر رجع فوضع رأسه، ذلك:

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ يعني: يدخل في الجنِّي كما يدخل في الإنسي، ويوسوس للجنِّي كما يوسوس للإنسي، قاله الكلبي.

وقوله: «في صدور الناس» أراد بالناس: ما ذكر من بعد، وهي الجِنَّة والناس، فسمَّى الجنَّ ناسًا، كما سمَّاهم رجالاً، فقال: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ» [الجن: ٦].

قال بعضهم: أثبت أن الوسواس للإنسان من الإنسان كالوسوسة للشيطان، فجعل «الوسواس» من فعل الجِنَّة والناس جميعًا، كما قا: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ» [الأنعام: ١١٢]، كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس جميعًا.

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهنَّ قط: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾»»(١).

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذ المتعوذون»؟ قلت: بلى، قال: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾»»(٢).

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفَّيْه فنفث فيهما، فقرأ

---

(١) أخرجه مسلم برقم٨١٤: (١/ ٥٥٨).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤١٧).

فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات(١).

وعنها ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأُ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتهما(٢).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»(٣).

عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أَذِنَ الله لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به»(٤)

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ٦٣)، ومسلم برقم٢١٩٢: (٤/ ١٧٢٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٩/ ٧٣)، ومسلم برقم٨١٥: (١/ ٥٥٩).

(٤) أخرجه البخاري: (٩/ ٦٨)، ومسلم برقم٢٣٤: (١/ ٥٤٦).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصحفة

الموضوع	الصحفة